

تقاسم تصنيفها

إبراهيم الأبياري عبدالصبور مرزوق

المجلد السادس

تصنيف

عبدالصبور مرزوق

١٣٨٨ - ١٩٦٩

أيها القارئ الصديق

سوف تطالع هذا المجلد السادس من الموسوعة فتلاحظ أننا لم نقف بالتفصيل أمام كل آية من آيات كتاب الله الكريم ، وأننا جاوزنا بعض آياته فلم ندونها فى المتن ولم نسجل أرقامها . وهذا حق .

ولقد دفعنا إلى ذلك ضيق الصفحات واعتبارات أخرى لم تكن فى الحسبان .

ومع هذا فقد حرصنا ـ ما وفقنا الله ـ على أن يكون شرح الآية المثبتة فى المتن شاملاً لشرح أخواتها من الآيات اللاتى لم يثبتن ، بحيث يستقيم السياق ويطرد الفهم ، ويمضى التفسير فى أقرب صوره إلى الكمال .

ومهما يكن من شىء فلسنا نرى فى هذا العمل الكبير الذى بين يديك إلا أنه خطوة على الدرب نرجو — بعون الله — أن تتبعها خطوات . والله المسؤول أن يوفقنا ويرعانا إنه سميعٌ قريبٌ مجيبُ الدعوات .

اهداءات ٢٠٠٠
المجلس الأعلى للشئون
الإسلامية - وزارة الأوقاف

الموسوعة القرآنية

تقاسم تصنيفها

إبراهيم الأبياري عبد الصبور مرزوق

المجلد السادس

تصنيف

عبد الصبور مرزوق

١٣٨٨ - ١٩٦٩

الناشر
سجل العرب

مطابع سجل العرب
شارع بستان الدكة - ٩ عمارات العتبة - القاهرة
تليفون - ٩٢٤٣٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا هو المجلد السادس من « الموسوعة القرآنية » نحاول فيه معتمدين على ما نرجو من توفيق الله — أن نقدم تفسيراً لآي الذكر الحكيم يستعين به القارىء الكريم على دَرْكِ مراميه ، واستجلاء أحكامه ، والاقتراب — من خلال فهمه — إلى معرفة أسراره ، وتذوق حلاوته . والإحاطة بمعانيه والإيمان فى النهاية بأنه « لا يأْتيه البَاطِلُ منْ بيْنِ يَديْه ولاَمِنْ خَلْفِه تنْزِيلٌ من حَكيم حَميد » .

والكلام فى تأويل آيات الذكر الحكيم لايكادُ ينتهى . يدخل فيه عالم « اللغة » ليجد فيضاً من التعبيرات ، وفيضاً من التوجيهات ؛ ويدخلَ فيه عالم « القراءات » ليسجل الفوارق بين قراءة وقراءة وليخرج بعد تسجيله بما تدل عليه كل قراءة من معانٍ ، وما يمكن أن تؤثر به فى توجيه المعانى واستقاء الأحكام . ويشارك فيه عالم « الحديث النبوى الشريف » ليعطى لنصوص الآيات من التفاسير والشروح مايعتبر أدقها وأصدقها ، لأن حديث الرسول صلوات الله عليه هو الترجمان الأعظم للقرآن الكريم .

كما يشارك فيه رجل التشريع والقضاء يبحث فى آياته وراء ما تعطيه كل آية من حكم وما يمكن استخلاصه منها للفصل فى الأمور .

وقبل هؤلاء أو بعد هؤلاء يدخل فيه أهل البيان والبلاغة ليجدوا فى روعة بيان القرآن مالايكاد يوصف ، ومالا يملك الذوق الأدبى للبشر إلا أن يقف مبهوراً أمامه ، مأخوذاً بإعجازه ، وكأنهم من أهل التصوف حينما يتصدون للتأويل .

ثم يأتى من بعدُ : أهل العلوم والمعارف فيجدون فى متابعة لمحاته وإشاراته وتصريحاته ما يفتح أمام العقل آفاقا من البحث لاتكاد تنتهى وأبوابا من الدراسات أشار القرآن إليها منذ مئات السنين فإذا خطوات العلم والتجارب تصل إليها لتقول إنها الحقيقة .

وحتى رجال السياسة والحكم ، ثم القابضون بأيديهم عَلى النّار والسّلاح فى ميدان القتال وكذا الطّامعون فى الدّنيا ، والمَازِفُون عنها ، والمعنيون بعظائم الأمور ، والمشغُولون بِسفَاسِفها .. كلٌ أولئك وهؤلاء يجدون فى كتاب الله طلبتهم ويهديهم تأويله إلى كل ماهو حق وخيرٌ وينهاهم عن كل ماهو باطل وكل ماهو شر .

ولقد نظرت فى نفسى — وأنا بين يدىْ هذا الكتاب الكريم — فإذا هى أمام آفاقه الرّحاب وكأنها لاشىء . . وإذا هى أمام أسراره وأنواره أخْوَفُ حتى من أن تحاول الخطو على ذات الطريق

ولم يكن أمامى غير رب القرآن وربّى أضرعُ إليه وأستعينهُ ، وأسأله أن يُسدِّدَ من خَطْوى على الطريق مايضطرب ، وأن يهدى من فكرى عند البحث ما قد يَضِلُّ ، وأن ينير من بصيرتى ما قد تَغْشَاهَ الظلمة فلا يكاد يبصر .

وشرعت فى العمل واعتمادى على مولاى ملء قلبى وعقلى ، وبين عينى منهج مستقيم . . أن أنثر المعانى نثراً بين يدى القارىء ، وأن أجلو الآيات بجلاءين ليس بعدهما ثالث : هما : كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه .

ولقد أضع القلم من هذه الكلمة وملء نفسى الخوف من ربّ القرآن وربّى أن أكون قد تأولْتَ فتجاوزت ؛ أو ظننت فأخطأت ، أو ذهبت فإذا أنا فى غير مذهب .

فإليه سبحانه وحده أتوسل وأتجه أن يكتب لهذا العمل من توفيقه ما يرضيه ، ومايتفق وجلال كتابه . إنه حسبى . ونعم المولى ونعم النصير .

عبد الصبور مرزوق

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

(أَعُوذُ بِاللهِ)

أستعيذ به ، وألتجىء إليه وحده ، وأستجير بحوله وعزته أن يصرف الشيطان عنى ، وأن يجنبنى مكروهه ، حتى لايوسوس لى بما يضرنى فى دينى أو دنياى ، وحتى لايصدنى عن الامتثال لما أمر الله .

تقول العرب « عُذْتُ بفلانٍ » واستعذْت به : أى لجأت إليه واستجرتُ به ، وهو عِيَاذِى أى مَلجئى ، وحمَاىَ .

وبهذه المعانى وردت فى كتاب الله . فقال سبحانه يصف التجاء موسى إلى ربه ، واحتماءه بجاه أمام طغيان فرعون وقومه :

« وقَالَ موسَى إنِّى عذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ منْ كلِّ متكَبِّرٍ لايؤمنُ بِيَوم الحِسَاب » .

« وقال إنى عذْتُ بِربِّى وربِّكم أن تَرْجُمُون » .

وقال سبحانه على لسان مريم ابنة عمران حين استجارت بالرحمن أن يحميها ويجيرها مما توهمت من شر : « قالت إنىِّ أعوذُ بالرَّحمن منكَ إنْ كنْتَ تقيًّا » .

وهو نفس المعنى الذى أورده القرآن على لسان امرأة عمران: « إذْ قالَتْ امْرَأَةُ عِمرانَ ربِّ إنىِّ نذرْتَ لكَ مافى بطنى محرَّراً فتقبل منِّى إنكَ أنتَ السَّميعُ العَليم * فلمَّا وضَعتْها قالت ربِّ إنِّى وضعتُها أُنثَى والله أعلَمُ بما وضَعَتْ وليس الذَّكر كالأنثى وإنِّى سمَّيتُها مريَمَ وإنِّى أعيذها بكَ وذريَّتَها من الشيطَان الرَّجيم » .

وإذا خلصت نية المستعيذ بالله وآوى بكليته إلى ركن جبروت ربه وعزته كانت الاستعاذة أماناً لصاحبها من المكروه ، وحمىً من كل شر .

ولقد أمرنا الله سبحانه أن نستعيذ به « من شرِّ ماخلق * ومن شرِّ غَاسِقٍ إذا وَقَب * ومن شرِّ النفَّاثاتِ فى العُقد * ومن شرِّ حاسدٍ إذَا حسد » .

وأمرنا سبحانه أن نستعيذ به « من شرِّ الوَسْوَاسِ الخنَّاس * الّذِى يوسْوِسُ فى صدُورِ النَّاسِ * من الجِنَّةِ والنَّاس » .

كما أمرنا سبحانه أن نستعيذ به من كلِّ ماينْزَغُ الشيطان — رمز الشر وعنوانه — فقال: « وإمَّا

ينْزَغَنَّكَ من الشَّيطانِ نَزْغٌ فَاستعِذْ بِاللهِ إنّه سميعٌ عليمٌ » وقال « وإمَّا ينزغنَّك من الشيطان نزغٌ فَاستعِذ باللهِ إنّه هو السَّميعُ العَليم » .

ومن هنا كان الأمر بالاستعاذة عند قراءة القرآن حماية لقارئه مما يوسوس الشيطان ، ونفياً لسلطان الشيطان عليه ساعة التلاوة كما يقول سبحانه :

« فإذا قرأت القرآن فاستعِذْ باللهِ منَ الشَّيطان الرّجيم * إنّه ليسَ لَهُ سلْطانٌ عَلَى الَّذِين آمنوا وعَلَى ربّهم يتوكَّلُون * إنّما سلْطانه عَلَى الَّذِين يتولَّونَهُ والّذين هم بِهِ مشركون »

وفى بعض فضل الاستعاذة أخرج البخارى وروى مسلم عن سليمان بن صُرَد أنه قال :

استَبَّ رجلان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل أحدهما يغضب ، ويحمّر وجهه ، وتنتفخ أوداجه فنظر إليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال « إنى لأعلم كلمة لو قالها لذَهب ذَا عنه : أعوذ بالله من الشّيطان الرجيم » .

وروى مسلم عن عثمان بن أبى العاص الثقفى أنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

يارسول الله إن الشيطان قد حال بينى وبين قراءتى يُلَبِّسها علىّ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ذاكَ شيطان يقال له « خِنْزِب » فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفُل عن يسارك ثلاثاً » .

قال : ففعلت فأذهبه الله عنى .

وروى أبوداود عن ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل عليه الليل قال : «ياأرض ، ربِّى وربك الله ، أعوذ بالله من شرك . ومن شر ماخلق فيك ، ومن شر مايدبّ عليك ، ومن أسدٍ وأسْود ، ومن الحية والعقرب ، ومن ساكنى البلد ، ووالد وما ولد » .

ومثل هذا كثير .

« منَ الشَّيطَانِ » :

من كلّ متمرّد على الحق خارج عن طاعة ربه ، مبعَدٍ من رحمته ورضوانه من الجن كان أو من الإنس أو من غيرهما .

فأما شيطان الجن فقد تحدث القرآن عنه وحذّر من الانقياد له فى أكثر من ثمانين آية من القرآن . وأما وصف بعض بنى الإنسان بأنه شيطان فقد جاء فى الآية الكريمة :

« وكذَلِكَ جعلْنا لِكلِّ نبيٍّ عدوًّا شَياطِين الإنسِ والجنِّ يُوحى بعضُهم إلى بَعْضٍ زُخْرُف القَولِ غُروراً ولو شَاء رَبكَ مافَعَلوه فذَرْهُم ومَا يفتَرون »

فالله سبحانه — كما يقول ابن جرير الطبرى — قد جعل من الإنس شياطين مثل ماجعل من الجنّ وهم الذين يتبعون الشيطان ويتولّونه ، « أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » .

وهذا المعنى هو ما استعملته العرب واصفين انقياد المرء لهواه واستسلامه ـ وخاصة على عهد الشباب ـ لنوازعه ، واصفين مَن يكون هذا حاله بأنه شيطان على نحو ماروى « القرطبى » من قول الشاعر جرير :

أيّام يدعوننى الشّيطانَ من غزَلِي وهنَّ يَهْوَيْنَنِى إذ كنت شيطانا

« الرّجيم » :

الملعون ، المُهَان ، المطرود من رحمة الله والمُبْعَدُ من الخير ، وربّما وصف الشيطان بالرجيم أخذاً من قوله سبحانه للشيطان الأكبر « إبليس » حين أبعده عن سماواته وطرده من جنته :

« قالَ فاخْرُجْ مِنْهَا فإنكَ رجِيمٌ * وإنَّ عليكَ لعْنَتى إلىَ يوْم الدِّين * » .

صيغة الاستعاذة :

والذى عليه الجمهور من العلماء أن صيغتها أن يقول المستعيذ : « أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم » . وذلك أخذاً من قوله سبحانه « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » .

ويؤكده مارواه ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال :

قلت « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم » :

« يا ابن أمّ عَبْد ، أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم ، هكذا أقرأنى جبريل عن اللّوح عن القلم » .

وثمة صيغ كثيرة أخرى يبدأ بعضها بتسبيح الله وحده . ويبدأ بعضها بالتكبير ، وبعضها بالشهادة ، وبعضها فيه إضافات وصفات لاسم الله سبحانه ، ولكنها جميعاً كما قال ابن عطية : مما لا يقال فيه نعمت البدعةُ ، ولا يقال فيه إنه مما لايجوز » .

«بسم الله الرحمن الرحيم»

روى الشعبى والأعمش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكتب « باسمك اللهم » حتى أمر أن يكتب « بسم الله » فكتبها ؛ فلما نزل قوله تعالى : قُلْ أدعوا الله أو ادعوا الرّحمن » كتب « بسم الله

الرّحمن » ؛ فلما نزل قوله تعالى : « إنه من سُليمان وإنه بسم الله الرحمن الرّحيم » كتبها .

وفى رواية أخرى ، أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » حتى نزلت سورة « النمل » .

وقد افتتح الصحابة بها كتاب الله سبحانه ؛ واتفق العُلماء على أنها بعض آية من سورة « النمل » ولكن ثمّة خلافا من حولها :

أهى آية مستقلة فى أول كل سورة ؟ أو هى بعض آية من كل سورة ؟ أو هى كذلك فى « الفاتحة » دون غيرها ؟ أو هل كتبت للفصل بين السورة وليست بآية ؟

فقرّاء المدينة ، والبصرة ، والشام وفقهاؤها على أنها ليست بآية من « الفاتحة » ولا من غيرها من السور ، وإنما كتبت للفصل بين السُّور ، وللتبرك بها عند الابتداء كما يُتبركُ بها فى ابتداء كل أمرٍ ذى بال . وهذا هو المشهور من مذهب أبى حنيفة ، وهو أيضاً قول مالك رضى الله عنهما .

وقراء مكة والكوفة وفقهاؤهما على أنها آية من الفاتحة ومن كل سور القرآن ، وهذا رأى سعيد ابن جبير والزّهرى ، وعطاء ، وابن المبارك وعليه الشافعى فى بعض مذهبه .

وممّن حُكى هذا الرأى عنه ابن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وأبو هريرة وعلىّ رضوان الله عليهم . وحُكى مثله عن الإمام أحمد بن حنبل .

وأصحاب هذا الرأى يستندون إلى مارواه مسلم عن أنس رضى الله عنه قال :

بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال :

نزلت علىّ آنفاً سورةٌ ، فقرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم : إنا أعطيناك الكوثر * فصلِّ لربك وانحرْ * إن شانئكَ هو الأبتر » .

ويرجّح أبو عبد الله القرطبى أنها ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها إلا فى « النمل » وحدها ، وينقل عن ابن العربى قوله : « ويكفيك دليلا على أنها ليست من القرآن اختلاف الناس فيها ، والقرآن لا يختلف فيه الناس » .

ثم ينقل القرطبى ما رواه مسلم عن أبى هريرة قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله عز وجلّ قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل .

فإذا قال العبد «الحمد لله رب العالمين » . قال الله تعالى : حمدنى عبدى . وإذا قال العبد « الرّحمن الرّحيم » قال الله : أثنى علىّ عبدى ؛ وإذا قال العبد « مالك يوم الدّين » قال : مجّدنى عبدى ، أو قال : فوّض إلىّ عبدى : وإذا قال العبد « إيّاك نعبدُ وإياك نستعينُ » قال : هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل . فإذا قال « اهـدنا الصّراط المستقيم ، صراط الذين أنعمتَ عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضّالين » قال : هؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل .

ويعقب القرطبى على مارواه مسلم بقوله :

فثبت بهذه القسمة التى قسمها الله تعالى : وبقوله عليه السلام لأبىّ « كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة ؟» قال : فقرأت :« الحمدُ لله ربِّ العالمين » حتى أتيت على آخرها، أن البسملةَ ليست بآية منها .

وتبع هذا الخلاف فى كونها آية من سور القرآن أم لا ؟ خلاف آخر فى : هل تقرأ مع الفاتحة فى الصلاة أم لا ؟ وإذا قرئت فهل يجهر بها القارىء أم يُسِرُّ ؟ وإن كان الإسرار بها مخرجاً من الخلاف ، ويؤكده ماروى من الآثار عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال :

صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يُسمعنا قراءة « بسم الله الرحمن الرحيم» وماروى عنه كذلك: « صليت خلف النبى صلى الله عليه وسلم ، وخلف أبى بكر وعمر فلم أسمع أحداً منهم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم » .

ثم ما روى كذلك عن سعيـد بن جبير قال :

كان المشركون يحضرون المسجد ، فإذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم » قالوا : هذا محمد يذكر رحمان اليمامة — يعنون مسيلمة الكذاب — فأُمِرَ أن يُخَافِتَ ببسم الله الرحمن الرحيم ونزل قوله سبحانه : « وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بها » .

ثم بما روى كذلك عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتتح الصلاة بالتكبير والحمد لله رب العالمين .

وبعيداً عن هذا الخلاف نجد الإجماع على فضل « بسم الله الرحمن الرحيم » وعلى أن ذكرها فى صدر

كل أمرٍ ذى بالٍ يُتمُّه ويكمله ويبارك فيه ، ويصرف الشر والشيطان عنه ، وبهذا وردت الآثار : فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه أن عثمان بن عفان رضى الله عنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن : « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال الرسول :

« هو اسم من أسماء الله ، وَما بينه وبين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العين وبياضها من القُرب » .

ورُوى عن جابر بن عبد الله قال :

لما نزلت « بسم الله الرحمن الرحيم » هرب الغيم إلى المشرق ، وسكنت الرياح ، وهاج البحر ، وأصغت البهائم بآذانها ، ورجمت الشياطين من السماء ، وحلف الله تعالى بعزته وجلاله أن لا يُسَمّى اسْمُه على شىء إلا بارك فيه .

ورُوى عن أبى بُرَيْدَةَ عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« أُنزِلتْ علىّ آية لم تنزل عَلَى نبيٍّ غير سليمانَ بن داود وغيرى وهى : بسم الله الرحمن الرحيم » .

ورُوى عن ابن مسعود قال :

من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم » فيجعل الله له من كل حرف منها جُنّةً من كل واحد .

وروى الإمام أحمد فى مسنده — والنسائى كذلك — عن محمد بن جعفر عن شعبة عن عاصم قال : سمعت أبا تميمة يحدث عن رَدِيف النبى صلى الله عليه وسلم قال :

عثر بالنبى صلى الله عليه وسلم فقلت : تَعِسَ الشيطان . فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

« لا تقل تَعِسَ الشيطان فإنك إذا قلت تَعِس الشيطانُ تعاظَمَ وقال : بقوتى صرعتُه ، وإذا قلت بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب » .

وهذه الآثار الواردة فى فضل البسملة جعلت العلماء يستحبون البدء بها فى كل أمر حتى يبارك ويكتمل ، حتى عند الطعام والشراب وعند إتيان الرجل أهله ، لما روى فى الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا ؛ فإنه إن يُقدَّرَ بينهما وَلَدٌ لم يضرّه الشيطانُ أبداً » .

وذكرها عند بدء الطعام يزيد بركته لقول الرسول : « إن الشيطان ليستحلُّ الطعامَ إلا أن يذكر اسمُ الله عليه » بل إن ذكرها عند المرض عون على الشفاء ، لما روى من أن عثمان بن أبى العاص شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعاً كان يجده فقال له الرسول :

« ضعْ يدك على الذى يَأْلَم من جسدك وقل بسم الله ثلاثاً ، وقل سبع مرات : أعوذُ بعزّة الله وقدرته من شر ما أجِدُ وأحاذر » .

وكما سبق فإن البدء بذكر الله فى كل شىء هو ما ينبغى أن يكون من خُلُق المسلم من سلوكه العادى الذى لا يدعه فى كل عمل هانَ أو عَظمَ لأنه دليل على أن المسلم لا يغفل عن دعاء ربه فى كل لحظة ، ولأنه إقرار على ودائم من العبد بإيمانه بخالقه وانقياده وتسليمه له .

ولقد أجمل الرسول صلوات الله عليه توجيه المسلم إلى ذكر اسم الله فى كل وقت وكل عمل فى قوله :

« أغْلِق بابك واذكر اسم الله ، وأطفِىء مصباحك واذكر اسم الله ، وخمِّر إناءك واذكر اسم الله ، وأوْكِ سِقاءك واذكر اسم الله . . » ثم فى قوله : « لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله » . وقوله لربيبه عمر بن أبى سلمة : « قل بسم الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك » .

وذكر الله فى كل حين وعند كل عمل هو سبيل إلى التوفيق واطمئنان النفس « ألاَ بذكر الله تطمئنُ القُلُوب » .

« الله »

الاسم الأعظم للمولى سبحانه ، والذى لم يسمَّ ولا يسمَّى به غيره تبارك وتعالى . أو كما قال « الطبرى » « هو الذى يألهه كل شىء ويعبده خلق » . وذلك أخذاً مما رُوى عن ابن عباس أنه قال : « الله ذو الألُوهيّة والمعبُوديّة على خلقه أجمعين » .

أو هو « إِلَه الآلهة »

وذلك أخذاً مما رُوى عن أبى سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن عيسَى أسلَمَتْهُ أمه إلى الكُتّاب ليعلّمه فقال له المعلِّم : اكتُب . الله ، فقال له عيسَى : أتدرى ما الله ؟ اللهُ إِلَه الآلِهَة » .

« الرحمنُ الرحيمُ » :

قيل فى تفسيره : إنهما اسمان مشتقّان من الرحمة على وجه المبالغة فيها ، والرحمن أشد فى المبالغة بالرحمة من الرحيم .

وقيل : الرَّحمنُ بجميع الخلق ؛ والرحيم : أى بالمؤمنين ، ومن ذلك ما قاله أبو علىّ الفارسى : الرحمن اسم عام فى جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى ، والرحيم إنما هو من جهة المؤمنين ، كما قال سبحانه : « وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً » .

وقد جاءت لفظة « الرحمن » كالمرادف للاسم الأعظم « الله » فى بعض آيات القرآن فى مثل قوله تعالى : « قُلْ ادْعُوا اللهَ أو ادْعُوا الرَّحْمَنَ أيًّا ما تدعو فله الأسْمَاء الحُسْنى » ولما كان الاسمُ الأعظم « الله » لا يطلق على غيره سبحانه ، فكذلك صفة « الرحمن » لم تأت فى القرآن وصفاً لغيره سبحانه .

أما « الرَّحيم » فقد جاءت فى القرآن وصفاً لغير الله كقوله سبحانه : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عليه ما عنِتُّم حرِيصٌ عليكم بالمؤمنينَ رءوفٌ رحيمٌ » .

وقيـــل :

الرَّحمن : رحمنُ الآخرة والدُّنيا ، والرَّحيم : رحيمُ الآخرة ، وذلك أخذاً مما رواه أبو سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« إن عيسَى بن مريمَ قالَ : الرَّحْمَنُ : رحمنُ الآخرة والدُّنيا ، والرَّحيم : رحيمُ الآخرة » .

ورُوى عن ابن عباس قال :

الرَّحمنُ الرَّحيمُ : الرَّقيقُ الرَّفيقُ لمنْ أحبَّ أن يرْحمَه ، والبعيدُ الشَّديدُ عَلَى منْ أحبَّ أن يعنُف عليه ، وكذلك أسماؤه كلها .

وأيًّا كانت الخلافات والآراء فى وصفه سبحانه بالرَّحمن الرحيم تكريم لمعنى الرحمة ودعوة متصلة إلى تمكينها بين الناس فى الأرض ولاسيا بين ذوى القربى وذوى الرحم ومن هذا المعنى يروى الترمذى عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« قال الله تعالى : أنا الرحمنُ خلقت الرحم ، وشققت لها اسماً من اسمى فمن وصلها وصلتــــه ، ومن قطعها قطعته » .

تفسير (الفاتحة)

القول فى تفسير « الفاتحة »

(٢) « الحمدُ للهِ ربِّ العالَمين »

« الحمد لله » الشكر الخالص له سبحانه على ما أنعم به ، وما هدانا إليه ، وحمدُ العبدِ لربه توحيد ضمنىٌّ وعبادة له سبحانه فكأنه ذِكْرٌ وشكر . وما حمد العبد ربَّه إلا زاده من خيره ، وأسبغ من نعمه عليه .

وفى فضل « حمْد الله » يروى أنسٌ رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو أن الدنيا بِحذَافِيرهَا فى يدِ رجُلٍ من أمَّتى ثم قال : الحمدُ لله ، لكان الحمدُ أفضل من ذلك » .

لأن إلهامَ الله سبحانه لعبده أن يحمده ، وتوجيهه إلى طريق شكره أعظم فائدةً وأكثر نعمةً على العبد مما ظفر به من الدنيا . لأن منافع الدنيا مهما عظمت فهى إلى فناء ، أما ثواب الحمد فلا فناء له .

ويروى جابر بن عبد الله عن الرسول (ص) قوله : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء : الحمدُ لله » . وهذا يعنى أن الله سبحانه يُحبُّ من عباده أن يحمدوه .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن عمر رضى الله عنه قال لِعَلِيٍّ وأصحابُه عنده :

« قد علمنا سبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر فما الحمد لله ؟ فقال علىٌّ رضى الله عنه : هى كلمةٌ أحبَّها الله تعالى لنفسه ، ورضيها لنفسه ، وأحَبَّ أن تُقال » .

ويروى الطبرىُّ عن الأسود بن سريع أن النبىَّ صلى الله عليه وسلم قال : « ليس شىء أحبَّ إليه الحمدُ من الله تعالى ، ولذلك أثنى على نفسه فقال : الحمدُ لله » .

* * *

وفى ثواب الحمد وعِظَمِ منزلة الحامدين عند الله يروى ابن ماجة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ما أنعم الله على عبدٍ نعمة فقال : الحمدُ لله إلاَّ كان الذى أعْطَى أفضل مما أخَذ » .

ويروى ابن ماجة — أيضاً — عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم أن عبداً من عباد الله قال :

يا ربِّ لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعِظَمِ سلطانك ، فَعَضَلَتْ بالملَكَيْن فلم يدريا كيف يكتبانها

فصعدا إلى الله فقالا : يا ربنا إن عبداً قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ، قال الله — وهو أعلم بما قال عبده — ماذا قال عبدى ؟ قالا يا ربّ إنه قال : لك الحمد يا رب كما ينبغى لجلال وجهك وعِظم سلطانك ، فقال الله لهما : اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها » .

«ربّ العالمين »:

ما لك الأمر كله ، والمتصرف فيه ، ولفظة « الرب » وحدها دون إضافة لا تطلق إلا على الله سبحانه حتى قيل إن « الرّبّ » هو الاسم الأعظم مثل « الله » .

وربّ العالمين : ربّ الإنس والجن ، وربّ السموات والأرض ومن فيهن ، وما فيهن ، وما بينهن مما نعلم ولا نعلم وذلك أخذاً من قوله سبحانه :

« قال فرعون وما ربُّ العالمين * قالَ ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما إن كنتم مُوقنين » .

(٣) «الرّحمن الرّحيم»

قد مضى الحديث عنه عند تفسير البسملة ، وللقرطبى فى ذكر الرحمن الرحيم بعد«ربّ العالمين» توجيه طيب يقول فيه :

إنما وصف الله سبحانه — نفسه بالرحمن الرحيم بعد قوله ربّ العالمين ليكون من باب قَرْنِ الترغيب بالترهيب كما فى قوله سبحانه : « نَبِّىءْ عبادى أنّى أنا الغفورُ الرحيمُ وأن عذابى هو العذابُ الأليمُ » : وقوله : « إن ربّك لسريع العقاب وإنه لغفورٌ رحيم » .

(٤) «مَالِكِ يومِ الدِّين»

مَالِكُه والمتفرد بالأمر فيه ، وفى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه ثم يقول :أنا الملك .أين ملوكُ الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » .

ويوم الدين : هو يوم الحساب والجزاء . « يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا » . يوم تَعْنُو الوجوه للحى القيوم ؛ يوم تخشع الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ، « يوم تكون السّماء كالمُهْل وتكونُ الجبالُ كالعِهْن ولا يسألُ حميمٌ حميماً » .

يوم يقول الله سبحانه : « لِمَن المُلكُ اليومَ ؟ » فلا يجيبه أحد فيقول سبحانه : «لله الواحد القهّار ».

وتخصيص ملك الله سبحانه بيوم الدين لا ينفى — كما قال ابن كثير — مُلكَه عمّا عداه ؛ إذ تقدم الإخبار بأنه ربّ العالمين وذلك عامٌّ فى الدنيا وفى الآخرة .

(٥) « إِيَّاكَ نعبدُ وَإِيَّاكَ نَستَعين »:

إياك نعبد : لك يا ربنا نخشع ، ونخضع ، ونَذِلّ .

وإياك نستعين: نتجرد بين يديك من حولنا وقوتنا ونفوض أمرنا إليك ونسلمه كله لك ، فلا عون لنا سواك .

وقد سبقت الإشارة إلى حديث أبى هريرة رضى الله عنه الذى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل... »

ففى الحديث : إذا قال العبد « إياك نعبد وإياك نستعين » قال الله : « هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل »

(٦) « اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيم » :

ألهمْنا طريق الصواب ووفقنا للثبات عليه ، وقد كثرت آراء المفسرين حول المراد بالصراط المستقيم .

فرُوى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الصراط المستقيم كتابُ الله » . وقيل : هو الإسلام .

وفى هذا روى الإمام أحمد فى مسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ضربَ الله مثلا صراطاً مستقيما ، وعلى جنبتى الصّراط سوران فيهما أبوابٌ مفتّحةٌ ، وعلى الأبواب ستورٌ مُرخاةٌ ، وعلى باب الصّراط داعٍ يقول: يأيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجُوا ، وداعٍ يدعُو من فوق الصّراط ، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تَلِجْه ، فالصراط الإسلام . والسُّوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم » .

(٧) « صِرَاطَ الذينَ أنعمتَ عليهِم غيرِ المَغضُوبِ عليهِم ولاَ الضَّالِّين »

هى نفسها تفسير للصراط المستقيم ، وصراط الذين أنعمت عليهم عطف بيان من الصراط المستقيم أو بدلٌ منه كما يقول النحاة .

والذين أنعم الله عليهم هم الذين هُدُوا إلى طاعة الله من الملائكة الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ، الذين عناهم الله بالذكر وحُسن المثوبة فى قوله سبحانه :

« . . . ولو أنهم فعلوا ما يُوعظون به لـكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً * وإذاً لآتيناهم من لدنّا أجراً عظيماً * ولهدَيناهم صراطاً مستقيماً * ومن يطع الله والرسولَ فأولئك مع الذين أنعمَ الله عليهم مِنَ النبيّين والصديقين والشُّهداء والصّالحين وحَسُنَ أولئكَ رفيقاً * ذلكَ الفضلُ من الله وكفى بالله عليماً . »

غير المغضوب عليهم: الذين نسأل الله ألاّ يجعلنا منهم، هم اليهود الذين سجّل عليهم القرآن غضب الله في مثل قوله:«قلْ هل أنبئكُمْ بشرّ من ذلك مثوبةً عندَ الله من لعنهُ الله وغضبَ عليه ، وجعل منهم القردَة والخنازيرَ وعَبَدَ الطّاغوتِ أولئك شرٌّ مكاناً وأضلُّ عن سواء السّبيل » .

يؤيد ذلك ما روى عديُّ بن حاتم ـ وكثيرون غيره ـ قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله عزّ وجل «غير المغضُوبِ عليهم » قال ، هم اليهود .

وقيل : المغضوب عليهم : هُم المشركون ، وقيل هم المتبعون للبدع .

والضّالون : قيل : هم النصارى لقوله تعالى في أمرهم : « قد ضلّوا من قبل وأضلُّوا كثيراً وضلُّوا عن سواء السبيل » ثم لما رُوى عن أبي ذر رضى الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المغضوب عليهم قال : اليهود ، قلت : الضالين؟ قال : النصارى .

وقيل إن الضالين : هم كل من حادوا عن الحق ، وماوا عن النهج القويم ـ وضلوا عن سنن الهدى .

« آمين» :

عن وائل بن حجر قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قرأ « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » فقال — يعني رسول الله — آمين ومدّ بها صوته . ومثله عن أبي هريرة وعن بلال .

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إذا أمّن الإمام فأمّنوا . فإنه من وافق تأمينُه تأمين الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه » .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله ما معنى « آمين » قال : « ربّ افعل » . وقيل معناه : لا تخيب رجاءنا ، وقيل ، وهم الأكثرون : اللهم استجب لنا .

تفسير (سورة البقرة)

روى عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لكل شيء سناماً ، وإن سنام القرآن سورة البقرة ، ومن قرأها فى بيته ليلا لم يدخل الشيطان بيته ثلاث ليال ، ومن قرأها نهاراً لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام » .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، فإن الشيطان يفر من البيت الذى تُقرأ فيه سورة البقرة » .

(١) الٓمٓ

كثر اختلاف المفسرين حول هذه الحروف المقطعة التى تبدأ بها السور :

فقيل : هى أسماء السور ذاتها .

وقيل : هى مجرد فواتح تفتتح بها السور .

وقيل : هى من أسماء الله سبحانه .

وقيل : إنها مما استأثر الله سبحانه بعلمه ، ومما ينبغى ترك التفكير فى تفسيره إلى الله .

وأرجح الأقوال — فى رأيى — ما ذهب إليه الرازى فى تفسيره عن المبرد ، وما حكاه القرطبى عن الفراء ، وما قرره الزمخشرى فى الكشاف ، ثم ما ذهب إليه الإمام ابن تيمية من أن هذه الحروف إنما ذكرت فى أوائل السور التى ذكرت بها لبيان إعجاز القرآن ، وإثبات أن الخلق عاجزون عن معارضته والإتيان بمثله مع أنه مكون من هذه الحروف التى يتخاطبون بها .

(٢) ذلك الكتابُ لاَ ريبَ فِيه هُدًى للمتَّقين :

الكتاب : هو القرآن ، وبعيد ما ذهب إليه الذاهبون من أن المراد التوراة أو الإنجيل ؛ يؤيد هذا قوله سبحانه عن « القرآن » فى سورة السجدة « الٓمٓ : تنزيل الكتاب لا ريب فيه من ربِّ العالمين » وقوله سبحانه فى « يونس » « . . . ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه » .

«لا رَيبَ فيه » :

لا شك فى أنه من عند الله ؛ ولا شك فى كل ما جاء به ؛ وما أخبر عنه . ولا شك فى تنزيله من الله سبحانه على الرسول صلوات الله عليه .

«هدًى للمتّقين» :

نورٌ وضياء لهم ، ودليل يهتدون به للعمل بما أراد الله ، وقوله سبحانه « هدى للمتقين » يعنى اختصاص المتقين بالاهتداء به ، أما الذين لا يؤمنون فـ « فى آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمًى أولئك ينادَون من مكانٍ بعيد» . وكما قال سبحانه :

« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » . و « المتقونَ » الذين عناهم الله سبحانه هنا : هم أولئك الذين يرجون رحمة الله ويخافون عذابه ، وهم الذين يفردون ربهم بالتوحيد والعبادة . والذين أجمل الله سبحانه صفتهم فى قوله من بعد : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدًى من ربّهم وأولئك هم المفلحون * » .

(٣) اَلّذينَ يؤمنُون بالْغَيب ويقيمونَ الصلاةَ ومما رزقناهُم ينفقُون :

يؤمنون بالغيب : أى يصدّقون ويعتقدون فيما لا يشهدون ولا يرَوْن ، كالإيمان بالله سبحانه وبملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، والبعث والحساب والجنة والنار وما إلى ذلك مما يصدقون به وإن لم يشهدوه .

رَوى عبد الرحمن بن يزيد قال :

كنا جلوساً عند عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فذكرنا أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وما سبقونا به فقال عبد الله :

« إن أمْرَ محمد صلى الله عليه وسلم كان بيّناً لمن رآه ، والذى لا إله غيره ما آمن أحدٌ قط إيماناً أفضل من إيمانٍ بغيب . ثم قرأ : « الٓمٓ ذلكَ الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب . . إلى قوله : المفلحون » .

ومثله فى المعنى نفسه ما رُوى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أىّ الخلق أعجب إليكم إيمانا ؟

قالوا : الملائكة .

قال : وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربّهم ؟

قالوا : فالنبيون ؟

قال : « ومالهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم ؟ »

قالوا : فنحن ؟

قال : وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم . . ؟

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا إن أعجب الخلق إلىّ إيماناً لقومٌ يكونون من بعدكم يجدون صحفاً فيها كتابٌ ، يؤمنون بما فيها » .

« ويُقيمونَ الصَّلاة » :

يحافظون على أدائها فى مواعيدها ، ويتمّونها فى خشوع لله وتجرّد عن شواغل الدنيا وهم فى حضرته وبين يديه سبحانه .

« ومما رزَقناهُم ينفقُون » :

لا يحبسون مالهم ولا يكنزونه ، وإنما يصرفونه فى الوجوه التى أمر بها الله سبحانه. ويرى بعض العلماء أن المراد هنا زكاة المال ، أو الصدقة ، أو ما ينفقُ المرء على نفسه وعياله . والأقرب والأولى أن يكون المراد عموم الإنفاق فى حيث أمر الله .

يقول الطبرى « وأولى التأويلات بالآية ، وأحقها بصفة القوم أن يكونوا لجميع اللازم فى أموالهم مؤدين ، زكاةً كان ذلك ، أو نفقة من لزمتهم نفقته من أهل أو عيال أو غيرهم ممن تجب عليهم نفقته ، لأن الله جل ثناؤه عمّ وصفهم ، إذ وصفهم بالإنفاق مما رزقهم . ولم يخصص ذلك بنوع من النفقات المحمود عليها صاحبها دون نوع ».

(٤) « وَالّذينَ يؤمنُونَ بما أُنزِلَ إليك وماأُنزلَ من قَبلك وبالآخرةِ هُمْ يُوقِنُون »

من هم « الذين يؤمنون بما أُنزل إليكَ وما أُنزل من قبلك » : ؟

قيل : المراد بهم كل المؤمنين سواء من العرب أو أهل الكتاب أو من غيرهم .

وقيل : المراد بهم أهل الكتاب دون غيرهم ، وذلك أخذاً من قوله سبحانه : « وإن من أهل الكتاب لمنْ يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله » وكذا من قوله سبحانه : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنّا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون » .

ويرشح لذلك أيضاً ما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى ، ورجلٌ مملوكٌ أدّى حق الله وحق مواليه ، ورجلٌ أدب جاريته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها » .

«وبالآخرة هم يوقنون » :

يعتقدون ويصدقون بما كان المشركون يكفرون به وينكرونه من البعث بعد الموت ، ومن النشر أو الحشر ، والحساب ، والثواب والعقاب ومن الجنة والنار وكل ما أخبر القرآن عنه من أمور الآخرة .

(٥) «أُولَئِكَ عَلى هُدًى مِنْ رَبِّهِم وَأُولَئِكَ هُم المُفلِحُونَ»

تلك هى الخاتمة الطبيعية لمن اتصفوا بما جاء فى الآيات السابقة أن يظفروا بهدى الله سبحانه وأن يكتب لهم الفلاح فى الدنيا وفى الآخرة .

رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بعض أصحابه قال له :

يا رسول الله : إنا نقرأ من القرآن فنرجو ، ونقرأ من القرآن فنكاد أن نيأس . فقال رسول الله : أفلا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار ؟ قالوا بلى يارسول الله . قال : «آلم ذلك الكتاب لاريب فيه هدًى للمتقين — إلى قوله تعالى — المفلحون » هؤلاء أهل الجنة .

قالوا : إنّا نرجو أن نكون هؤلاء .

ثم قرأ رسول الله : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم — إلى قوله عظيم » هؤلاء أهل النار . قالوا : لسنا هم يارسول الله ؟ . قال : أجل » .

(٦) « إنّ الذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ علَيهِمْ أأنذَرتَهمْ أمْ لَمْ تُنذِرهُم لاَيُؤْمِنُون »

روى الطبرى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى اليهود الذين كانوا بنواحى المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم توبيخاً لهم على جحودهم بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم به مع علمهم به ، ومعرفتهم بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة .

ويروَى عن ابن عباس رضى الله عنه فى تأويل هذه الآية تفسير آخر قال فيه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحرص على أن يؤمن جميع الناس ، ويتابعوه على الهدى فأخبره الله جلّ ثناؤه أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة فى الذّكر الأول ، ولايضِلّ إلا من سبق له الشقاء فى الذكر الأول .

(٧) « خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وعَلَى سَمْعِهِم وعَلَى أَبْصَارِهِم غِشَاوَةٌ ولَهُمْ عذَابٌ عَظِيمٌ »

استغرقتهم الذنوب فأفسدت قلوبهم فلا يفقهون بها ، وأفسدت آذانهم فلا يسمعون بها ، واستغرقت أعينهم فلا يبصرون بها ، وهذا معنى ختم الله سبحانه على القلوب والأسماع والأبصار وطبعه عليها فتصير مغلقة لا تستجيب لداعي الله . ولا ترعوى إلى نداء الحق . « أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » .

وفى تأثير الذنوب فى نفس المذنب وإفسادها له يروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب ونزع ، صُقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الرّانُ الذى قال الله تعالى: « كلا بل رانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون »

وإذا كان هذا أثر الذنوب فى نفس المؤمن فكيف بالذنب الأعظم وهو الكفر بالله ؟ !

(٨) « ومِنَ النّاس من يقولُ آمنّا بالله وباليَومِ الآخرِ وماهُم بمؤمنين »

(٩) « يُخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم ومايشعرون »

(١٠) « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذابٌ أليم بما كانوا يكذبون »

(١١) « وإذا قِيلَ لهم لاتُفسِدُوا فى الأرض قالوا إنّمَا نحن مصلحون »

(١٢) « ألا إنّهم هم المفسدون ولكن لايشعرون »

(١٣) « وإذا قيلَ لهم آمنوا كما آمنَ النّاسُ قالُوا أنؤمِن كما آمن السُّفهاءُ ألاَ إنهم هُم السُّفهاءُ ولكن لاَ يعلَمُون »

(١٤) « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنّمَا نحن مستهزئون » :

(١٥) « الله يستهزىء بهم ويمدُّهم فى طغيانهم يعمَهُون »

(١٦) « أولئك الذين اشترَوا الضلالة بالهدى فما ربحَتْ تجارتُهم وما كانوا مهتدين »

(١٧) « مثلُهم كمَثَلِ الذى استوْقَدَناراً فلما أضَاءت ماحَوْلَه ذَهَبَ اللهُ بنورِهم وتركَهم فى ظُلماتٍ لا يبصرون »

(١٨) « صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون »

(١٩) « أو كَصَيِّبٍ مِنَ السماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ يجعلون أصابِعَهم فى آذانِهم من الصواعق حذر الموت والله محيطٌ بالكافرين »

(٢٠) « يكاد البرق يخطفُ أبصارَهم كلما أضاء لهم مشَوا فيه وإذَا أظلم عليهم قامُوا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارِهم إن الله على كلِّ شيء قديرٌ » :

ثلاث عشرة آية متتابعة يعرض القرآن الكريم فيها لحديث المنافقين فيحدد خلائقهم وسماتهم، ويذكر صفاتهم وأساليبهم، ثم يقرر لهم العقاب الذى يستحقونه فى الدنيا والآخرة، وأخيراً يضرب للناس الأمثال بحال هؤلاء المنافقين وما ينتهون إليه فى عاقبة أمرهم من خسرانٍ وبوار.

وبالنظر فى هذه الآيات جميعاً نرى القرآن الكريم يبدأ فى الآية الثانية بذكر سمةٍ من سمات المنافقين، وعلامة من علاماتهم وهى: أنهم يدّعون الإيمان ويتظاهرون به وما هم بمؤمنين. فهم إذاً يظهرون غير ما يبطنون، ويقولون مالا يفعلون، ومن ثمّ تتضح فى أمرهم أول آية من آيات النفاق وهى الكذب فى الحديث وعدم الإخبار بالصدق، فهذا معنى قوله سبحانه « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ».

ولقد ظهر هذا النفاق أول ما ظهر فى المدينة بعد ما قويت شوكة المسلمين واشتد بأسهم وأصبحوا قوة يرهبها عدوّها، عندئذ دخل فى الإسلام كثيرون ما كانوا ليدخلوا فيه إلا أن يُكرَهوا عليه فلم يخلصوا الإسلام وما كانوا صادقين. ولكنهم تظاهروا ليخدعوا غيرهم.

وهذا معنى قوله سبحانه « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ».

وهذا التذبذب بين الإيمان والكفر، وتمزق الإنسان بين شىء يظهره وشىء يخفيه، إنما هو دليل مرض فى القلب لا يبرأ منه إلا من صدق، إيمانه واستقرت، نفسه واطمأن عقله ووجدانه، على طريق واحد وعقيدة واحدة، وعندئذ يزيده الإيمان إيماناً، أما المرضى من المنافقين فلا يزدادون بكلمات الله إلا نفاقاً ومرضا؛ وهذا معنى قوله سبحانه « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ».

وفى هذا المعنى يقول الله: « فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين فى قلوبهم مرضٌ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ».

والسمة الثانية من سمات المنافقين هى عجزهم عن صدق الإدراك والتمييز بين الحق والباطل وبين الخير والشر وبين الصلاح والفساد نتيجة ختْم الله سبحانه على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم فتراهم يمارسون الشر ويتوهمون أنه الخير، ويمضون فى الضلال ويحسبون أنهم مهتدون.

رُوِى عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى « وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض . . . الآية » قال: نريد أن نُدارى الفريقين من المؤمنين والكافرين ونصطلح معهم، ونريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين ومن أهل الكتاب.

كذَبَ المنافقون فليس هذا بإصلاح . « ألا إنهم هم المفسدون ولـكن لا يشعرون » .

والسمة الثالثة للمنافقين هى استملاؤهم الكاذب على الإيمان والمؤمنين إذ يتصورون الإيمان وقفا على فريق من الناس دون فريق ، وأن دخول المستضعفين من النساء والولدان والفقراء فيه يُضْعِف من قيمته ويضَعُ من شأنه .

ولما كان الإسلام لا يفرق بين إنسان وإنسان إلا بالتقوى فقد ردّ على مايقولون فى حسم وصراحة فقال : « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفَهاء ولـكن لا يعلمون » .

والسمة الرابعة مما سُجل على المنافقين هنا أنهم يلقَون المؤمنين بوجه ظاهره إخلاص المودة والموالاة نفاقاً ومصانعة ورغبة فى الفائدة ، فإذا «خلوا إلى شيَاطِينِهِم» . الذين يوسوسون لهم من رءوس اليهود والمشركين « قالوا إنّـا معكم » إنما نحن فيما نُظهِر للمؤمنين من الود « مستهزئون » عابثون .

ونسى هؤلاء المنافقون أن نفاقهم هذا وإن خفى على المسلمين فإنه لا يخفى على الله سبحانه الذى « يستهزئُ بهم ويمدّهم فى طغيانهم يعمهون » .

والْعَمَهُ : الضلال . وعمى القلب كقوله تعالى « فإنها لا تعمى الأبصار ولـكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

ومن استهزاء الله بالمنافقين ما أشارت إليه الآية الكريمة - كما يقول الطبرى - « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسُوا نوراً فضرب بينهم بسورٍ له بابٌ باطنه فيه الرحمةُ وظاهره من قِبله العذاب » .

وإذا كان المنافقون ينشدون صالح أنفسهم فلقـد أخطأوا الطريق واتّجروا فى الخسارة لأنهم باعوا الهدى واشتروا الضلال « فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

ولقد ضرب القرآن المثل بحال المنافقين الذين دخلوا فى الإسلام عندما قدم النبى المدينـة ثم نافقوا. فمثلهم كمثل من كان فى الظلام — يعنى قبل الإسلام — ثم أضيئت لهم النار فأبصروا ما حولهم إذ أسلموا ولـكن ما أن تبيّنُوا طريقَهم وعرفوا نفعهم وضرهم حتى انطفأ النـور من حولهم وذلك حين طرحوا الإيمـان من قلوبهم ونافقوا — فعادوا إلى الظلمة من جديد يتخبطون فيها فذلك « مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً ... الآية » .

وإذا كان المثل الأوّل لمن استحكم النفاقُ من قلوبهم ، فثمة مثلٌ آخر لصنف آخر من المنافقين تستولى عليهم الحيرة فلا يدرون أين يكونون أمع هؤلاء أم مع هؤلاء . وهؤلاء شبهم القرآن بقوم أصابهم مطر شديد أظلمت له الأرض وأرعدت السحب وأبرقت فكانوا يضعون « أصابعهم فى آذانهم من الصواعق » خوف الموت ، وما يعجيهم من بأس الله ما يصنعون .

يقول ابن عباس : إن هؤلاء المنافقين كلما أصابهم من عِزِّ الإسلام خيرٌ اطمأنوا إليه ، فإذا أصاب الإسلامَ نكبة أو ضعف قاموا ليرجعوا إلى الكفار . فهذا معنى قوله سبحانه « كلّما أضاء لهم مشوْا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا . . »

ويصف الرسول صلى الله عليه وسلم حال المؤمنين والمنافقين فيما رواه أبو سعيد قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم : « القلوب أربعة . قلبٌ أجردُ فيه مثل السراج يزهر ؛ وقلبٌ أغلف مربوطٌ على غلافه ، وقلبٌ منكوسٌ ، وقلبٌ مصفّح .

« فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فسراجه فيه نوره ؛ وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ؛ وأما القلب المنكوسُ فقلب المنافق الخالص ؛ عَرَف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمانٌ ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم ، فأى المادتين غلبت على الأخرى غلَبَتْ عليه » .

(٢١) « يأيُّها النّاسُ اعْبدُوا ربكُم الّذى خَلَقَكُم والّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلّكُم تتّقُونَ » .

(٢٢) « الّذِى جَعَل لكُم الأرْضَ فِرَاشاً والسّمَاءَ بِنَاءً وأنْزَلَ مِنَ السّمَاء مَاء فأخْرَجَ بِهِ مِن الثّمَرَاتِ رِزْقاً لكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أنْدَاداً وأنتُم تعْلَمُونَ » .

فى هاتين الآيتين أمر صريح بعبادة الله سبحانه . وعبادة الله إفرادٌ له بالربوبية وتنزيه له سبحانه عن الشريك . وكيف لا ؟ وفى الآيتين الدليل على أنه الواحد وعلى أنه الخالق وعلى أنه صاحب الفضل، الجديرُ وحده بالعبادة .

فهو الذى خلق الناس وخلق من قَبْلَهم عبر الأجيال والقرون ، وهو الذى بسط على الإنسان ظلال فضله ، فجعل له الأرض فراشاً يجد فيها حاجته ، ويحقق بتعميرها ذاته ، وهو الذى سخر للإنسان ما فى الكون ولولا لطف الله بنا ما استطاع الإنسان أن يبقى على الأرض ولا أن يكون له فيها وجود .

وإذا كان الله ربّ هذا الفضل كله فكيف يجعلُ الإنسان لربه أنداداً ؟ أو ليس هذا هو الكفران والجحود ؟!

(٢٣) « وإنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ » .

(٢٤) « فإنْ لَمْ تفعَلُوا ولَنْ تفعَلُوا فاتَّقُوا النَّارَ الَّتي وقُودُها النَّاسُ والحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ »

أمر الله سبحانه فى الآيتين السابقتين بعبادته ، وساق الدليل العقلى على أهليته بالعبادة لأنه الخالق الرازق صاحب الفضل، وأوضح فى كتابه كل ما ينبغى أن يدفعهم إلى المضىّ فى العبادة .

وفى هاتين الآيتين يتجه إلى الكافرين بالخطاب إن كانوا يشكّون فى القرآن فليأتوا بسورة من مثله . . .

وإذا لم يستطيعوا ذلك — وهم لا شك لن يستطيعوا — فلينتظروا عذاب النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين .

ففى الآيتين الأوليين توجيه إلى العبادة بالعقل والتدبر ، وفى الثانيتين تحدٍّ وإنذارٌ وتخويف بالعقاب .

(٢٥) « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أنَّ لَهُم جنَّاتٍ تجرى مِنْ تَحْتِها الأَنْهار كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرةٍ رِزْقاً قالُوا هذا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وأُتُوا به مُتَشابِهاً ، وَلَهُمْ فِيها أزْواجٌ مُطَهَّرةٌ وهُمْ فِيها خالِدُونَ » .

سبق إنذار الكافرين بأشد العذاب ، وفى هذه الآية تبشير للذين آمنوا وعملوا الصالحات بالثواب العظيم وبالنعيم المقيم .

وقد جاء فى الحديث أن أنهار الجنة تجرى فى غير أخدود ، وجاء فى « الكوثر » أن حافتيه قباب اللؤلؤ المجوّف » ولا منافاة بينهما — كما يقول ابن كثير — فطينها المسك الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر ،وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أنهار الجنة تفجر من تحت جبال المسك».

أما رزق أهل الجنة الذى يقولون كلّما أتوا به «قالوا هذا الذى رزقنا من قبل » فقيل: المراد . رُزقنا بمثله فى الدنيا . . وقيل : المراد رزقنا بمثله من قبل فى الجنة نفسها . يوضح هذا ما رُوى عن يحيى ابن كثير قال :

« يؤتى أحدهم بالصحفة من الشئ فيأكل منها، ثم يؤتى بأخرى فيقول : هذا الذى أُتينا به من قبل فتقول الملائكة : كُلْ فاللون واحدٌ والطعم مختلف .

أما تطهير الأزواج فالمراد أنهن مطهرات من كل ما هو أذى كالحيض والغائط وغيرها . . . وتمام السعادة لأهل الجنة هو خلودهم فيها .

(٢٦) « إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحيِي أَنْ يَضْرِبَ مثلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمنُوا فيعْلَمُون أنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِم وَأَمَّا الَّذِينَ كفرُوا فيقولون ماذَا أَرَادَ اللهُ بِهذَا مَثلاً يُضِلُّ بِهِ كَثيراً وَيَهْدِى بِهِ كَثِيراً ، وما يُضِلُّ بِهِ إلا الفَاسِقِين »

(٢٧) « الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ »

رُوى عن غير واحد من الصحابة رضوان الله عليهم أن الله سبحانه لما ضرب الأمثال السابقة للمنافقين في قوله «مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً » وقوله « أو كصيب من السماء » قال المنافقون : الله أعلى وأجلّ من أن يضرب هذه الأمثال — يريدون بذلك إلى نوع من التشكيك فى صدق ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم — فأنزل الله هذه الآيات .

ورُوِى عن قتادة أن الله سبحانه لما ذكر « العنكبوت » و « الذباب » فى كتابه قال المشركون: مابال العنكبوت والذباب يُذكران ؟ فأنزل الله هذه الآية . .

والمراد من ضرب هذا المثل أن الله سبحانه لا يستحيى من ذكر الحق صغُر أو كَبُر، هان أو عظُم .

ويروى عن الربيع بن أنس رضى الله عنه أن الله سبحانه ضرب هذا المثل للدنيا وأصحابها فإن البعوضة تحيا ما جاعت ، فإذا سمنت ماتت ، وكذلك هؤلاء الذين اشتهوتهم الدنيا إذ امتلأوا منها أخذهم الله .

وضرب المثل فى القرآن أسلوب من أساليب البيان والتقريب والشرح : وما أكثر ما ضرب القرآن من مثل كما يقول سبحانه « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » .

أما الذين لا يعقلون الأمثال ، والذين إن عقلوها لم يهتدوا بها فهم الفاسقون الذين ينقضون عهدَ الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئكَ هم الخاسرون .

ومن مجموع الآيات السابقة تتضح ستُّ خصالٍ للمنافقين هى : الكذبُ فى الحديث ، وخلفُ الوَعْد ، وخيانةُ الأمانة ، ونقضُ عهدِ الله من بعد ميثاقه ، وقطعُ ما أمر الله به أن يوصل ، والإفساد فى الأرض .

وهذه الخصال تظهر من المنافقين متى واتتهم الفرصة وأحسوا ضعف من ينافقونه وانكسار شوكته .
فإذا بقيت الشوكة قوية ظهرت ثلاث منها هي: الكذب وخلف الوعد وخيانة الأمانة واستكانت الأخريات في انتظار فرصة مواتية ، ومن هنا عُنِيَ القرآن بكشف المنافقين وتحديد موقف الأمة منهم على ما سنرى بعد .

(٢٨) « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .

(٢٩) « هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

ينكر الله سبحانه على الكافرين به كفرهم؛ فكيف يجحدون وجوده وهو خالقهم ، وموجدهم ، ورب القدرة الكبرى عليهم : أحياهم بعد أن كانوا في أصلاب آبائهم أمواتاً وعدماً ونطفاً لم تتخلق بعد ، وهو سبحانه يميتهم الموتة الثانية التي يحييهم بعدها يوم العرض عليه ويوم الرجوع إليه .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى « وقالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا » قال هي التي في البقرة « وكنتم أمواتاً فأحياكم » . .

وبعد أن ذكّرهم الله سبحانه بما في أنفسهم وجههم إلى دليل آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض ، والتي يعتبر خلقها وإحكام تكوينها والسيطرة على كل ما فيها مظهرَ عظمة ودليلَ مقدرة يهون أمامها خلق الإنسان وإماتته وإحياؤه ومن شأن هذا النظر أن يدفع إلى الإيمان والانقياد .

والاستواء هنا « ثم استوى إلى السماء » وكذا في قوله تعالى «الرحمن على العرش استوى» ليس من قبيل الاستواء الحسي . إذ الله سبحانه منزه عن كل مشابهة للحوادث ولكنه في الأولى الإقبال والقصد وفي الثانية بمعنى الاستعلاء . وليس فيهما معا ما يشابه استواء المخلوقات والحوادث .

(٣٠) « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

في هذه الآية وما يليها يتحدث القرآن عن قصة خلق الإنسان وامتنان الله سبحانه عليه باستخلافه في الأرض قرناً بعد قرن وجيلا وراء جيل .

وقد أخبر الله سبحانه الملائكة بمراده فقالت الملائكة لربها سائلة مستفسرة : أتجعل في الأرض من يكون منهم من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ وإذا كنت يا ربنا تخلقهم لعبادتك فها نحن أولاء نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ :

فقال سبحانه : إنى أعلم مالا تعلمون : أفمن الذين سأجعل فى الأرض سيكون الأنبياء والمرسلون والشهداء والصالحون، والعلماء العاملون، والعُبّاد الزهاد ، والأولياء المقربون، والأبرار المحبّون لربهم تبارك وتعالى ، ولن يكونوا كلهم مفسدين فى الأرض كما تظنون .

(٣١) « وعَلَّمَ آدَمَ الأسْماء كُلَّها ثُم عَرَضَهم عَلَى المَلائِكَةِ فَقالَ أنبئونى بأسْمَاء هَؤُلَاء إنْ كُنتم صَادِقِين »

(٣٢) « قالوا : سُبْحانَكَ لاَ عِلْمَ لَنا إلاَّ ما عَلَّمْتَنا إنَّكَ أنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ » .

(٣٣) «قال ياآدم أنْبِئْهُم بأسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أنبأهم بأسْمائِهم قالَ ألَمْ أقُلْ لَكُمْ إنِّى أعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ والارْضِ وَأعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُم تَكْتُمُونَ »

فى هذه الآيات تأكيد لحكمة الله سبحانه فى جعله خليفة فى الأرض . وإثبات لتميز هذا المستخلَف فى الأرض أمام الملائكة : فقد علّمه الله سبحانه أسماء الملائكة أنفسها ، أو أسماء كل ما فى الجنة ، أو أسماء كل شىء فى الكون صغر أو كبر ، على ما يذهب إليه العلماء . ثم عرض تلك المسمّيات أو تلك الأسماء على الملائكة كى ينبئوه بها فعجزوا لأنهم لا يعلمون فأُمِرَ آدم أن يخبرهم بها ، فلمّا أخبرهم قال سبحانه : ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون .

رُوِى عن ابن عباس فى معنى قوله وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون : أعلم ما أظهرتموه بألسنتكم يعنى قولهم «أتجعل فيها من يفسد فيها» وما كنتم تكتمون : أى ما كان يكتمه إبليس من الخلاف على الله فى أمره وتكبُّره عن طاعته .

(٣٤) « وَإذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجدُوا إلاَّ إبْلِيسَ أَبى واسْتَكْبَرَ وكَانَ مِنَ الكَافِرِين »

كان التكريم الأول من الله سبحانه للإنسان أن يستخلفه فى الأرض على ما أشارت إليه الآيات السابقة ، وفى هذه الآية يتلقى الإنسان من ربه تكريمًا آخر حينما أمر سبحانه الملائكة أن يسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس الذى أبى واستكبر قائلا: إن العنصر الذى خلق هو منه وهو النار أعلى وأشرف من العنصر الذى خُلق الإنسان منه وهو الطين ، كما حكى القرآن عنه فى قوله : «قالَ أنا خيرٌ منه خَلَقْتنى من نار وخَلَقْتَهُ من طين» وقوله « قالَ أأسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا » .

وكان الكبر هو مأساة إبليس التى أودت به وانتهت به إلى الطرد من رحمة الله ، ومن هنا أيضًا

كانت صفة الكبر مُبغضة إلى الله ونهى الإنسان عنها فى محكم كتابه .

(٣٥) « وقُلنا يا آدمُ اسْكُنْ أنتَ وزَوْجُكَ الجنّةَ وكُلا منها رغداً حيثُ شئتُما ولا تقربا هذهِ الشّجرةَ فتكونا مِنَ الظّالمين »

(٣٦) « فأزَلّهُما الشّيْطانُ عَنْها فأخرجَهُما ممّا كانا فيه وقُلنا اهْبطوا بعضُكم لبعضٍ عدوٌّ ولَكُمْ فى الأرض مُسْتقرٌّ ومَتاعٌ إلى حين »

وهذا تكريمٌ آخر من الله سبحانه لآدم عليه السلام أن أباحَ له الجنة يسكن فيها هو وزوجه حيث يشاء ، ويأكل هو وزوجه من رزقها ؟ رغداً حيث يشاء .

وللعلماء فى تحديد مكان الجنة كلامٌ : أهى جنة السماء ، أم جنة أخرى على الأرض ، كما يحكى عن بعض المعتزلة والقدرية . والجمهور على أنها جنة السماء بدليل قوله سبحانه «فقلنا اهبطوا منها » .

ولهم كذلك كلام حول الزمن الذى خلقت فيه حواء؛ أهو قبل إسكان آدم الجنة أم بعده. فمن يقولون خلقت قبل إسكانه الجنة يستندون إلى قوله سبحانه « اسكن أنت وزوجك الجنة » فهى إذاً كانت موجودة معه قبل أن يسكناها .

ويرجح الآخرون أنها خلقت بعد إسكانه الجنة اعتماداً على ما روى عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة قالوا :

أخرج إبليس من الجنة وأسكنها آدم فكان يمشى فيها وحيشاً ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه فسألها : ما أنت ؟ قالت : امرأة . قال ولم خلقت ؟ قالت لتسكن إلىّ . قالت له الملائكة — ينظرون ما بلغ من علمه — : ما اسمها يا آدم ؟ قال : حوّاء . قالوا : ولمَ حوّاء ؟ قال لأنها خُلقت من شىء حىّ .

وقد اختبر الله آدم وامتحنه إذ نهاه سبحانه عن الأكل من الشجرة . وللعلماء فى تحديد نوع هذه الشجرة أكثر من رأى .

فقيل هى : الكرْم . وقيل : الحنطة . وقيل : السنبلة . وقيل : النخلة . وقيل : التين، وقيل :شجرة ذات ثمر كانت تأكله الملائكة لخلدها .

ونرجح مع ابن جرير الطبرى ومع الفخر الرازى رحمهما الله : أن علم هذه الشجرة بالتحديد عند الله سبحانه إذ لا دليل عليه من صحيح الكتاب أو السنة وهما المصدر الذى يعتمد عليه فى تحديد مثل هذه الأمور التى تعتبر من شئون الغيب .

ولقد وسوس الشيطان لآدم وزوجه فى الجنة فأكلا من الشجرة التى نُهيا عن الأكل منها « فلمّا ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدوٌّ مبين » .

« قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

« قال اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌّ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » .

« قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » .

لقد أخرج آدم من الجنة وهبط إلى الأرض يستقر فيها وهذا ما ترويه الآيات التالية :

(٣٧) « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عليه إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرحيم »

(٣٨) « قُلْنَا اهبطوا منها جميعًا فإما يأتِيَنَّكُم مِنِّى هدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُمْ يحزنُون »

(٣٩) « والَّذِينَ كفرُوا وكَذَّبُوا بآياتنا أولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُون »

ما هذه الكلمات التى تلقاها آدم عليه السلام من ربه ؟

رُوى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال آدم عليه السلام : يارب ألم تخلقنى بيدك ؟ قيل له : بلى . قال : ونفخت فىّ من روحك ؟ قيل له : بَلَى . قال : وعَطَسْتُ فقلتَ : يرحمك الله وسبقت رحمتُكَ غَضَبَك ؟ قيل له : بلى . قال : وكتبت علىّ أن أعمل هذا؟

قيل له : بلى .

قال : أرأيت إن تبت هل أنت راجعى إلى الجنة ؟ قال : نعم . قال ابن عباس فذلك قوله : (فتلقى آدم من ربه كلمات) . والحديث غريب .

وقيل : إن الكلمات التى تلقاها آدم عليه السلام من ربه هى المفسرة بقوله تعالى :

« قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونَنّ من الخاسرين » .

والذى أراه : أن التفسير الأخير أرجح وأولى لأن تفصيل ما قاله آدم عليه السلام لم يرد به دليل قطعى يمكن الاعتماد عليه .

وقد ورد الأمر بالهبوط فى هذه الآية بصيغة الجمع « اهبطوا » بينما ورد فى آية أخرى بصيغة التثنية كما فى سورة طه « قال أهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوٌّ » . ويقول المفسرون فى صيغة الجمع

« اهبطوا » إن المراد بها ذرية آدم ونسله فى الأرض من بعده ، وهم الذين عنوا بقوله سبحانه « فإما يأتينكم منى هدًى فمن اتبع هُدَاى فلا يضل ولا يشقى » . وقوله : « فإما يأتينكم منى هدًى فمن تبع هُدَاىَ فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون » .

(٤٠) « يابنى إسْرَائيلَ اذكُروا نِعْمَتِىَ الَّتى أنعمتُ عليكُمْ وأوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإيَّاىَ فَارْهَبُونِ »

(٤١) « وآمِنُوا بِما أنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُم ولَا تَكُونُوا أوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً وإيَّاىَ فاتقون »

(٤٢) « ولا تَلْبِسُوا الحقَّ بالباطِلِ وتَكْتُمُوا الحقَّ وأنتُم تَعلَمُون »

(٤٣) « وأقيمُوا الصَّلاة وآتُوا الزَّكاةَ وارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِين »

فى آيات كثيرة يوجه الله سبحانه الخطاب إلى بنى إسرائيل مطالباً إياهم بتذكر نعمته عليهم فما هى نعمة الله على بنى إسرائيل ؟

قال مجاهد: نعمة الله التى أنعم بها عليهم ـ فى هذه الآية وفى غيرها ـ أن فجّر لهم الحجر ، وأنزل عليهم المنّ والسلوى ، ونجاهم من عبودية آل فرعون .

وقيل : نعمته سبحانه عليهم أن جعل فيهم الأنبياء فى زمانهم،وجعل منهم ملوكا، وهذا القول مأخوذ من قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام « يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين » .

أما العهد الذين طولبوا بالوفاء به فى قوله سبحانه « وأوفوا بعهدى أوفِ بعهدكم » فقال الحسن البصرى رضى الله عنه : هو ما نصت عليه الآية الكريمة « ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا وقال الله إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى لأكفرنّ عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار » الآية .

وقيل : هو الإسلام ولعله مأخوذ من قوله تعالى « ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون » .

وقوله تعالى « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوبَ الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلٰهكَ وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰهاً واحداً ونحن له مسلمون » . وغيرها من الآيات .

وقيل: هو عهد أخذ عليهم فى التوراة أنه سيبعث من بنى إسماعيل نبى (يراد محمد صلى الله عليه وسلم) فمن اتبعه منهم غفر الله له وأدخله الجنة وجعل له أجرين . .

والقول بأن العهد المشار إليه هو الإسلام والإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم مما يعتبر مع هذه الآية تمهيداً ومقدمة لما جاء بعد من الآيات إذ يطالبهم الله سبحانه فيها بالإيمان بما أنزل على محمد مصدقاً لما معهم . . .

ومن الثابت الذى قرره القرآن أن التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم كان ثابتا مكتوبا فى التوراة وفى الإنجيل أيضاً قبل أن ينالهما التحريف والتغيير .

يدل على هذا قوله سبحانه : « الذين يتّبعون الرسول النبىّ الأمىّ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهُم عن المنكر ويُحلُّ لهم الطّيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضَعُ عنهم إصْرَهُم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذى أُنزِل معه أولئك هم المفلحون » .

أما قوله سبحانه « ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » فالمراد لا تصرفكم الدنيا مهما عظم حظكم منها عن الحق الذى أوصيكم به فما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل .

وقيل : المراد لا تأخذوا أجراً على تعليم ما فى الكتاب وشرح ما فيه للناس .

وقيل : لا تكتموا ما فى الكتاب من أمر محمد (صلى الله عليه وسلم) وغيره من أمور الحق التى تخفونها لتظلوا محتفظين بما بلغتموه من رياسات فى الدنيا باسم الدين .

(٤٤) « أتأمُرونَ النّاسَ بالبرِّ وتَنْسَوْنَ أنفُسكُم وأنتُم تتلُونَ الكِتابَ أفلاَ تعقِلُونَ »

(٤٥) « واستَعِينُوا بالصّبْرِ والصّلاةِ وإنّها لَكَبيرَةٌ إلاَّ عَلَى الخاشِعين »

(٤٦) « الّذِينَ يظنون أنّهم مُلاقُوا رَبِّهم وأنّهم إليهِ رَاجِعُونَ »

قيل إن هذه الآيات متصلة بما قبلها من الآيات وأنها موجهة إلى أهل الكتاب الذين كانوا يعظون غيرهم من الناس ويأمرونهم بالبرّ واتباع الحق وهم أنفسهم لا يفعلون ذلك فعيرهم القرآن بهذا السلوك .

وعموم اللفظ فى الآيات كلها يجعلها أوامر عامة لكل عباد الله من أهل الكتاب أو من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

فمن المحرم والمنهى عنه شرعاً أن يكون العالم غير عامل ، أو أن يقول مالا يفعل وذلك أخذاً من قوله

سبحانه : « يأيها الذين آمنوا لِمَ تقولُون مالاَ تفعلون * كَبُرَ مَقْتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » .

وقوله سبحانه مخبراً عن شعيب عليه السلام : « وما أريدُ أن أخَالِفَكُم إلى ما أنهاكم عنه إنْ أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » .

وفى مسند أحمد عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« مررتُ ليلة أُسْرِى بى على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار . قال : قلت : من هؤلاء ؟ قالوا خُطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون » .

وروى عن أسامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

يُجاءُ بالرَّجل يوم القيامة فَيُلقى فى النار فتندلق أقْتَابُهُ فيدور بها فى النار كما يدور الحمار بِرَحاه فيطيف به أهل النار فيقولون : يافلان ما أصابك ؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ » .

« فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وكنت أنهاكم عن المنكر وآتيه » .

وروى ابن عساكر فى ترجمة الوليد بن عقبة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« إن أناساً من أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار فيقولون : بم دخلتم النار ؟ فوالله مادخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم . فيقولون : إنا كنا نقول ولانفعل » .

وإذا كان المقام مقام إخلاص العبادة ومصادقة العمل للقول فقد أكدت الآيات التالية هذا المعنى وأرشدت العاملين إلى مايعين عليه .

فالصبر على العبادات ، أو على ضبط النفس عن المحارم ، أو على الامتناع عن الدنيا المحفوفة بالشهوات ، أو على تبعات قول الحق وعمله . . الصبر على هذا هو السبيل الأكبر للنجاة والفوز برضوان الله .

يقول الله سبحانه : « وما يلَقّاها إلا الذين صبروا ، وما يُلقّاها إلا ذو حظ عظيم » .

ويقول سبحانه : «وبشر الصابرين» .

ويستثنى سبحانه الصابرين من مجموع الإنسان فى قوله « إن الإنسان لفى خُسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

أما الصلاة فهى الباب المعروف للصلة بالله والتقرب إليه ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم « إذا

حزبه أمر صلى . كما أنها إذا أديت على وجهها الصحيح وأخلص العبد فيها لربه كانت عاملاً قوياً فى تعديل سلوكه وتوجيهه صوب الخير ، وكما يقول القرآن :

« إِنَّ الصلاةَ تَنهَى عَنِ الفَحْشاء والمُنكَر » .

ولكن مشاق العبادة كبيرة لا يطيقها إلا الخاشعون ، الذين اطمأنت نفوسهم إلى طاعة الله ووثقوا بما عنده ، فهم دائماً يعملون انتظاراً ليوم لقائهم لربهم ورجوعهم إليه .

(٤٧) « يا بَنِى إِسْرَائيلَ اذْكُروا نِعْمَتِى الَّتى أَنْعَمْتُ عَلَيكُم وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالمين »

(٤٨) « واتقوا يوماً لا تجزى نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا يُقْبَلُ مِنْها شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنها عَدْلٌ وَلاَ هُم يُنْصرون»

يعود القرآن إلى تذكير بنى إسرائيل بفضل الله ونعمته عليهم ، وأن هذا كان يستوجب الشكر والطاعة والإيمان والتسليم ، لكنهم لم يفعلوا ، ومن ثم كان فى الآية التالية إنذار وتحذير من هول اليوم الذى سيواجهونه ؛ لا تقبل فيه الشفاعة ، ولا يجد العصاة من ينصرهم من بطش الله .

(٤٩) « وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العذاب يُذَبِّحُونَ أَبْناءكُم وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ »

(٥٠) « وَإِذْ فَرَقْنا بِكُم البَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُم وأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُم تَنظُرُونَ »

تمضى الآيات هنا فى تعداد نعم الله سبحانه وفضله على بنى إسرائيل . فهو قد أنجاهم من عدوهم وخلصهم من بأسه وبطشه الذى أنزل بهم من ذبح الرجال واستحياء النساء خشية أن يكون من بين الرجال من يهدد عرشه . ومع هذا نفذت مشيئة الله وظهر موسى عليه السلام وحاطته رعاية الله حتى بعث ووصل بأمر الله إلى غايته فى فرعون وقومه

كما أنجاهم الله سبحانه عند الخروج من مصر نجاة معجزة وأغرق فرعون وآله .

(٥١) « وإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبعينَ لَيلَةً ثُم اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وأَنتُم ظالِمُونَ »

(٥٢) « ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعلَّكُم تَشْكُرُون »

(٥٣) « وإِذْ آتَيْنا مُوسَى الكِتابَ وَالفُرْقَانَ لَعلَّكُم تَهْتَدُونَ »

يطالب الله سبحانه بنى إسرائيل بأن يذكروا نعمته فى عفوه عنهم حين عبدوا العِجْلَ بعد ذهاب موسى عليه السلام لميقات ربه ، وكان ذلك بعد إنجائهم من آل فرعون وخروجهم من البحر ، وزادت نعم الله

عليهم أن أعطى نبيهم موسى الكتاب وهو التوراة يفرق بها بين الحق والباطل وبين الضلال والهدى لعلهم إن استجابوا إليها أن يهتدوا .

(٥٤) « وإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »

لما اتخذ بنوا إسرائيل العجل إلهاً لهم من بعد موسى قال موسى : ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى خالقكم .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : فقال الله تعالى إن توبتهم أن يقتل كل واحد منهم من لقىَ مِنْ والدٍ وولد .

وفى رواية أخرى عن ابن عباس قال :

أمر موسى قومه عن أمر ربه عزّ وجل أن يقتلوا أنفسهم . قال : وأخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا وقام الذين لم يعبدوا العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم ، وأصابتهم ظلمة شديدة فجعل يقتل بعضهم بعضا .

وروى الطبرى عن ابن أبى برة أنه سمع سعيد بن جبير ومجاهداً يقولان فى قوله تعالى « فاقتلوا أنفسكم » قالا : قام بعضهم إلى بعض بالخناجر يقتل بعضهم بعضا ، لا يحنو رجلٌ على قريب ولا بعيد حتى ألوَى موسى بثوبه فطرحوا ما بأيديهم فكشف عن سبعين ألف قتيل ، وإن الله أوحى إلى موسى أن حسبى من الأمر ، فقاموا يتناحرون بالشِّفارِ يقتل بعضهم بعضا حتى بلغ الله فيهم نِقْمتَه فسقطت الشفار من أيديهم فأمسك عنهم القتل فجُعل ذلك لحيِّهم توبةً وللمقتول شهادة .

وفى رواية أخرى : كان عدد القتلى سبعين رجلا فقط ، وليسوا سبعين ألفاً .

(٥٥) « وإذ قلتم ياموسى لن نُؤمن لكَ حتى نرى الله جهرةً فأخذتكم الصاعقةُ وأنتم تنظرون »

(٥٦) « ثم بعثناكم من بعدِ مَوْتِكم لَعلَّكمُ تَشكُرُون »

(٥٧) « وَظَلَّلنا عليكم الغمَامِ وأَنْزَلنَا عليكمُ المنّ والسلوى كُلوا من طيباتِ ما رزقْناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفُسَهم يظلمون »

روى ابن جرير الطبرى قال : حدثنا محمد بن حميد حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق قال : لما رجع موسى إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل ، وقال لأخيه هارون وللسامِرِيِّ ما قال ، وحرق العجل وذرّاه فى اليم ، اختار موسى منهم سبعين رجلاً الخيِّرَ فالخيِّرَ وقال :

انطلقوا إلى الله وتوبوا إليه مما صنعتم ، واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا ، وطهّروا ثيابكم .

فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقّته له ربه ، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم ، فقال له السبعون — فيا ذكر لى — حين صنعوا ما أمروا به وخرجوا للقاء الله قالوا :

يا موسى اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا ، فقال : أفعل .

فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله ، ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم : ادنوا .

وكان موسى إذا كلّمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحدٌ من بنى آدم أن ينظر إليه فضُرِبَ دونه بالحجاب ، ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجوداً فسمعوا الله — سبحانه — وهو يكلم موسى يأمره وينهاه : افعَل ، ولا تفعل .

فلما فرغ من أمره انكشف عن موسى الغمام فأقبل إليهم فقالوا له : « لن نؤمن لك حتى نرى الله جَهْرَةً » فأخذتهم الصاعقة فماتوا جميعا .

فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول « ربِّ لو شئتَ أهلكتهم من قبلُ وإيَّاىَ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تُضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين » .

فلم يزل موسى يناشد ربه عز وجل حتى ردّ إليهم أرواحهم .

وبعد هذا الفضل من الله أنزل الله عليهم المنّ وهو ضرب من الطعام حلو كان ينزل عليهم من أشجاره ويسيل منها كما يسيل الصمغ ، وقيل غير ذلك .

كما أنزل عليهم السلوى وهى طائر يشبه « السمان » أكبر ، وعلى هذا أغلب الأقوال .

(٥٨) « وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ »

(٥٩) « فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ »

أرجح الأقوال أن الأرض التى طلب إليهم أن يدخلوها هى بيت المقدس ، وذلك أخذاً من قوله تعالى : « ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » .

وقد أمرهم الله سبحانه ـ بعد خروجهم من مصر مع موسى عليه السلام ـ أن يدخلوا هذه القرية ، ويقاتلوا من فيها من العماليق الكفرة فجبنوا وقالوا « ياموسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها .

فكان نكوصهم عن القتال مما لامهم الله سبحانه عليه فى هذه الآية .

ولقد أمرهم الله بأن يدخلوا « الباب » باب القرية « سُجّداً » وأن يقولوا « حِطة » حتى يغفر لهم خطاياهم .

والأمر بالسجود هنا : قيل إنه السجود الفعلى على الوجه ، وقيل هو كناية عن تمام الخضوع لله والاعتراف بفضله ونعمه .

وروى عن ابن مسعود قال : قيل لهم ادخلوا الباب سجّداً فدخلوا (رافعى) رءوسهم خلاف ما أمروا به .

وقولوا حطةٌ : قيل معناه : سلوا الله مغفرته وقيل ادعوه : أحطط عنا خطايانا . وقيل قولوا . لا إله إلا الله .

ورُوى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال :

سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان من آخر الليل أجزنا فى ثنية يُقال لها ذات الحنظل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما مثلُ هذه الثَّنيةُ الليلة إلا كمثل الباب الذى قال الله لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجّدا وقولوا حطة تغفر لكم خطاياكم » .

كان المطلوب من بنى إسرائيل أن يدخلوا الباب سجداً ، وأن يقولوا حِطّةٌ ولكنهم فعلوا نقيض ما طُلب إليهم فدخلوا الباب يزحفون على أستاهِهم رافعين رءوسهم . وبدّلوا الكلمة وقالوا « حنطة فى شعيرة » مبالغة فى السخرية والعناد ، وهذا معنى قوله سبحانه « فَبدل الذين ظلموا .. الآية » .

ولذا أنزل عليهم عقابه .

(٦٠) « وإذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِعَصَاكَ الحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُم كُلُوا واشْرَبُوا مِن رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ »

تمضى الآيات الكريمة فى تذكير بنى إسرائيل بفضل ربهم عليهم وإحسانه؛ إليهم من ذلك أنهم اشتكوا إلى موسى ـ عليه السلام ـ الظمأ حين كانوا فى البرّية ـ أو فى غيرها ـ فسأل ربه فاستجاب له وأمره أن يضرب الحجر بعصاه ، وستخرج منه اثنتا عشرة عينا بعدد أسباط بنى إسرائيل يشرب كل سبط من عين حتى لا يختلفون ، وكان هذا مما يستوجب شكر الله وطاعة أمره بالامتناع عن الفساد فى الأرض ، ولكنهم لم يطيعوا .

وللمفسرين فى حديث «الحجر» الذى ضرب به موسى عليه السلام كلام كثير، عن شكله وصفته والمكان الذى أخذ منه أهو من الطور أم من الجنة أم من غيرها . ولقد نعود إلى ذلك عند تفسير آيات استسقاء موسى لقومه فى سورة « الأعراف » .

وقال الزمخشرى : إن اللام فى « الحجر » للجنس لا للعهد ، ومعناه أنه لم يؤمر بضرب حجر بعينه ، وهذا أبين فى القدرة وأوضح فى الإعجاز .

(٦١) « وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ »

وفى هذه الآية يحكى القرآن الكريم صورة من بطر بنى إسرائيل على النعمة وافترائهم على الحق إذ قالوا لموسى — بعد ما أنزل الله عليهم المنّ والسلوى : « لن نصبر على طعام واحد نأكل منه كل يوم فادع لنا الله أن يخرج لنا أطعمة أخرى ذكرتها الآية وحددوها » .

وكان ما طلبوه أقل قيمة وأهون شأناً مما كان الله قد أعطاهم ولذا قال : أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير . ولقد استجيب لهم وقيل أنزلوا أىّ مصرٍ من الأمصار لتجدوا فيه مرادكم . .

ومع تكريم الله لهم وإنعامه عليهم فقد كانوا يكفرون بآياته ويقتلون أنبياءه مما استوجب سخط الله عليهم فضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله .

(٦٢) « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ » .

فى هذه الآية توضيح قاطع بأن ما أصاب بنى إسرائيل من سخط الله هو كفرهم وعنادهم وبطرهم وافتراؤهم . ولو أقاموا التوراة وعملوا صالحا لكان لهم من الله حسن الجزاء ، وكذا كل من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا من أىّ صنف من العُبّاد ، لأن أساس التوبة أو العقاب هو العمل : والعمل وحده .

(٦٣) « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »

(٦٤) « ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ »

يذكر الله سبحانه بنى إسرائيل بما أخذ عليهم من المواثيق على العبادة والطاعة والتوحيد، وكيف رفع الله سبحانه الجبل فوق رءوسهم ليصدقوا، وليقبلوا بعد ذلك على تنفيذ ما أتاهم فى التوراة ولكنهم — مع هذا — تولوا وأعرضوا . ولولا فضل الله عليهم بإرساله الأنبياء والرسل كى يهديهم لكانوا من الخاسرين .

(٦٥) « وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ »

(٦٦) « فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ »

وهنا يذكرهم القرآن بحديث من عصوا الله وما حلّ بهم من عقابه، وضرب لهم مثلا بالذين اعتدوا فى « السبت » حيث اصطادوا فيه وكان محرماً أن يصطاد فيه ، ففعل الله بهم ما فعل من المسخ والعقوبة نكالاً وعبرة لمن يأتى بعدهم ويقف على خبرهم .

وللمفسرين فى عقوبة المسخ قردة أقوال : منها أن المسخ قد كان مسخا حسياً وأنهم بالفعل أصبحوا قردة يثب بعضهم على بعض . وقيل : بل هو مسخٌ معنوى .

وهذه القرية هى التى عناها القرآن فى قوله « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يَعْدُون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعاً ويومَ لا يَسْبِتُونَ لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » .

(٦٧) « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ »

(٦٨) « قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ »

(٦٩) « قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ »

(٧٠) « قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ »

(٧١) « قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ »

(٧٢) « وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ »

(٧٣) « فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »

(٧٤) « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ »

تحكى هذه الآيات جميعاً قصة البقرة ، وتسجل على بنى إسرائيل تعنتهم مع نبيهم وتشددهم حتى شدد الله سبحانه عليهم .

وملخص القصة فى أقرب رواياتها إلى الصحة أنه كان رجل من بنى إسرائيل ثرى وكان عقيما ولا ذرية له ، وكان وارثه الوحيد ابن أخ له ، فطمعت نفسه فى المال وتعجل الظفر به فهم بعمه فقتله ، ثم احتمله فوضعه على باب أحد بنى إسرائيل .

واختلف الناس من حول القتيل حتى لبست الرجال أسلحتها وكادت تكون حرب بينهم لولا أن أشار عليهم بعض كبرائهم بسؤال النبى موسى واستفتائه فى الأمر .

فطلب إليهم موسى عليه السلام أن يذبحوا بقرة وأن يأخذوا بعض أجزائها فيضربوا بها جثة القتيل فإن الله يحييه بقدرته ، وعندئذ يسألونه من قتله .

ولو قد استجاب بنو إسرائيل وذبحوا أية بقرة وجدوها لانتهى الأمر ، ولكنهم بتعنتهم ظلوا يسألون موسى عن البقرة : ما هى ؟ وما لونها ؟ وكم يكون عمرها ؟ حتى أجيبوا إلى ماسألوا .

فلما بحثوا عن البقرة التى تتوافر فيها الصفات المذكورة لم يجدوا غير بقرة واحدة أبى صاحبها أن يسلمها إلا بثمن باهظ قيل إنه ملء جلدها ذهباً ، وقيل مثل وزنها ، وقيل مثل وزنها .

وأخذت البقرة وذبحت وضرب القتيل ببعضها فأحياه الله بقدرته فسألوه عن قاتله فأرشد إلى ابن أخيه . فأخذوا القاتل فقتلوه به .

ولقد كانت مثل هذه الحادثة التى تجلى فيها إعجاز الله سبحانه وتأييده لنبيه موسى عليه السلام وتكريمه له ، كانت الحادثة جديرة أن تنبه القلوب الغافلة ، وتفتح الأعين المغلقة ، وأن ترفع من نفوس بنى إسرائيل كل تشكك يحل محله اليقين والإيمان .

ولكن أنى لهم ذلك وقلوبهم القاسية ترى الحق وتأبى — بعد ما شهدت — إلا الجحود والعناد ، والعودة إلى الكفر والإنكار .

وفى الآية السابقة ألفاظ تحتاج إلى بعض البيان والشرح :

فقوله : « لا فارضٌ » : يعنى ليست متقدمة فى السن . و « العَوَانُ » هى النَّصَفُ بين البكر والهرمة .
وقوله : « لا ذَلُول » : يعنى لم يُذَلِّلها العمل . و « المُسَلَّمَةُ » السليمة من العيوب . « لا شِيَةَ فيها »
لا بياض : أو لا علامة فيها .

وقوله : « فادّارأتم فيها » أى اختلفتم وتنازعتم ، والله ورسوله أعلم .

(٧٥) « أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنوا لَكُم وقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنهُم يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ يحرِّفُونَه مِنْ
بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وهم يعلَمُونَ »

(٧٦) « وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وإِذَا خَلاَ بَعْضُهم إِلَى بَعْضٍ قالُوا أَتُحَدِّثُونَهم بمَا فَتَحَ اللهُ
عَليكُم لِيُحَاجُّوكم به عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ »

(٧٧) « أَوَلَا يعلَمُونَ أَنَّ اللهَ يعلمُ مَا يُسِرُّون ومَا يُعلِنُونَ »

الخطاب فى قوله : « أفتطمعون » موجه إلى المؤمنين وإلى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يقرر لهم فيه أن بنى إسرائيل لن يؤمنوا لهم ، ولن يُخلصوا عقيدتهم للمسلمين ، ولو كانوا على استعداد لذلك لكان فى الكتاب الذى بين أيديهم ما يكفى وحده لحملهم على الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به .

ولكنهم حسداً وعناداً وبغياً من عند أنفسهم عمدوا إلى كتابهم فحرفوه وبدّلوه حتى لا يكون فيه ما يصح دليلا عليهم يطالبون بمقتضاه بالإيمان .

أما موقفهم الذى يبدونه للمؤمنين فهو موقف نفاق وخديعة فإذا « لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم .. الآية »

ولقد وَهِمَ هؤلاء المنافقون من بنى إسرائيل إذ حسبوا أن الله لا يعلم سرهم ونجواهم ويطلع عليها نبيه وأصحابه فيكونوا على حذر منهم وبينة .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال «لا يدخلَنَّ علينا قصبة المدينة إلا مؤمن» فقال رؤساؤهم من المنافقين وأهل الكفر اذهبوا فقولوا آمنا واكفروا إذا رجعتم . فكانوا فى الصباح إذا لقوا المؤمنين يظاهرون الإيمان ، فإذا عادوا إلى قومهم آخر النهار أعلنوا صريح الكفر . وهذا ما عناه القرآن بقوله : « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أُنزل على الذين آمنوا وَجهَ النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » .

(٧٨) « ومنهم أميّون لا يعلمون الكتاب إلا أمانىّ وإن هُم إلا يظنُون »

(٧٩) « فويلٌ للذين يكتبون الكتاب ؛ بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويلٌ لهم مما يكسبون »

ومن أهل الكتاب أميون جهالٌ لا يقرأون ولا يكتبون ومع هذا يتحدثون عن الكتاب ويقولون فيه بغير علم ليرضوا أهواءهم ، وليحولوا بين أنفسهم وقومهم وبين الاستماع إلى الحق الذى جاء به النبى .

وقيل : بل إن قوماً من أهل الكتاب أو من اليهود خاصة كتبوا بأيديهم كتاباً ما أنزل الله به من سلطان ليضلوا به عن سبيل الله فنزلت فيهم . وقيل نزلت فى المشركين وأهل الكتاب معاً .

وقد أنذر القرآن هؤلاء وقضى عليهم بالويل والهلاك لقاء الجريمة النكراء التى يرتكبونها ليصدوا عن سبيل الله .

والويل : وادٍ فى جهنم رُوى عن رسول الله صلى الله عليه أنه قال عنه : « وادٍ فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً حتى يبلغ مقره »

(٨٠) « وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مالا تَعلَمُون »

(٨١) « بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُه فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »

(٨٢) « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هم فِيهَا خَالِدُونَ »

زعمت اليهود فيما زعمت أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة قيل أربعون ليلة توازى الأيام التى عبدوا فيها العجل ، وقيل أربعون سنة وهى المدة التى تصوروا أنها لازمة للوصول إلى شجرة الزقوم وبعدها — كما زعموا — تهلك النار وينتهى عذابهم .

وزعموا كذلك أنهم يعذبون أياماً ثم يخلفهم المسلمون فى النار ، وقد كذبهم الرسول صلى الله عليه وسلم فقال فى بعض حديثه لبعض اليهود الذين كانوا قد دسّوا إليه الشاة المسمومة .

« من أهل النار ؟ قالوا : نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اخسئوا ، والله لا نخلفكم فيها أبداً » .

ولعل زعمهم مبنى على زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه — كما سيجىء تفسيره — ولكن الإسلام صريح

وقاطع فى أن أساس العقاب والمثوبة هو العمل . فمن كسب سيئة فهو فى النار ، ومن آمن وعمل صالحاً فله الجنة خالداً فيها .

(٨٣) «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ»

(٨٤) « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ »

(٨٥) « ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ »

(٨٦) « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ »

فى هذه الآيات يسجل القرآن على اليهود الذين كانوا معاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم إعراضهم عن الحق وتوليهم عما أمرهم به الله .

ولقد أخذ الله ميثاقهم على عبادته وتوحيده ، وعلى بر الوالدين وصلة ذى القربى وإحسان القول وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . وهى فضائل وأسس لا يكاد يختلف فيها كتاب سماوى عن كتاب . ومع هذا أعرضوا وتولوا ولم يطيعوا .

وأخذ الله ميثاقهم ألا يقتل بعضهم بعضاً ولا يخرجون إخوانهم فى الدين من ديارهم ومع هذا كانوا يدخلون فى محالفات مع « الأوس والخزرج » ينضم فريق إلى « الأوس » وينضم فريق إلى « الخزرج » فإذا نشب القتال قاتل كل فريق فى صف حليفه ، ولقد يضطر القتال إلى أن يقتل أخاه فى الدين الذى يقاتل فى صف الحليف الآخر .

فإذا انتصر فريق على فريق خرج اليهودى المحالف للمنتصر يخرب بيت أخيه للمهزوم ويستولى على ما عنده ويغتنمه .

هذا كله كان محرماً ولا يبيحه دينهم ولا يقره الكتاب الذى بين أيديهم . ومن عجب أنهم فى الوقت

الذى يخالفون كتابهم فيه على هذا النحو، إذا كان منهم من أسروا افتدوهم تنفيذاً لوصية التوراة التى يدينون بها .

فهذا التذبذب فى الإيمان والتدين بين بعض الكتاب وبعض هو ما سجله القرآن عليهم إذ قال : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » ثم أنذرهم عذابه إذ قال : «فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما يعملون »

وفى ختام الآيات لخص القرآن الكريم موقفهم بأنهم يعصون الله ويحرفون الكتاب ويخالفون عن أمره لأنهم يبنون الدنيا ويبيعون من أجلها الآخرة فويل لهم يوم « لا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون » .

(٨٧) « ولقد آتينَا مُوسَى الكِتابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بالرُّسُلِ وآتينا عِيسى بنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ وَأيَّدْناهُ بِرُوحِ القُدُسِ أفَكُلَّما جَاءكُمْ رَسُولٌ بِما لاَ تَهْوَى أنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ »

(٨٨) « وَقَالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ بلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بكفرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ »

(٨٩) « وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ »

قرر الله سبحانه فى هذه الآيات أنه آتى موسى عليه السلام الكتاب وأرسل من بعده الرسل يتبعون شرعه ويدعونهم إلى عبادته ، ثم جاءهم خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم بكتاب مصدق لما معهم يؤمن بموسى وعيسى ويدعوهم إلى الإيمان به واتباع ما ورد بشأنه فى كتابهم وهو التوراة التى قال الله عنها :

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدًى ونورٌ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والرّبانيون والأحبارُ بما استُحْفِظُوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » .

ومع هذا رفض بنو إسرائيل أن يؤمنوا وأخفوا ماجاء فى كتابهم بشأن محمد صلى الله عليه وسلم ودينه وبدلوه وحرفوه . ثم قالوا إن قلوبهم لا تستطيع أن تفقه ما يدعوهم إليه وما هى كذلك ولكن سبقت عليهم كلمة الله بالطرد من رحمته فقليلا مايؤمنون .

ومن عجيب أمر هؤلاء اليهود مع النبى محمد الله صلى عليه وسلم أنهم كانوا قبل مجيئه يتحدثون عنه وينتظرون بعثه . ويتحدون به الكفار ويقولون لهم إن جاء ورأيناه سننصره وننتصر به عليكم . وهذا

معنى قوله سبحانه « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا » فلما ظهر الرسول كفروا به وحسدوه وأعرضوا عنه . وهذا معنى قوله :

« فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » .

(٩٠) « بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُم أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ من عِبَادِهِ فباءوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وللكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ »

(٩١) « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ويكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وهُوَ الحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُم قُلْ فَلِمَ تقتلونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كنتم مؤمنين »

رفض اليهود أن يؤمنوا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم بغياً وحسداً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده . فاستحقوا غضباً على غضب : غضباً لكفرانهم بعيسى ثم غضباً لكفرانهم بمحمد : وقيل غضب عليهم لتحريفهم التوراة وكفرهم بها . ثم غضب عليهم لكفرهم بالنبي .

وإذا دعوا إلى الإيمان قالوا يكفينا الإيمان بالتوراة التى معنا ونكفر بما بعدها، فلو صح ماقالوا فكيف يعصون التوراة ويخالفون أحكامها ويقتلون أنبياء الله ومحرمٌ فى التوراة أن يُقتَلُوا ؟

(٩٢) « ولَقَدْ جاءكُمْ موسى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ من بَعْدِهِ وأنْتُمْ ظَالِمُونَ »

(٩٣) « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُم ورَفَعْنَا فَوقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ واسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وعَصَيْنَا وأُشْرِبُوا فى قُلُوبِهِمَ العِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم به إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنتم مُؤْمنين »

منطق هؤلاء القوم غير مستقيم يزعمون أنهم يؤمنون بالتوارة ليتخلصوا مما يدعوهم إليه محمد صلى الله عليه وسلم ولكن القرآن يردُّ عليهم مسجلا أنهم لم يؤمنوا بالتوارة ولا بصاحبها بل جاءهم بالبينات فأعرضوا عنه وعبدوا العجل من بعده وكانو ظالمين .

فقد أخذ الله عليهم المواثيق، ثم رفع الجبل من فوقهم ليروه فيصدقوا وينقادوا ، ولكنهم مع هذا قالوا سمعنا وعصينا ، واستولت عبادة العجل على نفوسهم وقلوبهم حتى خالطتها فما تستطيع أن تتخلص منها ، ولا أن يجد الإيمان بالله سبيلا إلى قلوبهم بعدها . فأى إيمان بالتوراة هذا الذى يقولون . قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين .

(٩٤) « قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُم الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الموْتَ إِنْ كُنتُم صَادِقِينَ »

(٩٥) « وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ »

(٩٦) « وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ »

تفسر هاتين الآيتين آيات أخريات هى قوله سبحانه :

« قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليمٌ بالظالمين * قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردُّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون * » .

وقوله سبحانه :

« فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكُمْ ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » .

وروى الطبرى فى تفسيره قال :

وبلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا . »

وفى الآيتين السابقتين تحدٍّ قوىٌّ من القرآن لليهود إذ يقول لهم إن كنتم — كما تزعمون — على حق فتمنوا الموت لتصلوا إلى ما تنتظرون من خير .

كما أن فيهما تقريراً دقيقا لطبيعة اليهود فى حرصهم على الحياة واستمساكهم بها لما يعرفونه بيقين أنهم مضيعون فى الآخرة ، ولما يعرفونه بيقين أن كل ما يدعون زيف وباطل ، وأن التوراة التى معهم ليست الكتاب الذى أنزل الله .

(٩٧) « قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ »

(٩٨) « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ »

روى فى نزول هاتين الآيتين عن ابن عباس أنه قال :

حضرت عصابة من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبىٌّ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«سلوا عمّا شئتم ولـكن اجعلوا لى ذِمّةَ ما أخذ يعقوبُ على بنيه لئن أنا حدثتكم عن شيء فعرفتموه لتتابعننى على الإسلام » .

فقالوا : ذلك لك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سلوا عما شئتم » .

قالوا أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن : « أخبرنا : أىُّ الطعام حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تُنَزّلَ التوراة ، وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبى الأمىّ فى التوراة ومن وَليّه من الملائكة ؟

فقال النبى (صلى الله عليه وسلم) : « عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعننى ، » . فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق فقال :

« نشدتكم بالذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه فنذر لله نذراً لئن عافاه الله من مرضه ليحرمَنّ أحب الطعام والشراب إليه ، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل . وأحب الشراب إليه ألبانها » .

فقالوا : اللهم نعم .

فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اللهم اشهد عليهم : وأنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماء الرجل غليظ أبيض ، وأن ماء المرأة رقيق أصفر . فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله عز وجل ، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله عز وجل » .

قالوا : اللهم نعم .

قال : « اللهم اشهد . وأشهدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبى الأمىّ تنام عيناه ولا ينام قلبه » .

قالوا : اللهم نعم . قال : اللهم اشهد .

قالوا : أنت الآن . فحدثنا مَنْ وَليُّك من الملائكة . فعندها نجامعك أو نفارقك .

قال : « فإن وَليّىَّ جبريل ، ولم يبعث الله نبيًّا قط إلا وهو وليه » .

قالوا : فعندها نفارقك ، ولو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك .

قال . « فما يمنعكم أن تصدقوه » .

قالوا : إنه عدونا . فأنزل الله عز وجل هذه الآيات يدمغ بها الكافرين ويعزُّ بها أنبياءه وملائكته وأولياءه .

(٩٩) « ولَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ »

(١٠٠) « أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُم لاَ يُؤْمِنُونَ »

(١٠١) « وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُم نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ »

(١٠٢) « واتبعُوا ما تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ولَكِنَّ الشياطينَ كفرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ من أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نحن فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنهُمَا مَا يُفَرِّقُون به بين المرْء وزَوْجِه ومَا هُمْ بِضَارِّينَ بهِ من أحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيتعلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ ولاَ ينفعُهُم ولقد عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِى الآخِرَةِ من خَلاَقٍ لَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »

(١٠٣) « ولو أنَّهم آمَنُوا واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ من عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لو كانُوا يعلمُونَ »

أنزل الله سبحانه القرآن على نبيه يكشف ويخبر عما خص من أخبار اليهود وعلومهم وأسرارهم ويعلن ماقد أخفوه مما أنزل إليهم مما لم يكن يعلمه أحد إلا أحبارهم وعلماؤهم ، ولقد كانت هذه الآيات خليقة أن تحملهم على الإذعان والتصديق ، ولكنهم كفروا وما يكفر بآيات الله إلا الفاسقون .

ثم ذمّ الله اليهود لنبذهم العهود وخيانتهم المواثيق التى أخذ عليهم من قبل . ثم قرر تنكرهم لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ونبذهم لما جاء فى (التوراة) وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون لكى يتخلصوا من وزر تكذيب الرسول ، ولكن أنى لهم .

وأما قوله سبحانه : « واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان .. الآية » فقد قيل فيه الكثير مما لايثبت للتمحيص والنقد ، ومما يعجز الباحث معه أن يفصل فيه .

وأقرب ماقيل إلى المنطق والحق ذلك الذى رواه ابن جرير بسنده إلى ابن عباس رضى الله عنهما قال:

« كان سليمان عليه السلام إذا أراد أن يدخل الخلاء (مكان قضاء الحاجة) أو يأتى شيئاً من نسائه أعطى خاتمه لامرأة كانت تسمى « الجرادة » .

فلما أراد الله أن يبتلى سليمان عليه السلام بالذى ابتلاه به أعطى « الجرادة » خاتمه ذات يوم فجاء الشيطان فى صورة سليمان فقال لها : هاتى خاتمى فأخذه ولبسه فدانت له الشياطين والإنس والجن .

قال : فجاءها سليمان فقال هات الخاتم . فقالت : كذبتَ لستَ سليمان .

قال : فعرف سليمان أنه بلاء ابتُلِى به .

قال : فانطلقت الشياطين فكتبت فى تلك الأيام ـ أيام الابتلاء هذه ـ كتبا فيها سحر وكفر فدفنوها تحت كرسى سليمان ، ثم أخرجوها وقرأوها على الناس ، وقالوا إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب.

قال : فبرىء الناسُ من سليمان وكفّروه حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم فأنزل براءته على نبينا فى قوله :

« وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناسَ السِّحرَ » .

وثمة رواية أخرى لمحمد بن إسحاق قال :

عمدت الشياطين بعد موت سليمان عليه السلام فكتبوا أصنافا من السحر فجعلوها فى كتاب ثم ختموه بخاتم على نقش خاتم سليمان وكتبوا فى عنوانه : هــذا ما كتبه آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم ، ثم دفنوه تحت كرسى سليمان ، واستخرجته بعد ذلك بقايا بنى إسرائيل ، فلما عثروا عليه قالوا : والله ما كان ملك سليمان إلا بهذا فأفشوا السحر فى الناس .

فلما ذكر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيما نزل عليه سليمان وعدّه من المرسلين قال من كان بالمدينة من اليهود : ألا تعجبون من محمد يزعم أن ابن داود كان نبياً ؟! والله ما كان إلا ساحراً فأنزل الله هذه الآية :

أما « هاروت » و « ماروت » .

فقد روى الإمام أحمد فى (مسنده) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إن آدم عليه السلام لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة : أى ربنا « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء . ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون » .

قالوا : ربنا نحن أطوعُ لك من بنى آدم .

قال تعالى للملائكة : هلُمُّوا مَلَكَيْن حتى نُهبطهما إلى الأرض فننظر كيف يعملان .

قالوا : ربنا هاروت وماروت .

فأهبطا إلى الأرض . . ومثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر فجاءتهما فسألاها نفسها فقالت : لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك . فقالا : لا والله لا نشرك بالله شيئاً أبداً .

فذهبت ثم رجعت بصبيّ تحمله فسألاها نفسها فقالت : لا والله حتى تقتلا هذا الصبي . فقالا : لا والله لا نقتله أبداً .

فذهبت ثم رجعت بقدح خمر تحمله ، فسألاها نفسها فقالت : لا والله حتى تشربا هذا الخمر . فشربا ، فسكرا ، فوقعا عليها ، وقتلا الصبي .

فلما أفاقا قالت المرأة : والله ما تركتما شيئاً أبيتماه عليّ إلا قد فعلتماه حين سكرتما ، فخُيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا » .

وقريب منه فى معناه ماروى من قول ابن عباس بعد أن ذكر القصة السابقة « فلما ذهب عنهما السكر وعرفا ماوقعا فيه من الخطيئة أرادا أن يصعدا إلى السماء فلم يستطيعا وحيل بينهما وبين ذلك ، وكُشف الغطاء لأهل السماء فاطلعوا إلى ما وقعا فيه فعجبوا ، وعرفوا أنه من كان فى غيب فهو أقل خشية فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن فى الأرض فنزل فى ذلك « والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض » .

(١٠٤) « يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

(١٠٥) « مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

فى الآيتين نهيٌ عن تشبه للمؤمنين بالكفار فى قول أو غيره لأنهم لا يودُّون للمؤمنين خيراً . وقد كانت اليهود إذا خاطبوا الرسول يختارون الألفاظ ذات المعنيين فيكون ظاهرها عادياً وباطنها سباً أو إيذاء أو سخرية كقولهم « رَاعِنَا » فهى فى ظاهرها تعنى : ارعنا وانظرنا ، وفى باطنها الذى أرادوه تورية بالرُّعونة والحمق .

ومن ثم طولب المؤمنون ألا يستخدموا فى مخاطبة الرسول لغتهم ولا أساليبهم .

ونفس المعنى عبّرت عنه الآية الكريمة :

« من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مُسمع ، وراعِنا ليّاً

بألسنتهم وطعناً فى الدين . ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا . واسمع ، وانظرنا لـكان خيراً لهم وأقوم ولـكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا » .

(١٠٦) « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْـلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » .

(١٠٧) « أَلَمْ تَعْـلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » .

نسخ الآيات : رفعها ، أو محوها ، أو تبديلها ، أو إثباتها خطاً وتبديلها حُكماً الخ . كل هذه المعانى وما يتصل بها من أحكام النسخ وشروطه وتفاصيله موجودة فى كتب أصول الفقه ، ولا مكان هنا للفصل فيها .

وقد حاول بعض اليهود أن يجعلوا من أمر النسخ سبيلا إلى الطعن فى القرآن والتشكيك فيه ، فقالوا أنّ النسخَ مستحيل ، وأن اعتراف القرآن به يدل على أنه من عند غير الله .

والحق أن نسخ آية لآية أمر ممكن لا يفرض العقل استحالته لا أولا : لأن الله سبحانه يحكم ما يريد ويفعل بعباده ما يشاء وهو وحده الأعلم بما فيه صلاحهم . وثانياً لأن هـذا النسخ قد وقع بالفعل فى شرائع سابقة على الإسلام . فقد أحل الله لآدم تزويج بنيه من بناته ثم حرم ذلك ؛ وأباح لنوح عليه السلام بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ثم حرم بعضها ؛ وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه ، وحرّم ذلك فى شريعة التوراة وما بعدها ؛ وأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده ثم نسخ قبل الفعل إلى غير ذلك . .

ولقد ردّ الله على اليهود والمشركين فى الآية نفسها مقرراً أنّ له سبحانه ملك السموات والأرض وأنه المتصرف فى خلقه بما يشاء فيحل ما يشاء ويحرّم ما يشاء ويبيح ما يشاء ويحظر ما يشاء . وهو الذى يحكم لا معقب لحكمه .

وقال سبحانه : « وإذا بدّلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مُفْتَرٍ بل أكثرهم لا يعلمون » .

على من أن من مفسرى الإسلام من ذهب إلى أن القرآن لا نسخ فيه وأن كل ما فيه محكم وهو أبو مسلم الأصبهانى الذى استطاع فى بعض تفسيره أن يقيم مذهبه وتعسف فى بعض الآخر .

(١٠٨) « أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ »

نهى الله سبحانه المؤمنين عن كثرة سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم عن الأشياء قبل أن توجد خشية أن يكون فى السؤال إعنات للرسول ، يقول القرآن :

« يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزّل القرآن تُبْدَ لكم »

وروى أن رسول الله لمّا أخبر أصحابه أن الله كتب عليهم الحج فقال رجل أ كل عام يارسول الله ، فسكت عنه الرسول ثلاثاً ثم قال : « لا ولو قلتُ نعم لوجبت . ولوجبت ما استطعتم » ثم قال :

«ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وإن نهيتكم عن شىء فاجتنبوه » .

وروى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى عبد الله بن أبىّ بن كعب ورهط من قريش قالوا : يامحمد اجعل لنا الصّفَا ذهباً ، ووسّع لنا أرض مكة ، وفجر الأنهار خلالها تفجيراً نؤمن بك . فنزلت :

(١٠٩) «وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » :

روى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى نفر من اليهود قالوا للمسلمين بعد موقعة أحد ألم تروا إلى ما أصابكم ولو كنتم على الحق لما هزمتم فارجعوا إلى ديننا فهو خيرٌ لكم .

وقيل إنها نزلت فى الشاعر اليهودى كعب بن الأشرف الذى كان يهجو النبى صلى الله عليه وسلم ويحرّض عليه فى شعره وكان المشركون واليهود يؤذونه وأصحابه أشد الأذى فأمر بالصبر والعفو ونزلت هذه الآية .

وكان الأمر بالعفو قبل أن ينزل إذن الله لنبيه بقتالهم فى مثل قوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وقوله : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون » .

(١١٠) « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تجدوه عِنْدَ اللهِ إن الله بما تَعْمَلُونَ بصير »

يأمر الله المؤمنين أن يدعوا ما يرجف به المشركون واليهود ، وأن ينصرفوا إلى الطاعات فهذا وحده هو السبيل إلى نصر الله لهم .

(١١١) « وَقَالُوا : لَنْ يَدْخُلَ الجنةَ إلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تلكَ أَمَانِيُّهم قُلْ هَاتُوا بُرهانَكُم إِنْ كُنتُم صادقين »

(١١٢) « بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وجْهَهُ للهِ وهُوَ مُحْسِنٌ فلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون »

زعم اليهودُ والنصارى أن لن يدخُلَ الجنة إلا من كان على ملّتهم ، وهو مثل قولهم : « نحن أبناء الله وأحباؤه » وكله وهمٌ لا يستند إلى حق ولا ينهض عليه دليل . لأن دخول الجنة والظفر بمحبة الله أساسه أن يسلم الإنسان وجهه لله ، ويقر بربوبيته ، وينزهه عن الشريك ، وعن الولد والصاحبة ، وبعدها يعمل صالحاً ثم يرجو لقاء ربه . .

ولذا رفض القرآن زعمهم وقال « تلكَ أمانيهم . قل هاتوا برهانكم » ثم وضح السبيل إلى دخول الجنة على نحو ما بيناه .

(١١٣) « وَقَالَتْ اليَهُودُ لَيْسَتَ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وقَالت النَّصَارى ليست اليَهُودُ عَلَى شَيءٍ وهُمْ يَتْلُون الكِتابَ كَذلِكَ قالَ الّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُم يَوْمَ القيامَة فِيمَا كَانُوا فِيه يختلِفُون»

نزلت هذه الآية فى يهود أهل المدينة . ونصارى أهل نَجْرانَ : وذلكَ أن وفد نَجرانَ لـمّا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت الأصوات . فقالت اليهود : ما أنتم على شيء ، وكفروا بعيسى وبالإنجيل .

وقالت النصارى لهم : ما أنتم على شيء فكفروا بموسى وبالتوراة ، فنزلت هذه الآية . وفى قوله « وهم يتلون الكتاب » إنكار عليهما معاً أن يكفر بعضهم بعضاً وفى كتبهما ما أخذ الله على كل فريق من تصديق كل منهما بنبى الآخر .

أما قوله « كذلكَ قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » فقد اختلف العلماء فى تحديد من هم « الذين لا يعلمون » على أقوال أرجحها — فى رأيى — ما قيل من أنهم بعض من العرب قالوا إن محمداً وأصحابه ليسوا على شيء ، والله أعلم .

(١١٤) « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ »

من هؤلاء الذين منعوا مساجدَ الله أن يذكر فيها اسمه وسعوا فى خرابها ؟

قيل : هم المشركون الذين حالوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحدَيْبِيَة أن يدخل مكة حتى نحر هديه بذى طُوى ، وهادنهم وقال لهم : ما كان أحدٌ ليصد عن هذا البيت ، وقد كان الرجلُ يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده . . فقالوا لا يدخل علينا من قتل آباءنا فى بدر وفينا بَاقٍ .

وقيل أنهم النصارى الذين أعانوا « بختنصر » (البابلى المجوسى على خراب بيت المقدس . فخربه وأمر أن تطرح فيه الجيف .

والصَدُّ عن بيوت الله يستوجب عقابه وسخطه كما قال سبحانه : « ومالهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لايعلمون » .

وقوله : « ما كان المشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » .

وفى قوله : « أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين . . مطالبة للمؤمنين ألا يمكنوا هؤلاء الصَّادِّين عن بيوت الله منها إلا إذا كانت وطأة المسلمين ثقيلة عليهم كى يخيفوهم فيأمنوا شرهم ولما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أمر من العام القابل سنة تسع أن ينادَى فى رحاب مِنًى :

« ألا لا يحجّن بعد العام مشركٌ ، ولا يطوفن بالبيت عريانٌ ومن كان له أجلٌ فأجله إلى مدته » .

(١١٥) « وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ »

يواسى الله رسوله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لما أخرجوا من مكة وفارقوا — مكرهين — مسجدهم ومصلاهم .

وقد اختلف المفسرون فى سبب نزول هذه الآية . فقيل : رواية عن جابر بن عبد الله قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سريَّةً كنتُ فيها ، فأصابتنا ظلمةٌ فلم نعرف القبلة فقالت طائفة منا :

قد عرفْنا القِبلة . هى هاهنا قِبَلَ الشمال فصلّوا وخطو خطوطا .

وقالت بعضنا : القبلة هاهنا قِبَلَ الجنوب ، وخطو خطوطا .

فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط جميعاً لغير القبلة ؛ فلما قَفَلْنَا من سفرنا سألنا النبى صلى الله عليه وسلم ذلك فسكت ، فأنزل الله هذه الآية .

وفى رواية أخرى عن ربيعة ، عن أبيه قال :

كنا نصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم فى السفر فى ليلة مظلمة فلم يدر كيف القبلة ، فصلى كل رجل منا على حاله ، فلما أصبحنا ذكرنا ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فنزلت . « فأينما تولوا فثم وجه الله » .

روى عن سعيد بن جبير عن ابن عمر قال « فأينما تولوا فثم وجه الله — أى صل حيث توجهت بك راحلتك فى التطوع .

ومذهب ابن عباس رضى الله عنه أن هذه الآية منسوخة بقوله سبحانه « وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره » .

(١١٦) وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السموَاتِ وَالْأَرْضِ كلٌّ له قَانِتون »

(١١٧) « بدِيعُ السموات وَالْأَرْض إذا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقولُ لَهُ كُنْ فيكون »

فى هاتين الآيتين ردٌّ على من زعموا أن لله ولداً — سبحانه — من النصارى الذين قالوا إن المسيح ابن الله ، ومن اليهود الذين قالوا عزير ابن الله : ومن مشركى العرب الذين قالوا : إن الملائكة هم بنات الله ، الذين أشارت إليهم الآيات الكريمة فى قوله سبحانه :

« وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح بن الله ذلك قولهم بأفواههم يُضَاهِئُونَ قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنّى يؤفكون » .

وقوله سبحانه :

« ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » . وقوله . « ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أنّ لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مُفْرِطون » .

ورُوى عن نافع عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« قال الله تعالى : كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ؛ وشتمنى ولم يكن له ذلك ؛ فأما تكذيبه إياى فيزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان ؛ وأما شتمه إياى فقوله إن لى ولداً فسبحانى أن أتخذ صاحبة أو ولداً » .

وفى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا أحد أصْبَرَ على أذًى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم » .

وكيف يكون لله — سبحانه — ولد وهو خالق السموات والأرض ومبدعهما على غير مثال سابق ؟ وكيف وهو صاحب الأمر والإرادة إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . سبحانه .

(١١٨) « وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قلوبُهم قدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ »

رُوى عن ابن عباس أن رافع بن حريملة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد إن كنت رسولا من عند الله كما تقول فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه فنزلت هذه الآية . وقيل غير ذلك .

كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم . من اليهود والنصارى الذين أعنتوا رسلهم وسألوهم معاندين مالا سبيل إلى إجابة ، فتشابهت مواقف الكافرين ، وتشابهت قلوبهم فى كراهيتها للخير وانقباضها عن الانقياد لدعاة الله .

(١١٩) « إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ »

يقول المفسرون فى سبب نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليت: « شعرى ما فعل أبواى ، ليت شعرى ما فعل أبواى ، ليت شعرى ما فعل أبواى « فنزلت الآية . ويستقيم هذا مع قراءة من قرأها ولا تَسْأَلْ أو « ولا تَسَلْ » .

أما مع قراءتها ولا تُسأل بضم التاء ، فهى تقرير حاسم من القرآن يفصل فيه بين المواقف السابقة للكاذبين على الله والمكذِّبين للرسل من اليهود والنصارى ومن مشركى العرب ، وبين الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا واتبعوا الحق معه . فالرسول بشير ونذير وما عليه سوى البلاغ ولكنه ليس مسئولا عن كفر من كفر ، ولا عناد من عاند . وكما يقول القرآن :

« نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار » وقوله : « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر » وقوله : « فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » .

(١٢٠) « وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ ولا نصير »

(١٢١) « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ »

روى أن هذه الآية نزلت بخصوص « القبلة » لأن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون النبى صلى الله عليه وسلم أن يصلى إلى قبلتهم فلما حرف الله القبلة إلى الكعبة شق ذلك عليهم فيئسوا من النبى أن يوافقهم على دينهم ، فكرهوه فنزلت الآية .

وقيل : بل كانوا يسألونه المدنة ويطمعونه بأنه إذا هادنهم ووافقهم اتبعوه فنزلت .

ومهما يكن سبب النزول ففى الآية تحديد لموقف أهل الكتاب من النبى ، وماينبغى أن يكون عليه موقفه منهم ، وكما قال سبحانه :

« قل يأيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابدٌ ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين » .

ولقد حذر الله نبيه والمؤمنين من اتباع أهواء اليهود والنصارى بعد ما بين الله لهم فى القرآن الحق من الباطل ، والهدى من الضلال . « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولىٍّ ولا نصير » .

« الذين آتيناهم الكتاب » : قيل هم اليهود والنصارى ؛ وقيل هم أصحاب الرسول ، وقيل هم أصحاب السفينة الذين أقبلوا مع جعفر بن أبى طالب من أرض الحبشة . وقيل غير ذلك .

والتلاوة حق التلاوة : هى اتباع ما يأتى به الكتاب ، والعمل بما تأمر به والانتهاء عما تنهى عنه .

وقيل هى : آداب خاصة بالتلاوة من مثل : أن يسأل القارىء ربه الجنة إذا مر بآية فيها ذكر الجنة ويسأل ربه النجاة من النار إذا مر بآية فيها ذكر النار وهكذا .

ولو قرأ أهل الكتاب كتبهم حق قراءتها وتدبروا ما فيها وعملوا به لهداهم ذلك إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والتصديق بكل ما جاء به . ولصدق عليهم قوله سبحانه : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون » .

وقوله : « قل يأهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وماأنزل إليكم من ربكم » .

وقوله : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون » .

(١٢٢) « يابنى إسْرائيلَ اذكُروا نعْمِتِىَ الّتى أنعمتَ عليكُمْ وأنّى فضلتكُم على العالمين »

(١٢٣) « واتَّقُوا يوماً لا تَجْزِى نفْسٌ عنْ نَفْسٍ شيئاً وَلَا يُقْبَلُ منها عَدْلٌ ولاَ تَنفعُها شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ »

يذكر الله بنى إسرائيل مرة أخرى فى هذه السورة بنعمه عليهم ، ومن شأن هذه النعم أن تزيل ما بنفوسهم من حسد على العرب وعلى الرسول فيصرحون بما يعلمون من الحق فى أمره ويؤمنوا به :

(١٢٤) « وإذْ ابتَلَى ابْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إنّى جاعِلُكَ للنَّاسِ إماماً قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى قَالَ لا ينَالُ عَهْدِى الظَّالِمينَ »

اختبر الله نبيه إبراهيم عليه السلام بكلمات هي الشرائع والأوامر والنواهي التي أتمها إبراهيم وقام بها وأخلص في القيام بها لربه . « إن إبراهيم كان أمةً قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين » .

وجزاء إتمامه لكلمات الله وقيامه بما كُلِّفَ به جعله الله إماما وقدوة للناس ، فسأل ربه أن يكون لذرية من فضل الله مثل ماله فاستجيب له ، واستثنى الظالمون من ذريته من استجابة الله .

وروى عن ابن عباس أن الكلمات التي ابتلى بها إبراهيم هي : فِرَاقُ قومه في الله حين أمر بمفارقتهم وصبره على قذفه في النار ليحرقوه في الله ، وهجرته في الله بعد ذلك من وطنه وبلاده حين أمر بالخروج ، ثم ما ابتلى به من ذبح ولده وصبره على ذلك وطاعته لربه ، فلما مضى على كل ذلك قال له ربه « أسلم قال أسلمت لرب العالمين » .

(١٢٥) « وإذْ جَعَلْنَا البيتَ مَثَابَةً للنَّاسِ وَأَمْناً واتخِذوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنا إلى إبْرَاهِيمَ وإسْمَاعِيلَ أن طَهِّرْ بَيْتِي لِلطَّائفِينَ والعَاكِفِينَ والرُّكَّعِ السُّجُود »

مثابة للناس . يأتونه ثم يعودون ، ثم يرجعون إليه لا يقضون منه وطراً ولا يفرغ من نفوسهم الحنين إلى زيارته .

وهو كذلك البيت الآمن الذي يمنع الناس أن يحملوا السلاح عنده ، والذي يستشعر الأمان من حوله كل حيٍّ ، يقول سبحانه :

« أو لم يروا أنا جعلنا لهم حرماً آمناً ويُتَخَطَّف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون »

ويقول « إن أول بيت وضع للناس للذي بِبَكَّةَ مباركا وهدًى للعالمين فيه آياتٌ بيِّناتٌ مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً » .

واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى : رُوِيَ عن جابر وقد سُمِعَ يحدث عن حجة النبي صلى الله عليه وسلم قال: لما طاف النبي صلى الله عليه وسلم قال له عمر : هذا مقام أبينا ؟ قال نعم . قال: أفلا نتخذه مصلى ؟ فنزلت هذه الآية « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى» . وقيل غير ذلك كثير مما لا يكاد يخرج عن المعنى .

أما عهده سبحانه إلى إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت فقيل : من الأوثان ، وقيل من الرفث والأذى والنجس ، وقيل تطهيره بلا إله إلا الله :

والطائفون : من يأتون البيت من غربة ، أو من يطوفون به .

والعاكفون : المقيمون فيه .

(١٢٦) « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ »

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان الناس إذا رأوا أول التمر جاءوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا أخذه قال : « اللهم بارك لنا فى مدينتنا ، وبارك لنا فى صاعنا وبارك لنا فى مُدّنا ، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونجيك ، وإنى عبدك ونبيك ، وإنه دعاك لمكة ، وإنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه » ثم يدعو الرسول صلى الله عليه وسلم أصغر وليد له فيعطيه ذلك التمر .

وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع فقال :

« أيها الناس : إن مكة حرّمها الله ، ولم يحرمها الناس فلا يحل لإمرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجرة ، فإن أحدٌ ترخّص بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم الغائب » .

ويروى عن ابن عباس فى تفسير قوله قال « ومن كفر فأمتعه قليلا . الآية » أن إبراهيم عليه السلام فى دعائه كان يقصر دعاءه بالرزق على أهل البيت ـ يعنى للمؤمنين من دون غيرهم فأنزل الله ـ ومَنْ كفر أيضاً أرزقهم كما أرزق المؤمنين : أأخلق خلقاً لا أرزقهم ؟ أمتعهم قليلا ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير .

(١٢٧) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »

(١٢٨) « رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »

(١٢٩) « رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »

تتحدث الآيات عن بناء « البيت » واشتراك إسماعيل مع أبيه إبراهيم عليهما السلام فى رفع قواعده، وأكثر الأقوال على أنهما كانا يبنيان ويدعوان ربهما بما تضمنه الآيات .

ويروى البخارى بسنده إلى ابن عباس رضى الله عنهما حديثاً مطولا حول قصة إبراهيم ، وآل بيته حتى بنى البيت لا يتسع المقام لتفصيلها ، وملخصها :

أن إبراهيم حين أخرج زوجه هاجر وولدها إسماعيل وتركهما عند البيت دعا « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ... الآية إلى يشكرون » .

ولما نفد الماء من أم اسماعيل قامت تبحث عنه فانطلقت حتى « بلغت الصَّفَا » فنظرت فلم تجد ماء ، ثم عادت حتى بلغت « المروة » فنظرت فلم تجد ماء ، وسعت بينهما أشواطاً هى التى يسعاها الحاج بين يدى الله ثم أنزل الله ملكاً فبحث بجناحه عند زمزم فكان الماء .

ومرت بهم رفقة من أصل « جُرهم » فساكنوها : فلما شب إسماعيل تزوج منهم ، وماتت أم إسماعيل وجاء أبوه إبراهيم ليزوره فلم تحسن زوجه استقباله فأوحى إليه أن يطلقها ، ففعل وتزوج بأخرى منهم .

ثم مالبث إبراهيم أن عاد إليهم « وكان اسماعيل يَبْرى مبلاًله تحت دوحة قريبة من زمزم فلما رآه قام إليه ، وصنعا كما يصنع الوالد بالولد ، والولد بالوالد ثم قال إبراهيم: ياإسماعيل إن الله أمرنى بأمر .

قال : فاصنع ماأمرك به ربك . قال . وتعيننى ؟ قال : وأعينك .

قال : فإن الله أمرنى أن أبنى هنا بيتاً ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ماحولها .

وقال راوى الحديث :

فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له ، فقام عليه ، وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان :

« ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .

وجعلا يبنيان وهما يقولان :

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم

وفى الآية الثانية دعا إبراهيم وإسماعيل ربهما أن يثبتهما على إسلامهما ، وأن يريهما مناسك عبادتهما له فى هذا المكان .

ويروى فى استجابة الله سبحانه لهذه الدعوة أن جبريل أتاه فقال إرفع القواعد فرفعها وأتم البنيان،

ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلى الصفا وقال : هذا من شعائر الله ، ثم انطلق به إلى المروة فقال ، وهذا من شعائر الله .

ثم انطلق به نحو منى فلما كان «من» العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة فقال ، كبّر وارمه . فكبر ورماه

ثم انطلق إبليس فقام عند الجمرة الوسطى فلما جاز به جبريل وإبراهيم قال : كبّر وارمه . فكبّر ورماه ، فذهب الخبيث إبليس .

ثم أخذ جبريل بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام فقال:هذا المشعر الحرام ، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به عرفات قال :

قد عرفت ما أريتك ؟ قالها ثلاثا . قال : نعم .

وكانت آخر دعوة لإبراهيم فى هذا المقام أن يصل يبعث الله فى أمة محمد رسولا منهم ؛ وصادفت الدعوة المستجابة قدر الله السابق بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم رسولا إليهم وإلى الناس كافة يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم القرآن والسنة ،أو يعلمهم الخير فيفعلوه ، ويحذرهم الشر فيتقوه .

(١٣٠) « وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ »

(١٣١) « إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »

(١٣٢) « وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ »

لا يعدل عن ملة إبراهيم وهى الإيمان بالله والإسلام الكامل له إلا من ظلم نفسه نسفهه وسوء تدبيره إذ يترك الحق إلى الباطل والنور إلى الظلام .

وكيف يرغب عاقل عن ملة إبراهيم الذى اصطفاه الله واتخذه خليلا له وكتبه من الصالحين فى الآخرة ؟ ولقد استجاب إبراهيم لأمر ربه إذ قال له « أسلم قال أسلمت لرب العالمين » ووصّى بنيه ألا يفارقوا هذا الدين وأن يموتوا عليه .

(١٣٣) « أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »

(١٣٤) « تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

فى هاتين الآيتين يرد القرآن على الكفار والمشركين الذين رغبوا عن ملة إبراهيم ولم يسلموا لله ، ويسائل هؤلاء المشركين الذين ادّعوا على أنبياء الله اليهودية أو النصرانية ، وينفى القرآن هذا عن إبراهيم من قبل فى قوله :

« ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولـكن كان حنيفاً مسلماً » .

وهنا ينفى القرآن عن يعقوب الذى هو إسرائيل ما زعمته اليهود عنه . ويقرر أنه حين حضرته الوفاة التى لم يشهدها أى يهودى من معاصرى الرسول ـ « قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك . الآية » .

وإذا كانت هذه وصية يعقوب لبنيه ، وكان هذا مبلغ حرصه . عند وفاته وقبل أن يغادر دنياه ، أن يطمئن على توحيد أبنائه لربهم وإخلاصهم عبادته ، والتزامهم ملة إبراهيم ، وأسلامها أن يسلموا لله .

أما قوله « تلك أمة قد خلت . . . الآية » فالمراد به أن يفصل المخاطبون بين واقعهم وبين ماضىّ الآباء والأجداد على أساس أن الانتساب إلى الماضين لا ينفع صاحبه مالم يكن عمله صالحاً يتقدم به ، وأن انقطاع هذا النسب لايضر صاحبه إذا كان له العمل الذى ينجيه وماذا يفيد الآباء الصالحون إذا كان الأبناء والذرية على فساد .

(١٣٥) « وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ »

(١٣٦) « قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »

رُوى عن ابن عباس رضى الله عنه أن رجلا من اليهود يقال له عبدالله بن صوريا الأعور قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد » وقالت النصارى مثل ذلك فنزلت الآية ، وبصرف النظر عن سبب نزول الآية فهى ردٌّ عام قاطع على مثل هذه المزاعم التى يزعمها بعض اليهود والنصارى من دين اليهودية أو النصرانية هى طريق الهداية ؛ وتأكيد بأن ملة إبراهيم وهى الإسلام وعدم الشرك هى وحدها طريق الهداية المستقيم .

و « الحنيف » قيل : المستقيم ، وقيل الخالص وقيل : الذى يستقبل البيت بصلاته ، وقيل . من يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم . . . وغير ذلك .

وفى الآية الثانية تأكيد لمعنى الاستمساك بالحنيفية الخالصة ملة إبراهيم وبيان لها وأنها الإيمان بالله

وبما أنزل على محمد وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وغيره من النبيين والرسل الذين ذكرهم لا على سبيل الحصر، ولكن كمثال، فالإيمان الحق هو التصديق بكل ما جاء هؤلاء وغيرهم ممن قصَّ الله على رسوله ومن لم يقصص عليه، وعدم التفريق بين أحد منهم.

وإن من مزايا القرآن أن حفظه الله سبحانه من التحريف والتبديل فظهرت فيه الآيات الصريحة الداعية إلى الإيمان بكل أنبياء الله ورسله، بينما أخفى بعض اليهود والنصارى ما جاء فى كتبهم خاصا بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وعن معقل بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل وليسعكم القرآن».

«والأسباط» وهم بنو يعقوب. وكانوا إثنى عشر رجلا ولد كل منهم أمة فسمُّوا الأسباط، وللزمخشرى فى الكشاف أنهم حفدة يعقوب وذرارى أبنائه..

وقيل الأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى العرب من بنى إسماعيل.

(١٣٧) «فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»

(١٣٨) «صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ»

الآيتان صريحتان فى أن من آمن بالله من اليهود والنصارى على النحو الذى يقبله الله فهو من المهتدين، ومن تولى منهم، وأعرض فحسابه عند ربه فى الآخرة والله المسئول أن ينصر محمدا صلى الله عليه وسلم وشريعته عليهم فى الدنيا والله هو السميع العليم.

وفى الآية الثانية مطالبة من الله بالتزام صبغته أى دينه وفطرته، ودين إبراهيم وملته، والذين يوقنون بالآخرة يعلمون أن ليس أحسن من الله صبغة.

(١٣٩) «قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ»

(١٤٠) «أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ»

(١٤١) «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ»

المحاجة : المجادلة والمناظرة :

وقد أمر المسلمون أن لا يجادلوا « أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » إلا الذين ظلموا منهم وفى هذه الآية ينكر القرآن على المشركين والمعاندين من أهل الكتاب هذه المحاجة فى الله .

وكيف يقبل المؤمنون ذلك وهم على يقين وإيمان من أنه ربُّ الجميع والمحاسب للجميع وإذا أصر أهل الكتاب على ما يدعون فالله وحده المسئول أن يتولى حسابهم .

وفى الآية الثانية رفض لما يزعمه أهل الكتاب من أن أنبياء الله ممن ذكرتهم الآية كانوا هوداً أو نصارى، فمن أين لهم هذا الذى يدّعون إذا كان من الثابت ـ الذى يخفونه ـ أن الله سبحانه قد أوضح فيما أنزل إليهم من كتب أن الإسلام دينه وأن لا صحة مطلقاً ولا أصل لما يزعمون .

وفى قوله : « وما الله بغافل عما تعملون » إنذار وتهديد ووعيد لهؤلاء الذين يعرفون الحق ويخفونه حسداً وعدواناً وبغياً من عند أنفسهم .

كما روى عن الحسن البصرى رضى الله عنه قال : كان أهل الكتاب يقرأون فى كتبهم التى أتاهم الله أن الدِّينَ (هو) الإسلامُ وأن محمداً رسولُ الله ، وأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية ، فشهدوا لله بذلك وأقروا على أنفسهم لله فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك .

(١٤٢) « سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »

(١٤٣) « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ »

ذكر ابن كثير فى تفسيره قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أُمِر باستقبال الصخرة من بيت المقدس فكان بمكة يصلى بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس ، فلما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة تعذر الجمع بينهما فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس . ونقل ابن كثير هذا عن ابن عباس رضى الله عنه والجمهور .

وقد اختلف العلماء فى التوجه إلى بيت المقدس فقيل : كان بأمر القرآن وقيل : كان بإجتهاد من الرسول صلى الله عليه وسلم .

واستمر توجه الرسول إلى بيت المقدس بضعة عشر شهراً كان الرسول خلالها يكثر الدعاء والابتهال أن يتوجه إلى الكعبة التى هى قبلة إبراهيم عليه السلام فأجيب إلى ذلك وأُمر بالتوجه إلى البيت العتيق فخطب الناس وأعلمهم بذلك وكانت أول صلاة صلاها هى صلاة العصر كما جاء فى الصحيحين .

وقيل بل حدث ذلك التحول من القبلة فى صلاة الظهر وبعد أن صلوا ركعتين منها وذلك فى مسجد بنى ملسلمة فَسُمِّى مسجد القبلتين .

وكان حدث هذا التحول عن القبلة فرصة أمام المنافقين والمشركين التشكيك فى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقالوا : « ما ولاَّهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » فردَّ الله عليهم بقوله : « قل لله المشرق والمغربُ يَهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » وبقوله :

« ليس البرَّ أن تولّوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر .. الآية » .

أما قوله « كذلك جعلناكم أمة وسطا .. الآية » فقد روى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« يجىء النبى يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فَيُدْعَى قومه فيقالُ هل بلّغكم هذا ؟ فيقولون : لا . فيقال له هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم . فيقال له من يشهد لك ؟ فيقول : محمدٌ وأمّته . فَيُدْعى محمد وأمته فيقال لهم : هل بلّغ هذا قومه ؟ فيقولون : نعم . فيُقَالُ وما علمكم ؟ فيقولون : جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرُّسل قد بلغوا .

فذلك معنى هذه الآية .

وقيل المراد أن يشهد المسلمون بعضهم لبعض أو على بعض كما قال الرسول : « أيُّما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة » .

وكما قال : « يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم . قالوا : بم يارسول الله ؟ قال : بالثناء الحسن والثناء السيّء أنتم شهداء الله فى الأرض » .

وفى ختام الآية يشرح الله سبحانه حكمة تحويل القبلة فى قوله : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها

إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه .. الآية » .

وفى معنى « إن الله بالناس لرءوف رحيم » يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى إمرأة من السّبي قد فُرِّق بينها وبين ولدها فجعلت كلما وجدت صبياً من السبي أخذته فألصقته بصدرها وهى تدور على ولدها ، فلما وجدته ضمته وألقمته ثديها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أترون هذه طارحة ولدها فى النار وهى تقدر على ألا تطرحه ، قالوا : لا يا رسول الله. قال : « فوالله للهُ أرحم بعباده من هذه بولدها » .

(١٤٤) « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ »

رُوى عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا سلّم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء فأنزل الله « فلنولينك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام » .

وفى قوله « وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » يروى ابن عباس أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « البيت قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة لأهل الأرض فى مشارقها ومغاربها من أمتى » .

وإن أهل الكتاب من اليهود الذين أنكروا انصرافكم عن بيت المقدس يعلمون بما فى كتبهم أن ذلك هو الحق الذى يعرفونه فى كتبهم ولكنهم يكتمونه ، وما الله بغافل عما يعملون .

(١٤٥) « وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ »

هؤلاء المعاندون من أهل الكتاب والمنكرون لما يعرفون من الحق حسداً وبغياً لن يتابعوك ولن يتبعوا ما جئت به « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم » .

وإذا كانوا على كفرهم مُصِرِّين فأنت ومن معك على الحق ثابتون وبحبل الله معتصمون .

(١٤٦) « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ »

(١٤٧) « الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ »

أهل الكتاب يعرفون أن محمداً صلى الله عليه وسلم نبيٌّ وأن ما جاء به هو الحق ، ولكن فريقاً منهم من أحبارهم وعلمائهم يكتمون ذلك عناداً وحسداً . ولكن ماذا يستطيعون أن يبلغوا بذلك ؟ لا شيء لأن هذا الحق من الله وهو مؤيده وناصره ، فلتثبت يا محمد ولا يحزنك قولهم .

(١٤٨) « ولِكلٍّ وِجهةٌ هُو مولِّيها فاستَبِقُوا الْخَيرَاتِ أينَما تكونُوا يأتِ بكمُ الله جميعاً إنَّ الله عَلَى كلِّ شيء قَدِيرٌ »

ما أشبه هذه الآية فى معناها بقوله سبحانه : « لِكلٍّ جعلنا منكم شِرعة ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا » .

والمعنى فيهما أن على الرسول والمؤمنين ألا يشغلوا أنفسهم بأولئك الضالين المعاندين وليأخذوا هم أنفسهم بما يقربهم من الله ويضمن لهم الخير .

(١٤٩) « ومِنْ حَيثُ خَرجْتَ فَولِّ وجْهَكَ شَطْرَ المسْجِد الحرامِ وإنَّه لَلحَقُّ من ربِّكَ وَمَا اللهُ بغَافِلٍ عمَّا تعْمَلُونَ »

(١٥٠) « ومِن حَيثُ خَرجْتَ فَولِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسْجِد الحَرَام وَحيثُ ما كنْتُم فولُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئلاَّ يكون للنَّاس عَليكُمْ حُجَّةٌ إلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُم فَلاَ تَخْشَوْهُم وَاخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نعْمتِى عَليكُم وَلعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ »

هذا التكرار فى الأمر بتولية النبى والمسلمين وجوههم شطر المسجد الحرام قيل : للتأكيد ، وقيل لملاءمته لكل الحالات التى تناسبه وهى ثلاث : حال من يشاهد الكعبة ، وحال من يقيم بمكة ولكنه غائب عن الكعبة ، بعيد عنها . ثم حال المسلمين فى بقية البلدان .

أما قوله : « لئلا يكون للناس عليكم حجة » فمعناه لأتم نعمتى عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة لتكمل الشريعة لكم من وجوهها .

(١٥١) « كما أرْسَلْنَا فِيكمْ رَسُولاً منكمْ يتْلُو عَلَيكُمْ آياتِنا ويُزكِّيكم ويُعلِّمكُم الكِتابَ وَالحِكْمَةَ ويعلِّمُكمْ مَالمْ تكُونُوا تعْلَمُونَ »

(١٥٢) « فَاذْكرُونِى أذْكرْكمْ واشْكروا لِى ولا تكْفُرُونَ »

تزكية الرسول للمؤمنين هى تطهيرهم من دنس الجاهلية ، ومن أوضار الشرك ، ومن أسباب ضعف

البشر ومعنى الآية هو ما تعبر عنه الآية الكريمة « لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

وأما قوله : « فاذكرونى أذكركم » فقد رُوى عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عزّ وجلّ : يا ابن آدم إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى ، وإن ذكرتنى فى ملأٍ ذكرتك فى ملأٍ من الملائكة — أو قال فى ملأ خير منه ، وإن دنوتَ منى شبراً دنوتُ منك ذراعاً ، وإن دنوتَ منى ذراعاً دنوتُ منك باعاً ، وإن أتيتنى تمشى أتيتك هَرْوَلَةً » .

ويؤيده قوله سبحانه : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » .

(١٥٣) « يأيُّها الّذين آمَنُوا اسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاةِ إنّ اللهَ مَعَ الصّابرين » .

(١٥٤) « وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء ولَكِنْ لاَ تَشْعُرون »

الصّبرُ والصّلاةُ إذا اعتصم بهما المسلم كان الله معه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حَزَبه (أهمّه وشغله وأحزنه) أمْرٌ صَلّى : وأجر الصابرين يوفَّوْنَه بغير حساب ، وحسب الصابرين أن يستثنيهم الله مما يطلق من أحكام على عامة خلقه كمثل ما قال سبحانه : « إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوْا بالحق وتَوَاصَوْا بالصّبر » .

أما الشهداء الذين يُقتَلُون فى سبيل الله فقد جاء فى صحيح مسلم : أن أرواحهم فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العروش ، فاطّلع عليهم ربّك اطلاعةً فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا : يا ربنا وأى شيء نبغى ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا .

« فلما رأوا أنهم لا يُتركون من أن يُسألوا قالوا : نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فى سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى — لما يرون من ثواب الشهادة فيقول الربُّ جل جلاله : إنى كتبت أنهم إليها لا يرجعون .

(١٥٥) « ولَنَبْلُوَنّكم بشىء مِنَ الخوفِ والجوعِ ونَقْصٍ مِنَ الأمْوالِ والأنْفُسِ والثّمَراتِ وبشّر الصّابرين »

(١٥٦) « الّذِينَ إذَا أَصَابَتْهُم مُصِيبةٌ قَالُوا إنّا لِلهِ وإنّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ »

(١٥٧) « أولئِكَ عَلَيهم صَلَوَاتٌ مِنْ ربِّهِمْ وَرَحمَةٌ وأُولَئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ »

ابتلاء الله لعباده امتحان لهم حتى يميز الخبيث من الطيب ، وكما قال سبحانه :

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » .

ولبعض المفسرين فى هذه الآية تأويل يقولون فيه : إن المراد بالخوف هنا خوف الله ، والمراد بالجوع صيام رمضان، والمراد بنقص الأموال الزكاة ، والمراد بنقص الأنفس : الأمراض ، والثمرات الأولاد . رواه ابن كثير وقال : وفى هذا نظر .

وقد حدد الله سبحانه فى الآية الثانية صفة الصابرين المخصوصين بالبشرى هنا بأنهم عند المصيبة يتجلى إيمانهم بالله وبأنهم ملكه وصنعته يتصرف فى أمرهم بما يشاء ، ثم إليه مرجعهم وهم واجدون عنده سبحانه من المثوبة مايطمعون فيه ويرجونه .

والله سبحانه لقاء ثقتهم فى الله وإيمانهم به يعطيهم فيرضيهم فيصلى عليهم ويرحمهم ويجعلهم عنده من المهتدين .

(١٥٨) « إِنَّ الصَّفَا والمَرْوَةَ من شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ البَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ، ومن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ »

جاء فى الصحيحين ما يوضح سبب نزول هذه الآية أن عروة — ابن أخت عائشة — رضى الله عنها قال لها فى هذه الآية : فوالله ما على أحد جُنَاحٌ ألا يطَّوف بهما . فقالت عائشة بئسما قلت يا ابن أختى إنها لو كانت على ما أوَّلتها عليه كانت « فلا جُناح عليه ألاّ يَطَّوف بهما .

« ولكنها إنما نزلت لأن الأنصار كانوا — قبل أن يسلموا — يُهلُّون لِمَناةَ الطاغية التى كانوا يعبدونها وكان من أَهَلَّ لها يتحرج أن يطَّوف بالصفا والمروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله إنا كنا نتحرج أن نطَّوف بالصفا والمروة فى الجاهلية . فنزلت هذه الآية .

قالت عائشة:ثم قد سَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بهما فليس لأحدٍ أن يَدَعَ الطواف بهما.

« فمن تطوع خيرا . . » فزاد الطواف على سبع أو تطوع خيراً فى أى أمر لا فى الطواف خاصة . . فهو خير له والله سبحانه يجزى على القليل بالكثير وذلك معنى شكره سبحانه .

(١٥٩) « إِنَّ الذينَ يكتُمُونَ ما أنزلنا من البينات والهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فى الكتابِ أولئِكَ يَلْعَنُهم اللهُ ويَلْعَنُهم اللاعِنُون »

(١٦٠) « إلا الّذين تابُوا وأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فأولئكَ أَتُوبُ عَلَيهم وأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيم »

هذا موقف العالم يكتم عن الناس علمه ويحجب عنهم ما يمكن أن يهتدوا به فويل له من لعنة الله ولعنة اللاعنين . إلا من تاب وأصلح دين فإن الله يتوب عليه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سُئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار » .

وقيل : نزلت فى أهل الكتاب الذين كتموا ما فى كتبهم من أخبار نبينا محمد صلوات الله عليه .

(١٦١) « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »

(١٦٢) « خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ »

« إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما » .

وبسبب هذا الإثم يخلدون فى نار جهنم « لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك يجزى كل كفور .

(١٦٣) « وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ »

(١٦٤) « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »

وحدانية الله سبحانه وتفرده بالأمر هى المعنى الأكبر فى هاتين الآيتين قرره القرآن فى الآية الأولى ، وقدّم عليه الدليل فى الآية الثانية ، وهو دليل شاء الله سبحانه أن يحرك العقل الإنسانى للوصول إليه ، فوجه نظر الإنسان إلى ما حوله من آثار الله فى هذا الوجود ، وكلها لو تدبر الإنسان أسرار خلقها واستمرارها وإحكام نظمها وحكمة تكوينها وخلقها إلى آخر ما يمكن أن يجده فيها لاهتدى واقتنع ، وسار يقوده عقله إلى الإيمان بالله .

(١٦٥) « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ »

(١٦٦) « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ »

(١٦٧) « وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ »

في الصحيحين عن ابن مسعود قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أيّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خَلَقَكَ» .

وفي هـذه الآيات تحديد موقف الذين يشركون بالله ، فالذين أشركوا مع الله ملائكته تتبرأ منهم الملائكة ، والذين عبدوا الجن تتبرأ منهم الجن ، والذين اتخذوا الأوثان تتبرأ منهم الأوثان ، وحتى الشيطان الذي يُسْلِم المشركون والعصاة له أنفسهم يقول لتابعيه « لَمَّا قُضِيَ الأمرُ إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بِمُصْرِخِكُم وما أنتم بِمُصْرِخِيّ إني كفرت بما أشركتموني من قبلُ إن الظالمين لهم عذاب أليم » .

في هذا الموقف يشعر المشركون بالخسران وبالخزي والندم يوم لا ينفع ، وتمتلىء نفوسهم بالحقد والسخط على الذين اتخذوهم من دونه أنداداً فيتمنون لو عادوا إلى الدنيا ليتبرأوا منهم كما تبرأ هؤلاء منهم . ولكن أنّى يرجعون .

« لذلك يريهم الله أعمالهم حَسَرَاتٍ عليهم وما هم بخارجين من النار » .

(١٦٨) « يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ »

(١٦٩) « إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ »

في صحيح مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

يقول الله تعالى « إن كل مالٍ منحتهُ عبادي فهو حلالٌ لهم ، وإني خلقت عبادي حُنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالَتْهُم عن دينهم وحرمت عليهم ما أَحْلَلْتُ لهم .

ورُوي أن هذه الآية : يأيها الناس « كلوا مما في الأرض حلالا طيبا » تليت عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال سعد بن أبي وقاص : يارسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة فقال الرسول : « ياسعد أَطِبْ مطعمَكَ تكُنْ مُسْتَجابُ الدَّعْوَة والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يُتَقَبَّلُ منه أربعين يوماً وأيُّما عبدٍ نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به » .

(١٧٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ »

(١٧١) « وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ »

وإذا دُعِى هؤلاء المعاندون الجاحدون إلى توحيد الله والإيمان بما أَنزَلَ لم يستجيبوا وقالوا مقالتهم : نتبع ما ألفينا عليه آباءنا .

واتباع الآباء لا بأس به بشرط أن يكونوا على حق ، وأن يكونوا ممن يصح اتباعهم . أما إن كانوا على باطل ، أو كانوا لا يعقلون فالاتباع هنا ليس إلا تقليداً أعمى يلغى للقلد معه عقله وتفكيره ، وكأنما تعطلت حواسه كلها فصار أبكم ، أعمى ، أصمّ .

(١٧٢) « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ »

(١٧٣) « إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

فى هذه الآية تأكيد لما سبق الأمر به فى الآية (١٦٨) من ضرورة أن يكون المطعم طيبا وحلالاً حتى يقبل الله عمل صاحبه ويستجيب لدعائه . وفى آيات أخرى يوضح القرآن ما أُحِلّ للناس ببعض التفصيل الذى تكمله السنة النبوية . والأساس الأكبر فى حل مايحل هو أن يكون طيباً فى ذاته لايصيب الإنسان منه أذى أو شر ، وأن يكون طيبا كذلك فى السبيل التى حصل الإنسان منها عليه فلا يكون مسروقاً أو مغتصباً ، أو مال يتيما إلى آخره .

والآية الثانية تحدد بعض المحرمات وهى نوعان : نوع محرم لذاته كالميتة والدم ولحم الخنزير ونوع محرّم لأنه لم يذكر اسم الله عليه .

وهذا التحريم إنما يراعى ويُطالب به فى الأحوال العادية أما عند الاضطرار الذى لا يكون المضطر معه باغياً ولا معتدياً فلا إثم ولا عقوبة والله سبحانه المسئول أن يغفر وأن يرحم .

(١٧٤) « إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

(١٧٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ »

(١٧٦) « ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ ، وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِى ٱلْكِتَابِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ »

الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب : قيل هم اليهود الذين كتموا ماجاء فى التوراة مبشراً بمحمد صلى الله عليه وسلم ومخبراً عنه ، وشاهداً بنبوته ورسالته . فعلوا ذلك حرصاً على أوضاعهم الدنيوية كأصحاب رياسات فى شئون دينهم وكأصحاب منافع تجرها عليهم هذه الرياسات . فهم قد باعوا آخرتهم وآثروا الدنيا ، وباعوا الهدى واشتروا الضلالة ، وباعوا المغفرة واختاروا العذاب فما أضلهم وما أخسر تجارتهم .

ولقد أبدع القرآن فى تصوير حالهم ومآلهم . فهم فى الحال لا يجمعون من حطام الدنيا غير السحت لا يأكلون فى بطونهم إلا النار ، وهم فى المآل محرومون من كل رضوان الله فلا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . ذلك حكم الله فيهم ، وأسباب الحكم تقررها بقية الآيات .

(١٧٧) « لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلْكِتَابِ وَٱلنَّبِيِّينَ وَآتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّائِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَاةَ وَآتَى ٱلزَّكَاةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَٱلصَّابِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ »

يقرر القرآن فى هذه الآية أساساً من أهم الأسس فى تحديد معنى البر والخير وتحديد قيمة المؤمن وقيمة الإيمان .

فالبر والخير والإيمان ليس مجرد التزام بمظهر ووقوف فى صف مع الواقفين ، ولكنه استقامة حقيقية وأصيلة على مبادىء واضحة :

أولها : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

ثانيها : أن يكون للمؤمن أثره الواضح فى نفع مجتمعه الصغير والكبير ، من ذوى القربى ومن غير ذوى القربى وهذا معناه انتقال الإيمان من مجرد تصديق إلى حالة تطبيق يمارسها المؤمن بحريته فى حدود مقدرته .

ثالثها : إقامة الصلاة على وجهها الأصيل الذى يجعل منها بالفعل عملا ينهى عن الفحشاء والمنكر ويكون له أثره الحقيقى فى تعديل السلوك دائماً صوب الخير .

رابعها : إيتاء الزكاة .

خامسها : الوفاء بالعهد . ولهذا الوفاء مفهوم أخطر وأعمق بكثير مما قد يدلّ عليه اللفظ لأن هذا الوفاء بالعهد يعنى إحساس المؤمن بمسئوليته تجاه الكلمة التى يرتبط بها والتزامه بمواجهة ما قد تفرضه عليه من تبعات .

سادسها : الاتصاف بالصبر فى البأساء والضراء أى حين تضيق الحياة أو تشتد وطأتها على المؤمنين أو يُمتحن بما لا يتوقع ، أو يفاجأ بما لم يكن يحتسب . . فنى مثل هذا كله يصبح الصبر مظهر اكتمال للرجولة واتزان الشخصية ، وارتفاع بالنفس فوق مستوى الحوادث إلى غير ذلك مما يضفى على المؤمن جلالاً ووقاراً وتميزاً من غيره من الناس .

أما الصبر حين البأس وعند مواجهة عدوّ الله فى الحرب فهو مظهر من أعظم وأروع مظاهر الإيمان لأنه قمة التضحية وقمة البذل فى سبيل المبدأ الذى آمن به المؤمن وارتضاه .

وإذا اكتملت هذه الأسس كانت دليلا على أصالة الإيمان وتمكنه من النفس ، وكانت فارقاً جوهرياً بين المؤمن وبين غيره ممن لا تجاوز الكلمات ألسنتهم ، وبين التعلق بالمظاهر وبين نشدان الحقيقة ولذا عقب القرآن فى ختام الآية يصف أصحاب هذه السمات بقوله :

« أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

(١٧٨) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

(١٧٩) « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »

تقرير القصاص فى هذه الآية تقرير لمبدأ عظيم يحمى الحياة من أعدائها ويقمع شهوة القتل فى النفوس الجامحة ، ولذا اعتبره القرآن حياة فقال : « ولكم فى القصاص حياة » ومن مشهور الحكمة « القتل أى قتل القاتل والقصاص منه — أنفى للقتل وأعون على الامتناع عنه ومتى تذكر القاتل أن لا بد أن يقتل فكّر غير مرة وتدبر موقفه قبل أن يرتكب جريمته .

وفى هذه الآية بعض تفصيل حول كيفية القصاص كانت خاصة بظروف معينة ، ولذا نسخت بآية المائدة التى تقرر مبدأ « النفس بالنفس » كما سيأتى دون تقييد رجل برجل أو امرأة أو حر بحر أو عبد إلى آخره .

ويقال فى سبب نزول هذه الآية إن حيّين من العرب (قيل إنهما بنو قريظة وبنو النضير) كانت بينهما فى الجاهلية حروب ومنازعات قتلوا فيها حتى العبيد والنساء ، ولم يأخذ بعضهم من بعض لا قصاصاً ولا دية

فلما كان الإسلام « خلوا فيه حلف الحيّ للظلوم لا يرضى حتى يُقْتَل الحرُّ من ظالميهم بالعبد منهم فنزلت هذه الآية هى كما سبق منسوخة بما سيأتى فى سورة المائدة .

والتخفيف والرحمة المذكوران هنا مراد بهما مايسره على الله سبحانه على المسلمين حين شرع لهم أخذ الدية فى حالة القتل العمد رحمة بهم وتخفيفا عليهم ، وكانت محظورة فى شريعة بنى إسرائيل ولم يكن يصح أخذها فى العمد ، ولا يقبل غير القصاص .

هذا تيسير الله وتخفيفه ورحمة يفتح بهما الباب للعبد عن العدوان والشر « فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » .

(١٨٠) « كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ »

(١٨١) « فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »

(١٨٢) « فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

أرجح الأقوال أن آيات الوصية هذه قد نسختها آية المواريث والفرائض لما رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله قد أعطى كل ذى حقٍّ حقّه فلا وصية لوارث » .

وظاهر سياق الآية أن الوصاية واجبة ، ومن ثم يكون على الوَصِىّ تنفيذ ما أمر به الموُصى ولو غير وبدّل فإنما إثمه عليه لا على الميت . اللهم إلا إذا كان الموصى قد أوصى بمالا يتحقق مع العدل ، أو يكون فيه حيف بالموْصىَ بهم عندئذ يكون من الوَصِىّ أن يُبَدِّلَ حتى يُرَد الأمر إلى الحق ، وهذا معنى قوله « ومن خَافَ من مُوصٍ جَنفًا أو إثمًا فأصلح بينهم فلا إثم عليه . . الآية » .

(١٨٣) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »

(١٨٤) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ »

فى هذه الآية :

* فرض الصيام وأمر المؤمنين به ، واعتباره خيراً للمسلم فى كل حال .
* تحديد مدة معلومة له ، سيأتى توضيحها فى آية « شهر رمضان .. الآية » .
* الترخيص للمريض والمسافر بالإفطار وقضاء مثل ما أفطر .
* قبول الفدية طعام مسكين من الذى يتجشم الصوم ولا يكاد يحتمله

روى عن نافع عن ابن عمر أنها منسوخة بالآية التى بعدها . واختلف فى ذلك فقيل : إن النسخ ثابت بالنسبة للصحيح المقيم فلا يقبل منه الفداء بل يجب عليه الصيام ، أما الشيخ الفانى الهرم فله أن يفطر وعليه الفداء ، ولا قضاء عليه .

(١٨٥) « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »

فى هذه الآية تكريم لشهر رمضان (شهر الصيام) بنزول القرآن فيه . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يفيد أن الكتب السماوية أنزلت كلها فى رمضان . قال الرسول : « أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراةُ لِستٍ مضَيْنَ من رمضان ، والإنجيلُ لثلاث عشرة خلَتْ من رمضان ، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان » .

وقد التبس نزوله فى « شهر » رمضان بآيتين أخريين تؤكدان نزوله فى « ليلة » لا فى « شهر » وهما قوله سبحانه : « إنّا أنزلناه فى ليلة مباركة إنّا كنّا مُنذِرين » قوله : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » .

ويُزيل اللّبس ما رُوى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « أُنزل القرآن فى النصف من شهر رمضان إلى سماء الدنيا فجُعل فى بيت العِزّةِ ، ثم أُنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عشرين سنة لجواب كلام النّاس » .

وهذا معنى قوله سبحانه : « وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتّلناهُ ترتيلا » .

وفى قوله « فمن شَهِدَ منكم الشهر فليصمه » إيجابٌ قاطع بفرض الصيام على من كان صحيحاً مقيما

عند شهود هلال رمضان ، وبه ينسخ ما فى الآية السابقة من إباحة الفطر والفداء . أما المرضى والمسافرون وأصحاب المشقات التى لا تحتمل مع الصوم فالقرآن وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم فى أمرهم تخفيف وتيسير مراعاة لحالهم ، وهذا معنى قوله سبحانه : يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

وفى قوله « ولتكبروا الله على ما هداكم » تنبيه إلى ذكر الله أن وفق عباده لإتمام عبادة الصوم وكما فى قوله : « فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً » وقد اختلف فى التكبير فى عيد الفطر فقيل واجب أخذاً من ظاهر الآية وقيل مستحب ، وقيل لا يشرع التكبير . .

(١٨٦) «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ »

روى أنه لما نزل قوله سبحانه « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم » فقال الناس : لو نعلم أى ساعة ندعو ؟ . فنزلت « وإذا سألك عبادى » الآية .

والدعاء عبادة وذكر ، وكما روى عن الرسول صلوات الله عليه أنه قال : « إن الله ليستحى أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيراً فيردهما خائبتين » .

وكما روى عنه صلى الله عليه وسلم قال: « ما على ظهر الأرض رجل مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة إلا آتاه الله إياها ، أو كف عنه من السوء مثلها ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » .

وللدعاء آدابه وشروطه والمواطن التى ترجى عندها الاستجابة ، فمن آدابه أن يكون الداعى طيب الطعام والشراب طاهر الباطن والظاهر ، ومن آدابه ألا يدعوا بإثم ولا قطيعة رحم ، ومن آدابه ألا تمل ولا يتعجل الاستجابة ، ومن آدابه أن يكون على يقين وثقة من رجائه فى وجه الله .

ومن الدعوات التى لا ترد ما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال :

ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة ، وتفتح لها أبواب السماء ويقول — سبحانه — بعزتى لأنصرنك بعد حين » .

(١٨٧) « أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ

الأسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ ثُمَّ أتِمُّوا الصِّيَامَ إلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وأنتُمْ عَاكِفُونَ فِي المَسَاجِدِ
تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ »

رُوى فى سبب نزول هذه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان المسلمون قبل أن تنزل هذه الآية إذا صلوا العشاء الآخر — حرم عليهم الطعام والشراب حتى يفطروا — يعنى من الليلة القابلة — وأن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أصاب أهله بعد صلاة العشاء ، وأن صرمة بن قيس (وقيل ضمرة بن أنس) الأنصارى غلبته عيناه بعد صلاة المغرب فنام ولم يشبع من الطعام ولم يستيقظ حتى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العشاء فقام فأكل وشرب فلما أصبح أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك فنزلت هذه الآية :
الرَّفَثُ الجماع ، والخيط الأبيض والخيط الأسود . ضياء الصبح من سواد الليل.

وفى الآية تيسير على الصائمين فى حل الطعام والشراب والجماع منذ الإفطار حتى طلوع الفجر . تلك حدود الله أقرها متفقة وطبيعة البشر ، ميسَّرة لكل قادر ، ومن ثم فلا ينبغى تجاوزها أو تعديها .

وفى فضائل الصوم يروى من الآثار والأخبار ما لا يكاد يحصى وما نعجز عن تفصيله لضيق المقام هنا ولعلنا مستطيعون — بعونه سبحانه — أن نفرد له ما يتسع له .

(١٨٨) « وَلاَ تَأْكُلُوا أمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ وتُدْلُوا بِهَا إلَى الحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أمْوَالِ النَّاسِ بِالإثْمِ وأنتُمْ تَعْلَمُونَ »

القاضى أو الحاكم مقيدٌ بالظاهر ، وبما يثبت بين يديه من أوله وهو على أساسها يحكم ولكن بعض ما يقدم للقاضى من أدلة قد يكون زوراً كله ، وقد يعجز صاحب الحق عن إثباته ومع هذا لا يمكن القاضى إلا أن يحكم بما أمامه .

ولكن ثمة قاضياً آخر ، وحكماً عدلاً ، لا تخفى عليه خافية ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . وعند الحكم العدل سبحانه لا يروج عنده الباطل ولا يمكن ، بهما حكم قضاة الظاهر — أن يتحول عنده إلى حق ، ومن هنا يكون قوله الفصل ، فيظل الباطل باطلاً والحق حقاً ، وويلٌ عنده لمن غيّر وبدّل .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « ألا إنما أنا بشر مثلكم ، وإنما يأتينى الخصم ، فلعلَّ بعضكم أن يكون ألحَنَ بحجته من بعض فأقضى له ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من نار فليحملها أو ليذرها .

(١٨٩) « يَسْألُونَكَ عَنْ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحَجِّ وَلَيْسَ البِرُّ بِأنْ تَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ أبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »

قيل إنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم خُلقت الأهلة فنزلت الآية . والأهلة مواقيت للنـاس تنفعهم — فوق منافعها — فى حساب الزمان ومعرفته ، والإفادة به فى مسائل الدين من صيام وفطر ومن صلاة ونسك وعمرة وحج . وفى مثل هذا المعنى ، قال سبحانه :

« وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب » .

أما النهى عن إتيان البيوت فقد روى فى سبب نزوله أكثر من رواية ، أرجحها عنـدى . ماروى الحسن البصرى رضى الله عنه من أن أقواما من أهل الجاهلين كانوا إذا أراد أحـدهم سفراً وخرج من بيته يريد السفر الذى خرج له ، ثم بدا له بعد خروجه أن يقيم لم يدخل بيته من بابه وإنما تسوّره من قبل ظهره فنزلت هذه الآية .

ثم ماروى عن عطاء بن أبى رباح قال : كان أهل يثرب إذا رجعوا من عيدهم دخلوا منازلهم من ظهورها ويرون ذلك أدنى إلى البرّ ، فقال سبحانه ، وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها » .

والمعنى هنا مرتبط — فيما أرى — بمثل المعنى الذى عبر عنه سبحانه فى قوله :

وليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولـكن البرّ من آمن بالله . . الآية » ففى الآيتين نهى عن التعليق بالمظهر ، وأمرٌ وتوجيه إلى نشدان الحقيقة والتعلق بما يكون له فى أعمـاق النفوس تأثير فتلك هى التقوى التى يكون صاحبها من المفلحين .

وفى قوله « وأتوا البيوت من أبوابها » دعوة إلى الطبيعية والسلوك السّوىّ ونهى عن الإغراب والشذوذ وكل مالا معنى له ولا حكمة من ورائه .

(١٩٠) « وقَاتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُم وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ »

(١٩١) « واقتُلُوهُم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ والفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُم عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُم فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُم فَاقْتُلُوهُم كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ »

(١٩٢) « فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

(١٩٣) « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ »

فى هذه الآيات أمر بقتال المشركين ولـكنه مقيدٌ فى حالات بالبعد عن الاعتـداء . ويدخل فى باب الاعتداء قتل النساء والصبية والشيوخ الذين لا رأى لهم ولا قتال فيهم والمنقطعون لعبـادة الله من الرهبان

وأصحاب الصوامع . كما يعتبر من العدوان قتل الحيوان وإحراق الشجر المثمر لغـير ضرورة حربية وهكذا مما روى فى معناه قول الرسول صلى الله عليه وسلم .

« اغزوا فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغُلُّوا . ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا الوليـد ولا أصحاب الصوامع » .

والقتال فى الإسلام لم يشرع طلباً للدنيا ولا توسعاً فيها أعنى لم يشرع لاستعمار الشعوب ولإرضاء مطامع الحـكام ، ولـكنه شرع دفاعاً عن دين الله وإعلاء له وتمكينا لـكلمة الله فى الأرض ، ولذا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعا والرجل يقاتل حَمِيَّة ، والرجل يقاتل رياء أىٌّ فى سبيل الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم :

« من قاتل لتـكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

ويؤكد هذا قوله سبحانه : « وقاتلوهم حتى لا تـكون فتنة » أى حتى لا يكون شرك لا كفر ، كما يقول الرسول : « أُمِرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » .

(١٩٤) « الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ »

تأكيد ثانٍ لرعاية الحرمات عند القتال ففيما سبق نَهْىٌ عن القتـال عند المسجد الحرام وهنا كذلك نَهْىٌ عن القتال فى الاشهر الحرم : هذا هو الأصل إلا إذا أُكره المسلمون على القتـال واضطروا لدفع العدوان فالقتال مباح لهم على ألاّ يعتدوا ، وأن تـكون تقوى الله والخوف منه رائدهم وقائدهم حتى يظفروا بنصره .

(١٩٥) « وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ »

دعوة إلى الإنفاق فى سبيل الله من كل وجه وخاصة عند الجهاد ولإعلاء كلمة الله . ولقـد اختُلِفَ فى تأويل قوله سبحانه « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلـكة » بما معناه أن ليس من الحـكمة أن يتقدم فرد لقتال جماعة ، أو يخرج قائد وحده لاستقبال جيش العدو وهكذا . وكثرت الروايات عن أبى أيوب الأنصارى بما معناه أن القعود عن القتال هو إلقاء الأيدى إلى التهلـكة .

فقد رُوى أن رجلا من المسلمين فى بعض غزواتهم حمل على جيش العدو من الرُّوم حتى دخل فيهم ففزع له المسلمون ولكنه خرج عائداً إلى صفوفهم فصاح به الناس وقالوا : سبحان الله لقد ألقى بيده إلى التهلكة وكان أبو أيوب الأنصارى شاهداً فقال :

يا أيها الناس إنكم لتتأولون هذه الآية على غير التأويل ؛ وإنما نزلت فينا معشر الأنصار ، فإنّا لما أعز الله دينه وكثّر ناصروه قلنا فيما بيننا : لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها فنزلت هذه الآية :

(١٩٦) « وأتِمُّوا الحَجَّ والعُمْرَةَ لِلّهِ فَإنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ ولاَ تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الهَدْىُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْىِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فِى الحَجِّ وسَبْعَةٍ إذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى المَسْجِدِ الحَرَامِ واتَّقُوا اللّهَ واعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ العِقَابِ »

إتمام الحج والعمرة أن يكون الخروج أصلاً لها لا لغيرها من تجارة أو قضاء حاجة ومع أن ذلك الحج والذى لم يكن مقصوداً أصلا يجزىء ويسقط الفريضة لكن إتمام الحج لا يكون إلا بالاتجاه من الأصل إليه ، ولذا قيل فيه هو أن يُحْرِم الرجل من دُوَيْرة أهله قاصداً ، ناوياً متجهاً .

وقيل : إن هذه الآية نزلت فى سنة ست أى فى عام الحديبية عند ما حال المشركون بين رسول الله والمسلمين وبين الوصول إلى البيت فى القصة التى عرض لها القرآن فى سورة الفتح .

فإن أحصرتم : أن منعتم وحال عدوٌّ بينكم وبين إتمام المناسك . فما استيسر من الهدي : أى ما استطاعُ كل تقديمه حسب يساره حتى ولو كان شاة .

ولا يجوز حلق الرأس حتى يبلغ الهدىُ محله ويفرغ الناسك من مناسك الحج . يستثنى من ذلك من كان مريضاً أو به أذى من رأسه فيجوز له أن يحلق ويقدم الفدية صيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين ، أو النسك بشاة لما روى فى ذلك عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

« فإذا أمنتم » وتمكنتم من أداء مناسك فمن كان منكم متمتعاً بالعمرة إلى الحج فليذبح ما قدر عليه من الهدى ولو كان شاة . فمن لم يجد هدياً صام ثلاثة أيام فى الحج يحسن ألا يكون منها يوم عرفة . فإذا رجع إلى رَحْلِهِ أو إلى وطنه صام السبعة الباقية وأكمل العشرة المنصوص على صيامها .

ذلك : التمتع بالعمرة إلى الحج خاص بمن لم يكن أهله مقيمين بالحرم أما المقيمون فأرجح الأقوال أن ليس ذلك لهم لأنهم ليسوا مسافرين ولاينبغى أن تكون لهم رخصة المسافر .

(١٩٧) « الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ »

للحج وقته الخاص تختص به من بين سائر شهور السنة ، ولايصح الإحرام به فى غيرها لما رُوى عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لاينبغى لأحدٍ أن يحرم بالحج فى غير أشهر الحج » .

والأشهر المعلومات هى شوّال وذو القعدة وعشر من ذى الحجة ، وأطلقت عليها لفظة « أشهر » من باب التغليب .

فمن فرض فيهن الحج أى أحرم به فلا رفث : لايحل له الجماع ولا الحديث عنه مع النساء ولا مايتصل به من المباشرة والتقبيل . ولا فسوق : الفسوق كل معصية لله فى الحرم كالصيد أو سباب المسلم ، أو الذبح للأصنام ، أو غيرها من المعاصى .

ولاجدال فى الحج . قيل تلك معالمه ومناسكه فلا جدال فيه .

وقيل : لاتصح المحاولة بين الحجاج بعضهم وبعض فى وقت الحج خشية أن يكون بين المتجادلين خلاف وفتنة . وتزودوا ، خذوا معكم زادكم حتى تكفوا أنفسكم وتكفُّوها عن المسألة . وروى أن قوماً من أهل اليمن كانوا يحجّون ولا يتزوّدون ويقولون : نحن المتوكلون فأنزل الله هذه الآية : وخير الزاد هو تقوى الله وطاعته .

(١٩٨) « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ »

(١٩٩) « ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

رُوى عن ابن عباس رضى الله عنه أنّهم كانوا يتقّون البيع والتجارة والحج ويقولون : هى أيام ذِكْر فأنزل الله هذه الآية .

فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله : الإفاضة من عرفات تعنى انتهاء الحج لقول الرسول صلى الله عليه

وسلم « الحج عرفة — قالها ثلاثا — فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك . وأيام منى ثلاثة فمن تعجّل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه » .

والمشعر الحرام : المزدلفة كلها ، ووجوب الذكر عنده شكرٌ لله على ماهدى ووفّق .

وفى الآية الثانية تنبيه إلى الإفاضة والرجوع بعد الوقوف بعرفة وأمر بالاستغفار وسؤال الله وصيغ الاستغفار كثيرة .

(٢٠٠) « فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ »

(٢٠١) « وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ »

(٢٠٢) « أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ »

بعد إنتهاء المناسك بطيب الاستغفار وبحسن الدعاء والذكر ، فالمفروض لمن هدى الله ، أن النفوس قد صفت وأن القلوب قد أشرقت بنور الله وعاشت فى رحابه وتحت ظلال رحمته فهنا وفى هـذا المقام يطيب ذكر الله . بل لا ينبغى أن يذكر فى هذا المقام غير الله .

وإذا طاب للعبد أن يسأل ربه فى هذه الأوقات الحلوة المشرقة فلا يكن مبلغ همه أن يطلب الدنيا بل يقل : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » حتى يكون أقرب إلى القبول والاستجابة .

(٢٠٣) « وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ »

المراد هنا التكبير بعد الصلوات المكتوبة طوال أيام التشريق وروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « أيّام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله » .

وأيام التشريق أربعة : يوم النحر وثلاثة بعده وهذا قول ابن عباس ، وعن على بن أبى طالب : ثلاثة يوم النحر ويومان بعده . والأول أولى وعليه ظاهر الآية التى جعلت هذه الأيام أربعة فإذا كان منها يوم النحر فما بعده ثلاثة .

(٢٠٤) « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ »

(٢٠٥) « وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِى الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ »

(٢٠٦) « وإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادُ »
(٢٠٧) « ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ واللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ »

فى الآيات الثلاث الأولى تصوير لحال المنافقين الذين يحسنون خداع الناس بظاهرهم وهم فى الحقيقة ألد الأعداء والخصوم .

ومن السمات التى وضحها القرآن للمنافقين هنا : أنهم فى مواجهة المؤمنين يتظاهرون بالصلاح والخير فإذا تولوا عنهم وخلوا إلى أنفسهم ظهروا على حقيقتهم الشريرة مفسدين فى الأرض ساعين بالشر والفتنة بين الناس .

ومن السمات التى وضحها القرآن كذلك هنا ابتلاء الله لهم بالغرور والادعاء بحيث لو ينهوا إلى ماهم عليه أو دُعُوا إلى تقوى الله أخذتهم العزة بالإثم فأواهم جهنم وبئس المهاد .

وفى مقابل المنافقين يأتى نموذج المخلصين الصادقين الذين يبيعون لله أنفسهم دفاعاً عن دينه ولإعلاء كلمته .

وقيل أن هذه الآية الأخيرة نزلت فى صهيب بن سنان الرومى لما أسلم فأبى عليه قومه أن يأخذ من ماله شيئاً إذا أراد اللحاق بمحمد صلى الله عليه وسلم فنزل عن كل ماله وتركه لهم ولحق بمحمد فنزلت هذه الآية .

(٢٠٨) « يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فى السِّلْمِ كَافَّةً ولا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ »
(٢٠٩) « فإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »

السلم : والإسلام والأمر بالدخول فيه موجه إلى كافة المسلمين والمخاطبين أى ادخلوا فيه جميعاً . وقيل ادخلوا فى السلم كافة أى نفذوا كافة تعاليمه وكل ما جاء به ، وهذا خاص ببعض أهل الكتاب ولاسيما اليهود الذين أسلموا ثم حاولوا الاحتفاظ ببقايا شرائعهم فخوطبوا كذلك .

فإن زللتم وأخطأتم بعد ما جاءكم فالله عزيز قادر على عقوبتكم حكيم يعلم ما يصلح لكم وما لا تعلمون فما أحقه — سبحانه — أن يطاع .

(٢١٠) « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِى ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ وقُضِىَ الأَمْرُ وإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ »

هؤلاء الكفار المعاندون الذين أعماهم العناد أن يتذكروا هو أنهم يوم أن يقضى الأمر بين يدى

الله كما صوره القرآن فى مثل قوله : كلا إذا دكت الأرض دكاً دكا وجاء ربك والملك صفاً صفا * وجىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسانُ وأنى له الذكرى * يقول يا ليتنى قدمت لحياتى » .

(٢١١) « سَلْ بَنِى إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ »

بنو إسرائيل مثال لهذا الصنف من بنى الإنسان يعطيه الله النعمة وراء النعمة،ويضع أمامه الدليل ـ على الحق ـ تلو الدليل. ومع هذا لا يشكر النعمة ،ولايهديه الدليل الواضح إلى الحق.لأنه لايريد أن يهتدى فالويل لهؤلاء من بأس الله ومن شديد عقابه .

(٢١٢) « زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ »

هؤلاء الكفار استهوتهم الدنيا فغرقوا فيها وغفلوا بزينتها عن الحق كله ، وتوهموا أن المؤمنين الذين تركوا الدنيا هم الضالين فسخروا منهم . مع أن مقام المؤمنين المتقين عند الله سيكون فوقهم يوم القيامة .

وليس مايحصله الكافر من متاع الدنيا دليل رضاء الله عنه أو دليل أنه هو نفسه على حق لأن الله يرزق من يشاء بغير حساب . ولأن الذين كفروا كما قال القرآن « يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » وروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : « الدنيا دار من لادار لهومال من لامال له ، ولها يجمع من لاعقل له » .

(٢١٣) « كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »

كان الناس أمةواحدة . قيل كانوا على الهدى ، وقيل ـ وهو ما أرجحه وأطمئن إليه ـ كانوا كفاراً أو كانوا لا يكادون يعرفون الله ولا يستطيعون بفكرهم المحدود وعقلهم القاصر أن يهتدوا إلى الله فبعث الله النبيين لهدايتهم مبشرين ومنذرين ، وأيد رسله بالكتب السماوية توضح الحق وتفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه .

وما اختلف فى الحق إلا الذين أرسلت الرسل إليهم وأوتوا الكتب السماوية من اليهود والنصارى الذين اختلفوا فى إبراهيم وفى عيسى وفى محمد عليهم الصلاة والسلام وقالوا ما قالوه مما سجله القرآن وكان الحق فيه مثبتا فى الكتب عندهم ولكنهم عناداً وبغياً أنكروا وبدلوا . فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه لأنه سبحانه الهادى إلى سواء السبيل .

(٢١٤) « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ »

لن يظفر بثواب الله سبحانه إلا من صدق إيمانه وخلصت عقيدته وثبتت للبلاء والاختبار ، ولقد أوذى المؤمنون فى كل زمن فصبروا حتى أتاهم نصر الله ولينصرن الله من ينصره . ولقد روَى خباب بن الأرت قال :

قلنا يارسول الله : « ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو الله لنا ؟ فقال « إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه » .

(٢١٥) « يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ »

قيل أنها نزلت فى عمرو بن الجموح الأنصارى سأل النبى صلى الله عليه وسلم بماذا يتصدق وعلى من ينفق ، وقيل نزلت فى غيره وفى عموم الآية توجيه إلى المصارف وإلى الوجوه التى ينبغى أن ينفق فيها المسلم ويكون إنفاقه فيها مجلبة لثواب الله ورضوانه وقد بدأها بالوالدين والأقربين ووسعها فشملت كثيرين من المحتاجين ، ولعل المراد هنا — كما قيل — الترغيب فى الإنفاق الذى يتطوع به الإنسان ويطلب به الخير ، فالله — سبحانه — عليم بما تنفق يجزيك عليه بأضعافه من البركة فى الدنيا وحسن الثواب فى الآخرة .

(٢١٦) « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »

فى هذه الآية وفى الآيتين بعدها يتحدث القرآن عن الجهاد فى سبيل الله فيبدأ هنا بتقرير أنه فريضة مكتوبة على كل قادر عليها . ومنزلة الجهاد بين الأعمال الصالحات من أعلى المنازل عند الله كما سيأتى فى مواضعه .

ولما كان الجهاد معناه تعريض المجاهد نفسه للموت ولمخاطر الحرب فالنفس البشرية بما ركب فيها من حرص على الحياة تكرهه وتخافه ومن هنا واجه القرآن هذا الإحساس فى النفوس بقوله وعسى أن تكرهوا

شيئا وهو خير لـكم لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون . ولأن الشهيد كما ثبت فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم فيما معناه يودُّ لو أحياه ربه فعاد من جديد إلى الدنيا ليقتل فى سبيل الله وذلك مما شهده من تـكريم ونعيم .

(٢١٧) « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَـكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِـكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْـكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُم فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »

(٢١٨) « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

نزلت هذه الآية فى سرية عبد الله بن جحش الأسدى التى قتلت عمرو بن الحضرمى ، واستاقت عيره وأسرت اثنين من رجاله وكان ذلك فى آخر جمادى أو فى أول رجب فقالت قريش : إن محمداً يستحل القتال فى الشهر الحرام . فلما وفدت السَّرية على الرسول قال لهم لم آمركم بقتال ووَقف العير والأسيرين ولم يقسم الغنيمة ، فشق ذلك على أصحاب السريّة وظنوا أنهم قد هلـكوا فنزلت هذه الآية فأخذ رسول الله العير فعزل منها الخمس فـكان أول خمس فى الإسلام وقسم الباقى بين أصحاب السرية فـكان أول غنيمة فى الإسلام .

ولقد أحلّت الآية الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحاب سرية ابن جحش مما استشعروه من إثم لظنهم أنهم قتلوا فى الشهر الحرام فقررت أن ما وقع على المسلمين جميعاً من أذى المشركين لا يكاد يقاس به ذنب مهما عظم فهم قد كفروا بالله وصدوا الناس عن سبيله وأخرجوا المسلمين من المسجد الحرام وهم أهله ، وفتنوا الـكثيرين ممن أسلموا وردوهم أو حاولوا أن يردوهم إلى الشرك ، ثم هم لم يكفوا ولن يكفوا عن قتال المسلمين ما استطاعوا ألا يقاس هذا كله بقتل واحد منهم ؟ .

(٢١٩) « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَـكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّـكُم تَتَفَـكَّرُونَ »

(٢٢٠) « فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُـكُم وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَـاءَ اللهُ لأَعْنَتَـكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَـكِيمٌ »

قيل أن آية الخمر هذه نزلت لما جاء عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أفتنا فى الخمر فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال فنزلت الآية .

والخمر: كل ما خامر العقل وذهب به ، والميسر القمار وفيهما إثمٌ كبير فى الدين لأنهما يجران إلى الإثم ويوقعان صاحبهما فيه . وما يقال عن منافعهما فى الصحة أو النشاط أو زيادة الكسب من القمار لا يوازى أبداً ما يقع فيه الإنسان من شر - على ما سنعود إليه فى سورة المائدة عند تفسير آية تحريمها الصريح « يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه . . » الآية.

و « العَفْو » الذى صرحت الآية بإنفاقه قيل : هو ، اليسير من كل شىء ، وقيل ما فضل عن حاجة الإنسان وأهله ، وقيل أفضل مال الإنسان وأحسنه .

وروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول » وفى حديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل : « إبدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شىء فلأهلك ، فإن فضل شىء عن أهلك فلذى قرابتك ، فإن فضل من ذى قرابتك شىء فهكذا وهكذا » .

أما آية اليتامى فقيل أنها جاءت شرحاً وتوضيحاً لآيتين قبلها هما : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن » و « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً . الآية » .

فلما نزلت هاتان الآيتان أسرع كل من كان عنده يتيم فعزل ماله من ماله وطعامه من طعامه وشرابه من شرابه ، وأصبح كل همهم أن يحفظوا مال اليتيم وأن يبعدوه عن أنفسهم ولا يخلطوه بمالهم ، وشق ذلك على الناس فذكروه للرسول فنزلت هذه الآية تيسر على أولياء اليتامى وتوضح أن المقصود هو تحقيق رعاية اليتامى والعدل فى الوصاية عليهم من غير إعنات لولى اليتيم ولا تشديد عليه ، والله سبحانه مطلع وعالم . والهدف الإصلاح والعدل وليس الإعنات والتضييق .

(٢٢١) « وَلاَ تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٌ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُم وَلاَ تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُم أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةَ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »

قيل إنها نزلت فى أبى مرثد الغنوى استأذن الرسول فى امرأة جميلة من قريش أن يتزوجها ولكنها

كانت كافرة فنزلت الآية ، تصرح بتحريم الزواج من المشركات أو تزويج المؤمنات للمشركين . وهـذا التحريم لا يسرى على الـكتابيات اللاتى يحل الزواج بهن لما سيجىء بعد .

والحكمة من التحريم هى صيانة الأب المؤمن وصيانة ذريته مما يمكن أن يجره عليه الزواج بالمشركة من الانحراف عن الجادة وضعف الحمية للدين والتأثر — مع الزمن — بفكر المشركة وعقيدتها وسلوكها وهذا ما أشارت إليه الآية : « أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه » .

ولقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه أنـكر تزوج الـكتابية فلما سئل قال مامعناه إنه يشفق من نتائج هذا الزواج ويخشاها على مستقبل الدين والأمة .

(٢٢٢) « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِى الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ »

(٢٢٣) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ »

السؤال هنا ليس عن الحيض فى ذاته ولـكن عن مباشرة المرأة وهى حائض . وقـد أمرت الآية باعتزال النساء فى الحيض لأنه أذى ومضرة ، وقد شرحت السنة أن الرجل يحل له من امرأته — وهى حائض — كل شىء إلا المجامعة . وإن كان الأفضل والأولى الاعتزال خشية أن يجر إلى الوقوع فى المحظور .

وفى قوله : فإذا تطهرن فأتوهن : قيل الأمر للوجوب بمعنى أن مجامعة المرأة بعد طهرها من الحيض واجبة ، وقيل بل الأمر للاباحة وأنه متروك لتقدير الرجل .

وقد أثارت الآيتان كلاماً كثيراً بين العلماء والمفسرين حول تحديد مدى حرية الرجل فى إتيان زوجه أو بعبارة أخرى أيصح للرجل أن يأتى امرأته فى دبرها ؟

والجواب الذى عليه الإجماع أن إتيان المرأة فى دبرها من عمل « قوم لوط » أو ما يسمى « اللوطية الصغرى » وأن هذا العمل من أكبر المحرمات بل ذهب بعضهم إلى القول بكفر من يعمله .

والذى أراه أن الوضع الطبيعى للقاء بين الزوجين معروف والذى تـكون له نتيجة هى الذرية وحفظ النسل بدليل وصفه القرآن للنساء فى الآية بكلمة « حرث » والحرث فى الأرض مايكون الهدف منه الزرع والإنتاج وهذا مايسر الله سبحانه الزوجين له : أما ماعدا ذلك فهو شذوذ وانحراف لا يطبقه إلا الشواذ والمنحرفون والخارجون على طاعة الله ، وهؤلاء قد ذكرتهم الآية — كما ذكرت غيرهم — بأنهم ملاقوه ومعرضون عليه وويل لمن هدى إلى سواء الصراط ثم أعمته شهواته فضل .

وقد رُوى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله :

« استحيوا إن الله لا يستحى من الحق . لاتأتوا النساء فى أدبارهم » وقوله : « ملعون من أتى امرأته فى دبرها » . وقوله : « لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته فى دبرها » .

(٢٢٤) « وَلاَ تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »

(٢٢٥) « لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ »

روى أنها نزلت فى عبد الله بن رواحة ينهاه ربه عن قطيعة خَتَنِه بشر بن النعمان ، حيث كان ابن رواحة قد حلف لا يكلمه ولا يدخل عليه ولا يصلح بينه وبين امرأته .

والآية فى عمومها تؤكد أن الإنسان إذا حلف يميناً يكون فى التزامها والمحافظة عليها عصيان لله أو إثم أو قطيعة رحم أوقعود عن الخير . فمن الواجب العدول عن هذه اليمين وتقديم الكفارة لها . لقول الرسول صلى الله عليه وسلم من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير » .

أما لغو اليمين الذى لا نؤاخذه فيه فهو كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : كلام الرجل فى أهل بيته كَلاَّ والله وبَلَى والله » . وإن كان من الأفضل الاحتراز منه صيانة لاسمه سبحانه .

واليمين التى يؤاخذ عليها صاحبها هى تلك التى تتوفر فيها النية والقصد واليقظة الكاملة للمراد منها والتصميم القلبى عليها . وهو ماعبر عنه القرآن فى قوله « ولكن يؤاخذكم بما عقَّدتم الأَيْمانَ » .

(٢٢٦) « لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »

(٢٢٧) « وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »

الإيلاء أن يحلف الرجل ألاَّ يجامع زوجَه مُدة ما . فإن كانت المدة أقلُّ من أربعة أشهر انتظر حتى تنقضى ثم جامعها . وليس لها فى هذه الحال أن تطالبه . أما إذا بلغت المدة أربعة أشهر أو ما يزيد طالبته المرأة إما أن يفيء (أى يعود إليها) وإما أن يُسَرِّحها ، عندئذ للحاكم أن يجبره على طلاقها .

ومن طريف مايروى فى مناسبة تأجيل المولى بأربعة أشهر ذلك الأثر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه خرج ذات ليلة فسمع امرأة تقول :

تَطَاوَلَ هـذا الليـل واسودَّ جانبه وأرّقنى أن لاَ خَلِيلَ أُلاَعِبُهُ
فو الله لولاَ الله أنّى أُرَاقِبــه لحرّك من هـذا السَّرير جوانبهُ

فسأل عمر ابنته حفصة : ما أكثر ماتصبر المرأة عن زوجها ؟ قالت ستة أشهر أو أربعة أشهر .

فقال عمر : لا أحبسُ أحداً من الجيوش أكثر من ذلك .

(٢٢٨) « وَالمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوء وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَـــوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاَحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »

فى هذه الآية تحديد واضح لمدة العدة التى تعتدها المرأة المطلقة إذا كان قد دُخِلَ بها وكان ممن يحضن فعدتها ثلاثة قروء أى ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار من الحيضات كما قيل .

والهدف من هذا هو الاطمئنان التام على براءة الرحم وخلو المرأة مما قد يكون من حمل لو لم تفرض العدة لجاز انتسابه إلى غير أبيه .

ومن ناحية ثانية — والحديث هنا عن الطلاق الرجعى ، فإن فترة الانتظار هذه تكون فرصة متاحة لكلا الزوجين كى يفكر فى هدوء ويتدبر موقفه الحقيقى من صاحبه . أيمكن أن تعود العلاقة بينهما لتستقر وتستمر ؟ أم أنها بلغت من سوء العشرة مالا عودة بعده .

ولما كان الاطمئنان إلى الرحم مما تعرفه المرأة وحدها من العسير أن يعرفه أو أن يحدده الرجل فقد توعّد القرآن المرأة إذا كتمت حقيقتها أو قالت غير ماهو الحق .

وما دامت المرأة فى عدتها فلزوجها الحق فى مراجعتها بشرط ألا يكون القصد من الرجعة إيذاؤها أو الإضرار « وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحا » .

وعلى الرجل أن يعطى المرأة مالها من الحق لقاء ماقدمت هى من واجب ، وللرجال عليهن درجة فهم القوامون ، وهم المنفقون وهم المستحقون أن يطاعوا ويحفظوا فى شرفهم وفى أموالهم .

(٢٢٩) الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »

(٢٣٠) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »

روى فى سبب نزول آية الطلاق هذه أن الرجل كان يستطيع أن يطلق زوجه ويراجعها ولو فعل هذا مائة مرة ، ولما كان فى هذا إضرارٌ واضح بالمرأة وامتهانٌ لها نزلت هذه الآية تبيح للرجل أن يراجع زوجه مرتين ، وتصبح الطلقة بائنة فى الثـالثة .

ويضع القرآن الرجل فى معاملة المرأة أمام طريقين لاثالث لها :

إمّـا إمساك بمعروف أى الإبقاء عليهـا ومعاشرتهـا بالحسنى ، وإما تسريح بإحسان . أى طلاق لايضيع معه للمرأة أى حق ولايكون القصد منه إيذاؤها والإضرار بها من أى وجه . ومنـه يتضح مبلغ حرص الإسلام على صالح المرأة ويبلغ ما تحقق لها فيه من الخير .

روى عن ابن عباس قوله « إذا طلّق الرجل امرأته تطليقتين فليتق الله فى الثالثـة فإما أن يمسكها بمعروف فيحسن صحابتها ، أو يسرّحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئاً .

وفى قوله سبحانه « ولايحل لـكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً » مطالبة صريحة للرجل ألا يضاجر امرأته ويسىء عشرتها حتى تكره إكراهاً على افتداء نفسها منه كما قال سبحانه « ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » .

أمّا إذا كانت المرأة هى التى قصرت فى أمر زوجها فشاقّته وأبغضته ، وكانت هى الراغبة فى الانفصال فلهـا أن تفتدى نفسها منه بترك ما قد يـكون لها فى ذمته وبردّ ما دفعه إليها الزوج ولا حرج على الرجل فى قبوله وهذا معنى قوله سبحانه : إلاّ أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلاجناح عليهما فيما افتدت به » .

روى ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس بن شمّاس أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله : ما أعيبُ عليه فى خُلقٍ ولا دين ولـكن أكره الـكفر فى الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتردّين عليـه حديقتـه » ؟ قالت نعم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : » أقبل الحديقة وطلقها تطليقة » .

وفى قوله سبحانه : « فإن طلقها فلا تحل له من بعد تحريم صريح للمرأة على زوجها إذا طلقها «الثالثة» فلاتحل له من بعدها إلا إذا تزوجت بآخر زواجاً عادياً لايكون المقصود به الاحتيال وإيجاد المحلل . ولذا

فلا من أن يدخل بها الزوج الثانى وأن تكون بينهما مجامعة .

روى أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : سُئِل عن رجل كانت تحته امرأة فطلقها ثلاثاً فتزوجت بعده رجلاً فطلقها قبل أن يدخل بها أتحل لزوجها الأول ؟ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاحتى يكون الآخر قد ذاق من عُسَيْلَتِها وذاقت من عُسَيْلَتِه » .

والحكمة وراء التشريع واضحة إذ أنه بعد وقوع الطلاق مرة واثنتين وثلاثا ، تصبح العشرة بين الزوجين مستحيلة مالم تتعرض المرأة لتجربة زواج حقيقية أخرى فإما أن تسعدها التجربة الجديدة ، فلا تعود أبداً إلى الأول . وإمّا أن تشعرها التجربة الجديدة بالألم والندم على مافرطت وأضاعت فتعود إلى زوجها الأول راغبة مستبشرة .

وهذا معنى قوله سبحانه ، « فإن طلقها » أى الثانى . فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله » .

(٢٣١) « وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

إذا بلغ النساء أجلهن بعد الطلاق أى قاربت العدة على نهايتها فليختر الرجل بين رجعتها بمعروف أو تسريحها بإحسان . أما أن يرجعها الرجل ليؤذيها أو ليضربها فهذا ما نهى القرآن عنه وهدد من يفعله واعتبره من ظلم النفس .

وفى قوله سبحانه . « ولا تتخذوا آيات الله هزوًا » تقرير قاطع بأن مسائل الزواج والطلاق هذه لاهزل فيها ولا ينبغى أن تكون موطن هزل ، ولقد كان الرجل على عهد النبى صلى الله عليه وسلم يقول للرجل زوجتك ابنتى ثم يقول : كنت لاعباً ، ويقول : قد أعتقت ويقول كنت لاعبا فنزلت هذه الآية . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ثلاث جدّهن جدٌّ وهزلهن جدٌّ النكاح والطلاق والرجعة » .

(٢٣٢) « وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » .

روى عن معقل بن يسار أنه قال : « كنت زوجت أختا لى من رجل فطلقها ، حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها فقلت له : زوجتك، وأفرشتك ، وأكرمتك فطلقتها ثم جئت تخطبها ؟ لا والله لا تعود إليها أبداً .

قال : « وكان رجلا لا بأس به وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه فأنزل الله عز وجل هذه الآية فقلت : الآن أفعل يا رسول الله . فزوجتها إياه .

(٢٣٣) « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

فى الآية تحديد للحد الأقصى لمدة الرضاعة الكاملة وهى سنتان ، وما يزيد عنهما فلا اعتبار به . فى هاتين السنتين تكون للوالدة المرضعة النفقة على زوجها المولود له إذ كان قد طلقها، نفقة بما جرى به الإنفاق على مثلها .

فإذا اتفق الوالدان على فطام الطفل قبل تمام الحولين لمصلحة يريانها فلا جناح عليهما ، وإذا أراد الرجل أن يسترضع ولده من مرضع غير أمه فلا جناح عليه بعد أن يسلم الأم ما استحقته من نفقة رضاع بالمعروف .

(٢٣٤) « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » .

وإذا توفى الزوج كانت تلك عدة امرأته : أربعة أشهر وعشر ليال سواء دخل بها أم لم يدخل بها . إذ الحكم عام فى كل من توفى عنها زوجها إلا من كانت حاملاً فعدتها وضع الحمل أخذاً من قوله سبحانه « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » .

وفى قوله سبحانه « فلا جناح عليهن فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف » ما يفيد أن مدة حداد المرأة على زوجها هى نفسها مدة العدة . ويرجحه ما روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زواج أربعة أشهر وعشراً » .

وفى الصحيحين عن أم سلمة أن امرأة : قالت يا رسول الله : إن ابنتى توفى عنها زوجها وقد اشتكت عتيها أفتكحلها ، فقال : لا . مرتين أو ثلاثا . ثم قال :

« إنما هى أربعة أشهر وعشر وقد كانت إحداكن فى الجاهلية تمكث سنة » .

(٢٣٥) وَلاَ جُنَاحَ عَلَيكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِى أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللهُ أَنكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لاَ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَلاَ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ » .

هذه المرأة التى توفى زوجها عنها وأخذت تعتد عدتها . أتصح خطبتها ، أم العقد عليها ؟ تقول الآية : لاجناح من التعريض بخطبتها كالحديث تلميحاً أمامها عن الزواج أوعن زوجة صفاتهاهى صفاتهاومثل ذلك .

أما يكون بينها وبين الراغب فى زواجها مواعدة سرية وإفضاء بالعواطف الخاصة ومشاعر العشق وما إليها فهذا محظور .

ولا يصح إقرار الزواج وعقد عقده إلا بعد أن تنقضى عدتها ويبلغ الكتاب أجله . وما أبدع قوله سبحانه فى هذا الموقف الذى تضطرب فيه المشاعر وتشتد فيه الوسوسة بالنفس .

« واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم » .

(٢٣٦) « لاَ جُنَاحَ عَلَيكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى المُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى المُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى المُحْسِنِينَ »

يبيح القرآن طلاق المرأة قبل الدخول بها . ولما كان فى هذا صدمة لآمالها وانكسار لخاطرها فقد أمر القرآن بمتعتها بشىء يعطيه الزوج لها حسب مقدرته وكأنه التعويض لها عما فاتها . وللعلماء فى تحديد المتعة آراء كثيرة كما اختلفوا فى : هل تجب المتعة للمطلقة غير المدخول بهـا التى لم يفرض لها كما تنص هذه الآية ؟ أم تجب لكل مطلقة أخذاً من قوله تعالى « وللمطلقات متاعٌ بالمعروف حقاً على المتقين » وقوله . « يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا » .

(٢٣٧) « وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

تختلف الحالة هنا عن سابقتها فكلتاهما طلقت قبل الدخول بها لكنها هنا قد فرض لها معروف مقدر فلها نصف هذا المهر المفروض إلا إذا عفت المرأة أو عفا وليها عنه . وفى الآية أمر للناس ألا ينسوا الفضل بينهم وأن يكون سلوكهم فى مثل هذه المسائل متسماً بالتسامح والكرم وليس بالتقتير والشح .

(٢٣٨) « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ »

(٢٣٩) « فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ »

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن أحب الأعمال إلى الله تعجيل الصلاة لوقتها». وروى عن ابن مسعود قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى العمل أفضل ؟ قال : الصلاة فى وقتها . قلت : ثم أى : قال الجهاد فى سبيل الله ، قلت ثم أى ؟ قال : بر الوالدين » .

لكن ما الصلاة الوسطى ؟

قيل : هى صلاة الظهر . وهذا ما يروى فيه عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قوله : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى الظهر بالهاجرة ولم يكن يصلى صلاة أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منها . فنزلت هذه الآية :

وقيل : هى صلاة العصر : والأحاديث المروية فى هذا كثيرة منها : ما روى عن أبى يونس مولى عائشة رضى الله عنها قال : أمرتنى عائشة أن أكتب لها مصحفاً . قالت : إذا بلغت هذه الآية » حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى « فآذنى فلما بلغتها آذنتها فأملت على « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين » قالت :سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ماروى أن علياً رضى الله عنه سئل عنها فقال : كنا نراها الفجر أو الصبح حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم الأحزاب : « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً » .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم « من فاتته صلاة العصر فكأنما وُتِرَ أهله وماله » . والآثار فى هذا كثيرة .

وقيل : هى صلاة الفجر . روى عن أبى رجاء العطاردى قال :

صليت خلف ابن عباس الفجر فقنت فيها ورفع يديه ثم قال : هذه الصلاة الوسطى التى أمرنا أن نقوم فيها قانتين » فالقنوت فيها مرجح كونها الوسطى :

وقيل بل هى الوسطى لكونها تتوسط صلاتين رباعيتين تقصران ، وهى لا تقصر وقيل لأنها تتوسط صلاتى نهار سريتين ، وصلاتى ليل جهريتين .

وقيل : إنها صلاة المغرب .

وقيل : إنها العشاء ، وقيل الجمعة ، وقيل الجماعة ، وقيل صلاة عيد الفطر ، وقيل صلاة الأضحى والآراء كثيرة. « وقوموا لله قانتين » خاشعين خاضعين منصرفين إلى الصلاة لا يشغلكم عنها شاغل .

وفى قوله « فإن خفتم فرجالا أو ركبانا » بيان لكيفية الصلاة عند الخوف أى فى حالة الحرب إذ الأصل فى الصلاة أن تؤدى كاملة على ما ينبغى لها من الخشوع وتمام الركوع والسجود . إلا فى حالة الخوف هذه فتصبح الصلاة على أى حال أمكن أداؤها عليها رجالا على الأقدام أو ركبانا مستقبلى القبلة أو حتى غير مستقبليها، بالركوع والسجود إن أمكن أو بالإيماء. إذا لم يمكن. وهذه حالة ضرورة تزول بزوالها فإذا أمن المسلمون وزال الخوف عادت الصلاة إلى حالتها كما قال : « فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون » .

(٢٤٠) « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »

(٢٤١) « وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ »

(٢٤٢) « كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »

رُوى فى سبب نزولها أن رجلا من أهل الطائف قدم المدينة وله أولاد رجال ونساء ومعه أبواه وامرأته .فمات بالمدينة فرفع ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأعطى الوالدين وأعطى أولاده ولم يعط امرأته شيئاً غير أنه أمرهم أن ينفقوا عليها من تركة زوجها مدة حول . فنزلت الآية .

وروى عن ابن عباس فى تفسيرها قال : كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة فى بيته ينفق عليها من ماله ، ثم أنزل الله بعد « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً » فأصبحت هى عدة المتوفى عنها زوجها مالم تكن حاملا فعدتها وضع الحمل . ثم كانت آية « ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن » فبينت ميراث المرأة وتركت الوصية والنفقة وللفقهاء فى هذا طويل كلام .

أما قوله : « وللمطلقات متاع بالمعروف « الآية » فهى دليل يستند به من يقول بأن المتعة واجبة للمطلقة دُخل بها أم لا ، مفروضا لها مهر أم غير مفروض .

(٢٤٣) « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ »

يُروى أن آلافا من الناس من أهل قرية أصابهم وباء فى أرضهم — أو قيل فسدت ريحها — فأبوا

إلا أن يخرجوا منها فراراً من الموت . فشاء الله أن يُنْزِلَ بهم الموت دفعة واحدة فى المكان الجديد الذى انتهوا إليه وظنوا أنه عاصمهم . ثم مرّ بهم أحد أنبياء الله فدعا ربه أن يحييهم على يديه فأحياهم .

تؤكد الآية أن الحذر لا ينجى من القدر ، وأن الطاعون إذا نزل بأرض فليبق أهلها فيها . يؤكد هذا حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن الطاعون برواية عبد الرحمن بن عوف : « إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليها » .

(٢٤٤) « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »

نعم . فإذا كان الفرار من الموت لا يمد فى الأجل ولا يمنع القدر ، فإن الاستبسال فى القتال لا ينقص المكتوب من العمر ورحم الله خالد بن الوليد يوم قال وهو على فراش موته : لقد شهدت كذا وكذا موقعا وما من عضو من أعضائى إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة ، وها أنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء .

(٢٤٥) « مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »

المعنى نفسه يشرحه ويؤكده — فيما سيأتى — قوله سبحانه « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء » .

والإنفاق فى سبيل الله : قيل هو الإنفاق على العيال ، وقيل النفقة العامة فى سبيل الله وقيل : هو التسبيح والذكر .

(٢٤٦) « أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِىٍّ لَهُم ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُم الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ، قَالُوا وَمَالَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُم وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ »

الخلاف كثير حول تحديد اسم هذا النبى وزمنه والذى يعنينا هنا هو مضمون الآية وهو أن هؤلاء القوم من بنى إسرائيل بعد ما غُلبوا على أمرهم قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله . فلما كتب عليهم القتال لم يفوا بما وعدوا مع تأكيدهم السابق بأن حماستهم للقتال طبيعية بسبب ما تعرضوا له من الويلات والمشاق . ومع هذا نكصوا عن القتال وتدلوا ظالمين عنه .

(٢٤٧) « وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُم إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ »

استجاب الله وقال لهم نبيهم إن الله قد عيّن « طالوت » ملكا عليكم ، وكان طالوت من الجند المحاربين ولم يكن من أهل بيت الملك ولذا أنكره القوم وقالوا : كيف يملك علينا ؟ وردّ النبي عليهم بأن الله اصطفاه لتوفر أسباب القيادة وهى العلم وقوة الجسم الأمر فى النهاية له سبحانه يؤتى ملكه من يشاء . .

(٢٤٨) « وقَالَ لَهم نَبِيُّهم إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »

قال لهم نبيهم إن علامة ملك طالوت عليكم أن يأتيكم التابوت الذى كان قد أخذ منهم يوم غلبوا على أمرهم ، وأن تأتيكم كذلك بعض الآثار الباقية التى تعرفونها بما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة . .

وقد جنحت بعض الروايات إلى تصوير السكينة التى يضمها التابوت بصور حسية فقالوا لها وجه كالإنسان ولها صوت كصوت الهرة وهذا ما لا يطمأن إليه . والمعقول ما قاله الربيع ، وما قاله عبد الرزاق ابن معمر عن قتادة من أن السكينة هى الرحمة والوقار .

أما بقية آل موسى فقيل هى : عصا موسى ، وقيل بقية من الألواح ، وقيل هى التوراة .

(٢٤٩) « فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ »

لما خرج طالوت الملك بالجيش قال لجنوده ستمرون بنهر : قيل إنه نهر الأردن وقيل هو نهر بين الأردن وفلسطين وكانوا يسمونه فيما مضى نهر الشريعة . . قال طالوت من شرب منه فليس منا ومن اغترف بيده غرفة فروى بها بعض ظمئه فلا جناح عليه . فشرب الأكثرون من النهر وبذا أصبحوا منفصلين عن الجيش فلما عبرت النهر القلة القليلة استصغرت شأنها أمام العدو فقالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت

وجنوده . فقال لهم العلماء العارفون فيهم . العبرة ليست بالعدد ولكن بالصبر ، « وكم من فئة قلية غلبت فئة كثيرة بإذن الله » . .

(٢٥٠) « ولَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ »

(٢٥١) « فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ وقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ المُلْكَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ »

(٢٥٢) « تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ »

القلة المؤمنة التى لم تشرب من النهر واستجابت لأمر الله لما برزت للعدو سألت الله النصر والثبات فاستجاب الله لهم وهزموا بإذن الله عدوهم ، وقُتل قائد جيش العدو « جالوت » على يد واحد منهم هو داوود الذى أكرمه الله وآتاه الملك والحكمة .

وفى قوله سبحانه : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض بيان لأسرار حكمته سبحانه فى عمارة هذا الكون ومصارعة الحق فيه للباطل حتى يصرعه . «ولولا هذا الصراع بين الخير والشر ، أو لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . وكيف يأذن سبحانه بفسادها وهو رب الفضل على كل من فيها .

وهذا الحديث الذى قصه القرآن على نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم يطابق الحق الذى يجده بنو إسرائيل مكتوباً عندهم . . وإن بدّلوا وغيروا . وفى ختام الآية تأكيد رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم لكل منكر وخاصة هؤلاء .

(٢٥٣) « تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُم دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ »

« تلك الرسل فضلنا » . فالله للفضل وهو صاحب المفاضلة بين رسله . منهم من كلمه الله : يعنى « موسى » و «محمد» عليهما السلام . وكذا « آدم » فى بعض الروايات ، وأوتى عيسى درجات من عنده سبحانه دلائل على أنه نبى ، وبعث الله الروح القدس ينصره ويشد أزره .

ولو شاء الله أن يهدى الخلق إلى الإيمان بهذه الحقائق لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ولما كان بينهم

قتال ولا خلاف ، ولكنهم اختلفوا فنهم من آمن ومنهم من كفر .. تلك إرادة الله وهو سبحانه يفعل ما يريد .

(٢٥٤) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ »

فى الآية أمر من الله بالإنفاق . وأكثر آيات الإنفاق تقترن بتأكيد أن الله هو الرازق وأن ما ننفق منه هو ما رزقنا به . وإذاً فنحن فى المال وكلاء ، ومن ثم فلا معنى للبخل أو التقصير فى الخير ، وخير الإنفاق ما أنفقه العبد بيده وقدمه لليوم الذى تحدثت عنه الآية .

(٢٥٥) « اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ »

الروايات كثيرة فى فضل هذه الآية « آية الكرسى » فى القرآن . نقص منها ما رُوى أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه خرج ذات يوم إلى الناس فقال : أيكم يخبرنى بأعظم آية فى القرآن ؟ فقال ابن مسعود على الخبير سقطت . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أعظم آية فى القرآن : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » .

ورواية أخرى تفسر سر هذا التفضيل بأنها تشتمل على اسم الله الأعظم، الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم. ويقرر ابن كثير فى تفسيره أنها تشتمل على عشرة جمل مستقلة تعطى كل منها معنى قائماً بذاته وهى :

« الله لا إله إلا هو » وفيها التوحيد الخالص ؛ « الحى القيوم » وفيها إثبات الحياة لذاته وأنه القيوم لغيره ؛ « لا تأخذه سنةٌ ولا نوم » نفى للصفتين عنه سبحانه ؛ و « له ما فى السموات وما فى الأرض » إثبات ملكه سبحانه لكل ما فيهما ؛ « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » نفى الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ؛ « ويعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » إثبات علمه سبحانه وإحاطته بجميع خلقه ماضيها ويومها وغدها ؛ « ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء » لا يطلع أحد من خلقه على شىء من علمه إلا بما أطلعهم عليهم وأخبرهم به فى كتبه وعلى ألسنة رسله ؛ « وسع كرسيه السموات والأرض » أحاط بهما وشملهما ولسنا بالقياس إليه كالحلقة فى الفلاة ؛ « ولا يؤوده حفظهما » لا يشق عليه ولا يعجزه ؛ « وهو العلىّ العظيم » .

وفى وصف الكرسى والحديث عنه روايات كثيرة أوثر هنا التوقف فيها تاركاً علمها إليه سبحانه ، مقراً بتنزيهه سبحانه عن كل مشابهة للحوادث إذ « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » .

(٢٥٦) « لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »

رُوى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : كانت المرأة من الأنصار لا يكاد يعيش لها ولدٌ فتحلف لئن عاش لها ولد لتهودنه ، فلما أجليت بنو النضير إذا فيهم أناسٌ من الأنصار فقالت الأنصار يارسول الله : أبناؤنا . فأنزل الله هذه الآية .

قال سعيد بن جبير : فمن شاء لحق بهم ، ومن شاء دخل فى الإسلام .

وثمة روايات أخرى فى أسباب نزولها . والمهم أن الآية تترك اختيار الدين إلى العقل الذى وضح أمامه الهدى من الضلال والرشد من الغى ، وتحددت أمامه منزلة كل من المهتدين والضالين .

ولكن كثيرين من العلماء يقولون إنها نسخت بآيات القتال وأنه يجب دعوة جميع الأمم إلى الدخول فى الإسلام أخذاً من قوله سبحانه : « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » وقوله « ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون » وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . . الحديث » .

« والطاغوت هنا : هو الشيطان رمز كل شر وعنوان التواء العقيدة وضلال الطريق . أما العروة الوثقى فهى الطريق المستقيم ، طريق الفطرة السوية والفكر الرشيد طريق الإسلام .

(٢٥٧) « اللهُ وَلِىُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »

فى الآية ترغيب للمؤمنين فى الإيمان وتخويف للكافرين من الكفر . فالله ولىّ المؤمنين يدفع عنهم ويهديهم إلى كل ماهو نور وخير . والذين كفروا وليهم الشيطان يخرجهم من النور إلى الظلمات حتى إذا أرداهم « قال إنى برىء منكم » فويل لهم ساعتها وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

(٢٥٨) « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ . قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ »

فى هذه الآية صورة كبيرة الدلالة من صور الجدال بين الحق والباطل فهذا نمرود بن كنعان ملك بابل يطغيه الملك فيظن أنه قادر على كل شىء ويتصور نفسه إلهاً أو كالإله ويرفض ألوهية الواحد الأحد . فيقول له نبى الله إبراهيم عليه السلام .

الدليل على وجود الله ربى . أنه الذى يحيى ويميت أى أنه الذى يوجد ويعدم وآثاره دليل وجوده فيقول الطاغية : وأنا أحيى وأميت . يعنى : لدى السلطة أن أمر بقتل من يُقتل فكأنى الذى أميته ، ولدى السلطة أن آمر بالعفو عنه فكأنى الذى أحييه .

فقال إبراهيم عليه السلام .

إن ربى مدبر الكون ومالكه والمسيطر على أمره كله وهذا ربى يأتى بالشمس من المشرق فإن كنت — كما تزعم إلهاً — فأت بها من المغرب .

فَبُهِتَ الذى كفر . وخرس لسانه ولزمته الحجة ولكنه — عناداً وطغياناً لم يسلم وبقى على كفره حتى أخذه الله .

(٢٥٩) « أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »

المشهور أن القرية المشار إليها هى « بيت المقدس » بعد أن خربها بختنصّر » وقتل أهلها . والذى مر عليها تختلف الروايات كثيراً من حوله وإن اتجهت جميعها إلى أنه من بنى إسرائيل . فلما مر ببيت المقدس هاله ماحل بها من خراب فقال : أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟ فأماته الله مائة عام ثم بعثه .

وخلال المدة التى مات فيها كانت المدينة قد تغيرت واستحال خرابها عمراناً وتبدل أهلها واختلفت حالتها ، فلما أذن الله بإحيائه وسئل كم لبث ؟ قال مقالته التى شرحتها الآية . فلما رُدّ عليه وتبين له صدق ماوقع ازداد إيماناً وقال إن الله على كل شىء قدير .

(٢٦٠) « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »

ذكر الواحدى فى أسباب النزول كثيراً من الروايات والأقوال لاتكاد تخرج فى مجموعها عن مضمون واحد هو أن إبراهيم عليه السلام عثر على شاطىء البحر بدابة ميتة : قيل هى الحوت أو غيره ، وبعضها كان

فى الماء وبعضها على الشاطىء فى اليابسة ، فكانت تأكل منها حيوانات البحر ، وحيوانات البر ، وطيوره وينصرف كلٌ بما يأخذ منها وتبقى العظام تضربها الشمس فتبلى فتذروها الريح ، أو تفنى فيما حولها بين الأرض والماء .

رأى إبراهيم عليه السلام هذا فتدبر فيه وعجب فسأل ربَّه ماسأل . لاشكّاً فى قدرة ربّه سبحانه. ولكن طلباً للاطمئنان وزيادة فى اليقين والتثبت .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار إن إبراهيم عليه السلام لما احتج على النمروذ بن كنعان فقال : ربى الذى يُحيى ويميت . قال له النمروذ : هل عاينت هذا الذى تقوله . ولم يقدر أن يقول نعم فانتقل إلى حجة أخرى — يعنى سؤاله إياه أن يأتى بالشمس من المغرب — ثم سأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى كى يطمئن قلبه ويزداد قوة فى مثل مواقف هذا الاحتجاج لأنه يكون مخبراً عن مشاهدة وعيان .

(٢٦١) « مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ »

ضرب الله سبحانه هذا المثل لبيان ثواب ماينفق فى سبيل الله وكيف يضاعفه الله للمنفق .

وللعلماء فى العدد الذى يضاعف عنده ثواب الحسنة آراء . فمن قائل : ثواب الحسنة بعشر أمثالها ومن قائل بسبعين ، وقائل بسبعمائة ، ولكل وجهته ودليله .

والذى أعتقده أن الأعداد التى تذكر فى مضاعفة الثواب سواء فى الآيات أو فى الأحاديث إنما هى دليل وعلامة على فضل الله سبحانه . وعلى أن العمل الصالح لابد أن ينمو وينمو ثوابه عند الله بدليل أن ثمة أعمالا لم يحدد الله سبحانه مبلغ ماينال صاحبها من ثواب مع أنهما من أحب الأعمال إلى الله سبحانه وأكثرها مثوبة عنده كالصوم مثلا الذى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم :

« إن الله جعل حسنة ابن آدم بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم . فإن الصوم لله وهو يجزى به ، وللصائم فرحتان . فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاء ربه ، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

ففيه دليل على أن للصوم عند الله سبحانه مثوبة خاصة لايمكن تقديرها . كما أن هذه الآية صريحة فى أن الله « يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » فالأمر ليس أمر تحديد بعشر أو بسبعمائة ولكنه إشارة ودليل على ماينتظر المحسن عند الله من فضل .

(٢٦٢) « الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم فِى سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا ولاَ أَذًى لَهُم أَجرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ولاَ خَوفٌ عَلَيهِم وَلاَ هُمْ يَحزَنُونَ »

(٢٦٣) « قَولٌ مَعروفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ »

(٢٦٤) « يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالمَنِّ والأَذَى كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ولاَ يُؤمِنُ بِاللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَىءٍ مِمَّا كَسَبُوا واللهُ لاَ يَهْدِى القَوْمَ الكَافِرِينَ »

فى آية سابقة ضرب الله سبحانه المثل لبيان ما يناله المنفقون من ثواب أضعافا مضاعفة . وفى هذه الآيات جميعا يتحدث القرآن عن الانفاق وما ينبغى أن يتوفر له من شروط حتى يكون أهلا لمثوبة الله ولمضاعفة الثواب .

ففى الآية الأولى تحديد أساس الهدف من الإنفاق وهو أن يكون فى سبيل الله : وسبيل الله معروفة سواء كانت عامة ، كالإنفاق فى الجهاد والحرب ، وتقديم الخدمات والمعونات العامة التى ينتفع بها عامة المسلمين ، أو عمارة بيوت الله وغير ذلك مما يعود على الجميع نفعه .

أو كانت خاصة كانفاق الرجل على نفسه وأهله وذوى رحمه ومن يتصلون به . فسبيل الله فى الحالين واضحة ، لأن الإنفاق يعود بالخير والنفع على المنفق فى نفسه ثم يعود على مجموع الأمة .

وفى الآية نفسها ثم فيما يليها من آيات بيان محدد بالصفة التى ينبغى أن يتم عليها الإنفاق فى سبيل الله وركنا وأركان هذه الصفة :

أولا : ألا يُتبع المنفقون نفقتهم بالمنّ والأذى .

ثانياً : أن يكون الاتجاه إلى الإنفاق خالصاً لوجهه سبحانه لا يقصد به المباهاة والرياء .

ثالثاً : وهو ما ذكر فى آية أخرى : أن يكون مصدر الإنفاق طيبا ، وأن يختار الطيبُ منه لإنفاقه أخذا من قوله سبحانه « ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون » .

وفى تأكيد هذه المعانى روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : المنّان بما أعطى ، والمُسْبِل إزاره ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » .

ثم كانت الصورة التى رسمها القرآن الكريم للمرائين بالأعمال وجعل الرياء ينزل على العمل فيمحوا ثوابه كما ينزل وابل المطر على الحجر الصلد فيغسل عنه ترابه ويزيل كل ما به .

كما تضمنت الآيات توجيهاً عظيما لأولئك الذين تخلو من المال أيديهم فتدلهم على معين لا ينضب للفوز بمثل ثواب المنفقين المخلصين وهو «قول المعروف والمغفرة» بل قول المعروف خير من الصدقة يتبعها أذى.

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ما من صدقة أحب إلى الله من قول معروف» .

(٢٦٥) «وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»

فى هذه الآية ضرب القرآن المثل لحال المؤمنين الذين ينفقون فى سبيل الله وهم على ثقة مما عنده فإذا الله سبحانه يصلهم بحسن الثواب ودائم المغفرة وهم فى هذا كالحديقة فى المكان المرتفع إن أصابها المطر الغزير تؤتى ثمارها ضعفين ، وإن لم يصبها لم تحرم ولو من الطل والندى يرطب أشجارها ويستبقى أزهارها ، ويضمن لها استمرار الحياة . هكذا المؤمنين فيما ينفقون وهكذا مثوبتهم عند ربهم .

(٢٦٦) «أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ»

«اللهم اجعل أوسع رزقك علىّ عند كبر سنى وانقضاء عمرى» هكذا كان يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى دعائه فيما رواه الحاكم فى مستدركه .

نعم وصدق رسول الله فما أحوج الإنسان فى آخر العمر إلى الأمان والاطمئنان والخير فكيف إذا كانت له على الكبر ذرية ضعفاء ، ثم نزلت به النازلة وجاء الإعصار فأحرق ما زرع ودمر ما كان عنده . فكيف تكون حاله ؟ ! وماذا يكون مآله ؟ ! .

هكذا حال الكافر بين يدى الله يوم القيامة . لم يقدم شيئاً ينفعه فكأنما احترق كل ما عنده ولا سبيل له من عودة إلى الدنيا ليعمل من جديد ، كما ضاعت آمال الشيخ العاجز أحرق الإعصار بستانه .

ورُوى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : فيمن ترون نزلت هذه الآية ؟ قالوا : الله أعلم . فغضب عمر فقال : قولوا : نعلم أولا نعلم . فقال ابن عباس : فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين . فقال عمر : يا ابن أخى . قل ولا تحقر نفسك . فقال ابن عباس رضى الله عنهما :

ضُربت مثلا بعمل ـ قال عمر : أى عمل ـ قال ابن عباس : لرجل غنى يعمل بطاعة الله ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أغرق أعماله .

(٢٦٧) « يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد »

(٢٦٨) « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم »

(٢٦٩) « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب »

قيل فى سبب نزول هذه الآية أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بزكاة الفطر بصاع من تمر فجاء رجل بتمر ردىء فنزلت الآية .

وبعيداً عن خصوصية السبب نجد فى الآية أمراً بأن ينفق الإنسان حين ينفق ـ من طيبات ما كسب أى من أحسنه وأجوده ، فإن أعطى فى سبيل الله تخير من أحسن ماعنده ليعطيه ، وإن أعطى لذى رحم أو لفقير أو محتاج تخير من أحسن ما عنده ليعطى . وفى الآية كذلك نهى عن تقديم الخبيث للانفاق منه فى زكاة أو صدقة أو غيرها .

وكيف بالإنسان يفعل ذلك والمال الذى بين يديه مال الله . استودعه لدى الإنسان على أن يؤدى حق الله فيه . فهل مما يصح أن تدفع لصاحب الحق أسوأ ما عندك ؟ وهل يتقبل الإنسان نفسه أن يُفعل به ذلك .

تقول الآية . لا . « ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » .

وفى الآية الثانية « الشيطان يعدكم الفقر » تضع الآية الكريمة أيدينا على نقطة الضعف فى موقف الإنسان من المال ، فهو مهما جمع من مال وعدده . لا يشعر بغنى النفس لأن الشيطان من خلافه يخفيه من الفقر وينزع من قلبه الاطمئنان إلى ما عند الله فيشتد حرصه ويزداد جشعه ويخيل إليه أنه قد ملك المال وما هو فى الواقع إلا عبد له وأسير . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« إن للشيطان لمةً بابن آدم ، وللملك لمة : فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق . وأما لمة الملك فإيعادٌ بالخير ، وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، فليحمد الله : ومن وجد الأخرى فليعوذ من الشيطان » ثم قرأ الرسول صلى الله عليه وسلم « الشيطان يعدكم الفقر . الآية .

هذا هو الموقف فمن آتاه الله الحكمة ووفقه للعمل بقرآنه فقد أوتى خيراً كثيرا .

(٢٧٠) « وما أَنْفَقْتُم مِنْ نَفَقَةٍ أَو نَذَرْتُم مِنْ نَذْرٍ فإنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ وما للظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ »

(٢٧١) « إِنْ تُبدوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِى وَإِنْ تُخْفُوها وتُؤْتُوهَا الفُقَراء فَهُو خيرٌ لَكُمْ ويُكَفِّرْ عَنكم مِن سَيِّئَاتِكُم وَاللهُ بِمَا تَعملُونَ خَبِيرٌ »

يطلع سبحانه على الإنسان فيا ينفق أو ما ينذر للانفاق ، وما أضيع الظالم الذى يأكل الحقوق الواجبة أو يؤديها على أسوأ وجه .

ولما نزل قوله « وما أنفقتم من نفقة ..الآية » قالوا يارسول الله : صدقة السّرّ أفضل أم صدقة العلانية؟ فنزلت « إن تبدو الصدقات .. الآية.

وتقرر الآية أنه لا بأس فى إعلان الصدقة ولعل الحكمة — والله أعلم — هى إشاعة القــدوة الحسنة ونشر روح البر والخير فى الناس وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

ولكن الأحسن والأولى أن يتم التصدق فى السر ، لأن فى الإسرار رعاية لكرامة المتصدق عليه وصيانة الإنسانية ، أن فيها — وهو الأهم فيا أرى — أن يرتقى المتصدّق فى سلوكه وإحساسه فيصبح أكبر من التظاهر بأنه خيِّر ، ويصبح إيمانه بما عند ربّه أملكَ لنفسه ، وأغلبَ على طبيعته .

وروى أبو هريرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

« سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظلّ إلا ظله : إمامٌ عادل ، وشابٌ نشأ فى عبادة ربه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل قلبه معلق بمسجد إذا خرج منه رجع إليه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ربّ العالمين ، ورجل تصدّق فأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه .

(٢٧٢) « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاء وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ »

(٢٧٣) « لِلفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُوا فى سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فى الأَرْضِ يَحْسَبُهُمْ الجَاهِلُ أَغْنِيَاء من التَّعَفُّفِ تَعرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ »

(٢٧٤) « الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر بألا يتصدقوا إلا على أهل الإسلام حتى نزلت « ليس عليكم هداهم ... الآية . . وفيها تأكيد قاطع بأن المتصدق يثاب على صدقته لا على من تقع الصدقة فيه ، ويروى فى ذلك الحديث المشهور عن أبى هريرة أن رسول الله قال :

«قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية . فأصبح الناس يتحدثون : تصدق الليلة على زانية : فقال : اللهم لك الحمد على زانية : لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج فوضعها فى يد غنى فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على غنى فقال : اللهم لك الحمد على غنى ، لأتصدقن الليلة بصدقة : فخرج فوضعها فى يد سارق فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على سارق فقال :

اللهم لك الحمد على زانية ، وعلى غنى وعلى سارق، فأتى . فقيل له : أما صدقتك فقد قبلت ، وأما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زنا ، ولعل الغنى يعتبر فينفق بما أعطاه الله ، ولعل السارق يستعف بها عن سرقته .

ومما وجبت لهم الصدقة هم أولئك الفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله من المهاجرين الذين أعجزتهم ظروف هجرتهم أن يضربوا فى الأرض ويكسبوا منها ، وهم مع هذا على مظهر وقور فيه طمأنينة وسكينة يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً .

فأولئك حقاً هم المساكين الذين وصف الرسول صلى الله عليه وسلم حالهم فى قوله : « ليس المسكين بهذا الطوّاف الذى ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان ، والأكلة والأكلتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يُفطَن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً » .

ومعنى : « لا يسألون الناس إلحافا» لا يسألون وعندهم ما يكفيهم ، وقد حدد الرسول صلى الله عليه وسلم ما يكفى بقوله :

« من سأل وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً فى وجهه » وقوله : « من سأل وله أربعون (يعنى درهما) فقد ألحف » .

أما « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية . . الآية » فقيل إنها نزلت فى أصحاب الخيل الذين يعلفونها ليل نهار لتكون على أهبة الجهاد فى سبيل الله . ويرشح لهذا قول رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، من ارتبط فرساً فى سبيل الله فأنفق عليـه إحتساباً كان شبعه وجوعه ، وريُّه وظمؤه فى ميزانه يوم القيامة .

وقيل : بل هى عامة فى كل ما ينفق فى سبيل الله حتى ما ينفق الرجل على أهـله كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم .

«وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا إزددت بها درجة ورفعة حتى ما تجعل فى امرأتك» .

(٢٥٧) « الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »

« الربا حرام » بنص الآية والذين يأكلونه ينتظرهم سوء المصير يوم القيامة . روى البخارى عن سمرة ابن جندب فى حديث« المنام » «فأتينا على نهر حسبتُ أنه كان يقول أحمر مثل الدم ، وإذا فى النهر رجلٌ سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة ، وإذا ذلك السابح يسبح ، ثم يأتى ذلك الذى قد جمع الحجارة عنده فيفغَرَ له فاهُ فيلقمه حجراً » . وذكر فى تفسيره أنه آكل الربا .

وعليه تحريم الرِّبا أنه استباحة مال بغير حق ، وكل استباحة لمال الغير دون حق فهى كالربا حرام .

وفى حديث « للمحَلِّل » يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، لعن الله آكل الربا ، وموكله وشاهديه وكاتبه » .

وقد أمر الرسول المرابين يوم فتح مكة بإنهاء التعامل بالربا .

وجاءت صورة آكل الربا فى هذه الآية منذرة لهم بسوء المصير وبأنهم كما قال ابن عباس يقومون يوم القيامة كالمجانين .

وإذا كان القصد هو تجميع المال فطريق الحلال وهو البيع والتجارة مفتوح ومباحٌ ، وقد وضع الرسول ربا أهل الجاهلية ، وإن لم يأمر برد الزيادة التى سبق أخـذها فى الجاهلية فقال : « وكلّ رباً فى الجاهلية موضوع تحت قدمى هاتين وأول ربا أضع ربا العباس » . فمن انتهى فله ماسلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

(٢٧٦) « يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ »

(٢٧٧) « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ولاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ »

(٢٧٨) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مؤْمِنِينَ »

(٢٧٩) « فَإِنْ لَمْ تَفعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ ورَسُولِهِ وإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَموالِكُمْ لاَ تَظلِمُونَ ولاَ تُظلَمُونَ »

(٢٨٠) « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ »

(٢٨١) « وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظلَمُونَ »

يمحق الله الربا : يزيله ويقضى عليه بكارثة أو حادث أو مثلها مما يضيع فيه ماجمع طوال العمر من الربا .

وقيل المراد : يمحو بركته فلا يكون فيه خير لأنه حرام وذلك أخـذا من قوله تعالى « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله . وقوله تعالى « قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » .

وفى الحديث عن ابن مسعود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكثر أحدٌ من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قُلّ » .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالإفلاس والجذام » .

أما أن الله سبحانه يُربى الصدقات أى يضاعف ثوابها ويضاعف البركة لصاحبها فينمو القليل فى يده وفى الحديث « من تصدق بعدْل تمرة من كسب طيب — ولا يصعد إلى الله إلا الطيب — فإن الله يقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها : كما يربى أحدكم فِلْوَهُ (أو فصيلة) حتى يكون مثل أُحُد » .

وفى ختام الآية يطرد سبحانه المرابى وآكل الحرام من دائرة رضاه ومحبته ويدمغهم بالإثم والكفران فيقول : « والله لا يحب كل كفار أثيم » . فما أضيعهم .

وفى ختام الآية السابقة كانت الآية التالية لها مدحاً للمؤمن العامل الذى يؤتى زكاة ماله فيـدفع طيباً من طيب فأولئك الآمنون يوم الفزع لاخوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وقد كانوا فى الجاهلية يتعاملون بالربا فلما أنزل الله تحريمه وأعلنه الرسول للناس يوم الفتح لم ينته كل

آكلى الربا عنه وظل بعضهم يتأول الآيات ويحتال فى تفسيرها . وقال قوم : أريد بهـا غيرنا ، وقال آخرون ، ما نتعامل به ليس من الربا وهكذا من ضروب التأويل ، ومن ثم كانت الآيات الكريمة ، « يأيها الذين آمنـوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا . . . الآيات » كانت إيذانا بحرب شديدة من الله ورسوله لكل آكل الربا : كما قررت الأساس لتصفية الربا بألا يأخذ المرابى سوى رأس ماله ويترك ما زاد كله . لا يظلم ولا يظلم .

وإن كان المدين ذا عسرة فليمهل إلى ميسرة ، فإن بدا من حاله العجز عن السداد لشدة الحاجة أو كثرة العيال أو ضيق ذات اليد فليترك الدين كله صدقة لوجه الله رب المال كله ومستخلف الناس فيه .

يقول رسول الله صلوات الله عليه : « من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر على معسراً أو فليضع عنه .

وفى ختام آيات الربا كان الأمر بالتقوى والتحذير من يوم يرجع الناس فيه إلى الله « ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » .

ورُوى عن ابن عباس رضى الله عنه أنها كانت آخر آية نزلت من القرآن ، عاش بعدها الرسول تسع ليال ، وبُدىء يوم السبت ومات يوم الاثنين صلوات الله عليه .

(٢٨٢) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »

هذه أطول آية فى كتاب الله تختص بموضوع الدَّين والتداين . ونجد فيها مجموعة من الأوامر التى تستقيم بها العلاقة بين الدائن والمدين ضماناً للحقوق ودرءاً للنزاع .

فقد أمر الله سبحانه بكتابة الدَّين صغيراً كان أو كبيراً ما دام مؤجلا إلى أجل . وبيّن العلة من هذا الأمر فى آخر الآية بقوله : « وأدنى ألا ترتابوا » . لأن الكتابة تسجيل يُرجع إليه عند الخلاف .

ونبّهت الآية إلى تبعة كاتب الدَّين واشترطت فيه العدل . ضماناً لحيدته وضماناً لأن يكون ما يُكتب فعلا هو الحق .

ونهت الكاتب أى القادر على الكتابة ومن آتاه الله العلم ألا يمتنع عن الكتابة لمن يسألونه ذلك زكاة ماعلّمه الله ، وعوناً على حفظ الحقوق بين الناس .

وفى قوله : « وليُمْلل الذى عليه الحق » رعاية لمصلحة واضحة هى أن يعترف المدين بنفسه بما عليه ويمليه على الكاتب حتى لا تكون ثمة ظِنّةٌ أو ريبةٌ .

فإذا كان المدين ساقط الأهلية لسفه أو صغر ناب عنه وليُّه .

وكتابة الدين وإملاء المدين على الكاتب لا بد أن يشهد عليه اثنان من الرجال العدول ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان وبينت الآية نفسها سبب كونهما اثنين « أن تضل إحـــداهما فتذكر إحداهما الأخرى » .

هذا كله فى الدين المؤجل .

أما التجارة الحاضرة التى يتم فيها التعامل يداً بيد فقد أباح القرآن عدم كتابتها ، لكنه اشترط الإشهاد عند التبايع ضماناً لاستقراره وعدم الرجوع فيه بعد الاتفاق عليه .

والأساس فى الأمر كله هو تقوى الله والحرص على بلوغ الحق صاحبه ، وعدم الإضرار بأحد حتى الكاتب والشهيد « وإن تفعلوا فإنه فسوقٌ بكم واتقوا الله ويعلمكم الله » .

(٢٨٣) « وَإِنْ كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ »

فى هذه الآية بيان لكيفية التصرف فى الدَّين فى حالة الضرورة كالسفر أو تعذر وجود من يكتب فيمكن للدائن أن يأخذ رهناً من المدين ؛ فإذا توفرت الثقة بينهما وائتمن كل منهما صاحبه فهما فى حلّ من كل ذلك . ومن هنا كان الأمر بأداء الأمانة وبالتقوى فى قوله فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه» حتى تظل الثقة بين المسلمين فى معاملاتهم باقية .

وقد برز فى هذه الآية الاهتمام بعدم كتمان الشهادة واعتبار من يفعل ذلك آثم القلب ، مدخول النفس ، وذلك لما يتعلق بها من إحقاق الحق و إبطال الباطل . ولذا أعاد القرآن الاهتمام بها فى غير هذا الموضع من قوله سبحانه .

« يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » .

(٢٨٤) لِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاء ويعذِّبُ من يشاء وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »

لما نزلت هذه الآية وفيها قوله سبحانه « وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله . جاء أبو بكر ، وعمر ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاذ بن جبل وناس من الأنصار إلى النبى صلى الله عليه وسلم فجثوا على الركب وقالوا : يا رسول الله :

والله ما نزلت آية أشد علينا من هذه الآية ، إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت فى قلبه وأن له الدنيا وما فيها ، وإنا لمؤاخذون بما نحدث به أنفسنا هلكنا والله .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت . فقالوا هلكنا وكلفنا من العمل مالا نطيق . قال: فلعلكم تقولون كما قال بنو إسرائيل لموسى : سمعنا وعصينا . قولوا سمعنا وأطعنا . فقالوا: سمعنا وأطعنا ، واشتد ذلك عليهم فمكثوا بذلك حولا .

فلما فعلوا ذلك أنزل الله فى إثرها : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » .

ثم أنزل الله تعالى فيهم الراحة والفرج فى قوله « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » الآية . وقال الرسول صلوات الله عليه :

« إن الله قد تجاوز لأمتى ما حدثوا به أنفسهم مالم يعملوا أو يتكلموا به» .

وفى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن أبى هريرة رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قال الله إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه ، فإن عملها فاكتبوها سيئة ، وإذا هم عبدى بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشراً) .

(٢٨٥) « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ »

(٢٨٦) لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ »

روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية « آمن الرسول » قال النبى صلى الله عليه وسلم : حقٌّ له أن يؤمن » .

وروى ابن جرير الطبرى عن جابر قال : لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربّه والمؤمنون » الآية قال جبريل عليه السلام : إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك فَسَلْ تُعطه ، فسأل فأعطى « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . . . الآية » .

وتفسير الآية السابقة « إن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله . . » تمهيد وبيان لما تضمنته هاتان الآيتان « آمن الرسول » و « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .

فهناك رفع الله الحساب عن المسلمين فيما حدثوا به أنفسهم ولم يفعلوه .

وفى فضائل هاتين الآيتين يُروى كثير من الأحاديث نذكر منها ما روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ آخر سورة البقرة ، وآية الكرسى ضحك وقال : « إنهما من كنز الرحمن تحت العرش .

ومنها ما روى عن علىٍّ رضى الله عنه قال :

«لا أرى أحداً عقَلَ الإسلام ينام حتى يقرأ آية الكرسى وخواتيم ، سورة البقرة فإنها من كنز أعطيه نبيكم صلى الله عليه وسلم تحت العرش .

ومنها ما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه» .

تفسير سورة آل عمران

(١) « الٓمٓ »

(٢) « اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ »

(٣) « نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ »

(٤) « مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ »

(٥) « إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ »

(٦) « هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »

روى النيسابورى فى أسباب النزول عن الظافرين قال :

قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا عليه مسجده حين صلى العصر ، عليهم ثيابُ الحبرات ، يقول بعض من رآهم من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم : ما رأينا وفداً مثلهم .

ولما حانت صلاتهم قاموا فصلوا فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله : دعوهم ، فصلوا إلى المشرق . فكلم « السَّيد » و « الْعَاقِبُ » (اثنان من ذوى الصدارة فى الوفد) رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالا لهما : أسلما .

فقالا : قد أسلمنا قبلك .

قال : كذبتما ، ومنعكما من الإسلام ادعاؤكما أن لله ولداً ، وعبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير .

قالا : إن لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه ؟ وخاصموه جميعا فى عيسى .

فقال لهما النبى صلى الله عليه وسلم : ألستم تعلمون أنه لا يكون ولدٌ إلا ويشبه أباه ؟ قالوا : بلى .

قال : ألستم تعلمون أن ربنا حيٌّ لا يموت ، وأن عيسى أتى عليه الفناء ؟ قالوا : بلى .

قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيِّم على كل شىء يحفظه ويرزقه ؟ قالوا بلى .

قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئا ؟ قالوا : لا .

قال : فإن ربنا صوّر عيسى فى الرحم كيف شاء ؟ وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يُحْدِث ؟

فقالوا بلى .

قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غُذى كما يغذى الصبى ، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث ؟ قالوا : بلى .

قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟ فسكتوا فأنزل الله عز وجل فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضعة وثمانين آية منها .

وقد مر القول فى « الٓمٓ » وما يماثلها من الحروف . ومر القول كذلك فى « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » عند تفسير « آية الكرسى » لأنهما تحتويان على الإسم الأعظم للمولى سبحانه .

وفى الآيتين بعدها تأكيد لنزول القرآن بالحق ، وبأنه جاء مصدقا لما تضمنته التوراة والإنجيل من قبل أن ينالها التحريف والتبديل . وإذا كان ما جاء به القرآن سبق نزوله فى هذين الكتابين فالويل والعذاب الشديد لمن يكفرون بما فيه بغيا من عند أنفسهم .

وفى قوله سبحانه « إن الله لا يخفى عليه شىء » تهديد ووعيد لأولئك الذين بدلوا فى كتبه وغيروا — بل ولغيرهم من المشركين والعصاة — بأنه مطلع على كل شىء ، ولا يخفى عليه من أمرهم شىء . وكيف . وهو خالقهم وصانعهم ومصورهم فى الأرحام كيف شاء ، لا إله إلا هو العزيز القادر على الانتقام والبطش الحكيم الذى يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . . سبحانه .

(٧) « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ »

رُوى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محكماتٌ هن أم الكتاب وأُخَر متشابهات إلى قوله « أولوا الألباب » فقال :

« إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عَنَى اللهُ فاحذروهم » .

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً يَتَدَارَءون فقال : « إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض وإنما أنزل

كتاب الله ليصدق بعضه بعضا فلا تكذبوا بعضه ببعض ، فما علمتم منه فقولوا به ، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه » .

وقد اختلف المفسرون وكثر اختلافهم حول المحكم من القرآن والمتشابه بما لا محل هنا لتفصيله . والذى يعطيه ظاهر الآية أن فى القرآن آيات محكمات بينات لا تحتمل الخلاف من حولها ولا فيما يراد منها : وفيه كذلك آيات متشابهات قد يلتبس أمرها إلا على الراسخ فى العلم ، وهذه ينبغى كما سبق فى الحديث يجب التوقف عن الخوض فيها وترك الفصل فى علمها إلى رب القرآن سبحانه .

وظاهر الآية يعطى كذلك أن ثمة أقواما من أهل الكتاب — وربما من المسلمين — اتبعوا ويتبعون هذا المتشابه يوجهونه الوجهة التى تتفق وأغراضهم الخاصة .

وهؤلاء كما قالت الآية « فى قلوبهم زيغ » كما جاء فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم يجب البعد عنهم ويجب الحذر منهم حتى لا تعمنا الفتنة والعياذ بالله .

ومثل هذا — كما قال ابن كثير فى تفسيره — كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكلمة ألقاها إلى مريم وروح منه — مريدين بهذا كما يزعمون أن القرآن يعترف ببنوة عيسى لله — يقولون هذا تمسكا بتلك الآية تاركين الآيات الأخرى التى تقرر عبودية عيسى عليه السلام لله من مثل قوله سبحانه : « إن هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه »..

وقوله سبحانه : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » وغيرها من الآيات الكثيرة التى أثبتت بشرية عيسى ونفت عنه ما قالوه .

(٨) « رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ »

(٩) « رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ »

تلك دعوات الراسخين فى العلم الذين يستمعون مقالات الزائغين فيقولون ، وتقول معهم . آمنا به كل من عند ربنا .

ويقولون — وتقول معهم — ربنا يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

ويقولون — وتقول معهم — ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه واغفر لنا ونجّنا وارحمنا ولا تأخذنا بما فعل السفهاء منا ، إن هى إلا فتنتك تضل من تشاء ، وتهدى من تشاء . سبحانك .

(١٠) « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ »

(١١) « كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ »

(١٢) « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ »

(١٣) « قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ »

إن خير ما نفسر به هذه الآيات هو ما جاء فى القرآن نفسه فى معناها من مثل قوله سبحانه :

« لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد . وقوله سبحانه .

« ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون » .

ثم من مثل قوله سبحانه : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا * ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً * وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً * ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً »

ولقد ضرب القرآن مثلا بفرعون وآله على ما كانوا فيه من عتو وتجبر أعماهم فكذبوا فأخذهم الله بذنوبهم ، كما يأخذ مثلهم كل متجبر كفار .

وفى أسباب نزول الآيتين بعدها « قل للذين كفروا . . . الآيات » يروى ابن إسحاق : لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً يوم بدر قدم المدينة فجمع اليهود فى سوق بنى قينقاع فقال :

«يا معشر اليهود إحذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر ، وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم فقد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم » .

فقالوا : يامحمد : لا يغرنك أنك لقيت قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب . فأصبت فيهم فرصة ، أما والله لو قاتلناك لعرفت أنا نحن الناس فأنزل الله الآية ، قل للذين كفروا يعنى هنا اليهود ومن اتبعهم ستغلبون أى تهزمون فى الدنيا ،وتحشرون إلى جهنم فى الآخرة .

ثم ذكرهم القرآن بما كان يوم بدر يوم التقى الجمعان وأيد الله المؤمنين بآلاف من الملائكة مسوّمين قاتلوا فى صفوفهم ، ونصرهم الله بهم على عدوه وعلى عدوهم .

(١٤) « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ »

(١٥) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ »

(١٦) « الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ »

(١٧) « الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ »

فى هذه الآيات تصوير دقيق لبعض طبيعة الإنسان فى حبه زينة الحياة الدنيا واستيلائها على قلبه وخاصة شهواتها من النساء والبنين ثم المال والمتاع بكل صنوفه وألوانه .

ولما كانت هذه الشهوات ذات صلة وثيقة بطبيعة الإنسان فقد كانت شديدة التأثير فيه وشديدة الخطر عليه ومن هنا كان تنبيه القرآن له كى يحذرها فلا تستعبده ، ويملكها فلا تستولى عليه .

يقول الرسول صلوات الله عليه « ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء » ، ويقول فى حديث آخر . حبّب إلى من دنياكم ، النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة .

وقد حرص الإسلام على إشباع رغبة الإنسان من متاع الحياة الدنيا بالقدر الذى لا يشغله عن الآخرة ولا يصده عنها وفى حديث الرسول : « إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

وفى حياة الرسول صلوات الله وسلامه وعليه والصحابة الخلفاء الراشدين من بعده مايعطى أعظم القدوة للمؤمنين فى ذلك . ولكن الكافرين الذين لا يرجون وجه الله قد أصبحت الدنيا كل همّهم ، وقد زينها الله لهم يأكلون منها ويتمتعون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم .

ولذا كانت الآية الثانية ، قل أؤنبئكم بخير من ذلكم . . الآية « خطاباً للمؤمنين والمتقين ولمن يريدون أن يحفظوا نصيبهم من الآخرة ، ودليلا أمامهم يسترشدون به ليظفروا بما أعد الله لهم من نعيم مقيم » .

ولما كان الثواب الذى وعدهم الله به عظيما حددت الآيات صفة المتقين الذين يستأهلون فقال فى شأنهم سبحانه ، « الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ... الآية » . وقال الصابرين والصادقين والقانتين الآية تلك صفاتهم ، وذلك ثوابهم فطوبى لمن عمل كما عملوا ، لينال مثل مايوعدون .

(١٨) « شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

(١٩) « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » .

(٢٠) « فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ »

كفى به شهيداً سبحانه حين يشهد بأن الواحد المنفرد بالربوبية وبالحق وبالعدل وبأنه العزيز الذى يُرجى ثوابه ، ويُخاف عقابه ، ولا يُرام جنابه .

لقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال : « وأنا على ذلك من الشاهدين يارب» . وكذا كان يفعل بعض الصحابة والتابعين .

« إن الدين عند الله الإسلام » . نعم . « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

ولذا قال الله تعالى لرسوله فى الآية بعدها : فإن حاجُّوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن . ثم أمر سبحانه أن يدعو الذين أوتوا الكتاب إلى الإسلام وتوحيد الله ، فإن هم أطاعوا وأسلموا فقد وُفِّقوا إلى الهدى . وإن أعرضوا فعليهم وزر إعراضهم يحاسبهم به الله والله بصير بالعباد .

روى أبو هريرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحدٌ من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ومات ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أهل النار » .

(٢١) إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »

(٢٢) « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ »

رُوى عن أبى عبيدة بن الجرّاح رضى الله عنه قال : « قلت يارسول الله : أى الناس أشدُّ عـذاباً يوم القيامة ؟ قال : رجلٌ قتـل نبياً ، أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر » ثم قرأ رسول الله : « إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين . الآية ثم قال رسول الله :

« ياأبا عبيدة . قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أوّل النهار وفى ساعة واحـدة ، فقام مائة وسبعون رجلا من بنى إسرائيل فأمروا من قتلهم — يعنى من قتلوا الأنبياء بالمعروف ونهوهم عن المنكر ، فقتلوهم . أى فعلوا الأمر بالمعروف ـ جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم » . فهؤلاء هم الذين ذكر الله عز وجل فى الآية .

وإذا كان هذا دينهم ففى الآية الثانية ما يستأصـلونه من عقاب : أن تحبط أعمالهم فى الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين .

(٢٣) «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ »

(٢٤) « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْـدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ »

(٢٥) « فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لارَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ »

يزعم بعض أهل الكتاب من اليهود والنصارى أنهم متمسكون بما جاء فيهما ، فإذا دُعُوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من توحيد الله وتبشير بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم تولّوا وهم معرضون .

ولقد حملهم على الإعراض عن الحق مازعموه من أنهم لن يدخلوا النـار سوى سبعة أيام يوم واحد عن كل ألف سنة من عمر الدنيا الذى قـدروه بسبعة آلاف كما وهموا . . فياويلهم حين يجمعون بين يدى الله ولُقُّوا جزاء ما قدمت أيديهم وهم لا يظلمون .

(٢٦) « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »

(٢٧) « تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ »

قال ابن عباس وأنس بن مالك رضى الله عنهما :

لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ووعد أمته مُلكَ فارس والروم قالت المنافقون واليهود : هيهات هيهات ، من أين لمحمد ملك فارس والروم وهم أعزُّ وأمنع من ذلك ؟ ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتى يطمع فى ملك فارس والروم فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وفى الآيتين إثبات وتأكيد لمطلق سلطانه سبحانه فى كونه يتصرف فيه كيف يشاء وفق حكمته وإرادته ، فيعز ويذل ، ويعطى ويمنع ، ويهدى ويضل ، ويؤتى الحكمة من يشاء ، ويضع رسالاته حيث يشاء . وفى هذا ردٌّ وتحدٍّ لأولئك الذين قالوا : « لولا نُزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » أهم يقسمون رحمة ربك .

(٢٨) « لا يَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِى شَىْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ »

رُوى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : كان الحجاج بن عمرو ، وكهمس بن أبى الحقيق ، وقيس ابن زيد ، وهم من اليهود . كانوا يُباطنون نفراً من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم ، فقال رفاعة بن المنذر ، وعبد الله بن جبير ، وسعيد خيثمة لأولئك النفر (يعنى من الأنصار) اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا لزومهم ومباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم وملازمتهم فنزلت هذه الآية .

وقيل : نزلت فى عُبادة بن الصامت الأنصارى وكان بدوياً نقياً ، وكان له حلفاء من اليهود ، فلما خرج النبى صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب قال عُبادة : يانبى الله إن معى خمسمائة رجل من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معى فاستظهر بهم على العدو . فنزلت هذه الآية .

وقيل : نزلت فى المنافقين عبدالله بن أُبىّ وأصحابه كانوا يتولّون اليهود والمشركين ، ويأتونهم بالأخبار ، ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية لتنهى المسلمين عن أن يفعلوا مثلهم .

ومهما تكن الأسباب الخاصة للنزول فإن ثمة توجيها سماوياً عاماً بعدم موالاة من يعادوننا فى الدين من المشركين والكفار ومن على شاكلتهم من مدخولى العقيدة من المنافقين .

وتؤكد ذلك الآية التى معنا ويؤكده كذلك مثل قوله سبحانه : «يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرّون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل »

وغيرها من الآيات كثير . وقد أوضح القرآن الكريم العلة فى هـذا النهى عن موالاة الكفار والمشركين والمنافقين أكثر من آية من كتابه فقال سبحانه فى سورة « آل عمران » :

« يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودُّوا ما عنتُّم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر . قد بينا لكُم الآيات إن كنتم تعقلون ».

« ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضُّوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور .

« إن تمسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط »

وقال فى سورة الممتحنة :

« إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون » .

«لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير » .

وقد استثنى القرآن من هذا النهى حالة الضرورة التى يُكْرَه فيها المسلم على مُوَدّاة هؤلاء تقية لهم وبعداً عن شرهم ، بشرط ألا يجاوز هذا إلى موالاة قلبية يكون لها أثر فى ضعف تحمس المسلم لدينه . وفتور إيمانه بشريعته .

(٢٩) « قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فى الأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »

(٣٠) « يَوْمَ تَجِدُ كُل نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالعِبَادِ »

أكد سبحانه فى هاتين الآيتين علمه بما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ومن ثمّ فهو مطلع ومحيط بمن تسوّل له نفسه أن يوالى أعداء دينه أو يتخذهم بطانة ، وويل لمن يفعل ذلك فى يوم المساءلة والحساب . وإن من رأفته سبحانه أن يحذر وينذر ويُبَصِّر قبل أن يفوت الأوان فلا يُمكن العمل ولا يجدى الندم :

(٣١) « قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

(٣٢) « قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الكَافِرِينَ »

روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وهل الدِّين إلا الحب فى الله والبغض فى الله ؟ » .

وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أن اليهود لما قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه أنزل الله هذه الآية « قل إن كنتم تحبون الله .. الآية» فعرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليهود فأبوا أن يقبلوها .

وقيل نزلت فى نصارى نجران حين قالوا إنّما نعظم المسيح ونعبده حبًّا لله وتعظيما له فكانت ردًّا عليهم .

(٣٣) « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ »

(٣٤) « ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »

الاصطفاء : الاختيار والتمييز ، وقد اختار الله سبحانه كل من ذكرتهم الآية ليلقى إليهم أمانته ، ويحملهم رسالاته ، وليجعلهم هداة خلقه إلى الصراط المستقيم .

(٣٥) « إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »

(٣٦) « فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » .

(٣٧) « فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ »

قال محمد بن إسحاق . كانت امرأة عمران (وهى أم مريم) عاقراً لا تحمل ، فرأت يوماً طائراً يزقّ فرخه فاشتهت الولد ، فدعت الله تعالى أن يهبها ولداً ، فاستجاب الله لدعائها فواقعها زوجها فحملت ، فلما تحققت الحمل نذرت لله أن يكون ولدها محرراً أى خالصاً مفرَّغاً للعبادة ولخدمة بيت المقدس .

هكذا تمنت وكانت تظنه ولداً ، فلما وضعتها أنثى قالت مقالتها فأكرمها الله سبحانه بالقبول الحسن ، والإنبات الحسن ، وكفالة زكريا .

ويروى أبو هريرة فى مناسبة قولها : « وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ما من مولودٍ إلا وقد عصره الشيطان عصرةً أو عصرتين إلا عيسى بن مريم ومريم » .

(٣٨) « هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ »

(٣٩) « فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ »

(٤٠) « قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ »

(٤١) « قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ »

وحين رأى زكريا عليه السلام فضل الله سبحانه فى آل عمران إذ رزق امرأة عمران بمريم بعد يأس، ثم هو سبحانه يرزق مريم كل يوم بفضله وخيره : حين رأى هذا طمع هو الآخر فى فضل ربه فنادى ربه « نداء خفياً * قال ربِّ إنى وهَن العظمُ منى واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربِّ شقيًّا * وإنى خِفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهبْ لى من لدنك وليًّا * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله ربِّ رضيًّا » .

فاستجاب الله لدعائه ووهب له « يحيى » عليه السلام مصدقاً بكلمة من الله .

قالوا : هى التصديق بعيسى عليه السلام ، وكان يحيى أول من صدق به .

وسيداً : فى العلم والفقه والعبادة ، أو فى التقى والحلم ، أو فى الدين والشرف . وحصوراً : مانعاً نفسه من الشهوات .

وما كان زكريا عليه السلام ليتصور أن يكون لله ولد ، وأن الله سوف يستجيب له فسأل ربه آية وعلامة يستدل بها على أن ما أخبرته به الملائكة سيتحقق فقال آيتك أنك لا تستطيع النطق مع أنك صحيح سوىٌّ مدة ثلاثة أيام ترمز خلالها أن تشير برأسك أو بيدك إلى الناس .

(٤٢) « وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ »

(٤٣) « يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ »

(٤٤) « ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ »

تتحدث الآيات عن طُهر مريم عليها السلام واصطفاء الله إياها على نساء العالمين. والأحاديث فى فضلها كثيرة نذكر منها ما روى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خيرُ نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد » ومثله ما روى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسيا امرأة فرعون » .

وثمة كثير من الآثار فى عبادتها وقنوتها وذكرها عليها السلام .

ويتجه الخطاب فى الآية الأخيرة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم : ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم . . . الآية . تختلف الروايات حول قصة اختلاف أصحاب التوراة على أنفسهم كى يكفلوا مريم ، وثمة رواية تقول :

إنهم ذهبوا إلى نهر الأردن واخترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم التى يكتبون بها التوراة ، فأيهم يثبت فى جَرْيَةِ الماء فهو كافلها ، فألقوا أقلامهم فاحتملها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت فى مكانه . . فكفلها .

(٤٥) « إِذْ قَالَتْ الْمَلاَئِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يبشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ منهُ اسْمُهُ الْمسيحُ عِيسَى بْنُ مريَمَ وجِيهاً فِى الدُّنيا والآخِرَةِ ومِنَ المقرَّبِينَ »

(٤٦) « ويُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهلاً وَمِنَ الصالِحِينَ »

(٤٧) « قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى ولَدٌ ولَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ ما يَشاء إِذَا قَضَى أَمْراً فإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »

(٤٨) « وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ »

(٤٩) « وَرَسُولاً إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِ المَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ »

(٥٠) « وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ »

(٥١) « إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ »

تتضمن هذه الآيات :

حديث الملائكة لمريم عليها السلام عند تبشيرها بالمسيح عليهما السلام .

ذكر صفات المسيح عليه السلام وما اختصه الله به من حسن الذكر والوجاهة فى الدنيا والآخرة وكونه يعدُّ من المقربين : ومن الصالحين .

ثم إخبارٌ عن معجزاته التى تبدأ بتكليمه الناس وهو مايزال فى المهد ، ثم إبراؤه مالا يبرأ من الأمراض كالعمى والبرص ، ثم مقدرته — بإذن الله على خلق الطير ونفخ الروح فيها ، وأخيراً معجزته فى إحياء الموتى بإذن الله ، والإخبار عن بعض المغيبات من الأمور .

كما تسجل الآيات إرساله عليه السلام إلى بنى إسرائيل مصدقاً للتوراة التى نزلت على موسى من قبل وليدعوهم إلى التوحيد وعبادة الله .

وسمى المسيح : قيل لكثرة سياحته ؛ وقيل : لأنه كان مسيح القدمين لاأخمص لهما ؛ وقيل : لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوى العاهات برىء بإذن الله .

وكانت معجزته عليه السلام — كما وصفنا — لأنه ظهر فى زمن كثر فيه الأطباء وأصحاب علم الطبيعة لجاءهم بآيات لايقوى أحدهم على الإتيان بمثلها . ومعروف أن معجزة كل نبى إنما تكون فى الفن أو العلم الذى برع قومه فيه ، فكانت العصا معجزة موسى عليه السلام فى مواجهة السحر والسحرة ، وكان القرآن معجزة النبى العربى أمام قوم شهدوا بالقول وبالفصاحة والبيان .

(٥٢) « فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ »

(٥٣) « رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ »

(٥٤) « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ »

كانت الآيات التى قدمها عيسى عليه السلامُ بيِّنةً وواضحة ومع هذا كفر به قومه وكذبوه فلما استشعر منهم الضلال والعناد اتجه بخطابه إلى المؤمنين المخلصين فقال : من نصيرى فى دعوتى إلى الله ؟ فقال الحواريون: نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون .

فلما رأى الكفار من قومه تصديق الحواريين به وانتصارهم له مكروا به لدى الحاكم واتهموه عنده بإفساد عقائد الناس وتضليلهم وطعنوه عليه السلام فى عرضه فغضب الملك وبعث فى طلبه من يأخذه كى يصلبه ، وينكل به .

فلما أحاطوا بمنزله ، وظنوا أن قد ظفروا به نجاه الله تعالى من بين أيديهم ورفعه إلى السماء . وألقى شبهه على رجل ممن كان عنده بالمنزل .

فلما دخل القوم عليه فى ظلمة الليل اعتقدوه عيسى فأخذوه ، وأهانوه ، وصلبوه ، ووضعوا على رأسه الشوك ، وأنجى الله عيسى عليه السلام من كيدهم ، وهذا معنى قوله سبحانه : ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين .

(٥٥) « إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ »

(٥٦) « فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ »

(٥٧) « وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ »

(٥٨) « ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ »

كثر اختلاف المفسرين فى هذه الآية « إنى متوفيك ورافعك إلىّ » فقيل :

متوفّيك : مخرجك من الدنيا ، وليست بوفاة موت .

وقيل : الوفاة هنا بمعنى : النوم كما يقول سبحانه « وهو الذى يتوفّاكم بالليل » .

وعن ابن عباس قال : إنى متوفيك : أى مميتك .

وعن وهب بن منبه قال : توفاه الله ساعات من أول النهار حين رفعه إليه .

وقيل : أماته الله ثلاثة أيام ، ثم بعثه ، ثم رفعه .

وعقيدة المسلمين أن عيسى عليه السلام لم يقتل ولم يصلب وإنما « شُبِّهَ لهم » كما قرر القرآن .

وفى هذا المعنى يروى الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « إن عيسى لم يمُت وإنّه راجعٌ إليكم قبل يوم القيامة » .

ويؤكد هذا قوله سبحانه فى سورة النساء :

و« ويكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما »

« وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّهَ لهم وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شك منه وما قتلوه يقينا »

« بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما »

« وإنّ من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنَنّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً »

وفى قوله سبحانه : « ثم إلىّ مرجعكم فأحكمُ بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » إشارة إلى مستقبل ما انتهى إليه حال متبعيه وتفرقهم شيعا .

فنهم من آمن به على أنه عبد الله ورسوله وابن أَمَتِهِ .

ومنهم من غَلا فى أمره فقال إنه ابن الله وهؤلاء الذين أشارت إليهم الآية :

« وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النصارى المسيح بن الله » .

« ومنهم من قالوا إنه هو الله » .

« ومنهم من قال إنه ثالث ثلاثة . وقد تضمن القرآن فى أكثر من آية من آياته حكاية هذه الأقوال والردُّ عليها بما لا يتسع المقام لتفصيله ، وستكون لنا عودة إليه عند ذكر تلك الآيات .

فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم كانت مواقف هؤلاء القوم منهم صورة من مواقفهم من السيد المسيح عليه السلام . فمن كان مؤمنا به على الوجه الحق آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

أما الذين قالوا : بالتثليث ، أو بتأليه عيسى ، أو بأنه ابن الله ، فظلوا على ضلالهم ، ولذا أنذرهم الله جميعا بقوله :

« ثم إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » وفى الآيتين بعدها تفصيل هذا الحكم . فللكافرين العذاب الشديد فى الدنيا والآخرة ؛ وللمؤمنين الذى يستحقونه دون ظلم والله لا يحب الظالمين.

وفى ختام الآيات اتجه سبحانه بالخطاب إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مقرراً له أن ما يتلى على من أمر عيسى عليه السلام — وأمر غيره — إنما هو من آيات القرآن وبعض معجزاته فى الأخبار الصادقة عن أحوال الماضين بما لا ريب فيه كما قال سبحانه :

« ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه » .

(٥٩) « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونَ »

(٦٠) « الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ »

(٦١) « فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ »

(٦٢) « إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »

(٦٣) « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ »

لقد خلق الله سبحانه عيسى من أم بلا أب ، فعجب الناس وأنكروا وكفروا ، ففيم الكفر إذا كان خالقه هو الله القادر الذى خلق آدم أبا البشر كلهم بلا أم وبلا أب .

ولقد كان خلق عيسى على هذا النحو آية من آيات الله يريها للناس ليتدبروا فيها آثار قدرته وعظمته ، كما قال سبحانه فى سورة مريم » .

« قال كذلك قال ربك هو علىّ هيّنٌ ولنجعله آية للناس ورحمة منّا وكان أمراً مقضياً »

وإذا كان ماقرره القرآن فى أمر عيسى عليه السلام هو الحق الذى لا مرية فيه فقد أمر الله نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم أن يُبَاهِلَ من يحاجّونه فى أمره .

وروى فى سبب نزول آية المباهلة هذه أنها نزلت فى وفد نجران الذين جاءوا إلى الرسول فدعاهم إلى الإسلام ، فزعموا أن قد أسلموا قبل أن يدعوهم ، فدعاهم الرسول إلى المباهلة والتلاعن على النحو الذى وصفته الآية ، ولكنهم امتنعوا عنها .

(٦٤) « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ »

فى هذه الآية دعوة لأهل الكتاب إلى كلمة سواء هى الحق والعدل . لا يختلف من حولها عاقل ، ولا ينكرها منصف ، والكلمة السواء هى : توحيد الله وعدم الشرك به سبحانه ، وعدم اتخاذ أرباب من دونه .

وهذه الكلمة السَّواء . هى الأساس الأكبر الذى تلتقى عنده ، أو على الأصح تتفرع عنه كل الديانات السماوية ، فإن استجاب أهل الكتاب إليها فقد هُدوا إلى الطيب من القول وهُدوا إلى صراط الحميد ، وإن تولّوا فما على المسلمين إلا أن يميزوا أنفسهم عنهم ويفصلوا طريقهم من طريقهم ويقرروا لهم أنهم ملتزمون بالكلمة السواء . لأنهم مسلمون .

(٦٥) « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ »

(٦٦) « هَا أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ »

(٦٧) « مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ »

(٦٨) « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ »

يروى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : اجتمعت نصارى نجران ، وأحبار يهود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنازعوا عنده .

فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهودياً .

وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانياً . فأنزل الله هذه الآيات لتؤكد للفريقين أن خلافهم لا يقوم على أساس ، ولا يستند إلى منطق أو حق فكيف يقال إنه يهودىّ .

وقد كان زمنه قبل أن تنزل التوراة على موسى بزمان .

وإذا صح أنه غير يهودى لأنه مات قبل نزول التوراة فهو من باب أولى لم يكن نصرانياً لأن النصرانية كانت بعد سابقتها بزمان ، وإذاً فما يدعى الفريقان باطل .

والحق الذى لا مرية فيه أن إبراهيم عليه السلام كان حنيفاً مسلماً ، أسلم وجهه لربه كما قال سبحانه فى سورة البقرة :

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفّه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنىّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون * .

وإن أحق الناس بمتابعة الخليل إبراهيم عليه السلام هم أولئك الذين اتبعوه وساروا على طريقه ودانوا بملته وهم المسلمون وهذا المعنى يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم وفى هذا يقول الرسول صلوات الله عليه :

إن لكل نبىّ ولاة من النبيين ، وإن وليىّ منهم أبى وخليل ربى عزّ وجل إبراهيم عليه السلام » .

(٦٩) « ودَّتْ طائفةٌ منَ أهلِ الكِتابِ لَوْ يُضلُّونكُم وَما يضلُّونَ إلاَّ أنفُسَهُمْ وَمَا يَشعُرونَ »

(٧٠) « يَا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَكفُرُونَ بآياتِ اللهِ وأَنتُمْ تَشهَدُونَ »

(٧١) « يَا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَلبِسُونَ الحَقَّ بالبَاطِلِ وَتكتُمُونَ الحَقَّ وأنتمْ تَعلَمُونَ »

(٧٢) « وقالتْ طائفةٌ منْ أهْلِ الكِتابِ آمِنُوا بالَّذِى أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وجهَ النَّهار واكفرُوا آخرَهُ لعلَّهم يرجِعُونَ »

(٧٣) « وَلاَ تؤْمِنُوا إلاَّ لِمنْ تَبِعَ دينكُمْ قلْ إنَّ الهُدَى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتُمْ أوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتيهِ منْ يَشَاءُ واللهُ وَاسِعٌ عليمٌ »

(٧٤) « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ »

تشرح الآيات موقف بعض أهل الكتاب من المؤمنين وحسدهم إياهم وتمنيهم أن يضلوهم وحرصهم على إضلالهم ، مع أنهم فى الحق لايضلون إلا أنفسهم ولا يشعرون بأنهم الممكور بهم من الله سبحانه .

وقد أنكر الله عليهم كفرانهم بآياته وإلباسهم الحق بالباطل وكتمانهم ماتضمنته كتبهم من التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم والدعوة إلى عبادة الله وحده .

وفى الآية الرابعة « وقالت طائفة من أهل الكتاب » كشفٌ وتسجيل لمكيدة كادها بعض أهل الكتاب للمسلمين ليصرفوا الناس بها عن الدعوة ويشككوهم فى دينهم .

وكان أسلوب المكيدة — على ما روى — أن يدخل المتآمرون المعروفون بين الناس بالحكمة والدراية فى الإسلام أوّل النّهار فلا يأتى آخره حتى يعودوا إلى كفرهم ، وعندئذ سيتساءل الناس : ماذا وجدوا ما فى الإسلام من عيب حتى نفروا منه ؟ وإذا كان هؤلاء ، وهم أهل الحكمة والدراية قد فعلوا ذلك فلنجارهم ولنفعل مثل ما فعلوا . .

وزيادة فى الكيد ، وإضماراً للشر شدد هؤلاء التنبيه على بعضهم ألا يؤمِنُوا ولا يؤامنوا إلا لمن كان

على ملتهم حتى يضمنوا ولاءه لهم ، وقد كان فيما توهموه أن يحجبوا عن المسلمين ما أصابوه من علم حتى تبقى المعرفة فيهم وحدهم ولا يؤتى أحد مثل الذى أوتوا .

وأخطر من ذلك — فى رأيهم — أن لو عرف المسلمون حقيقة ما فى الكتب التى بين أيديهم وما تحويه من تبشير بمحمد وبدينه لأخذوا منه الحجة عليهم ولشهدوا به عند ربهم . . . .

هكذا كانت المكيدة ، وهكذا كان يفكر المتآمرون ، ومن ثم كان ردّ الله سبحانه عليهم فى ختام مستهينا بهم ، مؤكداً أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

(٧٥) « وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ »

(٧٦) « بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ »

تتحدث الآيتان عن انعدام الأمانة عند بعض أهل الكتاب ، وهم الذين سبقت الإشارة إلى موقفهم من المؤمنين فى آيات سابقة وحسدهم إياهم وحقدهم عليهم . فها هنا تنبيه للمؤمنين كى لا يخدعوا فيهم ولا يغتروا بهم .

وإذا كانت خيانة الأمانة نقيصة كبرى فى ذاتها فقد كان تسويغهم إياها أشد نكرا ووزراً . وذلك بأنهم قالوا إنه لا جُناح عليهم — كما زعموا — فى أن يأكلوا أموال الأميين يعنون العرب مع أن الأمانة هى الأمانة ، والخيانة هى الخيانة لا تختلف صفتها بين أمّيّ وغير أمىّ ، ولا يمكن لشريعة من عند الله أن تتضمن إباحة الشر .

ولذا اعتبر القرآن مقالتهم هذه افتراء على الله ووصفهم بأنهم يكذبون على الله مع الإصرار وسَبْق العِلْم .
ثم ردّ القرآن إلى الأمانة قيمتها فقال « بلى من أوفى بعهده واتقى . الآية » .

وعن سعيد بن جبير قال :

لما قال أهل الكتاب « ليس علينا فى الأميين سبيل » قال نبى الله صلى الله عليه وسلم .
كذبه أعداء الله ، ما من شىء كان فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمىّ هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البرّ والفاجر) : صدق رسول الله .

(٧٧) « إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

يروى لنزول هذه الآية أكثر من سبب منها ماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« من حلف على يمين وهو فيها فاجرٌ ليقطع بها مال امرىء مسلم لقى الله وهو عليه غضبان »

فقال الأشعث بن قيس : فِيَّ والله نزلت . كان بينى وبين رجل من اليهود أرض فجحدنى ، فقدمته إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ألك بينة ؟ قلت : لا . فقال اليهودى : أحلف ؟ . قلت : إذاً يذهب بمالى . فأنزل الله عز وجل هذه الآية .

ومع خصوصية السبب فنى الآية تحذير من التورُّط فانهت عنه وهو اتخاذ الحلف بالله سبيلا إلى إضاعة الحقوق والعدوان على الناس .

روى الإمام أحمد عن أبى ذرّ الغفارى رضى الله عنه قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم » قلت يا رسول الله من هم ؟ خسروا وخابوا .

قال : وأعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات . « المُسْبِل (يعنى إزاره تيها وخيلاء) والمنفق سلعته بالحلف الكاذب ، والمنّان » .

(٧٨) « وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ »

من اليهود فريقٌ حرّفوا كَلِمَ الله عن مواضعه . وافتروا على الله الكذب وهم يعلمون أنهم كاذبون .

ولَيُّ اللسان بالكتاب : تأويله على غير ما أراد الله سبحانه وصولاً إلى نفع دنيوى زائل ، أو إلى الإضرار بالمؤمنين ، بتشكيكهم فيما آمنوا به .

(٧٩) « مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ »

(٨٠) « وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ »

رُوى عن ابن عباس رضى الله عنه قوله . قال أبو رافع القرظى حين اجتمعت الأحبارُ من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الإسلام :

أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم ؟ فقال رجل من أهل نجران نصرانى يقال له الرئيس .

أو ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعونا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَعاذَ الله أن نعبد غير الله ، أو أن تأمر بعبادة غير الله ، ما بذلك بعثنى ، ولا بذلك أمرنى : فأنزل الله هاتين الآيتين .

وفى الآية منطقٌ لا يُغلب : لأن من أتاه الله الكتاب والحكمة ، والنبوة وفتح مغاليق بصره وبصيرته لاستشراف هذه الآفاق يستحيل عليه أن يقول ما زعموا .

ومايتضح أن يقوله هو أن يدعوهم إلى التقوى والعلم ، والحكمة : « ومن يقل منهم أنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم » .

والربانيونَ : قيل الحكماء والعلماء الحلماء . وقيل هم أهل التقوى والعبادة .

(٨١) « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ »

(٨٢) « فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ »

كلُّ الأنبياء قبل نبينا عليه السلام مهما أوتوا من كتاب وحكمة . فقد أخذ الله سبحانه عليهم الميثاق والعهد .

أن جاءهم رسولٌ — قيل المراد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل المراد كلُّ نبيٍّ يخلُف سلفه من من الأنبياء لئن جاء الرسول مصدقاً لما معهم مما أعلمهم الله به أو أنزله فى كتبه إليهم . ليؤمنن به ولينصرنه.

تقول الآية : وقد أقروا جميعاً بذلك وشهدوا عليه ، ولو قد أتيح لنبيٍ من الأنبياء أن يلقى خلفه لآمن به .

يُروَى عن الشعبى عن جابر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل ، وإما أن تكذبوا بحق : وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ماحل له إلا أن يتبعني » .

(٨٣) « أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ »

(٨٤) « قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »

(٨٥) « وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ »

دين الله هو الإسلام ، وله أسلم من فى السموات والأرض «ولله يسجد من فى السموات والأرض» ، « ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون » .

يخافون ربهم من فوقهم ، ويفعلون ما يؤمرون » .

ولذا كانت الآية الثانية أمراً بالإيمان بالله ، وبالقرآن ، وبما أنزل على من ذكرتهم الآية من صحف ، ودعوة إلى الإسلام والانقياد لحكمه سبحانه .

ومن يفعل غير ذلك « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

(٨٦) « كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ وَاللهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ »

(٨٧) « أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »

(٨٨) « خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ »

(٨٩) « إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

وروى عن ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

كان رجلٌ من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ، ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل لى من توبة ؟ فنزلت الآية « فأرسل إلى قومه فأسلم » .

(٩٠) « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ »

(٩١) « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِن نَاصِرِينَ »

المرتدُّون الذين كفروا بعد إيمانهم وماتوا على كفرهم لن يقبل الله توبتهم ، ولن يقبل افتداؤهم أنفسهم من النار ، ولو قدم الفدية ملء الأرض ذهباً ، وهم فى عذاب جهنم خالدون .

(٩٢) « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ »

رُوى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال :

كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا ، وكان أحبُّ أمواله إليه بيرحاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء بها طيب .

قال أنس : فلما نزلت « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » قال أبو طلحة : يارسول الله . إن الله يقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وإن أحبَّ أموالى إلىَّ « بير حاء » وإنها صدقةٌ أرجو بها برها وذخرها عند الله تعالى ، فضعها يارسول الله حيث أراك الله .

قال أنس : فقال النبى صلى الله عليه وسلم « بخٍ بخٍ » ذاك مالٌ رابحٌ — قالها مرتين — وأنا أرى أن تجعلها فى الأقربين .

فقال أبو طلحة : أفعَلُ يارسول الله ، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه .

(٩٣) « كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ » .

(٩٤) « فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »

(٩٥) « قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

قيل فى سبب نزولها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إنه على ملة إبراهيم قالت اليهود كيف وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها ؟

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : كان ذلك حلالاً لإبراهيم فنحن نحِلّه .

فقالت اليهود : كل شىء أصبحنا اليوم نحرّمه فإنه كان على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية تكذيباً لهم .

وتقرر الآية أن كل الطعام كان حلالا لإسرائيل الذى هو يعقوب — إلا ماحرمه هو على نفسه حين

أصابه مرض شديد فنذر لله إن شفاه الله منه ليحرمنّ على نفسه أحبّ طعام وشراب إليه ، وكان أحب طعام إليه هو طعام الإبل وأحب شراب إليه هو ألبانها .

كما تتضمن الآية تأكيداً بأن هذا الذى يخبر به القرآن موجود ثابت لديهم فى التوراة وبوسعهم — لو كانوا صادقين — أن يأتوا بها ليقرأوه فيها .

ثم يدعوهم القرآن فى آخر الآيات إلى التسليم بالحق والإقرار بأن الله سبحانه صادق ولا يصدر عنه غير الصدق ، والصّدْقُ والحق أن تُسلموا متبعين ملة أبيكم إبراهيم .

(٩٦) « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ »

(٩٧) « فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ »

البيت : الكعبة التى بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . وبكة : هى مكة ، وقد ذكروا لها أسماء كثيرة منها البلد الأمين ؛ والمأمون ، والبيت الحرام ، والبيت العتيق ، وأم القرى . الخ .

مقام إبراهيم : قيل الحرم كله مقام إبراهيم ، وقيل الحجرُ هو مقام إبراهيم .

ومما شرف الله به البيت أن جعله مثابة للناس وأمناً . وفرض على الناس حجه لمن استطاع إليه سبيلا .

أما من كفر فإن الله غنى عن العالمين جميعاً ولن يضيره — سبحانه — كفر من كفر .

(٩٨) « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ »

(٩٩) « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ »

فى الآيتين تهديدٌ ووعيدٌ للكفرة من أهل الكتاب الذين يعرفون آيات الله ثم ينكرونها ، لا يقفون عند ذلك بل يصدّون عن سبيل الله من آمن ، غافلين عن شهادة الله سبحانه عليهم وإحاطته — سبحانه بكل مايعملون فويل لهم مما كسبت أيديهم وويلٌ لهم مما يكسبون .

(١٠٠) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ »

(١٠١) « وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »

رُوى عن سبب نزولها عن عكرمة قال : كان بين هذين الحيين من الأوس والخزرج قتالٌ فى الجاهلية . فلما جاء الإسلام اصطلحوا وألف الله بين قلوبهم .

وذات يوم جلس يهودىّ فى مجلس فيه نفرٌ من الأوس ونفر من الخزرج فأنشد شعراً قاله أحد الحيين فى حربهم فكأنهم دخلهم من ذلك .

فقال الحىُّ الآخرون : وقد قال شاعرنا فى يوم كذا — كذا وكذا .

فقال الآخرون . وقد قال شاعرنا فى يوم كذا . كذا وكذا .

فقالوا : تعالوا نردّ الحرب خدعة كما كانت ، فنادى : هؤلاء : يا آل أوس ، ونادى هؤلاء ، يا آل خزرج . فاجتمعوا وأخذوا السلاح واصطفّوا للقتال فأنزل الله هذه الآية .

فجاء النبى صلى عليه وسلم :حتى قام بين الصفين ، فقرأها ورفع صوته ويروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : أبدعْوىَ الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ فلما سمعوا صوته أنصتوا ، وجعلوا يستمعون ، فلما فرغ صلى الله عليه وسلم ألقوا السلاح ، وعانق بعضهم بعضاً ، وجعلوا يبكون .

(١٠٢) ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

(١٠٣) ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

الأمر بتقوى الله سبحانه لا يكاد يحصى فى كتاب الله . والتقوى من متعلقات القلوب وهى الفيصل فى الإسلام بين إنسان وإنسان . وكما روى عن رسول الله صلوات الله عليه : « لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح » وكما قال سبحانه : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » .

والأمر بالاعتصام بحبل الله فى الآية الثانية : قيل موجه إلى أهل الأوس والخزرج حين أوشكت الفتنة أن تشتعل بينهما ، وقيل وهو الأرجح والأولى إنه عامّ إلى جميع المسلمين فى كل مكان وزمان .

(١٠٤) ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

(١٠٥) وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ »

(١٠٦) « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ »

(١٠٧) « وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »

(١٠٨) « تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ »

(١٠٩) « وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ »

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أساسٌ من أسس تكوين السلم وتربيته ، ولقد كان هذا مما خير الله به أمة محمد صلوات الله عليه حين قال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . الآية » . وقال رسول الله صلوات الله عليه :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

ولقد كان مما لعن به بنو إسرائيل على لسان داود وعيسى عليهما السلام أنهم « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » ولذا أوجب القرآن أن يكون فى الأمة من يأمرونها بالمعروف وينهونها عن المنكر ، وأولئك هم أهل الفضل فيها « وأولئك هم المفلحون » .

وقد نعى القرآن المسلمين عن التفرق والخلاف وحذرهم مغبّته وسوء عاقبته عنده وتهدّد المخالفين بأشد العذاب فى يوم تبيضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوه .

(١١٠) « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ »

(١١١) « لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ »

(١١٢) « ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ »

مقياسُ الخيرية منصوص عليه فى الآية وهو انتباه الأمة دائمًا إلى المعروف والأمر به ثم إلى المنكر

فتنهى عنه ، واتصاف الأمة بهذا دليل مقدرتها المتجددة على البقاء والنمو على مدارج الكمال والتقدم ، وفى معناه لقوله سبحانه : «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس» ولذا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين قرأها ، كنتم خير أمة أخرجت للناس » قال عمر : من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها » .

أما أهل الكتاب فلو آمنوا بما أنزل على محمد لكان الإيمان خيراً لهم يخلصون به من عذاب الله الذى ينتظرهم فى الدنيا وفى الآخرة .

(١١٣) « لَيْسُوا سَوَاء من أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُم يَسْجُدُونَ»

(١١٤) «يُؤْمِنُونَ بِاللهِ واليومِ الآخرِ ويأمُرُونَ بالمعرُوفِ وينْهونَ عن المُنكَرِ ويُسَارِعُونَ فى الخيرَاتِ وأُلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ »

(١١٥) « وما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فلن يُكْفَرُوهُ واللهُ عليمٌ بالمُتَّقِينَ »

روى الإمام أحمد فى مسنده عن ابن مسعود قال :

أخر رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العشاء ، ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال« أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحدٌ يذكر الله هذه الساعة غيركم » . قال فنزلت هذه الآية .

وعلى هذا تكون معنى الآية أن المسلمين ليسوا كغيرهم من أهل الأديان الأخرى فى العبادة والطاعة واستحقاق المثوبة والأجر .

ورُوى عن ابن عباس ومقاتل : أنه لما أسلم عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعنة وأسيد بن سعنة وغيرهم ممن أسلم من اليهود . قالت أحبارهم .

ما آمن لمحمد إلا شرارنا ، ولو كانوا من خيارنا لما تركوا دين آبائهم . ثم قالت الأحبار لمن أسلموا : لقد خُنتم : حين استبدلتم بدينكم ديناً غيره فنزلت الآية .

بهذا القول يكون المعنى أن من أسلم من اليهود لا يستوى ومن سبق ذكره من قبل منهم ممن يعادون الله ورسوله ويودون بالمسلمين كل شر .

والذى تدل عليه الآية أن أهل الكتاب ليسوا جميعاً على شر ، بل إن منهم من يؤمن بالله وباليوم الآخر ، ويختلف عن الآخرين منهم إذ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويسارع فى الخير ، وكما جاء فى آية أخرى .

« وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب » .

(١١٦) « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُم أَمْوَالُهم ولاَ أولاَدُهُم من اللهِ شَيْئاً وأولئك أَصْحابُ النَّارِ هُم فيها خالِدونَ »

(١١٧) « مَثَلُ ما يُنفِقُونَ فى هذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فيها صِرٌّ أصابَتْ حرثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ ولَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »

صدق الله سبحانه ، « يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » « وأزلفت الجنة للمتقين ● وبرزت الجحيم للغاوين »

ولقد سبق تفسير قوله سبحانه فى « آل عمران » : « إنّ الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار ● كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا . فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب » .

وقد ضرب القرآن المثل بإحباط الله أعمالهم وضياع ثمرتها بالحرث الذى آن حصاده تأتيه الريح العاصفة فتدمره وتذهب به .

(١١٨) « يأيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذوا بِطَانَةً مِنْ دونِكُمْ لا يأْلُونَكم خَبالاً ودُّوا ما عنِتُّم قد بَدَتْ البغْضَاء من أفْوَاهِهِم ومَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أكبَرُ قدْ بيَّنَّا لكُمُ الآياتِ إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ »

(١١٩) « ها أنتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهم ولاَ يُحِبُّونَكم وتُؤْمِنُونَ بالكِتَابِ كلِّهِ وإذا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وإذَا خلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ قلْ مُوتُوا بغَيْظِكُمْ إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بذاتِ الصُّدُورِ »

(١٢٠) « إن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهم وإنْ تُصِبْكُم سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بها وإن تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شيئاً إنَّ اللهَ بما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ »

قال ابن عباس ومجاهد نزلت فى قوم من المؤمنين كانوا يُصَافُون للمنافقين ويواصلون بعض اليهود لما كان بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع فأنزل الله هذه الآيات ينهاهم عن ذلك .

وبطانة الرجل : خاصة الذين يعرفون أحواله ويطلعون على دخائله ، وفى الحديث ، « ما بعث الله من نبى ولا استخلف إلا كانت له بطانتان ، بطانة تأمره بالمعروف وتحضه وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه والمعصوم من عصمه الله » .

والحكمة فى هذا النهى : ألا يتمكن أعداء المسلمين وغير المخلصين لهم من أمورهم وأسرارهم فينقلوها إلى عدوهم ، أو ينالوا بها رقاب المسلمين ويستطيلوا عليهم .

وقد تضمنت الآية والآيات بعدها بيان العلة فى ذلك فقررت أنهم هل يتمنون للمسلمين ما يؤذيهم ، وأن البغضاء تبدو فى فلتات ألسنتهم وتخفى وراءها ماهو أكبر .

وأنتم تحبونهم وهم لا يحبونكم ، وأنتم تؤمنون بالكتاب كله أى تصدقون بأنبيائهم وبما أنزل إليهم ، وهم منافقون يخادعون الله والذين آمنوا . . يظهرون المودة وإذا خلوا مزّق الغيظ نفوسهم فعضوا منه أناملهم .

ثم هم يفرحون لما يصيبكم من شر ، ويسوءهم ما قد تنالوا من خير . لكل هذا لا ينبغى وقيل ، بل يحرم أن تتخذوهم بطانة لكم .

(١٢١) « وإذ غَدَوْتَ من أهلِكَ تُبَوِّئُ المؤمنينَ مَقَاعِدَ للقِتَالِ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »

(١٢٢) « إذْ همّت طائِفَتَانِ مِنكُمْ أنْ تفشلاَ واللهُ وليُّهما وعلى اللهِ فليتوكَّلِ المؤمِنُونَ »

هذا حديث وقصة أُحُد : وكانت فى يوم سبت من شوال من السنة الثالثة من الهجرة ، وكان سببها الانتقام من المسلمين لقتلى « بدر » فجمع المشركون الجموع والأحابيش وأقبلوا فى نحو من ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريباً من أُحُد تلقاء المدينة .

فصلى رسول الله ثم استشار الناس : « أيخرج إليهم أم يمكث بالمدينة ؟ »

فأشار عبد الله بن أبىّ بالمقام بالمدينة . قال : فإن أقاموا — يعنى المشركين — أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوها قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين .

وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهدوا بدراً — بالخروج إليهم فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلبس لامته وخرج عليهم .

وقد ندم بعض الصحابة وظنوا أنهم بما أشاروا به قد استكرهوا الرسول على الخروج فقالوا يارسول الله . إن شئت أن تمكث فقال الرسول :

« ما ينبغى لنبى إذا لبس لامتهُ أن يرجع حتى يحكم الله بينه وبين عدوه »

وسار الرسول صلى الله عليه وسلم فى ألف من أصحابه ، فلما كانوا ببعض الطريق رجع عبد الله بن أبىّ بثلث الجيش صفاً صفاً وقال وأصحابه : لو نعلم اليوم قتالا لاتبعناكم ولكنا لا نراكم تقاتلون .

ومضى الرسول ومن تبعه حتى نزل الشِّعب من أحد فى عُدْوة الوادى ، وجعل الجبل «أحد» من خلفه ورجاله وقال « لا يقاتلن أحدٌ حتى نأمره بالقتال .

وأمَّر الرسول على الرُّماة عبد الله بن جبير أخا بنى عمرو بن عوف وكان الرماة خمسين ، فقال لهم : « أنضحوا الخيل عنَّا ، ولا نُؤْتَيَنَّ من قِبلكم ، والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا ، وإن رأيتمونا ، تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم »

وأعطى الرسول صلى الله عليه وسلم اللواء لمصعب بن عمير ، كانت عدة المسلمين فى هذه المعركة قرابة سبعمائة بينما كانت لمدة قريبة ثلاثة آلاف مقاتل ومعهم مائة فرس جعلوا على ميمنتها خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل .

ولقد مضت المعركة فى بدايتها على ما يُحبُّ الرسول والمسلمون فانكشف المشركون وتدافع المسلمون من خلفهم ، وعندئذ ظن فرسان المسلمين أن قد انجلى الأمر فنزلوا من مكانهم مندفعين وراء الجيش .

وكان خالد بن الوليد يرقب ذلك من بعيد فأمكنته الفرصة — لأن فرسان المسلمين تركوا موقعهم مخالفين عن أمر الرسول ألا يبرحوا أماكنهم فهجم خالد بخيله على المسلمين من خلفهم فانكشفوا وزلزلوا زلزالا شديداً ، وأصيب النبى صلى الله عليه وسلم . وكُسِرَتْ رباعيته ، وفرق حاجبه ، فوقع والدم يسيل منه فمر به راع مولى أبى حذيفة فأجلسه ، ومسح عن وجهه فأفاق وهو يقول :

« كيف بقوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله عز وجل » فأنزل الله الآية :

« ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم . أو يعذبهم فإنهم ظالمون » .

وفى كتب المغازى والسير مزيد من التفصيل لمن أراده .

(١٢٣) « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »

(١٢٤) « إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ »

(١٢٥) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ »

(١٢٦) « وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ »

(١٢٧) « لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ »

فى ذكر بدر وما كان من نصر الله المؤمنين فيه حفزٌ لهم المؤمنين على القتال وتثبيت لهم عند اللقاء . وجمهور المفسرين على أن الإمداد السماوى الذى أمدَّ المسلمون بالملائكة كان فى يوم بدر يرجعون هذا أخذاً من قوله سبحانه « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » .

ومهما يكن الخلاف فالذى تعطيه الآيات هو أن المولى سبحانه « يدافع عن الذين آمنوا » . وهو مُغيثهم وناصرهم ، بدليل قوله سبحانه فى ختام الآيات التى تحدثت عن الإمداد بالملائكة :

« وما جعله الله إلا بشرى لكم و تطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم * ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين » .

(١٢٨) « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ »

(١٢٩) « وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

نزلت هذه الآية . «ليس لك من الأمر شيء» كما تقدم فى وقعة أحد «وكانت رداً على تساؤل النبى صلى الله عليه وسلم وهو جريح « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم » ؟ .

الآية تقرر أن أمر هؤلاء إلى ربهم يقضى بينهم بحكمه إن شاء تاب عليهم وإن شاء عذبهم فظلمهم.

وفى الآية بعدها تأكيد لنفس المعنى معنى تفرده سبحانه بالأمر ، وما على الرسول إلا البلاغ ، وليس على الناس بوكيل وما هو عليهم بمسيطر

(١٣٠) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »

(١٣١) « وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ »

(١٣٢) « وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »

فى هذه الآيات عودٌ إلى حديث الربا فتنهى الآيات عنه وتُحذِّر آكليه من نار أعدَّتْ للكافرين، ثم تدعوهم إلى طاعة الله وترغبهم فيها .

وبديهى أن النهى عن أكله أضعافاً مضاعفة لا يجيز أكله أضعافاً غير مضاعفة بدليل ماجاء فى تحريمه من الآيات الصريحة التى تطلب بالامتناع عنه مضاعفاً كان أو غير مضاعف .

(١٣٣) وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ »

(١٣٤) «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»

(١٣٥) «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»

(١٣٦) «أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ»

فى هذه الآيات دعوة للمسارعة إلى الفوز برضوان الله ، إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

وقد حددت الآيات صفات هؤلاء المتقين بأنهم المنفقون فى سبيل الله فى الرخاء والشدة. كما قال سبحانه: «الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية» .

وهم الكاظمون الغيظ ، القادرون على ضبط أنفسهم عند الغضب ، هم الأشداء الذين تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن صفتهم فى قوله :

« ليس الشديد بالصُّرَعَةِ وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » .

ثم هم الذين يعفون وهم قادرون . والذين قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى شأنهم ·

إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ يقول : أين العافُون عن الناس ، هلموا إلى ربكم وخذوا أجوركم ، وحق على كل امرىء مسلم إذا عفا أن يدخُل الجنة »

ثم هم الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله واستغفروه وسألوه التوبة ، ولم يصروا على الذنوب التى فعلوها .

أولئك الذين تجمعت هذه الصفات فيهم لهم حسن الجزاء ونعم أجر العاملين .

(١٣٧) «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ»

(١٣٨) «هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ»

فى الآيتين مواساة وتذكرة للمؤمنين الذين تعرضوا للابتلاء يوم أحد أن يتدبَّروا ما حلَّ بغيرهم من الأمم ، وما تعرض له أتباع الأنبياء من ابتلاء كشفه الله عنهم وجعل العاقبة لهم .

(١٣٩) « ولاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وأنتُمُ الأَعْلَوْنَ إنْ كُنتُم مُؤْمِنِينَ »

(١٤٠) « إنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ »

(١٤١) « وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ »

(١٤٢) أمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ »

(١٤٣) « وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ المَوْتَ مِنْ قَبْلِ أنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأنتُمْ تَنْظُرُونَ »

تمضى الآيات لتربط على قلوب المؤمنين حتى لا يذهب بها ما كان يوم أُحُد فتؤكد الآيات لهم أنهم الأعلون والمؤيدون برسل الله . ولو انهزموا .

ثم هى تناقشهم بالمنطق أن ما أصابهم من القَرْح قد أصاب أعداءهم مثله من قبل يوم بدر ، بل وفى يوم أُحُد نفسه صدر النهار .

ولله فيما جرى حكمة أن يميز الخبيث من الطيب ، ويفرق بين المؤمن الصادق وبين المنافق ، ثم ليتخذ من المسلمين شهداء يموتون دون كلمته ويقتلون فى سبيله ، والله لا يحب الظالمين .

وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين .

ويروى فى قوله « ولا تهنوا ولا تحزنوا » : أن خالد بن الوليد ـ ولم يكن بعد قد أسلم ـ جاء بعد هزيمة المسلمين يحاول بخيله أن يعلو الجبل فقال النبى صلى الله عليه وسلم اللهم لا يعلُون علينا ، اللهم إلا قوة لنا إلا بك ، اللهم ليس يعبدك بهذه البلدة غير هؤلاء النفر . فنزلت هذه الآيات وثابَ نفر من رماة المسلمين فصعدوا الجبل ورموا خيل المشركين حتى هزموهم .

ويروى فى قوله « إن يمسسكم قرحٌ الآية » أنه لما انصرف الرسول صلى الله عليه وسلم حزينا كئيباً يوم جعلت المرأة تجىء بزوجها وأبيها مقتولين وهى تبكى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مخاطباً ربه : « أهكذا يُفْعل برسولك ؟ ! فنزلت الآية .

(١٤٤) « وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أفَإنْ مَاتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ »

(١٤٥) « وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أنْ تَمُوتَ إلاَّ بِإذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ »

(١٤٦) « وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ »

(١٤٧) « وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ »

(١٤٨) فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ »

لما انكشف المسلمين يوم أُحُدٍ وتعرض الرسول صلى الله عليه وسلم لمثل ما تعرضوا له وأصابه ابن قمِئة فأدماه ، وظن أن قد قتله فانطلق إلى المشركين يقول قد قتلت محمداً فتصايحوا بذلك فوقع هذا من نفوس المسلمين أسوأ موقع .

ومرّ رجلٌ من المهاجرين برجُلٍ من الأنصار يتشمط فى دمه فقال له : يا فلانُ أشعرتَ أن محمداً قد قُتِل ؟ فقال الأنصارى :

إن كان محمدٌ قد قُتِل فقد بلَّغ ، فقاتلوا عن دينكم . فنزل « وما محمد إلا رسول الآية » .

ثم كانت الآية الثانية تأكيداً وقطعاً بأن الموت غاية كلّ حيّ ومن لم يمت اليوم فقد يموت غداً ، فليمدّ كلٌ بعمله لنفسه المصير الذى يرجو إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

ثم ذكّر المسلمين بما ابتُلِي به غيرهم من أتباع الأنبياء قبلهم حين قوتلوا فصبروا وَمَا وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله فاستحقوا محبة الله لهم ونصره إياهم . والرِّبيون : قول: الجموع الكثيرة ، وقيل : الألوفُ . وقيل : العلماء المخلصون فى عبادة ربهم . الخ .

وفى الختام تدعو الآيات المسلمين إلى الاعتماد على ربهم والتوكل فى كل أمر عليه ، وأن يجعلوه ملجأهم ومأواهم إذا اشتد الخطب وأن يسألوه التثبيت والنصر على القوم الكافرين .

(١٤٩) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ »

(١٥٠) « بَلِ اللهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ »

(١٥١) « سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ »

(١٥٢) « وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ

الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ »
فى الآيات تحذير للمؤمنين من طاعة الكفار وموالاتهم حتى لا يفسدوا عقيدتهم ويعرضوهم للخسران فى الدنيا وفى الآخرة .

وإذا كان لابد للمؤمنين ممن يوادّونه ويوالونه فالله مولاهم وهو خير الناصرين .

ثم شاء الله أن يثبت قلوب المؤمنين فبشّرَهُم بأن سيلقى الرعب فى قلب عدوّهم الذى هو عدوٌّ الله ورسوله ومأواه النار وبئس المصير .

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال .

« أُعطيت خمساً لم يعطهن أحدٌ من الأنبياء قبلى نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر . وجُعِلَتْ لِيَ الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحِلّت لى الغنائم . وأعطيت الشفاعة ، وكان النبيُ يبعثُ إلى قومه خاصة وبعثتُ إلى الناس عامةً » .

ويروى فى قوله سبحانه : ولقد صدقكُمُ اللهُ وَعْده . الآية » عن محمد بن كعب القرظى . لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد ما كان فى أحد قال ناسٌ من أصحابه :

من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله بالنصر ؟ فأنزل الله قوله . « ولقد صدقكم الله وعده .. الآية » .

والحق — كما قال ابن عباس رضى الله عنه — أن الله صدق وعده بالنصر ، وهم فعلا قد انتصروا أول الأمر يوم أحد حتى انكشف المشركون .

ولكن إخلاف الفرسان لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بألا يبرحوا مكانهم حتى لو رأوا المسلمين تخطّفهم الطير وانشغالهم — عما أمروا به — بجمع الغنائم هو الذى أتاح لفرسان المشركين أن ينقضوا عليهم ، وأن يستحيل النصر إلى هزيمة إبتلاء من الله لهم ودرساً لمن خالفوا عن أمر الرسول ولغيرهم .

وهذا مايشير إليه قوله سبحانه « .. حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة .

ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين .

(١٥٣) « إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ »

(١٥٤) « ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ

أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ »

تمضى الآيات فى الحديث عن تبعة القوم وعما كان يوم أحد حين خالفوا عن أمر الرسول فكان ما كان وانهزموا وفروا يصعدون الجبال ولا يفكرون فى أحد خلفهم، بينما الرسول يدعوهم « إلىّ عباد الله إلىّ عباد الله» فلا يكادون يسمعون.

فما ثابهم الله غما على غم . الهزيمة ، والحرمان من المغانم التى أسرعوا لجمعها قبل أن تحين ساعتها ، ثم قتل من قتل من أهليهم وأحبابهم ثم الصدمة التى زلزلتهم بعد ما جرح الرسول صلى الله عليه وسلم ونودى أنه قد مات .

ثم أنزل الله سكينته عليهم وتغشى النعاس أمنة من عنده سبحانه طائفة منهم ، وبقيت طائفة أخرى لا تكاد تذوق الغمض . نزع الله أمنها لما ظنوه بالله ظن الجاهلية ، ولمقاولتهم التى روتها الآية :

«لو كان لنا من الأمر من شىء ماقتلنا هاهنا » .

(١٥٥) « إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

الآية عامة فى كل من تولى وفرّ عن القتال ، وإن كانت بعض الروايات تذهب إلى أنها نزلت فى شأن عثمان بن عفان رضى الله عنه إذ قيل إنه فر يوم أحد وأن الله فى هذه الآية . قد عفا عنه.

(١٥٦) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »

(١٥٧) « وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ »

(١٥٨) « وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ »

فى الآيات تنبيه للمؤمنين ألا يقولوا مثل مقالة الكفار وألا يعتقدوا مثل معتقدهم فى أن قعود الإنسان عن الجهاد أو تخلفه عن القتال أو مقامه فى بيته ينجيه من الموت .

فهذا تخاذل وضعف يورث النفس الجبن والحسرة ، ويقعد بهمة الإنسان عن طلاب العلا ، وعن الحركة المشروعة لعمارة الحياة .

والاعتقاد السوىّ أن يؤمن الإنسان بأن الموت والحياة بيده سبحانه ولا ينجى من الموت الحذر .

ثم إنّ الموت فى سبيل الله خير مما يجمع الإنسان من عرض الدنيا ، والكل فى النهاية محشور إلى الله من استشهد فى سبيل الله ومن مات على فراشه قعيد بيته .

(١٥٩) « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ »

(١٦٠) « إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ »

يمنّ الله على الرسول وعلى المؤمنين أن ألان قلبه لهم وملأه بالعطف والتراحم حتى تألفه النفوس وتطمئن إليه القلوب ويتجمع من حوله الأنصار ، ولو كان فظًّا غليظ القلب لانفض الناس من حوله ولفقدت الدعوة أساس نجاحها .

ولذا أمره الله سبحانه بأن يعفو عنهم إن أساءوا بمالا يضيع معه لله حق ، وأن يستغفر لهم ويدعو لهم بالهداية وأن يشاورهم فى الأمر .

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه فى كل أمر لا يكون معه وحىٌ وكان ينزل على شورتهم ، بل لقد استشارهم فى أمر يكاد يخصه أعنى ما كان من حديث « الإفك »

فإذا اجتمع الرأى وعزم المسلمون أمورهم فليتوكل على الله ولنسأله وحده النصر لأنه سبحانه الناصر .

(١٦١) « وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ »

(١٦٢) « أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ »

(١٦٣) « هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ »

ما كان لنبى أن يُغلّ : قيل : ما كان له أن يخون ، وقيل نزلت بعد بدر ، إذ فقد الناس « قطيفة » مما كان المسلمون قد غنموه « وتحدث الناس فى ذلك وأكثروا وقالوا ، لعل الرسول قد أخذها فنزلت الآية » ،

وثمة كثير من الأقوال .

والآية صريحة فى نفى الغلول والخيانة عن الرسول ، وكيف أمر معروف جزاء من يفعل ذلك ؟ بل كيف وهو النبى المعصوم أن يكون منه مالا يرضى الله .

وفى الآيتين بعدها تقرير للفارق بين من رضى الله عنه لطاعته واستقامته وبين من سخط الله عليه لكفره وعصيانه ، فالأول فى رضوان الله والآخر مأواه جهنم وبئس المصير .

(١٦٤) « لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ »

يمن الله على المؤمنين أن أرسل إليهم بشراً رسولا منهم يفهم عنهم ويفهمون عنه وفى القرآن كثير من الآيات التى تؤكد بشرية الرسول وكونه واحداً من الذين أرسل إليهم يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق .

(١٦٥) أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »

(١٦٦) « وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ »

(١٦٧) « وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ »

(١٦٨) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »

المصيبة فى الآية الأولى : ما نزل بالمسلمين يوم أحد وقتل سبعين منهم.

وما أصابوه مثليها : ما كان يوم بدر إذ قتلوا من المشركين سبعين أو أسروا مثلهم سبعين . « قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم » .

قلتم كيف نزل بنا يوم أحد ما نزل وقد وعدنا الله نصره ؟ قل : تبعته تقع عليكم . وقيل فى قوله : « هو من عند أنفسكم » أى بسبب عصيان الفرسان أوامر الرسول وتركهم أماكنهم وانشغالهم بالغنائم وماترتب عليه من مباغتة المشركين ثم الهزيمة .

وقيل وهو يروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أى بسبب أخذكم الفدية من أسرى « بدر » وكان لعمر رأى فيها أن تضرب أعناقهم ولا تقبل منهم الفدية ، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة «ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » .

ومع هذا فلا جزع بما كان يوم أحُد فهو من قَدَر الله سبحانه ليعلم المؤمنين أى يظهرهم للناس فهو بهم أعلم ، وليعلم الذين نافقوا — وهو بهم أعلم — من أمثال عبد الله بن أبىّ بن سلول وأصحابه الذين رجعوا وقالوا مقالتهم التى سجلتها الآية . كما سبق ذكره .

(١٦٩) « وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ »

(١٧٠) « فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ »

(١٧١) « يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ »

سُئل ابن عباس رضى الله عنه عن هذه الآية « ولا تحسبن الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتاً » فقال : سألنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« لما أصيب إخوانكم بأحد جعل اللهُ أرواحهم فى أجواف طير خُضْر تردُ أنهار الجنة ، وتأكلُ من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش .

فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ إخواننا أنا فى الجنة نُرزقُ لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلُوا فى الحرب ؟ ! فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل هذه الآيات تقرر أن الشهيد حىٌّ يرزق عند ربه ، وتقرر فرحه بما آتاه الله من فضله ، واستبشاره بما يلحق به من إخوانه من الشهداء كما يفرح الإنسان بعودة حبيب غائب .

وإن ما يرى الشهداء من فضل الله عليهم يجعلهم يسألون ربهم سبحانه لوأعادهم إلى الحياة ثانية ليجاهدوا فيستشهدوا ثانية وثالثة فى سبيله .

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال — وكان أبوه قد استشهد فى أحد —

قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعلمت أن الله أحيا أباك فقال له : تمنَّ .

فقال له . يارب أتمنى أن أردّ إلى الدنيا فأقتل فيك مرة أخرى .

فقال سبحانه : إنى قضيت أنهم إليها لا يرجعون .

(١٧٢) «الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ»

(١٧٣) «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»

(١٧٤) «فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ»

(١٧٥) «إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»

«الذين استجابوا لله والرسول» . قيل هم الذين خرجوا مع الرسول بعد أحد وبعد انصراف المشركين.

خرجوا مع الرسول يطلبون عيراً لأبى سفيان فأفلتهم ودخل بها أبو سفيان مكة ففيهم نزلت

ورواية أخرى تقول :

لما رجع المشركون بعد أحد قالوا لأنفسهم أو قيل لهم : لا محمداً قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم فبئس ما صنعتم ، أرجعوا .

فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ندب القوم للخروج إليهم ليرعبهم ، وليظهر لهم أنه مازال بالمسلمين قوة قادرة على القتال .

فأذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس بطلب العدو ، وأذن مؤذنه أن لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس .

وتقول الروايات ، إن بعض من شهد أحداً قد وسوس له الشيطان أو قال لهم القائلون إن الناس يعنى كفار قريش «قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل» .

فلما علم أبو سفيان ومن معه بخروجهم ألقى الله الرعب فى قلوبهم فمالوا عن طريقهم وانصرفوا إلى المدينة ورجع الذين خرجوا بعثوبة الله ولم يمسسهم سوء .

(١٧٦) «وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»

(١٧٧) «إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»

(١٧٨) « وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ »

(١٧٩) مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ »

الخطاب موجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله « ولا يحزنك » إذ كان به صلوات الله عليه حرص على أن يؤمن هؤلاء فنبهه القرآن إلى هوان شأنهم ، وإلى أنهم الخاسرون ، كما اشتروا الكفر بالإيمان فياويلهم من عذاب مهين وأليم عظيم .

وإذا كان الله سبحانه لا يسرع فى معاقبة المشركين فذلك منه سبحانه إمهال وإملاء ليزدادوا كفراً وتزداد صحائفهم وزراً وآثاما .

وتمييز الله الخبيث من الطيب : قيل : المراد ماحدث يوم أحد من تمييز المؤمنين من المنافقين وقيل: هو تمييز عام بالجهاد ، وقبله بالهجرة ، وكل أمر يكون فيه ابتلاء وامتحان .

(١٨٠) « وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ »

روى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« من آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته مُثِّل له يوم القيامة شُجاعاً أقرعُ له زبيبتان يُطوَّقه يوم القيامة، يأخذ بلهزمتيه — يعنى شدقيه — يقول . أنا مالك . أنا كنزُك » ثم تلا هذه الآية :

والأحاديث كثيرة فى وجوب الإنفاق — من فضل الله — على النفس والولد : وذى الرحم وكل ما يشرع الإنفاق فيه .

(١٨١) « لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ »

(١٨٢) « ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ »

رُوى فى سبب نزول الآية أن أبا بكر رضى الله عنه دخل بيتاً فيه رجال من اليهود ويجتمعون حول

أحدهم يقال له « نخاص » وكان من أحبارهم . فقال له أبو بكر رضى الله عنه أسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسولُ الله بن عبد الله قد جاءكم بالحق الذى تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل .

فقال الرجل :والله مابنا إلى الله حاجة ، وأنه إلينا لفقير،وإنا عنده لأغنياء ، ولو كان غنياً مااستقرضنا كما يزعم صاحبكم (يشير اليهودى إلى قوله سبحانه : من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافا كثيرة . . الآية » .

فغضب أبو بكر رضى الله عنه وضرب وجه الرجل وقال له :

« والذى نفسى بيده لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك ياعدو الله فذهب اليهودى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: أتبصر يامحمد ماصنع بى صاحبك ؟

فسأل الرسول أبا بكر عن الأمر فقصه عليه فأنكر اليهودى ماقاله . فنزلت الآية تروى الحقيقة وتجىء بتصديق أبو بكر .

(١٨٣) « الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »

(١٨٤) « فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ »

ذكر النيسابورى فى أسباب النزول عن الكلبى أنها نزلت فى كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف ووهب بن يهوذا ، وزيد بن تابوه ، وفنخاص بن عازوراء — السابق ذكره — وفى حُيىّ بن أخطب ، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا :

«تزعم أن الله بعثك رسولاً ، وأنزل عليك كتاباً ، وأن الله قد عهد إلينا فى التوراة ألا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، فإن جئتنا به صدقناك».

قل — يا محمد — قد جاءكم رسل من قبلى بما طلبتموه إليهم . فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ؟ الأمر إذاً أمر عنادٍ وإعناتٍ ، ومن ثم تجىء الآية الثانية تهيب بالرسول ألا ييأس عليهم وألا يضيق بتكذيبهم فكم كذبت الرسل من قبل منهم وأشياعهم .

(١٨٥) « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ »

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : موضع سوط فى الجنة خيرٌ من الدُّنيا وما فيها . اقرأوا إن شئتم : فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » .

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من أحبَّ أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس بما يحب أن يؤتى به إليه » .

والآية توجيه عام تقرر فيه حقيقة الموت ، وتقرر فيه البعث والجزاء . ثم تقرر كذلك هوان شأن الدنيا كلها ، وأنه متاع زيف وباطل ، وغرور .

(١٨٦) « لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ »

نفس المعنى ما تقرر فى آية أخرى من قوله سبحانه: فى سورة البقرة « ولنبلونَّكم بشىء من الخوف والجوع ونقص مِنَ الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون * أولئك عليهم صلواتٌ من ربِّهم ورحمةٌ وأولئِكَ هُمُ المهتدون » .

ويروى فى سبب نزولها حديث طويل لا مجال هنا لتفصيله .

(١٨٧) « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ »

(١٨٨) « لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

(١٨٩) « وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »

سُئل ابن عباس رضى الله عنه : لئن كانَ امرؤٌ منّا فرح بما أتى وأحب أن يُحمد بما لم يفعل عذّبَ لنعذبنَّ أجمعين ؟

فقال ابن عباس رضى الله عنه : مالكم ولهذا ؟ إنما دعا النبى صلى الله عليه وسلم يهود فسألهم عن شىء فكتموهُ إيّاهُ ، وأخبروه بغيره، فأرَدْهُ أن قد استحمدوا إليه بما أخبره ، عنه فيما سألهم ؛ وفرحوا فيما بينهم بكتمانهم إياه الحقيقة .

ثم قرأ ابن عباس الآية « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب . . الآيات .

ورُوى أن أبا سعيد الخدرى رضى الله عنه كان عند مروان بن الحكم وهو يومئذ أمير على المدينة فسأله مروان :

يا أبا سعيد أرأيت قوله تعالى « ولا تحسبنّ الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا... الآية » والله إنّا لنفرح بما أتينا ، ونحبُّ أن يُحمد بما لم نفعل !!

وقال أبو سعيد : ليس هذا فى هذا .

إنما كان رجال فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم يتخلفون عنه وعن أصحابه فى المغازى ، فإذا كانت فيهم — يعنى فى الرسول وصحبه — النكبة وما يُكره فرحُو بتخلفهم ، وإن كان فيهم ما يحبُّون حلفَوا لهم وأحبُّوا أن يُحمدوا بما لم يفعلوا .

ومهما تكن أسباب النزول ففى الآية إنكار على أهل الكتاب أن يكتموا الحق الذى فى كتبهم ، وتحذير لهم من سوء المصير .

وفيها : إنكار على الذين يقولون مالا يفعلون ، ويتمدحون بما ليس من عملهم وتقرير لما ينتظرهم من عذاب أليم .

وفى ختامها تأكيد ملكه سبحانه للسموات والأرض وقدرته سبحانه على كل شىء فليعتبر الغافلون ، والذين لا يفقهون .

(١٩٠) « إنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآيَاتٍ لِأُولِى الأَلْبَابِ »

(١٩١) « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ »

(١٩٢) « رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ »

(١٩٣) « رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ »

(١٩٤) « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ المِيعَادَ »

ويروى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : أتت قريش اليهود فقالوا : بم جاءكم موسى ؟

قالوا : بعصاه ، ويده بيضاء للناظرين .

أتو النصارى فقالوا : بم جاءكم عيسى ؟

قالوا : كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى .

فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : ادع لنا الله أن يجعل لنا « الصفا » ذهباً . فأنزل الله هذه الآية . إن فى خلق السموات والأرض .. الآية .

وفى ضوء هذا يكون توجيه الآيات أنه إذا كان موسى وعيسى عليهما السلام قد جاءا قومهما بمعجزات وآيات حسية ملموسة ، فإن معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم كانت القرآن . أى كانت الكلمة ، أو بعبارة أخرى كانت : توجيه العقل إلى النظر والتدبر وتجاوز مرحلة التصديق : بالمحسوس إلى الإيمان عن طريق المعقول ، وعن طريق النظر وإعمال الفكر :

وفى خلق السموات والأرض ثم فى خلق الإنسان. ثم فيما بث الله فى الأرض من دابة . لآيات لقوم يفقهون . وتذكرة لأولى الألباب .

وفى الآيات التالية بيان لبعض سمات أولى الألباب هؤلاء :

فهم الذين يذكرون الله فى كل وقت وعلى كل حال .

وهم الذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض ويعتقدون أن وراء هذا الخلق خالقاً أعظم ، ووراء هذا التدبير المحكم حكمة عليا قد لا يدركها العقل ولكنه يعتبر بها .

وإذا بلغ العقل مرحلة الإيمان بوجود الخالق ، ثم بأن خلق الكون وخلق الإنسان لم يكونا باطلا وعبثاً .. فبعد الإيمان يكون التسليم والانقياد والضراعة إلى رب هذا الكون أن يغفر الذنوب ، وينجى من النار ، وينعم على المؤمنين المتقين بما وعدهم على ألسنة رسله من ثواب .

قال ابن عمر لعائشة رضى الله عنها : اخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبكت وقالت كان أمره كله عجب .

أتانى فى ليلتى حتى مس جلده جلدى ، ثم قال : « ذرينى أتعبد لربى عز وجل » .

قالت : فقلت : والله إنى لأحب قربك ، وإنى لأحب أن تعبد ربك .

فقام إلى القربة فتوضأ . ولم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحيته ، ثم سجد فبكى حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى جاء بلال يؤذنه لصلاة الصبح . قال :

ما يبكيك يارسول الله وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ .

قال صلى الله عليه وسلم : « ويحك يابلال وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله على الليلة « إن فى

خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب .» ثم قال الرسول .

« ويل لمن قرأها ، ولم يتفكر فيها » .

(١٩٥) « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ »

أولوا الألباب الذين سبق ذكرهم ، وسبق تسجيل الآية لما يدعون به ربهم أولو الألباب هؤلاء قد استجاب الله لدعواتهم أن الله لن يضيع عمل عامل ، ذكراً كان أم أنثى .

فكل من جاهد فى سبيل الله . أو أوذى فى سبيله . أو أخرج من دياره ، أو ماله أو أهله فى سبيله لا بد أن يجد عند ربه جزاءه الأوفى جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواب من عند الله ، والله عنده حسن الثواب .

(١٩٦) « لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ »

(١٩٧) « مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ »

(١٩٨) « لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ »

روى أنها نزلت فى مشركى مكة إذ كانوا يتجرون وينعمون فى الخير فقال بعض المؤمنين ، إن أعداء الله فيما نرى من الخير . وقد هلكنا من الجوع والجهد . فأنزل الله هذه الآية ليؤكد للمؤمنين أن ما عليه الكفار من متاع ليس سوى عرض زائل تعقبه الحسرة والخسران والخزى فى جهنم وبئس المهاد .

أما المتقون الذين يعانون فى الدنيا ويفوتهم متاعها القليل الزائل فلهم فى الجنة الثواب العظيم والنعيم المقيم ، وما عند الله خير وأبقى .

(١٩٩) « وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ »

(٢٠٠) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »

تقرر الآية أن بعض أهل الكتاب يؤمنون حق الإيمان بربهم ويصدقون بما أنزل إليهم، ولا يبيعون آيات الله بالثمن القليل كما يفعل غيرهم من أهل الكتاب.

هؤلاء لن يحرموا ثوابهم ولهم عند الله أجرهم، بل إنهم سيؤتون أجرهم مرتين كما جاء في سورة القصص.

« الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يُتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنّا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » الآية.

وكما قال سبحانه: « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ».

وكما قال: « قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً »

وفي ختام السورة يأمر الله المؤمنين بالصبر، والمصابرة، والمرابطة لعلهم يفلحون وقد قيل في تفسيرها.

المراد الصبر على الدين تمسكا به وحرصاً عليه، ونهوضاً بتبعاته ومشقاته.

والمصابرة.. مصابرة الأعداء ممن يكتمون العداء، أو يظهرونه ويكيدون للمسلمين في السر أو في العلن.

والمرابطة. لزوم المسجد وكثرة الصلوات.

وفي تأييد هذا يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

« ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة. فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط ».

وروى أبو سلمة بن عبد الرحمن قال:

أقبل عليّ أبو هريرة يوماً: فقال: أتدري يا ابن أخي فيم نزلت هذه الآية « يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا، الآية »؟ قلت: لا.

قال: أما إنه لم يكن في زمان النبي صلى الله عليه وسلم غزوٌ يرابطون فيه. ولكنها نزلت في قوم يعمرون المساجد، ويصلون الصلاة في مواقيتها، ثم يذكرون الله فيها. فعليهم أنزلت (اصبروا) على الصلوات الخمس و(صابروا) أنفسكم وهواكم و(رابطوا) في مساجدكم، واتقوا الله فيما عليكم لعلكم تفلحون.

تفسير سورة النساء

(١) « يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً »

فى الآية الأمر بتقوى الله « الذى خلقكم من نفس واحدة » هى آدم عليه السلام و « خلق منها زوجها » حوّاء من ضلعه الأيسر على ماهو معروف . « وبث منهما رجالا كثيراً ونساء » خلق من ذريتهما هذا الخلق كله .

ثم يتكرر الأمر بتقوى الله « الذى تساءلون به » تجعلونه شافعكم عند السؤال كما تقول : أسألك بالله وبالرحم . أو تساءلون . به تتعاقدون باسمه وتتعاهدون . والأرْحَامَ فى قراءة من نصبها : يكون المعنى واتقوا الأرحام لا تقطعوها بل صلوها وفى قراءة الجر : الأرحامِ يكون : واتقوا الله الذى تساءلون به وبالأرحام . . .

اتقوه إنه كان عليكم رقيباً .

(٢) « وَءَاتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً »

(٣) « وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا »

(٤) « وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً »

عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة رضى الله عنها عن قوله تعالى « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى » : فقالت : يا ابن أختى هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها ، تشركه فى ماله ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره فنُهُوا عن ذلك إلا أن يبلغوا بهن أعلى سُنَّتِهن فى الصداق . فإن لم يستطيعوا فالنساء كثير مثنى وثلاث ورباع .

والقول الذى عليه الإجماع فى قوله « مثنى وثلاثة ورباع » أنه لا يحل للرجل أن يجمع فى عصمته أكثر من أربع . وما فوق ذلك مما عرف عن الرسول صلى الله عليه وسلم فتلك من خصوصياته التى لا يشركه فيها أحد .

ومعنى « ذلك أدنى ألا تعولوا » : قيل: لا تكثر عيالكم .

وقيل : معناه : لا تجوروا وتظلموا .

ثم أمر بإيتاء النساء صدقاتهن أو مهورهن : نحلة : أى فريضة ، وقيل معناها الواجب أى : لا تنكح المرأة إلا بشىء واجب ومفروض لها . فإن نزلت المرأة لزوجها عنه — بعد تسميته — أو عن شىء منه فليأخذه حلالا طيباً .

(٥) « وَلاَ تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللهُ لَكُمْ قِيَاماً وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً »

(٦) « وَٱبْتَلُوا ٱلْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً »

السفيه : من افتقد المقدرة على التصرف الصحيح السليم بحيث يحتاج إلى من يلى أمره ، وينصرف هذا إلى الصغار الذين لم يبلغوا الحلم ، وإلى من فقد عقله ، ثم إلى من يخشى ألا يحسن التصرف بوصف عام .

فمثل هؤلاء — ومنهم الخدم والنساء — فيما روى عن ابن عباس ينبغى ألا يمكنهم الرجل من ماله حتى لا يتلفوه ، بل يحفظه بيده ويؤدى لهم كل حقهم منه .

أما اليتامى فتصح الولاية عليهم حتى يبلغوا النكاح أى يبلغوا الحلم فى سن الرشد . عندئذ تدفع إليهم ليصرفوا فيها .

ويحذر القرآن وَلِىَّ اليتيم من أكل ماله إسرافاً فى الإنفاق أو بداراً » أى إسراعاً وتعجلاً فى أخذ ما يمكن أخذه قبل أن يَرْشُدَ اليتيم .

والولى على مال اليتيم أن يأخذ حاجته التى تفرضها ضرورة ولايته على المال وقيامه بأمره شريطة ألا يسرف أو يغالى . ولذا حبب إلى الولى الغَنِىِّ أن يستعفف،أما الفقير فله ما يقضى به العرف: أى قدر حاجته، أو قدر أجر مثله فى العمل .

فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم حتى لا يكون ثمة نزاع .

(٧) « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الوالِدَانِ والأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً »

(٨) « وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُوا ٱلْقُرْبَى وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً »

(٩) « وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً »

قال المفسرون : إن أوس بن ثابت الأنصارى توفى وترك امرأة يقال لهـــا أم كحة، وثلاث بنات له منها .

فقام ابنا عمهُ ووصياه ويقال لهما سوَيْدٌ وعَرْفَجَة فأخذا المال ولم يُعطيا امرأته ولا بناته شيئاً .

وكانوا فى الجاهلية لا يورّثون النساء ، ولا الصغار وإن كانوا ذكوراً . إنما يورثون الرجال الكبار وكانوا يقولون لا يُعطى إلا من قاتل . وحاز الغنيمة .

فجاءت أم كحة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن أوس بن ثابت مات وترك علىّ بنات ، وأنا امرأةٌ ، وليس عندى ما أنفق عليهن . وقد ترك أبوهن مالا حسناً وهو عند سويد وعرفجة: لم يعطيانى ولا بناته من المال شيئاً وهن فى حجرى ، ولا يطعمانى ، ولا يسقيانى ، ولا يرفعان لهن رأساً .

فدعاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : يا رسول الله : ولدها لا يركبُ فرساً ولا يحمل كلاً ، ولا ينكى عدواً .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انصرفوا حتى أنظر ما يحدث الله لى فيهن ، فانصرفوا فنزلت هذه الآية .

أما قوله « وإذا حضر القسمة أولوا القربى الآية » فقد كثر فيها اختلاف المفسرين .

أهى آيةٌ منسوخة نسختها آيات الميراث التى حددت لكل مستحق نصيبه . ؟

أم قوله « فارزقوهم معناه الوصية لهم ، وليس ميراثاً . أى يوصى الميت قبل وفاته .

وقيل يفرز لهم نصيب من الميراث ، وأن ذلك كان واجباً فى ابتداء الإسلام .

ويروى العوافى عن ابن عباس رضى الله عنه ، أن المعنى : إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون ، واليتامى والمساكين . . إذا حضروا قسمة مال جزيل فإن نفوسهم تتوق إلى شىء منه ، إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ وهم يائسون لاشىء يُعطُونه فأمر سبحانه أن يُرضخ لهم شىءٌ يكون جبراً لكسرهم وإحساناً إليهم ، كما قال سبحانه « كلُوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده » .

وفى قوله « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً . . الآية » .

فأولى الأقوال مارواه بن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهم: من أن المراد ليتقوا الله فى أموال اليتامى فلا يأكلون إسرافاً وبداراً .

(١٠) « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً »

وعن أبى برزة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« يُبعثُ يوم القيامة القوم من قبورهم تأجج أفواههم ناراً » قيل ومن هم يارسول الله ؟ قال :

« ألم تر أن الله قال « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً » .

(١١) « يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَمْ يَكُن لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ءابَاؤُكُمْ وأَبْنَاؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً »

يروى جابر فى سبب نزول هذه الآية : أن امرأة سعد بن الربيع جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت :

يارسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك فى يوم أحد شهيداً ، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدعْ لهما مالا ، ولا ينكحان إلا ولهما مالٌ ، فقال الرسول : « يقضى الله فى ذلك » فنزلت آية الميراث هذه فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عمهما فقال أعط ابنتى سعد الثلثين ، وأمهما الثمن . وما بقى فهو لك » .

وقد نصّ القرآن على توريث المرأة ولم تكن ترث فى الجاهلية ، وفاضل فيها وبين الرجل رعاية لما يتحمل من تبعات وما يطالب به من إنفاق .

فإن ترك الميتة إناثاً اثنتين فأكثر فلهما الثلثان .

وإن كانت واحدة وأبوين ، فلها النصف ولكل واحد منهما السدس .

وإذا لم تكن له ذرية وورثه الأبوان فللأم الثلث وللأب الثلثان .

فإذا ترك أبوين وإخوة فللأم السدس ، ولاشىء للاخوة ، والباقى للأب . كل هذا بعد تنفيذ مايوصى به ، وقضاء ما يكون من دين عليه .

وفى ختام الآية ينبه القرآن إلى مايتوهمه بعض الناس من أن بعض ذويهم خيرٌ لهم من بعض فيؤثرونهم بالميراث أو بالوصية والله وحده العالم بالنافع منهم وغير النافع .

(١٢) « وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ »

هذا بيان توريث المرأة وميراثها : فإن ماتت وتركت زوجاً ولم تترك ولداً فللزوج النصف . فإن كان لها ولدٌ فللزوج الربع ، من بعد الوصية أو قضاء الدين .

وترث المرأة من زوجها الربع مما ترك إن لم يكن له ولد ، فإن كان فلها الثمن من بعد الوصية أو الدين .

والكلالة : الرجل لا أصل له ولا فرع . أى لم يترك لا ولداً ولا أبوين فميراثه لأقاربه البعيدين .

فإن كان له أخٌ أو أخت من أم فلكل واحد منهما السدس ، وإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث . من بعد الوصية أو الدين بشرط ألا يكون فى الوصية إضرار بالوارثين بأن تزيد عن الثلث ولذا قال سبحانه غير مضار وصية من الله .

(١٣) « تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »

(١٤) « وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ »

ما سبق ذكره من تفصيل فى آيات الميراث هو شريعة الله وحدود العدل من عمل بها أدخله الله الجنة ، ومن خالفها وعصى الله ورسوله وتعد الحدود فله النار خالداً فى عذابها المهين .

(١٥) « وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً »

(١٦) « وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً »

كان هذا فى بداية الإسلام قبل أن تنزل سورة النور وفيها الرَّجمُ والجَلْدُ . فإن ثبت الزنا على المرأة بالبينة العادلة كان الحكم أن تحبس فى البيت حتى تموت أو يجعل الله لهن سبيلا ، بالزواج أو غيره . . واستشهاد الأربعة فى إثبات الزنا دليل الحكمة الإلهية السامية فى شدة الاحتياط لما يترتب على إثبات الزنا من أشد العقوبات .

واللذان يزنيان ذكراً أو أنثى فأذوهما بالتوبيخ والتقريع ، وقيل بالتغريب والجلد حتى يتوبا . وقيل المراد الرجلان إذا فعلا بفعل قوم لوط .

(١٧) « إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً »

(١٨) « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً »

عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يقبل توبة عبده أو يغفر لعبده مالم يقع الحجاب » .

قالوا : وما وقوع الحجاب . قال : أن تخرج النفس وهى مشركة .

وفى الآية بيان لشروط الأمل لقبول التوبة : وهو أن ألا يكون المذنب على علم بالذنب حين فعله ، والثانى : أن يتوب من قريب أى قبل فوات الوقت واقتراب الموت . فمن انتهى إلى ذلك أو خرجت النفس وهى مشركة فلهم عذابٌ أليمٌ .

(١٩) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ

كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا »

روى فى سبب نزول هذه الآية أنهم كانوا فى الجاهلية إذا مات الرجل أصبح أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاءوا زوجوها من غيرهم ، وإن شاءوا لم يزوجوها ، وهم أحق بها من أهلها فنزلت الآية فى ذلك تنهى عن توريث النساء ، كما تورث الدواب الأنعام وتنهى عن الأضرار بهن لاسترداد ما دُفع من صداق أو نحوه إلا إذا زنت فللرجل استرجاع ما أعطى .

وفى ختام الآية توجيه عامّ إلى عشرة المرأة بالمعروف ، والصبر عليها فلقد يكون فى مكروهها خير ، كولد صالح أو نحوه .

(٢٠) « وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً »

(٢١) « وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً »

إذا أراد المسلم أن يفارق امرأته ويستبدل بها غيرها فلا يأخذ من الأولى شيئاً مما كان مهرها به ولو كان قنطاراً من المال . وكيف يأخذ منها وقد أفضت إليه بنفسها وأفضى إليها . إن أخذه والحالة هذه بهتان وإثم مبين .

« والميثاق الغليظ » هو — فيما أرجح — ما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبته فى حجة الوداع إذ قال :

« واستوصُوا بالنساء خيراً فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله » .

(٢٢) « وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً »

(٢٣) « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً »

تحرم الآية نكاح زوجة الأب واعتبره زناً وفاحشة ، وذكر مايؤدى إليه من مقت الابن أباه وبئس طريقاً لمن سلكه ، فمن وقع فيه بعد يعتبر مرتداً فيقتل ويصبح ماله فيئاً لبيت مال للسلمين .

وفى الآية الثانية تحريم مايحرم زواجه من النساء سواء كان سبب التحريم هو النسب أو الرضاع أو المصاهرة . ففى الحديث « يحرم من الرضاعة مايحرم من النسب » .

والربيبة : بنت المرأة وهى تحرم إذا دخل بأمها ، فإن لم يدخل بها جاز له أن يعدل عنها إلى البنت .

والمحرمات على التوالى كما فى الآية حسن : الأمّ ، والبنت ، والأخت ، والعمة ، والخالة ، وبنات الأخ وبنات الأخت ، والأم من الرضاعة ، والأخت من الرضاعة ، وأم الزوجة ، والربيبة المدخول بأمها ، وزوجات الأبناء من الصلب ، والجمع بين الأختين ، ثم زوجات الغير كما سيجىء فى الآية التالية :

(٢٤) « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً »

المحصنات : ذوات الأزواج حرم الله نكاحهن إلا ما ملكت يمينك فبيعها طلاقها أو ماملكت أيمانكم من السبايا ولهن أزواج كفار ، فهن حلّ للسابين . (كتاب الله عليكم) : ما أحل وما حرّم مما فرض الله فألزموه واعملوا به . وابتغوا الإحصان وعفة وابتعدوا بالحلال عن الحرام . وآتوا زوجاتكم صدقاتهن المفروضة . ولا إثم عليكم فيما ترضونه بينكم من المهور أن تزيدوا فيه أو ينزلن عن بعضه لكم .

(٢٥) « وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

ومن لم يسعفه ماله أن ينكح الحرائر فدونه الإماء المؤمنات يجد فيهن طلبته فيتزوجهن — بإذن أربابهن بعد إيتائهن مهورهن بالمعروف — زواجاً يحصنه ويحصنهن لامسافحة ولامخادنة فى السر .

فإذا زنت الأمة بعد إحصانها بالزواج فعليها نصف ما على الحرة من عذاب .

وهذا الزواج بالرقيقات مباح لمن خشى الوقوع فى الفتنة أو الزنا ، والصبر عنهن لمن استطاعه أولى وخيرٌ .

(٢٦) « يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »

(٢٧) « وَاللهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً »

(٢٨) « يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً »

إن حكمة الله سبحانه فيما أحلَّ وما حرَّم مقصود بها الإرشاد والهداية وأن يتوبَ الله عليكم ، وأن يخفف عنكم لأنه أعلم بالإنسان ، وما خُلق عليه من ضعف لا يصبر معه عن الشهوات ، ولا يطيق معه مشقات الطاعات .

(٢٩) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً »

(٣٠) « وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً »

النهى صريحٌ عن أكل أموال الناس بالباطل ، بطريق غير مشروع كالربا والقمار والسرقة والغصب والتحايل وما يتصل بها مما يؤخذ فيه المال بغير حق .

يستثنى من ذلك البيع والشراء والتجارة وكل ما يتم الاتفاق والتراضى عليه .

والنهى صريحٌ كذلك . عن قتل النفس بالانتحار يأساً أو بدفعها إلى الهلاك دون الحيطة الواجبة . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يجأ بها بطنه يوم القيامة فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن قتل نفسه بسُمٍّ فسمُّه فى يده يتحسَّاهُ فى نارِ جهنَّم خالداً مخلداً فيها أبداً .

ومن يفعل شيئاً مما نهى الله عنه معتديا وظالماً ومجاوزا حدّ الله فسوف يصليه الله النار وما أيسر ذلك على الله .

(٣١) « إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً »

(٣٢) « وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسْأَلُوا اللهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً »

إذا اجتنب الإنسان الكبائر كفر الله عنه السيئات الصغائر ، وللمفسرين فى « الكبائر » أقوال لا تكاد تحصى : أكثرها : أنها الشرك بالله ، وقتل النفس بغير حق ، والتعامل بالربا ، وأكل مال اليتيم والفرار يوم الزحف ، والزنا ؛ وعقوق الوالدين وقذف المحصنات الغافلات . . الخ .

رُوِى عن مجاهد ، قالت أم سلمة : يارسول الله ، تغزو الرجال ولا نغزو ، وإنما لنا نصف الميراث فنزلت الآية . « ولا تتمنَّوا ما فضل الله به بعضكم على بعض .

وقيل : لما نزلت آية الميراث قال الرجال : إنا لنرجوا أن نفضل على النساء بحسناتنا فى الآخرة كما فضلن عليهن فى الميراث . وقالت النساء ، إنّا لنرجوا أن يكون الوزر علينا نصف مال على الرجال فى الآخرة كا لنا الميراث على النصف من نصيبهم فى الدنيا فنزلت الآية .

(٣٣) « وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً » .

قضت حكمة الله أن يكون لكل إنسان وارثه الذى يؤول إليه ماله . « والذين عقدت أيمانكم » هم المهاجرون حين قدموا المدينة على الأنصار فآخوهم فكانوا يتوارثون ، فلما نزلت هذه الآية نسخ ذلك فذهب الميراث ولهم نصيبهم بالوصية غير مضار لوارث . وفى تفسيرها حديث طويل .

(٣٤) « الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً »

(٣٥) « وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً »

الرّجال قوّامون على النساء . هذا حكم الله ، وهو حكم الخلقة والطبيعة والتكوين الذى ميزّ الرجل عامة وأهله لاحتمال للشاق وفرق بينه وبين المرأة فى كثير من الأمور . ثم لما يحتمله الرجل من تبعات الإنفاق عليها وعلى ولدها منه . فالتفضيل هنا فى مقابل التبعات التى يحملها ولا تقوى على احتمالها المرأة ،

وفى بقية الآية والآية التى بعدها بيان مفصل للأسلوب الذى يعالج به الخلاف إذا حدث بين الرجل والمرأة ، ومنه ما يستطيعه الرجل وعليه أن يحاوله من الوعظة والهجر فى المضجع ثم الضرب غير المتلف ، فإن أفاد فلا سبيل عليها .

وإذا لم ينجح الزوج فى علاج الحال تدخل حكمان من أهله ومن أهلها ليريا فى أمرهما ما ينتهى به الحال إما عشرة بالمعروف أو تسريح بإحسان ، وليخلص الحكمان النية حتى يكتب الله التوفيق .

(٣٦) « وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً »

(٣٧) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً »

(٣٨) « وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً »

فى الآية الأولى : أمر صريح بعبادة الله وعدم الإشراك فهذا حقه سبحانه على عباده ، ثم بعده أمر بالإحسان إلى الوالدين كما قال « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا »

وبعدها عددت الآية أصناف من يجب الإحسان إليهم من ذوى القربى ، واليتامى ، والمساكين والجار القريب ، والجار البعيد ، والزميل الصاحب ، وابن السبيل ، والأرقاء بشرط أن يتم هذا كله فى إطار الخضوع للخالق الرازق بعيداً عن الفخر والاختيال الذى لا يحببه الله سبحانه .

وكما لا يحب سبحانه المختالين حين يحسنون فإن الذين يبخلون بما آتاهم الله ويكتمون فضله فلهم عنده عذاب مهين لكفرهم النعمة التى حولهم .

ومثل هؤلاء من ينفقون حين ينفقون رياء وتظاهراً متخلين عن إيمانهم بالله مساقين وراء ما ينزغ الشيطان ، ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا .

(٣٩) « وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيماً »

(٤٠) « إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً »

الذين آتاهم الله فضله : لم يعمر الإيمان قلوبهم فيثقون بما عنده وينفقون مما رزقهم .

إن الجزاء عنـد الله موثوق به والله سبحانه لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعف ثوابها إلى عشر أو إلى سبعين ، ويؤت من عنده أجراً عظيما .

(٤١) « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً »

(٤٢) « يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً »

الكافرون والمشركون ، والعصاة ، ماذا يفعلون يوم الحساب والمسألة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، يومئذ يود هؤلاء جميعاً لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً .

(٤٣) « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ولَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُمْ مَرْضَى أَو عَلَى سَفَرٍ أَو جَاءَ أَحَدٌ مِنكُمْ مِنَ الغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً »

ينهى القرآن عن الصلاة فى حال السكر الذى لا يدرى معه المصلى ماذا يقول ، ونهى عن قربان محال الصلاة وهى المساجد للجنب إلا أن يجتاز للسجد من باب إلى باب من غير مكث ، وقد كان هذا قبل تحريم الخمر .

ثم بين حكم المسافر والمريض إذا لم يجدا الماء فى قوله « وإن كنتم مرضى أو على سفر ... الآية » وفيه يجيز له التيمم بالتراب الطاهر بدل الماء وطريقة مسح الوجه واليدين . وهذا تجاوز تفرضه الضرورة ويعفو الله عنه إن الله كان عفوا غفوراً .

(٤٤) « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ ويُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ »

(٤٥) « وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللهِ وَلِياً وَكَفَى بِاللهِ نَصِيراً »

(٤٦) « مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وطَعْناً فِي الدِّينِ ولَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا واسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وأَقْوَمَ ولَكِن لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً »

هؤلاء اليهود الذين أوتوا نصيبا من علم التوراة ، وبدّلوا وغيّروا . وكتمُوا الحق الذى فيه مخبراً عن محمد صلى الله عليه وسلم وهم ضلوا ويريدون إضلالكم .

إنهم أعداؤكم كما قال « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » وكفى بالله ولياً وكفى به نصيراً .

ولقد كانوا يتأولون القرآن كلام الرسول على غير وجهها ويفسرونه على غير مراد الله منه ويستخدمون من الكلمات ما ظاهره الخير وباطنه الشر ، فاستحقوا سخط الله وعقابه ولو أنهم فعلوا ما يوعظون لكان خيراً ولكنهم كفروا فلعنهم الله بكفرهم فلا يكادون يؤمنون .

(٤٧) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِن قَبْلِ أَن نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً »

(٤٨) « إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيماً »

فى الآية تهديد وإنذار لأهل الكتاب أن يؤمنوا بما نزل الله عليكم فيما بين أيديهم من كتب تبشر بمحمد صلى الله عليه وسلم وتدعو إلى وحدانية الله . من قبل أن يأتيهم عذاب الله فتطمس وجوههم وتصبح أعينهم فى أقفيتهم ، وتحل بهم اللعنة كما حلت بأصحاب السبت من اليهود . وما تُنْذِرُ به اللهُ لا بد أن يقع ويتحقق وكان أمر الله مفعولاً .

وتقرر الآية الثانية أن رحمة الله وسعت كل شىء وأنه سبحانه بفضله يغفر ما يشاء لمن يشاء ، إلا أن يشرك به . ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله : أىُّ الذنب أعظم ، قال : « أن تجعلَ لِلّهِ نِدًّا وهو خلقك » .

(٤٩) « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً »

(٥٠) « انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِيناً »

(٥١) « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً »

(٥٢) « أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً »

الذين يزكون أنفسهم : قيل هم اليهود الذين قالوا « نحن أبناء الله وأحباؤه » . وقيل : اليهود والنصارى الذين قالوا : « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم » .

وقيل هى عامة فى كل من يمدح نفسه ولذا روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم : أمر بأن يُحثَى فى وجوه المدّاحين التراب .

انظر كيف يفترون الكذب على الله بادعاء أنهم أبناؤه وأحباؤه . وقولهم لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى . وكفى بالكذب على الله إثماً مبيناً .

وكيف يزكون أنفسهم وهم يؤمنون بالأوثان والأصنام ، وبالشيطان والسحر ثم يقولون لمشركى العرب أنتم أهدى وأرشد من أتباع .

أولئك عليهم لعنة الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً .

(٥٣) « أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً »

(٥٤) « أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً »

(٥٥) « فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً »

الاستفهام للإنكار فى قوله أم لهم نصيب من الملك فهم إذاً لا يملكون ، ولو ملكوا لبخلوا ولضنوا حتى بالنقير وهو النقطة التى فى النواة . كما قال سبحانه « قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق » .

والناس الذين يحسدونهم هم محمد صلى الله عليه وسلم ومن آمن معه على ما آتاهم الله من النبوة ، ثم يحسدونه لكونه من العرب وليس منهم .

وهم بغاة وظلمة فى هذا الحسد بعد ما أعطى الله آل إبراهيم — وأنبياؤهم منهم — الكتاب والحكمة والملك العظيم ، فأى عجب فى أن يعطى محمدٌ صلى الله عليه وسلم مثل ما أوتى غيره ؟

فمنهم من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ومنهم من صدّ عنه . وويلٌ لهم وكفى بجهنم سعيراً .

(٥٦) « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً »

هكذا يعاقب الكافرون بآيات الله يصلون نار جهنم كلما نضجت جلودهم بُدِّلُوا جُلُوداً غيرها ، ليذوقوا العذاب .

(٥٧) « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُم ظِلاً ظَلِيلاً »

فى الآية السابقة حديث العذاب الذى يصلاه المشركون ، وفى هذه الآية حديث الثواب الذى ينتظر الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا دائماً .

(٥٨) « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً »

ذكر النيسابورى فى أسباب النزول أنها نزلت فى عثمان بن طلحة كان سادن الكعبة فلما دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة بعد الفتح أغلق عثمان باب البيت فطلب الرسول المفتاح منه فأبى وقال : لو علمت أن رسول الله لم أمنعه المفتاح . فأخذه من على رضى الله عنه وفتح الباب فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت وصلى فيه ركعتين .

فلما خرج رسول الله سأل العباس أن يعطيه المفتاح ، فنزلت هذه الآية فأمره الرسول أن يردّ المفتاح لصاحبه فكان سبب إسلامه .

(٥٩) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُم تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً »

اختلفت الروايات حول أسباب النزول أهى فى سرية عبد الله بن حذافة بن قيس أم فى غيرها . أم فى سرية خالد بن الوليد . . وفى هذه السرية حدث خلاف بين مير السريّة ورجالها فنزلت الآية .

والأمر بالطاعة هنا ليس إطلاقه بل « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكَرِهَ مالم يُؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة . هكذا قال الرسول صلوات الله عليه .

(٦٠) « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً »

(٦١) « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً »

(٦٢) « فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً »

(٦٣) « أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً »

قيل: نزلت فى رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما ، فجعل اليهودى يقول : بينى وبينك محمد ؛ وذاك يقول : بينى وبينك كعب بن الأشرف : فهذا الذى يزعم أنه آمن بمحمد يريد أن يتحاكم إلى الكاهن تاركاً نبى الله ورسوله .

وقيل نزلت فى جماعة من المنافقين ممن أظهروا الإسلام أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية .
والآية أعم لأنها تصلح فى كل من عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى غيرهما .

هؤلاء المنافقين إذا دعوا الله والرسول ليحكم بينهم فولوا معرضين وصدوا عن طريقهما إلى طريق الجبت والطاغوت .

ولكنهم إذا أصابت مصيبة أو نزلت بهم عارضة جاءوا إلى الرسول يبرأون مما عملوا ، ويزعمون أنهم يتحاكمهم إلى أولياء الشيطان كانوا يريدون مداراة هؤلاء الناس ويحاولون التوفيق معهم لا اعتماداً فيهم أو فيما يتحاكمون إليه .

ومهما يكن مايقولون فالله سبحانه يعلم مافى قلوبهم ومطلع على مايخفون فى الصدور .

(٦٤) « وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً »

(٦٥) « فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً »

طاعة الرسول فرض على من أرسل إليهم ، وإذا وقع الخطأ والعصيان وظلم النفس ، وجاء المخطئون إلى الرسول يستغفرون الله ويستشفعون بدعاء الرسول واستغفاره لهم ، لوجدوا الله تواباً رحيما .

ثم أقسم الله سبحانه بذاته الكريمة أنهم لن يكونوا مؤمنين إلا إذا حكموك فيما بينهم ، ثم تستشعر قلوبهم الرضى بما حكمت به ، وسلموا تسليما كلياً لما قضيت بينهم .

فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواهُ تبعاً لما جئت به .

(٦٦) « وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً »

(٦٧) « وَإِذاً لآتَيْنَاهُمْ مِن لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً »

(٦٨) « وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً »

تصور الآيات حال الكثرة من بنى الإنسان فى أنهم إذا كُلفوا بالشىء لا ينهضون به ، فإذا حُرم عليهم فعله فعلوه .

ولذا قال : لو كتبنا عليهم قتل أنفسهم بالخروج إلى مواجهة عدوٍ ، أو الخروج من ديارهم بالهجرة عنها إلى مكان آخر ، ما فعلوه إلا قليل منهم .

ولو أطاع هؤلاء ما يؤمرون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً لهم فى دينهم ولظفروا بالأجر العظيم . وهدوا إلى صراط الحميد .

(٦٩) « وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً »

(٧٠) « ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً »

نزلت هذه الآية فى ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان شديد الحب للرسول ، قليل الصبر عنه ، فأتاه ذات يوم . وقد تغير لونه . ونحل جسمه يعرف فى وجهه الحزن فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم :

يا ثوبان ما غير لونك ؟

فقال يا رسول الله مالى من ضر ولا وجع غير أنى إذا لم أرك اشتقت إليك ، واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك . ثم ذكرت الآخرة وأضاف أنى لا أراك هناك ، لأنى أعرف أنك ترفع مع النبيين .

وإنى إن دخلت الجنة كنت فى منزلة أدنى من منزلتك .

وإن لم أدخل الجنة فذلك أحرى ألا أراك أبداً . فأنزل الله هذه الآية .

(٧١) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعاً »

(٧٢) « وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً »

(٧٣) « وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَالَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُم فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً »

يأمر الله المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم . وأخذ الحذر يستوجب إعداد كل ما يلزم من عـدة للقتال سواء فى السلاح أو معرفة أحوال العدو إلى آخر مالايستطيع العدو معه أن يفاجىء فينتصر .

وتأمر الآية بالنفور جماعات كل على حدة ، أو جيشاً مجتمعاً حسبا تقضى خطة الحرب .

ثم تصف حال بعض المنافقين الذين يتخاذلون عن النفير ويروغون فى الخروج لينظروا ماذا يكون .

فإن أصيب المسلمون بكارثة وهزيمة حمد الله أن لم يكن بينهم حتى لايصيبه ما أصابهم .

ولقد أصابهم فضل من الله ونصرٌ من عنده ليقولن — وكأنه ليس من أصل دينهم — ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما .

(٧٤) « فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً »

(٧٥) « وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً »

(٧٦) « الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً »

ليقاتل فى سبيل الله الذين يثقون بما عنده ، والذين باعوا الدنيا وآثروا الآخرة ، وللقاتل فى سبيل الله مثابٌ فى الحالين :

إن قُتل فهو شهيد بين الشهداء الأحياء عند ربهم يرزقون .

وإنْ غلب فله النصر والمجد وإعلاء شأن عقيدته وله مع هذا نصيبه من الغنيمة . فأمره كله خير .

ثم يحرض القرآن المؤمنين على القتال نصرة لدين الله . ودفاعاً ونجدة لأولئك المستضعفين ، المغلوبين على أمرهم الذين يدعون الله أن يخرجهم وينصرهم .

وعلى المؤمن أن يستيقن من أن غايته فى القتال كلها خير لأنها إعلاء كلمة الله ونشر لواء الحق والخير فى الأرض .

أما الكافرون فقتالهم فى سبيل الشيطان ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا .

(٧٧) « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا »

نزلت فى نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم عبد الرحمن بن عوف ، والمقداد بن الأسود ، وقدامة بن مظعون وسعد بن أبى وقاص كانوا يلقون من المشركين أذًى كثيراً ، ويقولون : يارسول الله إئذن لنا فى قتال هؤلاء فيقول لهم :

كفُّوا أيديكم عنهم فإنى لم أومر بقتالهم .

فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وأمرهم الله تعالى بقتال المشركين كرهه بعضهم وشق عليهم فأنزل الله هذه الآية .

(٧٨) « أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا »

(٧٩) « مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا »

تقرر الآية الأولى صيرورة كل حىٍّ إلى الموت : « كل من عليها فان » و « كل نفس ذائقة الموت » و « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد » .

وهؤلاء المنافقون الذين دخلوا فى الإسلام كرهاً : إذا أصابتهم حسنة فنزل المطر وأخصبت الأرض قالوا هذه من عند الله لا من عند النبى .

وإن تصبهم سيئة من جدب أو نقص فى الثمار والزروع يقولوا : هذه من عندك وسببها اتباعنا لك ، كما قال سبحانه حكاية عن قوم فرعون :

فإذا جاءتهم الحسنة يقولوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه » .

قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثاً .

(٨٠) « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً »

فى معنى الآية روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصا الله ؛ ومن أطاع الأمير فقد أطاعنى ، ومن عصى الأمير فقد عصانى » .

وثواب الطاعة للمطيع لا للرسول . فمن تولى فما عليه إلا البلاغ .

(٨١) « وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً »

تصف الآية حال المنافقين الذين يقبلون على الرسول صلى الله عليه وسلم فيظهرون الانقياد والطاعة ، ولكنهم ما أنْ يخرجوا من عندك يبيّتوا غير ما قالوا وأبطنوا نقيض ما أظهروه لك . . وهم يتصورون أن مايعملونه سر ولكنه سبحانه مطلع على خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

وقد أمر الرسول بأن يُعرض عنهم ويدع لله أمرهم وكفى بالله وكيلا .

(٨٢) « أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً »

هؤلاء المشركون والمنافقون أفلا يتدبرون القرآن ليدركوا مراميه وأغراضه وليقفوا على أسرار بيانه، وإعجازه فيهديهم ذلك إلى الإيمان ، ولو كان من عند غير الله كما يزعمون لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً وتضاداً ، وفساداً وتناقضاً .

(٨٣) « وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً »

من سمات هؤلاء المنافقين سرعة التصديق أو سرعة الترديد لكل مايقال دون تريث أو تبين ، وفى الحديث« كفى بالمرء كذباً أن يحدّث بكل ما سمع » .

ولو ردّوا الأمر الذى سمعوه إلى الرّسول أو إلى أولى الأمر العالمين بالحقيقة لعلمه الذى يستخرجونه من أصوله ويكشفون عن أبعاده فيقولون فيه القول الفصل ويكشفون فيه عن وجه الحقيقة .

ولولا فضل الله عليهم ورحمته لاستهوا كم الشيطان فاتبعتموه ونالتكم وساوسه إلا قليلا .

(٨٤) « فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً »

يأمر الله رسوله بأن يقاتل فى سبيل الله وليس مسئولا إلا عن نفسه ، وما عليه إلا أن يحرض المؤمنين على القتال كما فعل يوم بدر فقال وهو يسوى الصفوف « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» عسى الله بتحريضك أن ينشط المؤمنون للقتال فيكسروا شوكة العدو ويكف الله بهم بأس الذين كفروا ، والله قادر عليهم فى الدنيا والآخرة .

(٨٥) « مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا »

عن مجاهد بن خير : نزلت هذه الآية فى شفاعات الناس بعضهم لبعض فى الدنيا . وللشفيع أجره أن شفع فى شفاعة حسنة فى أمر يكون فيه خير ، وعليه وزر ما يشفع فيه إن كانت الشفاعة يترتب عليها وزر أو تؤدى إلى شر . وكان على كل شئ معينا ، حسيباً أو شهيداً ، أو رقيباً فاحذروه .

(٨٦) « وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا »

إذا سلم عليكم المسلم فردُّوا السلام بأفضل مما : سلم ، أو ردُّوا عليه بمثل ماسلم فالردُّ بالمماثلة فرض ، والردُّ بالزيادة مستحبٌ .

(٨٧) « اللهُ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا »

سبحانه تفرد بالألوهية : وفى الآية قسم بأن يجمع الناس إلى يوم القيامة لا شك فيه ، وما أصدقه حديثاً يحدث به الإله الواحد ، ويقسم على صدقه .

(٨٨) « فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً »

يُنكر الله سبحانه على المؤمنين اختلافهم فى أمر المنافقين الذين ارتدُّوا عن الرسول وصحبه يوم أحد يقودهم بن أبىّ فاختلف المسلمون فى أمرهم فريقين : فريق يقول : اركبوا إليهم فاقتلوهم . وفرقة لا ترى ذلك .

تنكر الآية هذا الخلاف وتقرر أن الله أهلكهم بما فعلوا ، ولقد أضلهم الله ومن يضلل الله فلا سبيل إلى هدايته .

(٨٩) « وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا »

لشدة عداوة هؤلاء لكم فهم يودُّون أن تضلُّوا كما ضلوا فتكونون سواء . فاحذروا أن توالوهم أو تطمئنوا إليهم إلا إذا كان منهم ما يدل على أنهم أخلصوا وأصبحوا وإياكم على طريق واحد ، وذلك بأن يهاجروا فى سبيل الله .

فإن تولوا وأعرضوا عن الهجرة فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً .

(٩٠) « إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا »

تستثنى هذه الآية ممن شملهم الحكم فى الآية السابقة هؤلاء الذين لهم وصلة بقوم بينكم وبينهم ميثاق وعهداً فكأنهم على عهدهم .

كما يستثنى أولئك الذين جاءوا إلى القتال ضيقة صدورهم لا يريدون أن يقاتلوكم . ثم لا يهون عليهم أيضاً أن يقاتلوا قومهم معكم ، ومن فضله سبحانه أن أصبحوا كذلك ولو شاء لسلطهم عليكم فقاتلوكم .

هذا الصنف : إن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا .

(٩١) « سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا »

هؤلاء المنافقون يظهرون الإسلام ليأمنوا على دمائهم وأموالهم ، ثم هم يصانعون الكفار سراً فيعبدون ما يعبدون ، كما قال سبحانه « وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم » .

كلما ردُّو إلى الفتنة أى يشرك أركسوا فيها . انهمكوا فيه وتحمسوا له .

وهؤلاء إذا لم يلقوا إليكم السلم والمصالحة فخذوهم أسارى ، واقتلوهم أنى وجدتموهم ، وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبيناً .

(٩٢) « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَن لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً »

عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه أن الحارث بن زيد كان شديداً على النبي صلى الله عليه وسلم . فجاء يوماً وهو يريد الإسلام فلقيه عياش بن أبي ربيعة ـ ولم يكن يعرف أنه يريد الإسلام ـ فقتله فأنزل الله هذه الآية .

وليس للمؤمن قتل المؤمن إلا بإحدى ثلاث كما جاء في الصحيحين عن رسول الله صلى عليه وسلم قال : « لا يحلُّ دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلاَّ اللهَ ، وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس الثيِّبُ الزانى ، والتَّارك لدينه المفارقُ للجماعة » .

ومن حدث منه قتل المؤمن خطأً فليعتق رقبة ، وليسلم الدية إلى أهل القتيل إلا إذا تصدقوا بها عليه ؛ فإن كان المقتول خطأً من قوم معادين — وهو مؤمن فكفارته تحرير رقبة مؤمنة . وإن كان من قوم بينهم وبين المسلمين ميثاق ومعاهدة . فدية تسلم إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة .

فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ، أي هذه توبة القاتل خطأً .

(٩٣) « وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً »

قتل المؤمن عمداً مقرون في المنزلة بالشرك بالله في مثل قوله سبحانه : والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق » .

وفي الحديث «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجُل مسلم » . وهذه الآية فيما روى عن ابن عباس لم ينسخها شيء ، وهو من آخر ما نزل .

(٩٤) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِن قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً »

عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنه قال : مر رجل من بنى سُليم على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه غنم فسلم عليهم — فظنوه مشركا — وقالوا : ماسلّم عليكم إلا ليتعوذ منكم ، فقاموا إليه فقتلوه ، وأخذوا غنمه وأتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله الآية « يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا . . الآية .

وقد ذكرهم بما كانوا عليه من قبل . فى أول إسلامهم حين كانوا قلة مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس فآواهم وأيدهم بنصره .

(٩٥) « لاَ يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً »

(٩٦) « دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً »

عن زيد بن ثابت قال لما نزلت هذه الآية « لا يستوى القاعدون » ولم يذكر الله فيها ـ أولى الضرر ـ قال ابن أم مكتوم : كيف وأنا أعمى لا أبصر ؟

قال زيد : وتغشّى النبى صلى الله عليه وسلم الوحى فاتكأ على فخذى . فوالذى نفسى بيده لقد ثقل على فخذى حتى خشيتُ أن يرضها ، ثم سُرّى عنه فقال : اكتب لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر فكتبتها » .

وفى الآية تصنيف لدرجات المؤمنين : فالذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة من القاعدين ، وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما ، هو درجات فى الجنة ، ومغفرة ورحمة .

(٩٧) « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً »

رُوى أنها نزلت فى ناس من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يهاجروا ، وأظهروا الإيمان ، وأسرّوا النفاق ؛ فلما كان يوم بدر خرجوا مع المشركين إلى حرب المسلمين فقتلوا فضربت الملائكةُ وجوههم وأدبارهم ، وقالوا لهم ماذكرته الآية .

(٩٨) « إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا »

(٩٩) « فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا »

تستثنى الآية هؤلاء المستضعفين ممّا حكم به على الآخرين والذين قعدوا عن الجهاد وعن الهجرة وهم أشداء أقوياء .

(١٠٠) « وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا »

لما نزلت آيات الجهاد ولم يستثن منه إلا الضعفاء والمرضى قال حبيب ابن ضمرة الليثى لبنيه وكان شيخاً احملونى فإنى لست من المستضعفين ، وإنى لا أهتدى إلى الطريق ، فحمله بنوه على سرير متوجهاً إلى المدينة فلما بلغ « التنعيم » أشرف على الموت فصفق بيمينه على شماله وقال :

اللهم هذه لك وهذه لرسولك ، أبايعك على ما بايعتك يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومات حميداً ، فبلغ أصحابه خبره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : لو بلغ المدينة لكان أتم أجراً فنزلت الآية .

(١٠١) « وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا »

(١٠٢) « وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا »

تجيز الآية الأولى قصر الصلاة من أربع ركعات إلى ثنتين فى حالة الضرورة التى ذكر منها الخوف هنا من فتنة الكافرين ، ومباغتتهم بالشر .

وفى الآية الثانية بيان لـكيفية هذه الصلاة — صلاة الخوف — وأساسها ألا يصلى المحاربون جميعاً فى وقت واحد خشية المباغتة ، بل تتم الصلاة على النحو الذى قررته الآية طائفة تصلى وأخرى تحرسها ثم تتبادلان وهكذا . لأن أمنية الـكفار فى مثل هذا الوقت . أى

(١٠٣) « فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا »

مما تأمر الآية به . ذكر الله على كل حال ، ولعل النص عليه بعد الصلاة دليل أن الذكر ليس محدداً بالصلاة فحسب ولـكنه مطلوب فى كل وقت وعلى كل حال وتقرر الآية أيضاً أنه حين تزول حالة الخوف أديت الصلاة على وجهها كاملة دون قَصر .

(١٠٤) « وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا »

لا تضعفُوا فى طلب عدوّكم ، بل جدوا فى الطلب ، وخذوهم واحصروهم ، واقعدُوا لهم كل مرصد . ولا يثقل عليـكم عبء الجهاد ومشقته فيصرفـكم أله عن أهدافـكم ، ولتعلموا أنـكم إذا كنتم تألمون فهم مثلـكم يألمون مع الفارق الأكبر هو أنـكم ترجون من الله إحدى الحسنيين ، وهم لا أمل لهم فى الله ولا رجاء .

(١٠٥) « إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا »

(١٠٦) « وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا »

(١٠٧) « وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا »

أنزلنا إليك القرآن بالحق لتحكم بين الناس بما أوحى الله إليك وماشرع لك . ويروى فى سبب نزولها ومابعدها حتى قوله ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً . سبب نزولها أن رجلا من الأنصار يقال له طعمة بن أبَيْرق سرق درعاً من جار يقال له قتادة بن النعمان ، وكانت الدرع فى جراب فيه دقيق ، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فى الجراب حتى انتهى إلى الدار وفيها أثر الدقيق ، ثم خبأها عند يهودى ، فالتمست

الدرع عند طعمة فلم توجد ، فالتمست عند اليهودى . فقال : دفعها إلىّ طعمة ، وشهد بذلك أناس من اليهود ، فانطلق قوم طعمة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يسألونه أن يجادل عن صاحبهم حتى لا يفتضح ويبرأ اليهودى .

قالوا : فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل . . فنزلت الآية .

(١٠٨) « يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وهُوَ مَعَهُم إذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ القَوْلِ وكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً »

(١٠٩) « هَا أَنتُمْ هَؤُلاَءِ جَادَلْتُمْ عَنهمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا فَمَن يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَم مَن يَكُونُ عَلَيْهِم وكِيلاً »

تنكر الآيتان على المنافقين استخفاءهم من الناس بقبائحهم وما يأتون من منكر ، فى الوقت الذى يجاهرون فيه الله سبحانه المطلع على خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

وإذا كانوا استطاعوا أو يستطيعون فى الدنيا أن ينتصروا فمن ينصرهم من بأس الله إن جاءهم ومن يجادل الله عنهم ومن يكون عنهم محامياً ووكيلا .

(١١٠) « وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً »

(١١١) « ومَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً »

(١١٢) « وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً »

إن ربك سبحانه واسع المغفرة ، من أذنب فاستغفر وجد الله توابا رحيما ، وكل نفس ما كسبت رهينة ولا تزر وازرة وزر أخرى .

والذنب الذى يجر البهتان والإثم المبين هو أن يحمل الإنسان أوزاره فيلقيها — زوراً — وبهتانا على برىء .

(١١٣) « وَلَوْلاَ فَضلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنهُم أَن يُضِلُّوكَ ومَا يُضِلُّونَ إلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىءٍ وأَنزَلَ اللهُ عَلَيكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وكَانَ فَضلُ اللهِ عَلَيكَ عَظِيماً »

تعنى الآية ما حدث فى قصة أبيرق واليهودى حين هم أصحاب أبيرق أن يتهموا بريئاً وهمّ الرسول

صلى الله عليه وسلم أن يتبعهم فيما رأوه ولكن الله أوحى إليه فأمسك عنه وكان ذلك من بعض فضل الله عليه .

(١١٤) « لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِن نَجْوَاهُم إِلاَّ مَن أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَو مَعْرُوفٍ أَو إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً »

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كلام ابن آدم كله عليه لا له ، إلا ذكر الله عز وجل ، أو أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر » وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي أيوب : « ألا أدلك على تجارة ؟ » قال . بلى يارسول الله . قال « تسعى في إصلاح بين الناس إذا فسدوا وتقارب بينهم إذا تباعدوا » .فهذا معنى الآية .

(١١٥) « وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مَن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً »

من يسلك طريقاً غير طريق الشرع فيصبح في وادٍ وشرع الله في وادٍ ، عمداً وعناداً بعد ما تبين له من الحق فهذا من يشاقق الرسول ، ومصيره جهنم .

(١١٦) « إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَد ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً »

(١١٧) « إِنْ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَرِيداً »

(١١٨) « لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً »

سبق الحديث عن غفران الله لكل شيء إلا الشرك في موضعه من هذه السورة : قال المشركون إن لله بنات هن الملائكة فاتخذوهن أرباباً وقالوا « مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . كما عبدوا الشيطان المريد حين أطاعوه وافتتنوا به ، وقد لعنه الله وطرده من جنته فأقسم ليتخذن لنفسه من عباد الله نصيباً مفروضاً .

وروى مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« قال الله عز وجل : إني خلقتُ عبادي حُنَفَاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرّمت عليهم ما أحللت » ، ثم قال تعالى « ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً » .

(١١٩) « وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا »

(١٢٠) « يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا »

(١٢١) « أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا »

تكتمل مقالة الشيطان وما أقسم أن يفعل بعد لعنه وطرده ، قال لأضلنهم ، ولأمنينهم بأنهم الفائزون كما قال سبحانه « يعدهم ويمنيهم » ولأحملنهم على شق آذان الأنعام أى لأعيدنهم إلى سلوك الجاهلية كما كانوا ، ولآمرنهم بتغيير خلق الله بالوشم وخصى الأرقاء . هـذا مايقول الشيطان ، وويل لمن يتبعونه ، مأواهم جهنم .

(١٢٢) « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا »

الجزاء العدل ، والمثوبة الحسنة لمن آمن وعمل صالحاً ولم يغره الشيطان ولم يكفر بخالقه أن يظفر بالجنة خالداً فيها تصديقاً لوعده سبحانه ومن أصدق من الله قيلا .

(١٢٣) « لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا »

اختصم بعض أهل الأديان من المسلمين ومن أهل الكتاب كل يقول إن دينه الحق وأنه على الهدى فأنزل الله هذه الآيات لتقرر أن أمر الأديان ليس بأمانى متبعيها ، ولكن ثمة أسس ومبادىء لا يمكن الخلاف من حولها . ومنها ماتقرره هذه الآية أن فاعل السوء لابد يلقى جزاء ، ولا نصير له من الله .

(١٢٤) « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا »

وإذا كان فاعل السوء يلقى جزاءه فمن آمن وعمل صالحاً جزاؤه الجنة يجزى فيها بما عمل لا ينقص من ثوابه أقل القليل .

(١٢٥) « وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا »

(١٢٦) « وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً »

يُفَصِّلُ القرآن فى الآية فيما اختلف فيه القوم فيقرر أن إسلام الوجه لرب العالمين واتباع ملة إبراهيم عليه السلام هو الدين ، وكما قال سبحانه « إن الدين عند الله الإسلام » .

واتبعت الآية بما يقرر أنه سبحانه المحيط بكل شيء والعالم وحده بما لايصلح الناس إلا إذا كانوا عليه فليمسكه المختلفون وليسمعوا فيطيعوا .

(١٢٧) « وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً »

قالت عائشة رضى الله عنها : ثم إنَّ الناس استفتَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النساء فأنزل الله تعالى هذه الآية ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء ، والذى يتلى عليهم فى الكتاب الآية الأولى التى قال فيها — وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى — قالت عائشة رضى الله عنها : وقال الله تعالى فى الآية الأخرى . وترغبون أن تنكحوهن — رغبة أحدكم عن يتيمته التى فى حجره حين تكون قليلة المال والجمال ، فنُهوا أن ينكحوا مارغبوا فى مالها وجمالها من باقى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهن عنهن .

(١٢٨) « وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً »

قالت عائشة رضى الله عنها : نزلت فى المرأة تكون عند الرجل فلا يستكثر منها ويريد فراقها ، ولعلها أن تكون لها صحبة ويكون لها ولد فيكره فراقها وتقول له : لاتطلقنى . وأمسكنى وأنت فى حل من شأنى .

ومعنى الآية أن المرأة إذا خافت من زوجها أن ينفر منها أو أن يُعرض عنها فلها أن تسقط عنه حقها أو بعض حقها من نفقة أو كسوة ، أو مبيت أو غيره وله أن يقبل . وهذا الصلح بينهما خير من الفراق .

وإن يحتمل الرجل ويصبر على مايكره من المرأة فإن الله عالم به وسيجزيه أوفى الجزاء عليه .

(١٢٩) « وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً »

(١٣٠) « وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً »

قيل إنها نزلت فى عائشة رضى الله عنها إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبها ويؤثرها ومع أنه صلى الله عليه وسلم كان — كما قالت عائشة — يعدل بين نسائه العدل كله إلا أنه كان يقول : « اللهم هذا قَسْمى فيما أملكُ فلاتلمنى فى ما تملكُ ولا أملك » يعنى قلبه .

وإذا كان العدل مستحيلا فما لا يدرك كله لا يترك كله ولذا قال « فلا تميلوا كل الميل » أى إلى واحدة منهما فتبقى الأخرى كالمعلقة ، لا هى زوج ولا هى مطلقة .

وإن تعذر التوفيق وتفرقا فقد يرزق الله كلا من الزوجين بما يكونوا خيراً له صاحبه وكان الله واسع الرحمة والفضل . حكيما بأدوار النفوس .

(١٣١) « وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيداً »

(١٣٢) « وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً »

(١٣٣) « إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً »

(١٣٤) « مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً »

تؤكد الآيات جميعاً أن ملك السموات والأرض وما فيهن كله لله ، ولقد أمرنا كما أمر أهل الكتاب بالتقوى ووصينا بها فمن اتقى فتقواه لنفسه ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين . وبوسعه سبحانه أن يذهب هؤلاء ويأتى بآخرين وهو عليها قادر ، فليختر العاقل لنفسه إن أراد الدنيا فهى مبذولة مطروحة وإن أراد وجه الله فعند الله ثواب الدنيا والآخرة والفائز من أحسن الخيرة .

(١٣٥) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً »

هذا أمر من الله للمؤمنين جميعاً بالتزام العدل وتوخيه ، والحرص عليه ، وليشعر القاضى أو الحاكم أو الشاهد أنه شهيد الله لإظهار الحق أياً كان صاحبه . تطالب الآية بالتزام العدل حتى ولو على الإنسان نفسه أو الوالدين والأقربين فالعدل قبل القرابة ، كما أن العدل يجب ألا يحجبه حب الناس أو بغضهم لأن

رعاية وجه الله أولى وأحق ، وحرصت الآية بعدم اتباع الهوى فى الحكم فلا أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله . ثم اختتمت بالإنذار والتحذير من احتيال الحاكم على الحق لأنه سبحانه خبير بما يعمل الناس قادر على حسابهم .

(١٣٦) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِن قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا »

أمرٌ صريح بالإيمان بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن الذى أنزل عليه وبالكتب التى أنزلت من قبل على رسل الله وأنبيائه وبالملائكة وباليوم الآخر ومن يكفر ولم يؤمن فقد ضل ضلالا بعيداً .

وقيل نزلت فى بعض مؤمنى أهل الكتاب قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى وبالتوراة وعُزَير ، ونكفر بما دون ذلك . فنزلت هذه الآية :

١٣) « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا »

(١٣٨) « بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا »

(١٣٩) « الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا »

قيل : إن المراد هنا اليهود . آمنوا بموسى ثم كفروا بعبادتهم العجل ، ثم آمنوا بعد عودة موسى إليهم ثم ازدادوا كفراً بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء لم يكن ليغفر لهم . . .

وقيل بل هى عامة فيمن دخل فى الإيمان ثم رجع عنه ، ومن ثم يكون هذا التذبذب بين الإيمان والكفر صفة المنافقين الذين بشروا فى الآية التالية بالعذاب الأليم .

وفرضت الآية الأخيرة سمة من سمات هؤلاء المنافقين وهى موالاتهم للكافرين من دون المؤمنين ابتغاء العزة عندهم وهذا فى ذاته مظهر ضعف الإيمان إذا لو صح إيمانهم لاعتزوا بالله ولله العزة جميعاً .

(١٤٠) « وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا » .

(١٤١) « ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ ٱللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً »

أوحى الله إلى المؤمنين فى كتابه ألا يسمحوا بالاستهزاء بآياته سبحانه وإذا سمعوا من يستهزئون بها قاطعوهم وانسحبوا من مجلسهم يخوضوا فى حديث غيره فهذا أقل ما ينبغى تكريما لآيات الله وذياداً عن حرمته .

ومن لم يفعل واستقر مقامه بين المستهزئين كان كالمقر بما يفعلون جمعه الله مع الكافرين والمنافقين فى جهنم .

وكيف تقرون سخريتهم بدينكم وهم قوم يتربصون بدولتكم أن تزول وبآياتكم أن تمضى فإن قويت شوكتكم وكان لكم فتح احتسبوا أنفسهم منكم وقالوا ألم نكن معكم . وإن كان النصيب للكافرين تقربوا إليهم وقالوا مقالة الكفر لهم . فالله يحكم بينهم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا .

(١٤٢) « إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى ٱلصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً »

(١٤٣) « مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً »

عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة[١] بين الغنمين ، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة ، ولا تدرى أيهما تتبع » .

هؤلاء المنافقون يحاولون أن يخدعوا الله عن أنفسهم بما يتظاهرون به من الإسلام والله لا محالة خادعهم إذ هو بهم أعلم .

ومن سماتهم الكسل عن الطاعات وعدم النشاط إلى الصلاة ، لا يصلون إلا رياء ، وأن صلوا لا يذكرون الله إلا قليلا .

مذبذبين بين الكفر والإيمان ، أو بين اليهود والمسلمين لا يدرون مستقرهم قد أضلهم الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا .

(١٤٤) « يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً »

---

(١) من عارت الشاة بين الفحلين ترددت بينهما لا تدرى أيهما يتزو عليهما .

(١٤٥) « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً »

(١٤٦) « إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً »

(١٤٧) « مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِراً عَلِيماً »

ينهى الله عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين وموادتهم وإفشاء أسرار المؤمنين لهم، كما قال سبحانه « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تُقاةً ويحذركم الله نفسه » .

وفى الآية الثانية وما بعد قرر مصير الكافرين وسوء منقلبهم فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ممن كانوا فى الدنيا يستقرون بهم ويبتغون عندهم العزة .

إلا من تاب منهم وآمن ، وأصلح ، واعتصم بالله ، وأخلص دينه لله فأولئك مع المؤمنين فى رضوان الله ورحمته : إذ لا منفعة لله سبحانه فى أن يعذب من لا يستحق أن يعذب ، كما أنه سبحانه لا يجزى بالإساءة من أحسن .

(١٤٨) « لاَّ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيماً »

(١٤٩) « إِن تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً »

لا يحب الله أن يُجهر بما يسىء من الكلمات إلا المظلوم يدعو الله على ظالمه فإن الله سميع لدعوته لا يحجبها عنه حاجب .

وإن مما يقرب العبد من ربه أن يفعل الخير يخفيه أو يظهره سيان ، أو أن يعفو عن مسىء فإن الله كان عفواً يعفو عن العافين ، قديراً على مثوبتهم بما عفوا :

(١٥٠) « إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً »

(١٥١) « أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً »

(١٥٢) « وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً »

تحدد الآيات بوضوح وإيجاز : من هو الكافر ؟ وما سماته ، وما جزاؤه ؟ ومن هو المؤمن ، وما سماته وما جزاؤه ؟

(١٥٣) « يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا »

(١٥٤) « وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا »

يسألك اليهود من أهل الكتاب أن تنزل كتابا مكتوباً يسطر فيه ما يطلب إليهم وقيل بل سألوه أن ينزل عليهم صحفاً مكتوبة من الله إلى كل فرد باسمه بتصديق النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به .

ومثل هذا فعله من قبل كفار قريش « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا» الآيات . ومثل هذا لا يراد به التأكد والبحث عن اليقين وإنما يراد به العناد والإعنات لرسل الله .

ولا تعجب فقد سألوا موسى أن يريهم الله سبحانه جهرة فأخذتهم الصاعقة ، ثم بعثهم الله وعفا عنهم لعلهم يشكرون فمضوا فى غيهم واتخذوا العجل من بعد موسى ، ثم عفا الله عنهم ورفع فوقهم الطور بميثاقهم وأمرنا بدخول الباب سجدا ؛ وبألا يعتدوا فى السبت ، وأخذنا منهم ميثاقا على كل ذلك ، ولكنهم لم يحفظوا عهد الله فنقضوه كما سيجىء .

(١٥٥) « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا »

(١٥٦) « وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا »

(١٥٧) « وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا »

(١٥٨) « بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا »

(١٥٩) « وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا »

(١٦٠) « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً »

(١٦١) « وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً »

فى هذه الآيات سجلٌ حافل الذنوب للكفار العصاة من اليهود ، استوجب لعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . . الآيات .

فهم قد نقضوا ميثاق الله وكفروا بآياته .

وهم قتلوا أنبياء الله بغير حق .

وهم قالوا قلوبنا غلف ، عاجزة أن تعى ، يحتالون بذلك لتسويغ بقيمون عليه من كفر .

وهم قالوا على مريم ـ عليها السلام ـ بهتانا عظيما ورموها بالفحشاء والمنكر .

وهم تباهوا بأنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ـ حين توهموا ذلك ـ غير خائفين من الله ، ولا مبالين بسخطه عليهم ، ومع أن المسيح عليه السلام لم يقتل ، وإنما شبه لهم لأن الله سبحانه لم يمكنهم منه بل رفعه إليه ، وسيؤمن به بعض أهل الكتاب عند نزوله قبيل قيام الساعة .

وهم الذين يأخذون الربا وقد نهوا عنه .

وهم الذين يأكلوا أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله كثيراً .

كل هذا سجلته الآيات السابقة على كفار اليهود ، ومن ثم استحقوا نقمة الله وعقابه فلعنوا فى القرآن على لسان داود وعيسى بن مريم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، وحرّم الله عليهم طيبات كانوا أحلت لهم . . . هذا فى الدنيا . . أما فى الآخرة فلهم العذاب الأليم .

(١٦٢) « لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً »

روى عن ابن عباس رضى الله عنه أنها نزلت فى عبد الله بن سلام ، ثعلبة بن سعية ، وأسد بن سعية ، وأسد بن عبيد الذين دخلوا فى الإسلام وصدقوا بما أرسل الله به محمداً صلى الله عليه وسلم .

والآية تستثنى هؤلاء الذين تلك صفاتهم مما سبق على الآخرين من اللعن والعذاب بل فهؤلاء سيؤتيهم الله أجراً عظيما :

(١٦٣) « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً »

(١٦٤) « وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً »

(١٦٥) « رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً »

روى أن نفراً من اليهود قالوا :

يا محمد ، ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء من بعد موسى ونزلت « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح من الآية » .

وبعد أن عددت الآية من ورد ذكرهم من الأنبياء ، قرر سبحانه فى الآية التالية أن هؤلاء من قصصناهم عليك ، وثمة رسل لم نقصصهم عليك .

وفى ختامها : حددت الآية مهمة الرسل وحكمة إرسالهم بأنهم يبشرون الناس بالخير والحق وينذرونهم الشر والباطل وسره المنقلب حتى لا تكون للناس على الله حجة يوم الحساب .

(١٦٦) « لَّكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً »

إذا كان كفار اليهود وغيرهم ينكرون ما أنزل إليك فحسبك أن الله سبحانه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً .

(١٦٧) « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالاً بَعِيداً »

(١٦٨) « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً »

(١٦٩) « إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً »

(١٧٠) « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً »

إن الذين كفروا فى أنفسهم وصدوا غيرهم عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيداً ، وبضلالهم هذا أبعدهم الله

من طريق الحق فظلموا فلم يكن ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً غير طريق جهنم يخلدون فيها أبداً .

وفى ختام الآيات أمرٌ بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه حين يكن الإيمان خيراً لمن آمن و إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ، وأنتم الخاسرون .

(١٧١) « يأهلَ الكتابِ لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً »

تنهى الآية أهل الكتاب — والنصارى خاصه — عن الغلوّ فى الدين ، وتدعوهم إلى الاعتدال والقصد ، لأنهم — كما قال ابن كثير — تجاوزوا الحد فى مدح عيسى حتى نقلوه من حيز النبوة إلى الألوهية ، بل لقد غلوا فى أتباعه وأشياعه فادّعوا لهم العصمة إتبعوهم فيما قالوه بالحق أو بالباطل ، كما قال الله « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » .

ومن ثَمّ كان حرص نبينا صلوات الله عليه على حماية نفسه وأصحابه من الوقوع فى هذا المنحدر فقال صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس . عليكم بقولكم ، ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد بن عبد الله ، عبدُ الله ورسوله ، والله ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل » .

وتقرر الآية بشرية المسيح عليه السلام وعبوديته لله ، وتنهى أهل الكتاب يقولون بأن الله ثالث ثلاثة ، وتقرر أن الله إله واحد له مافى السموات والأرض وكفى بالله وكيلا .

(١٧٢) « لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِلهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً »

تأكيداً لما سبق فإن المسيح — عليه السلام — نفسه لا يرفض ولا يستنكف أن يكون عبداً لله وكذلك الملائكة المقربون الذين زعموهم بنات لله . وكيف ؟ ومن يستنكف عن عبادة الله أو يستكبر عليها فإنه محشور إلى ربه يجزى بما قدمت يداه .

(١٧٣) « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً »

فى هذه الآية بيان للعاقبة عند الله يوم الحشر . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم حسن الثواب ويزيدهم الله من فضله .

والذين استكبروا عن عبادة الله لهم عذاب أليم .

(١٧٤) « يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِن رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً »

(١٧٥) « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً »

يأيها الناس قد جاءكم الدليل والبرهان والنور المبين الذى لا ينبغى أن يكون من بعده ضلال وهو القرآن . فالذين يعتصمون به ويؤمنون بما جاء فيه فسيدخلهم الله فى رحمته ويهديهم الصراط المستقيم .

(١٧٦) « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »

قيل إنها نزلت فى جابر بن عبد الله دخل عليه النبى صلى الله عليه وسلم يعوده فسأله : يا رسول الله : لا يرثنى إلا كلالة فكيف الميراث ؟ فأنزل الله هذه الآية . وفيها تفصيل الميراث بما لا يحتاج معه إلى تفسير والله أعلم .

تفسير سورة المائدة

(١) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ »

يأمر سبحانه المؤمنين بالوفاء بالمواثيق والعهود سواء كانت مواثيقهم مع الله سبحانه فيما أحل وحرم . أو عهودهم الخاصة فيما بينهم وبين الناس .

وقد أحل سبحانه للمؤمنين بهيمة الأنعام إلا ما يستثنى فيما يلى بعد ، وبهيمة الأنعام كل حى لا تمييز له ، وقيل ذوات الأربع .

وحرم الصيد فى وقت الإحرام بالحج .

(٢) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ »

روى زيد بن أسلم قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالحديبية حين صدهم المشركون عن البيت ، وقد اشتد ذلك عليهم فمر بهم ناس من المشركين يريدون العمرة فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

نصدُّ هؤلاء . كما صدّنا أصحابهم فأنزل الله هذه الآية يقول فيها « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » أى لا تمنعوهم كما منعوكم وشعائر الله : الأعلام والعلامات التى جعلها للنسك وعبادته فى مواقف الحج خاصة ، كرمى الحجارة والطواف ، والسعى بين الصفا والمروة الخ الهدى ما أهدى إلى البيت الحرام تقربا إلى الله . والقلائد : ما يقلد به والمراد الأنعام ذوات القلائد .

وفى الآية السابقة حرم الصيد فى وقت الإحرام فصرح هنا بجواز الصيد بعد الخروج من مناسك الحج

(٣) « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

تحدد الآية ما حرم من بهيمة الأنعام التى أبيحت فى أول آية . وما أهل لغير الله به أى ذكر عليه اسم غيره كاللات والعزى على عهدهم ، والموقوذة التى ضربت بعصا أو حجر حتى الموت ، والمتردية التى سقطت من جبل أو فى بئر فماتت ، والنطيحة ما نطحها غيرها ، يستثنى منها ما أدرك وفيه الروح فذبح فصار حلالا ، ماذبح على النصب التى كانوا ينصبونها حول البيت ويذبحون عليها تقربا لآلهتهم .

كما حرمت الآية استشارة الأزلام وهى القداح التى كانوا يديرونها ومكتوب على أحدها أمرنى ربى وعلى الآخر نهانى ربى ، والثالث غفل ، فإذا خرج ما عليه الأمر أبعد ، وإذا خرج ماعليه النهى عدل ، وإذا أخرج الثالث أعاد الكرة . واعتبر القرآن هذا فسقا وخروجا على الدين . ثم قررت الآية بيأس الكفار من صرف المسلمين عن دينهم فلا ينبغى أن يخافوهم ، كما تضمنت إكمال الله للدين وإتمام النعمة على المسلمين .

وفى ختام الآية أباح القرآن فى كل ما مر وسبق تحريمه . فى حال الإضرار كالجوع المهلك بشرط ألا يكون فيه شبهة الإثم أو الميل إليه .

وقد نزلت الآية « اليوم أكملت لكم دينكم » فى حجة الوداع يوم الجمعة ويوم عرفة ، ويقول بعض اليهود ، « لو علينا نزلت لجعلنا يوم نزولها عيداً » ، قال ابن عباس ، وقد صادفت عيدين : يوم الجمعة ووافقه وقفة عرفات .

(٤) « يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ »

قال سعيد بن جبير نزلت هذه الآية فى عدى بن حاتم وزيد بن المهلهل (زيد الخيل — زيد الخير)

قائلا : يارسول الله . إنا قوم تصيد بالـكلاب والبزاة ، فإن كلاب آل درع وآل حورية تأخـذ البقر ، والحمر والظباء والضب ، فمنه مايدرك ذكاته ومنه مايقتل فلايدرك ذكاته ، وقد حرّم الله الميتة فماذا يحل لنا منها ؟ فنزلت الآية : « قل أحل لـكم الطيبات يعنى الذبائح ، وما علمتم من الجوارح — يعنى — وصيـد ماعلمتم منها وهى الـكواسب من الـكلاب وسباع الطير .

(٥) « الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ »

تقرر الآية بعد حلّ الطيبات أن : طعام أهل الـكتاب من اليهود والنصارى حِلٌّ لنا وطعامنا حل لهم ، وكما أُحلّ لنا الزواج بالمحصنات من المؤمنات أحل لنا كذلك الزواج بالمحصنات من الذين أوتوا الـكتاب بعد إيتاء المهور ، وبشرط أن يكون القصد الزواج لا الزنا أو المعاشرة غير المشروعة . هذا ماينبغى للمؤمن أن يلتزم به ومن يكفر ويعمل بما يخالف الشرع فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين .

(٦) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »

إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم محدثون أو قائمين من نوم فتوضئوا ، وقد بين صفة الوضوء .

ثم قررت الآية أنه إذا أردتم الوضوء أو حدث لـكم مايستوجب الاغتسال ولم تجدوا ماء أو وجدتموه متعذر استعمال لمرض أو حاجة فتيمموا بالتراب الطاهر بدل الماء . ثم شرح كيفيته وهى المسح على الوجه واليدين ، وذكرت الآية أن الهدف التيسير على المسلمين ورفع الحرج والمشقة وإتمـــــام نعمة الله لعلهم يشكرون .

(٧) « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ »

نعمة الله هى الإسلام وقد أمرنا أن يذكروا فضل الله فى هوايتهم لهـا كما قال سبحانه « يمنّون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علىّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان » . والميثاق : قيل عهدهم للرسول على السمع والطاعة فى اليسر والعسر والمنشط والمكره ، وقيل ما عاهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم يوم العقبة وفى بيعة الرضوان ، وقد أمروا بتقوى الله لأنه عليم بذات الصدور ولا تخفى عليه خافية .

(٨) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ »

(٩) « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ »

(١٠) « وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ »

كونوا قوامين لله محافظين على إقامة ما أمر به من العدل بين الناس ولا يحملنكم بغضكم لقوم من الناس أن تظلموهم . ومن قبل نبه القرآن إلى عدم اتباع الهوى عن الفصل فى الأمور لأنه يمنع العدل . اعدلوا هنا قرب للتقوى اعدلوا ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون . من عمل صالحاً فله الأجر والمغفرة ، ومن كفر وكذب فأولئك أصحاب الجحيم .

(١١) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ »

روى فى سبب نزولها أن رجلا من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم قتل رجلين من بنى سليم ، وبين النبى صلى الله عليه وسلم وبين قومهما موادعة ، فجاء النبى صلى الله عليه وسلم ومعه نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر فدخلوا على كعب بن الأشرف وبنى النضير يستعينهم فى الدية .

فقالوا : يا أبا القاسم ، قد آن لنا أن تأتينا وتسألنا حاجة ، اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذى تسألنا . فجلس هو وأصحابه . فجاء بعضهم ببعض وقالوا : إنكم لم تجدوا محمداً أقرب منه الآن فمن يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه ؟

فقال عمر بن جحاش بن كعب : أنا ؛ فجاء إلى رحّى عظيمة ليطرحها عليه فأمسك الله يده وجاء جبريل فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فخرج ونزلت هذه الآية .

(١٢) « وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً

حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ »

المراد بالميثاق فيما يذهب إليه المفسرون ما أخذه الله على بنى إسرائيل بعد نجاتهم من بطش فرعون بأن يقاتلوا الكنعانيين الجبابرة فى أرض أريحا بالشام . وقال الله إنى كتبتها لكم فأخرجوا إليها وقاتلوهم ، وقال الله إنى معكم وناصركم وبعث موسى إليهم اثنى عشر نقيبا ليضمنوا تنفيذ هذا العهد .

يقول المفسرون ، فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يستطلعون حال عدوهم ونهاهم إن رأوا قوته وجبروته أن يحدثوا قومهم . فلما عاد النقباء حدثوا قومهم ببأس العدو وقوته وما أدنى فنكث القوم بالعهد وامتنعوا عن القتال .

وكانت الفرصة أمامهم للفوز برضوان الله لو نفذوا ما أمرهم بهم — وهو يسير — من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل والانتصار لهم ، والتصدق على ذى الحاجة . . لو فعلوا هذا لكفر الله عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار .

(١٣) « فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ »

لكن بنى إسرائيل نقضوا ميثاق الله فاستحقوا الطرد من رحمته ، وابتلاهم الله بقسوة القلوب ، وتحريف آيات الله عن وجهها وتأويلها على مايريدون لا يريد الله .

ونسوا حظاً مما ذكروا به : قيل : نسوا حظهم الذى ذكرتهم به التوراة فى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم . وقيل نسوا بمعاصيهم آيات التوراة نفسها لما أدخلهم الله .

ولا تزل يا محمد تعرف فيهم الخيانة إلا قليلا — فمن هدى الله فاعف عنهم واصفح إن تابوا وآمنوا إن الله يحب المحسنين .

(١٤) « وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ »

كما أخذنا على بنى إسرائيل ميثاقهم أخذناه كذلك على الذين سموا أنفسهم النصارى وقالوا نحن أنصار

الله أن يؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله ويصدقوا بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم .. فنسوا — هم كذلك — حظاً مما ذكروا به فلم يؤمنوا بمحمد وأنكروا ماجاء فى الإنجيل عنه .

وقد انتقم الله منهم وابتلاهم — فيما بينهم بالخلاف والعداء فانقسموا فرقاً يكفر بعضهم ببعض .. هذا فى الدنيا ، وسوف ينبأهم الله بيوم القيامة بما كانوا يصنعون ويحاسبهم عليه .

(١٥) « يَأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ »

(١٦) « يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »

يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم بيّن لكم فى القرآن كثيراً مما كنتم تخفونه مما جاء فى كتبكم كتبشير عيسى به ، وغير ذلك ويتجاوز عن بعض ما أخفيتم فلا يبينه ، أو لا يؤاخذكم به .

والكتاب الذى جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم نور من الله يهديكم فى ظلمة الشرك والخلاف والتحريف إلى طريق السلام والنجاة من غضب الله وعذابه إذا اتبعتموه ، وآمنتم بما فيه .

(١٧) « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلهِ مُلْكُ السَّمواتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »

الحكم صريح بكفر من قالوا إن المسيح إله لِمَا وَهِمُوا من أنه يحيى ويميتُ بغير إذن الله والقرآن يقول: « إن هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه » ويقول « لن يستأنف المسيح أن يكون عبداً لله » ويقول « ما المسيح بن مريم إلا رسول » .

والدليل هو أن المسيح لايستطيع — وأمه — أن يعصما نفسيهما من بطش الله إن أراد أن يهلكهما ومن فى الأرض جميعاً .

وإذا كان المسيح قد خلق على طريقة غير مألوفة فذلك بعض أسرار قدرة رب السموات والأرض والله على كل شىء قدير .

(١٨) « وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ

بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ويُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وللهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وإِلَيْهِ المَصِيرُ »

هكذا زعموا ومثلها مقالتهم « لن يدخلوا الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » .

وبالمنطق إن كنتم أبناء الله وأحباءه فلم يعذبكم بذنوبكم ولم لعن اليهود وقضى عليهم بالتيه وضرب عليهم الذلة والمسكنة ، وقضى على الآخرين بالبغضاء والفرقة .

الحق أنكم جميعاً بشر ممن خلق لاتمتازون على غيركم . فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء له ملك السموات والأرض يتصرف فيهما بمشيئته وإليه المصير .

(١٩) « يَأَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ واللهُ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ »

قد جاءكم رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم يبين لكم بعد انقطاع الرسل فترة ومعروف أن بين عيسى ومحمد عليهما السلام قرابة الستمائة عام . جاءكم بشيراً ونذيراً حتى لاتكون لكم حجة . فما بدلتم وغيرتم وفى انحرافكم عن طريق الله .

(٢٠) « وإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ »

قوم موسى هم بنوا إسرائيل يذكرهم الله بنعمته إذ جعل فيهم من الأنبياء مالم يجعل فى غيرهم — كما قيل — جعل منهم ملوكا بعد الكنعانيين ، وآتاكم مما سألتموه مالم يؤت أحداً غيركم . . اذكروا هذه النعمة واستمعوا لما تؤمرون به .

(٢١) « يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ »

أمرهم الله بدخول القدس أو الشام على خلاف ونهاهم عن الفرار عند مواجهة من فيها من الجبارين ، وقيل نهاهم عن الارتداد عن دينهم بالعصيان فتكون الخسارة لهم .

(٢٢) « قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ »

على الرغم من تحذير الله لهم من التخاذل فقد وقعوا فيما نهاهم عنه وقالوا لن ندخلها حتى يخرج الجبارون .. هكذا دون قتال معهم ودون جهاد .

(٢٣) « قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ »

لما نكص بنوا إسرائيل تنفيذ أمر الله بدخول الأرض المقدسة وتعللوا بوجود الجبارين فيها قال لهم رجلان أنعم الله عليهما بنور البصيرة : ادخلوا عليهم الباب : أى اهجموا عليهم ، فإذا هجمتم فأنتم الغالبون متى توكلتم على الله ووثقتم بما عنده .

(٢٤) « قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ »

هكذا كان ردهم إصراراً على الفرار وتخلفاً عن القتال ، ثم قالوا لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا وأخرجاهم وإنا هاهنا قاعدون فى انتظار ما يكون .

وفى قوله « وربك » قيل أرادوا المولى سبحانه واستبعده بعض المفسرين لأن هذا معناه الكفر الصريح، كان واجباً على موسى أن ينصرف عن قتال الجبارين لقتالهم ، وقيل ربك بالمعنى الأوسع أى سيد أو أخوك الأكبر هارون .

(٢٥) « قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ »

(٢٦) « قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ »

لما قالوا لموسى عليه السلام اذهب أنت وربك قال لربه — وهو به أعلم — ليس غيرى وأخى هارون فاحكم بيننا وبينهم .

فقضى الله سبحانه بتحريمها عليهم أربعين سنة يعانونها ضائعين مشردين فى الأرض جزاء ما عصوا وبما كانوا يعتدون .

ويرى بعض المفسرين فى قوله « إلا نفسى وأخى » مع وجود الرجلين اللذين نصحا بدخول الباب أن

موسى عليه السلام لم يكن مطمئناً كل الاطمئنان إليها فلم يجعلها فى حسابه ، أو أنه أراد بأخى من يؤاخينى فى دينى وينصرنى على ما اجتمعنا عليه .

(٢٧) « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ »

(٢٨) « لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ »

(٢٩) « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ »

(٣٠) « فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ »

(٣١) « فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ »

تحكى هذه الآيات قصة ابنى آدم عليه السلام وهما هابيل وقابيل :

رُوى : أن الله أوصى إلى آدم فأمرهما بأن يتزوج كل منهما توأمة أخيه ، وكانت توأمة قابيل التى سيتزوجها هابيل أجمل . فحقد أخوه عليه فاحتكما إلى أبيهما فقال لهما : قرّبا قرباناً إلى الله فمن قُبل قربانه تزوجها .

فقرّبا القربان ، فتُقُبِّل قربان هابيل — بأن أنزل الله ناراً فأكلته وكان هذا دليل قبوله على ما قيل .

فازداد قابيل حسداً لأخيه وحقداً عليه وقرر أن يقتله وقال له لأقتلنك فقال له هابيل : وكيف ؟ ولا ذنب لى وإذا كان الله تقبل منى فإنما يتقبل من المتقين وقد لا تكون كذلك . فلما رأى إصراره على قتله قال له : إن حاولت قتلى فإنى لن أحاول ولن أكون مبتدئاً لأنى أخاف ، ولأنى أريد أن تحمل إثمى وإثمك إذا ارتكبت هذه الخطيئة .

ولم ينفع النصح وطوّعت له نفسه — والنفس أمارة بالسوء — قتل أخيه فقتله ، وسقط سقطته فأصبح من الخاسرين .

ويروى أنه بعد ما قتله خاف عليه السباع ولم يكن يدرى كيف يدفنه فاحتمله فى جراب على كتفيه زمناً ما لايدرى ما يفعل . فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر ، ثم حفر الأرض بمنقاره وجناحيه فدفنه وواره فى التراب ، فانتبه قابيل ووارى سوأة أخيه وأصبح من النادمين .

(٣٢) « مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ »

يروى أن قصة القتل فى الآية السابقة لا يراد بها ابنا آدم من صلة هابيل وقابيل وإنما يراد بها رجلان من بنى إسرائيل ، والكل أولاد آدم ـ فعلا ما فعلا كما جاء فى القصة . .

وهذا هو تفسير مجيء الآية بعدها . من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل .. الآية

ومن ذهبوا إلى أنهما ابنا آدم من صلبه فسروا آية « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل » بأن التوراة كانت أول كتاب سماوى تنزل فيه الأحكام .

وفى الآية أن قتل نفس بغير سبب شرعى يبيح قتلها كالقصاص ونحوه يعتبر قتلا للناس جميعاً .. أى فى العقوبة والذنب ، لأن القاتل مخلد فى النار فقتل واحداً أو جماعة كما يعتبر إحياء النفس بإنقاذها من الموت بعفو أو مساعدة فى خطر ، أو إنقاذ من تهلكة يعتبر إحياء للناس جميعاً فى المثوبة كذلك .

ومع ما بين الله لبنى إسرائيل ، ومع إرسال الرسل إليهم فإن كثيراً منهم فى الأرض مسرفون فى العصيان والقتل ومجاوزة حدود الله .

(٣٣) « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ »

(٣٤) « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »

رُوى أنس أنها نزلت فى رَهْط من عُكل وعُرينة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا :

يارسول الله : إنّا كنا أهل ضَرْع ، ولم نكن أهل ريف فاستوخمنا المدينة .

فأمر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذَوْد من الإبل أن يخرجوا فيها يشربون من ألبانها ، فخرجوا فيها فاستاقوا الذَّود وقتلوا راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فنزلت الآية فيهم .

فبعث الرسول فى آثارهم فأتى بهم . فقطع بأيديهم وأرجلهم وسَمَلَ أعينهم فتركوا فى الحرة على حالهم حتى ماتوا .

وعموم الآية يجيز ذلك فى كل مفسد فى الأرض أن يفعل به ما فُعل بهم أو أن ينفى إلى حيث لا يكون له شر ولا خطر .

وشدة ما يلاقون فى الدنيا والآخرة مرجعها رعاية الإسلام لحق الجماعة وحرصه على استتباب الأمن والسلام بها ولو لم يؤخذ المفسدون فى الأرض بالشدة لما أمن على نفسه أحد .

يستثنى من ذلك من يرجعون إلى الله تائبين بأنفسهم من قبل أن يقدر أحداً عليهم . فإن الله غفور رحيم ، لأن تسليمهم أنفسهم مظاهر انقياد ، واستعدادهم للخير .

(٣٥) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »

الوسيلة إلى الله هى العمل الصالح والتقرب بالطاعة ، وبالإحسان ، وفعل الخير وكل ما يقرب العبد من ربه ، وقد حرفها بعضهم إلى توسلات بأشخاص أموات أو أحياء ولا أظنه من الدين فى شىء ، لأن من أعظم مزايا الإسلام أنه لا يقيم وساطة بين العبد وربه وخير ما يتوسل به إلى الله هو الطاعة والعمل الصالح وطيب المطعم والمشرب وغيرها مما لا يقيم حجابا بين العبد وربه .

بدليل قوله سبحانه ، ادعونى أستجب لكم . وقوله « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب . فهذا ومثله ما يؤكد أن الوسيلة إلى الله هى تقواه والجهاد فى سبيله والدفاع عن ربه لا ما تأول الآخرون .

(٣٦) « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

(٣٧) « يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ »

لو أن للكافرين بالله كل ما فى الأرض جميعاً ومثله معه من أموال ومتاع فبذلوه ليفتدوا به أنفسهم مما يستحقونه من عذاب على كفرهم . لما تُقبِّل منهم ولهم عذاب أليم ، يصلونه فى النار التى يتمنون أن يخرجوا منها . فلا يستطيعون أبداً . ذلك أن الله « لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيما .

(٣٨) « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »

(٣٩) « فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

قال الكلبى أن آية السرقة هذه نزلت فى « طعمة بن أبيرق » حين سرق درعاً من جار له . وقيل بل نزل فيه كما تقدم ، قوله سبحانه « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك اللهُ ولا تكن للخائنين خصيما » الآية .

وأيا كان سبب النزول فمن هذه الآية أخذ حدُّ السرقة ، وتفصيله موجود فى كتب الفقه والأحكام .

وإنَّما شدد فيه لما يترتب على السرقة من مفاسد لو أهملت لعانى منها الناس واستشرى الفساد ، فالعقوبة هنا للاعتبار والعظة ولدرء ما يتوقع من مفاسد .

فمن تاب تاب الله عليه إذا أخلص التوبة وأصلح برد المسروق إلى أهله .

(٤٠) « أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »

الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والاستفهام هنا للتقرير إذ الرسول عالم بملكه سبحانه لما فى الكون يعذب من يشاء لكفره أو عصيانه . ويغفر لمن يشاء إن آمن وأطاع وعمل صالحًا والله على كل شىء قدير .

(٤١) « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ »

قيل إنَّها مواساة للرسول وطرحٌ لما يشغله من أمر أولئك المنافقين الذين يسارعون بإظهار كفرهم كلما وجدوا فرصة سانحة لذلك من هزيمة تقع بالمسلمين أو ضعف يصيب موقفهم .

وقيل : بل نزلت فى اليهود الذين يحرِّفون الكلم والأحكام التى جاءت فى التوراة عن أصلها رعاية لأهوائهم ، ثم يجيئون الرسول صلى الله عليه وسلم يسألونه . فإن قال بما يريدون أخذوه وعملوا به وإن قال بالحق وبما لا يرضيهم رفضوه وخالفوه . .

ويروى أنها نزلت فى شريف من اليهود زنى بشريفة منهم بخَيْبَرَ وهما محصنان ، وحدُّهما فى التوراة هو الرَّجم فكرهوا — لمكانتهما — أن يرجموهما ، وبعثوا رهطًا منهم يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك وقالوا :

إن أمركم بالجلد والتَّحميم فاقبلوا . وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا . فأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالرجم فلم يقبلوه وأبوا أن يأخذوا به . وتلك هى فتنة الله لهم عن دينه ، لم يرد سبحانه أن يطهر قلوبهم ،

وبهديهم لما جاء به الرسول فاستحقوا الخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة .

(٤٢) « سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ »

سبق وصفهم بأنهم سمّاعون للكذب وكررهنا للتأكيد ، والسحتُ هو كل كسب حرام مأخوذ من سَحته إذا استأصله ، والمعنى أنه لا بركة فيه . والمراد به هنا الرشوة التى كانوا يأخذونها على الأحكام لتحليل الحرام .

والآية تُخيِّر الرسول صلى الله عليه وسلم — إذا جاءه هؤلاء اليهود يحتكمون إليه — بين أن يحكم بينهم ، أو أن يعرض عنهم .

وقيل : بل نسخ هذا التخيير بقوله تعالى « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، وما أنزل الله إليه هو العدل الذى أمر به وهو مايحبه ممن يحكمون بين عباده .

(٤٣) « وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ »

تعجب الآية من تحكيمهم الرسول فى أمور الحكم فيها مذكور لديهم فى التوراة ثم هم يحتكمون إلى الرسول فإن حكم بما أنزل الله ، وبما هو فى التوراة كذلك تولّوا عنه لا يقبلون ماحكم به ، وكأنما يحتكمون إليه لعله يأتى بما يرضيهم فيتعلقون به . فهم إذاً يبحثون عمّا يرضيهم لا عن الحق . ولن يحكم الرسول إلا بما يرضى الله والحق .

(٤٤) « إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ »

فى هذه الآية مايشبه البيان والتعقيب على الآية السابقة إذ تقرر هنا أن الله سبحانه أنزل التوراة وبين فيها مايسألون عنه ، ومايهتدون به إلى الحق ، أنزلت التوراة ليحكم أنبياء بنى إسرائيل وحكاؤهم وعلماؤهم

بما استحفظوا واستودعوا منها وكانوا رقباء عليها حتى لاتحرَّف .

وقوله سبحانه « فلا تخشوا الناس واخشون . . الآية » نهى صريح لكل من يحكم بين الناس أن يضل أو يبدِّل وجه الحق خشية الناس أو زلفى إليهم ، وفيه كذلك نهى صريح لكل من يحكم أن يشترى بآيات الله ثمناً قليلا ، فيقبل الرشوة مثلا ليحكم بغير الحق . فإن فعلها فهو من الكافرين . ولا ذنب بعد الكفر .

(٤٥) « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »

عن ابن عباس رضى الله عنه أنهم كانوا لايقتلون الرَّجل بالمرأة فنزلت هذه الآية ، وقوله « النفس بالنفس » يدلُّ على أن للسلم يقتل بالذّمى ، والرجل يقتل بالمرأة والحر يقتلُ بالعبد . فالنفس هى النفس .

وقوله « الجروح قصاصٌ » أى فيا يمكن القصاص فيه ، فإن تعذّر أو استحال ففيه مايعرف بحكومة عدل .

ولولى القصاص أن يعفو ، فإن عفا وتصدّق فهو كفارة له عن ذنوبه ، ذلك حكم الله الذى فُرض عليهم فى التوراة ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون .

(٤٦) « وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ »

(٤٧) « وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ »

تؤكد الآية أنّ ما كتبه الله سبحانه عليهم فى التوراة لم يتبدل ، وإنما جاء عليه السلام مصدقاً ومؤكداً لما بين يديه من التوراة ، وأعطاه الله الإنجيل فيه الهدى والنور وتأكيد ما سبقه فى التوراة ، وهدًى وموعظة للمتقين ينتفعون بما فيه .

وكما طولب أهل التوراة أن يحتكموا إليها طولب أهل الإنجيل بأن يحتكموا إليه ويحكموا بما فيه . ومن لم يفعل فأولئك هم الفاسقون ، الخارجون على طاعة الله .

(٤٨) « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ »

سبقت الآية فى إنزال الله سبحانه التوراة على موسى عليه السلام ليحتكم إليها اليهود، ثم إنزال الإنجيل على عيسى عليه السلام ليحتكم إليه أهل الإنجيل .

وفى هذه الآية تقرير لإنزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ليحكم به بين الجميع . وتقرر أيضاً أن القرآن نزل بالحق وجاء مصدقاً لما تقدمه فى النزول من كتب سماوية ، ومعنى تصديقه لها موافقته للأسس التى تضمنتها من توحيد الله وعبادته ، ثم إقرار أسس الفضائل من حق وعدل وخير ، والنهى عن الرذائل من باطل وظلم وشر ، والقرآن بهذا مهيمن على ماقبله وشاهد عليه . وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم أن يتبع أهواء المحرِّفين والمنحرفين .

لكل جعلنا منكم شريعة ومنهاجاً تتفق وما رأته حكمة الله مصلحاً لأمركم ، ولو شاء الله لأنزل شريعة واحدة ، ولجعل الناس أمة واحدة ولكن للابتلاء والاختبار كان هذا التفريق ؛ والمرجع فى النهاية إليه ، والجزاء عنده فاستبقوا الخيرات وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

(٤٩) « وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ »

(٥٠) « أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ »

عن ابن عباس رضى الله عنه أن جماعة من اليهود قالوا : اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فأتوه فقالوا :

يا محمد قد عرفتَ أنَّا أحبارُ اليهود وأشرافهم ، وأنَّا إن اتبعناك اتبعنا اليهودُ ولن يخالفونا ، وإن بيننا وبين قومه خصومة ونحا كمهم إليك فاقض لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت الآية .

وفى الآية الثانية بيان وتأكيد للمعنى لأن ما يريدون من تحكيم الأهواء والتفريق بين الأحوال إنما هو من طبع الجاهلية ومن سلوك أهلها ومعناه الردّة عن الدين والضلال بعد اليقين .

(٥١) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ »

(٥٢) « فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ »

جاء عبادة بن الصامت فقال : يا رسول الله إنّ لى موالى من اليهود كثير عددهم ، حاضرٌ نصرهم ، وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية اليهود ، وآوى إلى الله ورسوله .

فقال عبد الله بن أبىّ : إنى رجلٌ أخافُ الدوائرَ ، ولا أبرأ من ولاية اليهود .

فقال صلى الله عليه وسلم :

يا أبا الحباب (يعنى ابن أبى) : ما تجلبُ به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه .

فقال : قد قبلتُ فأنزل الله تعالى فيهما هاتين الآيتين ، وفى الثانية : « فترى الذين فى قلوبهم مرض » يعنى عبد الله بن أبىّ ويسجل مقالته .

ثم تقرر الآية أن ولاية أعداء الدين هؤلاء ظلم لا ينبغى التورط فيه ، كما تنعى على المنافقين وتقرر أنه حين يأتى الفتح والنصر من عنـــد الله سيصبح المنافقون على ما أسروا فى أنفسهم نادمين . ولا ينفع الندم .

(٥٣) « وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ »

عندئذ وحين يأتى نصر الله يعجب المؤمنون من حال هؤلاء المنافقين الذين أقسموا من قبـلُ أغلظ الأيمان أنهم معاضدوكم ضد الكفار ، لقد حبطت أعمالهم فخسروا فى الدنيا وفى الآخرة .

(٥٤) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ »

ذهب بعض المفسرين فى تأويل هذه الآية إلى أنها من الأدلة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

بدليل ما فيها من إخبار عن المستقبل أو تنبؤ به حيث اعتبروها تحذيراً من الردة التي وقعت بعد وفاة الرسول ، ثم ما ووجهت به من الغيورين على الإسـلام الذين وصفتهم الآية بالذلة على المؤمنين أي بالحنو عليهم والتواضع لهم ، كما وصفتهم في الوقت نفسه بالعزة والبأس في مواجهة الـكفار ، واطّراح الخشية من أي لائم في الجهاد من أجل الدين .

والذي أراه أنها عامة في كل من تسوّل له نفسه ذلك ، وبيان لما ينبغي أن يواجه به هذا الارتداد إن حدث .

(٥٥) « إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ » .

(٥٦) « وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » .

قال جابر بن عبد الله وروى كذلك عن ابن عباس قال : « جاء عبد الله بن سلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن قوماً من قريظة والنضير قد هاجرونا وفارقونا ، وأقسموا ألا يجالسونا ، ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل ، ثم اشتكى للرسول ما يلقى من اليهود فنزلت هذه الآية .

فلما قرأها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء .

ومثل هذا قاله الكلبي وزاد :

إن آخر الآية «ويؤتون الزكاة وهم راكعون » في عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لأنه أعطى خاتمه سائلا وهو راكع في الصلاة .

(٥٧) « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »

(٥٨) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ »

إن كنتم مؤمنين حقًّا فالإيمان يأبى على المؤمن أن يوالى أعداء دينه من الـكفار وأهـل الـكتاب الذين يتخذون من هذا الدين هزواً وسخرية ، كما يسخرون منكم لجهلهم .

سمعوا نداءكم للصلاة ، وتروى في تفصيله حكايات .

(٥٩) « قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ »

تنكر الآية على أهل الكتاب ما ينقمونه على المسلمين لأنه ينبغى أن يُحمد لا أن يُنقَم ، فهل فعل المسلمون أكثر من أن آمنوا بالله وبما أنزل عليهم وما أنزل من قبل ، فى الوقت الذى فسق فيه أكثر أهل الكتاب . . فأى الفريقين أحق بالنقمة ؟ !

(٦٠) « قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ »

قال ابن عباس : إن نفراً من اليهود أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فقال :

أومن بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل — إلى قوله ونحن له مسلمون .

فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا : والله ما نعلم أهل دين أقلّ حظاً فى الدُّنيا والآخرة منكم ، ولا نعلم ديناً شراً من دينكم فنزلت هذه الآية .

والذين جعل منهم القردة هم أصحاب السبت ، « والخنازير » هم كفّار مائدة عيسى عليه السلام أو كلا المسخين من أصحاب السبت .

أما عبد الطاغوت ، فهم عبدة العجل أو عبدة الشيطان ، أولئك هم شرٌّ مكانا وأضل عن سواء السبيل .

(٦١) « وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ »

(٦٢) « وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

(٦٣) « لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ »

تحدد الآية الأولى حالة من حالات النِّفاق الذى كان المسلمون يواجهون به من اليهود وغيرهم .

ثم تحدد الثانية بعض سماتهم وهى الإسراع إلى الإثم والفجور والعدوان ثم الإقبال على أكل الحرام واستمراؤه لبئس ما كانوا يصنعون .

أما الثالثة « لولا ينهاهم الربانيون » فقال ابن عباس هى أشد آية فى القرآن حيث اعتُبر تارك النهى عن المنكر من العلماء والحكماء بمنزلة مرتكب المنكر فى العقوبة والإثم .

(٦٤) « وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِم وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُم مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ »

روى أن اليهود لما كذبوا بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم كفّ الله عنهم ما كانوا عليه من البسط والسّعة . فقالوا غلّ الله يده عنا ويد الله مغلولة ــ لعنوا بما قالوا ــ أنه سبحانه قد بَخِل .

وقد ردّ القرآن عليهم بالدعاء بأن تُغَلّ أيديهم ، ولعل هذا ــ كما يقال ــ هو سبب ما يعلم عن اليهود من الحرص والشح .

ثم قال للرسول : ليزيدنّ كثيراً منهم . ما أنزل إليك طغيانا وعناداً وكفراً وقد عاقبهم الله على مقالتهم باختلاف كلمتهم وتشتيت قلوبهم ، وكلما حاربوا رسول الله هزموا أمامه .

أنهم يسعون فى محاربة الإسلام ويجتهدون فى محو ذكر النبى صلى الله عليه وسلم من كتبهم والله لا يحب المفسدين .

(٦٥) « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ »

(٦٦) « وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِن رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ »

لو آمن أهل الكتاب من اليهود والنصارى بمحمد صلى الله عليه وسلم واتقوا الله فى إظهار ما جاء عنه بكتبهم ، ثم فى إقامة أحكام هذين الكتابين على وجهها لوسّع الله عليهم وأكرمهم ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب .

ومايقال من الكثرة بينهم لاينفى أن بينهم أمة وفريقا يلزم القصد والاعتدال ولا يعادى الرسول كما يعاونه .

(٦٧) « يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ »

ذكر النيسابورى فى أسباب النزول قال : قال الحسن : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لما بعثنى الله تعالى برسالتى ضقت ذرعاً وعرفت أن من الناس من يكذبنى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهاب قريشا واليهود والنصارى .

فأنزل الله هذه الآية ، يأمره فيها بالبلاغ الكامل الناجز لا تأخير فيه وإن لم يفعل : إن لم يبلغ رسالته كلها فكأنه لم يبلغ .

أما مايخشاه من الناس، أو مايستشعره من مواجهتهم فقد تكفل به الله سبحانه فقال، والله يعصمك من الناس .

(٦٨) « قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَىْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُم مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ »

لستم على دين صحيح تعتد به حتى تعملوا بما فى التوراة والإنجيل فتقيموها وما أنزل إليكم وهو القرآن، أو ما أنزل إليكم على أيدى رسل الله وأنبيائه .

وإن القرآن الذى أنزل إليك يامحمد من ربك سيزيدهم طغياناً وكفراً لأنه يكشف انحرافهم ويظهر زيغهم فلا يكادون يطيقونه ، ولعل فى هذا ـ والله أعلم ـ بعض سر تلك العداوة التى يضمرها اليهود للاسلام والتى تحدث عنها القرآن فى قوله .

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » .

فليمادوا ما يشاءون ، فما أهونهم على الله الذى يقول لنبيه « فلا تأس على القوم الكافرين » .

(٦٩) « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »

تقرر الآية أن من آمن بالله ، واليوم الآخر ، وعمل صالحا من أصحاب هذه الديانات جميعاً فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون . لأنهم وفَّوا بالقدر المشترك والأساس الأكبر الذى تكاد تلتقى من حوله الديانات، وهو التوحيد والعمل ، الصالح .

(٧٠) « لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ »

(٧١) « وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ »

عاهد الله سبحانه بنى إسرائيل على التوحيد والإيمان وصالح العمل وأرسل إليهم رسله مبشرين ومنذرين فإذا جاءهم رسول بغير ما يحبون إما أن يكذبوه وإمّا أن يزداد عداؤهم له فيقتلوه .

ولقد حسب هؤلاء أن ما يفعلون لن يحاسبوا عليه فأعرضوا ، وعاندوا ثم رزقهم الله التوبة ؛ ثم لم يستمروا عليها فعادوا إلى الإعراض والعناد ، ورفضوا العمل بما أمروا ، وكأنهم لم يسمعوا ما طلب إليهم أو لم يروا ما أنزل والله بصيرٌ بما يعملون يجزيهم به .

(٧٢) « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ »

لقد كفر الذين قالوا إن المسيح إله أو أن الله هو المسيح بن مريم ، وقد رفض المسيح عليه السلام مقالتهم « إذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق .

وأكد إنكاره لما قالوا فى هذه الآية إذ قرر لمن قالوا ذلك أنه ليس بإله وأنه ليس إلا عبداً لربهم وربه فقال : اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة » لأن الله لا يغفر أن يُشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

ومن يشرك بالله فقد ظلم ، ومأواه النار وما للظالمين من أنصار .

(٧٣) « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

(٧٤) « أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

وهذا فريقٌ آخر من النصارى حكم الله عليهم بالكفر لما قالوا إن الله ثالث آلهة ثلاثة أو على تعبيرهم « أحد ثلاثة أقانيم » كفروا إذ ليس فى الكون إلا إله واحد ، « ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » فكيف لا يبصرون وإنه لم ينته هؤلاء عن كفرهم ليمسنّهم عذابٌ أليمٌ .

إن باب التوبة مفتوح لمن أراد ولوجه أفلا يتوبون ويستغفرون ليغفر الغفور الرحيم لهم .

(٧٥) « مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ »

المسيح بن مريم ليس بإله ، وليس شريكا لله فى الألوهية وما هو رسول لغيره عن سبقوه من الرسل وما هو وأمه الصديقة إلا بشر من البشر يأكلان الطعام يعيشان كما يعيش كل البشر . . فلو كان إلهين لاختلفا عن سائر خلق الله أليست هذه آية بينة يوضحها الله للناس فينصرفون عنها كأنهم لا يفقهون .

(٧٦) « قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَالَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »

(٧٧) « قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ »

دليل آخر لو انتبهت العقول على أن عيسى ليس بإله ولا يحق أن يعبد إذ كيف تعبدون من دون الله مالا يملك له ضراً ولا نفعاً ، ومن شأن الإله المعبود أن يضر وينفع ، والله السميع لما تقولون ، العليم بما تديرون وما تكتمون فيحاسبكم عليه .

يا أهل لا تغلو فى دينكم ولا تجاوزوا الحد فى أمر عيسى فالنصارى منكم يرفعونه عن مكانه فيؤلهونه . واليهود منكم ينزلون به عن مكانه فيسيئون إليه ، تفعلون ذلك اتباعا الضالين من قبلكم الذى حادوا عن السواء وتخبطوا فى الضلال .

(٧٨) « لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ »

(٧٩) « كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ »

(٨٠) « تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ »

قيل إن بعض اليهود لما اعتدوا فى السبت قال داود عليه السلام اللهم العنهم واجعلهم للناس آية فسخوا قردة ، كما يقول القرآن ، «ولقد علتم الذين اعتدوا منكم فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين» .

ولما كفر أصحاب عيسى بعد «المائدة» ، قال عيسى : اللهم عذب من كفر منهم بعد ما أكل من المائدة عذابا لم تعذبه أحداً من العالمين والعنهم كما لعنت أصحاب السبت فأصبحوا خنازير . فهذا لعنهم .

ونبه بالآيات الأسباب التى استحقوا بها هذا اللعن وهى : عصيانهم وعدوانهم على الأنبياء وعدوانهم على حدود الله ، ثم أنهم كانوا لا يأمرون بمعروف ولا يتناهون عن منكر فعلوه ، ثم موالاتهم للكفار ومناصرتهم لهم .

(٨١) « وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ »

وإذاً فموالاتهم للـكفار دليل عـدم إيمانهم ولو آمنوا لما والوهم ، ومن ثم كانوا فاسقين وحقت عليهم اللعنة .

(٨٢) « لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الذين قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ »

(٨٣) « وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ »

(٨٤) « وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ »

(٨٥) « فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ »

قيل أن هذه الآيات ، لتجدن أشد الناس عـداوة . . . إلى آخر قوله وذلك جزاء المحسنين نزلت فى النجاشى ملك الحبشة .

قال ابن عباس رضى الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليـه وسـلم وهو بمكة يخاف على أصحابه من المشركين فبعث جعفر بن أبى طالب وابن مسعود فى رهط من أصحابه إلى النجاشى وقال : إنه ملكٌ صالحٌ لا يَظلِم ولا يُظلَم عنده أحد ، فاخرجوا إليه حتى يجعلَ اللهُ للمسلمين فرجاً .

فلما وردوا عليه أكرمهم وقال لهم : تعرفون شيئاً مما أنزل عليـكم ؟ قالوا : نعم . قال : اقرأوا ، فقرأوا ، وحوله القسيسون والرهبان ، فـكلما قرأوا آية انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق .
وهذا معنى قوله سبحانه ، «ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لايستـكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين..

وتقرر الآيات : شدة عداوة اليهود للمؤمنين ، وتضعهم مع المشركين فى قَرَن .
أما النصارى منهم أقرب للمسلمين مودة . والسبب أن منهم علماء ورهباناً عباداً فيهم تواضع واستكانة على خلاف اليهود ، ومن شأن العلم والتواضع أن يهدى إلى الحق .

وصفت الآيات النصارى برقة القلوب وأنهم يبكون عند سماع القرآن لما يعرفون فيه من الحق .
ثم سجلت إيمانهم بما عرفوا منه وسؤالهم الله أن يجعلهم من الشاهدين له بذلك ، وكيف يرتضون الإسلام وهم يطمعون أن يدخلوا الجنة مع القوم الصالحين .

فى ختام الآية تقرر مثوبة الله لهم بالخلود فى الجنة لقاء ما أحسنوا وذلك جزاء المحسنين .

(٨٦) « وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ »

هذا حكم عام بالمصير السيء فى الجحيم على كل من كفر بالله وكذب بآياته .

(٨٧) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ »

(٨٨) « وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى أَنْتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ »

قال المفسرون : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فذكَّر الناس ووصف القيامة ، ولم يزدهم على التخويف ، فرقّ الناس وبكوا .

فاجتمع عشرة من الصحابة ، فيهم أبو بكر ، وعلىّ ، وأبو ذر ، واتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ، ولا يناموا على الفُرُش ، ولا يأكلوا اللحم ، ويترهبوا ، ويجُبُّوا المذاكير .

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فجمعهم فقال :

ألم أنبأ بأنكم اتفقتم على كذا وكذا ؟ فقالوا : بلى يارسول الله ، وما أردنا إلا الخير . فقال : إنى لم أومر بذلك ، إن لأنفسكم عليكم حقاً ، فصوموا وأفطروا وقوموا ، وناموا ، فإنى أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وآكل اللحم والدسم ، ومن رغب عن سنتى فليس منى .

ثم خرج إلى الناس وخطبهم فقال :

ما بال أقوام حرَّموا النساء والطيب . والنوم وشهوات الدنيا . أما إنى لست آمركم أن تكونوا قسيسين ولا رهبانا ، فإنه ليس فى دينى ترك اللحم والنساء ، ولا اتخاذ الصوامع ، وإن سياحة أمتى الصوم ورهبانيتها الجهاد ، واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وحجوا واعتمروا ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة وصوموا رمضان . فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد . شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم فأولئك بقاياهم فى الديارات والصوامع .

فأنزل الله هذه الآية :

(٨٩) « لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »

روى فى أسباب النزول أنه لما نزلت الآية السابقة ، وكلوا مما رزقكم الله . . الآية » وحدثهم الرسول صلى الله عليه وسلم بما ذكرنا قالوا : يارسول الله :

كيف نصنع بأيماننا التى حلفنا عليها ؟ وكانوا حلفوا على ما اتفقوا عليه . فأنزل الله هذه الآية .

واللغو فى اليمين : الساقط منها والذى لايتعلق به حكم كأن يحلف على شىء يرى أنه كذلك وليس كا ظن ، فهم قد حلفوا على تحريم الطيبات من الرزق على ظن أنها تقربهم إلى الله فبين لهم الرسول وقررت الآية أن الحق خلاف ماظنوا .

وعند الشافعى رضى الله عنه : اللغو فى اليمين مايجرى على اللسان بلا قصد . فهذا بنص الآية لامؤاخذة فيه .

ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، أى بالأيمان التى عقدتموها ووثقتموها وعزتم إنفاذها ثم حنثتم فيها . فعليها المؤاخذة وفيها الكفارة إطعام عشرة مساكين غداء وعشاء « من أوسط ما تطعمون أهليكم » أى من البرّ أو من التمر ، أو الشعير ، ويجوز أن يعطيهم مقدار ذلك نصف صاع من البرّ وصاعاً من الشعير أو التمر .

« أو كسوتهم » ثوباً يغطى العورة ، وعن ابن عمر : إزار ، وقميص ، ورداء .

« أو تحرير رقبة » أى عتقها ، فمن لم يجد . فالصيام .

وقد أمر الله بحفظ الأيمان . أى بالبرّ بها ، أو عدم الحلف أصلا حتى لايقع فى محظور .

(٩٠) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »

(٩١) « إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ »

يروى أبوميسرة عن عمر بن الخطاب أنه قال : اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً فنزلت آية البقرة : « يسألونك عن الخمر والميسر .. الآية فدعى عمر فقرئت عليه . فقال : اللهم بيّن لنا فى الخمر بياناً شافياً فنزلت آية النساء : « يأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى . . الآية » فدعى فقرئت عليه فقال : اللهم بيّن لنا فى الخمر بياناً شافياً فنزلت هذه الآية « إنما الخمر والميسر . . » فدعى فقرئت عليه فلما بلغ « فهل أنتم منتهون » ؟ قال عمر : انتهينا .

والميسر : القمار ، والأنصاب : كلُّ ما نُصِب فَعُبِد . ، الأزلام : القداح التى كانوا يديرونها وقد مرت فى قوله « وأن تستقسموا بالأزلام » . . هذا كله رجسٌ من عمل الشيطان لا يأتى منه إلا الشر .

وقد شرح فى الآية التالية نوع الشر الذى يصيب الناس منها فى دنياهم بوقوع البغضاء والعداوة ، وفى دينهم بانصرافهم عن الصلاة والعبادة .

(٩٢) « وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ »

تعقيب على ما سبق وبيان وتحذير .

(٩٣) « لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ »

ذكر الواحدى فى أسباب النزول عن أنس قال : كنت ساقى القوم يوم حرِّمت الخمر فى بيت أبى طلحة ، وما شرابهم إلا الفضيخ ، والبُسْرُ ، والتمر ، وإذا منادٍ ينادى : إن الخمر قد حرِّمتْ ، قال فأريقت فى سكك المدينة ، فقال أبو طلحة : اخرج فأرِقْها ، قال فأرقتها ، فقال بعضهم : قُتل فلانٌ وفلانٌ وهى فى بطونهم . قال : فأنزل الله تعالى هذه الآية .

والمعنى أن شربهم لها تم فى وقت لم يكن فيه تحريمٌ ، ولو قد حرمت لما شربوها لأنهم يتقون الله ويحسنون تقواهم .

(٩٤) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

كان ذلك الابتلاء بالصيد عام الحديبية وكانوا مُحْرِمين فكثر من حولهم الصيد حتى كان يغشاهم فى رحالهم حتى ليستمكنون منه بأيديهم أو برماحهم فنبهتهم الآية إلى ما فيه من ابتلاء بالامتناع عنه ليعلم الله — وهو أعلم — من يخافه بالغيب ، فمن اعتدى وصاد فله عذابٌ أليم .

(٩٥) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ »

الأصل هو الامتناع عن الصيد وقت الإحرام ، فمن صاد متعمداً وجب عليه أن يقدم جزاء يماثل قيمة الصّيد يحكم بهذا الجزاء اثنان ذوا عـدل منكم ، فإن بلغت القيمة قيمة هدى قدمه ، بالغ الـكعبة أى يذبح فى الحرم وإن لم تبلغ كفر بإطعام مساكين ، أو ما يعادل ذلك صيام يوم عن طعام كل مسكين ، ليذوق عاقبة فتكه بالصيد فى الحرم . عفا الله عما قبل التحريم ، ومن عاد فينتقم الله منه .

(٩٦) « أُحِلَّ لَـكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَـكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْـكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ »

السَّيارةُ : المسافرون ، والآية فى غير حاجة إلى بيان .

(٩٧) « جَعَلَ اللهُ الْـكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْىَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ »

يقول « القشيرى » فى « اللطائف » :

حكم الله سبحانه أن يكون بيته اليوم ملجأ يلوذ به كل مؤمل ، ويستقيم ببركات زيارته كلُّ مائلٍ عن نهج الإستقامة ، ويستنجحُ بابتهاله هنالك كل ذى أرب :

(٩٨) « اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

شديد العقاب للأعداء ، غفور رحيم للأولياء .

(٩٩) « مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللهُ يَعْـلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَـكْتُمُونَ »

نعم : ماعلى الرسول إلا البلاغ ، لأن المنفرد بالألوهية هو الله سبحانه .

(١٠٠) « قُلْ لَا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ لَعَلَّـكُمْ تُفْلِحُونَ »

الخبيثُ خبيثٌ وإن كثُر وازدهر ، وأعشى العيون بريقه فأعجبكم . والطيِّبُ طيبٌ وإنْ قلَّ . فاتقوا الله باجتناب الخبيث .

(١٠١) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَـكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَـكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ »

نزلتْ حين سأل سراقة بن مالك رسول الله وقد نزلت آية الحج « ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلا » . فقال سراقة : أ كل عام يارسول الله ؟ فأعرض عنه الرسول صلى الله عليه وسلم

حتى أعادها ثلاثاً ، فقال الرسول لا ، ولو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم فاتركونى وماتركتكم وتلك من حكم الإسلام فى التيسير على الناس .

(١٠٢) « قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ »

ثُلِجُو فى المسألة فاستجيب لهم فما استطاعوا الوفاء بالواجب ، كالذين سألوا موسى رؤية الله ، ثم كفروا والذين سألوا عيسى المائدة ثم كفروا .

(١٠٣) « مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ ولا سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُم لاَ يَعْقِلُونَ »

(١٠٤) « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا ما وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُم لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ »

البحيرة : الناقة تشقُ أذنها بعد أن تلد خمساً ويحمى ظهرها فلا تركب وحرّموا ذبحها .

والسائبة : الناقة ينذر الرجل إذا رجع سالماً من السفر أو شفى من مرضه أن تكون سائبة . فتصبح كالبحيرة .

والوصيلة : البطن السابع للشاة إن جاء أنثى سمى بذلك وقالوا وصلت أخاها .

والحامى والحمى : الفحلُ إذا نتج من صلبه عشرة أبطن قالوا رحمى فلا يذبح ولا يركب الخ .

ومعنى الآية هذه أحكام ابتدعوها ، فردُّهم الله سبحانه عن الابتداع وأمرهم بحسن الإتباع ، وأكد أن ما كان من عاداتهم لا يصلح ليكون فى عباداتهم وخاصة إذا كان الأسلاف فى ضلال .

(١٠٥) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »

شغل المؤمنون أنفسهم بأمر الكافرين إشفاقاً عليهم من سوء المصير فقيل لهم ذلك وليس معناه ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولكنه تبيين للحدود ولعله من قبيل ما قيل « من يفرُغ إلى غيره يتشاغل عن نفسه .

(١٠٦) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ

لاَ نَشْتَرِى بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الآثِمِينَ »

(١٠٧) « فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ »

(١٠٨) « ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ »

فيما أُمِر به المسلمون : الإشهاد على الوصية عند الموت ؛ يؤدى هذه الشهادة شاهدان عدْلان من أقارب الموصى .

فإن كان الاحتضار والوصية فى السفر فيصح إشهاد اثنين من الأقارب .

وإذا حدث ارتيابٌ فى الشهادة أوقفا بعد الصلاة ــ صلاة العصر كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث « بديل » فسيحلفان فيقسمان أنهما لا يريدان بالقسم ولا بالشهادة أى عرض من أعراض الدُّنيا ، إنا إذاً لمن الآثمين .

فإن ظهر أنهما غير عدلين أن شهادتهما مريبة قام شاهدان آخران مقامهما من أسرة للميت فيقسمان أنهما أولى بالشهادة وأعدلُ فيها .

وهذه الحيطة عند الإشهاد أقرب لتحقيق العدل ومعرفة الحق ، وتحمل الشهود على الصدق خشية أن يُستبدلوا وتردَّ أيمانُهم فيسىء ذلك إليهم ، ويُوَسَمُوا بالكذب وقول الزور .

(١٠٩) « يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ »

ذلك يوم القيامة وفى سؤال سبحانه للرسل توبيخ لمن لم يؤمنوا ، وفى جواب الرسول تأدب معه سبحانه لأنه علاّم الغيوب .

(١١٠) « إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ

بَنِى إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ »

(١١١) « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِى وَبِرَسُولِى قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ »

فى الآية الأولى تذكير لعيسى عليه السلام بنعم الله عليه وعلى والدته ، وكما يقول القشيرى : التذكير بوجوه النعم يستخرج خلاصة الحبّ والهيمان فى المذكور ، وكل وقت للأحباب يمضى ، يصير حديثاً يُتلى من بعدهم : إمّا عليهم وإمّا عنهم » .

وفى الثانية . استكمال لحديث النعم .

(١١٢) « إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »

(١١٣) « قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ »

طلبوا « المائدة » لتسكن قلوبهم بما يشاهدونه من عظيم الآية وعجيب المعجزة ، فأجيبوا إليها . إذ كان مرادهم حصول اليقين وزيادة البصيرة . كما سأل إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، « قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى » فأجيب لما سأل .

(١١٤) « قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ »

(١١٥) « قَالَ اللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ »

استجاب سبحانه لدعاء عيسى عليه السلام وقال إنى منزلها عليكم لتزدادوا إيماناً فمن كفر بعدها « فإنى معذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين » . وقيل إنهم بعد سماع هذا الوعيد استعفوا عيسى عليه السلام ، وقالوا لا نريدها فلم تنزل . وقيل بل نزلت . وفى تفصيل ما احتوته من الطعام خلاف .

(١١٦) « وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ »

(١١٧) « مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَادُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »

(١١٨) « إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »

سأل الله عيسى ليؤكد براءته مما نسب إليه ويبدأ عيسى عليه السلام الإجابة لا مدافعاً عن نفسه ولكن منزّهاً لربه فقال : سبحانك وتنزيهاً لك عن هذا الذى لا يليق بذاتك ولا صفاتك .

أومن حق أن أقوله ، وقد أنعمت على ومنحتنى وأمّى تأييدك وعونك ، ولو كنت قلتهُ فلقد علمتَه .

ما دعوتهم إلى لعبادتك ، وكنتُ مدة حياتى بينهم شهيداً عليهم . أذكرهم إن غفلوا ، وأردُّهم إلى سبيلك إن ضلُّوا .

لا سلطان لى عليهم إن تعذبهم أو أن تغفر لهم فأنت وحدك صاحب السلطان .

(١١٩) « قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »

هذا أى الغفران أو التعذيب المذكور فى الآية السابقة يحدث يوم القيامة يوم ينفع الصادقين صدقهم ، ويكون لهم ما رُزقُوا من ثواب : الخلد فى الجنة والفوز العظيم برضوان الله .

(١٢٠) « لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »

له الملك فيهما سبحانه حيث لا يملك غيره ، وله التصرف سبحانه فى كل مافيهن حيث لا يتصرفُ غيرُه ، وهو سبحانه القديرُ على كل شىء وإذا لم يكن له فى ملكه شريك فكيف يشركون به فى العبادة سبحانه .

تفسير سورة الأنعام

(١) « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ »

له الحمد سبحانه خلق هذا الكون العظيم ، سماءه وأرضه ، وجعل فيها الظلمات والنور يتعاقبان فيفيد منهما الإنسان فى بناء حياته وفى عمارة الكون ، أو جعل ظلمة الكفر ونور الإيمان . ثم مع خلقه وفضله نرى الذين كفروا يسوّون بينه — سبحانه — وبين مايشركون .

(٢) « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ »

سبحانه خلق الإنسان من طين ثم قدّر له أملا فى الدنيا ، وأجلا آخر بين الموت والبعث لايحيط الإنسان من علمه شىء . ولا يقدر من فضله على شىء . ومع هذا يشك ويمترى . . . فما أعجب الإنسان .

(٣) « وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ »

(٤) « وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ »

(٥) « فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ »

سبحانه المعبود فى الأرض والسماء عالم السر والجهر ، والعالم بما كسبت أيدى الناس ، فكيف يكفرون به .

لقد جاءتهم الآيات لو عقلوها لاهتدوا ، لكنهم خلوا فكانوا عنها معرضين .

ولقد كذبوا بالحق ، وغداً يحصدون مازرعوا ، ويأتيهم يقين ماشكوا فيه وأنكروه .

(٦) « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ »

هؤلاء الكافرون بنا اليوم ، سبقهم آخرون كانوا مثلهم ، أمهلناهم فى الأرض ومكّنا لهم فيها كما لم نمكن لكم ، وفتحنا عليهم من أبواب كرمنا ما كان خليقاً أن يذكروه فيشكروه ويعبدوا ربّه ، فلما ضلُّوا وأذنبوا أهلكناهم ، وأنشأنا بعدهم آخرين يسكنون مساكنهم ويرثون أرضهم فهلا اعتبروا واعتبرتم ؟

(٧) « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ »

هكذا يكون الضالون — أعاذنا الله — لو رأوا الشمس فى وضح النهار لأنكروها .

(٨) « وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنْظَرُونَ »

(٩) « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ »

قال الكافرون هلاّ كان النبىّ ملكا يكلمنا ونكلمه . ولوحدث هذا لقُضِىَ الأمرُ وأهلكوا حيث لايقوونَ على مشاهدة الملك فى صورته .

ولو جعلنا الرسول ملكا كما يشاءون لجعلناه رجلا على صورتهم حتى يستطيعوا مشاهدته وإذاً يعود الأمر إلى أوله ، ويظلون فى لَبْسهم فلا يهتدون :

(١٠) « وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ »

(١١) « قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ »

يامحمد : كم من رسل من قبلك أوذُوا كما أوذيتَ وكُذبوا كما كذبت فماذا كان مصير الذين سخروا منه .

قل لمكذبيك اليوم : سيروا فى الأرض . وتعرفوا أخبار أهلها ثم انظروا أكان الذين سوى الخزى والبوار ؟ .

(١٢) « قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ »

سَلْهم يامحمد : لمن مافى السموات والأرض ؟ قل : لله . الذى فرض على نفسه الرحمة : والذى يجمعكم عنده ليوم لاريب فيه فيا خسران من خسروا أنفسهم بأنهم لايؤمنون .

(١٣) « وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »

(١٤) « قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ »

سبحانه : له ما سكن ، فله ما تحرك . وله ماسكن أى أقام فى النهار وفى الليل ، وهو السميع — كما يقول بعض المتصوفة — لأنين المشتاقين « العليم » بحنين الواجدين .

وكيف أبتغى من دونه رباً وهو ربُّ كل شىء ، لم أكن لأفعل فقد أمرتُ بأن أكون سابق أمتى إلى الإسلام له ، ونهيت أن أكون من المشركين .

(١٥) « قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ »

(١٦) « مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ »

كيف أعبد غيره أو أتخذ ولياً من دونه وأنا المشفق من عذابه : الذى يفوز من رحمه فصرفه عنه .

(١٧) « وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »

(١٨) « هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ »

سبحانه : إنه وحده المنجى من البلاء ، والمبتلى بالداء . وهو سبحانه ربُّ كل السلطان على كل العباد الخبير بما هم عليه ، الحكيم فى تقدير مايصلحون به .

(١٩) « قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ »

لما كان أساس الشهادة هو العلم والإحاطة كان سبحانه أكبر شاهد وشهيد على أنى رسوله . وقد أوحى القرآن إلى رسوله لينذر به الطاقة المخاطبون ومن يأتى بعدهم ، وأنتم تشركون به غيره . وأشهد أنما هو إله واحد . وإننى برىءٌ مما تشركون .

(٢٠) « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ »

أهل الكتاب من اليهود والنصارى يعرفون . فى كتبهم — صفة محمد صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم ، ولكنهم عناداً وحسداً . وخوفاً على مناصبهم ويكتمون الحق وهم يعلمون .

(٢١) « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ »

(٢٢) « وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ »

(٢٣) « ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ »

(٢٤) « أُنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ »

لايفلح الظالم ، وأظلم الظلم افتراء الكذب على الله وادعاء الشركاء له . وسيأتى اليوم الذى يحشر فيه المشركون ليسألوا : أين شركاءكم الذين كنتم تزعمون . فإذا هم يتبرأون مما أشركوا ويقسمون بالله ما كنّا مشركين .

فانظر يامحمد . كيف كذبوا على أنفسهم ، وكيف لم ينفعهم ما كانوا يفترونه .

(٢٥) « وَمِنْهُم مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ »

فيمن روى عن ابن عباس قال : إن أبا سفيان بن حرب ، والوليد بن المغيره ، والنّضر بن الحارث ونفراً من المشركين استمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا للنضر : ياأبا قتيلة : مايقول محمد ؟ قال : والذى جعلها بيتة ما أدرى مايقول ؛ إلا أنى أرى يحرّك شفتيه ، يتكلم بشىء ، وما يقول إلا أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية .

(٢٦) « وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ »

قيل نزلت فى كفّار مكة كانوا ينهون الناس عن اتباع النبى صلى الله عليه وسلم وينأون هم بأنفسهم عنه .

وقيل نزلت فى أبى طالب عم النبى إذا كان ينهى المشركين أن يؤذوا الرسول ولكنه ينأى عن دعوته فلا يدخل فيها والأول أولى .

(٢٧) وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »

(٢٨) « بَلْ بَدَا لَهُم مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ »

هؤلاء الذين كذبوا وكفروا حين يواجهون العذاب وقوفاً على النار يوم القيامة يقولون ياليتنا نردُّ حتى نكفر عما أسلفنا فنؤمن ولا نكفر ، ولو ردّوا لعادوا لما نُهوا عنه وأنهم لكاذبون .

(٢٩) « وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »

(٣٠) « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَـذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ »

(٣١) « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ »

(٣٢) « وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ »

يقول الكافرون : بعد الموت لا بعث ولا حساب : فإذا ما بعثوا وسئلوا أليس حقاً ما كنتم تنكرون ؟ قالوا نعم . . قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون .

قد خسر المكذبون بلقاء الله وبالدار الآخرة فإذا جاءتهم الساعة بغتة أدركوا خسارتهم واستشعروا الحسرة على ما فرطوا من قبل ، وماذا تنفع الحسرة فى ساعة الجزاء .

ولو عقلوا لأدركوا أن الحياة الدنيا مهما طالت فإلى فناء ، وأن الآخرة خيرٌ وأبقى لمن اتقى وعمل .

(٣٣) « قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَـكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ »

(٣٤) « وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِـكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءكَ مِن نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ »

(٣٥) « وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقاً فِى الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِى السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَـكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ »

« ليحزنك الذين يقولون » . قيل : نزلت فى الحارث بن عامر بن نوفل . . كان يكذب النبى صلى الله عليه وسلم فى العلانية ، وإذا خلا مع أهل بيته قال : ما محمد من أهل الكذب ، وما أحسبه إلا صادقاً .

وقيل : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى جهل وأصحابه فقالوا : يا محمد إنّا والله ما نكذّبك . وإنك عندنا لصادقٌ ، ولكن نكذب ما جئت به . فنزلت « فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » .

ثم يواسى الله رسوله إذ يخبره بما عاناه رسل الله من قبل حتى آتاهم نصر الله الذى لا مبدل لكلماته إذ قال : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون » .

وإن كان كبر عليك إعراضهم وما زلت حريصاً على هدايتهم فافعل كل شيء حتى ماليس فى طاقتك فما أنت ببالغ من أمرهم إلا ما أردناه نحن لك ولهم ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين.

٣٦) « إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ »

٣٧) « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »

الأحياء هم الذين يسمعون ، ومن يسمع فيفقه يستجب وهؤلاء موتى ، والموتى يبعثهم الله . لا أنت ، فلا تأس على القوم الكافرين .

ولقد جاءتهم الآيات فما آمنوا ، وسألوا المزيد منها ، قل إن الله قادر على إنزال المزيد ، ولكن ما جدواه لقوم أكثرهم لايعلمون .

(٣٨) « وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ »

يقول القشيرى :

تساوت المخلوقات ، وتماثلت المصنوعات فى الحاجة إلى المنشىء فى حال الإبداع ثم فى حال البقاء فما من شيء من عين وأثر ، أو رسم وطلل ، إلا وهو على وحدانيته مشاهد .

(٣٩) « وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ »

تلك حال الكفار وكأنهم موتى وكما قال سبحانه للرسول فيهم : « « فإنك لاتُسمع الموتى ولا تُسمعُ الصُّمَّ الدعاء إذا ولَّوا مدبرين وما أنتَ بهادى العُمى عن ضلالتهم إن تُسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » .

(٤٠) « قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »

(٤١) « بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ »

إذا مسّكم ضرٌ أو نزل بكم أمر فمن ترجون كشفه ؟ أتدعون غيره ؟ أتجدون الغوث من سواه ؟ .

كلا : بل تنسون ما أشركتم به ولاتدعون غيره ، فإن شاء كشف الضر عنكم واستجاب لدعائكم .

(٤٢) « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ »

(٤٣) « فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُم الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

(٤٤) « فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُبْلِسُونَ »

(٤٥) « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »

هى سنة الله فى الأرض وسنته فى خلقه من أطاع فله النعمة ومن عصى حلت به النقمة . لعل يَذِلُّ ويخضع . ويفيق من غيّه إلى رشده .

ولو قد أفاق العصاة لما جاءهم بأسنا فتابوا وأنابوا لكان خيراً لهم ولكن قست قلوبهم . وغلبت عليهم أسباب شِقْوتهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون .

لما نسوا ما ذُكروا به استدرجهم ربهم ، فيسّر لهم نعمته ، وفتح أبوابها عليهم حتّى إذا فرحُوا بما أوتوا ، واستمكن الأمل من قلوبهم أخذهم سبحانه — بغتة فإذاهم مبلسون ، منقطعى الرجاء ضائعى الأمل .

فقطع دابر القوم الذين ظلموا فهل تحسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا .

(٤٦) « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُم يَصْدِفُونَ »

بيّن هنا غناه ، وحاجة الكل إليه وقدرته ، وعجز الجميع دونه ، فلو لم يدم عليهم نعمتى السمع والبصر ، ولو ختم على القلوب فصارت لا تعى ولا تفقه ؟ فمن غيره القادر على أن يردّ ما أخذ ، ألا يريدون أن يفقهوا ؟ أو بعد هذا يعرضون ؟ .

(٤٧) « قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ »

ماذا لو أنفذ سبحانه وعيـــده ؟ أيهلك غير ظالم ويجازى غير مستحق . حاشا لله فلن يهلك إلا القوم الظالمون .

(٤٨) « وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُم يَحْزَنُونَ »

(٤٩) « وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ »

لا نكلف العباد إلا بما فيه بشراهم ونجاتهم ، ثم نحذرهم وننذرهم أن يحيدوا فيهلكوا فمن آمن وأصلح وفيناه ، ما وعدناه به .

والذين كذبوا وكفروا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون .

(٥٠) « قُل لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ »

تؤكد الآية بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم وتؤكد فى الوقت نفسه رسالته فما عنده خزائن الله يتصرف فيها بالمنع والإعطاء ، ولا يعلم الغيب كما لا يعلمه الناس ، ولا يقول إنه ملك ، ولكنه رسول يتبع ما يُوحَى إليه وما عليه إلا البلاغ . وتلك مدعاة التفكير والتدبر أفلا تتفكرون .

(٥١) « وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ »

أنذر الذين يخافون لأنهم الذين يفيدهم الإنذار وينفعهم الخوف فيزدادون قرباً من ربهم ، وتقوى له

(٥٢) « وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ »

تختلف الروايات وتكثر حول السبب فى نزول هذه الآية ولكنها جميعاً تكاد تتفق على مضمون واحد يصوره ماروى عن خَبَّاب بن الأَرَتّ قال :

فينا نزلت ، كنّا ضعفاء عند النبي صلى الله عليه وسلم بالغداة والعشيّ ، فعلمنا القرآن والخير ، وكان يخوفنا بالجنة والنار بما ينفعنا . وبالموت والبعث .

فجاء الأقرع بن حابس التميمى ، وعيينة بن حصن الفزارى فقالا : إنا من أشراف قومنا ، وإنا نكره أن يرونا معهم فاطردهم إذا جلسناك .

قال : نعم . قالوا لانرضى حتى تكتب لنا كتاباً فأتى بأديم ودواة وهم أن يكتب فنزلت هذه الآية :

ومثله ماروى عن ابن مسعود قال :

مر الملأُ من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده خبّابُ بن الأرَت ، وصهيبٌ وبلالٌ وعمار فقالوا :

يا محمد : رضيتَ بهؤلاء ، وتريد أن تكون تبعاً لهم ؟ فأنزل الله هذه الآية .

وعن جعفر عن الربيع قال : كان رجالٌ يسبقون إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم بلال وصهيب وسلمان ، فيجيء أشراف قومه وسادتهم . وقد أخذ هؤلاء المجلس . فقالوا : صُهَيْبٌ رومىٌّ ، وسلمان فارسىٌّ ، وبلالٌ حبشىٌّ يجلسون عنده ونحن نجيء إليه ونجلس ناحيته ، وذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا :

إنا سادة قومك وأشرافهم ، فلو أدنيتنا منك إذا جئتنا ، فهمَّ أن يفعل فأنزل الله هذه الآية :

(٥٣) « وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ »

فتنَّا أشراف قريش بضعفائهم ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا !! كما قالوا بالنسبة للرسول من قبل « لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » إذهم يظنون أن المنزلة عند الله تقاس بالمنزلة فى الدنيا وماهى كذلك . أليس الله بأعلم بالشاكرين .

(٥٤) « وإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »

قال عِكْرِمةُ : نزلت فى الذين نهى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن طردهم ، فكان إذا رآهم بدأهم بالسَّلام وقال الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أبدأهم بالسلام .

وقوله « كتب ربكم على نفسه الرحمة » استكمالٌ تكريم هؤلاء المؤمنين بتبشيرهم بهذا الخير وكان فيه وعداً لهم بالرحمة والمغفرة .

(٥٥) « وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ »

تتضح حالهم لك يا محمد : فتعرف من طبع الله على قلبه ومن يرجى الخير فى هدايته ، فتعامل كلاً بما يصلح له .

(٥٦) « قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ »

كما كان يفرق الرسول صلى الله عليه وسلم بين طريقه وطريقهم « قل يأيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين » .

(٥٧) « قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ »

(٥٨) « قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ »

لا أعبد ما تعبدون لأنى على بينة من ربى ، أحسن معرفته وأقدر ربى حق قدره . أما أنتم فكذبتم وأصبحتم بالتكذيب أهلا لما تستعجلونه من العذاب وما هو بيدى بل بيده سبحانه ، ولو كان لقضى الأمر بيننا فأهلكتكم به ، والله أعلم بالظالمين .

(٥٩) « وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ »

سبحانه : المحيط علماً بكل شيء ، حتى بالورقة تسقطها الريح من فرعها ، وحتى بالحبة تخفى فى ظلمات الأرض . لا إله إلا هو . . سبحانه .

(٦٠) « وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ »

سبحانه : من أمركم بيده . يتوفاكم بالليل إذ أنتم نيام ، كما قال « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . ويعلم ما كسبتم فى النهار من آثام لا يؤاخذكم عليها لساعتها . ولكن يدعكم فيها أنتم حتى يقضى الأجل فيرجعكم إليه فيحاسبكم على ما كنتم تعملون .

(٦١) « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ »

(٦٢) « ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ »

سبحانه : هو الله الواحد القهار . فهو القاهر فوق عباده بالقدرة على أن ينزل بهم ما يشاء ويقضى فى أمرهم بما يشاء ، لا يبعدون عن قبضته ، ولا يغيبون عن سلطته ، حفظته يرقبونهم حتى إذا جاء أمره ردوهم إلى مولاهم ، وأعادوهم إلى صاحبهم لا إله إلا هو له الحكم وهو أسرع الحاسبين .

(٦٣) « قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ »

(٦٤) « قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ »

وفى محيط قهره وقدرته سلهم يامحمد مَنْ يدعونه فى الشدة ، ويتضرعون إلى رحابه فى المحنة غيره سبحانه ؟ فيستجيب برحمته فيكشف كربهم فإذا هم مشركون .

(٦٥) « قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ »

سبحانه : هو القادر على أن يمطركم العذاب من فوقكم كما أمطر قوم لوط ، أو يزلزلكم به من تحت أقدامكم كما خسف بقارون ، أو يلقى بينكم العداوة والبغضاء ويسلطكم على أنفسكم فيذيق بعضكم بأس بعض ، كل هذا بعض مافى قدرته ألا تريدون أن تفقهوا .

(٦٦) « وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ »

(٦٧) « لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ »

دعهم لنا يامحمد ، وحسبك أنْ بلّغت . « إنا إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم » .

(٦٨) « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »

إذا كان الفصل فى أمر هؤلاء الكفار إلى الله ، فاعرض عنهم إذا استهزءوا بآيات ربك ، وعليك أن تقاطعهم حتى يخوضوا فى حديث غيره .

(٦٩) « وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ »

لاتبعة فى الاستهزاء أصلا على المستهزئين من الكافرين ولا حساب على المؤمنين ممن يخالطونهم ، ولكن واجب للمؤمنين التذكير والاحتجاج والإعراض حتى يرعوى أولئك عن غيهم ، وليشعروا أن أصحاب الدين يدفعون عنه ويغارون عليه ، فلعل هذا يكون نافعاً لهم :

(٧٠) « وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ »

أترك يا محمد هؤلاء المستهزئين بالإسلام وشأنهم ، فقد أعتدنا لهم من عذابنا مالا يطيقونه ، وحسبك أن أن تذكرهم بأن ما يكسبونه من الآثام مهلكهم ، وأن لا شفيع ولا ولىّ لهم من دونه سبحانه ، وأنهم لا يملكون مافي الأرض ليفتدوا ما تقبّل منهم .

(٧١) « قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »

إذا كان سبحانه قد أمر نبيه فى الآية السابقة أن يدع الكفار لعدله سبحانه فإنه هنا يحدد طريق المؤمنين ويؤكد موقفهم من الكفر والكافرين ، موقف الثبات على الهدى ، ورفض كل إغراء أو إيذاء للعودة إلى طريق الضلال .

وكيف العودة إلى الضلال لمن ذاق الهدى ؟ وكيف يطيق الظلام من أشرق فى وجهه النور ؟ وهل يذهب إلى النار بقدميه من أحس برد الرضوان ، وتنسم ريح الجنة ؟ .

(٧٢) « وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ »

(٧٣) « وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ »

لكى يزداد المؤمنون ثباتاً على إيمانهم أمرهم سبحانه بإقامة الصلاة وبتقواه ، أى أمرهم بدوام الصلة به والاقتراب منه ، حتى لا يقوى الكفار على زعزعتهم عن الحق . وهل يشعر بالضعف من اتصل بخالق السموات والأرض . ومن له الملك ، ومن هو عالم الغيب والشهادة .

(٧٤) « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلاَلٍ مُبِينٍ »

(٧٥) « وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ »

(٧٦) « فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ »

(٧٧) « فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ »

(٧٨) « فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ »

(٧٩) « إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ »

تحكى هذه الآيات جميعاً بعض قصة إبراهيم عليه السلام . فى دعوته ، وهو وقفه فى محاجة أبيه وقومه فى أمر عبادة الأصنام .

فإن خليل الله عليه السلام ينكر على أبيه . والخلاف كثير حول اسم هذا الأب مما يتعذر معه القول بأنه آزر — ينكر خليل الله على أبيه عبادة الأصنام ويراها ضلالا مبينا .

ولكى يزداد قلبه يقيناً وطمأنينة ، أو بتعبير آخر لكى يلزم الخصوم من قومه الحجة نظر فى النجوم والكواكب التى كانوا يعبدونها كما يعبدون الأصنام ليستخرج منها لقومه الدليل على أنها مخلوق لا بد له من خالق ، وبذا ينتهى إلى مطلوبه وهو إثبات وجود ربٍّ لهذا الكون . غير ما يعبدون : سبحانه .

فلما أظلم عليه الليل رأى كوكباً ، قيل : الزهرة ، وقيل المشترى : فقال : ساخراً . هذا ربى ؟! أو قال حاكياً مزاعمهم — هذا ربى ، فلننظر بهذا الرب الذى تزعمون . أيدوم أم يتحول ؟ فلما أفل وغاب قال ، لا أحب الآفلين ولا أعبد هذا المتغير المتحول .

فلما رأى القمر — مبتدئا فى الطلوع — قال مقالته . فلما أفل وغاب قال : لا أعبده كذلك . وضالٌ من يعبده .

فلما رأى الشمس طالعة : قال هذا أكبرها فهل تظنونه المعبود ، لننظر كما نظرنا فى غيره . أيدوم أم يتحول ؟

فلما أفلت وغابت كانت ختام الأدلة على أن هذه الكواكب والنجوم جميعاً مخلوقات لابد لها من خالق ، والخالق هو الله ربى وإنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى خلق الكون كله بما فيه ومن فيه ، مسلماً له أمرى . وما أنا من المشركين .

(٨٠) « وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ وَقَدْ هَدَانِى وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئاً وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ »

وجادله قومه — عناداً وبغياً من بعد مارأوا . وخوفوه غضب معبوداتهم ، وكيف يخاف من اهتدى وآمن ؟ بل كيف يخاف من يقينه أن الضار والنافع هو الله وأن معبوداتهم لا تملك من أمرها شيئاً .

(٨١) « وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ »

وكيف أخافُ معبوداتكم وهى بعجزها لا تخيف ، ولا تخافون أنتم إشراككم بالله وكفركم به فأينا أمن على نفسه وأينا أجدر أن يخاف .

(٨٢) « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ »

هذا حكم الله بين إبراهيم وقومه أو بين المؤمنين حيث كانوا والمشركون أنى وجدوا .

(٨٣) « وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ »

الإشارة فى قوله « تلك » مراد بها ماسبق فى محاجة إبراهيم قومه ، وتعقب الآية على هذه المحاجة ببيان الفارق بين موقف إبراهيم وفيه الحكمة والعلم والمنطق والعقل وموقف الآخرين وفيه العناد والتقليد ، والجهل .

(٨٤) « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ »

(٨٥) « وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ »

(٨٦) « وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ »

(٨٧) « وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ »

(٨٨) « ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

(٨٩) « أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ »

(٩٠) « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ »

عددت الأنبياء أسماء سبعة عشر نبياً ورسولا من ذرية إبراهيم أو من ذرية نوح وبينت فضلهم على العالمين ومكانتهم عند الله .

كما قررت أن من ذرية هؤلاء ومن آبائهم وإخوانهم كثيرون لم يذكروا ممن شملهم فضل الله فكانوا من عباد الصالحين الأخيار .

وبعد هذا البيان اتجه الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وسلم . أن يكفر قومك بدينك وينكروا رسالتك فلقد آمن هؤلاء جميعاً وأسلموا لربهم .

أولئك الذين هدى الله ، فطهر من الشرك والكفران قلوبهم ، واقتف — يا محمد — آثارهم ، واسلك سبيلهم الذى سلكت ، ولا تأس على القوم الكافرين .

(٩١) « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ »

روى عن ابن عباس فى سبب نزولها : أن اليهود سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم : هل أنزل الله عليك كتاباً ؟ قال : نعم .

قالوا : والله ما أنزل الله على بشر من شىء فنزل قول سبحانه : وقل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس .

وقال محمد بن كعب القرظى :

أمر الله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يسأل أهل الكتاب عن أمره — أى أمر محمد صلى الله عليه وسلم — وكيف يجدونه فى كتبهم ، فحملهم حسدهم وحقدهم عليه أن يكفروا بكتاب ورسوله وقالوا : ما أنزل الله على بشر من شىء . . . كى لا يعترفوا بما جاء فى التوراة من ذكر النبى فأنزل الله هذه الآية :

(٩٢) « وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ »

والكتاب هو القرآن أنزلناه لإثبات ما أنكروا ثم لتصديق ماسبقه من كتب ولإنذار أهل مكة ومن حولها ، والذين يؤمنون بالآخرة لا ينكرونه كما أنكر اليهود من قبل أن الله أنزل كتباً .

(٩٣) « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ »

ذكر الواحدى فى أسباب النزول برواية الكلبى عن ابن عباس رضى الله عنه قال :

نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سرح كان قد تكلم بالإسلام فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ليكتب له شيئاً ، فلما نزلت الآية التى فى المؤمنين :

ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » أملاها النبى صلى الله عليه وسلم عليه ، فلما انتهى إلى قوله « ثم أنشأناه خلقاً آخر عجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان وقال: « تبارك الله أحسن الخالقين » . . . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم هكذا أنزلت علىّ

قالوا فشك عبد الله حينئذ وقال : لئن كان محمدٌ صادقاً فلقد أوحى إلىّ كما أوحى إليه ، ولئن كان كاذباً لقد قلتُ كما قال ، وذلك قوله تعالى « ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله . وارتد — والعياذ بالله — عن الله .

ويؤكدها ابن إسحاق فيقول . نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سرح قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ، وارتد عن الإسلام ، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أتى به عثمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأمنَ له .

ويتأولها النَسَفِى فى تفسيره فيقول» :

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً، هو مالك بن الصيف .، «أو قال أوحى إلىّ ولم يُوحَ إليه شىء» هو « مُسَيلمة الكذاب » ومن قال « سأنزل مثل ما أنزل الله » هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح . . . أو هو النضر بن الحارث كان يقول : « والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً » .

ومهما يكن الخلاف حول من نزلت فيه الآيات ففيها إنذار ، وتهديدٌ لأولئك الظلمة المفترين على الله من اليهود كانوا ، أم من مدعى النبوة بسوء المنقلب ، وعسر الحال عند خروج الروح . . . فلو تراهم ـ يا محمد ـ وهم فى سكرات الموت وشدائده . ورأيت ملائكة الموت باسطى أيديهم إليهم يقولون هاتوا أرواحكم ، وأخرجوها من أجسادكم إلينا ، لا يمهلونهم ، ولا يرفقون بهم ، بل يجرعونهم غصص العذاب ، ويجزونهم ـ بأمره سبحانه ـ عذاب الهون بما كانوا يقولون على الله غير الحق وبما كانوا يستكبرون .

(٩٤) « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاؤُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ »

ها أنتم أولاء اليوم فرادى بين أيدينا كما خلقناكم أول مرة ، لا من حميم ولا شفيع يطاع ، ولا شريك

ممن زعمتم — فى الدنيا — يدرأ عذابنا عنكم ، أو يحميكم من بأسنا ، فما أخسركم ، لقد تقطّع فيكم ، وضل عنكم ما كنتم تزعمون .

(٩٥) « إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ »

فى هذه الآيات الخمس يتحدث القرآن عن جوانب من آثار قدرة المولى سبحانه يحرك بها النظر إلى الإيمان به وإخلاص العبادة له .

ففى هذه الآية يقرر أنه سبحانه فالق الحبّ والنّوى ، ومفجّر الحياة فيه بعد ما جَمَد وهمَد ، فإذا هو نباتٌ حىٌّ وزرع وثمر ، سبحانه يخرج الحىّ من الميت ، ويعدُّ له حتى يستوى على سُوقه ، ثم يهيج فتراه مصفرًّا ، ثم يكون حطاماً فإذا الحىُّ بأمره ميتٌ ذلكم الله فأنى تؤفكون .

(٩٦) « فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ »

فالقُ الإصْباح بعد ليلٍ لا يكاد الناس يستيقنون أيرون إصباحه أم لا ، فإذا هو سبحانه يملِكُ سرّهُ ويُحكِمُ أمرَه ، فيجعل الليل لعباده لباساً وسكنا ، ويجعل الشمس والقمر لعباده منفعة تبقى ما بقى الكون ، وحسبانا يتصل باتصال الحياة ، ذلك تقديرُ العزيز الذى سخر الليل والنهار والشمس والقمر فلا يختل لها نظام ولا يضطرب لها سير .

(٩٧) « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »

وفى قوله سبحانه هنا « جعل لكم النجوم » إظهارٌ لسلطانه فى كوْنِه ، وبيانٌ لفضله على عباده فتلك النجوم التى لا يدركها الحصر ولا يحيط بها البصر سخرها سبحانه ليهتدى بها الإنسان فى ظلمات البر والبحر ، وجعلها بعض آياته وبعض آثار قدرته ، دليل هداية وتوحيد لقوم يعلمون .

(٩٨) « وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ »

وهو — سبحانه — الذى أنشأكم من نَفْس واحدة ، من آدم عليه السلام فلكم مستقرٌّ فى أصلاب الآباء ومستودَعٌ فى أرحام الأمّهات ، وقيل مستقرٌّ فى الأرض ، ومستودعٌ فى جوفها ، وما أعظم تلخيص

القرآن العظيم لرحلة الحياة كلها فيا بين اللفظتين : مستقر ومستودع ، أليست هذه آية ؟ قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون .

(٩٩) « وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »

وهو — سبحانه — الذى أنزل من السماء ماء ، فأخرج به نباتَ كلِّ شيء ، فالسبب واحدٌ والنتائج شيء كما قال سبحانه « . . . وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربتْ وأنبتت من كلِّ زوج بهيج » .

إنه بعض آثار قدرته سبحانه أن يستحيل الماء السائل « خضراً نخرج منه حبّاً متراكباً ومنَ النّخل من طلعها قِنْوانٌ دانيةٌ تنحنى من ثقل ما تحمل ، وجناتٌ من أعناب ، والزيتون والرمّان مشتبها فى القدر أو اللون وغير متشابه فيه . . كل هذا من الماء الذى أودعت فيه القدرة ما ندرك أثره ولا نعرفُ سرَّه ، وإذا هو فى البداية شىء ، وعند النهاية شىء ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون .

(١٠٠) « وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ »

ومع كل ما بيّنّا من الآيات لم يؤمنوا فجعلوا لديهم شركاء من الجن الذين هم بعض خلقه ، ثم افتروا الكذب «وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل عبادٌ مكرمون» «وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله » « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » .

(١٠١) « بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » .

وكيف يكون له ، ولم تكن له صاحبة ؟ بل كيف يصطفى بعضهم وكلهم خلقه وهو بهم عالم ومن شأن الخالق الغِنَى عن المخلوق .

(١٠٢) « ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ »

إذا كانت الآيات التى وجه القرآن الأنظار للاعتبار بها لم تنفع القلوبَ الغُلْفَ ولا العيون العمى ، فليسمع الكل وليعلموا أنه ربهم أقرُّوا أم أنكروا ، وأنه خالق كل شيء آمنوا أم كفروا ، ومن كانت هذه صفاته فهو الحقيق بأن يُعبد فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل .

(١٠٣) « لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ »

إذا كان النظر فى المخلوقات لم يهدكم إلى الخالق ، وطمحت أوهامكم إلى رؤيته وإدراك ذاته فاستيقنوا بالعجز فإنه « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » .

(١٠٤) « قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ »

قد أنزل الله إليكم وحياً كأنه للقلوب نور تستبصر به ، فمن أبصر الحق وآمن بالله فلنفسه ومن عمى فعليها ، وما أنا إلا منذرٌ ولست عليكم بحفيظ .

(١٠٥) « وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »

(١٠٦) « اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ »

(١٠٧) « وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ »

وكذلك نصرف الآيات ونفصلها ليهتدى بها من وُفِّقَ ، وليضل بها من ألمَّتْ به الفتنة وليقولوا درست الكتب السابقة ، وليتضح المجهول لقوم يعلمون فيؤمنوا .

يا محمد : اتبع ما أوحى إليك من ربك ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك .

ولا يحزنك كفرهم فلست عليهم بمسيطر وما جعلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ .

(١٠٨) « وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُم فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

كان المسلمون يسبُّون آلهة الكفَّار فنهوا عن ذلك فى هذه الآية حتى لا يردّ الكفار عليهم بسب المولى سبحانه ، ولا يرد عتيكم تحمسهم لآلهتهم ودفاعهم عنهم فقد زينا لكل أمة عملهم ، ثم إلى الله مرجعهم ليجازَوْا بما عملوا .

(١٠٩) « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ »

لم يقتنع المشركون بما ساقه الله إليهم من الآيات فسألوا آيات يريدونها ، كما سئل عيسى عليه السلام المائدة ، وكما سئل موسى رؤية الله جهرة . . . ثم أقسموا إذا جاءتهم هذه الآيات ليؤمنن ، وطمع المؤمنون فى إيمان هؤلاء وتمنوا مجيء الآيات فقرر القرآن أن الآيات كثيرة ، وأن عدم نزولها ليس عجزاً ، ولكن لما سبق فى علمه سبحانه من أنها حتى إذا جاءت فإنهم لا يؤمنون .

ويروى فى سبب نزولها أن قريشاً كلمت رسول الله فقالوا : يا محمد تخبرنا أن موسى عليه السلام كانت معه عصا ضرب بها الحجر فانفجرت منه إثنتا عشرة عينا ، وأن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى ، وأن ثمود كانت لهم ناقة فأتنا ببعض تلك الآيات حتى نصدقك .

فقال صلى الله عليه وسلم : أى شيء تحبون أن آتيكم به . فقالوا تجعل لنا الصفا ذهبا . قال : فإن فعلتُ تصدقونى ؟ قالوا : نعم والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعين . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فجاءه جبريل عليه السلام وقال : إن شئت أصبح الصفا ذهبا ، ولكنى لم أرسل بآية فلم يُصَدَّق بها إلا أنزل العذاب فإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم . فقال الرسول : إتركهم حتى يتوب تائبهم . فنزلت هذه الآية :

(١١٠) « وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ »

لأنه سبحانه يقلب قلوبهم عن الحق فلا تدركه ، ويقلب أبصارهم عن الصراط السوى فلا تراه ويكون حالهم كما حدث منهم إذ لم يؤمنوا حين دعوا إلى الإيمان أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم ضالين يتخبطون .

(١١١) « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ »

ومن ثم فحتى لو نزلنا إليهم الملائكة ، وحتى لو جعلنا الموتى تكلمهم ، وجمعنا بين أيديهم كل شيء يشهد بصدق ما أنزلنا . . فإنهم بعد هذا كله لن يؤمنوا . إن شاء الله ولكن أكثرهم يجهلون .

١١٢) « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ »

قضت حكمته سبحانه أن يكون لكل نبيٍّ عدوٌّ لما فى هذا الابتلاء من إظهار الصبر والاحتمال عند النبى وتمييز المؤمنين وتمحيص إيمانهم .

وفى قوله : شياطين الإنس والجن دليل على أن عنصر الشر موجود بين الفريقين « يوحى بعضهم إلى بعض » بما يصدون به عن سبيل الله . ولقد قيل إن شيطان الجن أخف شراً وأهون خطراً من شياطين الإنس كما قال مالك بن دينار « لأنى إذا تعوّذت بالله من شيطان الجن ذهب عنى ، أما شيطان الإنس فيأتينى ليجرنى إلى المعاصى » . ولعل هذا مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم : قرناء السوء شر من شياطين الجن » .

« ولو شاء ربك ما فعلوه » ولكنه سبحانه — تركهم لامتحان عباده ، وإنفاذ مراده .

(١١٣) « وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَاهُمْ مُقْتَرِفُونَ »

ومن حكمته فى الإبقاء على شياطين الجن والإنس أن تصغى إلى زخرف غرورهم قلوب الذين كفروا فيزدادون مقارفة للإثم . وإغراقاً فى الخطيئة فتحق عليهم كلمة العذاب .

(١١٤) « أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ »

قل لهم يا محمد : أأطلب غير الله حكماً بينى وبينكم يشهد بصدق ما نُزِّل علىَّ وهو سبحانه الذى أنزله ، بل إن هؤلاء الذين أوتوا الكتاب من قبل من اليهود والنصارى أو ممن نزلت فيهم الآية كعبد الله بن سلام وأصحابه يعلمون يقيناً أنه من عند الله — كما أعلم .

(١١٥) « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »

تمت كلمات الله فلا تُبدل ولاتتغير ، فما وعد به فهو الصدق لامرية فيه ، وما أَوْعَدَ به فهـو الحق لاظلم فيه ، وهو السميع لما يقولون ، العليم بما يخفون وبما كانوا يكتمون .

(١١٦) « وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ »

اليقين الأكمل ماياتى من عند الله فلا تطع أكثر من فى الأرض واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فليس لديهم من الحقيقة شىء ، ومالهم بهـا من علم إن يتبعون إلا الظن وسُنن الآباء ولو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولايهتدون .

(١١٧) « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ »

سبحانه هو وحده العالم بالضال والمهتدى . فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .

(١١٨) « فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ »

ولا تأكلوا مما لم يُذكر اسم الله عليه وإنه لفسقٌ . ووجوب الذكر هنا مرادٌ به أن يظل المؤمن موصولا بربه فى كل شىء وكل عمل حتى حين يأكل أو يشرب .

(١١٩) « وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ »

وكيف لا تأكلون مما ذكر اسم الله عليه وهو سبحانه قد فصّل لكم ما حُرِّم حين قال « حرمت عليكم الميتة والدم . . الآية » إلا ما اضطررتم اليه حين قال : « فمن اضطُرّ فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفورٌ رحيم » .

هذا حكم الله لا يتبدل ولا يتغير ، وما أكثر المضلين الذين يُحلّون ويحرمون تبعاً لأهوائهم وبلا هدى من الله .

(١٢٠) « وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ »

نبهت الآيات السابقة إلى الحلال والحرام مما يأكل الإنسان ، وتأمر هذه الآية بوجوب الخلاص من الإثم ظاهره وباطنه ، ما يعرفه الناس وما يخفى عنهم ، ومن لم يتركوا الآثام سيجزون بما اقترفوا .

ولقد سبق البيان بأن من فضل الله على عباده . أنه سبحانه لا يحاسب الناس على الشر يفكرون فيه ما لم ينفذوه فإذا أنفذوه كتبت عليهم سيئة .

(١٢١) « وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ »

نهى قاطع بعدم الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه واعتبار الأكل منه فسقاً وخروجاً على الدين .

وفى قوله « إنّ الشياطين ليوحُون إلى أوليائهم ليجادلوكم » روى الوحدىُّ عن عكرمة قال : إن المجوس من أهل فارس لما أنزل الله تعالى تحريم الميتة كتبوا إلى مشركى قريش أن محمداً وأصحابه يزعمون

أنهم يتبعون أمر الله ، ثم يزعمون : أن ماذبحوا فهو حلال ، وما ذَبَحَ الله فهو حرام ، فوقع فى نفوس بعض المسلمين منه شيء فنزلت الآية :

(١٢٢) « أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

رَمى أبو جهل بن هشام رسول الله صلى الله عليه وسلم بفرثِ بهيمة وكان حمزة بن عبد المطلب لم يؤمن بعد ، فأخبر بذلك وهو عائد من صيده وقوسه فى يده فقصد أبا جهل ووقف على رأسه حتى علاهُ بقوسه يخاصمه فى ذلك . فقال أبا جهل متضرعاً :

يا أبا يعلى : أما ترى . لقدست آلهتنا وسفّه أحلامَنا ، قال حمزة : ومَن أسفه منكم تعبدون الأحجار من دون الله . أشهد أن لا إله إلا الله لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله فنزلت الآية : فمن كان ميتاً فى الكفر فأحياه الله بالإيمان هو حمزة ، ومن بقى فى الظلمات لايخرج منها هو أبوجهل .

(١٢٣) « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ »

(١٢٤) « وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ »

تعقيب وبيان على ماسبق فمن سنته سبحانه أن يكون فى مكة هؤلاء الأكابر الذين ألهتهم أموالهم وأعمتهم الأحساب والعصبية عن دعاة الحق ففعلوا مافعل أبو جهل ، ولكنهم لن يضروا الحق شيئاً وما يمكرون إلا بأنفسهم ومايشعرون .

هؤلاء الأكابر المجرمون يقيسون شريعة الله ونواميسه فى الكون بمقاييسهم فى القبائل فإذا بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم برسالته قال أبوجهل بن هشام : زاحمنا بنى عبد مناف فى الشرف حتى إذا كنا كفرسَىْ رهان قالوا : منا نبى يُوحَى إليه فو الله لانرضى به حتى يأتينا وحىٌ كما يأتيه تنزيل .

أنها شريعة الله وليست عصبيات قبائل والله أعلم حيث يجعل رسالته .

(١٢٥) « فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ »

(١٢٦) « وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ »
(١٢٧) « لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

من الله الهداية . فمن يرد أن يهديه يشرح صدره ، وييسر أمره ، ويجعل فى قلبه نوراً ، وفى عينه نورا . ومن يرد أن يضله — أعاذنا الله — يُغلق الله طريق الخير فى وجهه ، ويجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصَّعَّد فى السماء ، وهكذا يجعل الله الضلال على الذين لا يؤمنون يشقون به فى الدنيا ويعذبون به فى الآخرة .

إن طريق الله واضح ، ومستقيم ، وعلاماته بينة لقوم يتذكرون ، فيؤمنون .

أولئك لهم دار السلام وسميت الجنة بذلك لأن تحية أهلها السلام كما قال سبحانه : « دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام » وكما قال « لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما * إلا قيلاً سلاماً سلاماً » وقوله « ويلقون فيها تحية وسلاما » . طوبى لهم فهو وليهم بما كانو يعملون .

(١٢٨) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ »
(١٢٩) « وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »

هؤلاء الغافلون الضالون سيحشرهم سبحانه جميعاً إليه فيسأل للضالين منهم يا معشر الجنة قد استكثرتم من الإنس ، أغويتموهم فأطاعوكم . فيقول الضالون من الإنس معترفين ضارعين ربنا استمتع بعضنا ببعض . يسّروا لنا طريق الغواية وشهوات الدنيا وأغرونا بها فغررنا ، وهذا أجلنا ، أفلا ترحمنا ؟ قال سبحانه : النار مثواكم ومستقركم وكما قال سبحانه « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون .

(١٣٠) « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ »
(١٣١) « ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ »

قيل : إن الله بعث إلى الجن رسلا منهم خاصة لأنهم أعرف بهم وأقرب إليهم . وقيل : الرسل من

الإنس خاصة ومهما يكن فى الآيتين تأكيد لما قرره القرآن ويقرره من أن إرسال الرسل ينفى حجة المحتجين ويزيل عنه للمتعذرين وكما قال سبحانه « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ذلك أن العدل من صفاته سبحانه . وليس من العدل أن يهلك الناس ويعذبهم وهم غافلون لم يطلب إليهم توحيده ، ولا عرفوا مراده .

(١٣٢) « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ »

أوضح ما يفسرها هو قوله سبحانه « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

(١٣٣) « وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ »

(١٣٤) « إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ »

سبحانه : ليس بحاجة إلى ما يكلفكم به من طاعة ، ولن تضروه شيئاً إن كنتم جميعاً عصاة ، فهو سبحانه القادر على أن يذهب ويستخلف من بعدكم مايشاء فمن عمل صالحاً فلنفسه ، ومن عَمِيَ فعليها .

وإن ماتوا عدونه من عقاب لا يمكن النجاة منه وما أنتم بمعجزين فى الأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير .

(١٣٥) « قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ »

قل لهم يا محمد . قد بينت لكم الحق من الباطل والهدى من الضلال فاختاروا لأنفسكم ؛ وليسلك كلٌ ما يرتضيه فاعملوا بكفركم وأقيموا عليه إن شئتم . فإنى عامل على الإسلام لربى وتوحيده ، وسوف تعلمون يوم القيامة من يأتيه عذاب يخزيه ومن تكون له عاقبة الدار .

(١٣٦) « وجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ »

رُوِى أن المشركين كانوا يعينون أشياء من نتاج أنعامهم ومن بعض ما يكسبونه لله ، وأشياء منها لآلهتهم فإذا رأوا ما جعلوه لله نامياً رجعوا فيه وجعلوه للأصنام .

وإذا كان ما جعلوه للأصنام هو النامى تركوه لهـا ، وقالوا إن الله غنى فنزلت فيهم الآية تعيب ما يعملون وتعجب من ظلمهم أن يكون سبحانه ـ هو الخالق الذى « ذرأ » وأوجد ، ثم يكون نصيبه عندهم دون ما يجعلون للأصنام ألا ساء ما يحكمون :

(١٣٧) « وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ »

وكما زين لهم الشيطان أعمالهم فى تجزئة المال زين لهم شركاؤهم كذلك قتل أولادهم ليهلكوهم ، وليلبسوا عليهم الحق بالباطل فى أمر دينهم .

ولو شاء الله أن يهديهم لهداهم فدعهم فى ضلالهم وذرهم وما يفترون من الباطل والأكاذيب .

(١٣٨) « وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ »

يفسر هذه الآية قوله سبحانه . ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون . وقد مضى تفسيرها فى سورة المائدة .

(١٣٩) « وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ »

ومما أنكره القرآن ونهى عنه من سيء عاداتهم تمييزهم الذى لا معنى له بين الذكر والأنثى حيث لا يقبل التمييز ، فقد كانوا إذا ولدت أنعامهم نتاجاً حياً خصوا به الذكور لا يشركهم الإناث فيه ، وإن كان ميتة أشركوهم : سيجزيهم الله على ذلك إنه حكيم عليم .

(١٤٠) « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ »

فى الآية تعقيب وبيان لحكم الله سبحانه فيمن سبق فى الآيات ذكرهم وهم الذين قتلوا أولادهم — خشية الفقر — سفهاً منهم وبأساً مما عند الله : ثم الذين حرموا ما رزقهم الله من الأنعام وقالوا ممن للأصنام لا تركب ولا يستباح . فعلوا ذلك افتراء على الله . وسلوكا لا معنى له ولا فائدة فيه قد ضلوا وما كانوا مهتدين .

(١٤١) « وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ »

من فضله سبحانه على عباده ، ومن بعض آثار قدرته أنه الذى أنشأ للإنسان فى الأرض جنات معروشات أى ذات عروش تنتصب من فوقها ، وغير معروشات ، وأنشأ النخل « باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد » .

والزيتون والرمان . وغيرها مما أفاد به على الإنسان .

وتنص الآية على إيتاء حقه — وهو الزكاة الواجبة فيه — يوم حصاده ، دون إسراف يضر بالعيال ، وتضطرب له الحال ، ويحتج أبو حنيفة رحمه الله بقوله « وأتوا حقه بعضه بعضاً » على تعميم العُشر فى كل ما ينتج من الأرض دون تفريق »

(١٤٢) « وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ »

كما أنشأ سبحانه لنا الجنات فى الأرض خلق لنا الأنعام تحملنا « ونتخذ من جلودها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً وفرشاً ، وكما قال سبحانه . « وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس »

كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، وشكر للنعم أن تطيعوه ولا تتبعوا خطوات الشيطان عدوكم وعدوه .

(١٤٣) « ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »

(١٤٤) « وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ »

فصل سبحانه فى هاتين الآيتين بعض ما أحله لنا ، وعدت الآيتان أزواجاً ثمانية من أربعة أصناف هى الضأن ، والمعز ، والإبل والبقر . من كل صنف زوجان الذكر والأنثى . وقد كانوا فى جاهليتهم يحرمون ذكورها تارة وإناثها تارة أخرى ، ونتاجها فى بعض الأحيان ، فنهت الآيات عن ذلك وعجبت لما افتروه وتساءلت من أين لهم ما يزعمون من تحريم ؟ وقررت أن هذا كله ضلال ويجب الإمتناع عنه

(١٤٥) « قُل لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

قل لهم يامحمد : إن المحرَّم الذى نهى الله عنه وأنزل فى الكتاب تحريمه ، هو الميتة والدم ، ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وقد سبقت الآية الصريحة ، بذلك فى سورة المائدة .

« حُرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به .. الآية » وهذا التحريم قطعى لا يتجاوز فيه إلا عند الضرورة القاهرة دون عدوان أو بغى ،

(١٤٦) « وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ »

أما اليهود فقد حرم الله عليهم كل ماله أظفار من دابة أو طائر أو غيرها ، كما حرّم عليهم شحوم البقر والغنم باستثناء شحوم الظهر . وباستثناء الحوايا والأمعاء ، وكذلك ما اختلط من الشحوم بعظم كمخ السوق وكألية الضأن ، وقد كان هذا التحريم جزاء لهم على ما اقترفوا من خطايا كما قال سبحانه :

« فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم . . . الآيات .

(١٤٧) « فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ »

هذا حكم الله بالحرام والحلال ، فإن كذبوك يامحمد فيما أخبرتهم عنهم فقل ربكم يمهل ولا يهمل ، يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ربكم ، ورحمة الله واسعة . ولا يردُّ بأسه عن القوم المجرمين » .

(١٤٨) « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ »

يحاول المشركون أن يلقوا تبعة شركهم وتحريمهم الحلال على مشيئة الله فيقولون لو شاء الله ما أشركنا .» وقد أخبر الله نبيه بما سوف يقولونه ، وأمرهُ سبحانه أن يردّ عليهم بقوله « قل هل عندكم من علم » ودليل على صدق ما تزعمون فتبرزوه لنا . ثم يعقب سبحانه بقوله :

لا علم لديكم ، ولا دليل عندكم « إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون » .

(١٤٩) « قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ »

قل : فلله الحجة البالغة ، إذا ثبت لكم سبحانه بما لا يقبل الشك أنه الخالق الواحد وأرسل لكم الرسل وأنزل إليكم الكتب ، وبين لكم الآيات ، وأيد الرسل بالمعجزات فلا عليكم بعدُ إلا أن تطيعوا ، ولا حجة لكم بعدُ إن خالفتم عن أمره .

(١٥١) « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »

(١٥٢) « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »

(١٥٣) « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »

ذكر ابن المبارك أن ربيع بن خُثَيْم قال لجليسه : أيسرك أن تؤتى بصحيفة من النبي صلى الله عليه وسلم لم يُفَضَّ خاتمها ؟ قال : نعم . قال فاقرأ : « قلْ تعالوْ أتلُ ماحرم ربكم عليكم .. إلى آخر الآيات الثلاث .

وقوله « ولاتقتلوا أولادكم من إملاق » يعنى لاتئدوا بناتكم خشية الفقر فإنى رازقهم وإياكم .

ويقول القرطبي : إن من يقولون بمنع العزل عن المرأة قد يستدلون بهذه الآية لأن الوأد يرفع الوجود والنسل ، والعزل منع أصل النفس فتشابها ، إلى أن قتل النفس أعظم وزراً وأقبح فعلا .

وقوله : ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن ، المراد بالظاهر جميع المعاطى ، وبالباطن ما ران على القلوب من الإثم .

وينهى سبحانه فى قوله « ولاتقتلوا النفس » عن قتل النفس المحرمة وفى معناه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عَصَمَ منى ماله ونفسه إلابحقه وحسابهم على الله » . وقوله « لايحل دمُ امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارقة للجماعة » .

والتوصية باليتيم هنا فى قوله « ولاتقربوا مال اليتيم . . » توصية عامة غير مقيدة ، وقد سبق فى سورة النساء بيان ما ينبغى فى معاملته فى قوله « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح . . . الآية » .

وفى الآية كذلك . أمر بتوفية الكيل والميزان ، ونظيره قوله سبحانه « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تُخْسِرُوا الميزان . ويُسْتَفادُ من هنا ضرورة الحرص على العدل فى المعاملات التجارية وإعطاء الحق صاحبه ، والاحتراز عن كل كسب حرام فى أى شكل كان .

« وإذا قلتم فاعدلوا » سبق نظيره فى قوله سبحانه « ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

« وبعهد الله أوفوا » .

نظيره : « بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين » وقوله : وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » وقوله « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » وفى إضافة العهد إليه سبحانه وتسميته عهد الله تقديس للعهد ، وتأكيد لاحترامه ، إعتبار للتعاهد كأنه يعاهد المولى سبحانه ومن أوفى بعهده من الله .

أما قوله سبحانه « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه » فهو الختام الجامع لأمهات الخير والحق يفسرها قوله صلى الله عليه وسلم : « ما أمرتكم به فخذوه ، وما نهيتكم عنه فانتهوا » وقوله فيما رواه العرباض ابن سارية :

« قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغُ عنها بعدى إلا هالكٌ ، منْ يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بما عرفتم من سنّتى وسنة الخلفاء الراشدين ، المهديين من بعدى ، عضُّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم والأمور المحدثات فإن كلّ بدعة ضلالةٌ ، وعليكم بالطاعة . وإنْ عبداً حبشياً ، فإنما المؤمن كالجمل الأنف إذا قيدَ إنقاد » .

(١٥٨) « هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ »

هؤلاء الذين أرسل الله إليهم رسله ، وبين لهم آياته وألزمهم حجته ماذا ينتظرون ؟!

أينتظرون العلامات الدالة على قيام الساعة كأن تطلع الشمس من مغربها ، لو قد حدث هذا فلا أمل ولا مجال للعمل . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن

آمنت من قبلُ أو كسبت فى إيمانها خيراً . طلوع الشمس من مغربها ، والدَّجال ، ودابةُ الأرض » .

إن كنتم تنتظرون هذافانتظروا إنا معكم منتظرون ما يكون لكم من العذاب ،

(١٥٩) « إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ »

قيل : هم المشركون ، بعضهم عبد الأصنام ، وبعضهم عبد الملائكة ، وبعض عَبَد الجن .

وقيل : هى عامة فى جميع الكفار ، وفى كل من ابتدع وجاء فى دينه بما لم يأمر الله به .

ورُوى فيها عن أبى هريرة : أن المراد هم أهل البدع وأهل الضلالات والشبهات من هذه الأمة .

ورُوِى قول الرسول صلى الله عليه وسلم لعائشة :

« إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً هم إنما أصحاب البدع ، وأصحاب الأهواء ، وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ياعائشة إن لكل صاحب ذنب توبة غير أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة وأنا برىء منهم ، وهم منا براء » .

(١٦١) قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ »

(١٦٢) « قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »

(١٦٣) « لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ »

هنالك حيث تتصرف الأهواء ، وتضطرب المنازع والآراء قل لهم يا محمد إن الله هدانى إلى الدين المستقيم ، دين إبراهيم ، دين التوحيد ونفى الشرك وإسلام القياد له سبحانه .

قل لهم يامحمد : إن صلاتى فى النهار والليل ، وفى الأعياد والجمع ، وما أقدمه لله من نسك وقربات كله لله ربِّ العالمين وربى إليه محياى ومماتى ، وبيده يسرى وعسرى ، وأنا عبده وهو مولاى ، لاشريك له ، وبذلك أمرتُ وأنا أول المسلمين .

روى مسلم فى صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام إلى الصلاة قال :

« وجهتُ وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين . إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين .

« اللهم أنت الملكُ لا إله إلا أنت ، أنت ربى وأنا عبدك ، ظلمت نفسى واعترفت بذنبى فاغفرلى

ذنوبي جميعاً إنه لايغفر الذنوب إلا أنت ، واهدني لأحسن الأخلاق لايهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت ، لبيك وسَعْدَيْك والخير كله بين يديك ، والشر ليس إليك ، تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوبُ إليك » .

(١٦٥) « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ »

سبحانه جعل الإنسان في كل جيل خلفاً لمن سبقوه من الأمم والقرون ، والإنسان حيث كان قد استخلفه الله في الأرض واستعمره فيها لينهض بالدور الذي أراده له الله وقدره .

وقد رفع الله بعض خلقه فوق بعضهم درجات يختلفون فيها في العلم ، وفي الجسم ، وفي الرزق ، وفي القوة ، وفي الخلق ، وكل ماشاء الله أن يختلفوا فيه .

وحكمة هذا الاختلاف — وهو سبحانه الأعلم — أن تتعادل هذه الأنواع ويكتمل بعضها ببعض ، فيجد الضعيف عند القوى حاجة ، كما يجد القوى عند الضعيف حاجة مثلها ، فيتبادلان فيتعاونان فتسير الحياة . ويجد الجاهل عند العالم حاجة ، كما يجد العالم عند الجاهل حاجة فيتبادلان فيتعاونان فتسير الحياة . . وهكذا بين الفقير والغنى ، وبين القادر والعاجز ، وبين من أوتى عقلا ومن رزق عضلا . كلٌ له في الحياة منفعة ، وكل لدى عند الآخر حاجة وللآخر عنده حاجة . . . وإذا اختلفت درجات الناس لتسير الحياة فأقدارهم عند الله كآدميين واحدة « كلهم لآدم وآدم من تراب » لايفرق بينهم الفقر أو الغنى ، ولا العلم أو الجهل ، ولا الضعف أو القوة ، وإنما يفرق بينهم مقدار ماحصلت قلوبهم من التقوى ، وما استطاعوا تقديمه من صالح العمل .

ولذا قال سبحانه وقوله الحق « ليبلوكم فيما آتاكم » جعل من اختلافكم سبيلا إلى اختباركم فيجازى المسيء بالعقوبة ، ويجازي المحسن بالغفران والرحمة ـــ سبحانه .

تفسير سورة الأعراف

(١) « المص »

تقدم القول فيه فى أول البقرة .

(٢) « كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ »

فلا يكن فى صدرك حرجٌ منه : لا يكن فيه ضيق من تكذيب المكذبين له أخذاً من قوله سبحانه « لعلك باخعٌ نفسك ألاّ يكونوا مؤمنين » وقوله « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات» وقوله « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » ولذلك امتنّ سبحانه على النبى فقال له : « ألم نشرح لك صدرك » .

(٨) « وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »

(٩) « وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ »

قال القشيرى : يزنُ أعمالهم بميزان الإخلاص ، ويزن أحوالهم بميزان الصدق، فمن كانت أعمالهم بالرّياء مصحوبة لم يقبل أعمالهم ، ومن كانت أحوالهم بالإعجاب مشوبة لم يرفع أحوالهم . وللعلماء فى كيفية الوزن كلام .

فقيل توزن الأعمال نفسها بالميزان ، وقيل توزن صحائف الأعمال ، والأولى ترك ذلك لملك يوم الدين سبحانه .

قال رجلٌ لابن عمر : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى، يعنى مناجاة الله لعبده يوم القيامة ؟ قال سمعته يقول :

« يدنَى للمؤمن من ربّه يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول له : هل تعرف ؟ فيقول: رب أعرف . قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم : فيعطى صحيفة حسناته ؛ وأما الكفار والمنافقون فيُنادَى بهم على رءوس الخلائق : هؤلاء الذين كذبوا على الله » .

وروى ابن ماجه والترمذى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يُصاحُ برجل من أمتى يوم القيامة

على رءوس الخلائق ، فينشر عليه تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مدّ البصر . ثم يقول الله تبارك وتعالى : هل تنكر من هذا شيئاً؟ فيقول : لا يارب . فيقول : أظلمتك كتبتي الحافظون؟ فيقول : لا . ثم يقول . ألك عذر ؟ ألك حسنة ؟ فيهابُ الرجل فيقول : لا . فيقول — سبحانه — بلى : إن لك عندنا حسنات وإنه لا ظلم اليوم فتُخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبدُه ورسوله . فيقول: يارب ، ماهذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : إنك لاتُظلم ، فتوضع السجلاتُ في كفة والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلاّتُ وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء » .

(٢٦) « يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوارِي سَوْءاتِكُمْ وَرِيشاً ولِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِن آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُم يَذَّكَّرُونَ »

امتنّ الله سبحانه على عباده إذ ميزهم عن بقية خلقه فهداهم إلى اللباس الذي يسترون به سوءاتهم فلا يفضحونها كما تعيش الحيوانات والبهائم .

واللباس في الآية لباسان: لباس لستر الظاهر وهو مايرتديه الإنسان يخفي به عورته ويتقي به الحر والبرد. ولباس لوقاية الباطن وصيانته وضمان سلامته وذلك لباس التقوى .

وقد أخذ كثير من العلماء من هذه الآية الدليل على وجوب ستر العورة لقوله : « يوارى سوءاتكم » . وقيل بل الآية إشارة إلى النعمة وتذكير بها . وسواء كان الدليل من هنا أم لا . فلا خلاف في وجوب ستر العورة ، وإن اختلفوا في تحديد ما هو عورة وأغلب الأقوال على أنها مابين السرة إلى الركبة . هذا في الرجل، أما المرأة الحرة فكل بدنها عورة إلا وجهها وكفاها . بدليل قول الرسول : « من أراد أن يتزوج امرأة فلينظر إلى وجهها وكفيها » . أما الأمة ففيها خلاف .

وفي قوله « ولباس التقوى ذلك خير » يقول بعض المفسرين : إنه الحياء باعتباره الحاجز عن ارتكاب الآثام والجرأة على معصية الله .

وقيل : إنه العمل الصالح وهذا قول ابن عباس وقيل : هو الدِّرعُ والمِغْفَرُ . وهذا كناية عن الجهاد في سبيل الله .

وننقل عن الطبرى بيتين من الشعر عن لباس التقوى جاء فيهما :

إذا المرءُ لم يلبس ثياباً من التُّقَى تقلّب عرياناً وإن كان كاسياً

وخيرُ لباسِ المـــرء طاعةُ ربه ولا خـــيرَ فيمن كان لله عاصياً

(٢٧) « يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ »

سبقت هذه الآيات آياتٌ تحكى قصة أمر الله سبحانه للملائكة بالسجود لآدم وامتناع إبليس عنه كبراً واستعلاء على الإنسان ، ثم تحكى كيد إبليس لآدم حتى أخطأ فأخرج من الجنة ، وقسم إبليس ليغوينه وذريته إلى يوم الدين . ولم نقف أمام هذه الآيات اكتفاء بما قلناه عنها فى سورة البقرة .

والمناسبة هنا أن فى هذه الآية تحذيراً من المولى سبحانه لبنى آدم من الشيطان أن يفتنهم كما فتن أبويهم من قبل آدم وحواء فأخرجهما من الجنة .

وقوله هنا « ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما » تحذير من زوال النعمة بمقارفة المعصية ، وتأكيد لحرص الشيطان على فضح الإنسان ، وإظهاره أمام مولاه بعدم الأهلية لاستخلافه فى الأرض .

وعداوة الشيطان للإنسان أزلية بدأت مع آدم عليه السلام وتبقى مع بنيه إلى يوم يبعثون ، ولذا تكثر فى القرآن الآيات الموضحة لهذه العداوة والمقررة لها ، والعاقل إذا عرف عدوه أو نُبِّه إليه يحذره ، ولا ينقاد له .

وفى قوله « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » دليل على أن الجن لا تُرى للإنسان، وقيل : يجوز أن تُرى ، وهذا رهن بمشيئته سبحانه .

وقد أمرنا الله بالتعوذ به من الشيطان فى مثل قوله : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » وقوله : « قل أعوذ برب الناس * ملك الناس * إله الناس * من شر الوسواس الخناس * الذى يوسوس فى صدور الناس * من الجنة والناس » .

وهذا الشيطان لا يمكن أن يوسوس للإنسان بخير، كما يقول عليه الصلاة والسلام: « إنَّ للمَلَك لَمَّةً وللشيطان لمةً — أى بالقلب — فأما لمة الملك فوعدٌ بالخير وتصديقٌ بالحق. وأما لمة الشيطان فإيعادٌ بالشر وتكذيبٌ بالحق » .

وفى الخبر : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » .

ومع خطر هذا الشيطان وجريانه كالدم من الإنسان ، فهو ضعيف الكيد إذا صادف إيماناً قوياً وقلباً عامراً بذكر الله . وقد رفع الله سلطانه عن الذين آمنوا فقال :« إن عبادى ليس لك عليهم سلطان» وقال :

« إنما سلطانه على الذين يتولّونَهُ » ، وعلى الذين استحوذ عليهم فأنساهم ذكر الله ، أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون .

(٣١) « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ »

عن عكرمة عن ابن عباس قال :

كان ناسٌ من الأعراب يطوفون بالبيت عراةً حتى كانت المرأة تطوف بالبيت وهى عريانة تعلق على نفسها سيوراً مثل السيور التى تكون على وجوهِ الْحُمُرِ تحميها من الذباب وهى تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كلُّهْ وما بدا منه فلا أُحِلُّهْ

فأنزل الله على نبيه هذه الآية .

وقوله : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » أمر للإنسان أن يأخذ نصيبه مما أحل الله من الطيبات والرزق دون سرف ولا مخيلة ، ومن قبل أمرت الآية بأخذ الزينة عند كل صلاة أى بأخذ النصيب من الثياب واللباس . وهنا تأمر الآية بأخذ هذا النصيب من الطعام والشراب ، بحيث لا يصبح الطعام والشراب فى ذاتهما غاية ، وحسب الإنسان من كل منهما مقدار الاعتدال ، وفى هذا يقول الرسول صلوات الله عليه :

« ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه ، بحسب ابن آدم لُقَيمَاتٍ يُقِمْنَ صلبه ، فإن كان لا محالة فثلثٌ لطعامه ، وثلثٌ لشرابه ، وثلثٌ لنَفَسِه » .

وروى مسلمٌ عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« الكافرُ يأكل فى سبعة أمْعَاء ، والمؤمن يأكل فى معيً واحد » . والحديث رمزٌ إلى هدف كلٍّ من المؤمن والكافر فى دنياه . فالكافر كل همّه أن يجمع الدنيا ، وأن يلتهمها بشغف وإفراط وحرص كما قال سبحانه : « يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام والنارُ مثوًى لهم » .

أما المؤمن فالدنيا عنده طريقٌ ومَعْبرٌ إلى الدار التى سيعيش فيها أبداً فهو يأخذ من الأولى زاد مسافر ، ويعد للآخرة زاد مقيم .

(٣٢) « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »

يُرْوَى عن شيخ مالك وهو علىّ بن الحسين بن على بن أبى طالب أنه كان يلبس كساء خزٍ بخمسين دينارًا يلبسه فى الشتاء ، فإذا جاء الصيف تصدق به . وكان يلبس فى الصيف ثوبين من متاع مصر ممشّقين ويقول :

« قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده » .

وكان المسلمون إذا تزاوروا تجمّلوا ، وقد اشترى تميمٌ الدارىُّ حلّةً بألف درهم كان يصلى فيها ، وكان مالك بن دينار يلبس الثياب العدنية الجياد .

ولقد أُمر الإنسان أن يُظهر أثر نعمة الله عليه ، وفى حديث الرسول : « إن الله يحبُّ أن يرى أثر نعمته على عبده » .

ورُوِى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه بالباب ، فخرج يريدهم ، وفى الدار رَكْوَةٌ فيها ماء ، فجعل ينظر فى الماء ويسوّى لحيته وشعره . فقلت يا رسول الله : وأنت تفعل هذا ؟ قال :

« نعم . إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيِّئ من نفسه ، فإن الله جميلٌ يحبُّ الجمال » .

والفرق كبيرٌ بين أن يُظهر الإنسان أثر نعمة الله عليه وأن يكون فخوراً بَطِراً متعاليًا ، فما هذا من الإسلام وما ينبغى أن يكون خُلُقُ المسلم .

وفى الحديث : « إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال ، الكبرُ بَطَرُ الحقِّ وغمطُ الناس » .

ولا منافاة بين ذلك وبين ما يُروى عن عمر رضى الله عنه من مثل قوله « اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم » إذ المراد هنا تعويد النفس أن تصبر على المكاره ، وضيق ذات اليد فتتهيأ له، فإن وجد الخير فلنأخذ نصيبنا منه ، وإلا كنا على الشدة صابرين وشاكرين .

« قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » هذه الطيبات التى أحلها الله ، وأخذ المؤمنون بنصيبهم منها ، لا يجازون عليها فى الآخرة . ومعنى خلوصها لهم : إن الله أنعم عليهم ورزقهم ، وهم قاموا بحق النعمة والرزق بالتوحيد والعبادة وإخلاص الطاعة فكانت خالصة يوم القيامة . كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون .

(٣٣) « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ »

يُرْوَى أنه لما نزلت الآيات السابقة ولبس المسلمون الثياب وطافوا بالبيت عـــيَّرهم المشركون فنزلت هذه الآية لتقرر سماحة الإسلام ، وسلامة تشريعه ، وعمق حـكمته فيما أباح ومنع ، وفيما أحـلّ وحرّم .

فالأمر فى الإسلام ليس أمر تعذيب للنفس ، ولا تجبر عليها ، ولا إرهاق للانسان فى دنياه ، ولـكنه — فى مجموعه — إرشادٌ للطريق السوىّ فى كل شىء ، ومحافظة على سلامة الإنسان فى كل حال .

فإذا حرَّم لحم الخنزير ، أو الدم ، أو الميتة فلأن فى هذا ضرراً وبلاء عظيما على جسد الإنسان وصحته ، وإذا حرّمت الخمر مثـلا فلأن شربها يضر أبلغ الضرر بالعقـل وبالجسد معاً . وإذا حرمت الفواحش فلأنها فوق ما تضر مرتـكبها تمزق المجتمـع وتشوه صورته وسلوكه وعلاقات أفراده بعضهم ببعض .

الأمر إذاً ليس تجبراً من الخالق بالخلق ، ولـكنه — سبحانه — علم ما يصلحهم فدلهم عليه ، وهداهم إليه .

(٣٧) « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ »

(٣٨) « قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ »

(٣٩) « وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ »

إنَّ أقطع الظلم افتراء الـكذب على الله بادعاء الشركاء له — سبحانه — فى ملـكه ، والقول بأنّ له ولداً ، وأن له طوائف من خلقه يؤثرهم على من دونهم ، أظلم الظلـم أن يحدث ذلك . إذ كيف يوجدك بقدره فلا تعترف أنت بوجوده ؟ أو يرزقك بفضله فلا تشـكره بل تـكفره .. وينزل عليك آياته لتهتدى فلا تزداد إلا نُفرةً . وضلالا .. أليس هذا بظلم ؟ !

فليفعل العبد ما شاء . فما هو بمفلت من قبضة جبار الأرض والسموات ، ويا ضيعة الظالمين يوم تأتيهم رسل الله يتوفونهم يسألوهم عن شركائهم ، وعما أشركوا .

عندئذ يشهد الكافرون على أنفسهم بالكفر ، فيقول سبحانه : ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النّار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا اجتمعوا جميعا . أخذوا يتلاومون ، ويلقى كل فريق تبعة خسرانه وضياعه على من أغروه وضللوه . يقول الأولون للآخرين أنتم ؛ ويقول الآخرون للأولين : أنتم .. ثم يسأل كل فريق ربه عذاب الضّعف للآخرين بما عملوا . فيحكم الله بالعذاب الضاعف على التابع والمتبوع ، ويجزى المُضِلَّ والضال . سبحانه .

(٤٠) « إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ »

جاء فى حديث البراء بن عازب فى قبض روح الكافر قال :

« ويخرج منها ريح كأنتن جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ماهذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون فلان بن فلان . بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون فلا تفتح لهم . . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تفتح لهم أبواب السماء » .

وقوله تعالى « لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سَمِّ الخياط » معناه أن دخولهم الجنة مستحيل ، كما استحال دخول الجمل فى ثقب الإبرة ، وهذا هو الجزاء العادل للمجرمين أن يحرموا من الجنة ، لتكون لهم جهنم فراشاً وغطاء .

(٤١) « لَهُم مِن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ »

(٤٢) « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »

(٤٣) « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ »

إذا كان الجحيم فراش الكفار وغطاءهم فإن الجنة هى الثواب الكريم لمن آمن وعمل صالحاً وقوله : « لا نكلف نفساً إلا وسعها » معناه : أن هذا الثمن الذى يقدمه طالب الجنة من الإيمان والعمل الصالح ليس شيئاً فوق ما يستطيعه الناس أو يطيقونه . بل إنه فى الوسع والطاقة والانحراف عنه إلى الكفر ليس إلا ضلالا وعناداً .

وذكر القرطبي أن المراد هنا أن الله سبحانه لم يكلف أحداً من نفقات الزوجات إلا ما وجده وتمكن منه، دون ما لا تناله يده ، ولم يرد إثبات الاستطاعة قبل الفعل ، قال ابن الطيب ، نظير : « لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها » .

وبعيد — في رأيي — ما ذهبا إليه . لأن الآية الثانية وردت في سورة الطلاق حيث الحديث عن النفقة والطلاق وما يتصل بها ففيه وجه أما هنا فتأويله على النفقة بعيد ، ولعل ما ذكرناه أقرب .

ومما أنعم الله به على المؤمنين أن ينزع الغل من صدورهم قبل أن يدخلوا الجنة ليستقبلوها أصفياء أنقياء أهلا للاقامة في دار لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما إلا قيلا سلاماً سلاماً ، فلا حسد فيها ولا تباغض .

عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « الغِلُّ على باب الجنة كمبارك الإبل قد نزعه الله من قلوب المؤمنين » .

ونظيره قوله سبحانه في سورة الحجر : « ونزعنا ما في صدورهم من غِلٍّ إخواناً على سُرر متقابلين » .

وما أن تفتح أبواب الجنة لأهلها حتى يقول لهم خزنتها « ادخلوها بسلام آمنين » ، « سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ». وعندئذ يقولون : «الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » .

وفى الحديث « لن يُدْخِلَ أحداً منكم عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟! قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » .

وفى الحديث أيضاً « ليس من كافر ولا مؤمن إلا وله فى الجنة والنار منزل ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار رُفعت الجنة لأهل النار فنظروا إلى منازلهم فيها . فقيل لهم : هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله . ثم يقال لأهل الجنة : رثوهم بما كنتم تعملون ، فتقسم بين أهل الجنة منازلهم » .

(٤٤) « وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَم فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ »

(٤٥) « الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ »

بعد أن يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ينادى أصحاب الجنة أصحاب النار مستشعرين مِنّةَ الله عليهم وتوفيقه لهم ، ومستشعرين سعادة الفوز والنجاة ينادون أصحاب النار قائلين : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا فهل وجدتم ما عد ربكم حقا ؟ قالوا مستخزين ، نادمين مستشعرين الحسرة والضياع والخيبة والذلة :

نم . فأقروا حيث لا ينفع الإقرار ، وندموا حيث لا ينفع الندم فأذّن مؤذنٌ بينهم من الملائكة : أنّ لعنة الله على الظالمين .

الذين كانوا يصدون الناس فى الدنيا عن سبيل الله ، وهم بالآخرة هم كافرون .

(٤٦) « وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ »

بين أهل النار وأهل الجنة حجابٌ حاجزٌ . وفى معناه يقول سبحانه : « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيلَ ارجعوا وراءكمُ فالتمسوا نوراً فضُرب بينهم بسورٍ له بابٌ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَله العذابُ * ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربّصتم وارتبتم وغرتكم الأمانىُّ حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغَرورُ * فاليوم لا يُقبل منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكمُ النار هى مولاكمُ وبئس المصيرُ » .

وعلى « الأعراف » أى على المكان المشْرِفُ المرتفع رجالٌ ليسوا من أهل الجنة ولا من أهل النار . قيل إنهم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم لم يدخلوا الجنة ويرجون الله أن يدخلوها ، وذلك أخذاً من قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« توضع الموازينُ يوم القيامة فتوزَنُ الحسناتُ والسيئاتُ فمن رجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة ؛ ومن رجحت سيئاته على حسناته دخل النار » . قيل يارسول الله : فمن استوت حسناته وسيئاته ؟ قال : « أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون » .

وقيل : هم عُدُول القيامة يشهدون على الناس بأعمالهم ، وهم فى كل أمة ؛ وقيل : هم قومٌ كانت لهم صغائر لم تكفّر عنهم بالمصائب والآلام فى الدنيا ، وليست لهم كبائر فيُحبسون عن الجنة لينالهم غمٌّ فيقع فى مقابلة صغائرهم ... وقيل كلام كثير .

(٤٧) « وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »

أصحاب الأعراف هؤلاء يحيّون أهل الجنة بالسلام ويغبطونهم على ما ظفروا به ، فإذا وقع بصرهم على أصحاب النار ورأوا ما هم فيه من بؤس دعوا ربّهم ألّا يجعلهم معهم .

(٤٨) « وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ »

(٤٩) « أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ »

ونادى أصحاب الأعراف رجالا من أهل النار يعرفونهم بسيام وأشاروا لهم إلى مَنْ دخل الجنة من فقراء المسلمين كبلال وخبّاب وسلمان وصهيب . وقالوا لهم توبيخاً وتقريعاً : أهؤلاء الذين كنتم تزدرونهم ، وتزعمون أنهم لفقرهم لن ينالوا من الله رحمة ؟

أرأيتم ماذا نالهم من فضل الله ورحمته . لقد أُدْخِلوا الجنة لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون .

(٥٠) « وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ »

أَفِيضُوا علينا من الماء : سؤال ضراعة ومذلة وبحث عن الماء ، مما تلهب النار وجوههم وظهورهم ويشوى الحريق وجوههم وأدبارهم . . . فيستأذنون الله أن يسألوا أقاربهم أو من يعرفون من أهل الجنة أن يعطوهم الماء ، فيأذن لهم فيسألون فيُقال لهم : « إن الله حرّمهما على الكافرين » .

وقد استدلّ بعض العلماء بهذا على جواز التصدّق بالماء، بل على أنه من أفضل الصدقات كما قال ابن عباس .

وروى عن أنس قال : قال سعد بن عبادة : يا رسول الله : إن أمّ سعد كانت تحبّ الصدقة أفينفعها أن أتصدق عنها ؟ قال : نعم وعليك بالماء . . وفى رواية أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمره أن يسقى عنها الماء .

قالوا : فحفر بئراً وقال : هذه لأم سعد .

وروى أبو هريرة فى الحديث المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« بينا رجلٌ يمشى بطريقٍ اشتد عليه العطش فنزل بئراً فشربَ منها ، ثم إذا خرجَ فإذا كلبٌ يلهثُ يأكل الثرى من العطش فقال : لقد بلغ هذا الكلبَ مثلُ الذى بلغَ بى ، فنزل فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه ، ثم رَقِىَ فسقَى الكلب فشكر الله له فغفر له » .

قالوا : يا رسول الله . إن لنا فى البهائم لأجراً ؟ قال : « فى كل ذات كبدٍ رطبة أجرٌ » .

وعن عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

«ومن سقى مسلماً شربةً من ماء حيثُ يوجد الماء فكأنما أعتق رقبة ، ومن سقى مسلماً شربةً من ماء حيث لا يوجد الماء فكأنما أحياها » .

(٥٥) « ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ »

(٥٦) « وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ »

« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريبٌ أجيبُ دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشُدون » .

وفى هذه الآية أمرٌ صريح من المولى — سبحانه — ولعباده أن يدعوه ويستجيبوا له . ونظيره قوله سبحانه : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » .

فاعتبر سبحانه الدعاء عبادة ، واعتبر الاستكبار عنه موجباً لدخول النار .

ومعنى العبادة فى الدعاء أنه إقرار من العبد بحاجته إلى مولاه ويقينٌ منه بأنه سبحانه القادر على أن يرفع عنه الضر ، أو ينزل إليه الخير ، ثم هو كذلك استجماعٌ للنفس بعيداً عن وساوس الشيطان حيث لا تفكر إلا فى الله ولا تضرع إلا إليه ، ولا ترجو من غيره ، ولا تقصد سوى بابه .

ومعلوم أن الدعاء كما قررت الآية إما استغاثة وإمّا رجاء ، كما قال سبحانه « وادعوه خوفاً وطمعاً » وفى الحالتين : بين الرجاء والخوف يكون القلب حاضراً ، والنفس بكلها مقبلة . . أوليست هذه عبادة ؟!

ثم : حين يقصد العبد خالقه ويجأر بشكاته إليه ، ويحسُّ باحتمائه فى حماه ، وإيوائه إلى ركنه فيقول : يا رب . . يا ربّ . . أليس هذا قمة توحيد الله ، وتنزيهه عن الشريك ؟ أليست هذه اللحظات قمة تمجيد القدرة الإلهية وامتلاء النفس إحساساً بها واحتياجاً إليها . . .

إن قولة العبد لربه : يا رب إذا خرجت من باطن نظيف ، ومن لسان مطهر ، وأحاطت بها خلائل الإخلاص والإيمان والحرارة والصدق لم تكن أقل من الصلاة بل هى نِعْم الصلاة .

ويقول القشيرى فى قوله « تضرعاً وخفية » :

« علمهم آداب الدعاء ، أن يدعوا بوصف الانكسار والافتقار ، وإعلان الاضطرار » .

ومعلوم أن للدعاء شروطاً وأدباً وصفات لا يتسع لتفصيلها المقام ، وأساسها ما قررته الآية هنا أنه يكون فى حالة من التضرع والاستكانة التى يتحقق معها الإخلاص والصدق ، والثقة بما عند الله ، واليقين فى إجابته .

ولقد يفضل بعض العلماء دعاء السر على دعاء العَلَن أخذاً من هذه الآية ، وكذلك أخذاً من ذكر الله

سبحانه لعبده زكريا وثنائه على صفة دعائه فى قوله : « ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادى ربه نداء خفيًا » . ثم بما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خيرُ الذكر الخفيُّ ، وخير الرزق ما يكفى » .

ثم بما رُوى كذلك عن أبى موسى قال :

كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غزَاةٍ فجعل رجلٌ كلّما علا ثنيّةً قال : لا إلــه إلا الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيها الناس : « اربَعُوا على أنفسكم (ارفقوا بها) فإنــكم لا تدعون أصمّ ولا غائبًا ، إنــكم تدعون سميعًا قريبًا منــكم . . . الحديث » .

وللَسارّةُ بالعمل الصالح قولا كان أو فعلاً مما تفضله الشريعة لضمان الإخلاص والصدق والبعد عن التظاهر والرياء كما سبق ذكره فى حديث الصدقات .

وقد اختلف العلماء فى رفع اليدين عند الدعاء ، فــكرهه بعضهم ، وأجازه البعض الآخر لما روى أبو موسى قال : دعا النبى صلى الله عليه وسـلم ثم رفع يديه حتى رأيت بياض إبطه ، وكذا ما روى عن دعائه يوم بدر .

ثم لما روى عن سليمان عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن ربكم حيٌّ كريم يستحى من عبده أن يرفع يديه إليه فيردهما صِفراً ، أو قال « خائبتين » .

وفى الآية الثانية استكمال لبعض شروط الدعاء وأساسها ألا يكون دعاء بمعصية ولا إفساداً فى الأرض ، ولا استعانة على باطل ، وأن يكون المطعم من حلال ، والمشرب من حلال ، والملبس من حلال ، وأن يسبقه الإحسان وفعل الخير ، وكل ما من شأنه أن يقرب العبد من خالقه . فذلك أدعى للقبول . « إنّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين » .

(٥٨) « وَالبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لاَيَخْرُجُ إِلَّا نَـكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْـكُرُونَ »

قالوا : إن فى هذه الآية تشبيهاً بحال القلوب حين تأتيها دعوة الله ، فقلبٌ يقبل الموعظة فتثمر فيــه وتؤثر ، وقلبٌ أغلف كأنه قُدّمن صخر على نحو ما جاء فى قوله سبحانه « ثم قست قلوبهم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة » .

وقيل : بل هى تشبيه بحال المؤمنين عامة . ثم بحال المنافقين . فالمؤمن يخلص العمل فتأتى ثمرته قبولا واستجابة كالبلد الطيب يأتيه الغيث فيخرج نباته .

والمنافق : ينافق ، لا يستقر فى قلبه يقين ، ولا بنفسه إيمان ، فلا يكون لعمله ثمر ، ولا لتظاهره أثر ، تماما كالأرض الخبيث يأتيه الماء فلا يهتز ، ويغرس فيه الحب فيأكله ، لا ينبت ولا يثمر .

كذلك نصرف الآيات لقوم يذكرون ما أوتوا من فضله فيشكرون .

(٩٤) « وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِن نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ »

(٩٥) « ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »

قبل هاتين الآيتين مضت آيات كثيرة تحوى قصص قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وأهل مدين قوم شعيب . وفى تلك الآيات أوضح القرآن الكريم — على ما نفصله بعد فى مواضعه إن شاء الله — ما عاناه رسل الله مع أهل تلك القرى من عناد وكفر استوجب سخط الله وعقابه كما قال سبحانه فى سورة العنكبوت : « فكلاً أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

وفى هاتين الآيتين تعقيب وبيان لسنة الله سبحانه فى خلقه إذ يرسل إليهم رسله ، وينزل عليهم آياته وكتبه يدعونهم بالحسنى إليه ، ويرشدونهم بالبرهان والبيان إلى الصراط السوى ، فإن آمنوا فبها ، وإلا أنذرهم أنبياء الله وحذروهم ، فإن تذكروا فبها ، وإلا صب الله عليهم بعض عذابه تخويفاً وتذيراً فإن انتبهوا إليه ، وأفاقوا من غيهم وتابوا صرف عنهم بأسه ، وإلا كانت القارعة .

وهذا معنى قوله فى الأولى « لعلهم يضرعون» أى لعلهم يخضعون ، ويسلمون . ثم يملى لهم سبحانه ويبدلهم مكان السيئة الحسنة لعلهم أن يتذكروا فيتوبوا ويعبدوه .

أما إن ظلوا على كفرهم ، وقالوا تلك هى الحياة قد مس آباءنا الضراء والسراء ، واستهانوا بما أنذروا به أخذهم الله بغتة « وهم لا يشعرون » .

(٩٦) « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »

فانتقام الله ـ سبحانه ـ من أهل القرى إنما هو بما كسبت أيديهم ، وليست بالله ـ سبحانه ـ حاجة فى أن يعذبهم أو ينتقم منهم أو من غيرهم كما قال سبحانه فى سورة النساء : « ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم » .

ودليل ذلك أنه سبحانه يؤكد فى هذه الآية أنْ لو آمن أهل القرى واتقوا لفتح عليهم بركاته ، أو كما قال سبحانه فى شأن قوم نوح « فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً * يرسل السّماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهاراً * » ، وكما قال كذلكَ فى شأن قوم هود : « وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم » . ولكنهم كذّبوا : « فأخذناهم بما كانوا يكسبون » عدلا من الله وجزاء وفاقاً .

(٩٧) « أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ »

(٩٨) « أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ »

(٩٩) « أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ »

يعجب القرآن من أمر هؤلاء وينكر أحوالهم فكيف يأمنون مكر الله ؟ ! وكما قال الرجل المؤمن من آل فرعون لقومه « يا قوم لكم الملكُ اليومَ ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا » ؟.

وإذا قدر الله مجيء بأسه فلا يأمنون أن يأتيهم بياتاً وهم نائمون كما قال سبحانه فى شأن قوم شعيب : « فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » . ولا يأمنون أن يأتيهم بأسه ضحى وهم يلعبون كما قال سبحانه فى شأن قوم لوط : « فأخذتهم الصيحة مشرقين * فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجّيل » . وكما قال سبحانه فى شأن أصحاب الحجر :

« فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » .

فكيف لهؤلاء القوم أن يأمنوا مكر الله ؟ ! وهو يقول سبحانه « قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وآتاهم العذاب من حيث لا يشعرون » ويقول سبحانه :

« أفأمِنَ الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون * أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين » .

(١٠٠) « أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ »

(١٠١) « تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ »

(١٠٢) « وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ »

ألم يتبين هؤلاء المشركون الذين ورثوا الأرض من بعد من كانوا فيها من أهلها أنهم غير مخلّدين ، وأنهم لا يُعجزون الله فى أرضه إن يشأ يذهبهم ويستخلف من بعدهم من يشاء كما أنشأهم من ذرية قوم آخرين ؟!

ألا يذكر هؤلاء أن فى قدرته سبحانه أن يهلك الوارثين بذنوبهم كما أهلك — من قبل الوارثين !؟ بلى . إنه لقادر .

وهذه القرى التى قصصنا عليك نبأها — يا محمد — من قوم نوح وعاد ولوط ، وهود ، وشعيب كذبوا الرسل إذ جاءتهم بالبينات كما كذبك قومك « فلا تأس على القوم الكافرين » .

ولو قد أحييناهم بعد هلاكهم لما آمنوا بما كانوا قد كذبوا من قبل « ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه » كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين بك كما طبع من قبل على قلوب نظرائهم من الكافرين بالرسل. فأكثرهم لا يحفظون العهد ، ولا يوفون بالميثاق وأكثرهم فاسقون لا يصلحون إلا أن يؤخذوا بما أخذهم به من بأس .

(١٣٨) « وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ »

(١٣٩) « إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

(١٤٠) « قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ »

قُتِلَ الإنسان ما أكفره ! ! يفيض عليه ربّه النعمة فيتقابلها بالجحود والكفر ، وبنوا إسرائيل هنا شر مثل . أنجاهم ربهم من فرعون وقومه وكان جديراً بهم أن يذكروا فيشكروا فيخلصوا العبادة ، ويمحصوا الإيمان فإذا هم يقولون لموسى « اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » .

ولقد علم الله سبحانه من قبل حقيقة حالهم فحذرهم من ذلك فى قوله « يابنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المنّ والسلوى * كلوا من طيبات مارزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى » . ومع هذا التحذير قالوا مقالتهم .

يُروى عن قتادة قال : كان القوم الذين مرّ بهم بنوا إسرائيل من قبيلة لخم وكانت أصنامهم تماثيل البقر ، ولهذا أخرج السّامرىُّ لبنى إسرائيل عجلهم المعروف . فلما رأوهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . قال إنكم قومٌ تجهلون .

إنّ مايفعله هؤلاء من عبادة غير الله متبرٌ أى مهلكٌ ومدحور سواء العابد منهم أو المعبود ، وباطل وهباء نتاج عملهم عند الله وما يُلقون عليه إلا الهلاك وسوء المنقلَب .

وكيف أبتغى لكم إلهاً غير الله الذى لاتزال آثار فضله عليكم ماثلة وحاضرة ، ونجاكم من عدوكم ، ورحمكم فى طريق هجرتكم وأنزل عليكم نعمة من المن والسلوى ، وواعدكم برحمته وفضله جانب الطور الأيمن وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين فى زمانكم . . ثم من بعد هذا تكفرونه وتريدون رباً غيره .!!

ولقد تعرض رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم من جُهّال الأعراب من قومه لمثل هذا الموقف مع الخلاف والفارق . يُروى أنه لما كان الرسول صلى الله عليه وسلم فى مسيرته إلى حُنين صادف هؤلاء شجرة فى طريقهم للكفار تسمى ذات أنواط ينوطون بها سلاحهم أى يعلقونه بها ، وكان الكفار يعظمونها فى كل سنة يوماً .

فلما رآها جُهال الأعراب قالوا للرسول : اجعل لنا ذاتَ أنواطٍ كما لهم ذاتُ أنواط . فقال رسول الله : « الله أكبر . قلتم — والذى نفسى بيده — كما قال قوم موسى « اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قومٌ تجهلون » لتركبُنّ سُنَنَ من قبلكم حذوَ القذةِ بالقذة[1] حتى إنهم لو دخلوا جحر ضبٍ لدخلتموه » .

(١٤٦) « سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ »

(١٤٧) « وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

جاءت هاتان الآيتان فى ثنايا قصة موسى عليه السلام وقومه ، وجاءت بعد ضلالهم ذكر وعنادهم واستكبارهم على الحق من بعد ما أراهم الله آياته ، ومن بعد مابسط عليهم من فضله ، وأشهدهم معجزاته .

ومع هذا فالآيتان تنذران كل مستكبر فى الأرض بغير الحق أن يطمس الله على قلبه فينظر النور ولايبصره ، ويرى الحق ولايهتدى إليه ، ويتضح سبيل الرّشد أمامه فلايمضى فيه ولايتخذه سبيلا .

وفى مثل معناه يقول سبحانه « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يُرد أن يضله يجعل

(١) القذة : ريش السهم ويضرب مثلا لتطابق الشيئين لايختلفان .

صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » .

ونظيره كذلك قوله سبحانه : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين ».

وهذا الجزاء الذى يلقاه المكذبون بآيات الله ، والغافلون عنها ، وعن لقاء الآخرة هو جزاء عادل لقاء ماعملوا وما ربك بظلام للعبيد .

(١٥٦) « وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ »

الدعاء فى هذه الآية استكمال لما دعا به موسى عليه السلام ربه بعد أن اختار قومه ربه فأخذتهم الرجفة فقال :

« ربّ لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين * واكتب لنا . . . الآية .

فهى استمرار لضراعة موسى عليه السلام بين يدى ربه يسأله أن يقسم له ولقومه فى هذه الدنيا توفيقاً إلى الطاعة وصالح العمل ، وأن يجزيهم عليه فى الآخرة إذ يقبل ما يعملون فلا يحبطه ؛ واستشفع موسى لدعائه بقوله « إن هدنا إليك » أى تبنا ورجعنا .

فقال سبحانه رداً على موسى ومع خصوصية الحال فالجواب عام : عذابى أصيب به من أشاء أن أضله ؛ وقيل : من أشاء ألا أعفو عنه . أما رحمتى فقد وسعت كل شىء أى من خلق . فما من مسلم ولا كافر إلا وعليه أثر رحمة الله فى الدنيا ، حتى البهيمة لها رحمة وعطف على ولدها .

يقول بعض المفسرين : لما نزلت هذه الآية طمع فى رحمة الله كل شىء حتى إبليس حيث قال : أنا شىء فقال سبحانه : « فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة » فقالت اليهود والنصارى : نحن متقون ؛ فنزلت الآية التالية :

(١٥٧) « ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ »

قيل إن هذه الآية خرجت بقوله سبحانه « ورحمتى وسعت كل شىء » من العموم إلى الخصوص . لأنها حددت الذين يستحقون رحمة الله كما كتبها لهم ، وهم « الذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول . . . » .

مما جعل ابن عباس وابن جُبير رضى الله عنهما يقولان : كتبها الله — أى الرحمة — لهذه الأمة .

وفى قوله تعالى « الأُمِّى » : قال ابن عباس : كان نبيكم صلى الله عليه وسلم أمياً لا يكتب ، ولا يقرأ ، ولا يحسب . قال تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتابَ المبطلون » . فهى إذاً نسبة إلى الأمة الأميَّة .

وقيل نُسب النبى الأمى صلى الله عليه وسلم إلى أمِّ القرى مكة .

وفى قوله : «الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل » : روى البخارى عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال :

« والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن « يأيُّها النبىُّ إنا أرسلناكَ شاهداً ومبشراً ونذيراً » وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفَظٍّ ، ولا غليظ ولا صخَّاب فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويفتح بها أعيناً عُمياً ، وآذاناً صمًّا وقلوباً غلفاً » .

وثمة روايات أخرى يبدو فيها الشطط ، والإسراف ، ولكنها فى مجموعها تؤكد ما قرره القرآن من وجود خبر النبى صلى الله عليه وسلم فى كتب أهل الكتاب من اليهود والنصارى .

وفى قوله « ويحل لهم الطيبات » بيان لبعض ما يسَّر الله به على أهل الكتاب ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم : فاليهود مثلا كان قد حرم عليهم بعض ما أحل لهم كما قال القرآن « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » . فلما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم أحل هذه الطيبات لهم .

وللعلماء فى تحديد هذه الطيبات آراء كثيرة . فقال ابن عباس : الخبائث هى لحم الخنزير والرِّبا .

وقال الشافعى : الطيبات أى من جهة الطعم بشرط أن تكون مما أحل الله فلا تدخل الخمر .

وقيل : الطيبات : كل ما أحل الله ، والخبائث كل ما حرّم .

وفى قوله « ويضع عنهم إصرهم » زيادة بيان لما يسرَّ الله به على أهل الكتاب وخاصة اليهود الذين شدَّدوا على أنفسهم فشدد الله فى التشريع عليهم . وهذا معنى قوله « ويضع عنهم إصْرَهم والأغلال التى

كانت عليهم » أى يرفع عنهم ثقل ما ألزموا به فى تشريعهم ويزيل الأغلال والقيود التى كانت مفروضة عليهم .

من ذلك أنه كان فى تشريعهم إذا أصاب البولُ ثوب أحدهم فلا يطهر الثوب حتى يقرض مكان البول منه .

ومنه : أنهم كانوا إذا جمعوا غنيمة من غنائم الحرب نزلت نار من السماء فأكلتها وحرموا هم الانتفاع بها .

ومنها : أن المرأة إذا كانت حائضاً حرم على الرجل حتى الاقتراب منها .

فرفع ذلك الإصرُ ، وأزيلت هذه الأغلال بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . فالبول يطهر بالغسل ، وأحلت الغنائم فى الحرب للمجاهدين ولبقية مصارفها المنصوص عليها . وجاز للرجل الاقتراب من المرأة الحائض ومباشرتها بشرط ألا يواطئها ، لما فى ذلك من أذى .

كما شرع القرآن جواز قبول الدية فى حالة القتل العمد ، إذا أقرها أولياء الدم ، ولم يكن ذلك حلالا عندهم بل القصاص حتى ولو عفا الأولياء .

ومن ذلك تحريم العمل عليهم يوم السبت ، وأجاز الإسلام ذلك . . وهكذا مما يتضح معه مبلغ ما يسّر الإسلام على أهل الكتاب عامة وبنى إسرائيل خاصة .

ومع هذا فإذا لم يؤمنوا بما فيه ، ويصدقوا برسوله فلن تشملهم رحمة الله التى وسعت كل شىء .

وإذا كان الطرد من رحمة الله عقاب من أنكروا ما يعلمون ولم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم فالذين آمنوا به ، ووقروه ، ونصروه ، واتبعوا النور الذى أُنزل معه أولئك هم المفلحون .

(١٥٩) « وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ »

هذه الآية خاتمة ما سبق القول فيه وخلاصته : وفيها من البيان : تأكيد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم إلى الناس جميعاً من أُنزل إليهم كتاب كاليهود والنصارى ومن لم ينزل إليهم كتاب .

ثم فيها : تأكيد وحدانية الله سبحانه وقدرته ، وانفراده سبحانه بأمر الحياة والموت وانفراده كذلك بالسلطان فى تلك السموات والأرض .

وفيها أخيراً : الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان بما جاء به .

ثم فيها : تقرير إيمان محمد صلى الله عليه وسلم — وإيمان أتباعه كذلك — بالله وبكلمات الله التى أنزلت على محمد وهى القرآن والتى أنزلت من قبل من التوراة والإنجيل .

ثم فيها بيان : أن ذلك هو طريق الهداية والفوز برضوان الله .

(١٧٢) وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ »

(١٧٣) « أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ »

(١٧٤) « وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ »

يقول القرطبي رحمه الله «هذه آيةٌ مُشكلةٌ » . وقد تكلم العلماء فيها بما لا مجال لتفصيله هنا وإن كنا نجتزىء منه مايتضح به معناه فنقول — والله وحده الأعلم بالصواب :

روى مالك فى « الموطأ » أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سئل فى هذه الآية فقال : سمعت رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل عنها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الله تعالى خلق آدم . ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريّةً فقال : خلقت هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون » .

فقال رجلٌ : ففيم العمل ؟

قال عمر : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله الله النار » .

ومع أن علماء الحديث ضعّفوا سنده وقالوا فيه ، إلا أن معناه ثابت من روايات أخرى بعضها جاء فى الترمذى ، وجاء بعضها عند غيره .

ثم اختُلِف فيها كذلك أهي عامة أم خاصة . فمن قال بخصوصيتها قال لأنه تعالى لما قال « من بنى آدم من ظهورهم » كان معناه أن أبناء آدم عليه السلام لصلبه هو لايدخلون فيها .

ثم إن قوله فيها « أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل » يُخرج منها من لم يشرك آباؤهم من قبل .

وبعض من قال بخصوصيتها يذهب إلى أنها فيمن أخذ عليهم العهد يعنى على لسان الأنبياء والرسل فمن لم يدركوا الرسل لايدخلون فيها ولا تشملهم .

ومن قال أنها عامة قال : إن الآية تقول « وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم » ومعناه أنه ذكرهم بخلقهم هم ومافيه من توجيه إلى وجود الخالق الذى خلقهم . وكل أحد يستطيع أن يدرك هذه الحقيقة ويعلم أنه كان طفلا فغُذِّى ورُبِّى ، وأنه له ربًّا وخالقا .

ولابن العربى رحمه الله فيها تفسير وإجابة للسؤال الذى تثيره الآية وهو : إذا كان سبحانه الذى أراد من الخلق ما أراد فكيف يعذبهم؟ فيقول :

« فإن قيل : فكيف يجوز أن يعذبهم ولم يذنبوا ؟ أو يعاقبهم على ما أراده منهم وكتبه عليهم وساقه إليهم ؟ قلنا :

ومن أين يمتنع ذلك عقلاً أم شرعاً ؟

فإن قيل : لأن الرحيم الحكيم منا لايجوز أن يفعل ذلك . قلنا : لأن فوقه أمراً وناهياً يأمره وينهاه وربنا تعالى لايسأل عما يفعل وهمُ يسألون ، ولايجوز أن يُقاس الخلق بالخالق ، ولا تحمل أفعال العباد على أفعال الإله .

وبالحقيقة : الأفعال كلها لله جل جلاله . والخلق بأجمعهم له ، صرّفهم كيف شاء ، وحكم بينهم بما أراد .

وهذا الذى يجده الآدمى إنما تبعث عليه رقة الجبلة ، وشفقة الجنسية ، وحث الثناء والمدح ، لما يتوقع فى ذلك من الإنتفاع . والبارى تعالى مقدسٌ عن ذلك كله فلا يجوز أن يعتبر به » .

ويؤولها بعض المفسرين ومنهم الزجاج والزمخشرى وغيرهما : على أنها من باب التمثيل الذى أراد به الله توضيح مراده لعباده ومعناها : إن الله نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته ، وشهدت بها عقولهم التى ركبت فيهم ، وجعلها هادية لهم ، مبينة لهم على التمييز بين الهدى والضلال ، وبين الحق والباطل ، ومن شأن هذه العقول أن تهديهم حتما إلى وجوده ووحدانيته وأنه الرب للعبود فكأنه أشهدهم بذلك على أنفسهم ، وإن لم يحصل إشهاد بالفعل .

وإنما فعل سبحانه ذلك — حتى يسقط حجتهم عليه يوم القيامة فيقولوا : إنا كنا عن هذا غافلين لم ننبه لذلك ، أو يقولوا ، إنا وجدنا آباءنا مشركين ، وكنا صغاراً ضعفاء فاقتدينا بهم . فهذا كله مرفوض والعذر به غير مقبول ، مادام سبحانه قد مكنهم من الأدلة التى تهدى إلى التوحيد .

كذلك يفصل الله للناس آياته لهم فى خلقه ، وآياته لهم فى أنفسهم لعلهم يرجعون عن الشرك إن وسوس لهم الشيطان به ، أو لايقعوا فيه من البداية .

(١٧٥) « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ »

قيل فى سبب نزولها : إنها نزلت فى رجل من بنى إسرائيل — اختلف فى تحديد إسمه — وإن كان أكثر الروايات يسميه — بلعام بن باعوراء .

هذا الرجل آتاه الله آياته من العلم والحكمة حتى كان عدد المتعلمين عليه لا يكاد يحصى ويقال : إنه كان مستجاب الدعوة عند الله فلا يرد له دعوة .

ثم انتهى به الأمر — أعاذنا الله — إلى أن ألف كتاباً — كما تقول الروايات — فى أن ليس للعالم صانع . فأشرك بالله وكفر وكان من الغاوين .

ويروى المعتمر بن سليمان عن أبيه قال : كان بلعام هذا قد أوتى النبوة وكان مستجاب الدعوة ، فلما أقبل موسى فى بنى إسرائيل يريد قتال الجبارين سأله الجبارون أن يدعو على موسى ، فقال : إنى دعوت الله أن يردّ موسى ذهبت دنياى وآخرتى ، فمازالوا به حتى قام ليدعو .

فلما قام يدعو : تحوّل لسانه بالدعاء على أصحابه . فسألوه فى ذلك فقال : لا أقدر على أكثر مما تسمعون واندلع لسانه — كما تقول الرواية — على صدره .

فقال لهم : قد ذهبت منى الآن الدنيا والآخرة ، فلم يبق إلا المكر والحيلة ، وسأمكر لكم . فإنى أرى أن تخرجوا إليهم فتياتكم فإن الله يبغض الزنى فإن وقعوا فيه هلكوا ، ففعلوا فوقع بنوا إسرائيل فيه فأهلكوا .

هذا وجه مما قيل فى سبب نزولها ، وفيمن نزلت .

ورأى آخر يقول : أنها نزلت فى أمية بن أبى الصلت الثقفى ، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله عز وجل مرسلٌ رسولا فى ذلك الوقت ، وتمنى أن يكون هو ذلك الرسول ، فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم حسده وكفر به ، وهو الذى يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم « آمن شعره وكفر قلبه » .

وقال سعيد بن المسيب : بل نزلت فى أبى عامر بن صيفى ، دخل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد . ما الذى جئت به ؟ قال : جئت بالحنيفية دين إبراهيم . قال فإنى عليها .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لستَ عليها لأنك أدخلت فيها ما ليس منها » .

فقال أبو عامر : أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً . (يعرض برسول الله إذ أخرجه قومه من مكة) .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : نعم أمات الله الكاذب منا كذلك .

ثم خرج الرجل إلى الشام واتصل بقيصر الروم وكتب إلى المنافقين أن استعدوا فإني آتيكم من عند قيصر بجند نخرج بها محمداً من المدينة .

قالوا : نخذله الله ومات بالشام وحيداً . فتحققت فيه دعوة الرسول .

ومعنى : انسلخ منها . أي من معرفة الآيات التي أوتيها ، لأن الله نزع علمها عنه .

وفي الحديث : « العلم علمان : علمٌ في القلب فذلك العلم النافع ، وعلمٌ في اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم » .

(١٧٦) « وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »

(١٧٧) « سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ »

هـذا الذي انسلخ من آيات ربه لو شاء الله سبحانه لأماته عليها وحفظ له بقيته بها فارتفع بها إلى الجنة ، أو ارتفعت بها مكانته في العلم والحكمة .

ولـكنه « أخلد إلى الأرض واتبع هواه » وهي كناية عن إيثاره البقاء في حالة الهبوط الأرضية بما عليها من إيثار شهوات النفس وشهوات الحس ، والانغماس في الطينية المهلكة وعجز عن مسايرة ما أريد له من السمو والترقي في مدارج النور والكمال .

وقد شبهه سبحانه بالـكلب الذي يلهث دائماً . . معناه أنه لا يرعوى عن المعصية ولا يتوب منها فـكأنه الـكلب الذي يلهث دائماً سواء كان ثمة قيظ أم لا .

ذلك مثل القوم الذين كذّبوا بآياتنا سقناه في قصة هـذا الرجل وفي غيره من القصص فاقصص يا محمد عليهم ما قصصنا عليهم لعلهم يتفـكرون في الله ، ويعتبرون بأحوال غيرهم .

وإذا كان من الأمثال ما يذكر فيشكر فساد مثلا . . مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون .

(١٨٠) « وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة » .

وروى كذلك — عن أبى هريرة — ما يؤكد أن عددها كذلك وزيد فيه ما معناه أن لكل اسم منها صفة خاصة ، وأن فيه من الدلالات ، أو من الأسرار ما ليس فى غيره .

وروى فى سبب نزولها أن رجلا من المسلمين كان يكثر الدعاء بيارحمن يا رحيم ، فقال المشركون : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً ، فما بال هذا يدعو اثنين فنزلت الآية .

وقوله « فادعوه بها » : سلوه بها واطلبوا منه سبحانه بكل اسم ما يتصل وما يليق به : فبالرحمن الرحيم تطلب الرحمة ، وبالغفور تطلب المغفرة ، وبالعزيز تطلب العزة إلى آخره .

أما الاسم الأعظم « الله » فهو متضمن لكل اسم ، ويُسأل به سبحانه من كل وجه .

تأمر الآية بترك الذين يلحدون فى أسماء الله بتحريفها عن مواضعها إلى ألفاظ وسمات فيها شرك بالله أو خروج عما لا يليق بأسمائه سبحانه ، وقد روى أن المشركين غيروا فى بعض أسماء الله وحرفوها بأسماء بعض أسمائهم ، فبدلوا الاسم الأعظم « الله » وسموه « اللات » وبدلوا اسمه « العزيز » وقالوا « العزّى » وبدلوا « المنان » وقالوا « مناة » . . فأمر المسلمون ألا يجاروا هؤلاء فيما يعملون . فإن فيه الكفر . كما نهوا عن تحريفها بأية صورة .

قال ابن العربى :

« حذار من ذلك ولا يدعون أحدكم الإيمان كتاب الله والكتب الخمسة يعنى كتاب الحديث : البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، وأبوداود ، والنسائى ، فهذه الكتب التى يدور الإسلام عليها ، وقد دخل فيها ما فى الموطأ الذى هو أصل التصانيف ، وذروا ماسواها ، ولا يقولن أحدكم أختار دعاء كذا وكذا ، فإن الله قد اختار له وأرسل بذلك إلى الخلق رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم .

وقيل أن قوله « ذر الذين يلحدون » مراد به التهديد والوعيد لمن يفعلون ذلك على نحو ما فى قوله سبحانه « وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا » . وقوله « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملى لهم إن كيدى متين » .

(١٨٢) « وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ »

(١٨٣) « وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ »

يستدرجهم يأخذهم بالتدريج منزلة بعد منزلة ، قيل معناها : كلما جددوا لنــا معصية جددنا لهم نعمة » .

وسئل ذو النون : ما أقصى مايخدع به العبد ؟ قال : بالألطاف والكرامات ، لذا قال سبحانه «من حيث لايعلمون » أى نسبغ عليهم النعمة وننسيهم شكرها .

والآية الثانية : إتمام للأولى وتوضيح لمعناها : والإملاء : الإمهال وتأخير العقوبة وفى قوله: إن كيدى متين تهديد شديد للذين ينسون ربهم فيضِلّون أو يُضِلّون فإنه سبحانه يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته .

وقيل إنها نزلت فى المستهزئين بالله ورسوله من قريش ، أخذهم الله فى ليلة .

(١٨٥) « أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ »

الآيات الداعية إلى التدبر والتأمل والتفكير والنظر كثيرة فى القرآن منها قوله سبحانه :

« وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وقوله : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت » .

وقوله : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها » وقوله : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » وغيرها من الآيات .

وهذا الاهتمام بوجوب النظر والتقدير وصولاً إلى اليقين والاستدلال هو الذى جعل بعض العلماء يذهب إلى أن أول الواجبات هو النظر والاستدلال . وأنه مقدم وسابق على الإيمان ، ومذهبهم فى ذلك أن الله تعالى لا يعلم ضرورة ، وإنما يعلم بالنظر والاستدلال بالأدلة .

وقال آخرون ومنهم ابن رشد إن هذا ليس بينًا : وقد يحصل الإيمان واليقين لمن هداه الله بالتقليد ويصرف النظر من خلافهم فى ذلك . فالآية تعتبر أن النظر فى ملكوت السموات والأرض وفيما خلق الله من أشياء سبيل طبيعى للإيمان بالخالق ووحدانيته .

(١٨٧) « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »

قال رجلان من اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم يا محمد : أخبرنى متى الساعة إن كنت نبيًّا فإن تعلم متى هى . فنزلت الآية .

وروى أن قريشاً قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : يا محمد إن بيننا وبينك قرابة فأسِرَّ إلينا متى تكون الساعة ؟ فنزلت .

وسُمِعَ أبو موسى يخطب فى يوم جمعة على منبر البصرة يقول :

سُئِل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة وأنا شاهد فقال : لا يعلمها إلا الله ، ولا يجليها لوقتها إلاَّ هو ، ولكنى سأحدثكم بأشراطها وما بين يديها ، إن بين يديها ردقاً من الفتن وهرجاً فقيل :

وما الهرج يارسول الله ؟ قال : هو بلسان الحبشة القتل ، وأن تحصر قلوب الناس ، وأن يلقى بينهم التناكر فلا يكاد أحد يعرف أحداً ، ويُرفع ذَوُوا الحِجَى ، وتبقى رجاجة من الناس ، لا تعرف معروفاً ، ولا تنكر منكراً .

وأهم ما تقرر الآية ، أن علم الساعة مما استأثر به المولى سبحانه وأن أحداً من خلقه لايعلمه ، ولا يمكن أن يعلمه .

وفى هذا يقول سبحانه فى سورة لقمان « إن الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفسٌ ماذا تكسب غداً وما تدرى نفسٌ بأى أرض تموت إن الله عليم خبيرٌ » .

ويقول سبحانه فى « النازعات » : « يسألونك عن الساعة أيَّانَ مُرْسَاهَا * فيم أنت من ذكراها * إلى ربك منتهاها * إنما أنت منذر من يخشاها * كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضُحَاها .

وحكمة إخفائها لا تخفى ، فلو قد استيقن الخلق موعد قيامها وعرفوا متى تقوم لاضطربت أمور الحياة كلها اضطرابا لا يدرك مداه : تماما كما يخفى أمر انتهاء الأجل ، إذ لو علمه الإنسان ما سعى ، وما كافح ، ولظل كل فى مكانه حبيساً ينتظرون قدره ، وهذا معناه خراب الكون وبطلان سنة الحياة وهو محال .

وقوله « ثقلت فى السموات والأرض » ، قيل : ثقلت أخبارها على أهل السماء والأرض ، وقيل : ثقلت عليهما ، لا يطيقانهما لما يحدث لهما عندها من أحداث حيث تتناثر النجوم وتكون السماء كالمُهْل ، وتكون الجبال كالعهن . . وتمد الأرض وتلقى بما فيها إلى آخره .

وقوله كأنك حَفِيٌّ عنها : عالمٌ بها ، كثير السؤال عنها .

(١٨٨) « قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »

قالوا يا محمد ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فنشترى فنربح ، أو بالأرض التى ستجدب فنرحل عنها إلى ما هو أخصب .. فنزلت الآية . وبعيداً عن خصوصية السبب فهى تأكيد لمعنى الآية السابقة .

إذ المراد : قل يا محمد لمن يسألونك عن الساعة إنى لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله ، ولا أعلم من أمور الغيب شيئاً إلا ماشاء ربى ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخير ككل إنسان يحب لنفسه الخير ، ولدفعتُ كل الشر وكل السوء عنى .

وإذا كنتُ لا أعلم من الغيب ما قد يخصنى فكيف أعلم أمر القيامة . إن مهمتى هى البلاغ ، وهى التبشير والإنذار ، فما أمرت بتبليغه أبلغه ، وما يحجب عنى مما يستأثر به ربى فشأنى فيه شأنكم ، وعلمى به لا يجاوز ما تعلمون .

(١٨٩) « هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ »

« من نفس واحدة » من هيئة واحدة وشكل واحد وجعل زوجها من جنسها نفسه ، فإذا تغشى الزوج زوجه حملت ، فإذا جاءهما الولد صحيحاً سالماً سوياً على الفطرة التى فطر الله وهى الإسلام فى الأصل — أخذ يفسدان فطرته ، ويحولانه وجهة غيرها فهذا هو الشرك . وهذا أولى الوجوه فى تفسير الآية .

قال صلوات الله عليه « ما من مولود إلا يولد على الفطرة — وفى رواية على هذه الملة — وأبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه » .

ويوجهها بعض المفسرين إلى آدم وحواء ويقصون حكاية لا تثبت للتمحيص فيها أن إبليس أتى حواء وهى حامل فخوفها أن يكون الذى فى بطنها بهيمة فخافت من ذلك فقال لها : إن دعوتُ الله لك فجئت به مخلوقا سويًا وليس بهيمة أتسميه باسمى قالت نعم وما إسمك ؟ قال الحارث فلما ولدت سمته عبد الحارث فهذا معنى قوله سبحانه : « فلما آتاهما صالحًا جعلا له شركاء فيما آتاهما » .

وقد أجهد بعض المفسرين أنفسهم فى تخريج هذه الحكاية ومحاولة تأويلها بما يستقيم . مع أن أساسها — فيما أرى — باطل وهو من الإسرائيليات الكثيرة التى دست على الإسلام .

ويأخذ العلماء من قوله : « فلما أثقلت دعوا الله ربهما » دليلاً على اعتبار الحمل مرضاً من

الأمراض وأن الحامل إذا مضت عليها ستة أشهر كانت كالمريض المُوفى على الموت فلا يجوز لها التصرف في مالها بأكثر من الثلث . . والكلام في هذا طويل .

والذى لا يكادُ يُختلفُ عليه هو أن الحامل إذا ماتت بحملها كانت شهيدة أو كالشهيدة لقوله صلى الله عليه وسلم :

« الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله : المطعون شهيدٌ ، والغريق شهيدٌ ، وصاحبُ ذات الجنب شهيدٌ ، والمبطونُ شهيدٌ ، وصاحبُ الحريق شهيدٌ ، والذى يموت تحت الهدْم شهيدٌ ، والمرأة تموتُ بجمع — أى بما في بطنها — شهيدةٌ » .

(١٩٩) « خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ »

أغلب المفسرين على أنه ليس في القرآن آيةٌ أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية .

روى البخارى من حديث هشام من عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير في قوله « خذ العفو وأمر بالعرف » قال : ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس .

وروى سفيان بن عيينة عن الشعبى قال : إن جبريل نزل على النبى فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « ما هذا ياجبريل ؟ » فقال : لا أدرى حتى أسأل العالِمَ » فذهب فمكث ساعة ثم رجع فقال : إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطى من حرمك ، وتصل من قطعك » .

وقوله « خذ العفو » أى عمن أساء إليك — في أرجح الأقوال : ويدخل فيه صلة القاطعين ، والعفو عن المذنبين ، والرفق بخلق الله أجمعين .

ذكر القرطبى عن سهل بن عبد الله قال : كلم الله موسى بطور سيناء ، فقيل له بأى شيء أوصاك ؟ قال : بتسع أشياء . الخشية في السر والعلانية ، وكلمة الحق في الرضا والغضب ، والقصد في الفقر والغنى ، وأمرنى أن أصل من قطعنى ، وأعطى من حرمنى ، وأعفو عمن ظلمنى ، وأن يكون نطقى ذكراً ، وصمتى فكراً ، ونظرى عبرة .

« وأمر بالعرف » بالمعروف ، وهو كل صفة حسنة وكل سلوك سوىّ تجمع العقول عليه ، وتطمئن القلوبُ إليه .

« واعرض عن الجاهلين » أى إذا أمرتهم بالمعروف فجهلوا عليك . ويدل هذا على أن التنزه عن منازعة السفهاء ، ومجادلة الجهلة بما ينبغى أن يكون من خلق المسلم . كما تدل أيضاً على وجوب التعلم والاستزادة من العلم ، والتعلق بالعلماء .

(٢٠٠) « وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »

فى هـذا المعنى روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يأتى الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا وكذا حتى يقول له : من خلق ربك ، فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته » .

وروى أنه لما نزل قوله سبحانه « خذ العفو » قال الرسول : « كيف يا رب والغضب ؟ » . فنزلت هذه الآية :

ومن طريف ما يحكى عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : ما تصنع بالشيطان إذا سوّل لك الخطايا ؟ قال : أجاهده . قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده . قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده . . قال : هـذا يطول . أرأيت لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنعك من العبور ما تصنع ؟ قال : أكابده وأرده جهدى . قال هـذا يطول عليك ، ولـكن استغث بصاحب الغنم يكفّه عنك .

وقد عرض بعض المفسرين لتلك الوسوسة التى قد يحاول الشيطان بها إلقاء ظلال الشك بالنفس فيجاهدها المؤمن ويُشغل بها حتّى يطمئن . وهـذه الحيرة ليست مما يخاف ، بل — متى وفق الله — طريق الاستقرار ، واليقين ، والإيمان .

وفى هذا المعنى يروى عن عبد الله قال : سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : « تلك محض الإيمان » وفى حديث أبى هريرة « ذلك صريح الإيمان » . يعنى أن ما يعانيه الإنسان من هـذه الحال ، ومصارعته لما يعتمل فى نفسه من أفـكار يصل به فى النهاية إلى الإيمان الخالص ، فترسو سفينته — بفضل الله — على طريق اليقين والاطمئنان .

(٢٠١) « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ »

(٢٠٢) « وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى الْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ »

بعد ما أمر سبحانه فى الآية السابقة بالتعوّذ من الشيطان إذا أراد أن يفتننا قرر فى هذه الآية أن تذكر الله والاستعانة به على الشيطان سمة للمتقين الذين يذكرون ربهم — إذا مسهم طائف الشيطان — فإذا هم يفيقون من غيه ويبصرون كيده فينتهون عما يوسوس لهم .

قال عصام بنُ المصطلق : دخلت المدينة فرأيت الحسن بن على رضى الله عنهما فأعجبنى سَمْتُه ، وحُسن رُوَائِه ، فأثار منّى الحسد ما كان يُجنُّه صدرى لأبيه من البُغض ، فقلت له : أنت ابن أبى طالب ؟ قال : نعم . فبالغتُ فى شتمه وشتم أبيه ، فنظر إلىّ نظرة عاطفٍ رءوف ثم قال :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ، « خذ العفو وأمر بالعرف . . . إلى قوله فإذا هم مبصرون » . ثم قال لى خفِّض عليك ، أستغفر الله لى ولك ، إنك لو استعنتنا أعنَّاك ، ولو استرفدْتنا أرفدْناك ، ولو استرشدتنا أرشدناك . قال : فتوسَّم فىَّ الندمَ على ما فرط منى فقال :

« لا تثريب عليكم اليوم يغفِرُ اللهُ لكمْ وهو أرحَمُ الرَّاحمين » . ثم قال : أمن أهل الشام أنت ؟ قلت نعم . فقال :

شِنْشِنَةٌ أعرِفُها من أخْزَم[1] .

حيّاك الله وبيّاك ، انْبَسِطْ إلينا فى حوائجك ، وما يعرض لك تجدنا عند أفضل ظنك إن شاء الله .

قال عصام : فضاقتْ علىّ الأرض بما رحُبت ، ووددْتُ أنها ساخَت بى ، ثم تسلَّلتُ منه لِواذاً[2] ، وما على وجه الأرض أحبّ إلىّ منه ومن أبيه .

وإذا كان هـذا نموذج المتقين الذين يذكرون ربهم فلا يؤثر فيهم شيطان ولا إنسان ، فثمة آخرون من الفجّار إخوان الشياطين أشارت إليهم الآية الثانية ، وقالت إن الشياطين يمدون لهم فى الغىّ ، ويجدون منهم تقبلا واستجابة ، فيزدادون سيطرة عليهم ووسوسة لهم حتى يصبح هؤلاء أسرى للشياطين ، فلا الشياطين تـكف عن إغوائهم ، ولا هم ينتهون فيتوبون .

(٢٠٤) « وَإِذَا قُرِىءَ القُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »

قال بعض المفسرين : إن المشركين كانوا يكثرون اللغط والشّغب تعنتًا وعناداً إذا سمعوا القرآن على نحو ما حكاه القرآن عنهم فى قوله : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه لعلكم تغلِبون » . فأمر الله المسلمين أن يكونوا على خلافهم فيستمعوا وينصتوا إجلالا للقرآن وتوقيراً له ، وتأملاً فى كلماته بهـذه الآية . بدليل قوله سبحانه يمدح استماع الجن وإنصاتهم : « وإذ صرَفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصِتُوا » .

وقيل : بل كان الرجل يأتى وهم فى الصلاة فيسألهم : كم صليتم . وكم بقى منها ؟ فنزلت هذه الآية .

---

(١) مثل يضرب لمن أشبهوا آباءهم فى خلقهم ، والمشابهة هنا أن أهل الشام الذين منهم عصام هذا كانوا على عداء لعلى ابن أبى طالب وأهل بيته .

(٢) خفية .

وقد اختلف العلماء — تبعاً لما فهمه كلٌّ من هذه الآية — وما اعتمده من أسباب نزولها . . . اختلفوا في : هل يقرأ المُؤْتَمّ خلف إمامه أم لا ؟ مما أشرنا إلى بعضه في تفسير « الفاتحة » لمن شاءه .

(٢٠٥) « وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ »

قد سبق القول في تفسير قوله سبحانه « ادعوا ربكم تضرعاً وخيفةً » ، ولا يكاد المعنيان هنا وهنا يختلفان . فالذكر هناك دعاء والدعاء هنا ذكر . والعبد بهما مأمور في كل حال . وقد مدح سبحانه أولى الألباب من المؤمنين فقال : « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » .

وقد أمر الله المؤمنين بذكره في كل حال واعتبر الذكر شكراً له والامتناع عن الذكر كفراً به فقال : « فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون » .

وامتدح الذين تتأثر قلوبهم بذكره فتخشاه وتخافه ، ثم تطمئن لآياته حين قال : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وَجِلَت قلوبُهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون » . كما بشر سبحانه « المخبتين » الذين إذا ذكر الله وَجِلَتْ قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » .

(٢٠٦) « إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ »

وفي نفس المعنى قال سبحانه « وله من في السّموات والأرض ومَنْ عنده لا يستكبرونَ عن عبادته ولا يستحسِرُون * يسبّحون اللّيلَ والنّهارَ لا يفتُرُون » . وقال : « فإن استكبرُوا فالذين عند ربك يسبّحون له باللّيل والنّهارِ وهم لا يَسأمُون » .

والإجماع على أن الذين « عند ربك » هم الملائكة ، ومع أنه سبحانه موجود في كل مكان فقوله « عند ربك » مرادٌ به أنهم قريبون من رحمته ، أو أنهم رسله الذين يصعدون إليه سبحانه بما يطلب وينزلون من عنده إلى عباده بما يريد . وهذا كله على سبيل التكريم والتشريف .

وقد كثرت آراء العلماء في سجود التلاوة الذي يؤخذ من هذه الآية ومن غيرها . فقيل في القرآن خمس عشر سجدة وقيل أكثر وقيل أقل . ولا خلاف على الآية التي معنا . وسجود التلاوة قيل واجب وقيل مستحب ، وكيفية السجود قيل بتكبير وسلام وقيل بلا سلام ، وهل تشترط الطهارة أم تصح بدونها . . كلام كثير ، خلاصة ما فيه أن العبد كلما استطاع أن يزيد من تطوعه في العبادة كان خيراً له .

تفسير سورة الأنفال

(١) « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ »

عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما كان يوم بدر وقال رسول الله ﷺ من فعل كذا أو كذا فله كذا وكذا . ذهب شباب الرجال وجلس الشيوخ تحت الرايات . فلما كانت الغنيمة جاء الشباب يطلبون نفلهم ، فقال الشيوخ لا تستأثروا علينا فإنا كنا تحت الرايات ، ولو انهزمتم لكنا ردءاً لكم فنزلت الآية فقسمها الرسول ﷺ بينهما بالسواء .

وفى الصحيح وكذا عن ابن حنبل عن سعد بن أبى وقاص قال : لما كان يوم بدر قتل أخى عمير ، وقتل سعيد بن العاص فأخذت سيفه — وكان يسمى ذا الكتيفة — فأتيت به النبى صلى الله عليه وسلم . فقلت : نفلنى هذا السيف فأنا من قد علمت حاله ، فقال صلى الله عليه وسلم : رده من حيث أخذته — وفى رواية . إذهب فاطرحه فى القبض ، أى الغنائم قبل أن تقسم — فرجعت وبى ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخى وأخذ سلبى — حتى إذا أردت أن ألقيه فى القبض لامتنى نفسى فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت « أعطنيه » قال : فشد لى صوته : « رده من حيث أخذته » . فانطلقت حتى أردت أن ألقيه فى القبض لامتنى نفسى فرجعت فقلت : « أعطنيه » . قال : فشد لى صوته : « رده من حيث أخذته » . فنزلت هذه الآية .

وروى عن عبادة بن الصامت قال :

لما هزم العدو يوم بدر ، واتبعتهم طائفة يقتلونهم ؛ وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ واستولت طائفة على العسكر والنهب . فلما نفى الله العدو ، ورجع الذين كانوا يطلبونهم قالوا : لنا النفل بحسن طلبنا العدو ، فبنا نفاهم الله وهزمهم .

وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : والله ما أنتم أحق به منا . نحن أحدقنا بالرسول لا ينال العدو منه غرة فهو لنا .

ل الذين استولوا على العسكر والنهب : والله ما أنتم بأحق به منا ، نحن أخذناه واستولينا عليه فهو لنا . .
فأنزل الله : يسألونك عن الأنفال ... الآية فقسمه الرسول ﷺ بينهم بالسوية .

(٢) « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ »

(٣) « الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ »

(٤) « أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ »

فى هذه الآيات بيان واضح لسمات من يصح أن يوصفوا بأنهم المؤمنون حقاً ، وبأنهم أهل الدرجات عند الله والرزق الكريم والمغفرة .

فالسمة الأولى لهم : أنهم رقاق القلوب جردهم الإيمان من الغلظة والقسوة ، فإذا ذكروا الله خشعت قلوبهم ، ودمعت عيونهم ، وذابت نفوسهم يرجون رحمة ربهم ويخافون عقابه .

ولقد أكد القرآن هذه السمة فى غير موضع منه فقال : « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » .

وقال : « وبشر المخبتين * الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون » .

وقال : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

وقال : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » .

والسمة الثانية لهم : أنهم كما يخافون ربهم ويخشونه ، فانهم يثقون بما عنده من رحمة ويشعرون بالأمان والاطمئنان إذ تليت آياته عليهم ، وفيما سبق ما يكفى لبيان ذلك .

والسمة الثالثة لهم : أنهم يتوكلون على ربهم فيحسنون التوكل عليه ، يعرفون حدود هذا التوكل ومعناه فيؤدون ما يجب ، ويتركون ما وراء ذلك لإرادته وأمره . ثم هم إن حزبهم أمراً أو غلبهم غالب ، وجدوا فى التوكل عليه سبحانه نعم النصير والحمى ، يقولون كما قالت الرسل : « وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون » .

والسمة الرابعة : إقامتهم الصلاة إقامة محافظ عليها ، محب لها ، نشط إلى أدائها ، يجد فيها راحة نفسه وقرة عينه ، وسبيل الود المتصل بينه وبين مولاه .

والسمة الخامسة والأخيرة هنا أنهم ينفقون مما رزقهم ربهم ، وهذا الإنفاق هو الثمرة العملية والدليل القوى على صدق ما اتصفوا به من قبل من خشوع وتوكل ، ومداومه عبادة . إذ لو كان هذا زيفاً ، أو نفاقاً ، لظهرت حقيقة على محك الإنفاق ، وبذل المال على طريق الله .

فبمقدار صدق الإيمان تهون عزة المال على النفس ، والصبح مرضاة الله أحب وآثر من كل شئ سواه .

وبمقدار الثقة بما عند الله والتوكل عليه تتجرد النفس من شحها ، ويبسط المرء يده فى سبيل الله يقينا منه وإيمانا بأن خزائن الله خزائنة ، وبأن لو نفد ما فى يده فما عنـد الله باق . وصدق الله فى وصفه لهم ، وحسن مثوبته إياهم إذ يقول : « أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .

(٧) « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ »

(٨) « لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ »

يعدكم الله الظفر بإحدى الطائفتين « العير القادمة تحمل المال والتجارة ، أو الظفر بعدوكم فى ميدان القتال ، فتودون أن تظفروا بالطائفة التى ليس معها سلاح ، ولا يكون معها حرب ، مع أنه سبحانه يريد أن يظهر الحق — وهو الإسلام — بكلماته أى بأمره إياكم بأن تجاهدوا ليقطع دابر الكافرين ، ويزهق باطلهم — ولو كرهوا — كما قال سبحانه : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون » .

(٩) « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ »

(١٠) « وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »

(١١) « إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ »

(١٢) « إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ »

(١٣) « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ »

(١٤) « ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ »

تحكى هذه الآيات حال المسلمين يوم بدر ، وما كانوا عليه من قلة فى العدد ، وما أفاء سبحانه عليهم من نصره وتأييده .

ويروى ابن اسحاق فى سيرته عن ابن عباس قال : لما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن أبا سفيان مقبل بعيره من الشام ندب المسلمين إليهم وقال : « هذه عير قريش فيها الأموال فأخرجوا إليهم لعل الله أن ينفلكموها » .

فانبعث معه من خف ، وثقل قوم وكرهوا الخروج ، وأسرع رسول الله ﷺ لا يلوى على من تعذر ، ولا ينتظر من غاب ظهره ، فسار فى ثلثمائة وثلاثة عشر من أصحابه من مهاجرين وأنصار .

قال ابن اسحاق : وقد ظن الناس بأجمعهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لايلقى حرباً فلم يكثر استعدادهم .

فلما علم أبو سفيان بخروج الرسول ﷺ وصحبه بعث إلى قريش أن يخرجوا إليه فخرج أهل مكة فى ألف رجل أو نحو ذلك ، وعلم الرسول بذلك فجمع أصحابه يستشيرهم ، فتكلم أبو بكر وعمر فأحسنا ، ثم قام المقداد ابن عمرو فقال :

يا رسول الله : امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هٰهنا قاعدون » ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكم مقاتلون » والذى بعثك بالحق لو سرت الى برك الغماد(١) لجالدنا معك من دونها . فسر بذلك رسول الله واتجه إلى الأنصار يتعرف موقفهم فقال له سعد بن معاذ أو سعد بن عبادة

يارسول الله : انا قد آمنا بك واتبعناك ، فامض لما أمرك الله ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك » .

فقال الرسول : إمضوا على بركة الله فكأنى أنظر إلى مصارع القوم »

فمضى رسول الله ﷺ وسبق قريشا إلى ماء بدر — ومنع قريشا من السبق إلى الماء مطر عظيم أنزل الله عليهم ، ولم يصب منه المسلمين الا ما شد لهم دهس الوادى (أى رمله اللين) .

وكان منزل الرسول وصحبه على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة ، فأشار عليه الحباب ابن المنذر بغير ذلك وقال له :

---

(١) يقصد الحبشة .

يارسول الله : أمنزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال عليه السلام « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » فقال الحباب : يارسول الله ، إن هذا ليس لك بمنزل فانهض بنا إلى أدنى ماء من القوم فنزله ونغوّر(١) ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً فنشرب ولا يشربون .

فاستحسن الرسول عليه السلام ذلك وفعله ؛ ثم التقوا فنصر الله نبيه والمسلمين .

وفى قوله «إذا تستغيثون ربكم» يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلثمائة وسبعة عشر رجلا فاستقبل القبلة ، ثم مدّ يديه فجعل يهتف بربه : « اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم ائتنى ماوعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض »

قال عمر : فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبوبكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه وقال : « يانبى الله كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك » فنزل «قوله سبحانه : إذ تستغيثون ربكم» فأغاثه الله وأمده بالملائكة مردفين .

وفى قوله «إذ يغشيكم النعاس أمنة منه» يروى عن علىّ رضى الله عنه قوله :

ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد على فرس أبلق ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة يصلى ويبكى حتى أصبح .

وفى امتنانه سبحانه عليهم بالنوم فى هذه الليلة وفى هذا الموقف الدقيق الحرج يقول الماوردى مامعناه :

إن فى ذلك منفعتان : الأولى أنه سبحانه أتاح لهم فرصة الراحة قبل القتال من الغد ليكونوا أثبت جنانا ، وأقوى بأساً ، وأيقظ حركة.

والثانية : أن قوى نفوسهم إذا استشعرت منتهى الثقة فى الله أومنتهى الأمان فنزع الرعب منهافاطمأنت فنامت.

وفى قوله « ثبتوا الذين آمنوا» روى أن الملك كان يسير أمام الصف فى صورة الرجل يقول . سيروا فإن الله ناصركم ، ويظن المسلمون أنه منهم؛ وقيل إن الملائكة قاتلت فى هذا اليوم .

أما قوله « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان فهو كناية عن الثبات وشدة البأس على العدو ، فإذا قطعت بنان المقاتل فكأنما قتل .

---

(١) نغور : نسد عيون المياه بالردم ، والقلب بضم اللام جمع قليب وهى البئر القديمة .

(١٥) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ »

(١٦) « وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ »

حرم الله على المؤمنين الفرار من ميدان القتال ، وأوعد الفار بغضب من عنده ، ومثواه جهنم وبئس المصير .

والفرار الذى حرمه القرآن ما يحدث عند الزحف أى بعد يتعاين الفريقان ويمشى القوم بعضهم إلى بعض ، فنى هذه الحالة يجب الثبات ويحرم الفرار لأن فرار واحد فى هذه اللحظات قد يؤدى بالجيش كله ، فينكسر قلبه وتحل الهزيمة به .

وقد تحدث المفسرون فى ذلك فقالوا إن النهى عن الفرار مقيد بشرط «الضعف» يعنون قوله تعالى : الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين» .

ومعناه : إذا التقى المؤمنون بمثلهم بضعفهم فى العدد من المشركين فلو يصح لهم أن ينهزموا ، وبصورة أخرى: إذا التقى مسلم بمشرك أو باثنين من المشركين فلا يصح له أن ينهزم أو يفر .

فإذا زاد العدد على الضعف جاز الانهزام، والصبر أولى وأحسن. بدليل ما حدث فى تاريخ المسلمين من المواقف العظيمة التى انتصروا فيها على أضعاف أضعافهم .

فقد وقف جيش المسلمين فى « مؤتة » وهم ثلاثة آلاف مقاتل فىمقابلةمائتى ألف ، منهم من الروم مائة ألف ، ومثلهم من المستعربة من لخم وجذام .

وطارق بن زياد التقى وجيشه ألف وسبعمائة مقاتل بجيش لذريق ملك الأندلس فى سبعين ألف مقاتل . . فالعبرة ليست بالعدد ولكنها باليقين والإيمان ورباطة الجأش .

وما قلناه عن جواز الانهزام أمام ضعف العدد لا يقبل مطلقا إذا بلغت عدة المسلمين إثنى عشر ألفا فأكثر وعلى هذا جمهور المفسرين حتى ولو بلغ عددهم مئات الآلاف ، وذلك أخذاً من الحديث « ولن يغلب إثنا عشر ألفاً عن قلة » .

يستثنى مما سبق من فر من موجهة العدد استدراجاً له ، أو تنفيذ الخطة فى الحرب وهكذا مما لا يكون الفرار معه انهزاماً بقدر ما يكون وسيلة إلى نصر

كذا التحيز إلى فئة : يعنى من يدع مكانه وفى نيته أن يجتمع بفئة أخرى من المحاربين يعلم مكانهم ليقوى بهم ويعودا به .

(١٧) « فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »

(١٨) « ذَلِـكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْـكَافِرِينَ »

كان قوله سبحانه « فلم تقتلوهم ولـكن الله قتلهم » إنهاء لأهل بدر بعد ما نصرهم الله على عددهم وأمكنهم منه فعادوا إلى أهليهم يقولون فعلنا وفعلنا فنهاهم سبحانه عن ذلك وبين لهم أنه الذى نصرهم ، ولولا تأييده لما انتصروا .

وفى قوله « وما رميت إذ رميت » . قيل : إن المراد رمى رسول الله ﷺ لأبى بن خلف فى عنقة يوم أحد بالحربة ، وذلك أن أبياً هذا جاء لما انهزم المسلمون يومها يسأل عن « محمد » صلى الله عليه وسلم يريد أن يقتله ، وهو يقول : لا نجوت إن نجا .

وجاء أبى مقنعاً بالحديد ، فحمل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترضه رجال من المؤمنين فأمرهم عليه السلام فخلوا طريقة ، فقام له مصعبُ بن عميرة يقى رسول الله ، فقتل مصعب وأبصر عليه السلام تر قوة أبى من فرجة بن سابغة البيضة والدرع ، فطعنه الرسول بحربته فسقط عن فرسه ولم يخرج من طعنته دم وانـكسر ضلع من أضلاعه .

فأتاه أصحابه وهو يخور خُوار الثور فقالوا له ما أعجزك إنما هو خدْشٌ .

فقال : والذى نفسى بيده لو كان هذا الذى بى بأهل ذى المجاز لماتوا أجمعين . وقد مات أبى قبل أن يبلغ مكة من هذه الطعنة ولم يبرأ فسحقا لأصحاب السعير .

وقيل المراد فيه صلى الله عليه وسلم القوم يوم خيبر ، حين دعا بقوس فأتوه بقوس طويلة ، فقال ائتونى بغيرها فأتوه بأخرى كبداء فرمى بها الحصن فأقبل السهم يهوى حتى قتل كنانة بن أبى الحقيق وهو على فراشه .

وقيل غير ذلك ، ومهما تـكن الروايات فحكمة الآية كلها أن الله سبحانه وتعالى رب الموت والحياة ، ورب النصر والهزيمة ، وما ينبغى للانسان فى لحظة من لحظات غروره أن ينسى ذلك فيتوهم أنه أمات أو أحيا ، أو يتوهم أنه عمل وعمل فصدق سبحانه «وما رميت إذ رميت ولـكن الله رمى» ليبلغ أمره غايته ، وليحق الحق ، ويوهن كيد الـكافرين .

(١٩) « إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ »

حين خرج الكفار فى طريقهم إلى بدر قال أبو جهل بن هشام : اللهم أينا كان أقطع للرحم ، وأتانا بما لم نعرف فافتح له الغداة . فنزلت .

وقيل : بل إن المشركين حين خرجوا إلى النبي ﷺ من مكة أخذوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين ، وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين ، وأفضل الدينين فنزلت .

وقال عكرمة : قال المشركون : اللهم إنا لا نعرف ما جاء به محمداً فافتح بيننا وبينه فنزلت : إن تستفتحوا فقد جاء الفتح ، أى فقد جاءكم ما اتضح به الأمر ، وانكشف به وجه الحق ، فإن تنتهوا عن الكفر فهو خير لكم ، وإن تعودوا إلى ما تقولون وإلى القتال نعد لنصر المؤمنين ، ويعد المؤمنون لقتالكم .

ولن تغنى عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت . عما كانت لأن الله دائما مع المؤمنين .

(٢٤) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ »

« لما يحييكم » قيل هو التوحيد والطاعة لأن فيه إحياء القلوب ونقلها من موات الكفر والجهالة . وقيل هو : الجهاد أخذا من اعتبار الشهداء أحياء لقوله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء » :

« واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » بالموت حيث لا يمكن درك ما فات فهو تحذير قبل فوات الأوان ، أو يحول : بمرض أو آفة كذهاب العقل مثلا . وقيل هو خاص بأهل بدر إذ خافوا كثرة عدوهم فأعلمهم سبحانه أنه قادر على تحول حالهم من الخوف إلى الأمان ، ويبدل حال عدوهم بعد الأمن خوفاً .

وقال الطبرى : هو إخبارا من الله عز وجل بأنه أملك القلوب يحول بينها وبين أصحابه من العباد متى شاء حتى لا يدرك الإنسان شيئا إلا بمشيئته .

(٢٥) « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ »

فى معناها ما روى البخارى والترمذى عن الرسول عليه السلام قال : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها

كمثل قوم استهموا (١) على السفينة فأخذ حيات بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا :

لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ، ولم نؤذ من فوقنا ؟! فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » .

فمعناه هو معنى الآية نفسها : تعذيب العامة بذنوب الخاصة ، واستحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإن الفتنة إذا عمت هلك الكل بها .

يؤيده ما رواه الترمذى « إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقـــاب من عنده » .

فإن قيل : إن فى هذا تعارضاً مع قوله سبحانه « ولا تزر وازرة وزر أخرى » وقوله « كل نفس بما كسبت رهينة » وقوله : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » .

قيل : إن المنكر إذا عم فى الناس فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره ، فاذا سكتوا فكلهم عصاة ، واحد بما يفعل ، والآخر برضاه وسكوته .

(٢٧) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »

(٢٨) « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ »

نزلت فى أبى كبابة الأنصارى ؛ فعن عكرمة رضى الله عنه قال : لما كان شأن بنى قريظة بعث النبى عليه السلام علياً رضى الله عنه فيمن كان عنـــده من الناس ، فلما انتهى إليهم وقعوا فى رسول الله ﷺ ؛ وجاء جبريل على فرس أبلق ، قالت عائشة رضى الله عنها ، فلكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ يمسح الغبار عن وجه جبريل عليه السلام فقلت : هذا دحية الكلبى يا رسول الله ؟ فقال : هذا جبريل عليه السلام .

قال : أى جبريل : يا رسول الله ما يمنعك من بنى قريظة أن تأتيهم » فقال الرسول : « فكيف لى بحصنهم»؟ فقال جبريل : فإنى أدخل فرسى هذا عليهم .

فركب رسول الله ﷺ فرساً معرورى ، فلما رآه على رضى الله عنه قال : يا رسول الله لا عليك ألا تأتيهم ،

---

(١) اقترعوا .

فإنهم يشتمونك . فقال : كلا إنها ستكون تحية . فأتاهم النبى ﷺ فقال : «يا إخوة القردة والخنازير» . فقالوا: يا أبا القاسم ما كنت فحاشاً . ا فقالوا : لا ننزل على حكم محمد ؟ ولكنا ننزل على حكم سعد بن معاذ ، فنزل فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم .

فقال رسول الله ﷺ بذلك طرقنى الملك سحراً فنزل فيهم « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله وتخونوا الرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » . نزلت فى أبى لبابة ، أشار إلى بنى قريظة حين قالوا : ننزل على حكم سعد بن معاذ : لا تفعلوا فإنه الذبح وأشار إلى حلقه .

وكان الحامل لأبى لبابة على ما فعل أنه كانت له أموال وأولاد فى بنى قريظة فنزلت «واعلموا إنما أموالكم ...

(٣٠) « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ »

تخبر الآية بما دبر المسلمون النبى ﷺ إذ قالوا — فى دار الندوة — نجمع من كل قبيلة فتى شاباً جلداً يجتمعون فيضربونه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل وما تقوى قريش على حربهم .

وقد أجمعوا أمرهم وبيتوه ورصدوه على باب بيته ليقتلوه إذا خرج ، فأعلمه الله سبحانه فدعا علياً فنام على فراشه ، ودعا الله عز وجل فطمس على أبصارهم فخرج وقد غشيهم النوم فوضع على رءوسهم تراباً ومضى ، فلما أصبحوا خرج علىّ عليهم فعرفوا أن الرسول قد نجا .

(٣٢) « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »

اختلف فى قائل هذه المقالة : أهو النضر بن الحارث الذى نزلت فيه الآية السابقة لهذه ؟ أم هو أبو جهل ؟ أم غيرهما ؟ .

حكى أن ابن عباس رضى الله عنه لقى رجلا من اليهود فقال اليهودى : ممن أنت ؟ قال : من قريش . فقال اليهودى : أنت من القوم الذين قالوا : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » فهلا قالوا : « إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ، إن هؤلاء قوم يجهلون » .

قال ابن عباس : وأنت يا إسرائيلى ، من القوم الذين لم تجف أرجلهم من بلل البحر الذى أغرق فيه فرعون وقومه ، وأنجى موسى وقومه حتى قالوا : « اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون » .

فأطرق اليهودى مفحما .

(٣٣) « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ »

روى الدائى قال : كان رجل من العرب فى زمن النبى ﷺ مسرفاً على نفسه ، لا يبالى ، فلما أن توفى الرسول ﷺ لبس الرجل الصوف ورجع عما كان عليه ، وأظهر الدين والنسك فقيل له : لو فعلت هذا والنبى ﷺ حى لفرح بك .

قال : كان لى أمانان فمضى واحد وبقى الآخر ، قال تعالى « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » فهذا أمان . والثانى « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » .

وعن ابن عباس رضى الله عنه : لم يعذب أهل قرية حتى يخرج النبى ﷺ منها والمؤمنون ، ويلحقوا بحيث أمروا .

(٣٥) « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ »

(٣٦) « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ »

(٣٧) « لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ »

المكاء : الصفير ، والتصدية : الرقص ، أو الصياح .

وعن ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهما قالا : كانت قريش تطوف بالبيت عراة يصفقون ويصفرون ، وكان ذلك — فى ظنهم — عبادتهم .

وقوله : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم . . . الآية : نزلت فى المطعمين يوم بدر من المشركين وكانوا اثنى عشر رجلا يطعم كل واحد منهم فى اليوم عشراً من الجزور .

وقيل : بل نزلت فى أبى سفيان بن حرب حيث استأجر فى يوم أحد ألفين من الأحابيش يقاتل بهم النبى ﷺ سوى من استجاب له من العرب .

وقوله « ليميز الله الخبيث من الطيب » أى المؤمن من الكافر ، وقيل هو عام فى كل شىء من الأعمال والنفقات وغيرها .

(٣٨) « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ »

يغفر لهم ما قد سلف ، لأن الإسلام يهدى ما قبله ، ويضع ما كان قبله من الذنوب والآثام . وذلك التيسير من الله أدعى للدخول فى الدين ، والترغيب فيه .

وفى صحيح مسلم قصة الرجل الذى قتل تسعاً وتسعين مشهورة ، إذ قتل العابد لما أيأسه من رحمة الله وقال : لا توبة لك .

ولذا كان يروى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه إذا جاءه رجل لم يقتل يسأله القاتل توبة فيقول له : لا توبة لك ، تخويفاً وتحذيراً ، فإن جاءه قاتل يسأله عن التوبة قال له : لك توبة تيسيراً وتأليفاً .

« وإن يعودوا » أى إلى القتال فقد مضت سنة الأولين ، الذين مكروا فمكر الله بهم ، وأهلكهم بذنوبهم ، وأنشأ من بعدهم قوماً آخرين .

وللعلماء تفاصيل كثيرة فى أمر الكافر المحارب إذا جاء إلى المسلمين ، ثم فى أمر الذمى وفى أمر الكتابى ، وفى أمر المرتد ، إذا عاد إلى الإسلام وغير ذلك مما يتصل بهذه الآية فليطلبه من شاء فى مصادره .

(٤١) « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »

المراد بالغنيمة هنا : مال الكفار إذا حصل عليه المسلمون على وجه من الغلبة والقهر . وتسمى كذلك بالفىء . وإن كان الفىء يصل إلى المسلمين بغير قهر - كالجزية مثلا .

والأغلب أن هذه الآية ناسخة لأول سورة الأنفال « يسألونك عن الأنفال . . . » الآية . وقيل غير ذلك ، احتجاجاً بما حدث يوم فتح مكة . ورده الجمهور ، معتبرين ما حدث يومها خاصاً بالرسول ﷺ .

قوله « ما غنمتم » فى هذه الآية ليس على إطلاق ، بل يختص من سلب القتيل فهو للقاتل إذا نادى به الإمام على خلاف كذلك فيه ، وكذلك الأسرى ، إذ الحكم فيهم للإمام بلا خلاف ، ثم « الأرض » لما روى من قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لولا أضر الناس ما فتحت قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر » .

ولو قسمت الأرض لما بقى شىء لمن جاء بعد من التابعين ، والله يقول فى مصارف الفىء فى سورة الحشر « والذين جاءوا من بعدهم . . . » .

والشافعى خلاف فى ذلك .

اختلفوا فى سهم الله الذى قررته الآية « فأن لله خمسه » كيف يعدل منها ، وأين يصرف ؟ فقيل : يترك للكعبة ، وقيل يصرف فى مصالح المؤمنين . وروى أنه لأهل بيت الرسول .

واختلف كذلك فى قوله : ذوى القربى ، أهم قريش جميعاً أم الفقير منهم خاصة ؟ أم هم بنو هاشم ؟ .

ثم : هل يستوى فى النصيب الفارس والراجل ؟ أم يمتاز الفارس على صاحبه .

لا حقّ فى الغنائم لغير المقاتلين من الذين يصحبون الجيش من الأجراء والصناع . وقيل يُسْهَمُ لهم لقول الرسول « الغنيمة لمن شهد الوقعة » .

اختلف كذلك فى الإسهام للعبيد والنساء : كما اختلف كذلك فى العبيد لو خرجوا لصوصاً وأخذوا مال أهل الحرب فهل يترك لهم أم لا .

كذلك اختلف فيمن خرج لشهود الوقعة فمنعه مرض أو عذر أيكون له سهم أم لا ؟

كل هذا وغيره ما أثارته الآية من أحكام ، وما تركته بين العلماء من آراء يفصل فيها ويرجحها ما روى عن الرسول ﷺ من أحاديث وآثار ، ومهما يكن الخلاف من حولها فهو دون شك مصدر رحمة وتوسعة على عباد الله .

(٤٢) « إِذْ أَنتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ »

يمن الله سبحانه على المؤمنين ويذكرهم بفضله عليهم يوم بدر حيث نزلوا بالعدوة أى بجانب الوادى الأدنى إلى المدينة ، وعدوهم بالعدوة القصوى مما يلى مكة ، وركب الكفار أسفل — فى موقعه — منكم ، أو ركبكم أنتم أسفل منكم فى مكان تأمنون فيه عليه ، ولا تضطرون لحراسته توفيقاً من الله سبحانه .

وفى قوله ، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ، بيان لحكمته سبحانه فى أن يبلغ هذا الأمر غايته ، إذ لو علم المسلمون حقيقة قوتهم وقارنوها بما يعلمون من قوة العدو لهالهم ذلك ولنكصوا عن لقائه ، ولكن « ليقضى الله أمراً كان مفعولا ، لم يعلموا ذلك حتى يكون اللقاء ويحق الله الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين .

(٤٣) « إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ »

(٤٤) « وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ »

ولكي ينفذ الله مشيئته كما أشارت إلى ذلك الآية السابقة أراهم — رأى المشركين — الرسول فى منامه قليلى العدد ، فأخبر الرسول بذلك أصحابه تثبيتا من عند الله لهم ، وإغراء لهم بقتالهم ، ولو أراكهم كثيراً لفشلتم » وربما انقسمتم واختلفتم ، والله وحده العليم بذات الصدور .

التقى الجمعان قلل الله كل فريق فى أعين الفريق الآخر ، حتى يحتدم القتال ، ولا يكون عنه تخاذل ليقضى الله أمره فى إحقاق الحق وازهاق الباطل .

ورأى المشركون للسلمين قلة إلى الحد الذى جعل أبا جهل يقول لمن حوله : خذوهم أخذاً واربطوهم بالحبال فإنما هم أكلة جزور يعنى أن عددهم قليل ، وأن جزوراً واحداً تكفى عددهم كله ، بينما كان المشركون ينحرون عشرة من الجزور كما سبق بيانه .

فلما وقعت الواقعة نصر الله أولياءه فألقى الرعب فى قلوب عدوهم فأخذوا يرونهم أكثر مما كانوا رأوهم من قبلهم كما قال سبحانه « يرونهم مثليهم رأى العين » والله يؤيد بنصره من يشاء .

(٤٥) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »

مثله قوله — فيما سبق — « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار » .

فالثبات عند اللقاء فريضة على المسلم ، وعليه ساعتها أن يستعين بذكر الله بلسانه أو بقلبه — وهو الأرجح — فى هذه الحال التى يكون المقاتل فيها مشغولا بعدوه وسلاحه ، ولكنه لا يغفل عن ناصره ، ويكون لسان حاله كما قال سبحانه فى أمر أصحاب طالوت « ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » .

(٤٦) « وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ »

تقرر هذه الآية أهم أسباب النصر — بإذن الله — فى الحرب وهما الطاعة وعدم الخلاف والتنازع ، فهما أخطر على الجيش من عدوه ، ثم الصبر عند اللقاء .

وقوله « فتذهب ريحكم » قيل كناية عن الهزيمة والفشل ، وقيل بل هو حقيقة وأن المسلمين لم ينصروا قط إلا بريح كانت تهب فى وجوه أعدائهم فتعين عليهم .

ولما روى من قول الرسول ﷺ « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور[1] » .

أما الصبر : فغنى عن البيان أثره فى النصر ، ولقد يهزم الجيش فى جولة فإن صبر رجاله كثروا فانتصروا ومما يقال فى ذلك « الشجاعة صبر ساعة » ، ولقد يكون القاتلون فلة فيزدادون بصبرهم قوة ومدداً . إن الله مع الصابرين » .

(٤٧) « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ »

(٤٨) « وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ »

فى الآيتين استكمال لما ينبغى أن يكون عليه جيش المسلمين عند خروجهم للعدو ، إذ ينبغى أن يخرجوا للحرب جادين فيها ، مستشعرين خطرها ، بائعين أنفسهم لله غير ناظرين إلى متاع الدنيا .

وقد حذرهم الله أن يتورطوا فيما تورط فيه عدوهم من ذلك مما كان سبب فشله . ويروى أن أبا جهل قال — قبل يوم بدر : « والله لا نرجع دون قتال محمد حتى نرد بدراً فنشرب فيها الخمور ، وتعزف علينا القيان[2] ، فإن بدراً موسم من مواسم العرب ، وسوق من أسواقهم ، لكى تسمع العرب بمخرجنا فتهابنا آخر الأبد » . فهو فى خروجه طالب جاه وسمعة ، ومن هنا كان مقتله .

ولذا كانت الآية الثانية « وإذا زين لهم الشيطان ... » تأكيداً لسابقتها فى وجوب تقدير العدو حق قدرها ، وعدم الاستهانة بها ، ثم فى وجوب الحذر من تحريض من لا يوثق به ، وإغراء من لا يطمأن إلى صدق طويته .

فتحريض إبليس للمشركين قد أودى بهم ، ولو قد استمعوا إلى عقولهم وحكموها فى الأمر لما تورطوا فيما دفعوا فيه . وخير دروس الحرب ما يأخذه المرء من سقطاته ، أو سقطات عدوه فيها .

(٥٦) « الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ »

---

(١) : الصبا الريح الشرقية ، والدبور الريح الغربية .

(٢) الجوارى .

(٥٧) « فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ »

نزلت هاتان الآيتان فى بنى قريظة والنضير عاهدهم الرسول فنقضوا عهدهم وأعانوا المشركين بالسلاح ، ثم اعتذروا ، فقبل عذرهم وعاهدهم ثانية فنقضوا يوم الخندق .

وهؤلاء الخونة — وهو درس لكل حالة مماثلة — يجب تشريدهم والتنكيل بهم والضرب على أيديهم بقسوة متى أمكن الله منهم ليكونوا عبرة ومثلا لغيرهم ممن توسوس له نفسه بالخيانة والشر .

(٥٨) « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ »

إذا استيقن المسلمون من خيانة من يعاهدونه ، وظهرت دلائل ذلك وجب عليهم إنهاء عهدهم له ؛ وأرجح الأقوال أن يحيطهم المسلمون علماً بذلك وهو معنى قوله « فانبذ إليهم على سواء » أى أعلمهم به ، ولا توقع بهم فتكون السابق إلى نقض العهد . وهذا من سمو مبادىء الإسلام حتى فى أخطر الحالات وأشدها حرجا .

روى أنه كانت بين معاوية وبين الروم معاهدة ، وكان هو يسير نحو بلادهم ليكون على مقربة منها حتى إذا انقضى العهد غزاهم ، فجاءه رجل على فرس وهو يقول : الله أكبر الله أكبر ، وفاء لا غدر ، فنظروا فإذا هو عمرو ابن عنبسة ، فأرسل إليه معاوية فسأله فقال :

« سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقده ، ولا يحلها حتى ينقضى أمدها ، أو ينبذ إليهم على سواء » ، فرجع معاوية بالناس .

(٦٠) « وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ »

لو شاء سبحانه لنصر أولياءه دون قتال ، بأن يهلك عدوهم ويستعمرهم فى الأرض ، ولكن حكمته سبحانه أن يبتلى المؤمنين ليصح إيمانهم وتستقيم فى الحياة أمورهم والإيمان بالله والثقة بما عنده والتوكل عليه شىء ، واتخاذ ما يجب من أسباب الحيطة شىء آخر .

وقد روى عن الرسول أنه عليه السلام خطب يوماً فقال « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . ألا إن القوة الرمي ألا : إن القوة الرمى ، ألا : إن القوة الرمى » :

كما روى عنه صلى الله عليه وسلم فى قوله سبحانه « ومن رباط الخيل » أنه قال : « الخيل ثلاثة : رجل أجر ، ولرجل ستر ، ولرجل وزر » يعنى بصاحب الأجر المجاهد بها فى سبيل الله .

وواضح مما سبق أن السهام والقسى ، والخيل وما إليها كانت عدة الحرب — على أيام الرسول — وكان إعدادها يعتبر تنفيذاً للآية : وسبيلا إلى النصر . لأنه كان أقصى ما يستطيعون هم وعدوهم آنذاك .

وعلى هذا فالآية تعنى بالإعداد اتخاذ كل ما يكفل النصر فى الحرب وبالوسائل التى تلائمها زماناً ومكاناً .

ومن ثم فليس من المعقول فى زمن كزماننا بلغ فيه العلم فيه مبلغه فى التقدم الحربى واستخدمت فيه من أسباب الدفاع والهجوم والتدمير والوقاية منه ما لا نكاد نحيط به . ثم نقف نحن المسلمين عند أساليب الماضى . بل واجبنا — فى الإعداد — أن نبلغ أقصى ما نستطيع من ذلك حتى نكون قد نفذنا ما أمر الله به .

ولا يكفى فى الإعداد تكديس السلاح وإثقال وجه الأرض به . وإنما لا بد من الدربة عليه ومواصلة العناية به ، واكتساب الخبرة فى استخدامه .

يقول الرسول صلوات الله عليه :

« ستفتح عليكم أرضون ، ويكفيكم الله ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه » ويقول :

« كل شىء يلهو به الرجل باطل إلا رميه بقوسه ، وتأديبه فرسه وملاعبته أهله ، فإنه من الحق » :

(٦١) « وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »

إن مال — الذين نبذت إليهم عهدهم — إلى المسالمة فاجنح لها واقبلها ، وقد اختلف فى هذه الآية أهى منسوخة بآيات القتال : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » و « وقاتلوا المشركين كافة » و « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم » وغيرها . . أم لا ؟

وأرجح الأقوال بينها : أن الأمر فى ذلك متروك لظروف المسلمين عنده ، فإن كان المسلمون على قوة فينبغى ألا يطيعوا عدوهم فيهم ، وأن يقدوه حيث ينبغى . وإلا فلضرورة حكمها . .

يؤيد هذا ما روى من شروع رسول الله ﷺ الدخول فى موادعة عيينة بن حصن الفزارى والحارث ابن عوف المرى يوم الأحزاب أن ينصرفا بمن معهما ، ويخذلا قريشا عنه على أن يعطيهما ثلث تمر المدينة .

فلما رضينا بذلك رجع يستشير أصحابه فقال له سعد بن معاذ وسعد بن عبادة : يا رسول الله . هذا أمر تحبه فتصنعه لك ؟ أم هو شىء أمرك الله به فنسمع له ونطيع ؟ أو أمر تصنعه لنا ؟ فقال : بل أمر أصنعه لكم ، فإن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة » .

فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله ، والله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وما طمعوا قط أن ينالوا منا تمرة ، إلا شراء أو قرى .

حين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا . ! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

فسر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : أنتم وذاك ، ثم قال لعيينة والحارث : « انصرفا فليس لكما عندنا إلا السيف » .

(٦٤) « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »

نزلت بعد إسلام عمر ، وكان المسلمون من قبله تسعة وثلاثين فصاروا به أربعين ، وكان إسلام عمر ، وماصحبه ، وما كان بعده من أبرز الحوادث فى صدر هذه الدعوة ، إذ استجيبت دعوة الرسول : « اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين » وكانت صحبة الرسول ، ووزارته لأبى بكر ، وخلافته بعده مصداقاً لهذه الدعوة ، وصفحة فى تاريخ الإسلام مشرقة ... وذكره وسيرته تحفل بها كتب السير والتراجم رضى الله عنه .

(٦٧) « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »

روى فى سبب نزولها : أنه لما كان يوم بدر ، وجىء بالأسرى قال رسول الله ﷺ لأصحابه : ما تقولون فى هؤلاء الأسرى ؟

فقال أبو بكر : يارسول الله قومك وأصلك ، استبقهم ، واستأن بهم لعل الله عز وجل أن يتوب عليهم .

وقال عمر : كذبوك وأخرجوك فأقدمهم فأضرب أعناقهم .

وقال عبـد الله بن رواحة : يارسول الله ، أنظر وادياً كثير الحطب فأدخلهم فيه ، ثم اضرم عليهم ناراً . فقال العباس : قطعت رحمك . فسكت رسول الله ولم يجبهم ، ثم دخل . فقال ناس : يأخذ بقول أبى بكر ! وقال ناس : يأخذ بقول عمر ، وقال ناس : يأخذ بقول عبد الله ... ثم خرج عليهم فقال :

« إن الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين ، وإن الله عز وجل ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة .

وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال : « من تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم » وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » .

وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال : « ربنا اطمس على أموالهم واشـدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

ومثلك ياعمر كمثل نوح قال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أنتم اليوم عالة ، أنتم اليوم عالة ؟ فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق . فنزلت الآية .

(٦٨) « لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ »

لولا كتاب من الله سبق فى تحليل الغنيمة للمسلمين وكانت محرمة على غيرهم على نحو ما روى من قبل فى أمر بنى إسرائيل من أنهم كانوا إذا جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء فأكلتها ..

يرجحه ما روى من قول الرسول ﷺ : « وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

وقيل : الكتاب السابق هو ألا يعذبهم والرسول فيهم ، أخذاً من الآية « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » .

(٧٠) « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

(٧١) « وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »

نزلت فى العباس بن عبد المطلب ، وعقيل بن أبى طالب ، ونوفل بن الحارث ، وكان العباس قد أسر ومعه عشرون أوقية من ذهب خرج بها ليطعم منها الناس ، ولم تجىء نوبته للاطعام بين العشرة الذين كانوا قد تولوا ذلك فأخذها رسول الله ﷺ منه .

قال العباس : فكلمت رسول الله أن يحتبرها فدائى فأبى على وقال : أما شىء خرجت تستعين به علينا فلا ، ثم كفلنى فداء ابن أخى عقيل عشرين أوقية من فضة .

فقلت له : تركتنى والله أسأل قريشاً بكفى والناس ما بقيت .

قال : فأين الذهب الذى دفعته إلى أم الفضل مخرجك إلى بدر وقلت لها : إن حدث بى حدث فهو لك ولعبدالله والفضل وقثم ؟

قال : قلت : وما يدريك ؟ قال أخبرنى بذلك ربى .

قلت : أشهد إنك لصادق ، وإنى قد دفعت ذهباً إليها ولم يطلع عليه أحد إلا الله ، فأشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله .

قال العباس : فأعطانى الله خيراً مما أخذ منى ، عشرين عبداً كلهم يضرب بمال كبير مكان العشرين أوقية ، وأنا أرجو المغفرة من ربى .

وفى صحيح مسلم أنه لما قدم على النبى صلى الله عليه وسلم مال من البحرين ، قال له العباس : إنى فاديت نفسى، وفاديت عقيلا ، فقال له الرسول : « خذ » فبسط ثوبه ، وأخذ ما استطاع أن يحمله .

(٧٢) « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »

(٧٣) « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ »

فى الآية الأولى بيان لحدود الولاية والولاء بين المؤمنين وغيرهم حتى يعرفوا عدوهم فيحذروه ويعرفوا وليهم فيمحضوه الإخلاص والنصرة .

وأولى الحالات هى : الموالاة بين المهاجرين والأنصار بعضهم أولياء بعض .

والثانية : حالة من لم يهاجروا ، وهؤلاء : لا موالاة لهم ، ولكن إذا احتاجوا إلى النصر فى أى أمر فعلى المؤمنين نصرهم ... إلا إذا استنصروا بالمؤمنين على قوم بينهم وبين المؤمنين عهد وميثاق .

وفى الآية الثانية حالة الكفار وهؤلاء بعضهم أولياء بعض فلا ولاية بينهم وبين المؤمنين .

(٧٤) « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ »

(٧٥) « وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »

الذين حققوا إيمانهم بالهجرة فى سبيل الله من جانب المهاجرين ، وحققوه بالانتصار له من جانب الأنصار ... هؤلاء هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم .

أما الذين هاجروا بعد الحديبية وبيعة الرضوان فيلحق عن سبقوهم فى الهجرة الأولى ويكونون مثلهم فى النصرة والموالاة .

تفسير سورة التوبة

نزلت هذه السورة فى غزوة تبوك ؛ وبعدها . ومن أبرز أغراضها كشف مواقف المنافقين وبيان أحوالهم وأسرارهم . ثم فيها كذلك نبذ عهود المشركين والكفار إليهم وإسقاطها والتبرؤ منها .

واختلف العلماء فى سبب عدم ذكر البسملة فى أولها ، فقيل : لأنها آية سيف وسخط لا تتفق وما تعطيه البسملة من معانى الرحمة والرفق والأمان .

وقيل : إنها و « الأنفال » كانتا متشابهتين فى قصتيهما ، ومات رسول الله ﷺ ولم يبين فى أمرها فجاء عثمان رضى الله عنه ففرق بينهما « الأنفال والتوبة » ولم يكتب بينهما بسم الله الرحمن الرحيم .

وقيل : بل اختلف أصحاب الرسول فيهما : الأنفال والأعراف ، فقيل هما سورة واحدة ، وقيل هما سورتان ، فتركت بينهما فرجة لقول من قال : سورتان ، ولم تكتب البسملة لقول من قال : هما سورة واحدة .

وقيل : إنها تضمنت نقض العهد الذى كان بين النبى صلى الله عليه وسلم والمشركين ولما كان من عادة العرب فى نقض العهد هو عدم كتابة البسملة فى صدر الكتاب الخاص بنقضه ، فقد بعث بها الرسول علياً رضى الله عنه ليقرأها عليهم ، دون بسملة فى موسمهم ، ففعل .

وكل ما سبق من الأقوال تجوز مناقشته ، وقد لا يثبت للنقد ، وأرجحها ما روى عن القشيرى من قوله : إن السبب فى عدم ذكر البسملة بها أن جبريل عليه السلام لم ينزل بها ولو قد نزلت البسملة فى أولها على النبى ﷺ لما فاته أن يبلغ بها أصحابه ، ولا أن يستكتبها كتاب وحيه .

وتسمى « براءة » بالفاضحة لأنها فضحت المنافقين ، وهتكت سترهم ، وتسمى المبعثرة ، والبحوث لأنها تبعثر أحوالهم وتبحث وراء ما يخفون من نفاق وما يتعللون به من معاذير .

(١) « بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِنَ الْمُشْرِكِينَ »

يعلن القرآن براءة الله ورسوله مما كان الرسول قد عاهد المشركين عليه ، لما ثبت من نقضهم له ، وعدم خلوص أمرهم فى تنفيذه .

(٢) « فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ »

تعطى هذه الآية أجلا مدته أربعة أشهر لاعتبار هذا الفسخ نافذاً فى الواقع . وروى ابن اسحاق وغيره أنها نزلت فى أهل مكة ، فقد كان الرسول صالح قريشا عام الحديبية على هدنة مدتها عشرة سنوات يأمن فيها الناس ، فدخلت خزاعة فى عهد رسول الله ﷺ . ودخل بنو بكر فى عهد قريش ، فعدت بنو بكر على خزاعة ونقضوا عهدهم ، وأعانتهم قريش بالسلاح ، وبالرجال ، فانهزمت خزاعة إلى الحرم .

فخرج الخزاعيون إلى الرسول يستغيثونه وأنشده عمرو بن سالم منهم قصيدة مطلعها :

يارب إنى ناشــد محمداً حلف أبينا وأبيه الأتلدا

فقال الرسول : « لا نصرت إن لم أنصر بنى كعب » يعنى خزاعة.

(٣) « وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »

إنذار وإعلام من الله ورسوله بفسخ العهد وأذيع هــذا الأذان يوم الحج الأكبر وهو يوم النحر بألا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، وهذا معنى البراءة من المشركين .

(٤) « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ »

استثناء ممـا قررته الآية السابقة ، ومضمون هذا الاستثناء أن من كان معاهداً فلم ينقض العهد ، ولم ينقص من شروطه شيئاً ، ولم يعاون على المسلمين عدوهم فله إتمام مدته ، والحفاظ على عهده حتى ينتهى أجله . ولو كانت مدته أكثر من أربعة أشهر .

(٥) « فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

فإذا مضت الأشهر التي حرم الله فيها على المؤمنين دماء الكافرين والتعرض لهم ، فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم إلا من جرمت السنة قتلهم كالراهب والمرأة والصبي وغيرهم . وخذوهم أسرى ، واحصروهم لا يدخلون بلادكم إلا بإذن منكم وأمان ومراقبة ، وراقبوهم في كل مرصد يمكن أن تأخذوهم على غرة منه . وبقية الآية في غير حاجة إلى بيان .

(٦) « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ »

وإن أحد من هؤلاء الذين أمر الله بقتالهم طلب جوارك وأمانك فأعطه الجوار والأمان حتى يسمع القرآن ، فإن استجاب لما يسمع فيها نعمت ، وإن أبى فعليك رده إلى مأمنة .

روى عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل من المشركين إلى على بن أبي طالب فقال : إن أراد الرجل منا أن يأتي محمداً ﷺ بعد انقضاء الأربعة أشهر فيسمع كلام الله ، أو يأتيه بحاجة قتل ؟ فقال على بن أبي طالب . لا . وأن الله تبارك وتعالى يقول : « وأن أحد من المشركين استجارك فأجره . . . الآية .

(٧) « كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ »

(٨) « كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ »

كيف يكون للمشركين عهد عند الله ورسوله يأمنون به مع ما تنطوى عليه نفوسهم من شر ، ومع سوء ما يصنعون بالمسلمين .

بل كيف يؤمنون وهم الذين لو قويت شوكتهم وظهروا على المسلمين لم يراعوا فيهم عهداً ولا ذمة ؟ ! وهذا الذي تجدونه من ألسنتهم ليس إلا محاولة لإرضائكم وخديعتكم عما تكنه قلوبهم لكم من شر .

(٩) « اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

(١٠) « لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ »

يقال إن الآيتين تعنيان اليهود الذين باعوا كلمات الله بطلب الدنيا وإيثار رياساتهم ووظائفهم . وهؤلاء لا يختلفون عن المشركين في أنهم لا يراعون في الله عهداً ، ولا يرعون لمؤمن ذمة ولا حرمة .

(١٣) « أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ »

فيه تحريض على قتالهم ، وكيف لا ؟ وهم الذين نقضوا عهدهم ؟ ومن قبل هموا بإخراج الرسول إذ منعوه من الحج والعمرة والطواف . وهم نقضوا عهدكم وبدأوكم بالقتـال أول مرة يوم بدر ، وكنتم خرجتم للعير لا القتال.

(١٤) « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ »

(١٥) « وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »

أمر بقتال المشركين ، إن تقاتلوه يعذبهم الله بأيديكم : ويشف صدور بنى خزاعة الذين أعانوا عليهم ونقضوا من قبل عهدهم . ويذهب غيظ قلوبهم إذا قاتلتم أعداءهم ، وانتقمتم لهم منهم .

وفى قوله يتوب الله على من يشاء ، إشارة إلى توبته سبحانه على من تاب عليهم مثل أبى سفيان ، وعكرمة بن أبى جهل وغيرهما .

(١٦) « أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ »

فى الآية بيان وتعقيب على ما سبق ، ومعناها أن ماطلب إليكم من قتال المشركين ، ومحادثتهم هو ما كان ينبغى أن يحدث ، إذ ليس من الطبيعى أن تتركوا دون ابتلاء وامتحان يعرف فيه المؤمنون المجاهدون المخلصون الذين لم يتخذوا بطانة أو وليجة . . . من دون الله ولا رسوله ، ولا المؤمنين .

(١٧) « مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ »

لما تقرر فى الآيات السابقة منعهم عن المسجد الحرام ، بينت هذه الآية لذلك أنهم ليسوا أهلا لما يتصل بالمسجد الحرام من أعمال كالسدانة والسقاية ، وعمارة البيت .

ويروى أن العباس لما أسر وعيِّر قال : تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا . فقال على : ألكم محاسن ؟ قال نعم : إنا لنعمر المسجد الحرام ، ونحجب الكعبة ، ونسقى الحاج ، ونفك العانى ، فنزلت الآية رداً عليه .

ثم أضافت الآية سبباً آخر لمنعهم من عمارة المسجد وهو أن من غير الطبيعى أن المسجد الحرام الذى هو قبلة

الإسلام يعمره هؤلاء المشركون الذين يشهدون على أنفسهم بالكفر كلا دخلوه ، وذلك بالسجود للأصنام والتقرب منها .

(١٨) « إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ »

تؤكد هذه الآية الرد السابق على قول المشركين إنهم عمّار المسجد الحرام فتقرر أن الذى يعمر مساجد الله حقاً هم المؤمنون الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ولا يخشون أحداً إلا الله .

(١٩) « أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ »

افتخر عباس بن عبد المطلب بالسقاية ، وافتخر شيبة بالعمارة وافتخر على بالإسلام وبالجهاد ، فنزلت الآية تصديقاً لعلى . وبياناً لمنزلة الجهاد عند الله ، وأنه لا تعد لها منزلة ، والله لا يهدى القوم الذين يظلمون فى حكمهم فيسوون بين أعمال لا تجوز التسوية بينها لعدم تكافئها . وهذا ما أكدته الآيتان التاليتان بعد وهما « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم * خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم » .

(٢٣) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »

ذكر الواحدى فى أسباب النزول عن الكلبى قال :

لما أمر الرسول عليه السلام بالهجرة إلى المدينة جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامرأته : إنا قد أمرنا بالهجرة ، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه ، ومنهم من يتعلق زوجه وعياله وولده ينشدون الله ألا يدعهم إلى غير شىء ، فيرق الرجل فيجلس معهم ، ويدع الهجرة فنزلت عتاباً لهم .

ومن يتول المشركين فهو من الظالمين لأن من رضى بالشرك فهو مشرك .

(٢٤) « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ »

إن خير ما تفسر به هذه الآية هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« إن الشيطان قعد لابن آدم ثلاث مقاعد : قعد له فى طريق الإسلام فقال : لم تذر دينك ودين آبائك فخالفه وأسلم . وقعد له فى طريق الهجرة فقال له : أتذر مالك وأهلك فخالفه وهاجر . ثم قعد له فى طريق الجهاد فقال له: تجاهد فتقتل ، فينكح أهلك ويقسم مالك ؟ فخالفه وجاهد فحق على الله أن يدخله الجنة » .

(٢٥) « لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ »

(٢٦) « ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ »

(٢٧) « ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »

بعد فتح مكة تحركت هوازن فى جيش قيل ثمانية آلاف وقيل أربعة لمقاتلة الرسول ، واستاقوا مع الجيش أموالهم ومواشيهم ونساءهم وأولادهم .

وعلم الرسول بذلك فندب رجاله للقتال ، واستعار من صفوان بن أمية بن خلف الجمحى دروعاً ، ومن ربيعة المخزومى ثلاثين ألفاً فلما قدم قضاه إياها .

ونهض الرسول حتى أتى وادى حنين وهو واد من أودية تهامة بين مكة والطائف وكانت عدة جيشه اثنى عشر ألفاً ، وقيل ستة عشر فقال بعضهم : لن نغلب اليوم عن قلة ، فهذا معنى قوله « إذ أعجبتكم كثرتكم » وكما يقول المفسرون وكلوا إلى هذه الكلمة .

وكانت هوازن قد كمنت فى جنبتى الوادى فحملت على المسلمين — وكان ذلك فى غبش الصبح حملة رجل واحد ، فانهزم جمهور المسلمين ، ولم يلتفت أحد إلى أحد . وتفرق هذا الجيش الضخم ضيقة به السبل من الفزع والاضطراب وهول المفاجأة ، وهنا معنى قوله سبحانه « وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » .

وثبت رسول الله ﷺ وثبت معه عشرة من أصحابه ، لم ينهزم ولم ينهزموا . وكان الرسول على بغلته الشهباء «دلدل» فأمر العباس أن ينادى : يا أصحاب السَّمُرة[1] . فنادى العباس . فحين سمعوا صوته انعطفوا إليه — كما قال هو — عطفة البقرة على ولدها قائلين: يالبيك يالبيك، فعادوا يقاتلون الكفار، فهذا معنى قوله سبحانه: «ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين» .

(١) التى كانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية .

ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بين وجوه الكفار ، ثم قال « انهزموا ورب محمد » . فما لبث أمر المشركين أن أدبر وكتب الله النصر لرسوله .

ولما قسم الرسول غنائم حنين جاءه وفد من هوازن مسلمين قالوا يارسول الله : إنك خير الناس وأبر الناس ، وقد أخذت أبناءنا ونساءنا وأموالنا فقال لهم الرسول :

« إنى كنت قد استأنيت بكم ، وقد وقعت المقاسم ، وعندى من ترون ، وإن خير القول أصدقه ، فاختاروا إما ذراريكم ، وإما أموالكم » . فقالوا : « لا نعدل بالأنساب شيئاً » .

فقام الرسول خطيباً وقال : « هؤلاء جاءونا مسلمين ، وقد خيرناهم فلم يعدلوا بالأنساب، فرضوا برد الذرية ، وما كان لى ولبنى عبد المطلب وبنى هاشم فهو لهم » .

وفعل المهاجرون والأنصار مثله ، وكثر أكثر المسلمين . ومن امتنع عن رد الذرارى عوضه الرسول عنها .

وهذا معنى قوله « ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم» »

(٢٨) « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »

المشركون نجس ، بجسهم معنى الشرك ، ومن ثم فإذا أسلم المشرك وجب أن يغتسل فقد روى أن الرسول ﷺ مر يوماً بثمامة فأسلم فبعث به إلى بستان أبى طلحة وأمره أن يغتسل ، فاغتسل وصلى ركعتين ، فقال لنا رسول الله ﷺ « لقد حسن إسلام صاحبكم » .

وبسبب نجس المشرك حرمت الآية عليه أن يقرب المسجد الحرام . وقد اتسع اختلاف العلماء حول تحديد « الحرام » هذا : أهو المسجد فقط ؟ أم الحرم كله ؟ وهل الآية عامة فى سائر المشركين وسائر المساجد ؟ كما قال أهل المدينة .

أم هى عامة فى سائر المشركين خاصة بالمسجد الحرام حيث يصح لهم أن يدخلوا غيره كما قال الشافعى .

ولقد نزلت الآية وتقرر هذا التحريم فى السنة العاشرة فى أرجح الأقوال ، ولما نزلت خشى المسلمون على أرزاقهم وقالوا : من أين نعيش ، لأن المشركين هم الذين كانوا يجلبون الأطعمة والتجارات . فأمن الله خوفهم بقوله « وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء »

(٢٩) « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ

وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ »

فى الآية الأمر الصريح بقتال جميع الكفار ، واختص أهل الكتاب بالذكر لأن ذنبهم أكبر ، وجرمهم أعظم؛ إذ كانوا على بينة من الأمر ،جاءتهم الرسل . ونزلت إليهم الكتب وبين الله لهم فيها ما يحل وما يحرم ، وأخبرهم برسوله محمد ، وبين لهم صفته ، وأمرهم بالإيمان به . . ومع هذا : « قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله » فكفروا مع قيام الحجة وسقوط العذر .

وفى الآيات تحديد للذنب ، الذى من أجله يقاتل هؤلاء وهو : عدم إيمانهم بالله واليوم الآخر ، ثم « إنهم لايحرمون ما حرم الله ورسوله » .

وتضمنت الآية حكماً جديداً هو إباحة قبول الجزية منهم بدلا من القتل ولم تكن مباحة من قبل ، ولعل الله سبحانه قد جعل منها تعويضاً للمسلمين الذين أوذوا بتحريم دخول المشركين الحرم وما كانوا يفيدونه منهم فى التجارة وغيرها .

وقد فصل العلماء القول فى موضوع الجزية : من تجب عليه ؟ ومتى تجب ؟ وحكمة وجوبها ؟ وهل يدفعها بنفسه أم لا ؟ إلى آخر التفصيلات التى حفلت بها كتب الفقه والأحكام لمن شاء المزيد منها .

(٣٠) « وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ »

روى فى سبب قولهم هذا أن اليهود لما قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام ، رفع الله التوراة عنهم ومحاها من قلوبهم ، فخرج عزير يسيح فى الأرض ، فأتاه جبريل فقال : أين تذهب ؟ فقال أطلب العلم ، فعلمه التوراة كلها ، فجاء إلى بنى إسرائيل فعلمهم ، فجعلوا يدرسونها من عنده ؟ وكان علماؤهم قد دفنوا التوراة حين اضطهدهم بختنصر ؟ ثم إنهم وجدوا التوراة المدفونة مساوية لما كان عزير يعلمهم إياه ، فقالوا إن ذلك لم يتهيأ لعزير إلا لأنه ابن الله .

أما مقالة النصارى فى عيسى عليه السلام فمعروفة .

وقد نفى القرآن ما قالوه فى غير موضع ، وبأكثر من أسلوب حيث أكد أنه الواحد الأحد « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

(٣١) « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ »

سئل حذيفة عن هذه الآية « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » هل كانوا يعبدونهم ؟ فقال: لا ولكن أحلوا لهم الحرام فاستحلوه ، وحرموا عليهم الحلال فحرموه . فهم إذاً جعلوهم كالآلهة يستمعون لقولهم ، ويصدرون عن رأيهم ، فكأنما عبدوهم .

وقوله « والمسيح بن مريم » معطوف على « أحبارهم ورهبانهم » أى اتخذوه كذلك ربا من دون الله ، وقد مضى تبرؤ المسيح عليه السلام مما افترى عليه منهم فى قوله سبحانه فى سورة المائدة : « وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم » .

(٣٤) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »

نزلت فى العلماء والقراء من أهل الكتاب كانوا يأخذون الرشا من سفلتهم . وقيل : بل كانوا يفرضون عليهم إتاوات باسم خدمة الدين والقيام بالشرع ، ثم يحبسون ذلك ويكنزونه لأنفسهم .

وقيل : وهو قول أبى ذر رضى الله عنه . المراد بها أهل الكتاب وغيرهم من المسلمين .

روى البخارى عن زيد بن وهب قال : مررت بالربذة فإذا أنا بأبى ذر فقلت له : ما أنزلك منزلك هذا ؟ قال : « كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية فى الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله » فقال معاوية : نزلت فى أهل الكتاب . فقلت : نزلت فينا وفيهم ، وكان بينى وبينه فى ذلك . فكتب إلى عثمان يشكونى ؛ فكتب إلىّ عثمان أن أقدم المدينة ، فقدمتها ، فكثر علىّ الناس حتى كأنهم لم يرونى من قبل ؛ فذكرت ذلك لعثمان فقال : إن شئت تنحيت فكنت قريباً ، فذاك الذى أنزلنى هذا المنزل ، ولو أمروا علىّ عبداً حبشياً لسمعت وأطعت .

وقد اختلف العلماء فى المال الذى أديت زكاته أيسمى كنزاً أم لا ؟ وأرجح الأقوال أن ما أديت فيه الزكاة لا يسمى كنزا . بدليل ما رواه البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، ثم تأخذ بلهزمتيه — يعنى شدقيه — يقول : أنا مالك أنا كنزك . ثم تلا : « ولا يحسبن الذين يبخلون . . . الآية » .

ويقول القرطبى : « ويحتمل أن يكون بحمل ما روى عن أبى ذر فى هذا — يعنى عدم الإبقاء على شىء من الذهب والفضة — ما روى أن الآية نزلت فى وقت شدة الحاجة وضعف المهاجرين ، وقصر يد الرسول ﷺ عن

كفايتهم ، ولم يكن فى بيت المال ما يسعهم . وكانت السنون الجوائح هاجة عليهم ، فنهوا عن إمساك شيء من المال لا على قدر الحاجة ؛ ولا يجوز ادخار الذهب والفضة فى مثل ذلك الوقت».

وروى عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية «والذين يكنزون الذهب والفضة و...» قال :

كبر ذلك على المسلمين فقال عمر : أنا أفرج عنكم : فانطلق فقال : يانبى الله : إنه كبر على أصحابك هذه الآية فقال الرسول :

«إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقى من أموالكم ، وإنما فرض المواريث لتكون لمن بعدكم» . قال : فكبر عمر .

ثم قال رسول الله ﷺ : ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ، المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته » .

ويروى فى قوله «فبشرهم بعذاب أليم» أن رسول الله ﷺ قال : «بشر الكنازين بكىٍّ فى ظهورهم يخرج من جنوبهم ؛ وبكىٍّ من قبل أقفائهم يخرج من جباههم» .

وهو ماتضمنته الآية التالية : «يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ».

(٣٦) « إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِى كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ »

التوقيت الذى يجب أن تتعلق به الأحكام والعبادات هو التوقيت بالشهور والسنين العربية التى تعرفها العرب ، دون الشهور التى تعتبرها الملل الأخرى .

«منها أربعة حرم» هى: ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى الآخرة وشعبان .

«فلا تظلموا فيهن أنفسكم» بارتكاب الذنوب والمعاصى ، لأن تعظيم الله لهذه الشهور يستوجب إخلاص العبد الطاعة فيها . وقيل لا تظلموا فيهن أنفسكم: بالقتال والاعتداء .

(٣٧) « إِنَّمَا النَّسِىءُ زِيَادَةٌ فِى الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ »

النسىء : الزيادة كان العرب أصحاب حروب وغارات وكانوا يحرمون القتال فى الحرم ، فإذا أرادوا قتالا حرموا صفراً بدله وقاتلوا فى الحرم فكانوا كذلك شهراً فشهراً حتى دار التحريم على السنة كلها وجاء الإسلام وقد رجع المحرم إلى أصل موضعه الذى وضعه الله فيه وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ».

وقيل بل كان هذا التأخير يحدث بالنسبة للحج فكانوا يحجون فى كل شهر عامين . فى ذى الحجة ثم محرم ثم صفر إلى آخره .

وقد اعتبر الإسلام هذا النسىء زيادة فى الكفر لأنهم أعطوا أنفسهم حق التحليل والتحريم الذى هو لله سبحانه. وهذا ما وصفته الآية فى قوله : «يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً » .

«ليواطئوا» معناه يفعلون ذلك لكى تبقى الأشهر الحرم أربعة فى العدد كما أراد الله مع أنها ليست الشهور التى أراد الله وهذا معنى قوله : «زين لهم سوء عملهم»

(٣٨) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ »

نزلت فى التحريض على القتال فى غزوة تبوك لأن رسول الله ﷺ لما رجع من الطائف وحنين أمر بالخروج لغزو الروم وكان الحر شديداً والناس فى عسرة والبلاد مجدبة فعظم على الناس الغزو وأحبوا الظلال والمقام فى المال والمساكن فلما علم الله تثاقلهم عن الجهاد أنزل هذه الآية .

وفى قوله « أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » عتاب من الله لهم على إيثارهم راحة الدنيا على راحة الآخرة التى لا تنال إلا بالنصب والمشقة فى الدنيا.

(٣٩) « إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »

فيها تهديد ووعيد لمن تثاقلوا عن الجهاد بالعذاب الأليم فى الآخرة وبأن يبدل الله لرسوله قوماً لا يتخلفون عنه وهو إنذار بعذاب آخر فى الدنيا فيجتمع عليهم العذابان فى الدنيا وفى الآخرة .

(٤٠) « إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »

نزلت فى هجرة الرسول إلى المدينة بعد ما أجمع الكفار على قتله كما هو معروف حيث خرج الرسول وصاحبه حتى أتيا غار ثور . وتتبعت قريش أثره حتى انقطع الأثر عند باب الغار فنظروا فإذا العنكبوت قد نسج على بابه وإذا حمامة أمرها الله فباضت على نسج العنكبوت وجعلت ترقد على بيضها .

وقال أبو بكر للنبي ﷺ وهما فى الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه فقال له الرسول : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » وهذا معنى قوله تعالى « لا تحزن إن الله معنا » .

« فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها » .

ولقد بذلت قريش كل ما فى وسعها لتظفر بالرسول حيا أو ميتاً وفى كتب السيرة تفاصيل كثيرة لذلك ولكن الله غالب على أمره فجعل كلمة الكافرين السفلى وكلمته سبحانه هى العليا .

(٤١) « انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ »

نزلت هذه الآية فى الذين شغلتهم أموالهم عن الجهاد فأبى الله سبحانه أن يقبل عذرهم وأمرهم بأن ينفروا فى سبيل الله .

ويروى أن هذه الآية لما نزلت اشتد أمرها على الناس فنسخها الله تعالى وأنزل « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج » .

(٤٢) « لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ »

لما رجع الرسول من غزوة تبوك أظهر الله نفاق المنافقين الذين تعللوا من قبل لكى لا يخرجوا للجهاد لما يخافون من مشقته .

ولكى يفضح الله نفاقهم بين أنهم لو دعوا ليظفروا بعرض من أعراض الدنيا أو لو كان السفر سهلا ومريحاً لرحبوا به ولتبعوك « ولكن بعدت عليهم الشقة » .

هؤلاء المنافقون يحاولون بالكذب أن يخفوا حقيقتهم التى فضحها الله وسيحلفون لتصدقهم ولكنهم بفعلهم هذا وبالأعذار التى يدعونها يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون » .

(٤٣) « عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ »

هذا عتاب تلطف من الله لرسوله حين أذن للمنافقين بأن يتخلفوا عن الخروج لأن إذنه لهم يجعلهم يدعون أنهم

كانوا مستعدين للقتال لو لم يأذن لهم أما لو كان أخرجهم ولم يقبل ما اعتذروا به فإن حقيقة نفاقهم كانت تتضح ويظهر كذبهم .

(٤٤) « لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ »

(٤٥) « إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ »

بعد أن عاتب الله رسوله على إذنه للمنافقين بالتخلف قرر فى هذه الآيات أن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويثقون فيما عند الله لا يقبلون أن يستأذنوا ويتخلفوا فى مثل هذه المواقف ، بل إن مواقف الجهاد والعسرة هى التى يتجلى فيهم إيمانهم واستعدادهم للبذل والفداء .

أما الذين يستأذنون فهم المنافقون ، الذين لم يدخل الإيمان فى أفئدتهم والذين ارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون .

(٤٦) « وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ »

وهؤلاء المنافقون الذين يستأذنونك للقعود ، ويتعللون بالأعذار ، حقيقة حالهم بينة . فلا تنخدع بهم إذ لو كانوا على نية الجهاد وكانوا حقا صادقين فيما يعتذرون لكانوا أعدوا للخروج عدته . ولظهر فى سلوكهم ما يدل على صدقهم .

ولكنهم بما أضمروا من نفاق ، وبما انطوت عليه نفوسهم من تخاذل كرههم الله وكره انبعاثهم وخروجهم معك فثبط هممهم وقيل : اقعدوا مع القاعدين .

(٤٧) « لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ »

ومع هذا فلا تأس عليهم ولا تبتئس بما فعلوا ، فهو الخير لك . إذ لو خرجوا وهم على ما هم عليه من تخاذل لكان خروجهم شراً من تخلفهم ، ولساروا فى الجيش بالتخذيل والفتنة ، والأراجيف ، ولأسرعوا بالإفساد فيما بينكم ، وفيكم سماعون لهم على استعداد لأن يتأثروا بما يقال لهم ، وفى هذا كله من الفتنة ما فيه فلعلك أن تحمد الله أن ثبطهم وأقعدهم . والله عليم بالظالمين .

(٤٨) « لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ »

وإن ما يفعلونه اليوم ليس جديداً عليهم فهم أهل نفاق قديم ، وهم دعاة فتنة وشقاق طالما أفسدوا حتى أظهرك الله على أمرهم وفضح لك حقيقتهم وظهر أمر الله وهم لما أظهر الله من أمرهم كارهون .

(٤٩) « وَمِنْهُم مَن يَقُولُ ائْذَن لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ »

(٥٠) « إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ »

نزلت فى المنافق جدّ بن قيس الذى قال له الرسول حين تأهب لغزوة تبوك : يا أبا وهب : هل لك فى جلاد بنى الأصفر تتخذ منهم سرارى ووصفاء ؟ فقال المنافق : يا رسول الله ، لقد عرف قومى أنى رجلٌ مغرم بالنساء ، وإنى لأخشى إذا رأيت بنات بنى الأصفر ألا أصبر عنهن ، فأفتتن بهن ، فلا تفتنى بهن ، وائذن لى فى القعود ، وأنا أعينك بمالى .

فأعرض الرسول ﷺ عنه وأذن له ، فنزلت هذه الآية تؤكد أن العذر الذى اصطنعه الرجل غير صادق ، وأن الفتنة التى ادعى أنه يخشاها هو ساقط إلى أذنيه فيها ، ومأواه ومأوى أمثاله النار وإن جهنم لمحيطة بالكافرين .

ثم لخص سبحانه فى الآية الثانية حقيقة موقف هؤلاء المنافقين من النبى ﷺ وأنهم قوم يريدون به الشر ، وأن ما يصيبه من نصر وخير يؤذيهم ، ويقذى أعينهم فيكتمون غيظهم وحقدهم ، وإن أصابته مصيبة من هزيمة أو شر استبشروا وقالوا : قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون .

(٥١) « قُل لَن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ »

قل لهم يا محمد : إن وليك الله ، وأن وكيلك الله ، ولن يصيبك إلا ما قدر عليك وما كتب لك ، ولن يصيب الولى وليه إلا بما فيه الخير حتى ولو بدا للغافلين فى صورة الشر ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، هو حسبهم وهو ناصرهم ، ونعم المولى ونعم النصير .

(٥٢) « قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُتَرَبِّصُونَ »

قل يا محمد للمنافقين « الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم ، وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين » .

قل لهؤلاء : هل تربصون بنا ، إلا إحدى الحسنيين : إما النصر على عدو الله وعدونا والفوز بالغنائم وبالدنيا ؛

وإما الشهادة فى سبيل الله والفوز بما أعده للشهداء من حياة خالدة ونعيم مقيم ! فما تنتظرونه لنا ننتظره نحن لأنفسنا ، وما ترونه شراً نراه نحن فى كلا الحالين خيراً .

أما نحن فنتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده إن بقيتم على ما أنتم عليه حتى تلاقوه فيعذبكم ، أو نعذبكم نحن بأيدينا إذا أذن الله لنا فى قتالكم .

فأى الفريقين أهدى سبيلا ؟ وأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون

(٥٣) « قُلْ أَنفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ »

يروى عن ابن عباس أنها نزلت فى « الجد بن قيس » الذى نزل فيه قوله سبحانه « ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى » حيث عرض الرجل على رسول الله ﷺ أن يقعد عن الخروج للجهاد على أن يعين الرسول بماله . فأمر الله رسوله أن يقول له ولمثله : أنفقوا ما شئتم طوعاً ، أو كرهاً فلن يتقبل منكم ، لأنكم فاسقون خارجون عن طاعة الحق سبحانه ، كافرون به .

وفيه دليل على أن أعمال البر التى يعملها الكافر لا يثاب عليها ولا ينتفع بها فى الآخرة ، وإنما يعجل له ثوابها فى الدنيا .

يدل على ذلك ما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يارسول الله . ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين فهل ذلك نافعه ؟ قال الرسول ﷺ : « لا ينفعه إنه لم يقل يوماً رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » .

وكذا ما روى أنس أن الرسول ﷺ قال : « إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يعطى بها فى الدنيا ، ويجزى بها فى الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل لله بها فى الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها » .

ويزيده تأكيداً قوله سبحانه : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً » .

(٥٤) « وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ »

فى هذه الآية بيان وشرح لأسباب الحكم الذى صدر فى الآيات السابقة من أن ما ينفق هؤلاء الكافرون والمنافقون غير متقبل عند الله .

والسبب الأول : أنهم كفروا بالله ورسوله ، والكفر بالله هو الذنب الأعظم الذى لا يشفع فيه شافع من عمل مهما صلح وحسن ، وليتهم آمنوا ، ولم ينفقوا لكان خيراً لهم .

والسبب الثانى : أنهم لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ، وهذا دليل على أن قلوبهم معرضة عن ذكر الله وعن الخير ، ودليل على أنهم لا يرجون ما عند الله ، ولا يطمعون فى رحمته ، فقلوبهم مطموسة على الكفر ، لم تنشرح بعد للإيمان ، ومن ثم يكون إنفاقهم غير خالص لله ، ولذا لا يستحق التوبة .

والسبب الثالث : أنهم حين ينفقون ــ إذا أنفقوا ــ لا يعملون ذلك بنية طيبة ، وإقبال على الله وعلى الخير ، وإنما يفعلونه مكرهين خائفين ، وإذا كانت النية أساس ثواب العمل . فهؤلاء لانية للإنفاق عندهم ، بل إنهم يعدون ما ينفقون غرماً ومصيبة . وإذا كان الحال هكذا فكيف يستحقون المثوبة .

(٥٥) « فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ »

بعد أن بين الله سبحانه من حال المنافقين ما بين فى الآيات السابقة حذر رسوله ــ والمؤمنين ــ من أن ينخدعوا بزخرف الحياة الذى يناله هؤلاء ، فما هو إلا فتنة لهم ، وضعها الله بين أيديهم ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا إذ يجدون أنفسهم مضطرين إلى الإنفاق منها حيث يكرهون فى زكاة ، أو حرب أو مثلها ثم لا يظفرون لما أنفقوا بثواب ، لأن الله قضى أن يموتوا وهم كافرون .

(٥٦) « وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ »

(٥٧) « لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ »

بين الله لرسوله ــ وللمؤمنين ــ سمة المنافقين فى أنهم يحلفون بالله ــ كاذبين ــ إنهم لمنكم ــ وما هم منكم ــ ولكنهم قوم يخافونكم . ويخشون أن تظهروا على حقيقتهم فتقتلوهم ، فيحاولون بالحلف الكاذب أن يستروا نفاقهم .

ولو قد استطاعوا أن يهربوا من وجوهكم ويختفوا عن أعينكم فى حصن يلتجئون إليه أو مدخل ، ومكان يعسر الوصول إليه منكم ، أو مغارة فى جبل قصى لاتعرفون مكانه لفعلوا وولوا إليه وهم يجمحون كما يجمح الفرس إذا أفلت من لجامه .

إنهم يعيشون بينكم مكرهين مقهورين ، فلا تأمنوا لهم ، ولا تنخدعوا بما يقولون ولا تصدقوهم حين يحلفون .

(٥٨) « وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ »

عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : بينا رسول الله ﷺ يقسم مالا إذ جاءه ابن ذى الخويصرة التميمى وهو حرقوص بن زهير أصل الخوارج فقال : اعدل فينا يارسول الله .

فقال الرسول : « ويلك . ومن يعدل إذا لم أعدل » فنزلت هذه الآية .

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال ساعتها : يا رسول الله : دعنى أقتل هذا المنافق . فقال الرسول : « معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى ؛ إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » .

وفى قوله : « فإن أعطوا منها رضوا » بيان لحالة المنافق هنا وفى كل مكان وهى أنه لا يعرف الإخلاص فى عقيدة ، وإنما كما قال القرآن « يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة » .

(٦٠) « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »

هذا بيان لمصارف الصدقات كما حددها القرآن ، والصدقة متى أطلقت فى القرآن فالمراد بها صدقة الفرض .

وقد اختلف العلماء فى تحديد الفرق بين الفقير والمسكين اللذين بدأ النص فى الآية عليهما . فقيل إن الفقير أحسن حالا من المسكين ، وقيل الفقير الذى لديه بعض ما يكفيه ، والمسكين الذى لا يجد شيئاً .

وقيل عكس ذلك وهو أن المسكين أحسن من الفقير حالا بدليل دعاء الرسول ربه : « اللهم أحينى مسكيناً وأمتنى مسكيناً » ومن الثابت أنه عليه السلام تعوذ بالله من الفقر ، فلو كانت حال المسكين أسوأ . لما سألها ربه .

والخلاف طويل ، والقول فيه فيّاض ، وتظهر آثاره فى غير باب الصدقات .

« والعاملين عليها » المصرف الثالث للصدقة ، والمراد بهم جباة الصدقات وسعاتها الذين يتولون تحصيلها ، واختلف فى المقدار الذى يستحق أهو الثمن باعتباره أحد المصارف الثمانية فى الآية .

أم بمقدار عمله وحاجته لأنه عطل نفسه لمصلحة الفقراء فيجب أن تكون كفاية من مالهم ؟

وخرج العلماء من هذا إلى الاستدلال بأن للإمام أن يأخذ أجراً على إمامة الناس فى الصلاة حتى انقطع لها وقعد بسببها عن الكسب .

« والمؤلفة قلوبهم » هم أناس كانوا فى صدر الإسلام يظنون إسلامهم طمعاً فيما يفيدون منه .

ولقد عرفهم الرسول ﷺ وأعطاهم يتألف قلوبهم فى ظرف كانت فيه شوكة الإسلام لما تستحد بعد ، وفى حديث الرسول ﷺ « فإنى أعطى رجالا حديثى عهد بكفر أتألـفهم » .

وقد اختلف العلماء فى : هل يصح إعطاؤهم متى أعز الله الإسلام ؟ وأكثر الآراء على المنع بدليل أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قطع سهمهم لما أعز الله الإسلام وأهله .

«وفى الرقاب » أى فى المعاونة على تحريرها فللإمام أن يشترى رقاباً فيحررها فى سبيل الله ليرفع عنها إصرها ويكرم إنسانيتها ، وفيه دليل على حرص الإسلام على تحرير العبيد ، وإنهاء حالة الرق التى ورثها من المجتمع الجاهلى ، فهنا يحسب حسابهم وفى أماكن أخرى يعتبر عتقهم إحدى أنواع الـكفارات الذنوب .

« والغارمين » هم الذين استغرقتهم الديون وركبتهم وعجزوا عن الوفاء بها فلهم فى الصدقات سهم ، معونة لهم على التخلص من مذلة الدين وعاره .

يستثنى من ذلك من يعرف أن دينه كان فى سفاهة فلا يعان عليه ، إذ المساعدة والمعونة لا تكون إلا فيما هو بر أو تقوى لا فيما هو الإثم والعدوان .

« وفى سبيل الله » هم الغزاة المحاربون ، يأخذون ما ينفقون فى غزوهم ومرابطتهم فى سبيل الله أغنيـاء كانوا أم فقراء .

وقيل : المراد بهم الحجاج الذين انقطعت بهم السبل . والأول أولى وأرجح بدليل قوله عليه السلام :

« لا تحل الصدقة لغنى إلا لخمسة : لغاز فى سبيل الله ، أو لعامل عليها ، أو لغارم ، أو لرجل اشتراها بماله ، أو لرجل له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهدى المسكين للغنى » .

« وابن السبيل » هو المسافر الذى انقطعت به الأسباب واغترب عن أهـله وبلده فإنه يعطى حتى ولو كان غنيا ببلده كما قيل . ويروى عن مالك : إذا وجد من يسلفه فلا يعطى .

(٦١) « وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

نزلت فى جماعة من المنافقين كانوا يؤذون رسول الله ﷺ . ويقولون ما لا ينبغى . فقال بعضهم : لا تقولوا حتى لا يبلغه فيقع فينا . فقال أحدهم ويدعى الجلاس بن سويد : نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول فإنما محمد أذن سامعة فنزلت الآية وفيها دفاع من الله سبحانه عن نبيه ووصف له بأنه سماع الخير ، وبأنه خير منهم بإيمانه بربه وإيمانه للمؤمنين ورحمة لهم ثم هددت المنافقين الذين يؤذون الرسول بالعذاب الأليم .

(٦٢) « يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ »

روى فى سبب نزولها ما قيل فى الآية السابقة مع بعض الخلاف فى التفصيل . فقيل إنهم لما أرادوا أن يقعوا فى النبى ﷺ كان بينهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس فسمعهم يقولون :

لئن كان ما يقوله محمد حقا لنحن أشر من الحمير ، فأتى النبى ﷺ فأخبره فدعاهم فسألهم فحلفوا أن عامراً كاذب ، وحلف عامر أنهم كذبة وقال : اللهم لا تفرق بيننا حتى تبين الصادق من الكاذب فنزلت هذه الآية .

(٦٣) « أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ »

المحادة : كالمشاقة وزناً ومعنى . يقال : حادّ فلان فلاناً أى صار فى حد غير حده ، وهى هنا كناية عن المعاداة ، والتحول عن الإخلاص والولاء .

والخطاب موجه إلى المنافقين الذين ذكر القرآن من قبل مواقفهم من الرسول وكراهيتهم له ، ينذرهم فيها بنار جهنم والخزى العظيم ، ويقرر لهم أن من حادّ الرسول فكأنما حادّ الله ، وأنه لن يخذل وليه ، ولن يرحم من شاقوا الله ورسوله .

(٦٤) « يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ »

كان المنافقون — كما هى طبيعتهم دائماً — يقولون بشأن الرسول ﷺ فيما بينهم ما يريدون . ثم يتمنون ألا يفضح الله أمرهم ، وقال بعضهم — فيما رواه السدى : والله لوددت أنى قدمت فجلدت مائة جلدة ، ولا ينزل فينا شىء يفضحنا فأنزل الله هذه الآية تهتك سترهم وتخزيهم بما خافوه .

ويروى عن الحسن قوله : كان المسلمون يسمون هذه السورة : « الحفّارة » لأنها حفرت ما فى قلوب المنافقين فأظهرته .

وقيل فى ذلك إن الله سبحانه عرف نبيه عليه السلام أسماءهم وأحوالهم كما قال تعالى «ولتعرفنهم فى لحن القول»، ولم تظهر أسماؤهم فى القرآن رحمة منه سبحانه وأن بعض أولادهم كانوا على الإسلام .

(٦٥) « وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ »

قال الطبرى :

بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير فى غزوة تبوك ، وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا : انظروا

هذا — يعنى النبى — يفتح قصور الشام ويأخذ حصون بنى الأصفر !! فأطلعه الله سبحانه على ما فى قلوبهم وما يتحدثون به فقال :

احبسوا علىّ الركب ، ثم أتاهم فقال لهم : قلتم كذا وقلتم كذا فقالوا ما كنا إلا نخوض ونلعب .

وذكر الطبرى عن عبد الله بن عمر قال : رأيت قائل هذه المقالة وديعة بن ثابت متعلقاً بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم يماشيها والحجارة تنكبه وهو يقول : إنما كنا نخوض ونلعب ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول: « أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون » .

ومن هذه الآية ، والنهى عن الهزل فيها فى الأمر الجاد ، أخذ العلماء آراءهم فى الهزل فى مسائل البيع والنكاح والطلاق وما يماثلها ، وكان لهم خلاف ينظره من شاء فى مصادره .

(٦٦) « لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ »

هؤلاء المنافقون الذين يستهزئون بالنبى ، ثم يجيئون إليه يعتذرون ويتنصلون مما قالوا . . قد حكم الله سبحانه عليهم بالكفر بعد الإيمان ، ومن ثم لا معنى لاعتذارهم ، إذ لن يقبل منهم عذر ، فليس بعد الكفر إثم .

وتختلف الروايات فيمن عناهم سبحانه بقوله :

« إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة » ، فقيل : كان المستهزئون ثلاثة : تكلم إثنان بما عابا به الرسول ﷺ وضحك الثالث فهذا المعفو عنه .

واختلف فى هذا المعفو عنه . . أ كان مسلماً أم منافقاً ، فقيل : كان منهم . وقيل : بل كان مسلماً : سمع فضحك ولم ينكر عليهم .

(٦٧) « الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ »

(٦٨) « وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ »

هذا تلخيص لسمات المنافقين وأعمالهم ، ونظرة القرآن إليهم وحكمه سبحانه عليهم .

فهم أولا على طبيعة واحدة لا تكاد تختلف فى زمان أو مكان ، وحيثما كنت رأيت المنافق هو هو كأنما رحل معك من حيث تركته .

ثم هم : يتعاطف بعضهم إلى بعض ، وتنسجم طباعهم ، وتلتقى خلائقهم ، كأنما كانا يتعارفان منذ بعيد .. فلعل هذا معنى قوله سبحانه « بعضهم من بعض » .

وهم دائماً فى جنب مصالحهم ومنافعهم الخاصة وليسوا فى جانب الحق ، والدليل أنهم : يأمرون بالمنكر ما دام هذا المنكر محققاً لهم ما أرادوا ، وينهون عن المعروف ما دام هذا المعروف عقبة فى وجه مطامعهم . ويقبضون أيديهم عن الإنفاق فى سبيل الله ، وقيل : عن الجهاد فى سبيله . وقيل : عن كل خير إذا لم يظفروا منه بمرادهم الخاص .

ومن يتصف بما سبق يدل يقيناً على نسيانه ربه ، فلو ذكره ما كان هذا حاله ، ولو ذكره ما وقع أصلا فى النفاق ، ولو ذكر المنافقون فى كل زمان ومكان ربهم لما قبلوا أن يكونوا من المنافقين ، ولاستقامت خلائقهم وصلح أمرهم ، لأن من يعمر وجدانه بذكر الله يستشعر من القوة والأيد ما يجرده من كل شائبة نفاق .

ولقد نسوا الله فنسيهم من رحمته ومن كرامته ، وسحب عنهم ظله ، وتركهم يستظلون بمن يشركون بهم . إن المنافقين هم الفاسقون .

وإذا كان هذا موقفهم فالخاتمة طبيعية كخاتمة الكفار ، فلا جرم أن لهم النار ، ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم .

(٦٩) « كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ »

فى الصحيح عن رسول الله ﷺ قال : «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » . قالوا يارسول الله : اليهود والنصارى ؟ ! قال : فمن ؟ .

وفى ضوء الحديث يكون معنى الآية أن المخاطبين الذين أرسل الرسول إليهم يسيرون مخطئين على الطريق الذى سار فيه المخطئون من قبل .

والخلاق : هو الدين ، كما قال أبو هريرة ومعنى خضتم كالذى خاضوا : أخذتم فى أسباب اللهو واللعب ، أو خضتم كما خاضوا فى أمر الرسول عليه السلام فكذبتموه ، وكفرتم به .

ومع الفرق بينكم وبين من قبلكم فى أنهم كانوا أشد قوة وأكثر أموالا وأولاداً . فقد أحبط الله أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ، فاحذروا المصير نفسه .

(٧١) « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »

كما عرض سبحانه ، من قبل لأمر المنافقين ، وبين سماتهم وخلائقهم وعلاقة بعضهم ببعض . تحدث هنا عن سمات المؤمنين ، وصفاتهم ، وولاء بعضهم لبعض .

فهم لايأمرون إلا بالمعروف ، ولا يُقرُّون المنكر ، بل تراهم دائماً يعدلون مسلكهم أو مسلك غيرهم ليصبح دائماً على طريق الخير . وتلك أبرز المزايا التى يطبعها الإيمان فى سلوك المؤمن .

ثم هم يقيمون الصلاة ، وينشطون إليها مطمئنين مستبشرين لا كسالى ، ولا يراءون الناس . وهم يؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله .

وما دام هذا حالهم فالعاقبة معروفة ، هى الظفر برحمة الله ورضوانه التى تؤكدها الآية التالية والله عزيز يعز أولياءه ويقهر أعداءه ، حكيم فى تأييده للمؤمنين يدفع بهم شر الكفار والمنافقين ، ويمكن فى أرضه للحق والخير .

(٧٣) « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ »

إذا لم ينفع الكفار والمنافقين كل ما ساقه إليهم القرآن من وعد ووعيد ومن تذكير وتحذير . . فلا مناص من الجهاد بالسيف ، وقد أُمر به النبى ﷺ فى هذه الآية .

ولابن عباس رضى الله عنه : أن الجهاد بالسيف يكون مع الكفار ، أما المنافقون ، فيجاهدون باللسان : أى بالجدل والحجة وشدة الزجر . وإذا بلغ الحال درجة المجاهدة ، فلا رحمة لهؤلاء ،ولا هوادة بهم ، بل الغلظة والشدة وضرب الرقاب . هذا جزاؤهم الذى أُمرت أن تقدمه لهم ، أما فى الآخرة فمأواهم جهنم وبئس المصير .

(٧٤) « يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ »

روى أنها نزلت فى عبد الله بن أبىّ كبير المنافقين . رأى رجلين يقتتلان أحدهما من غفار ، والآخر من جهينة ، وكانت جهينة حلفاء الأنصار ، فظهر الغفارى على الجهنى . فقال ابن أبىّ :

يابنى الأوس والخزرج . انصروا أخاكم ، فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل « سمن كلبك يأكلك » ووالله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

فأخبر الرسول ﷺ بذلك فجاءه ابن أبيّ فجعل يحلف ما قال . فنزلت تكذيبه وتفضحه وتفضح نفاقه وتآمره .

وفى قوله : « وهموا بما لم ينالوا » يروى أن المنافقين تآمروا بالرسول وأجمعوا أن يقتلوه إذا التمسوا منه غرة وهم معه على بعض الطريق فى غزوة تبوك ، فتقدم بعضهم وتأخر بعضهم ، وكان الوقت ليلا فقالوا :

إذا أخذ فى العقبة دفعناه عن راحلته فى الوادى . وكان قائده فى تلك الليلة عمار بن ياسر ، وسائقه حذيفة ، فسمع حذيفة وقع أخفاف الإبل من خلفهم فالتفت فإذا هو بقوم ملثمين فقال : إليكم يا أعداء الله : أمسكوا .

ومضى النبي عليه السلام حتى بلغ منزله الذى أراده ، فنزلت « وهموا بما لم ينالوا » .

قال حذيفة : سماهم رسول الله ﷺ حتى عدهم كلهم . فقلت : ألا تبعث إليهم فتقتلهم ؟ فقال :

أكره أن تقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم ، بل يكفيهم الله الدُّبيلة »

قال : وما الدبيلة ؟

قال : « شهاب من جهنم يجعله على نياط فؤاد أحدهم حتى تزهق نفسه » .

وفى قوله « وما نقموا إلا أن أغناهم الله من فضله » بيان صادق لفساد نفوس هؤلاء المجرمين الذين أكرمهم الله ورسوله فخانوا الله ورسوله . وصدقت الحكمة القائمة : اتق شر من أحسنت إليه .

فلقد كانوا قبل النبى ﷺ فى ضنك من العيش ، لا يركبون الخيل ، ولا يحوزون الغنيمة ، فلما قدم عليه السلام إليهم أغناهم بالغنائم فضلوا . « فإن يتوبوا » من عند أنفسهم لا مكرهين ولا مضطرين تكن التوبة خيراً لهم ، وإن يتولوا يعذبهم عذاباً أليماً .

(٧٥) « وَمِنْهُم مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ »

(٧٦) « فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ »

(٧٧) « فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ »

(٧٨) « أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ »

جاء ثعلبة بن حاطب الأنصارى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا . فقال رسول الله ﷺ : ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه . ثم قال : أما ترضى أن تكون مثل نبى الله ، والذى نفسى بيده لو شئت أن تسيل معى الجبال فضة وذهباً لسالت .

فقال ثعلبة : والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقنى مالا لأوتينّ كل ذى حق حقه . فقال عليه السلام : اللهم ارزق ثعلبة مالا .

فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود ، فضاقت عنها المدينة ، فتنحى عنها ، فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى جماعة ، ويترك ما سواهما .

ثم نمت وكثرت حتى ترك الصلاة إلى الجمعة ، وهى تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة وسأل رسول الله ﷺ عنه فقال : ماذا فعل ثعلبة ؟ فقالوا : اتخذ غنما وضاقت عنها المدينة ، وأخبروه بخبره فقال الرسول ﷺ يا ويح ثعلبة .

ثم أنزل الله عز وجل : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » وأنزل فرائض الصدقة . فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة رجلا من جهينة ورجلا من بنى سليم وكتب لهما كيف يأخذانها ، وقال لهما : مرّا بثعلبة ، وبفلان — رجل من بنى سليم — فخذا صدقاتهما .

فخرج الرجلان حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة ، وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال :

ما هذه إلا جزية : ما هذه إلا أخت الجزية : ما أدرى ما هذا ؟ ؟ انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إلىّ .

فانطلقا فأخبرا السلمى فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهم بها ، فلما رأوها قالوا :

ما يجب هذا عليك ، وما نريد أن نأخذه منك . فقال : بل خذوه فإن نفسى بذلك طيبة ، وإنما هى إبلى . فأخذوها منه .

فلما فرغ من صدقتهما رجعا حتى مرا بثعلبة فقال : أرونى كتابكما أنظر فيه ، فنظر فقال : ما هذه إلا أخت الجزية ؟ انطلقا حتى أرى رأيى . فانطلقا حتى أتيا النبى عليه السلام ، فلما رآهما قال قبل أن يكلمهما :

يا ويح ثعلبة ، ودعا للسلمى بالبركة ، فأخبروه بالذى صنع كل منهما فأنزل الله عز وجل هذه الآية ، وكان عند رسول الله وقت نزولها رجل من أقارب ثعلبة فخرج حتى أتاه فقال له : قد أنزل الله فيك كذا وكذا .

فخرج ثعلبة حتى أتى النبى ﷺ يسأله أن يقبل الصدقة منه فقال الرسول : إن الله منعنى أن أقبلها منك .

فجعل يحثو التراب على وجهه ورأسه . فقال رسول الله : « هذا عملك . قد أمرتك فلم تطعنى » .

وظل فى خلافة أبى بكر ، وعمر ، وعثمان يعرض على كل خليفة منهم أن يقبلها فلا يقبلون ما رفضه رسول الله ، وعاش الرجل حتى هلك فى خلافة عثمان .

ومع خصوصية السبب فى هذه الآيات فى ثعلبة فهى عامة فى كل من كان حاله مثل حاله ، وفيها تذكير قوى بأن متاع الدنيا لا ينبغى أن يغمض عين المؤمن عن مراقبة ربه ، ولا أن يعقل لسانه عن ذكره .

ثم فيها كذلك تأكيد لاختلاف النفوس فى التأثر بسيطرة المال ، فمن الناس من يستعبد المال فيجعله فى طريق الخير ، وفى خدمة الأهداف والأغراض النبيلة .

ومنهم من يستعبده المال فيقف أمامه كالحارس ، لا به ينتفع ، ولا من ويلاته يسلم .

(٧٩) « الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

لما نزلت آية الصدقات حث رسول الله ﷺ المؤمنين على التصدق فجاء عبدالرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال : يارسول الله : مالي ثمانية آلاف جئتك بنصفها وأمسكت نصفها لعيالي فاجعلها في سبيل الله ، فقال رسول الله ﷺ بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت .

وجاء عاصم بن عدى بن العجلان بمائة وسق من تمر .

ثم جاء أبو عقيل الأنصاري بصاع من تمر وقال : يا رسول الله : بتُّ ليلتي أجر أحبلا حتى نلت صاعين من تمر، فأمسكت أحدها لأهلي ، وأتيتك بالآخر . فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات .

فلمزهم المنافقون وعابوهم وقالوا : ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء ؛ وإن كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل ، ولكنه أحب أن يزكي نفسه . . فنزلت هذه الآية .

(٨٢) « فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »

هؤلاء المنافقون الذين يسخرون من المؤمنين ، ويلمزون أعمالهم لا يدرون غداً أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً . ولذا سخر القرآن منهم سخرية منذرة أن يضحكوا قليلا في الدنيا ليبكوا كثيراً في الآخرة .

قال صلوات الله عليه : « ابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول ، حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون ، فلو أن سفناً أجريت فيها لجرت » .

(٨٤) « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ »

روى مسلم عن ابن عمر ، وروى كذلك عن ابن عباس قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : لما توفى عبد الله ابن أُبيّ دعى رسول الله ﷺ للصلاة عليه ، فقام إليه .

فلما وقف يريد الصلاة عليه تحولت حتى قمت في صدره فقلت : يارسول الله ، أعلى عدو الله عبدالله بن أُبيّ القائل كذا وكذا يوم كذا وكذا أعدِّد أيامه . ورسول الله ﷺ يبتسم ، حتى إذا أكثرت عليه قال :

أخر عني ياعمر إني خيرت فاختترت .

خيرني الله تعالى فقال : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » ، لو علمت

أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت . ثم صلى عليه ومشى معه ، فقام على قبره حتى فرغ منه .

قال عمر : فعجبت لى وجراءتى على رسول الله ﷺ . فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزل قوله سبحانه «ولا تُصَلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره » .

فما صلى الرسول بعدها على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله تعالى .

(٩١) « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »

(٩٢) « وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ »

ترفع الآية الحرج والتأثيم عن هؤلاء الذين تخلفوا عن الجهاد لأن لهم عذراً يقبله الشرع ، كالضعف والمرض والعمى والشيخوخة وما إلى ذلك .

روى أنس عن رسول الله ﷺ قوله : « لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ، ولا أنفقتم من نفقة ، ولا قطعتم من واد ، إلا وهم معكم فيه » .

قالوا : يارسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟

قال : حبسهم العذر .

« إذا نصحوا لله ورسوله » إذا ثبت إخلاصهم لله وحبهم للحق وموالاة أوليائه ، ومع أنه سبحانه رفع الحرج عنهم فقد مضى كثيرون منهم إلى الميدان يقاتلون في سبيل الله ويضربون أروع المثل في البذل والفداء ولا سبيل كذلك على الذين لم يجدوا ما يحملهم إلى الحرب فجاءوا الرسول يستعينونه فما وجدوا عنده فانصرفوا «وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون » .

وقد نزلت هذه الآية فيمن عرفوا باسم « البكائين » وهم سبعة نفر من بطون شتى هم : معقل بن يسار ، وصخر بن خنيس ، وعبد الله بن كعب الأنصارى ، وسالم بن عمير ، وثعلبة بن غنمة ، وعبد الله بن مغفل .

جاءوا رسول الله ﷺ فقالوا : يانبي الله . إن الله عز وجل قد ندبنا للخروج معك ، فاحملنا على الخفاف المرقوعة ، والنعال المخصوفة نغزو معك .

فقال : لا أجد ما أحملكم عليه .

فتولوا وهم يبكون . فسموا البكائين .

(٩٣) « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَئْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »

إذا كان سبحانه قد رفع الحرج عن هؤلاء المضطرين وأصحاب الأعذار التى يقبلها الله . فإنه لا عـذر لمن قعدوا عن الجهاد فى سبيل الله نـكوصاً وضعفاً مع توفر الأسباب لهم للجهاد .

وفى قوله « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف » تحقير لهم وتهوين من شأنهم ، وتحذير من سوء ما فعلوا .

(٩٧) « الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »

(٩٨) « وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »

(٩٩) « وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

لما تحدث سبحانه عن أحوال المنافقين بالمدينة ذكر حال الأعراب المقيمين خارجها . وقد وصفهم بشدة الـكفر والنفاق ، لأنهم أقسى قلباً وأغلظ طبعاً ، وأبعـد من أن يتأثروا بكتاب الله ، وأجدر ألا يعلموا فرائض الشرائع وطريق العقل إلى معرفة الله .

من هؤلاء الأعراب من ينظر إلى ما ينفقه فى سبيل الله على أنه غرم عليه وليس ثواباً له ، ولهـذا ولغيره يتربص بالمسلمين الدوائر ، ويرجو لهم الشر والهزيمة ، فهم يجمعون إلى عدم إدراكهم لثواب النفقة فى سبيل الله ، سوء طويتهم وخبث قلوبهم .

ومن هؤلاء الأعراب من يؤمن بالله ، ويعرف أن ما ينفق فى سبيله قربة إليه وطريق إلى مرضاته ، فيثيبهم سبحانه ، ويحقق رجاءهم فى وجهه سبحانه . فتقربهم قرباتهم من الله ، وتشملهم فى رحمته .

(١٠٠) « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »

فى ذكر هذه الآية بعد سابقاتها ما يشبه المقارنة بين شرار الناس عنـد الله وبين خيارهم ، بين الـكفار

والمنافقين ومن يلوذ بهم من الأعراب . وبين السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وتابعيهم على طريق النصرة والجهاد .

«والسابقون الأولون» : قيل هم أصحاب بيعة الرضوان وهى بيعة الحديبية الذين قال الله فيهم : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » .

وقيل : هم الذين شهدوا بدراً مع رسول الله صلوات الله عليه . أو هم الذين صلوا إلى القبلتين .

وإذا كانت الآية تعنى تفضيل هؤلاء على من سواهم ؟ فهل هو تفضيل فى المناقب والمنازل الأدبية فقط ؟ أم يتبعه تفضيل فى العطاء كذلك ؟

أبو بكر رضى الله عنه لا يرى تفضيلهم فى العطاء ويقول : إنما عملوا لله وأجرهم عليه .

أما عمر رضى الله عنه فكان يرضى تفضيلهم فى العطاء أيضاً ويقول : أأجعل ذا السابقة كمن لا سابقة له ؟ . ويروى أنه عدل عن وجهه وقال عند وفاته : لئن عشت لألحقن أسفل الناس بأعلاهم . فمات من ليلته .

أما التابعون فهم الذين أسلموا بعد الحديبية ، وقيل : التابعى صاحب صحابى الرسول . وقيل غير ذلك .

وأفضل التابعين هم الفقهاء السبعة بالمدينة وأولهم سعيد بن المسيب رضوان الله عليه .

وما من أحد من السابقين وتابعيهم إلا استحق منزلة بالإيمان والعمل وثبات العقيدة وصدق اليقين فى الله ، وشدة مراقبته له . ولم يصبحوا كذلك بجاه ، أو مال ، أو عرض من أعراض الدنيا ، فاستحقوا ما أعد لهم من الجنات والفوز العظيم .

(١٠٢) «وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »

روى عن ابن عباس أنها نزلت فى قوم كانوا قد تخلفوا عن رسول الله فى غزوة تبوك ثم ندموا على تخلفهم وقالوا: نكون فى الكِنّ والظلال مع النساء. ورسول الله وأصحابه فى الجهاد ، والله لنوثقن أنفسنا بالسوارى (سوارى المسجد) فلا نطلقها حتى يكون الرسول ﷺ هو الذى يطلقنا أو يعذرنا ، وأوثقوا أنفسهم بسوارى المسجد.

فلما رجع الرسول ﷺ مر بهم فرآهم فقال من هؤلاء ؟ قالوا : هؤلاء تخلفوا عنك ، فعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تطلقهم وترضى عنهم .

فقال الرسول ﷺ وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أومر بإطلاقهم ، رغبوا عنى ، وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين . فأنزل الله هذه الآية .

فلما نزلت أرسل النبى ﷺ فأطلقهم وعذرهم ؟ فلما أطلقوا قالوا : يارسول الله : هذه أموالنا التى خلفتنا عنك

فتصدق بها عنا ، وطهرنا ، واستغفر لنا فقال عليه السلام : ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً . فنزلت « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » .

وقيل : نزلت فى غيرهم .

واختلف فى تفسير قوله تعالى : « خلطوا عملا صالحا وآخر سيئاً » فقيل : الصالح هو اعترافهم وتوبتهم وندمهم والسيئ : هو تخلفهم عن رسول الله .

(١٠٣) « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »

(١٠٤) « أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »

أولئك البكاءون الذين سبق ذكرهم قالوا فى بعض ما قالوه للرسول : هذه أموالنا التى شغلتنا عنك فتصدق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا فقال عليه السلام :

« ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً » فنزلت الآية .

قال ابن عباس رضى الله عنه : كانوا عشرة أنفس فأخذ الرسول ثلث أموالهم ، وكانت كفارة للذنوب التى أصابوها . وأخذ « الثلث » يدل على أنها لم تكن الزكاة المفروضة ، وإنما هى كفارة الذنب .

« وصل عليهم » أى ادع لهم بالخير والبركة ، وكان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللهم صل عليهم » فأتاه ابن أبى أوفى بصدقته فقال « اللهم صل على آل أبى أوفى » .

« سكن لهم » رحمة ، وراحة ، والسكن ما تسكن به النفوس وتطمئن القلوب .

وإذا كان الرسول ﷺ قد أخذ الصدقات ، وقبل اعتذار المخلفين فالتواب الحق و « غافر الذنب وقابل التوب » هو الله سبحانه ، والله سبحانه هو الذى يأخذ الصدقات أى يتقبلها ويثيب عليها . ومعناه أن النبى ﷺ حين قبل المعذرة وأخذ الصدقة إنما كان واسطة بين الله وعباده ؛ فإذا توفى الرسول فعامل الصدقات يقوم بهذه الواسطة .

ومفهوم هذا القول ومنطوقه : أن ما حاول المرتدون على عهد أبى بكر أن يستمسكوا به فى منع الزكاة وهو ادعاء أن أخذ الصدقة كان خاصاً بالرسول بدليل قوله : « خذ من أموالهم ... » هذا الذى زعموه أبطلته « ويأخذ الصدقات » .

قال ﷺ : « إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه ، فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره حتى إن اللقمة لتصير

مثل أحد ، وتصديق ذلك فى كتاب الله «وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ، ويمحق الله الربا ويربى الصدقات » :

وغنى عن البيان أن كلمة « يأخذ » فى قوله « ويأخذ الصدقات » وكذا كل لفظ مماثل يجىء حديثاً عن المولى سبحانه لا يراد به كيف ، ولا حلول فى زمان أو مكان تنزه سبحانه وتعالى عن مشابهة الحوادث علواً كبيراً .

(١٠٦) « وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »

هم أنفسهم الذين سيأتى فيهم قوله سبحانه « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ...» وقد تاب عليهم سبحانه .

وهم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية الواقفى ، ومرارة بن الربيع . وكانوا قد تخلفوا عن غزوة «تبوك» بلا عذر كما سيأتى ، وكان الرسول ﷺ قد قبل ممن تعذروا إليه ، ولم يقبل منهم وأرجأ إلى الله أمرهم فنزلت الآية ثم كانت توبة الله عليهم .

(١٠٧) « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ »

(١٠٨) « لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ »

(١٠٩) « أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ »

(١١٠) « لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »

لما ابتنى بنو عمرو بن عوف مسجد قباء الشهير فى الإسلام بعثوا إلى رسول الله ﷺ فأتاهم فصلى فيه ، حسدهم إخوتهم من بنى غنم بن عوف فقالوا نبنى مسجداً ، ونبعث إلى رسول الله ﷺ ليصلى فيه كما صلى فى مسجد إخواننا ، ويصلى فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام .

وكان أبو عامر هذا قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح وأنكر دين الحنيفية لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعاداه . وسماه النبى ﷺ : أبا عامر الفاسق ، وقد خرج الرجل إلى الشام وبعث إلى المنافقين أن استعدوا بما

استطعتم وابنوا لى مسجداً فإنى ذاهب إلى قيصر الروم فآتى بجند أُخرج به محمداً وأصحابه ؟ فبنوا المسجد ، فلما فرغوا منه أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز لغزوة تبوك فقالوا :

يارسول الله قد بنينا مسجداً لذى الحاجة ، والعلة ، والليلة المطيرة ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه .

فقال النبى : « إنى على سفر وحال شغل ، فلو قدمنا لأتيناكم فصلينا لكم فيه » ..

فلما عاد النبى ﷺ من تبوك أتوه — وكانوا قد فرغوا من بنائه وصلوا فيه الجمعة والسبت والأحد — فدعا بقميصه ليلبسه فيأتيهم ، فنزل القرآن بخبر هذا المسجد « مسجد الضرار » .

فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ، ومعن بن عدى ، وعامر بن السكن ، ووحشيا قاتل حمزة فقال :

« انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه واحرقوه » . فخرجوا مسرعين ، وأخرج مالك بن الدخشم من منزله شعلة نار ، ونهضوا فأحرقوا المسجد وهدموه ، وتفرق أهله عنه . ومات أبو عامر الراهب الفاسق بالشام وحيداً غريباً فى « قنسرين » .

« وإرصاداً » أى وانتظاراً لمن حارب الله ورسوله ، وهو أبو عامر الراهب الذين كانوا ينتظرون عودته — كما قال — بالجيوش التى لايقوى عليها محمد وأصحابه .

وقد أمر الرسول بألا يقوم فى هذا المسجد مصلياً كما كان يعتزم ، والأولى والأحق بالصلاة فيه هو مسجد قباء الذى أسس على التقوى من أول يوم ؟ وقيل : بل هو مسجد النبى صلى الله عليه وسلم .

ثم قارنت الآيات بين المسجدين ، أو بين غايتى العمل فى بناء كل مسجد منهما فقررت أن من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان هو خير ممن أقام بنيانه على غير أساس ، فانهار البناء وسقط بصاحبه فى نار جهنم .

وفى ختام الآيات قرر سبحانه أن بناء مسجد الضرار هذا وما أحاط به من كشف أمر أصحابه ، ثم تأديب الرسول ﷺ لهم بإحراق المسجد وإخراج أهله منه سيبقى عملهم ونتائجه قوية التأثير فى قلوبهم ، تحرك فيها الشك والحقد ، والألم .. إلا أن تتقطع قلوبهم فى قبورهم بالموت .

(١١١) « إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ »

نزلت هذه الآية فى ليلة « العقبة » تعقيباً على مبايعة المسلمين للرسول على الفداء والبذل بعد ما منعهم المشركون من البيت كما هو معروف .

فقد حدث أنه لما بايعت الأنصار رسول الله ﷺ فى هذه الليلة وهم سبعون نفساً قال عبد الله بن رواحة : يارسول الله ! يا رسول الله ! اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال الرسول : اشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم .

قالوا : فإذا فعلنـــا . فماذا لنا ؟ قال : الجنة . قالوا : ربح البيـــع لا نقيل ولا نستقيل . فنزلت الآية ومع خصوص السبب فهى عامة فى كل أحوال الجهاد فى سبيل الله .

وفى قوله « وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن» تأكيد قاطع بأن المبايعة التى تمت بين الله والقاتلين فى سبيله،والثمن الذى بذل إنما هى عهد وميثاق من الله سجلته الكتب السماوية كلها ، وجاء فى رسالات من سبقوا محمداً رسول الله . وإذا كان هذا وعداً فمن أوفى بعهده من الله ، فليستبشر الذين باعوا وبايعوا بهذا البيع الرابح والفوز العظيم .

(١١٢) « التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ »

السائحون : قيل الصوام ، لما روى من عائشة رضى الله عنها : « سياحة هذه الأمة الصيام » .

وقال عطاء : السياحة : المجاهدة فى سبيل الله لقول الرسول ﷺ : أن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله » .

وقيل : هم طلاب العلم والمعرفة ، وقيل هم : المفكرون فى المولى سبحانه فى ملكوته وفيما خلق يتدبرون فيعتبرون . ومن طريف ما يروى فى هذا المعنى أن بعض العباد أخذ القدح ليتوضـأ لصلاة الليل فأدخل أصبعه فى أذن القدح وجعل يتفكر حتى طلع الفجر فقيل له فى ذلك فقال : أدخلت إصبعى فى أذن القدح فتذكرت قول ربى : « إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل » وذكرت كيف أتلقى الغل فبقيت ليلى ذلك أجمع .

واختلف فى موقع هذه الآية مما قبلها أهى متصلة بها بمعنى أن تكون الصفات التى ذكرت هنا هى صفات الذين اشترى الله منهم أنفسهم فى الآية السابقة ؟ أم هى مستقلة عنها عامة فى جميع المؤمنين الذين تكون لهم هذه الصفات ؟

والأرجح عموم الآية ، تكريماً لكل من اتصف بها ، وإن كان لا يمنع انسحاب الصفات المذكورة على الشهداء والمجاهدين .

(١١٣) « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ »

الآية صريحة فى ضرورة قطع المؤمنين موالاتهم لأعداء الله من المشركين والكفار ، والمنافقين ، وكل من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم.

ولا يعترض على هذا بدعاء النبى ربه فيمن آذوه قائلا : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » لأن هذا فى معظم الآراء وأرجحها حكاية من الرسول عمن سبقوه من الأنبياء بدليل ما جاء فى البخارى : أن النبى ﷺ ذكر نبيا قبله شجه قومه فأخبر الرسول ﷺ بأن ذلك النبى قال : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » .

والاستغفار والنهى عنه هنا ينصرف إلى الاستغفار للأحياء منهم والصلاة على الأموات . وإن أجاز بعض العلماء الاستغفار للأحياء رجاء أن يهديهم الله فيتوبوا فيؤمنوا .

ويروى فى سبب نزولها : أن أبا طالب عم النبى لما حضرته الوفاة جاءه الرسول وكان عنده أبو جهل ، وعبد الله ابن أمية فقال له الرسول : يا عم قل معى لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله .

فقال أبو جهل وابن أبى أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزالا يكلمانه حتى كان آخر شىء كلمهم به على ملة عبد المطلب . فقال النبى ﷺ لأستغفرن لك ما لم أنه عنه فنزلت .

وقيل بل كان ذلك فى استغفار الرسول لأمه عليه السلام : آمنة بنت وهب لما روى أنه عليه السلام تخطى القبور حتى انتهى إلى قبر منها فناجاه طويلا ، ثم ارتفع ، وجئنا ورسول الله ﷺ باك فبكينا ، ثم قال له عمر : يا رسول الله ما يبكيك ؟ فقال : أفزعكم بكائى ؟ قلنا : نعم . قال : إن القبر الذى رأيتمونى أناجى فيه آمنة بنت وهب . وإنى استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى ، واستأذنت ربى فى الاستغفار لها فلم يأذن لى فيه .

(١١٧) « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ »

(١١٨) « وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »

قد مضى القول فى الذين تخلفوا عن الرسول فى تبوك ، وفى هاتين الآيتين تقرير توبة الله عليهم بعد ما اعتذروا واستغفروا .

وساعة العسرة هى أشد الساعات التى مرت بالمؤمنين فى هذه الغزوة ، روى عن جابر قال :

اجتمع على المسلمين فيها عسر الظهر ، وعسرة الزاد ، وعسرة الماء ، ثم ندرة ما يحملون أنفسهم عليه للقتال ، وبلغ من عسرة أمرهم ـ كما جاء فى الروايات ـ أن الواحد منهم كان يخرج التمرة فيلوكها حتى يجد طعمها، ثم يعطيها لصاحبه حتى يشرب عليها جرعة من ماء .

« من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم » أى من بعد ما هموا أن يتخلفوا عن الرسول .

وكما تاب على هؤلاء الثلاثة الذين خلفوا ، والذين سبق حديثهم فى تفسير قوله سبحانه « وآخرون مرجون لأمر الله ... » : قد كان الرسول ﷺ أمر أصحابه ألا يكلموهم فقاطعوهم ونبذوهم وكان على الواحد منهم ألا يأتى أهله فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم خشية أن يكون ما نزل بهم هو الهلاك ، وأنهم قد أقصوا من رحمة الله .

(١٢٠) « مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ »

(١٢١) « وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

خص الله هؤلاء بالذكر لقربهم وجوارهم ، وإلا فالآية عامة فى النهى عن التخلف عن الجهاد .

وقوله « ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » يرضون خفض العيش والسكن والسكن والظلال ، ويدعونه عليه السلام فى شدة القيظ وهجير الصحراء لا يكاد يجد شربة ماء .

وقد عددت الآية أنواع المشقات التى يمكن أن يتعرض لها الغازى فى سبيل الله من ظمأ وعطش ، أو من نصب وتعب ، أو من مخمصة ومجاعة ، أو مواجهة عدو والنيل منه ، أو سير فى الوديان،واحتراق للصعاب وإنفاق للمال . كل هذا أكدت الآية أنه جميعه فى سبيل الله وأنه يكتب لكل ساع فيه ثواب عمل صالح ، وكيف لا والجهاد فى سبيل الله أعلى مراحل الإيمان ، ولا ثواب على عمل فوق مثوبته.

روى الحسن أن رسول الله ﷺ قال : «إن فوق كل بر برٌ حتى يبذل العبـــد دمه ، فإذا فعل ، فلا بر فوق ذلك » .

ومفهوم هذه الآية أن الرسول متى خرج للجهاد لا يصح مطلقاً أن يتخلف عنه قادر على الغزو . وأن ذلك

ينسحب على ولى الأمر أو قائد الجيش من بعده .

وقيل : إن هذا خصوصية لرسول الله ﷺ إذا خرج للجهاد أن يخرج كل قادر عليه معه ، إلا بعــذر يقبله الرسول وبه يرتفع السبيل ، أما غيره من الولاة فيجوز التخلف عنهم ما لم تـكن ثم ضرورة بالأمة كلها تقتضى تعبئة طاقاتها جميعاً للجهاد .

وقيل إن هذه الآية نسخت بقوله سبحانه « ما كان المؤمنون لينفروا كافة الآية » . وأن حكمة التشديد عند نزولها أن المسلمين كانوا قلة وكان تخلف من يتخلف ربما أثر وأضر ، فلما كثروا وقويت شوكتهم أباح الله التخلف لمن يشاء .

(١٢٢) « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ »

ولما أنزل الله آياته فى كشف عيوب المنافقين وفضح تخاذلهم ونفاقهم إذ تخلفوا عن الجهاد قال المؤمنون : والله لا نتخلف عن غزوة يغزوها رسول الله ﷺ ولا سرية أبداً . فلما أمر الرسول المسلمين بالسرايا إلى العدو نفروا جميعاً وتركوا رسول الله وحده بالمدينة فنزلت الآية .

وهذه الآية ناسخة للآية سابقتها « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله » ثم هى ناسخة كهذه لقوله تعالى « إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً » .

وهى كذلك أصل عظيم فى الحث على طلب العلم لأن معنى الآية أنه لما كان النفير لا يسع جماعة المسلمين كلها ، فإن الباقين مع الرسول يعتبرون كذلك وكأنهم فى النفير : نفير العــلم والتعلم والفقه فى الدين . فإذا رجع النافرون من ميدان القتال استقبلهم هؤلاء فعلموهم وفقهوهم ، فكأنما اعتبر العلم والتفقه فى الدين كالخروج فى سبيل الله :

يرجع هذا تـكريم الإسلام العلم ورفعه منزلة العالم على نحو ما روى أبو الدرداء عن الرسول ﷺ قال :

« من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض ، والحيتان فى جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورّثوا العلم . فمن أخذ به أخذ بحظ وافر » .

(١٢٣) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ »

هذه الآية ثم قوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله » ثم قوله : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » . وغيرها من الآيات تعطى معنى جديراً بالتأمل وهو أن جهاد الرسول عليه السلام كان من الناحية الحربية يتحرك فى دوائر متتابعة أولاها أصغر من ثانيتها ، والثانية أصغر من الثالثة وهكذا ، وأول دائرة تحرك منها الجهاد أو بعبارة أخرى تحرك لجهاد أهلها كانت أقرب الدوائر إليه ثم التى تليها فالتى تليها .

وهذا ما يدل على تخطيط حربى سليم هدفه أساساً توفير الأمان للمسلمين وتوسيع دائرته من حولهم ، فيبدأ بتأمينهم بين الأقربين إليه من الأعراب والمنافقين ، ثم يؤمنهم بين المشركين الذين هم أوسع دائرة ، ثم يزيدهم أماناً بالجهاد خارج الجزيرة كلها قاصداً الروم والفرس ومن يلونهم من الترك والديلم وغيرهم .

(١٢٧) « وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ »

هذا فى المنافقين الذين كانوا إذ حضروا رسول الله ﷺ وهو يتلو آيات فيها فضيحتهم أو فضيحة أحد منهم جعل بعضهم ينظر إلى بعض رعباً وخوفاً ودهشة : كيف عرف محمد ﷺ بهذا ؟ ومن أخبره ؟ وهل كان معنا أحد حين تكلمنا بذلك ؟!

ثم انصرفوا بعد ما كشفوا ـ عناداً وضلالا ، وعجزاً عن مواجهة الرسول والمسلمين بعد ما فضحهم القرآن وأعلن أسرارهم .

(١٢٨) « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ »

(١٢٩) « فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ »

قرأها بعضهم من « أنفسكم » بفتح الفاء ورويت عن الرسول عليه السلام وعن فاطمة بمعنى جاءكم رسول من أشرفكم وأفضلكم .

أما القراءة الأولى « من أنفسكم » بضم الفاء فمعنى الثناء على الرسول وامتداح نسبه صلوات الله عليه .

وفى مسلم عن واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » .

وقد تضمنت الآية صفات ثلاثاً الرسول فى علاقته بالمؤمنين ، فهو صلوات الله عليه محب لهم رفيق شفيق بهم يعز عليه ما يعنتهم وما يعرضهم للمشقة والعسرة ، وكأنه أب حان ، أو أم حانية تشفق على أبنائها مما لا يطيقون .

وهو صلوات الله عليه : حريص على المؤمنين أن يزدادوا فى الأرض تمكيناً وتثبيتاً وقوة ، وأن يدعهم إلى الله وقد أصبحوا أولى قوة يهابها الأعداء فلا تخطفها الطير .

وهو صلوات الله عليه : بعد هذا بالمؤمنين رءوف رحيم ، ولقد أسبغ الله عليه فى هذه الآية إسمين من أسمائه سبحانه هما الرءوف والرحيم ، ولم يجمعها سبحانه لأحد من الأنبياء غيره .

وفى معنى رحمته صلوات الله عليه يقول سبحانه : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » صلوات الله عليه .

« فإن تولوا فقل حسبى الله » . روى عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : من قال إذا أصبح وإذا أمسى حسبى الله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات كفاه الله ما أهمه صادقاً كان أم كاذباً » .

تفسير سورة يونس

(١) « الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ »

« الر » قال ابن عباس معناه : أى أنا الله أرى ، وقيل : هى قسم .

« تلك ... » أى آيات القرآن المحكوم فيه بالأوامر والنواهى .

(٢) « أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ »

ينكر الله تعالى على الكفار إعظامهم أن يوحى الله تعالى إلى بشر ينذر من لم يؤمن بما ينتظره من عذاب ويبشر من آمنوا بما سيكون لهم من جزاء صادق وأجر حسن ،ووصفهمالرسول بأنه ساحر .

(١٠) « دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »

يصف الله تعالى حال المؤمنين فى الجنة بأن دعاءهم التسبيح وتحيتهم فيما بينهم سلام ، وأن آخر ما يختمون به دعاءهم الحمدلله الذى هداهم لهذا .

(١١) « وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ »

هذا خاص بالكافر ، أى لو يعجل الله للكافر العذاب على كفره كما عجل له خير الدنيا من المال والولد لعجل له قضاء أجله ليتعجل عذاب الآخرة .

وروى أن المراد به قول النضر بن الحارث « اللهم إن كان هــذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .

(١٦) « قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ »

أى قل يا محمد : لو شاء الله ما أرسلنى إليكم فتلوت عليكم القرآن ولا أعلمكم الله ولا أخبركم به ، ولقد لبثت فيكم عمراً من قبل القرآن ما عرفتم فيه عن غير الصدق والأمانة والبعد عن عصيان الله أفتريدون منى الآن أن أخالف أمر الله وأغير ما ينزله على .

(١٩) « وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ »

أى إن الناس يولدون على الفطرة . ثم يختلفون عند الإدراك . ولولا ما سبق فى حكمه أنه لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون القيامة لقضى بينهم فى الدنيا ، فأدخل المؤمنين الجنة بأعمالهم والكافرين النار بكفرهم ، ولكن سبق من الله الأجل مع علمه بصنيعهم فجعل موعدهم القيامة .

(٢٠) « وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ »

يريد أهل مكة ، أى هلا أنزل عليه آية ، أى معجزة غير هذه المعجزة ، فقل يا محمد إن نزول الآية غيب فانظروا قضاء الله بيننا بإظهار الحق على الباطل .

(٢١) « وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ »

يريد كفار مكة ، وما نالوه من رخاء بعد شدة وخصب بعد جدب ، ثم ما كان منهم بعد ذلك من استهزاء وتكذيب ، وما علموا أن ما يأتيهم من العذاب أسرع فى إهلاكهم مما أتوه من المكر .

(٢٤) « إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »

الآية على التشبيه والتمثيل ، أى إن صفة الحياة الدنيا فى فنائها وزوالها وقلة خطرها والملاذ بها مثل ماء أنزلناه من السماء فاختلط بالماء نبات الأرض ، فأخرجت ألواناً من النبات مما يأكل الناس من حبوب وثمار وبقول ، ومما يأكل الأنعام من كلأ وشعير ونحوهما ، حتى إذا أخذت الأرض زينتها وحسنها ، وازينت بالحبوب والثمار والأزهار

وأيقن أهلهـا أنهم قادرون على حصادها والانتفاع بها أتاها عذابنا ليلا أو نهاراً فجعلناها محصودة مقطوعة لا شيء فيها فأصبحت كأن لم تسكن عامرة وكذلك يبين الله لمن يتفكرون فى آياته .

(٢٥) « وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ »

لما ذكر تعالى وصف الدنيا وصف الآخرة فقال : إن الله لا يدعوكم إلى جمع الدنيا بل يدعوكم إلى الطاعة لتصيروا إلى دار السلام ، أى إلى الجنة ، إذ أن من دخلها فقد سلم بهداية الله له إلى الإسلام والاستمساك بكتابه .

(٢٦) « لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »

يعد الله الذين أحسنوا فى الدنيا الحسنى ، وهى الجنة ، وزيادة ، أى ومضاعفة حسناتهم والاطمئنان فلا تعلو وجوههم كآبة وخزى ومذلة .

(٢٨) « وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ »

(٢٩) « فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ »

(٣٠) « هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ »

أى يوم نجمعهم مجتمعين ثم نقول لمن اتخذوا مع الله شركاء : اثبتوا مكانكم وقفوا مواضعكم أنتم وشركاؤكم ، وقد قطعنا ما كان بينهم من التواصل فى الدنيا ، فإذا من دعوهم شركاء لله تعالى من أصنام يقولون بلسان الحال : ما أمرناكم بعبادتنا وكفى الله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا أمرناكم بهذا أو ارتضيناه منكم ، وما أحسسنا أنكم كنتم إيانا تعبدون . وفى ذلك الوقت تعلم كل نفس جزاء ما عملت وقدمت . وإذا هم ليس لهم مولى حق ولا نصير غير الله تعالى وإذا من دعوهم افتراء باطل لا حقيقة له .

(٣١) « قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ »

(٣٢) « فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ »

يقرر الحجة على المشركين ، وأن هـذا كله لا بد له من خالق إن فكروا وأنصفوا ، وإذا كان كذلك فالهم لا يخافون عقاب الله ونقمته فى الدنيا والآخرة ، وهذا الذى رزقكم ، وهذا كله فعله هو ربكم الذى تحق له الألوهية ويستوجب العبادة ، وإذا كان ذلك فتشريك غيره ضلال وغير حق .

(٣٣) « كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ »

أى إن فى علم الله السابق أن الذين خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا لا يصدقون .

(٣٤) « قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ »

ثم أخذ الله تعالى يقرر لهم على لسان نبيه : قل لهم : هل من آلهتكم ومعبوداتكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، فإن أجابوك ، وإلا فقل لهم : الله يبدأ الخلق ثم يعيده وليس غيره يفعل ذلك فكيف تنصرفون عن الحق إلى الباطل .

(٣٧) « وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ »

أى وما كان هذا القرآن افتراء ، ولكنه تصديق الذى بين يديه من التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب ، فإنها قد بشرت به ، فجاء مصدقاً لما فى تلك البشارة ، وفى الدعاء إلى التوحيد والإيمان بالقيامة ، ويبين ما فيها ، ولا شك فى نزوله من قبل الله تعالى .

(٣٩) « بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ »

أى كذبوا بالقرآن وهم جاهلون بمعانيه وتفسيره ، ولم يأتهم حقيقة عاقبة التكذيب من نزول العذاب بهم ، وهكذا كانت سبيل الأمم الخالية ، وقد أخذهم الله بالهلاك والعذاب .

(٤٢) « وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ »

أى ومنهم من يستمعون إليك بظواهرهم وقلوبهم لا تعى شيئاً مما تقوله من الحق وتتلوه من القرآن ، وما أنت بمسمع الذين أصمهم الله عن سماع الهدى .

(٤٥) « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ »

أى كأنهم يوم يحشرهم الله لم يلبثوا فى قبورهم إلا قدر ساعة من نهار ، لهول مايرون من البعث وقد عرف بعضهم بعضاً حين خرجوا من قبورهم معرفة توبيخ وافتضاح يلقى كل منهم تبعته على الآخر ، لا تعارف شفقة ورأفة وعطف، ثم ينقطع عنهم هذا التعارف حين يعاينون أهوال يوم القيامة ، وإذا هم حين لقوا الله قد خسروا ثواب الجنة .

(٤٩) « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ »

لما استعجلوا النبى ﷺ بالعذاب قال الله له : قل لهم يامحمد : لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً ،ولا أملكه وأقدر عليه ، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم ، فلا تستعجلوا ، لكل أمة أجل ، أى لهلاكهم وعذابهم وقت معلوم فى علمه سبحانه ، فإذا جاء وقت انقضاء أجلهم لايمكنهم أن يستأخروا ساعة باقين فى الدنيا ولايتقدمون فيؤخرون .

(٥٠) « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ »

هذا تسفيه لآرائهم فى استعجالهم العذاب ، أى إن أتاكم العذاب ، فما نفعكم فيه ، إذ لن ينفعكم الإيمان حينئذ ، فما أعظم ما يستعجل به المجرمون .

(٥٣) « وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ »

أى ويستخبرونك يامحمد عن كون العذاب وقيام الساعة حق ، قل : نعم وربى إنه لحق وما أنتم فائتين من عذابه ومجازاته .

(٥٧) « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ »

(٥٨) « قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ »

الخطاب لقريش . والموعظة التى جاءتهم هى القرآن وما فيه من مواعظ وحكم وشفاء لما فى الصدور من الشك والنفاق والخلاف والشقاق،والهدى والرشد لمن اتبعه والرحمة والنعمة للمؤمنين. وخص الله المؤمنين لأنهم هم المنتفعون بالقرآن وبما فيه .

ثم خاطبهم الله تعالى : قل بفضل الله، أى بقرآنه ، وبرحمته ، أى بالإسلام ، وإن جعلكم من أهله فلتفرحوا وتسعد قلوبكم إذ أدركتم ماتحبون .

(٥٩) « قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ »

يخاطب كفار مكة ناعياً عليهم ما حكموا به من تحريم أشياء وتحليل أخرى ، وما أمر الله بهذا ولا نهى عن ذلك ، وإنما كان هذا افتراء منكم وكذب إذ نسبتم ذلك إليه .

(٦٢) « أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »

(٦٣) « الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ »

أى إن من تولاه الله تعالى وتولى حفظه وحياطته ورضى عنه فلا يخاف يوم القيامة ولا يحزن ، وهؤلاء الأولياء هم الذين آمنوا واتقوا الشرك والمعاصى .

(٦٥) « وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »

أى لا يحزنك يا محمد افتراؤهم وتكذيبهم لك . فإن القوة الكاملة والغلبة الشاملة والقدرة التامة لله وحده ، فهو ناصرك ومعينك ومانعك ، والله هو السميع لأقوالهم العليم بأعمالهم وأفعالهم وجميع حركاتهم .

(٦٩) « قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ »

(٧٠) « مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ »

أى إن الذى يختلقون الكذب على الله لا يفوزون ولا يأمنون ؛ ذلك متاع فى الدنيا ثم إلينا رجوعهم وسنذيقهم العذاب الغليظ بكفرهم .

(٩٢) « فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ »

أى نلقيك على نجوة من الأرض ، وذلك أن بنى إسرائيل لم يصدقوا أن فرعون غرق ، وقالوا : هو أعظم شأناً من ذلك ، فألقاه الله على نجوة من الأرض ، أى مكان مرتفع حتى شاهدوه .

(٩٤) « فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ »

(٩٥) « وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ »

الخطاب للنبى ﷺ والمراد غيره ، أى إن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل من آمن من أهل الكتاب من قبلك فسوف يخبرونك بما يزيل عنك الشك وأن الذى جاءك هو الحق فلا تكن من الشاكين المرتابين .

(٩٨) « فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ »

فهلا كانت قرية من القرى التى أهلكناها تابت عن الكفر وأخلصت الإيمان قبل المعاينة وقت بقاء التكليف ولم تؤخر كما أخر فرعون إلى أن أخذ بمخنقه فنفعها إيمانها أن يقبله الله منها لوقوعه فى وقت الاختيار . ولكن قوم يونس لما أخبروا أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث تابوا فكشف عنهم العذاب الذى وعدهم به يونس أنه نازل بهم . ومتعهم الله إلى أجلهم .

(٩٩) « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ »

كان النبى ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس ، فأخبره الله تعالى أنه لايؤمن إلا من سبقت له السعادة فى الذكر الأول ، ولا يضل إلا من سبقت له الشقاوة فى الذكر الأول ،وأنه هو لا أنت من يقدر على إلجائهم إلا هذا وقسرهم .

(١٠٠) « وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ »

أى ما ينبغى أن تؤمن نفس من النفوس التى علم أنها تؤمن إلا بتسهيله وقضائه وقدره ومشيئته وإرادته ، وقد جعل الله العذاب على الذين لايعملون أمره عز وجل ونهيه .

(١٠١) « قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ »

أمر للكفار بالاعتبار والنظر فى المصنوعات الدالة على الصانع والقادر على الكمال ،ولن تغنى الدلالات والرسل عمن سبق له فى علم الله أنه لايؤمن .

(١٠٢) « فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ »

فهل ينتظرون إلا وقائع الله فى قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، وقل لهم يامحمد : تربصوا ، تهديداً من الله ووعيداً وأنا معكم من المتربصين لموعد ربى .

(١٠٣) « ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ »

أى من سنتنا إذ أنزلنا بقوم عذاباً أخرجنا من بينهم الرسل والمؤمنين ، وكذلك واجباً علينا أن ننجى المؤمنين .

(١٠٤) « قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِن دِينِى فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الذِى يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »

يا أهل مكة ، إن كنتم فى شك من دينى وصحته وسداده ، فهذا دينى فاسمعوا وصفه ، واعرضوه على عقولكم ، وانظروا فيه بعين الإنصاف ، تعلموا بأنه دين لا مدخل فيه للشك ، وهو أنى لا أعبد الحجارة التى تعبدونها من دون من هو إلهكم وخالقكم ، ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم ، ووصفه بهذا ليريهم أنه الحقيق بأن يخاف ويتقى فيعبد دون مالا يقدر على شىء ، وقد أمرنى الله بذلك بما ركب فىّ من العقل وبما أوحى إلىّ فى كتابه .

(١٠٥) « وأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ولَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ »

(١٠٦) « وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ »

وقيل لى : كن من المؤمنين ، واستقم بإقبالك على ما أمرت به من الدين ، قويماً به مائلا عن كل دين ، وقيل لى : ولا تشرك ، والخطاب له والمراد غيره ، وكذلك ولا تدع ، أى لا تعبد من دون الله ما لا ينفعك إن عبدته ولا يضرك إن عصيته ، فإن فعلت وعبدت غير الله فإنك إذاً من الظالمين الواضعين العبادة فى غير موضعها .

(١٠٧) « وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »

اتبع النهى عن عبادة الأوثان ، ووصفها أنها لا تنفع ولا تضر ، وأن الله عز وجل هو الضار النافع ، الذى إن أصابك بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كل أحد ، فكيف بالجماد الذى لا شعور به ، وكذلك إن أرادك بخير لم يرد أحد ما يريده بك من فضله وإحسانه فكيف بالأوثان ، فهو الحقيق إذن أن توجه إليه العبادة دونها ، وهو الغفور لذنوب عباده وخطاياهم ، الرحيم بأوليائه فى الآخرة .

(١٠٨) « قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ »

فقد جاءكم الحق فلم يبق لكم عذر ولا على الله حجة ، فمن اختار الهدى واتباع الحق فما نفع باختياره إلا نفسه ،

ومن آثر الضلال فما ضر إلا نفسه ، وما أنا عليكم بحفيظ موكول إلى أمركم وحملكم على ما أريد ، إنما أنا بشير ونذير .

(١٠٩) « وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ »

واصبر على دعوتهم واحتمال آذاهم وإعراضهم حتى يحكم الله لك بالنصرة عليهم والغلبة ، وهو خير الحاكين لأنه لا يحكم إلا بالحق .

تفسير سورة هود

(١) « الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ »

أى هذا كتاب نظمت آياته نظماً رصيناً لا يقع فيه نقص ولا خلل كالبناء المحكم الرصف أو جعلت آياته حكيمة وصينت عن أن تدخلها شائبة باطل ، وفصلت كما تفصل بالفوائد من دلائل التوحيد والمواعظ والقصص ، أو جعلت فصولا : سورة سورة ، وآية آية وفرقت فى التنزيل ولم تنزل جملة واحدة ، وكيف لا وهى من عند من عنده أحكامها وتفصيلها .

(٥) « أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ »

إلا أنهم يزورون عن الحق وينحرفون عنه يريدون ليستخفوا من الله فلا يطلع رسوله والمؤمنون على ازورارهم ، ألا إنهم حين يزيد فى الاستخفاء ويغطون رؤوسهم بثيابهم يعلم الله ما يسرون وما يعلنون ، إذ لا تفاوت فى علمه بين إسرارهم وإعلانهم ، فلا وجه لتوصلهم إلى ما يريدون من الاستخفاء ، والله مطلع على ثنيهم صدورهم واستغشائهم ثيابهم ، ونفاقهم غير نافق عنده .

(١٢) « فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ »

كانوا يقترحون على الرسول ﷺ آيات تعنتاً لا استرشاداً ، لأنهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة مما جاء كافية فى رشادهم ، وكان مما اقترحوه لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ، وكانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره مما جاء به من البينات ، فكان يضيق صدر رسول الله ﷺ أن يلقى إليهم مالا يقبلونه ويضحكون منه ، فحرك الله نبيه وهيجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة ، بردهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله « فلعلك تارك بعض مايوحى إليك » أى لعلك تترك أن تلقيه إليهم وتبلغه إياهم مخافة ردهم له وتهاونهم به وضائق به صدرك بأن تتلوه عليهم مخافة أن يقولوا هلا أنزل عليه ما اقترحنا من الكنز والملائكة ، وكيف ينزل عليه ما لا تريده ولا نقترحه، فقال له تعالى ليس عليك إلا أن تنذرهم ما أوحى إليك وتبليغهم ما أمرت بتبليغه ولا عليك ردوا أو تهاونوا أو اقترحوا ، والله يحفظ ما يقولون وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل ، فتوكل عليه ، وكل أمرك إليه ، وعليك بتبليغ

الوحى بقلب فسيح وصدر منشرح غير ملتفت إلى استكبارهم ولا مبال بسفههم واستهزائهم .

(٢٤) « مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ »

إذا عرف الله من الكافر الإصرار فخلاه وشأنه ولم يلجئه ، سمى ذلك إغواء وإضلالا ، كما أنه إذا عرف منه أنه يتوب ويرعوى فلطف به سمى إرشاداً وهداية .

وقيل : الإغواء : الإهلاك ، والمعنى : أنكم إذا كنتم من التصميم على الكفر بالمنزلة التى لا تنفعكم نصائح الله ومواعظه وسائر ألطافه ، كيف ينفعكم نصحى .

(٥٦) « إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »

لما ذكر توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته من كيدهم ، وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم ، من كون كل دابة فى قبضته وملكه وتحت قهره وسلطانه ، والأخذ بنواصيها تمثيل لذلك ، والله على طريق الحق والعدل فى ملكه ، لا يفوته ظالم ، ولا يضيع عنده معتصم به .

(٥٧) « فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ »

فإن تتولوا لم أعاتب على تفريط فى الإبلاغ ، وكنتم محجوجين بأن ما أرسلت به إليكم قد بلغكم فأبيتم إلا تكذيب الرسالة وعداوة الرسول ، ويهلككم الله ويجىء بقوم آخرين يخلفونكم فى دياركم وأموالكم ولاتضرونه بتوليكم شيئاً من ضرر قط ، لأنه لا تجوز عليه المضار والمنافع ، وإنما تضرون أنفسكم ، والله على كل شىء رقيب ومهيمن فما تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم .

(٧٤) « فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ »

(٧٥) « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ »

أى لما اطمأن قلبه بعد الخوف ، وملىء سروراً بسبب البشرى بدل الغم ، فرغ للمجادلة ، وأخذ يجادل رسلنا فى قوم لوط وإهلاكهم ، وذلك أنهم لما قالوا له : إنا مهلكوا أهل هذه القرية ، قال : أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها ؟ قالوا : لا ، قال : فأربعون ؟ قالوا : لا ؟ قال : فثلاثون ؟ قالوا : لا ، حتى بلغ العشرة ، قالوا : لا ؟ قال : أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها ؟ قالوا : لا . فعند ذلك قال : إن فيها

لوطاً . قالوا : نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله . إن إبراهيم لحليم غير عجول على كل من أساء إليه ، أواه كثير التأوه من الذنوب ، منيب تائب راجع إلى الله بما يحب ويرضى .

(٧٨) « وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ »

أى وجاءه قومه يسرعون كأنما يدفعون دفعاً ، ومن قبل ذلك كانوا يعملون الفواحش ويكثرونها ، فضروا بها ومرنوا عليها وقل عندهم استقباحهم ، فلذلك جاءوا مسرعين لا يكفهم حياء ، فقال لهم هؤلاء بناتى ، أراد أن يقى أضيافه ببناته ، وهو يعنى تزويجهم . فاتقوا الله بإيثارهن عليهم ولا تفضحونى ، أو لا تخجلونى فى حق ضيوفى، فإنه إذا خزى ضيف الرجل أو جاره فقد خزى الرجل . أليس منكم رجل واحد يهتدى إلى سبيل الحق وفعل الجميل والكف عن السوء .

(٧٩) « قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ »

قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق لأنك لا ترى مناكحتنا وما هو إلا عرض للضطر . وقيل : حين اتخذوا إتيان الذكران مذهباً كان عندهم أنه هو الحق وأن نكاح الإناث من الباطل .

وإنك لتعلم ما نريد من إتيان الذكور .

(٨٤) « وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ »

إنى أراكم بخير ، أى بثروة واسعة تغنيكم عن التطفيف ، أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون ، أو أراكم بخير فلا تزيلون عنكم بما أنتم عليه .

(٨٦) « بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ »

أى ما يبقى لكم من الحلال بعد التنزه عما هو حرام عليكم خير لكم بشرط أن تؤمنوا .

(٨٧) « قَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ »

كان شعيب عليه السلام كثير الصلوات ، وكان قومه إذا رأوه يصلى تغامزوا وتضاحكوا ، وما قصدوا بقولهم

«أصلواتك تأمرك» إلا السخرية والهزء ، فلقد جعلوا الصلاة آمرة على سبيل التهكم بصلاته ، وأن هذا الذى تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل لا وجه لصحته ، وأن مثله لا يدعوك إليه داعى العقل ، ولا يأمرك به أمر فطنة ، فلم يبق إلا أن يأمرك به أمر هذيان ووسوسة شيطان ، وهو صلاتك التى تداوم عليها فى ليلك ونهارك .

ومعنى « تأمرك أن نترك » ؛ أى : تأمرك بتكليف أن نترك ما يعبد آباؤنا ، فحذف المضاف الذى هو التكليف ، لأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره .

(٩٦) « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ »

(٩٧) « إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ »

(٩٨) « يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ »

(٩٩) « وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ »

قيل : أريد أن هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوته ، وأريد السلطان المبين : العصا ، لأنها أبهرها .

« وما أمر فرعون برشيد» تجهيل لمتبعيه حيث شايعوه على أمره، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من عقل ، وذلك أنه ادعى الإلهية ، وهو بشر مثلهم ، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذى لا يأتى إلا من شيطان مارد . ومثله بمعزل من الإلهية ذاتاً وأفعالا . فاتبعوه وسلموا له دعواه ، وتتابعوا على طاعته . وما فى أمره رشد إنما هو غى صريح وضلال ظاهر مكشوف . وإنما يتبع العقلاء من يرشدهم ويهديهم ، لا من يضلهم ويغويهم ، يقدم قومه ، أى يتقدمهم فيوردهم النار لا محالة .

وبئس الورد الذى يردونه النار ، لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد ، والنار ضده .

« وأتبعوا فى هذه لعنة » أى يلعنون فى الدنيا ويلعنون فى الآخرة .

« بئس الرفد المرفود » أى بئس العون المعان ، وذلك أن اللعنة فى الدنيا رفد للعذاب ومدد له ، وقد رفدت باللعنة فى الآخرة .

(١٠٣) « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ »

أى أن فيما قص الله من قصص الأمم الهالكة بذنوبهم لعبرة لمن خاف لأنه ينظر إلى ما حل بالمجرمين فى

الدنيا ، وماهو إلا أنموذج مما أعد الله لهم فى الآخرة فإذا رأى عظمه وشدته اعتبر به عظم العذاب الموعود ، فيكون له عبرة وعظة ولطفاً فى زيادة التقوى والخشية من الله تعالى .

(١١٢) « فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »

أى فاستقم استقامة مثل الاستقامة التى أمرت بها على جادة الحق ، غير عادل عنها ، وليستقم من تاب عن الكفر وآمن معك ولا تخرجوا عن حدود الله إنه بما تعملون عالم ، فهو يجازيكم به فاتقوه .

(١١٥) « وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ »

ثم كر إلى التذكير بالصبر بعد ما جاء بما هو خاتمة للتذكير ، وهذا الكرور لفضل خصوصية ومزية وتنبيه على مكان الصبر ومحله ، كأنه قال : وعليك بما هو أهم مما ذكرت به وأحق بالتوصية ، وهو الصبر على امتثال ما أمرت به والانتهاء عما نهيت عنه ، فلا يتم شىء منه إلا به فإن الله لا يضيع أجر المحسنين .

(١١٩) « إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »

يعنى لاضطرهم إلى أن يكونوا أهل أمة واحدة ، أى ملة واحدة ، وهى ملة الإسلام ، إلا أناسا هداهم الله ولطف بهم ، فأنصفوا على دين الحق غير مختلفين فيه ، ولذلك ، من التمكين والاختيار الذى كان عنه الاختلاف ، خلقهم ، ليثيب مختار الحق بحسن اختياره ، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره ، وتمت كلمة ربك ، وهى قوله للملائكة لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ، لعلمه بكثرة من يختار الباطل .

(١٢٣) « وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ »

أى لا تخفى عليه خافية مما يجرى فيهما ، فلا تخفى عليه أعمالكم ، فلابد أن يرجع إليه أمرهم وأمرك فينتقم لك منهم فاعبده وتوكل عليه فإنه كافيك وكافلك .

تفسير سورة يوسف عليه السلام

(٣) « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ »

ذكر الله سبحانه أقاصيص الأنبياء فى القرآن ، وأعاد ذكرها فى غير موضع بمعنى واحد ، وبوجوه مختلفة ، وبصيغ بيانية مختلفة .

أما قصة يوسف عليه السلام فقد ذكرها القرآن مرة واحدة فى سورة واحدة ، ولم تكرر فى غيرها من السور .

وقصص القرآن معروف فى الكتب السماوية السابقة ، وكان بوسع معارضى القرآن ومنكرى إعجازه أن ينسجوا على منواله ويحاكوه ، ولكن أحداً من العرب وهم أهل البيان والفصاحة لم يستطع أن يعارض القرآن لا فى القصص ، ولا فى غير القصص ، لا فى المكرر منه ولا غير المكرر ، وصدق الله « إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى » . « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » .

ويروى أن اليهود قالوا : سلوه (يعنون الرسول صلوات الله عليه) لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ؟ وسلوه عن خبر يوسف ؟ فأنزل الله هذه السورة تحكى القصة كلها ، موافقة لما فى التوراة ، وفيها زيادات ليست عندهم ولم يكونوا على علم بها . فكان هذا من النبى الأمى دليل إعجاز أعظم لمن كان عنده قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وفى قوله تعالى « أحسن القصص » قال العلماء :

اختصت سورة يوسف بهذه التسمية من بين جميع سور القصص لأن فيها كثيراً من القصص لكثير من أنواع الخلق اختلفت طبائعهم وأوضاعهم ، ومسالكهم فى الحياة .

ولأن فيها ذكراً لكثير من أخبار الملوك والممالك ، والتجار والعلماء والجهلة ، والرجال والنساء ، والاتهام والبراءة ، والتآمر ، والمحنة ، وتعبير الرؤيا وغيرها ولأن فيها قبل ذلك — وهذا تصورى — تصويراً دقيقاً

لأعماق نفس الإنسان من حيث هو إنسان ، يحقـــد ، ويغار ، ويكره ، ويحب ، ويكيد ويحتال ، ويسمو ، وينحط .

ثم لأنها تعالج موضوعاً أساسياً واحداً منذ بداية الامتحان فيه إلى قمة التوفيق والنصر بإذن الله مع ما يتخلل ذلك من ولقات تضفى على الموضوع الأساسى بهاءه وتظهر فضل الله وحمايته لأوليائه ، ونصره للحق ، مهما طال المدى .

(٤) « إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ »

من هنا كانت البداية لقصة يوسف عليه السلام إذ رأى رؤياه التى حدث بها أباه . والكواكب التى رآها : قيل هى كواكب معينة نسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه حدث بأسمائها . وقيل وهو أولى وأرجح : إن هى إلا رموز لأهل بيته جميعاً من إخوته وأبيه وامرأته التى كانت خالة يوسف .

ومهما تكن التفاصيل فإن « الرؤيا » فى ذاتها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة كما أخبر رسول الله . وأنها فى هذه القصة كانت إرهاصاً مبكراً لما آل إليه أمر يوسف عليه السلام فيما بعد .

(٥) « قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ »

فيه بيان أن الرؤية لا ينبغى أن تقص إلا على شقيق ناصح ، أو على من يحسن التأويل . قيل لمالك رضى الله عنه : أيعبر الرؤيا كل أحد ؟ فقال : لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها ، فإن رأى خيراً أخبر به ، وإن رأى مكروهاً فليقل خيراً أو ليصمت . قيل فهل يعبرها على الخير ، وهى عنده على المكروه لقول من قال : هى على ما تأولت عليه ؟ قال : لا .

وقد نهى يعقوب يوسف عليهما السلام أن يقص رؤياه على إخوته تقديراً منه لما يكون بينهم وبينه من الغيرة التى قد يذكيها الشيطان فيؤذى بها يوسف . وكأنما كان يعقوب يطالع فى كتاب الغيب فقد حدث ما كان يحذر .

(٦) « وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »

كما أكرمك ربك بهذه الرؤيا يجتبيك ويحسن إليك بأن يتحقق ما رأيت ، ويعلمك الله تعبير الرؤيا وتأويلها ويتم نعمته عليك بإنجائك من المحنة ، وإيتائك النبوة ، والتمكين لك في الأرض . إن ربك عليم بما سيكون من أمرك حكيم فيما ينزل عليك من نعمة ، وفيما يسوق إليك من فتنة .

(٧) « لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ »

(٨) « إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »

(٩) « اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ »

في قصة يوسف عليه السلام وإخوته آيات وعبر ومواعظ للسائلين ولغير السائلين وأول هذه الآيات ما يصوره قوله سبحانه « إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة » فهذه بداية الفتنة ، وهبوب ريح الشر ، أن يحقد الإخوة على أخيهم ، وينفسوا عليهما محبة الأب . والآية الثانية : في اختلال منطق الإنسان حين يعميه الغضب عن الحقيقة فيفضل نفسه بمقاييس ليس لها اعتبار كقولهم « ونحن عصبة » نحن عشرة وهما اثنان . وما هذا بمقياس إذ قد يكون الواحد في العلم والفضل والحكمة بألف أو بآلاف .

والثالثة في نفس الآية : هي حكمهم على أبيهم بسوء التدبير والضلال ، وهو حكم باطل وظالم لأنه بني على أساس باطل .

ثم تأتي الآية بعدها لتصور منطق الإنسان حين يركبه الشر ويستبد به فلا يفكر إلا في شر ، ولو أنصفوا لبحثوا عن سبب تفضيل أبيهم ليوسف وأخيه فلعلهم استطاعوا أن يكسبوا محبة الأب بطريق لا شر فيه .

(١٠) « قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ »

وهذه نفسها آية : لأنها دليل على أن عنصر الخير موجود على الدوام حتى وإن كان قليلا وضعيفاً ؛ ودليل كذلك على أن الإنسان وإن أعماه الحقد فمزق روابط الدم فثمة بقية من تعاطف ذوي الرحم يمنعهم من الإيغال في الشر .

(١١) « قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ »

(١٢) « أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »

وهذه آية أخرى : إذ قد انتصرت الرحمة بين ذوى الأرحام على الحقد والغضب واستجاب الإخوة لنداء الشفقة وقرروا تنفيذ ما أشار به واحتالوا على أبيهم أن يرسله معهم ليفعلوا ما أرادوا .

(١٣) « قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ »

(١٤) « قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ »

آية أخرى من آيات هذه القصة نجدها فى مشاعر الأب الذى يشم من بعيد ريح الشر تقترب من فلذة كبده ، صحيح أنه نبي ملهم ، ولكنه قبل هذا أب يخاف على يوسف حتى ولو كان بين إخوته فيبدى لهم مخاوفه ولكى يعلل خوفه قال : إنى أخاف الذئب . فأى ذئب أراد ؟ ! إن الذئب الحيوان فى القصة برىء ، ولأن الجناة يعلمون براءته يقيناً أسرعوا وأبدوا الخوف منه فى اعتداد ووثوق .

(١٥) « فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »

حين استطاع إخوة يوسف أن يأخذوه معهم . ولما غابوا عن بصر أبيهم وأجمعوا تنفيذ جرمهم أوحى الله إلى يعقوب وأعلمه بما كان ، وأوحى إليه أن ينبئهم بما اعتزموه وما أنفذوه .

فمضوا به وألقوه فى غيابة الجب ، ولم تنفعه ضراعته ، ولم يشفع له عطف أحدهم عليه . وتلك آية : أن يطرح إنسان فى قاع جب به ماء ، وبه — كما فى الرواية — حشرات وهوام ، ثم تكون عوامل الخطر هذه أحنى عليه من إخوته من بنى الإنسان ، فيسلم ويأمن حتى يمر بهمن ينقذونه .

(١٦) « وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ »

(١٧) « قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ »

(١٨) « وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ »

آية هذه الآيات أنها تعطى الدليل الحاسم على أن ظاهر الإنسان ليس دليلا على مخبره وحقيقته ، فالحية ناعمة للمس ولكن بين أسنانها العدم ، كذلك هؤلاء كانوا منذ ساعات يتصرفون — مع أخيهم — كالوحوش ،

وها هم الساعة بين يدى أبيهم يتبا كون . إنها القدرة التى يتمتع بها الإنسان وحده — تقريباً — من دون خلق الله ، أن يكون له ظاهر وباطن ، أن يقتل القتيل ثم يتبا كى عليه .

ولما كانت الجريمة فى كل زمان تدل على المجرم فقد جاءوا على قميصه بدم كذب ، دم شاة أو غزال أو ماشاءوا ، وأعماهم الأحقاد فلم يمزقوا القميص وعرضوه سالماً على يعقوب ، فقال « بل سولت لكم أنفسكم أمراً » إذ كيف أ كله الذئب وأسال دمه ، ولما يخدش قميصه أو يمزق ، وإذا كان الذئب قد اعتدى فأين بقية يوسف ؟ ألم يترك الذئب منه لحماً ولا عظماً ؟! لله الأمر ولا أستطيع غير الصبر .

(١٩) « وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَابُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ »

(٢٠) « وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ »

مرت القافلة فاستقت من الجب فتعلق يوسف بالدلو فأخرجوه ، وقال من أخرجه : يا بشرى هذا عبد رزقناه نضيفه إلى تجارتنا وبضاعتنا .

و « شروه » بمعنى باعوه ، أى : باعته القافلة التى عثرت عليه . وقيل معناها : اشتروه ، أى من إخوته الذين حضروا ساعة بيعه وبذلوه رخيصاً بدعوى أنه عبد هارب ، وليس فيه خير .

(٢١) « وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »

وهذه آية من آيات القصة أن يكون من اشتراه هو عزيز مصر الذى لم يكن له ولد وأراد الله سبحانه أن يكون ليوسف فى أرضه مكان . فألقى الله محبته عليه ، فأوصى به زوجه ، واعتبره كأنه ابن له . ومن هنا تأخذ القصة فى تحول آخر ، فقد انتهت محنته مع إخوته ، وسوف تبدأ محنة أخرى وفق إرادة الله .

(٢٣) « وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ »

(٢٤) « وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ »

وكانت المحنة الجديدة أن امرأة العزيز أعجبها شباب يوسف وجماله فراودته عن نفسها وطلبت إليه أن يواقعها . واستبدت بها شهواتها فغلقت الأبواب وبالغت فى إغلاقها ، ودعته إليها قائلة : هيت لك ، تهيأت لك ، هلم ، تعال ، قال : معاذ الله .

وأصرت المرأة ، ويوسف بشر وإنسان فهم بها وهمت ، أعنى تحركت فيه نوازع البشر ، فى مثل هذه الأحوال ، ولكن الله أراه برهانه ، فأفاق من غاشية ماهم به فانفلت من يديها ليصرف الله عنه السوء والفحشاء .

(٢٥) « وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

آية أخرى من آيات الله فى تصوير طبيعة الإنسان عامة ، والمرأة خاصة . فهذه التى كانت منذ قريب تتوسل إلى يوسف وتترقه بعواطفها تبدلت فجأة كالنمرة تتهمه وتكيد له ، وتطلب له السجن أو العذاب الأليم .

وصرح يوسف بالحقيقة، قال هى راودتنى عن نفسى ، وحكم من أهلها عاقل قدير الحال فبان له الحق. القميص الممزق من الخلف فيه كل الدليل على أنه كان هارباً منها لا هاجماً عليها ، وقال الرجل من أهلها ، أو قال زوجها : الستر الفضيحة ، فأنت يوسف أعرض ولا تذكرها لأحد ، وأنت استغفرى لذنبك لعل الله يغفر لك كما قررته الآيات بعد .

(٣٠) « وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ »

(٣١) « فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ »

(٣٢) « قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ »

وذاعت القصة فى المدينة ، وتحدثت النسوة ، وسمعت بمقالاتهن امرأة العزيز التى حوصرت بين نارين : نار الهزيمة أمام استعصام يوسف ، ونار الفضيحة التى تأكل عرضها ومكانتها فلا هى ظفرت بما أرادت ولا هى استترت .

واحتالت المرأة ، وعرضت المتحدثات فى أمرها لمثل تجربتها وواجهتهن بيوسف على النحو الذى روته الآيات

« فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن » والتمس لهما العذر ، وإذا فهي قد أطفأت إحدى النارين اللتين كانتا تحرقانها .. أعني نار العار والفضيحة ، وبقيت نار الشوق ليوسف ، والانهزام أمامه ، لقد أسقطت المرأة عن وجهها النقاب وأصرت أن تظفر به ، « وإن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين » .

واختار يوسف السجن وآثره على الوقوع في الخطيئة ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدها وكيدهن ، ولم تنفذ المرأة ما هددت به فلم يدخل السجن .

ثم بدا لهم بعد ما رأوا الأدلة على براءته أن يسجنوه ، لكي تختفي قصته معه ، ويخف تيار القيل والقال ، فأدخل السجن .

ودخل معه السجن فتيان كانا يعملان في خدمة الملك لأمور نسبت إليهما ، فلما عرفا أن يوسف عليه السلام يعبر الرؤيا قصا عليه ما رأيا ، وسألاه تأويله .

وقد أوله لأحدهما أنه ستدعى من السجن ليصلب فتأكل الطير من رأسه ، وأوله للثاني بالفرج والعودة ثانية إلى خدمة الملك يسقيه الخمر كما كان .

وطلب يوسف إلى هذا الساقي الذي قدرت له النجاة والعودة إلى خدمة الملك أن يذكره عند ربه ، أي عند سيده الملك لعله يعفو عنه ويطلقه .

ويقول المفسرون : إن سؤاله هذا وطلبه المساعدة والعون من مخلوق مثله وهو نبي هو الذي عوقب عليه من ربه بالبقاء في السجن بضع سنين .

(٤٣) « وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ »

(٤٤) « قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ »

(٤٥) « وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ »

(٤٦) « يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ »

فلما شاء الله سبحانه أن يبرئ يوسف ويخلصه من محنته أرى الملك رؤيا أهمته وشغلته فبحث في تأويلها إلى معبري الرؤيا فقالوا أضغاث أحلام ، وما نستطيع أن نؤول الأضغاث .

عندئذ — في مناسبة رؤيا الملك — تذكر الساقي الذي كان بالسجن يوسف عليه السلام وتعبيره الدقيق للرؤيا فذكره عند الملك . فأرسله الملك إلى يوسف في السجن فعبر له الرؤيا على ما ذكرته الآيات .

(٥٠) « وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ »

(٥١) « قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ »

ولما حدث ذلك قال الملك ائتونى به ، فلما جاءه الرسول طلب قبل أن يخرج أن يظهروا براءته مما نسب إليه . عند ذلك اعترفت امرأة العزيز بكذبها فيما ادعت عليه ، واعترفت بأنها التى راودته عن نفسه ، وأن الحق هو هذا وإنه لمن الصادقين .

(٥٢) « ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ »

(٥٣) « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ »

يقول يوسف عليه السلام « ذلك » الذى فعلته من عدم الخروج مع رسول الملك إذ جاءنى يدعونى إليه ، سببه انى أردت أن يعلم الملك براءتى مما نسب إلى وليعلم أنى لم أخنه فى غيبته .

و لما اعترفت امرأة العزيز بما كان منها ، قررت أن هذا الذى حدث كان نوبة من نوبات الضعف تعترى النفس التى هى بطبيعتها أمارة بالسوء إلا من رحم الله .

(٥٤) « وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ »

لما تحقق الملك براءة يوسف مما نسب إليه ، واستيقن من علمه وحلمه وصبره استدعاه فجىء به فعينه على خزائن أرض مصر يتولاها وينفذ فى أمورها حكمه .

وهكذا انجابت الغمة ، واختتمت المحنة التى بدأت فى حياة يوسف عليه السلام منذ كاد له إخوته حتى مكن الله له فى الأرض وبوأه منها حيث يشاء ، عزيزاً على أرض مصر متوجاً فيها يأوى الناس إليه ، ويغبطونه على ما أوتى .

(٥٨) « وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ »

(٥٩) « وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ »

(٦٠) « فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ »

(٦١) « قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ »

وبينا كان يوسف عليه السلام يرتقى سرير الملك فى أرض مصر كانت المجاعة تأكل قومه وإخوته ، وكان قد ذاع فى الناس بره وعدله ورحمته ووفرة ما فى خزائنه مما يحتاجه الناس .

فجاء إليه إخوته يبتاعون من عنده حاجتهم ، فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه لما طرأ عليه من تغير ، كان صغيراً فكبر ، وزادته سمات الملك وهيئته غرابة فأنكروه .

ولما جهز لهم متاعهم سألهم أن يأتوا له بأخ لهم من أبيهم ليعلم أنهم صادقون فيما يقولون ، وأنهم ليسوا من الجواسيس المفسدين فى الأرض ، وهددهم إن لم يأتوا بأخيهم هذا ألا يعودوا لأنه لن يبيعهم شيئاً بعد .

ولكى يضمن عودتهم ارتهن أحدهم عنده ، وهو كما قالت الروايات ، من يسمى شمعون الذى كان رفيقاً به يوم إلقائه فى الجب .

ثم أمر فتيانه أن يجعلوا بضاعتهم فى رحالهم أى أن يردوا إليهم ما دفعوه فيها يضعونه فى الرحال دون أن يشعروهم ، كى يضمن عودتهم لعلمه أنهم لن يقبلوا الطعام إلا بثمنه .

وراح الفتية إلى أبيهم وأخبروه بما حدث وبطلب العزيز رؤية أخ من أبيهم ، ولم يكن يعقوب عليه السلام قد نسى يوسف فقال لهم مقالته :

« هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل » .

ولما فتحوا متاعهم ووجدوا فيه أثمان بضاعتهم اتخذوا منها دليلا على صدقهم وعلى رغبة العزيز فى أن يعودوا إليه .

(٦٦) « قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ »

ولم يوافق يعقوب بنيه أن يرسل أخاهم معهم إلا بعد أن أخذ عليهم المواثيق أن يعيدوه إليه إلا أن يحاط بهم أى إلا يحيط بهم جيش أو عدو يهلكهم جميعاً ، أو يغلبهم على أمرهم . فلما أعطوه ميثاقهم وافق ، ونصحهم ألا يدخلوا من طريق واحد خشية أن يحسدهم الناس فيصيبهم المكروه وأمرهم أن يدخلوا من طرق متفرقة وما كان دخولهم هذا من أبواب متفرقة ليغنى عنهم من الله شيئاً إذا كان سبحانه قد أراد أن يصيبهم بمكروه .

(٦٩) « وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ »

(٧٠) « فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ »

ولما دخل إخوة يوسف عليه آوى إليه شقيقه ، وأطلعه على حقيقة أمره . ولما جهزهم بجهازهم احتال لاستبقاء أخيه فدس الصاع الذى يكيلون به فى رحل أخيه حتى يكون اكتشافه سبباً لحبسه ولاستبقائه .

وقبل أن يتحركوا نادى المنادى : إنكم لسارقون ؟ قالوا وماذا سرق ؟ قالوا صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير .

قالوا : ما نحن خونة وما كنا سارقين ؟ قالوا : ماذا نفعل بمن نجد صواع الملك فى رحله ؟ قالوا : خذوه هو حبيساً أو أسيراً فى مكانه .

وأخذوا يفتشون العير ، فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ، فكان حقاً أن يستبقى عند العزيز كما وعدوا من قبل .

واضطرب إخوة يوسف ماذا يفعلون إذ يواجهون أباهم الذى أخذ عليهم المواثيق من قبل أن يعودوا بأخيهم إلا أن يحاط بهم .. وأشار عليهم كبيرهم أن يذهبوا إلى أبيهم يبلغونه بالسرقة ويبقى هو حتى يعودوا .

فرجعوا إلى أبيهم فأخبروه بذلك وطلبوا إليه أن يسأل أهل القرية التى كانوا فيها ، والتجار الذين كانوا معهم ساعتها . ولكنه لم يصدق .

أهاج الحزن الجديد حزنه القديم ، واضطرب فؤاده المكروب بالغم والألم ، فارتد حزنه جزعاً كيوم أخذوا يوسف وقالوا أكله الذئب ، والشيخ فان ، والنفس منفقة ، والصبر مر ، والحيلة عاجزة ، فتــولى عنهم وقال « يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » .

ألا أبدع ما صور القرآن ، وسبحان ربى رب البيان المعجز .

(٨٧) « يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ »

ضراعة عاجز ، قلبــه مفجوع ولكنه عامر بالإيمان ، لم يقنط من رحمة ربه فقال لأولاده : اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه .

(٨٨) « فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ »

شكوا إلى العزيز ما هم عليه من بؤس ، وما نزل بهم من الضر فقالوا جئنا ببضاعة مزجاة قد لاتساوى ما نستبدلها به منك ،ولـكنك رحيم ، وبر فأوف لنا الـكيل وتصدق علينا . وهنا كانت الخاتمة : خاتمة الرحلة الطويلة فى مسار كله أحقاد وأشواك ، وغم وألم قطعه يوسف عليه السلام فى طريق طوله فتنة وسجن وامتحان ، وألم. وقطعه أبوه يبكى ويبكى ولا يشكو بثه وحزنه لغير الله . وقطعه إخوة يوسف يدورون من حول أنفسهم كأعمى فى ظلام الليل لا يجد من يهديه ، وإن جاءته الهداية لايراها .

كانت خاتمة هذا كله حين فاجأهم يوسف قائلا : « أنا يوسف وهذا أخى قد منّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين » واعترفوا أمامه بخطيئتهم فسامحهم واستغفر الله لهم ثم قال :

« اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً وأتونى بأهلكم أجمعين » .

(٩٩) « فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ »

قيل إنه بعث مع البشير مائتى راحلة وجهازاً ، وسأل أباه يعقوب أن يأتيه بأهله وولده جميعاً ، فلما دخلوا عليه ضم والديه : يعقوب وزوجه خالة يوسف وكانت أمه قد ماتت من قبل .

وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين من القحط ، أو آمنين بطش فرعون .

(١٠١) « رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ »

روى عن قتادة : أنه لم يتمنّ الموت أحد نبى ولا غيره إلا يوسف عليه السلام حين اكتملت له النعم ، وجمع الله شمله ، فتاقت نفسه إلى لقاء ربه واللحاق بالصالحين .

والجمهور على أنه عليه السلام لم يتمن الموت وإنما تمنى الوفاة على الإسلام ملة أبيه وأبينا إبراهيم ، فكأنه قال : إذا جاء أجلى فتوفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين .

(١٠٢) « ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ »

هذا الذى قصصناه عليك يامحمد إنما هو من أنباء الغيب التى لم تشهدها ، ولم تقرأ عنها ، ولـكنا أوحيناه إليك لما اصطفيناك لرسالتنا « وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » .

(١٠٨) « قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ »

إن عليك يا محمد إلا البلاغ ، ولقد نزلنا إليهم أحسن الحديث ، قرآناً عربياً غير ذى عوج ، ثم قصصنا عليهم أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، ثم آتيناهم آياتنا كلها لعلهم يهتدون . فمن آمن فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » .

فأعلن سبيلك لهم يا محمد . أنك لاتشرك بالله وأنك تدعو إلى الله سبحانه على هدى وبصيرة ، أنت ومن اتبعك، فقل « سبحان الله وما أنا من المشركين » .

وعليك أن لا تيأس من رحمة الله ، فما من رسول قبلك إلا كذبه قومه وآذوه حتى إذا استيأس الرسول وظنوا أنهم قد كذبوا فيما وعدوا به جاءهم نصر الله فنجى المؤمنين ، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين .

(١١١) « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »

تلخص الآية سورة يوسف كلها فتقرر أن القصد من وراء سوق القصص إنما هو تقديم العظة والاعتبار ، والتذكر . وما يتذكر إلا أولوا الألباب .

ثم قررت الآية أن قصص القرآن هنا وفى غيرها من السور ، ليس حديث خرافة ، ولكنه تأييد وتثبيت لما جاء فى الإنجيل والتوراة والكتب السماوية من قبل ، وهو معنى « ولكن هو تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » ،

تفسير سورة الرعد

(١) « المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ »

أى تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة فى بابها ، والذى أنزل إليك من القرآن كله هو الحق الذى لا مزيد عليه ، لا هذه السورة وحدها ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون .

(٢) « اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ »

(٣) « وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »

لما بين تعالى أن القرآن حق ، بين أن من أنزله قادر على الكمال ، فانظروا فى مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته ، فهو يدبر أمر ملكوته وربوبيته ، يفصل آياته فى كتبه المنزلة ، لعلكم توقنون بالجزاء وبأن هذا المدبر والمفصل لابد لكم من الرجوع إليه .

فهو الذى رفع السموات بغير عمد ، وما استوى الملك إلا له جل وعز ، فليس فوقه فيا يجب له من معالى الجلالة أحد ، ولا معه من يكون العلو مشتركا بينه وبينه ، لكنه العلى بالإطلاق سبحانه ، وذلك الشمس والقمر لمنافع خلقه ومصالح عباده ، كل يجرى إلى وقت معلوم ، وهو فناء الدنيا وقيام الساعة التى عندها تكور الشمس، ويخسف القمر ، وتنكدر النجوم ، وتنتثر الكواكب .

وهو الذى بسط الأرض طولا وعرضاً ، وجعل فيها جبالا ثوابت ، وأنهاراً مياهها جارية فى الأرض فيها منافع الخلق ، وخلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين ، يلبس الليل مكان النهار فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً .

(٤) « وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »

وفى الأرض بقاع مختلفة مع كونها متجاورة متلاحقة ، طيبة إلى سبخة ، وكريمة إلى زهيدة ، وصلبة إلى رخوة ، وصالحة للزرع إلى أخرى على عكسها مع انتظامها جميعاً فى جنس الأرضية ، وذلك دليل على قادر مريد ، موقع لأفعاله على وجه دون وجه . وكذلك الزروع والكروم والنخيل النابتة فى هذه القطع مختلفة الأجناس والأنواع ، وهى تسقى بماء واحد ، وتراها متغايرة الثمر فى الأشكال والألوان والطعوم والروائح ، متفاضلة فيها . إن فى ذلك لعلامات لمن كان له قلب يفهم عن الله تعالى .

(٥) « وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »

أى إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم الصادق الأمين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث ، بعد أن يصبحوا تراباً ، فأولئك هم المتمادون فى كفرهم ، وأولئك يغلون يوم القيامة ثم فى النار يسجرون .

وقد تكون الأغلال هى أعمالهم السيئة ، وأنها لازمة لهم . وهذا وصف لهم بالإصرار على ما هم عليه .

(٦) « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ »

(٧) « وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ »

وهم لفرط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العذاب ، وبالنقمة قبل العافية ، وقد مضت عقوبات أمثالهم من المكذبين ، فما لهم لم يعتبروا ، ولولا عفو الله وتجاوزه ، مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب ، ما هنأ أحد العيش ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد .

ولم يعتدوا بالآيات المنزلة على رسول الله ﷺ عناداً ، فاقترحوا نحو آيات موسى وعيسى فقيل لرسول الله ﷺ : إنما أرسلت منذراً ومخوفاً لهم من سوء العاقبة ، وناصحاً كغيرك من الرسل ، وما عليك إلا الإتيان بما يصح به أنك رسول منذر ، وصحة ذلك حاصلة بأية آية كانت ، والآيات كلها سواء فى حصول صحة الدعوة بها لا تفاوت

بينها ، والذى عنده كل شئ بمقدار يعطى كل نبى آية على حسب ما اقتضاه علمه بالمصالح وتقديره لها ، ولكل قوم هاد من الأنبياء يهديهم إلى الدين ويدعوهم إلى الله بوجه من الهداية وبآية خص بها ، ولم يجعل الأنبياء سواء فى آيات مخصوصة .

(٩) « عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ »

(١٠) « سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ »

أى الله يعلم ما تحمل كل أنثى من ذكر أو أنثى ، صبيح وقبيح ، صالح وطالح ، فهو سبحانه منفرد بعلم الغيب وحده لاشريك له ، لما تسقطه الأرحام قبل التسعة الأشهر يعلمه ، وما يزداد فوق التسعة يعلمه ، وقيل : الغيض والزيادة يرجعان إلى الولد ، كنقصان عضو أو زيادة آخر . وهـذا النقصان وتلك الزيادة بمقدار ، فلقد قدر تعالى خروج الولد من بطن أمه ، وقدر مكثه فى بطنها إلى خروجه ، وهو عالم بما غاب عن الخلق ، وبما شهدوه ، الكبير الذى كل شئ دونه ، المستعلى على كل شئ بقدرته وقهره .

وهو تعالى يعلم ما أسره الإنسان من خير وشر كما يعلم ما جهر به من خير وشر ، وكذا يستوى فى علم الله الظاهر فى الطرقات والمستخفى فى الظلمات ، فسواء عنده من استخفى فى ظلمة الليل ومن سعى فى وضح النهار .

(١١) « لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ »

أى لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار من بين يدى المستخفى بالليل والسارب بالنهار يحفظونه من أمر الله ، أو يحفظون عليه عمله ، يكتبون أقواله وأفعاله ، والله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يقع منهم تغيير . وإذا أراد الله بقوم هلاكا وعذاباً فلا مرد لبلائه ، وما لهم من دون الله من ملجأ أو ناصر ، أو من يلى أمرهم ويدفع عنهم .

(١٤) « لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ »

أى لله دعوة الصدق ، أو دعاؤه عند الخوف ، فإنه لا يدعى فيه إلا إياه ، والأصنام والأوثان التى يدعونها من دونه لا تستجيب لهم دعاء ، ولا تسمع لهم نداء . فهم فى هـذا كالقابض الماء باليد والعرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه المثل بذلك ، يقول ذو الرمة :

فأصبحت فيما كان بينى وبينهـا   من الود مثل القابض الماء باليد

فما أشبه هذا الذى يدعو إلهاً من دون الله برجل بسط كفه إلى الماء ليقبض عليه فلا يجد فى كفه شيء منه كى يبلغ به فاه .

وهكذا لم تكن عبادة الكافرين الأصنام إلا فى ضلال لأنها شرك ، وليضل عنهم ذلك الدعاء فلا يجدن منه سبيلا ثم إن دعاءهم فى ضياع لا منفعة فيه ، لأنهم إن دعوا الله لم يجبهم ، وإن دعوا الآلهة لم تستطع إجابتهم .

(١٥) « وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ »

أى ينقادون لإحداث ما أراده فيهم من أفعاله ، شاءوا أو أبوا ، لا يقدرون أن يمتنعوا عليه ، وكذلك تنقاد له ظلالهم ، حيث تتصرف على مشيئته امتداداً وتقلصاً مع الغدو والآصال ، لأنها تبين فى هذين الوقتين ، أى مع طلوع الشمس ومع زوالها فيما بين العصر والغروب .

(١٧) « أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ »

سالت أودية ، أى سال ماؤها ، وبقدرها ، أى بقدر مساحتها .

ضرب الله مثلا للحق والباطل ، فشبه الكفر بالزبد الذى يعلو الماء ، فإنه يضمحل ويعلق بجنبات الأودية وتدفعه الرياح . وكذلك يذهب الكفر ويضمحل .

وهذا الزبد الذى يعلو الماء ثمة زبد مثله يعلو الحديد والنحاس والرصاص مما يوقدون عليه فى النار ليذوب ، فكما يكون للماء جفاء كذلك يكون لهذا المذاب جفاء ، وهو ما يرمى به .

وكما يقر الماء فى الأرض ويذهب الزبد ، كذلك يقر التراب الصالح ويطرح جفاؤه .

وهذان المثلان ضربهما الله تعالى للحق فى ثباته والباطل فى اضمحلاله ، فالباطل وإن علا فى بعض الأحوال فإنه يضمحل كاضمحلال الزبد والخبث .

(٢٥) « وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ »

لما ذكر الله للموفين بعهده والواصلين لأمره ذكر عكسهم ، وهم الذين يتركون أمره ، أو يهملون عقولهم فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل من الأرحام والإيمان بجميع الأنبياء

أو يفسدون فى الأرض بالكفر وارتكاب المعاصى . فأولئك لهم الطرد والإبعاد من الرحمة ، ولهم سوء المنقلب ، وهو جهنم .

(٢٦) « اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ »

ولما ذكر الله عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك بين تعالى أنه هو الذى يبسط الرزق ويقدره فى الدنيا لأنها دار امتحان، فبسط الرزق على الكافر لايدل على كرامته ، والتقتير على بعض المؤمنين لا يدل على إهانتهم ، ولقد فرح مشركو مكة بالدنيا ولم يعرفوا غيرها وجهلوا ما عند الله ، وما الحياة الدنيا فى جنب الآخرة إلا متاع من الأمتعة ، أو يستمتع به منها ، وقيل إما يتزود منها إلى الآخرة من التقوى والعمل الصالح .

(٣٠) « كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ »

أى أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء من قبلك فى أمة قد تقدمتها أمم كثيرة فهى آخر الأمم وأنت خاتم الأنبياء ، لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذى أوحينا إليك ، وحال هؤلاء أنهم يكفرون بالرحمن البليغ الرحمة الذى وسعت رحمته كل شىء ، وما بهم من نعمة فمنه ، فكفروا بنعمته فى إرسال مثلك إليهم ، وإنزال هذا القرآن المعجز المصدق لسائر الكتب عليهم ، فقل هو ربى الواحد المتعال عن الشركاء ، عليه توكلت فى نصرتى عليكم وإليه متاب فيثيبنى على مصابرتكم ومجاهدتكم .

(٣١) « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ »

كان نفر من المشركين فيهم أبو جهل قالوا لرسول الله ﷺ : سير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا فنتخذ فيها البساتين والقطائع كما سخرت لداود عليه السلام ، وسخر لنا الريح لتركبها ونتجر إلى الشام ثم نرجع فى يومنا ، فقد شق علينا قطع المسافة البعيدة كما سخرت لسليمان عليه السلام أو ابعث لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا ، فنزلت هذه الآية ، يقول تعالى : ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً ، أو كلم به الموتى ، بل لله القدر ، على كل شىء ، وهو قادر على الآيات التى اقترحوها ، إلا أن علمه بأن إظهارها مفسدة

يصرفه . أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً من غير أن يشاهدوا الآيات ، أو أفلم ييأس الذين آمنوا إيمان هؤلاء الكفار ، لعلمهم أن الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم ، لأن المؤمنين تمنوا نزول الآيات طمعاً في إيمان الكفار . ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا من كفرهم وسوء أعمالهم داهية تقرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم أو تحل قريباً منهم فيفزعون ويضطربون ويتطاير إليهم شرارها ، ويتعدى إليهم شرورها حتى يأتي وعد الله وهو موتهم .

وقيل وعد الله هو فتح مكة ، وكان الله قد وعده ذلك .

(٣٣) « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ »

احتجاج عليهم في إشراكهم بالله ، يعني : أفالله الذي هو قائم رقيب على كل نفس صالحة أو طالحة بما كسبت ، يعلم خيره وشره ، ويعد لكل جزاءه ، كمن ليس كذلك ؟

وجعلوا لله ، وهو الذي يستحق العبادة وحده شركاء ، فسموهم له من هم ونبئوه بأسمائهم بل أتنبئونه بشركاء لا يعلمهم في الأرض وهو العالم بما في السموات والأرض ، فإذا لم يعلمهم علم أنهم ليسوا بشيء يتعلق به العلم .

بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة .

بل زين للذين كفروا مكرهم ، أي ليس لله شريك ، لكن زين للذين كفروا مكرهم ، وصدهم الله عن السبيل ، ومن يضلل الله بخذلانه فما له من أحد يقدر على هدايته .

(٣٤) « لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ »

لهم عذاب في الحياة الدنيا ، وهو ما ينالهم من القتل والأسر وسائر المحن ، ولا يلحقهم إلا عقوبة لهم على الكفر ، ولذلك سماه عذاباً ، وما لهم من حافظ من عذابه .

(٣٧) « وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ »

وكما أنزلنا عليك القرآن فأنكره بعض الأحزاب كذلك أنزلناه حكماً عربياً ، وإنما وصفه بذلك لأنه أنزله على محمد ﷺ ، وهو عربي ، فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضاً .

وقيل : وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكماً عربياً ، أى بلسان عربى وأريد بالحكم ما فيه من الأحكام .

وقيل : أراد بالحكم العربى : القرآن كله ، لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم، ولئن تابعتهم على دين ماهو إلا أهواء وشبه بعد ثبوت العلم عندك بالبراهين والحجج القاطعة خذلك الله فلا ينصرك ناصر، وأهلكك فلا يقيك منه واق . وكانوا يدعون رسول الله ﷺ إلى أمور ، منها أن يصلى إلى قبلتهم بعد ما حوله الله تعالى عنها .

(٣٨) « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ »

كانوا يعيبونه بالزواج والولادة ، كما كانوا يقولون : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ، وكانوا يقترحون عليه الآيات وينكرون النسخ ، فقيل لهم : كان الرسل قبله بشراً مثله ذوى أزواج وذرية وما كان لهم أن يأتوا بآيات برأيهم ولا يأتون بما يقترح عليهم ، والشرائع مصالح تختلف باختلاف الأحوال والأوقات ، فلكل وقت حكم يكتب على العباد ويفرض عليهم ما يقتضيه استصلاحهم .

(٣٩) « يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ »

أى يمحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة ، ويثبت إيمانهم وطاعتهم .

وقيل : يمحو بعض الخلائق ويثبت بعضاً من الأناس وسائر الحيوان والنبات والأشجار وصفاتها وأحوالها . وعنده أصل كل كتاب ، كل كائن مكتوب فيه .

(٤٠) « وَإِن مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ »

وكيفما دارت الحال أريناك مصارعهم وما وعدناهم من إنزال العذاب عليهم ، أو توفيناك قبل ذلك ، فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة فحسب ، وعلينا لا عليك حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم ، فلا يهمنك إعراضهم ، ولا تستعجل بعذابهم .

(٤١) « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ »

أو لم يروا أنا نأتى أرض الكفر ننقصها من أطرافها بما نفتح على المسلمين من بلادهم ، فننقص دار الحرب

وتزيد فى دار الإسلام ، والله يحكم نافذاً حكمه ولا راد لحكمه ، والله سريع الحساب عما قليل يحاسبهم فى الآخرة بعد عذاب الدنيا .

(٤٢) « وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ »

أى من قبل مشركى مكة مكروا بالرسل وكادوا لهم وكفروا بهم ، وسوف يجازيهم الله به ، فهو يعلم ما تكسب كل نفس من خير وشر ، وسيعلم الكافر لمن عاقبة دار الدنيا ثواباً وعقاباً ، أو لمن الثواب والعقاب فى الدار الآخرة ، وهذا على التهديد والوعيد .

(٤٣) « وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ »

ويقول مشركوا العرب : لست بنبى ولا رسول وإنما أنت متقول ، وذلك لأنه لم يأتهم بما اقترحوا .

فقل لهم يا محمد : كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ، لما أظهر من الأدلة على رسالتى ، والذى عنده علم القرآن ، وما ألف عليه من النظم المعجز الفائت لقوى البشر ، أى كفى بالذى يستحق العبادة ، وبالذى لا يعلم علم ما فى اللوح إلا هو شهيداً بينى وبينكم .

تفسير سورة إبراهيم

(١) « الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ »

أى لتخرج الناس بالكتاب ، وهو القرآن ، أى بدعائك إليه ، من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم ، وهذا على التمثيل ، لأن الكفر بمنزلة الظلمة والإسلام بمنزلة النور — وقيل : من البدعة إلى السنة ، ومن الشك إلى اليقين — بتوفيق ربهم إياهم ولطفه بهم ، إلى صراط العزيز لا مثيل له ولا شبيه ، أو الذى لا يغلبه غالب ، المنيع فى ملكه وسلطانه ، المحمود بكل لسان ، الممجد فى كل مكان على كل حال.

(٢) « اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ »

الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ملكا وعبيداً ، واختراعاً وخلقاً ، والويل للكافرين من عذاب شديد فى جهنم .

(٣) « الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولَئِكَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ »

الذين يختارون الحياة الدنيا على الآخرة ويؤثرونها ويطلبون لسبيل الله زيغاً واعوجاجاً لموافقة أهوائهم وقضاء حاجاتهم وأغراضهم وأن يدلوا الناس على أنها سبل ناكبة عن الحق غير مستوية ، هؤلاء ضلوا عن طريق الحق ووقفوا دونه بمراحل .

(٤) « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »

أى وما أرسلنا من رسول قبلك يا محمد إلا بلغة قومه ليبين لهم أمر دينهم ، فيفقهوا عنه ما يدعوهم إليه ، فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولوا : لم نفهم ما خوطبنا به ، فيضل الله من يعلم أنه لن يؤمن ، ويهدى من يعلم أنه يؤمن . والمراد بالإضلال : التخلية ومنع الألطاف ، وبالهداية والتوفيق واللطف ، فكأن ذلك كناية عن الكفر والإيمان ، وهو العزيز فلا يغلب على مشيئته ، الحكيم فلا يخذل إلا أهل الخذلان ، ولا يلطف إلا بأهل اللطف .

(٥) « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ »

أى أرسلناه بحجتنا وبراهيننا ، أى بالمعجزات الدالة على صدقه ، وقلنا أخرج قومك من ظلمة الضلالة إلى نور الهدى ، وقل لهم قولا يتذكرون به أيام الله تعالى التى وقعت للأمم قبلهم . وقيل : نعماؤه ، وبلاؤه فإن فى هذا الدلالات لكل من يصبر على بلاء الله ويشكر نعماءه ، فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم ، أو أفاض عليهم من النعم ، تنبه على ما يجب عليه من الصبر والشكر واعتبر . وإنما خص بالآيات كل صبار شكور ، لأنه يعتبر بها ولا يغفل عنها .

(٧) « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ »

أى واذكر يا محمد إذ قال ربك لئن شكرتم إنعامى لأزيدنكم من فضلى وطاعتى .

وقيل : لئن وحدتم وأطعتم لأزيدنكم من الثواب ، ولئن جحدتم حقى أو نعمى فوعيدى بالعذاب الشديد لمن كفر .

(٨) « وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ »

أى إن كفرتم أنتم يا بنى إسرائيل والناس كلهم فإنما ضررتم أنفسكم وحرمتموها الخير الذى لابد لكم منه وأنتم إليه محاويج ، والله غنى عن شكركم مستوجب الحمد بكثرة أنعمه وأياديه وإن لم يحمده الحامدون .

(٩) « أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ »

أى ألم يأتكم خبر الذين من قبلكم ، قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم لايحصى عددهم إلا الله ولايعرف نسبهم إلا هو . جاءتهم رسلهم بالحجج والدلالات ، فجعلوا أيديهم فى أفواههم ليعضوها غيظاً مما جاء به الرسل ، إذ كان فيه تسفيه أحلامهم وشتم أصنامهم .

وقيل : أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم : أن اسكت ، تكذيباً له ورداً لقوله .

وقيل : الأيدى : النعم ، أى ردوا نعم الرسل بأفواههم ، أى بالنطق والتكذيب ، ومجيء الرسل بالشرائع نعم ، أى إنهم كذبوا بأفواههم ماجاءت به الرسل .

وقالوا : إنا كفرنا بالإرسال على زعمكم ، لأنهم أقروا أنهم أرسلوا ، وإنا لفى ريب ومرية مما تدعوننا إليه من التوحيد .

(١٠) « قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ »

استفهام معناه الإنكار ، أى لاشك فى الله ، أى فى توحيده ، أو طاعته .

وقيل : المعنى أفى قدرة الله شك ، لأنهم متفقون عليها ومختلفون فيما عداها . فاطر السموات والأرض ، أى خالقها ومخترعها ومنشئها وموجدها بعد العدم ، وهذا لينبه على قدرته فلا تجوز العبادة إلا له .

يدعوكم إلى طاعته بالرسل والكتب ليغفر لكم ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى وهو الموت فلا يعذبكم فى الدنيا .

فقالوا : إن أنتم إلا بشر مثلنا هيئة وصورة تأكلون مما نأكل وتشربون مما نشرب، ولستم ملائكة ، وتريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا من الأصنام والأوثان ، فأتونا بحجة ظاهرة .

وكان هذا مخادعة منهم ، فإن الرسل ما دعوا إلا ومعهم المعجزات .

(١١) « قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ »

قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم صورة وهيئة كما قلتم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده متفضلا عليه بالنبوة ، أو بالتوفيق والحكمة والمعرفة والهداية ، وما كان لنا أن نأتيكم بحجة وآية إلا بمشيئة الله ، وليس ذلك فى قدرتنا ، أى لانستطيع أن نأتى بحجة لما تطلبون إلا بأمره وقدرته .

(١٢) « وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ »

أى : أى شىء لنا فى ترك التوكل على الله ، وقد هدانا الطريق الذى يوصل إلى رحمته وينجى من سخطه ونقمته ، والله لنصبرن على ما آذيتمونا به من التكذيب ، ثقة بالله أنه يكفينا ويثيبنا وعلى الله فليتوكل المتوكلون .

(١٣) « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ »

(١٤) « وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ »

أى والله لنخرجنكم من أرضنا حتى تصيروا ، أو إلا أن تصيروا إلى ديننا ، فأوحى الله إليهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ، وهذا : أى ما تقضى به الله من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم ، لمن خاف موقف الحساب ، لأنه موقف الله الذى يقف فيه عباده يوم القيامة .

« وخاف وعيد » أى القرآن وزواجره .

(١٥) « وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ »

أى : واستنصروا ؛ يقول الرسول: إنهم كذبونى فافتح بينى وبينهم فتحا ، وقالت الأمم : إن كان هؤلاء صادقين فعذبنا ، وخاب كل جائر عن القصد ، معرض عنه .

(١٦) « مِن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَاءٍ صَدِيدٍ »

أى من بعد هلاك ذلك الكافر جهنم ، ويسقى من ماء مثل الصديد ، وهو ما يسيل من أجسام أهل النار من قيح ودم .

(١٧) « يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ »

يتحساه جرعاً لا مرة واحدة لمرارته وحرارته فلا يكاد يبتلعه ، وتأتيه أسباب الموت من كل جهة عن يمينه وشماله ، ومن فوقه وتحته ومن قدامه وخلفه .

وقيل : تأتيه أسباب الموت من كل مكان من جسده ، يعنى البلايا التى تصيب الكافر فى النار ، مبيت موتاً وهى من أعظم الموت ، فلا يبقى عضو من أعضائه إلا مر به نوع من أنواع العذاب .

ومن أمامه عذاب شديد متواصل الآلام من غير فتور .

(١٨) « مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ »

مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد ، يمحقها الله كما تمحق الريح الشديدة ، الرماد فى يوم عاصف ، ذلك

لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى فلا يقدر الكفار على شئ مما كسبوا فى الآخرة ، أى من ثواب ما عملوا من البر فى الدنيا ، لإحباطه بالكفر ، وهذا هو الخسران الكبير ، وجعل كبيراً لفوات استدراكه بالموت .

(١٩) « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ »

(٢٠) « وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ »

يعنى : ألم ينته علمك لقدرة الله تعالى فى خلقه السموات والأرض ، ومن أوجد المعدوم قادر على إعدام الموجود ، إن شاء أذهبكم وما ذلك على الله متعذر بل هو هين عليه يسير .

(٢١) « وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ »

أى برزوا من قبورهم جميعاً يوم القيامة لا يسترهم عن الله ساتر فقال الأتباع لقادتهم : إنا كنا لكم تابعون فهل أنتم دافعون عنا من عذاب الله شيئاً ؟

قالوا لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه ، ولو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه ، وسواء علينا أجزعنا أم صبرنا فما لنا من مهرب وملجأ .

(٢٢) « وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

وقال الشيطان لما حصل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار إن الله وعدكم وعد الحق ، يعنى البعث والجنة والنار وثواب المطيع وعقاب العاصى فصدقكم وعده ووعدتكم أن لا بعث ولا جنة ولا نار ولا ثواب ولا عقاب ، فأخلفتكم . وما كان لى عليكم من حجة وبيان، أى ما أظهرت لكم حجة على ما وعدتكم وزينته لكم فى الدنيا، لكن وعدتكم بالوسواس فاستجبتم لى باختياركم فلا تلومونى ولوموا أنفسكم إذ جئتمونى من غير حجة ، وما أنا بمغيثكم وما أنتم بمغيثى إنى كفرت بإشراككم إياى مع الله تعالى فى الطاعة ، أو كفرت بما كنتم تدعونه فى الدنيا من الشرك بالله تعالى .

إن الظالمين لهم عذاب أليم .

(٢٣) « وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ »

أى وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات بأمر ربهم ومشيئته وتيسيره .

(٢٤) « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ »

لما ذكر الله تعالى مثل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، ذكر مثل أقوال المؤمنين وغيرها ، ثم فسر ذلك المثل بجعل الكلمة الطيبة ، وهى الإيمان كشجرة أصلها ثابت فى الأرض ضارب بعروقه فيها وأعلاها ورأسها فى السماء . ويفسر هذا قوله ﷺ : إن مثل الإيمان كمثل شجرة ثابتة ، الإيمان عروقها والصلاة أصلها والزكاة فروعها والصيام أغصانها والتأذى فى الله نباتها وحسن الخلق رزقها والكف عن محارم الله ثمرتها .

(٢٥) « تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »

أى تعطى ثمرها كل وقت وقته الله لإثمارها بتيسير خالقها وتكوينه لعلهم يتذكرون إذ فى ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعانى .

(٢٦) « وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ »

والكلمة الخبيثة كلمة الشرك . وقيل: كل كلمة قبيحة . والشجرة الخبيثة : كل شجرة لا يطيب ثمرها أى مثل الكلمة الخبيثة مثل شجرة خبيثة استؤصلت فلا قرار لها .

(٢٧) « يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ »

أى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الذى ثبت بالحجة والبرهان فى قلوبهم وتمكن فيها ، فاعتقدوا واطمأنت إليه نفوسهم . وتثبيتهم فى الدنيا أنهم إذا فتنوا فى دينهم لم يزلوا ، وتثبيتهم فى الآخرة أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم لم يتلعثموا ولم يبهتوا ولم تحيرهم أهوال الحشر . ويضل الله الظالمين الذين لم يتمسكوا

بحجة فى دينهم ، وإنما اقتصروا على تقليد كبارهم وشيوخهم كما قلد المشركون آباءهم ، والله يفعل ما يشاء ، أى : ما توجبه الحكمة ، لأن مشيئة الله تعالى تابعة الحكمة من تثبيت المؤمنين وتأييدهم وعصمتهم عند ثباتهم وعزمهم ، ومن إضلال الظالمين وخذلانهم ، والتخلية بينهم وبين شأنهم عند زللهم .

(٢٨) « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ »

(٢٩) « جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ »

أى جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر فى تكذيبهم محمداً ﷺ ، حين بعثه الله منهم وفيهم فكفروا ، وأنزلوا قومهم دار البوار ، أى جهنم وبئس القرار .

(٣٠) « وَجَعَلُوا لِلهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ »

وجعلوا لله أنداداً ، أى أصناماً عبدوها ليضلوا عن دينه .

قل تمتعوا ، وعيد لهم ، وهو إشارة إلى تقليل ما هم فيه من ملاذ الدنيا ، إذ هو منقطع ، فإن مردكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم .

(٣١) « قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ »

أى قل لمن آمن وحقق عبوديته أن يقيموا الصلوات الخمس وأن ينفقوا مما رزقناهم مسرين ومعلنين ، أو إنفاق سر وإنفاق علانية ، والمعنى : إخفاء التطوع من الصدقات والإعلان بالواجب ، من قبل أن يأتى يوم لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالة ، ولا بما ينفقون به أموالهم من المعاوضات والمكاتبات ، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله .

(٣٤) « وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ »

أى أتاكم من كل ما احتجتم إليه ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلا به ، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال . وإن تعدوا نعم الله عليكم لا تحصروها ولا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها ، هذا إذا أرادوا أن يعدوها على الإجمال ، أما التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه إلا الله . إن الإنسان لظلوم يظلم النعمة بإغفال شكرها ، كفار شديد الكفران لها .

(٣٨) « رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ »

أى ليس يخفى عليك شىء من أحوالنا ، تعلم السر كما تعلم العلن علماً لا تفاوت فيه ، لأن غيباً من الغيوب لا يحتجب عنك .

والمعنى : أنك أعلم بأحوالنا وما يصلحنا ويفسدنا منا ، وأنت أرحم بنا وأنصح لنا منا بأنفسنا ولها ، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب ، وإنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك وتخشعاً لعظمتك ، وتذللا لعزتك ، وافتقاراً إلى ما عندك واستعجالا لنيل أياديك وولهاً إلى رحمتك .

(٣٩) « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ »

أى وهب لى وأنا كبير وفى حال الكبر . شكر لله ما أكرمه به من إجابته ، وهو يسمع كل دعاء أجابه أو لم يجبه .

(٤٠) « رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ »

أى رب اجعلنى من الثابتين على الإسلام والتزام أحكامه ، واجعل من ذريتى من يقيمها ، وتقبل دعائى ، أى عبادتى .

(٤١) « رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ »

يوم يقوم الحساب ، أى يثبت .

وقيل : يوم يقوم الناس للحساب .

(٤٢) « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ »

(٤٣) « مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ »

هذا تسلية للنبى ﷺ ، بعد أن أعجبه من أفعال المشركين ومخالفتهم دين إبراهيم . أى اصبر كما صبر إبراهيم ، واعلم المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضى بأفعالهم ، بل سنة الله إمهال العصاة مدة . إنما يؤخرهم — يعنى مشركى مكة — أى يمهلهم ويؤخر عذابهم ليوم لاتغمض الأبصار فيه من هول ما تراه ، مسرعين رافعى رؤوسهم ينظرون فى ذل ، ولا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر فهى شاخصة وأفئدتهم لا تغنى شيئاً من شدة الخوف . أو هى خاوية خربة متخرقة ليس فيها خير ولا عقل .

(٤٤) « وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ »

أى خوف الناس — يعنى أهل مكة — يوم القيامة . وخصه بيوم العذاب وإن كان يوم الثواب ، لأن الكلام خرج مخرج التهديد للعاصى . فيقول الذين ظلموا فى ذلك اليوم ربنا امهلنا ، وكأنهم سألوه الرجوع إلى الدنيا حين ظهر الحق فى الآخرة ، نجب دعوتك إلى الإسلام ونتبع الرسل . فيكون جوابهم أو لم تكونوا أقسمتم من قبل — يعنى فى دار الدنيا — ما لكم من انتقال عن الدنيا إلى الآخرة أى لا تبعثون ولا تحشرون .

(٤٥) « وَسَكَنتُمْ فِى مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ »

أى وسكنتم فى بلاد ثمود ونحوها فهلا اعتبرتم بما كنهم بعد ما تبين لكم ما فعلنا بهم وبعد أن ضربنا لكم الأمثال فى القرآن .

(٤٦) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ »

أى بالشرك بالله وتكذيب الرسل والمعاندة ، ومكتوب عند الله مكرهم فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه .

وقيل : وعند الله مكرهم الذى يمكرهم به ، وهو عذابهم الذى يستحقونه يأتيهم من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون .

وإن عظم مكرهم وتبالغ فى الشدة . وضرب زوال الجبال مثلا لتفاقمه وشدته . أى وإن كان مكرهم سوى لإزالة الجبال معداً لذلك .

(٤٨) « يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ »

أى يوم تبدل هذه الأرض التى تعرفونها أرضاً أخرى غير هذه المعروفة وكذلك السموات ، وبرزوا ، أى خرجوا من قبورهم .

(٤٩) « وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِى الأَصْفَادِ »

(٥٠) « سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ »

(٥١) « لِيَجْزِىَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ »

أى ترى المجرمين يوم القيامة مشدودين فى الأغلال والقيود ، قمصهم من قطران ، وتضرب النار وجوههم فتغشيها ليجزى الله كل نفس مجرمة أو مطيعة بما كسبت .

(٥٢) « هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ »

أى هذا الذى أنزلنا إليك تبليغ وعظة ليخافوا عقاب الله عز وجل وليعلموا وحدانية الله بما أتام من الحجج والبراهين ، وليتعظ أصحاب العقول .

تفسير سورة الحجر

(١) « الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ »

أى تلك آيات الكتاب الكامل فى كونه كتاباً وأى قرآن مبين ، كأنه قيل : الكتاب الجامع للكمال والغرابة فى البيان .

(٢) « رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ »

أى إذا رأى المشركون المسلمين وقد دخلوا الجنة وما رأوه فى النار تمنوا أنهم كانوا مسلمين .

(٣) « ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ »

أى اقطع طمعك من أمر عداتهم ، ودعهم عن النهى عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة وخلهم يأكلوا ويتمتعوا بدنياهم وتنفيذ شهواتهم ، ويشغلهم أملهم وتوقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال ، وألا يلقوا فى العاقبة إلا خيراً ، فسوف يعلمون سوء صنيعهم .

والغرض الإيذان بأنهم من أهل الخذلان ، وأنهم لا يجيء منهم إلا ما هم فيه ، وأنه لا زاجر لهم ولا واعظ إلا معاينة ما ينذرون به حين لا ينفعهم الوعظ ، ولا سبيل إلى اتعاظهم قبل ذلك ، فأمر الله رسوله بأن يخليهم وشأنهم ولا يشتغل بما لا طائل تحته ، وأن يبالغ فى تخليتهم حتى يأمرهم بما لا يزيدهم إلا ندماً فى العاقبة .

وفيه إلزام للحجة ومبالغة فى الإنذار وإعذار فيه ، وفيه تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدى إليه طول الأمل، وهذه تجيرى أكثر الناس ليس من أخلاق المؤمنين .

(٧) « لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ »

أى هلا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك ويعضدونك على إنذارك .

وقيل : هلا تأتيناه بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك إن كنت صادقاً .

(٨) « مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ »

أى لا حكمة فى أن تأتيكم الملائكة عياناً تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبى ﷺ لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار .

(٩) « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »

رد لإنكارهم واستهزائهم فى قولهم : « يأيها الذى نزل عليه الذكر » لذلك قال إنا نحن ، فأكد إنه هو المنزل على القطع والثبات ، وأنه هو الذى بعث به جبريل إلى محمد ﷺ ، وهو حافظه فى كل وقت من كل زيادة ونقصان وتحريف وتبديل .

(١٠) « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ »

أى ولقد أرسلنا من قبلك رسلا فى فرق الأولين وطوائفهم .

(١١) « وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ »

تسلية النبى ﷺ ، أى كما فعل بك هؤلاء المشركون فكذلك فعل بمن قبلك من الرسل .

(١٢) « كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ »

(١٣) « لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ »

كذلك ندخل الضلال والكفر والاستهزاء والشرك فى قلوب المجرمين من قومك ، أى كما سلكناه فى قلوب من تقدم من شيع الأولين كذلك نسلكه فى قلوب مشركى قومك حتى لا يؤمنوا بك ، كما لم يؤمن من قبلهم برسلهم .

وقد مضت سنة الله بإهلاك الكفار ، فما أقرب هؤلاء من الهلاك .

وقيل : بمثل ما فعل هؤلاء من التكذيب والكفر فهم يقتدون بأولئك .

(١٤) « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ »

(١٥) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ »

أى لو أجيبوا إلى ما اقترحوا من الآيات لأصروا على الكفر وتعللوا بالخيالات .

وقيل : لو صعدوا إلى السماء وشاهدوا الملكوت والملائكة لأصروا على الكفر .

وقيل : لو كشف لهــؤلاء حتى يعاينوا أبواباً فى السماء تصعد فيها الملائــكة وتنزل لقالوا : رأينا بأبصارنا ما لا حقيقة له ، وقد سحرنا محمد بذلك .

(١٦) « وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ »

لما ذكر كفر الـكافرين وعجز أصنامهم ذكر كمال قدرته ليستدل بها على وحدانيته .

أى جعلنا فى السماء منازل الشمس والقمر وزينا السماء للمعتبرين والمتفــكرين .

(١٧) « وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ »

(١٨) « إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ »

أى حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئاً من الوحى وغيره إلا من استرق السمع ، فإنا لم نحفظها منه أن تسمع الخبر من أخبار السماء سوى الوحى ، فأما الوحى فلا تسمع منه شيئاً . وإذا استمع الشياطين إلى شىء ليس بوحى فإنهم يقذفونه إلى الـكهنة فى أسرع من طرفة عين ، ثم تتبعهم الشهب فتقتلهم أو تخبلهم .

(١٩) « وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ »

(٢٠) « وَجَعَلْنَا لَـكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ »

أى والأرض بسطناها وجعلنا فيها جبالا ثابتة وأنبتنا فيها من كل شىء بقدر معلوم ، أو مقسوم وجعلنا لـكم فيها المطاعم والمشارب التى تعيشون بها ، وكذا الدواب والأنعام .

(٢١) « وَإِن مِن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ »

أى وإن من شىء من أرزاق الخلق ومنافعهم إلا عندنا خزائنه ، يعنى المطر المنزل من السماء لأن به نبات كل شىء ، ولـكن لا ننزله إلا على حسب مشيئتنا وعلى حسب حاجة الخلق إليه .

(٢٢) « وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ »

أى حاملات للسحب تقله وتصرفه ثم تمريه فتستدره وتنزله ، وجعلنا ذلك المطر لسقياكم وشرب مواشيـكم وأرضـكم . وليست خزائنه عندكم فنحن الخازنون لهذا الماء ننزله إذا شئنا ونمسكه إذا شئنا .

(٢٣) « وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ »

أى الباقون بعد هلاك الخلق كله لا يبقى شىء سوانا .

(٢٤) « وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ »

ولقد علمنا من استقدم ولادة وموتاً ومن تأخر من الأولين والآخرين ، أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد . أو من تقدم فى الإسلام وسبق إلى الطاعة ومن تأخر .

(٢٥) « وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ »

أى هو وحده القادر على حشرهم والعالم بحصرهم مع إفراط كثرتهم وتباعد أطراف عددهم ، إنه باهر الحكمة واسع العلم ، يفعل كل ما يفعل على مقتضى الحكمة والصواب ، وقد أحاط علماً بكل شىء .

(٢٦) « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ »

أى خلق الإنسان من صلصال — وهو الطين اليابس — كائن من حمأ — وهو الطين الأسود المتغير — مصور ، أى أفرغ صورة الإنسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذوبة فى أمثلتها .

(٢٧) « وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ »

أى وخلق الجان من قبل خلق آدم من نار السموم ، وهى الشديدة النافذة .

(٢٨) « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ »

(٢٩) « فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ »

أى إذا سويت خلقه وصورته وأجريت فيه الحياة فخروا له ساجدين سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة .

(٣٦) « قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ »

(٣٧) « قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ »

(٣٨) « إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ »

هذا السؤال من إبليس لم يكن عن ثقته بمنزلته عند الله تعالى ، وأنه أهل أن يجاب له دعاء ، ولكن سأل تأخير عذابه زيادة فى بلائه كفعل الآيس من السلامة ، وأراد بسؤاله الانتظار إلى يوم يبعثون : ألا يموت ، لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعده . فقال له تعالى : إنك من المؤجلين إلى يوم الوقت المعلوم الذى استأثر الله بعلمه ويجهله إبليس .

(٤١) « قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ »

أى هذا صراط يستقيم بصاحبه حتى يهجم به على الجنة .

وقيل : المعنى : علىّ أن أدل على الصراط المستقيم بالبيان والبرهان ، وقيل بالتوفيق والهداية .

(٤٢) « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ »

أى ليس سلطان على قلوبهم ، أى فى أن يلقيهم فى ذنب يمنعهم عفوى ويضيقه عليهم وهؤلاء هم الذين هداهم الله واجتباهم واختارهم واصطفاهم .

(٤٣) « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ »

(٤٤) « لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ »

أى أن جهنم الملتقى إبليس ومن اتبعه ، وإن لها لأدراكا وأطباقاً لكل درك نصيب منهم .

(٤٥) « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ »

(٤٦) « ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ »

أى أن الذين اتقوا الفواحش والشرك فى جنات وعيون . ادخلوها بسلامة من كل داء وآفة ، وقيل : تحية من الله لهم . آمنين من الموت والعذاب والعزل والزوال .

(٤٧) « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ »

(٤٨) « لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ »

أى لا حقد ولا عداوة فهم إخوان صفاء ونقاء قلوب قد تلاقت الوجوه ، تواصلا وتحاباً لا يمسهم إعياء وتعب وهم فى نعيم مقيم باقون فيه ولا زوال لهم عنه .

(٥١) « وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ »

(٥٢) « إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ »

(٥٣) « قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ »

(٥٤) « قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ »

ونبئهم عن ضيف إبراهيم ، وهم الملائكة الذين بشروه بالولد وبهلاك قوم لوط إذ دخلوا عليه فسلموا سلاما فقال إنا منكم فزعون خائفون . وإنما قال هذا بعد أن قرب إليهم العجل ورآهم لا يأكلون منه . فقالوا لا تفزع ولا تخف إنا نبشرك بغلام عليم . قال أبشرتمونى على مس الكبر إياى وزوجتى . ثم تعجب فقال : فبم تبشرون .

(٥٥) « قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ »

أى بشرناك بما لاخلف فيه ، وأن الولد لابد منه ، فلا تكن من الآيسين من الولد .

(٥٦) « قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ »

أى إنه استبعد الولد لكبر سنه لايأساً من رحمة الله تعالى ، إذ لاييأس من رحمة الله إلا القوم المكذبون الذاهبون عن طريق الصواب .

(٦١) « فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ »

(٦٢) « قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ »

(٦٣) « قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ »

(٦٤) « وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ »

(٦٥) « فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ »

(٦٦) « وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ »

أى تنكركم نفسى وتنفر منكم فأخاف أن تطرقونى بشر . قالوا ماجئناك بما تنكرنا لأجله بل جئناك بما فيه فرحك وسرورك ويشفيك من عدوك . وهو العذاب الذى كنت توعدهم بنزوله فيمترون فيه ويكذبونك جئناك باليقين من عذابهم وإنا لصادقون فى الإخبار بنزوله بهم . فسر أنت وأهلك فى آخر الليل . ونهوا عن الالتفات لئلا يروا ماينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم ، ويوطنوا نفوسهم على الهاجرة ويطيبوها عنمسا كنهم ويمضوا قدماً غير ملتفتين إلى ماوراءهم كالذى يتحسر على مفارقة وطنه فلا يزال يلوى إليه أخادعه .

أو لعل النهى عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التوانى والتوقف ، لأن من يلتفت لابد له فى ذلك من أدنى وقفة .

وامضوا إلى حيث تؤمرون . وأوحينا إليه ذلك الأمر مقضيًّا مبتوتاً بأن هؤلاء يستأصلون عن آخرهم لا يبقى منهم أحد .

(٦٧) « وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ »

(٦٨) « قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ »

(٦٩) « وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ »

(٧٠) « قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ »

(٧١) « قَالَ هَؤُلاَءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ »

(٧٢) « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ »

(٧٣) « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ »

(٧٤) « فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ »

(٧٥) « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ »

(٧٦) « وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ »

(٧٧) « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ »

وجاء أهل المدينة ، وهم أهل سدوم التى ضرب بقاضيها المثل فى الجور مستبشرين بالملائكة فقال لهم لوط : لا تفضحون بفضيحة ضيفى ، لأن من أسىء إلى ضيفه أو جاره فقد أسىء إليه ، ولا تذلونى بإذلال ضيفى . فقالوا له : عن أن تجير أحداً من الغرباء أو تدفع عنهم أو تمنع بيننا وبينهم ، إذ كانوا يتعرضون لكل أحد . وكان ﷺ يقوم بالنهى عن المنكر والحجر بينهم وبين التعرض له فأوعدوه ، وقالوا : لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين . قال لهم : فهؤلاء بناتى فتزوجوهن ولا تركنوا إلى الحرام .

وقيل : المراد بالبنات النساء عامة لأن كل أمة أولادها أولاده وبناتها نساؤه .

إن كنتم فاعلين ، أى إن فعلتم ما أقول لكم وما أظنكم تفعلون .

فقال الملائكة للوط عليه السلام : لعمرك إنهم ليتحيرون فى غوايتهم التى أذهبت عقولهم وتمييزهم الخطأ الذى هم عليه وبين الصواب الذى تشير به عليهم من ترك البنين إلى البنات ، فكيف يقبلون قولك ويصغون إلى نصيحتك .

فأخذتهم الصيحة وقت الشروق وجعل الله عاليها سافلها وأمطر عليهم حجارة من طين معلمة للمتأملين وإن آثار هذه القرى لثابتة يسلكها الناس لم تندرس بعد ، وهم يبصرون تلك الآثار ، وإن فيها لعبرة للمصدقين .

(٧٨) « وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ »

(٧٩) « فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ »

أصحاب الأيكة : قوم شعيب .

وإنهما ، يعنى قرى لوط والأيكة بطريق واضح . والإمام : اسم لما يؤتم به ، فسمى به الطريق .

وقيل : الضمير للأيكة ومدين ، لأن شعيباً كان مبعوثاً إليهما ، فلما ذكر الأيكة دل بذكرها على مدين فجاء بضميرها .

(٨٠) « وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ »

(٨١) « وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ »

(٨٢) « وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ »

(٨٣) « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ »

(٨٤) « فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »

أصحاب الحجر : ثمود ، والحجر : واديهم ، وهو بين المدينة والشام .

يعنى : تكذيبهم صالحاً ، لأن من كذب واحداً منهم فكأنما كذبهم جميعاً .

وقيل : أراد صالحاً ومن معه من المؤمنين .

وآتيناهم آياتنا فلم يعتبروا ، وكانوا آمنين فى بيوتهم لوثاقتها واستحكامها من أن تنهدم وتتداعى بنيانها ، أو آمنين من عذاب الله يحسبون أن الجبال تحميهم منه ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون من بناء البيوت الوثيقة والأموال والعدد .

(٨٥) « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ »

أى إلا خلقاً ملتبساً بالحق والحكمة لا باطلا وعبثاً ، وإن الساعة لآتية وإن الله ينتقم لك فيها من أعدائك ويجازيك وإياهم على حسناتك وسيئاتهم ، فإنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا لذلك ، فأعرض عنهم واحتمل ما تلقى منهم إعراضاً جميلا بحلم وإغضاء .

(٨٦) « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ »

أى إن ربك هو الذى خلقك وخلقهم ، وهو العليم بحالك وحالهم ، فلا يخفى عليه ما يجرى بينكم وهو يحكم بينكم .

أو إن ربك هو الذى خلقكم وعلم ما هو الأصلح لكم ، وقد علم أن الصفح اليوم أصلح إلى أن يكون السيف أصلح .

(٨٧) « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ »

أى سبع آيات ، وهى الفاتحة ، أو سبع سور ، وهى الطوال .

واختلف فى السابعة . فقيل : الأنفال وبراءة ، لأنهما فى حكم سورة واحدة ولذلك لم يفصل بينهما بآية التسمية.

وقيل: سورة يونس .

وقيل : هى آل حم .

والثانى من الثناء ، لاشتمالها على ماهو ثناء على الله وقيل من التثنية ، وهى التكرير .

والقرآن العظيم ، أى الجامع لهذين النعتين : الثناء ، أو التثنية ، والعظم .

(٨٨) « لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ »

(٨٩) « وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ »

أى لا تطمح ببصرك إلى ما متعنا به أصنافاً من الكفار طموح راغب فيه متمن له ، ولا تحزن عليهم أنهم لم يؤمنوا فيقوى بمكانهم الإسلام وينتعش بهم المؤمنون، وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم،وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء ، وقل لهم إنى أنا النذير المبين ، أنذركم ببيان وبرهان أى عذاب الله نازل بكم .

(٩٠) « كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ »

(٩١) « الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ »

أى وأنذر قريشاً مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين ، وهم الإثنا عشر الذين اقتسموا بداخل مكة أيام الموسم ، فقعدوا فى كل مدخل متفرقين لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله ﷺ ، الذين جعلوا القرآن كذباً وسحراً وكهانة وشعراً وذهبوا فيه مذاهب متفرقة .

(٩٢) « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ »

(٩٣) « عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

يتوعدهم ، وقيل : يسألهم سؤال تقريع ، عما كانوا يعبدون ، وماذا أجابوا المرسلين .

(٩٤) « فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ »

أى فرق جمعهم وكلمهم بأن تدعوهم إلى التوحيد ، وأعرض عن المشركين ، أى عن الاهتمام باستهزائهم وعن المبالاة بقولهم ، فقد برأك الله عما يقولون .

(٩٥) « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ »

(٩٦) « الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ »

وكانوا خمسة من رؤساء أهل مكة ، وهم الوليد بن المغيرة ، وهو رأسهم ، والعاص بن وائل ، والأسود بن أسد أبو زمعة ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن الطلاطلة ، وقد أهلكوا جميعاً .

(٩٧) « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ »

(٩٨) « فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ »

(٩٩) « وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ »

أى يضيق صدرك بما تسمعه من تكذيبك ورد قولك ، وتناله وينال أصحابك من أعدائك ، فافزع فيما نابك إلى الله . والفزع إلى الله هو الذكر الدائم وكثرة السجود ، ودم على عبادتك حتى يأتيك الموت .

تفسير سورة النحل

(١) « أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ »

كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم يوم بدر استهزاء وتكذيباً بالوعد ، فقيل لهم: أتى أمر الله الذى هو بمنزلة الآتى الواقع ، وإن كان منتظراً لقرب وقوعه ، «فلاتستعجلوه واطمأنوا ، تبرأ عز وجل من أن يكون له شريك ، وأن تكون آلهتهم له شركاء ، أو عن إشراكهم .

(٣) « خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ »

ثم دل على وحدانيته وأنه لا إله إلا هو بما ذكر ، مما لا يقدر عليه غيره من خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وما يصلحه ، وما لا بد له منه من خلق البهائم لأكله وركوبه وجر أثقاله وسائر حاجاته وقيل : بالحق ، أى للزوال والفناء .

تعالى عما يشركون ، أى من هذه الأصنام التى لا تقدر على شىء .

(٤) « خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ »

أى خلق الإنسان من ماء يخرج من بين الصلب والترائب فنقله أطواراً إلى أن ولد ونشأ .

فإذا هو خاصم ، يخاصم الله عز وجل فى قدرته ، مبين ، ظاهر الخصومة ، وقيل : يبين عن نفسه الخصومة بالباطل .

(٥) « وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ »

لما ذكر الإنسان ذكر ما من به عليه . والأنعام، وهى الإبل والبقر والغنم، وأكثر ما تقع على الإبل، ماخلقها إلا لكم ولمصالحكم ، لكم فيها ما يدفأ به ، ومنافع ، وهى ونسلها ودرها وغير ذلك . واستبد منفعة الأكل بالذكر لأنها معظم النافع .

(٦) « وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ »

من الله بالتجمل بها كما من بالانتفاع بها، لأنه من أغراض أصحاب المواشى، بل هو من معاظمها لأن الرعيان

إذا روحوها بالعشى وسرحوها بالغداة ، فزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية ، وتجاوب فيها الثغاء والرغاء ، آنست أهلها وفرحت أربابها .

(٧) « وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ »

أى وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه فى التقدير لو لم تخلق الإبل ، إلا بجهد أنفسكم ، لأنهم لم يكونوا بالغيه فى الحقيقة ، إن ربكم لرؤف رحيم حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح .

(٨) « وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »

أى وخلق هذه للركوب والزينة ، وثمة من الخلائق مالا علم لنا به ليزيدنا دلالة على اقتداره بالإخبار بذلك ، وإن طوى عنا علمه لحكمة له فى طيه .

(٩) « وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ »

أى على الله بيان قصد السبيل ، والسبيل الإسلام ، وقصد السبيل : استقامة الطريق ، أى على الله بيانه بالرسل والحجج والبراهين .

ومن السبيل جائر أى عادل عن الحق فلا يهتدى به .

(١٠) « هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ »

أى ينبت من الأمطار أشجاراً وعروشاً ونباتاً . وفيه تسيمون أى ترعون إبلكم .

(١٣) « وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ »

يعنى ما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك مختلف الهيئات والمناظر .

إن فى ذلك لعبرة لقوم يتعظون ويعلمون ، أى إن فى تسخير هذه الكونات لعلامات على وحدانية الله تعالى ، وأنه لايقدر على ذلك أحد غيره .

(٢٧) « ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ »

أى يفضحهم بالعذاب ويذلهم به ويهينهم ويقول أين شركائى بزعمكم وفى دعواكم ، أى الآلهة التى عبدتم دونى،

«هو سؤال توبيخ» الذين كنتم تشاقون فيهم ، أى تعادون أنبيائى بسببهم ، فليدفعوا عنكم هذا العذاب . قال الذين أوتوا العلم ، أى المؤمنون إن الهوان والذل يوم القيامة على الكافرين .

(٣٣) « هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »

هذا راجع إلى الكفار ، أى ما ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم أو يأتى أمر ربك بالعذاب ، وما ظلمهم الله بتعذيبهم أو إهلاكهم ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك .

(٣٤) « فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ »

أى كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا وأحاط بهم عقاب استهزائهم .

(٣٦) « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ »

ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا بأن اعبدوا الله ووحدوه واتركوا كل معبود دون الله من كل من دعى إلى ضلال ، فمنهم من أرشده الله إلى دينه وعبادته ومنهم من حقت عليه الضلالة بالقضاء السابق عليه حتى مات على كفره ، فسيروا معتبرين فى الأرض فانظروا كيف صار آخر أمرهم إلى الخراب والعذاب والهلاك .

(٣٧) « إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ »

أى إن تطلب بجهدك هداهم فإن الله لا يهدى من يضل ، أى لا يرشد من أضله ، أى من سبق له من الله الضلالة لم يهده .

(٣٨) « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »

هذا تعجيب من صنعهم ، إذ أقسموا بالله وبالغوا فى تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت . ووجه التعجب أنهم يظهرون تعظيم الله فيقسمون به ثم يعجزونه عن بعث الأموات .

بلى ، رد عليهم ، أى بلى ليبعثنهم وعداً عليه حقاً ، أى وعد البعث وعداً حقاً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنهم مبعوثون .

(٣٩) « لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ »

أي يظهر لهم الذى يختلفون فيه من أمر البعث وليعلم الذين كفروا بالبعث وأقسموا عليهم أنهم كانوا كاذبين .

وقيل : المعنى:ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ليبين لهم الذى يختلفون فيه ، والذى اختلف فيه المشركون والمسلمون أموراً منها : البعث ، ومنها عبادة الأصنام ، ومنها إقرار قوم بأن محمداً ﷺ ولكن منعهم من اتباعه التقليد ، كأبى طالب .

(٤٠) « إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ »

أى إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب فى إحيائهم ، ولا فى غير ذلك مما نحدثه ، لأنا إنمـا نقول له كن فيكون .

(٤٥) « أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ »

(٤٦) « أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ »

(٤٧) « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ »

هذا وعيد للمشركين الذين احتالوا فى إبطال الإسلام ، أى أمأمن الذين مكروا بالسيئات أن يخسف الله بهم الأرض ويغيبهم فيها ، أى يجب ألا يأمنوا عقوبة تلحقهم كما لحقت المكذبين ، أو يأتيهم العـذاب من حيث لا يشعرون كما فعل بقوم لوط وغيرهم ، أو يأخذهم فى أسفارهم وتصرفهم فما هم سابقين الله ولا فائتيه ، أو يأخذهم على تنقص من أموالهم ومواشيهم وزروعهم ، أو على عجل ، فإن ربكم لرؤوف رحيم ، لا يعاجل بل يمهل .

(٤٨) « وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ »

يخبر عن الذين يمكرون بالسيئات ، يعنى أو لم يروا من جسم قائم له ظل من شجرة أو جبل ، يميل ظله من جانب إلى جانب ، يكون أول النهار على حال ويتقلص ثم يعود آخر النهار على حالة أخرى وسجوده انقياده وبما يرى فيه من أثر الصنعة ، وهذا عام فى كل جسم ، وهم خاضعون صاغرون .

(٤٩) « وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُون »

(٥٠) « يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ »

أى ولله يسجد ما فى السموات ومن كل ما يدب على الأرض والملائكة ، وهم لا يستكبرون عن عبادة ربهم ، يخافون عقاب ربهم وعذابه ، من فوقهم ، لأن العذاب المهلك إنما ينزل من السماء .

وقيل : المعنى : يخافون قدرة ربهم التى هى فوق قدرتهم .

ويفعلون ما يؤمرون ، يعنى الملائكة .

(٥٣) « وَمَا بِكُمْ مِن نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ »

(٥٤) « ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ »

(٥٥) « لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ »

أى وما بكم من نعمة فمن الله هى ، ثم إذا مسكم الضر من سقم وبلاء وقحط فإلى الله تضجون بالدعاء ، وإذا كشف البلاء والسقم عنكم إذا فريق منكم بعد إزالة البلاء وبعد الجوار بربهم يشركون .

والكلام معناه التعجيب من الإشراك بعد النجاة من الهلاك .

ليكفروا بما آتيناهم ، أى ليجحدوا نعمة الله التى أنعم بها عليهم من كشف الضر والبلاء ، أى : أشركوا ليجحدوا .

وقيل : ليجعلوا النعمة سبباً للكفر .

فتمتعوا ، الأمر للتهديد ، فسوف تعلمون عاقبة أمركم .

(٥٦) « وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ »

ذكر نوعاً آخر من جهالتهم، وأنهم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضر وينفع — وهى الأصنام — شيئاً من أموالهم يتقربون به إليه .

تالله لتسألن ، سؤال توبيخ ، عما كنتم تختلقونه من الكذب على الله أنه أمركم بهذا .

(٥٧) « وَيَجْعَلُونَ لِلهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَا يَشْتَهُونَ »

نزلت فى خزاعة وكنانة فإنهم زعموا أن الملائكة بنات الله ، فنزه الله تعالى نفسه وعظمها عما نسبوه إليه من اتخاذ الأولاد .

ولهم ما يشتهون ، أى يجعلون لأنفسهم البنين ويأنفون من البنات .

(٥٨) « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ »

أى إذا أخبر أحدهم بولادة بنت ظل وجهه متغيراً ، وهذا كناية عن الغم بالبنت .

وهو كظيم ، أى ممتلىء من الغم وقيل : حزين .

(٥٩) « يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ »

أى يختفى من القوم ويتغيب من سوء العار الذى يلحقه بسبب البنت ، أيمسكه — أى المولود — على هوان ، أو على رغم أنفه ، أم يدسه فى التراب ، وهو ما كانوا يفعلونه من دفن البنت حية .

ألا ساء ما يحكمون فى إضافة البنات إلى خالقهم وإضافة البنين إليهم .

(٦٠) « لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »

أى لهؤلاء الواصفين لله البنات صفة السوء من الجهل والكفر ولله الوصف الأعلى من الإخلاص والتوحيد .

(٦١) « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ »

أى لو يؤاخذ الله الناس بكفرهم وافترائهم وعاجلهم ما ترك على الأرض من دابة كافرة ، يعنى أنه لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء .

وقيل : المراد بالآية العموم ، أى لو آخذ الله الخلق بما كسبوا ما ترك على ظهر هذه الأرض من دابة ولكن الله يأخذ بالعفو والفضل فإذا جاء أجل موتهم ومنتهى أعمارهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

(٦٣) « تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

هذه تسلية للنبى ﷺ بأن من تقدمه من الأنبياء ، قد كفر بهم قومهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فهو اليوم ناصرهم فى الدنيا على زعمهم ولهم فى الآخرة عذاب أليم .

(٦٤) « وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »

أى ما أنزلنا عليك القرآن إلا تبياناً للناس تبين لهم به الذى اختلفوا فيه من الدين والأحكام فتقوم الحجة عليهم ببيانك ، ورشداً ورحمة للمؤمنين .

(٦٥) « وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ »

أى والله أنزل من السحاب ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لدلالة على البعث وعلى وحدانيته إذ عصوا أن معبودهم الذى يعبدونه من دون الله لا يستطيع شيئاً ، فتكون هذه الدلالة لقوم يسمعون عن الله تعالى بالقلوب لا بالآذان .

(٦٦) « وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ »

أى إن لكم فى الأنعام لدلالة على قدرة الله ووحدانيته وعظمته نسقيكم مما فى بطون ما ذكرناه لبناً خالصاً بين الفرث ، وهو الزبل ، والدم ، أى بين قذارة الفرث وحمرة الدم ، لذيذاً هيناً لا يغص به من شربه .

(٦٧) « وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »

أى أنعم الله عليكم بثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه عصيراً حلواً وطعاماً إن فى ذلك لقوم يعقلون .

(٦٨) « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ »

أى وألهم ربك النحل بأن تتخذ بيوتها إما فى الجبال وكواها ، وإما فى متجوف الأشجار ، وإما فيما يعرش الناس من الخلايا .

(٦٩) « ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »

وكلى من كل الثمرات سالكة فى طلب هذا الرزق طرقه التى هيأها الله لك معبدة مذللة ، أو جعلك أنت منقادة طيعة مسخرة لما ألهمك ربك . ويخرج من بطون النحل شراب ، وهو العسل ، مختلف لونا فيه شفاء للناس إن فى ذلك لقوم يعتبرون .

(٧١) « وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ »

أى جعل منكم غنياً وفقيراً وحراً وعبداً .

فى الذين فضلوا . . . ، أى لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق حتى يكون المولى والعبيد فى المال شرعا سواء .

وقد نزلت فى نصارى نجران حين قالوا : عيسى ابن الله ، أى فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم فتجعلون لى ولداً من عبيدى .

(٧٢) « وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ »

أى جعل لكم أزواجاً من جنسكم ونوعكم وعلى خلقتكم ، وجعل لكم منهن أولاد ، وأولاد أولاد ، ورزقكم من كل ما طاب أفالباطل ، أى بالأصنام ، يؤمنون وبنعمة الله ، أى الإسلام ، يكفرون .

(٧٣) « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلَا يَسْتَطِيعُونَ »

(٧٤) « فَلَا تَضْرِبُوا لِلهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »

أى يعبدون ما لا يملك أن يرزقهم شيئاً ، ولا يقدره على شىء ، يعنى الأصنام .

فلا تشبهوا بالله هذه الجمادات ، لأنه واحد قادر لا مثل له .

(٧٥) « ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »

أى بين الله شبهاً ، فكما لا يستوى عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شىء ، ورجل حر قد رزق رزقاً حسناً ، فكذلك أنا وهذه الأصنام .

الحمد لله ... أى هو المستحق للحمد دون ما يعبدون من دونه ، إذ لا نعمة للأصنام عليهم من يد ولا معروف فتحمد عليه ، إنما الحمد الكامل لله لأنه المنعم الخالق ، بل جميع المشركين لا يعلمون أن الحمد لى ، وجميع النعمة منى .

(٧٦) « وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »

وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه ولما يفيض على عباده ويشملهم من آثار رحمته ونعمه الدينية والدنيوية ، وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع .

والأبكم : الأخرس ، فهو لا تفهم ولا يفهم ، وهو ثقل وعيال على من يلي أمره ويعوله ، حيثما يرسله ويصرفه في مطلب حاجة أو كفاية مهم لم ينفع ولم يأت بنجح ، هل يستوى هو ومن هو سليم الحواس نفاعاً ذو كفايات مع رشد وديانة ، فهو يأمر الناس بالعدل والخير ، وهو في نفسه صالحة ودين قويم .

(٧٧) « وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »

غيب السموات والأرض : يوم القيامة ، أي إن علمه غائب عن أهل السموات والأرض ، لم يطلع عليه أحد منهم ، وهو عند الله وإن تراخى كلمح البصر أو هو أقرب ، وهو القادر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق .

(٧٨) « وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »

أي أخرجكم من بطون أمهاتكم غير عالمين شيئاً من حق المنعم الذي خلقكم في البطون وسواكم وصوركم ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة ، وما ركب فيكم هذه الآلات من سمع وبصر وأفئدة إلا لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه والترقي إلى ما يسعدكم

(٨٤) « وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ »

(٨٥) « وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ »

أي نبياً يشهد لهم وعليهم بالإيمان والتصديق والكفر والتكذيب ، ثم لا يؤذن للذين كفروا في الاعتذار ولا هم يسترضون ، أي لا يقال لهم : أرضوا ربكم ، لأن الآخرة ليست بدار عمل .

(٨٦) « وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ »

(٨٧) « وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ »

أي : وإذا رأى المشركون من اتخذوهم آلهة وعبدوهم قالوا : هؤلاء من جعلناهم لله شركاء ومن اتخذوهم آلهة ينطقون بتكذيبهم وأنهم ما أمروهم بعبادتهم

ويستسلم المشركون لله وأمره وحكمه بعد الإباء والاستكبار فى الدنيا بعد ما غاب عنهم وزال من كانوا يؤملون نصرهم وشفاعتهم.

(٨٨) « الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ »

أى الذين كفروا فى أنفسهم وحملوا غيرهم على الكفر يضاعف الله عقابهم كما ضاعفوا كفرهم بإفسادهم الناس وصدهم إياهم فى سبيل الله.

(٩١) « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ »

(٩٢) « وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ »

أى أوفوا الله بالبيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام، ولا تنقضوا أيمان البيعة بعد توكيدها وتوثيقها باسم الله وقد جعلتم الله شاهداً ورقيبا عليكم ولا تكونوا فى نقض الأيمان كالمرأة التى أنحت على غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته حلته، متخذين أيمانكم مفسدة لتكون أمة، وهى قريش أزيد عدداً وأوفر مالا من أمة من جماعة المؤمنين إنما يختبركم الله بكونهم أربى لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من أيمان البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقلة المؤمنين وفقرهم وضعفهم.

ثم أنذرهم تعالى وحذرهم من مخالفة ملة الإسلام فقال « وليبينن لكم ما كنتم فيه تختلفون »

(٩٣) « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ »

أى : ولو شاء الله لجعلكم على ملة واحدة، حنيفة مسلمة، على طريق الإلجاء والاضطرار، وهو قادر على ذلك ولكن الحكمة اقتضت أن يخذل من علم أنه يختار الكفر ويصمم عليه، ويلطف بمن علم أنه يختار الإيمان.

يعنى أنه بنى الأمر على الاختيار، وعلى ما يستحق به اللطف والخذلان، والثواب والعقاب، ولم يبنه على الاجبار الذى لا يستحق به شيء من ذلك، وحققه بقوله « ولتسألن » إذا لو كان هو المضطر إلى الضلال والاهتداء لما أثبت لهم عملا يسألون عنه.

(٩٤) « وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ »

تكرار النهى عن اتخاذ الإيمان دخلا بينهم ، تأكيداً عليهم وإظهاراً لعظم ما يركب منه ، فتزل أقدامكم عن محجةالإسلام بعد ثبوتها عليها ، وتذوقوا السوء فى الدنيا بصدودكم عن سبيل الله وخروجكم من الدين ، أو بصدكم غيركم ، لأنهم لونقضوا أيمان البيعةوارتدوا لاتخذوا نقضهاسنة لغيرهم يستنون بها ، ولكم فى الآخرة عذاب عظيم.

(٩٦) « مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

ما عندكم من أعراض الدنيا ينفد ، وما عند الله من خزائن رحمته باق لا ينفد ، ولنجزين الذين صبروا على أذى المشركين ومشاق الإسلام ، أجراً بفضل صبرهم.

(١٠١) « وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »

أى بدلنا بشريعة متقدمة شريعة مستأنفة ، والله تعالى عالم بالمصالح والمفاسد ، قالوا ، أى كفار قريش : إنما أنت مختلق ، بل أكثرهم لا يعلمون أن الله شرع الشرائع وتبديل البعض بالبعض

(١٠٣) « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ »

كان النبي ﷺ — فيما يقال — كثيراً ما يجلس عند المروة إلى غلام نصرانى يقال له : جبر ، عبد بنى الحضرمى وكان يقرأ الكتب ، فقال المشركون : والله ما يعلم محمداً ما يأتى به إلا جبر النصرانى .

وقيل فى هذا أقوال أخرى لا تخرج عن هذا المضمون وإن اختلفت فى اسم صاحبها فرد الله عليهم قولهم هذا : أى إن لسان الرجل الذى يميلون إليه ويشيرون أعجمى ، وهذا القرآن لسان عربى مبين

(١١٢) « وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ »

أى جعل القرية التى هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته .

وسمى الجوع والخوف لباسا لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس.

(١٢٠) « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ »

أى كان جامعاً للخير ، يؤمه الناس ليأخذوا منه هذا الخير ؛ قانتاً أى مطيعاً لله ورسوله ،وحنيفا : مائلا إلى ملة الإسلام غير زائل عنه ؛ شاكرا لأنعمه ، يرى فى مؤاكلة الضيفان مظهراً من مظاهر شكر هذه النعمة ، ولقد قيل: إنه كان لا يتغدى إلا مع ضيف ، فلم يجد ذات يوم ضيفاً فأخر غداءه ، اصطفاه الله واختصه بالنبوة وهداه إلى صراط مستقيم .

(١٢٤) « إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ »

كان موسى عليه السلام أمرهم أن يجعلوا فى الأسبوع يوماً للعبادة وأن يكون يوم الجمعة ، فأبوا عليه وقالوا : نريد اليوم الذى فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض ، وهو السبت ، إلا شرذمة منهم رضوا يوم الجمعة . فهذا اختلافهم ، فأذن الله لهم فى السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه ، ثم إذا هم بعد هذا يحلون فيه الصيد تارة ويحرمونه تارة .

فيقول تعالى : إنما جعل السبت ، أى فرض تعظيمه وترك الاصطياد فيه على هؤلاء الذين اختلف بهم اجتهادهم فى تعيينه حتى إذا ما انتهوا إلى رأى عادوا يخالفون ما كان ، وسوف يحكم الله بينهم يوم القيامة فيجازى كلا بما يستوجبه .

تفسير سورة الإسراء

(١) « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »

أى تنزيهاً لله من كل سوء الذى أسرى بمحمداً عبده من المسجد الحرام فى مكة إلى المسجد الأقصى فى الشام فى بعض ليلة ، وما بينهما مسيرة أربعين ليلة ، هذا المسجد الأقصى المحفوف ببركات الدين والدنيا ، إذ كان متعبد الأنبياء من زمن موسى ، ومهبط الوحى ، إنه هو السميع لأقوال محمد البصير بأفعاله .

(٣) « ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً »

أى قلنا لهم : لا تتخذوا من دونى وكيلا يا ذرية من حملنا مع نوح ، إن نوحا كان عبداً دائب الشكر لله تعالى .

(٤) « وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا »

أى : وأوحينا إلى بنى إسرائيل فى التوراة وحياً مبتوتا بأنهم يفسدون فى الأرض لا محالة مرتين : أولاهما قتل زكريا وحبس أرميا حين أنذرهم سخط الله ، والأخرى قتل يحيى بن زكريا وقصد قتل عيسى بن مريم ، ولتعلن علوا كبيرا ، أراد : التكبر والبغى والطغيان والاستطالة والغلبة والعدوان .

(٥) « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولًا »

فإذا جاء وعد أولى المرتين من فسادهم بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد ، وهم أهل بابل ، وكان عليهم عندها بختنصر حين كذبوا أرمياء وجرحوه وحبسوه ، فعاثوا وقتلوا طائفين بين الديار ذاهبين وجائين ودخلوا بيت المقدس ونهبوه وكان قضاء كائنا لا خلف فيه .

(٦) « ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً » .

ثم كانت لكم الدولة والرجعة عليهم ، وذلك لما تبتم وأطعتم . وأمددناكم بأموال وبنين حتى عاد أمركم كما كان وجعلناكم أكثر عدداً ورجالا من عدوكم .

(٧) « إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً »

إن أحسنتم فنفع إحسانكم عائد عليكم ، وإن أسأتم فعلى أنفسكم تقع الإساءة ، فإذا جاء وعد الأخرى من إفسادكم ، وذلك حين قتلوا فى المرة الثانية يحيى بن زكريا عليهما السلام ، بعث الله إليهم ملكا من ملوك بابل وظهر عليهم فى الشام ثم عاد عنهم إلى بابل بعد أن كاد يفنى بنى إسرائيل ، وذلك ليسوء هؤلاء وجوهكم بالسبى والقتل والإذلال ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليدمروا ويهلكوا ما غلبوا عليه من بلادكم .

(٩) « إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً »

(١٠) « وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً »

يبين تعالى أن الكتاب الذى أنزله على محمد يهدى إلى الطريقة التى هى أسد وأعدل وأصوب ، وهى توحيد الله والإيمان برسله ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأن لهم الجنة ، ويعد الذين لا يؤمنون بالآخرة العذاب .

(١١) « وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولاً »

أى ويدعو الله عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله ، كما يدعوه لهم بالخير ، يتسرع إلى طلب كل ما يقع فى قلبه ويخطر بباله لا يتأنى فيه تأنى التبصر .

(١٢) « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً »

أى وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين، يريد الشمس والقمر، فمحونا آية الليل، أى جعلنا الليل ممحو الضوء مطموسة مظلما لا يستبان فيه شىء كما لا يستبان ما فى اللوح الممحو ، وجعلنا النهار مبصراً ، أى تبصر فيه الأشياء وتستبان . أو فمحونا آية الليل التى هى القمر لم يخلق لها شعاعا كشعاع الشمس ، ترى به الأشياء رؤية بينة ، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر فى ضوئها كل شىء .

لتتوصلوا ببياض النهار إلى استبانة أعمالكم والتصرف فى معايشكم ، ولتعلموا باختلاف الليل والنهار عدد السنين

وجاس الحساب وما تحتاجون إليه منه ، ولولا ذلك لما علم أحد حسبان الأوقات ولتعطلت الأمور ، وكل شيء مما تفتقرون إليه فى دينكم ودنياكم بيناه ، بيانا غير ملتبس فأزحنا عللكم وما تركنا لكم حجة علينا .

(١٣) « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُوراً »

أى إن عمله لازم له لزوم القلادة لا ينفك عنه .

(١٥) « مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً »

أى : إنما يحاسب كل أحد عن نفسه لا عن غيره ، فمن اهتدى فثواب اهتدائه له ، ومن ضل فعقاب كفره عليه ، وكل نفس حاملة وزرها لا وزر نفس أخرى ، وما صح مناصحة تدعوا إليهــا الحكمة أن نعذب قوماً إلا بعد أن نبعث إليهم رسولا فتلزمهم الحجة .

(١٦) « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً »

وإذا دنا وقت إهلاك قوم ولم يبق من زمان إمهالهم إلا قليل أمرنا متنعميهم بالطاعة إعذاراً وإنذاراً وتخويفاً ووعيدا فخرجوا عن الطاعة عاصين لنا فوجب عليها الوعيد ، فاستأصلنا بالهلاك استئصــالا وخص المترفين ، وهم المتنعمون ، لأن غيرهم تبع لهم .

(١٨) « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً »

(١٩) « وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً »

من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة ، تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد ، ثم نؤاخذه بعمله ، وعاقبته دخول النار مطروداً مبعداً من رحمة الله .

ومن أراد الدار الآخرة وعمل لها عملها من الطاعات ، وهو مؤمن ، لأن الطاعات لا تقبل إلا من مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مقبولا غير مردود .

(٢٠) « كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً »

أى : كل واحـــد من الفريقين نزيدهم من عطائنا ، ونجعل الآنف منه مددا للسالف لا نقطعه فنرزق المطيع والعاصى جميعاً على وجه التفضل ، وما كان عطاء ربك وفضله ممنوعاً ، أى لا يمنع من عاصى لعصيانه .

(٢٣) « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا »

(٢٤) « وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا »

أى : وأمر ربك أمراً مقطوعاً به بألا تعبدوا إلا إياه ، وبأن تحسنوا بالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا يكون منك ما يشعرهما بضجر منك بهما ، ولا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك وقل لهما بدل التأنف والنهر قولا جميلا ، كما يقتضيه حسن الأدب والنزول على المروءة : واخفض لهما جناحك المذلول ، مبالغة فى التذلل والتواضع لهما ، من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس ، ولا تكتف برحمتك عليهما التى لا بقاء لهـا وادع الله بأن يرحمهما برحمته الباقية ، واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك فى صغرك وتربيتهما لك .

(٢٥) « رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا »

ربكم أعلم بما فى ضمائركم من قصد البر إلى الوالدين واعتقاد ما يجب لهما من التوقير ، إن تكونوا قاصدين الصلاح والبر ، ثم فرط منكم — فى حالة الغضب وعند حرج الصدر مالا يخل منه البشر أو لحمية الإسلام — هنة تؤدى إلى أذاهما ، ثم أبتم إلى الله واستغفرتم ، فإن الله غفور التوابين .

(٢٦) « وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا »

(٢٧) « إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا »

وصى بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما ، وأن يؤتوا حقهم إذا كانوا محارم كالأبوين والولد ، وفقراء عاجزين عن الكسب وكان الرجل موسرا ، أن ينفق عليهم — وهذا ما يراه أبو حنيفة ، والشافعى لا يرى النفقة إلا على الولد والوالدين فحسب — وإن كانوا مياسير، أو لم يكونوا محارم كأبناء العم ، فحقهم صلتهم بالمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء والمعاضدة ونحو ذلك .

والمسكين وابن السبيل ، أى وآت هؤلاء حقهم من الزكاة ، ولا تفرق المال فيما لا ينبغى من الفخر والسمعة ، إن المبذرين أمثال الشياطين فى الشرارة ، وهى غاية الذمة ، أو هم إخوانهم وأصدقاؤهم لأنهم يطيعونهم فيما أمرونهم

به من الأسراف ، أو هم قرناؤهم فى النار ، على سبيل الوعيد ، وكان الشيطان لربه كفورا فما ينبغى أن يطاع فإنه لا يدعو إلا إلى مثل فعله .

(٢٨) « وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِن رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً »

وإن أعرضت عن ذى القربى والمسكين وابن السبيل حياء من الرد فلا تتركهم غير مجابين إذا سألوك ، مبتغياً رحمة الله التى ترجوها برحمتك عليهم .

(٣١) « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً »

كانوا يئدون بناتهم خشية الفاقة وهى الإملاق ، فنهاهم الله وضمن لهم أرزاقهم ، إذ أن قتلهم إثم كبير .

(٣٤) « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً »

بالتى هى أحسن ، بالخصلة أو الطريقة التى هى أحسن ، وهى حفظه عليه وتثميره ، إن العهد كان مطلوبا ، يطلب من المعاهد أن يفى به ولا ينكثه .

(٣٦) « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً »

أى : ولا تكن فى اتباعك مالا علم لك به من قول أو فعل كمن يتبع مسلكا لا يدرى أنه يوصله إلى مقصد ، فهو ضال .

والمراد النهى عن أن يقول الرجل ما لا يعلم ، وأن يعمل بما لا يعلم ، ويدخل فيه النهى من التقليد دخولا ظاهراً ، لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساده .

إن السمع والبصر والفؤاد كل واحد منها كان مسئولا عنه .

(٤٠) « أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً »

خطاب الذين قالوا : الملائكة بنات الله والهمزة للإنكار .

يعنى : أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد وهم البنون ، لم يجعل فيهم نصيباً لنفسه واتخذ أدونهم وهى البنات . وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم ، فإن العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب ، ويكون أردؤها وأدونها للسادات . إنكم بإضافتكم إليه الأولاد وهى خاصة بالأجسام ،

ثم بأنكم تفضلون عليه أنفسكم حيث تجعلون له ما تكرهون ، ثم بأن تجعلوا الملائكة وهم أعلى خلق الله وأشرفهم أدون خلق وهم الإناث .

(٤٤) « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً »

المراد أنها تسبح له بلسان الحال حيث تدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته وكأنها تنطق بذلك ، وكأنها تنزه الله عز وجل مما لا يجوز عليه من الشركاء وغيرها .

(٤٩) « وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً »

(٥٠) « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً »

(٥١) « أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً »

لما قالوا « أئذا كنا عظاماً » ، قيل لهم : كونوا حجارة أو حديداً ولا تكونوا عظاماً ، فإنه يقدر على إحيائكم .

أى إنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم ، ويرده إلى حال الحياة بعد ما كنتم عظاماً يابسة ، مع أن العظام بعض أجزاء الحى ، بل هى عمود خلقه الذى يبنى عليه سائره ، فليس ببدع أن يردها الله بقدرته إلى حالتها الأولى ، ولكن لو كنتم أبعد شىء من الحياة ومن جنس ما ركب منه البشر ، وهو أن تكونوا حجارة يابسة أو حديداً ، مع أن طباعها الجسارة والصلابة ، لكان قادراً أن يردكم إلى حال الحياة .

أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم ، يعنى : أو خلقا مما يكبر عندكم عن قبول الحياة ويعظم فى زعمكم على الخالق إحياؤه ، فإنه يحييه .

فسيحركون نحوك رؤوسهم تعجباً واستهزاء ويقولون متى هو ، أى البعث والإعادة ، قل عسى أن يكون قريباً ، أى هو قريب .

(٥٣) « وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً »

(٥٤) « رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً »

وقل لعبادى ، أى المؤمنين يقولوا للمشركين التى هى أحسن وألين ولا يخاشنوهم وذلك أن يقولوا لهم « ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم ، وإن يشأ يعذبكم » أو نحوها ، إن الشيطان يلقى بينهم الفساد ويغرى بعضهم على بعض لتقع بينهم المشادة والمشاقة إذ هو للإنسان عدو مبين .

وما أرسلناك ربا موكولا إليك أمرهم تقسرهم على الإسلام وتجبرهم عليه ، وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً فدارهم ومر أصحابك بالمداراة والاحتمال وترك المكاشفة .

(٥٩) « وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا »

استعير المنع لترك إرسال الآيات من أجل صارف الحكمة . والتقدير : وما منعنا إرسال الأيات إلا تكذيب الأولين . والمراد الآيات التى اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهباً ، ومن إحياء الموتى ، وغير ذلك . وعادة الله فى فى الأمم أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها ثم لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الاستئصال .

والمعنى : وما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود ، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك وقالوا : هذا سحر مبين كما يقولون فى غيرها ، واستوجبوا العذاب المستأصل . وقد عزمنا أن نؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة. ثم ذكر من تلك الآيات ــ التى اقترحها الأولون ثم كذبوا بها لما أرسلت فأهلكوا ــ واحدة ، وهى ناقة صالح ، لأن آثار هلاكهم فى بلاد العرب قريبة من حدودهم ، يبصرها صادرهم وواردهم .

مبصرة ، أى بينة ، فكفروا بها ، وما نرسل ، أى لا نرسل الآيات المقترحة إلا تخويفاً من نزول العذاب العاجل ، كالطلية والمقدمة لها ، فإن لم يخافوا وقع عليهم .

وقيل : وما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها إلا تخويفاً وإنذاراً بعذاب الآخرة .

(٦٠) « وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا »

أى : واذكر إذ أوحينا إليك أن ربك أحاط بقريش ، يعنى : بشرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم . وما كان ما أريناك فى منامك بعد الوحى إليك إلا فتنة لهم حيث اتخذوه سخرياً ، وخوفوا بعذاب الآخرة وشجرة الزقوم فما أثر فيهم وتخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة فما يزيدهم التخويف إلا طغياناً كبيراً .

(٧١) « يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا »

بإمامهم ، بمن ائتموا به من نبي ، أو مقدم في الدين ، أو كتاباً ، أو دين ، فيقال : ياأتباع فلان ، ياأهل دين كذا وكتاب كذا .

وقيل : بكتاب أعمالهم ، فيقال : يا أصحاب كتاب الخير ، ويا أصحاب كتاب الشر .

وقيل : بكتابهم ، أى بكتاب كل إنسان منهم الذى فيه عمله ، دليله « فمن أوتى كتابه بيمينه » فمن أوتى من هؤلاء المدعون كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم أحسن قراءة وأبينها ، ولا يقصفون بقراءتهم وحدهم حق يقول القارئ لأهل المحشر : هاؤم اقرءوا كتابيه ، ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شئ .

وخص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم ، كأن أصحاب الشمال لا يقرءون كتابهم ، لأن أصحاب الشمال إذا اطلعوا على ما فى كتابهم أخذهم ما يأخذ المطالب بالداء على جناياته والاعتراف بمساويه أمام التنكيل به والانتقام منه ، من الحياء والخجل والانخزال وحبسة اللسان والتتعتع والعجز عن إقامة حروف الكلام والذهاب عن تسوية القول فكأن قراءتهم كلا قراءة .

(٧٢) « وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا »

ومن كان فى هذه النعم والآيات التى رأى أعمى عن الاعتبار وإبصار الحق فهو عن الآخرة التى لم يعاين أعمى وأضل سبيلا ، يعنى أنه لا يجد طريقاً إلى الهداية .

(٧٣) « وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا »

(٧٤) « وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا »

(٧٥) « إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا »

ظاهر الخطاب للنبى ﷺ وباطنه إخبار عن ثقيف ، والمعنى : وإن كادوا ليخبرون عنك أنك ملت إلى قولهم ، وكانوا قد سألوا الرسول ﷺ أشياء اشترطوها ليسلموا فنسب فعلهم إليه مجازاً واتساعاً ، كما تقول لرجل : كدت تقتل نفسك ، أى كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت .

وقيل : ماكان من الرسول ﷺ هم بالركون إليهم ، بل المعنى : ولولا فضل الله عليك لكان منك ميل إلى مرافقتهم ، ولكن تم فضل الله عليك فلم تفعل .

والرسول ﷺ معصوم ، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين فى شئ من الأحكام .

وكلما كانت درجة المخالف أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم ، وعلى هذا قوله تعالى « وإذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات » أى مثلى عذاب الحياة الدنيا ومثلى عذاب الممات فى الآخرة .

(٧٦) « وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا »

نزلت فى هم أهل مكة بإخراج النبى ﷺ ، وما خرج عليه السلام من مكة عن همهم ، ولكن الله أمره بالهجرة فخرج وقيل هى عن هم الكفار كلهم أن يستخفوه من أرض العرب بتظاهر عليه ، فمنعه الله . ولو أنهم ضلوا ما هموا به ، ما بقوا بعد ذلك إلا زماناً قليلا .

(٨٠) « وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا »

أى ، أدخلنى القبر إدخالا مرضياً على طهارة من السيئات ، وأخرجنى منه عند البعث إخراجاً مرضياً ملقى بالكرامة آمناً من السخط .

وقيل : يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة.

وقيل : إدخاله مكة ظاهراً عليها بالفتح ، وإخراجه منها آمناً من المشركين .

وقيل : إدخاله فيما حمله من عظيم الأمر ، وهو النبوة ، وإخراجه منه مؤدياً لما كلفه من غير تفريط .

وقيل : هو عام فى كل ما يدخل فيه ويلابسه من أمر ومكان .

واجعل من لدنك حجة تنصرنى على من خالفنى .

(٨١) « وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا »

وقل جاء الحق ، أى جاء الشرع بجميع ما انطوى فيه ، وبطل الباطل ، إن الباطل لا بقاء له ، والحق هو الذى يثبت .

(٨٢) « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا »

أى كل شئ منزل من القرآن فهو شفاء للمؤمنين يزدادون به إيماناً ويستصلحون به دينهم ، فوقعه منهم موقع الشفاء من المرضى ، ولا يزداد به الكافرون إلا نقصاناً لتكذيبهم به .

(٨٤) «قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً»

أى يعمل على مذهبه وطريقته التى تشاكل حاله فى الهدى والضلالة ؛ وربكم أعلم بمن هو أسد مذهباً وطريقة .

(٨٦) «وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً»

(٨٧) «إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا»

أى : إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه عن الصدور والمصاحف فلم نترك له أثراً وبقيت كما كنت لا تدرى ما الكتاب ، ثم لا تجد لك بعد الذهاب به من يتوكل علينا باسترداده وإعادته محفوظاً مستوراً إلاأن يرحمك ربك فيرده عليك ، كأن رحمته تتوكل عليه بالرد .

أو يكون المعنى - ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به .

وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً بعد المنة العظيمة فى تنزيله وتحفيظه .

(٨٨) «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا»

أى لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فى بلاغته وحسن نظمه وتأليفه ، وفيهم العرب العاربة أرباب البيان ، لعجزوا عن الإتيان بمثله .

(٨٩) «وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا»

أى رددنا وكررنا ، كل معنى هو كالمثل فى غرابته وحسنه فلم يرض أكثر الناس إلا جحوداً .

(٩٠) «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا»

(٩١) «أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا»

(٩٢) «أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِاللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً»

(٩٣) «أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِى السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً»

لما تبين إعجاز القرآن وانضمت إليه المعجزات الأخرى والبينات ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعللون باقتراح الآيات فعل المبهوت المحجوج المتعثر فى أذيال الحيرة ، فاقترحوا على الرسول ﷺ هذه المقترحات شرطاً لإيمانهم ،

فتعجب الرسول من اقتراحاتهم عليه وقال لهم : هل كنت إلا رسولا كسائر الرسل بشراً مثلهم ، وكان الرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات ، فليس أمر الآيات إلىّ ، إنما هو إلى الله فما بالكم تتخيرونها علىّ .

(١٠٧) « قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا »

(١٠٨) « وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا »

(١٠٩) « وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا »

أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والإزدراء بشأنهم . وألا يكترث بهم وبإيمانهم وبإمتناعهم عنه ، وأنهم لم يدخلوا فى الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن ، وهم أهل جاهلية وشرك ، فإن خيراً منهم وأفضل ، وهم العلماء الذين قرءوا الكتب وعلموا ما الوحى وما الشرائع ، قد آمنوا به وصدقوه وثبت عندهم أنه النبى العربى الموعود فى كتبهم ، فإذا تلى عليهم خروا سجداً وسبحوا لله تعظيماً لأمره ولإنجازه ما وعد فى الكتب المنزلة وبشر به من بعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه ، وهو المراد بالوعد فى قوله : « إن كان وعد ربنا لمفعولا » إلى قوله « ويزيدهم خشوعاً » .

(١١٠) « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا »

أى : قل سموا بهذا الإسم أو بهذا ، واذكروا إما هذا وإما هذا ، أيا ماتدعو فهو حسن ، لأنه إذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الإسمان ، لأنهما منها ، ومعنى كونها أحسن الأسماء أنها مستقلة بمعانى التحميد والتقديس والتعظيم .

ولا تجهر بقراءة صلاتك ، وكان رسول الله ﷺ يرفع صوته بقراءته ، فإذا سمعها المشركون لغوا .

والمعنى : لا تجهر حتى تسمع المشركين ولا تخافت حتى لا تسمع من خلفك وابتغ بين الجهر والمخافتة سبيلا وسطاً .

تفسير سورة الكهف

(٦) « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا »

شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا بالقرآن ، وما تداخله من الوجد والأسف ، برجل فارقه أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ، ويهلك نفسه وجداً عليهم وتلهفاً على فراقهم .

(٩) « أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا »

أى لا يعظم ذلك بحسب ما عظمه عليك السائلون من الكفرة ، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم وأشيع .

(١٠) « إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا »

كان هؤلاء الفتية فى دين ملك يعبد الأصنام ، وكانوا هم على دين يعبدون الله سراً ، وحين أرادهم الملك على ترك دينهم وعبادة الأصنام فروا بدينهم إلى الكهف رجاء السلامة بدينهم وسألوا الله تعالى المغفرة والرزق والتوفيق للرشاد .

(١١) « فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا »

أى : منعناهم عن أن يسمعوا ، لأن النائم إذا سمع انتبه .

وقيل : استجبنا دعاءهم وصرفنا عنهم شر قومهم وأنمناهم .

وتخصيص الآذان بالذكر لأنها الجارحة التى منهم عظم فساد النوم ، وقلما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه ، ولا يستحكم نوم إلا من تعطل السمع .

(١٢) « ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا »

أى : أيقظناهم من نومهم . والعلم هنا ، عبارة عن خروج ذلك الشىء إلى الوجود والمشاهدة وإلا فقد كان الله تعالى علم أى الحزبين أحصى الأمد .

والحزبان : الفريقان ، أحدهم الفتية الذين ظنوا أن لبثهم كان قليلا ، والحزب الثانى أهل تلك المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم ، وكان عندهم تاريخ أمرهم .

والمعنى : أى الحزبين أحصى للبثهم غاية وعدداً .

(١٣) « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى »

عقب تعالى أنه عز وجل يعلم من أمرهم بالحق الذى وقع ، وأنهم شباب وأحداث آمنوا بربهم ووصفوا بالفتوة لإيمانهم بلا واسطة ويسرناهم للعمل الصالح من الإنقطاع إلى الله تعالى ومباعدة الناس والزهد فى الدنيا ، وهـذه زيادة على الإيمان .

(١٤) « وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً »

عبارة عن شدة عزم وقوة صبر . وإذا كان الفزع وخور النفس يشبه الإنحـلال حسن فى شدة النفس وقوة التصميم أن يشبه الربط .

ويصف الله مقامهم بين يدى الملك الـكافر حين أرادهم على الـكفر وثباتهم هم على عبادة الله وعـدم خروجهم إلى الجور والهال .

وقد يـكون قيامهم هو انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله تعالى ومنابذة الناس .

(١٦) « وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُوا إِلَى الـكَهْفِ يَنشُرْ لَـكُمْ رَبُّـكُم مِن رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَـكُم مِنْ أَمْرِكُم مِرْفَقاً »

أى إن هؤلاء الفتية قال بعضهم لبعض : إذ فارقنا الـكفار وانفردنا بالله تعالى فلنجعل الـكهف مأوى ونتـكل على الله فإنه سيبسط لنا رحمته وينشرها علينا ويهيىء لنا من أمرنا ما نرتفق به .

(١٧) « وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِياً مُرْشِداً »

(١٨) « وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِم لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً »

يعنى أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين ، أى يمين الـكهف ، وإذا غربت تمر بهم ذات الشمال،

أى شمال الـكهف ، فلا تصيبهم فى ابتداء النهار ولا فى آخره ، وهذا يعنى أن باب الـكهف كان إلى جهة توجب ذلك حتى لا يتأذون بحرارتها مع استمتاعهم بضوئها .

وقيل : تقرضهم ، أى يصيبهم يسير منها .

وهم فى متسع من الـكهف بحيث يصيبهم نسيم الهواء ، وكان هذا من لطف الله بهم .

وكانوا لـكثرة تقلبهم ذات اليمين وذات الشمال كالأيقاظ وهم رقود ، إذ بقاؤهم على جنب واحد مما يؤذى أجسامهم .

وكلبهم الذى صحبهم باسط ذراعيه ، كما يفعل الـكلب إذا نام ، بفناء الـكهف.

ولو أشرفت عليهم لهربت منهم ولفزعت لما حفهم الله تعالى من الرعب وا كتنفهم من الهيبة . وقيل : لوحشة مكانهم ، وكأنهم آواهم إلى هذا المكان الوحشى فى الظاهر لينفروا الناس عنهم .

(١٩) « وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا »

(٢٠) « إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا »

أى : وكما ضربنا على آذانهم وزدناهم هدى وقلبناهم أيقظناهم من نومهم على ما كانوا عليه من هيئاتهم فى ثيابهم وأحوالهم ليسأل بعضهم بعضاً ويعرفوا حالهم وما صنع الله بهم فيعتبروا ويستدلوا على عظم قدرة الله تعالى ويزدادوا يقيناً ويشـكروا ما أنعم الله به عليهم وكرموا به فقال بعضهم لبثنا يوماً أو بعض يوم وأنكر ذلك بعضهم وقالوا علم ذلك عند ربكم ، ورأوا أن يبعثوا بعضهم بدراهم كانت معهم ليتخير أى الطعام أكثر بركة ، أو أطيب أو أرخص ليأتيهم بقوت على أن يتلطف فى دخول المدينة وشراء الطعام وعلى ألا يخبر أحداً ، فهو إن ظهر عليه أوقع إخوته فيما وقع فيه وهنا يـكون الرجم أو إدخالهم فى ملتهـم بالإكراه ، وإذا دخلوا فى دينهم فلن يـكون فلاح إلى الأبد .

(٢١) « وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا »

وكذلك أنمناهم وبعثناهم ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم أن البعث حق ، إذ أن حالهم فى نومتهم وانتباهتهم بعدها

كحال من يموت ثم يبعث ، وكان هذا حين تنازعوا بينهم أمر دينهم واختلفوا في حقيقة البعث ، ليرتفع الخلاف وليتبين أن الأجساد تبعث حية حساسة ، فيها أرواحها كما كانت قبل الموت .

وقالوا حين توفى الله أصحاب الكهف ابنوا عليهم بنياناً ، أى على باب كهفهم لئلا يتطرق إليهم الناس ، وذلك ضناً بتربتهم ومحافظة عليها .

وقال الذين غلبوا على أمرهم من المسلمين لنتخذن على باب الكهف مسجداً يصلى فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم.

(٢٣) « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً »

(٢٤) « إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَداً »

أى : إلا أن تقول : إلا أن يشاء الله ؛ أو إلا أن تقول : إن شاء الله ، والمعنى : إلا أن تذكر مشيئة الله .

واذكر مشيئة ربك وقل : إن شاء الله إذا فرط منك نسيان ذلك .

والمعنى : إذا نسيت كلمة الاستثناء ثم تنبهت عليها فتداركها بالذكر .

وقيل : إذا نسيت شيئاً فاذكر ربك ، وذكر ربك عند نسيانه أن تقول : عسى ربي أن يهديني لشيء آخر بدله هذا المنسى أقرب منه رشداً وأدنى خيراً ومنفعة .

(٢٧) « وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً »

كانوا يقولون له : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، فقيل له . واتل ما أوحى إليك من القرآن ولا تسمع لما يهذون به من طلب التبديل فلا بدل لكلمات ربك ، أى لا يقدر أحد على تبديلها وتغييرها ، إنما يقدر على ذلك هو وحده .

(٤٤) « هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً »

أى في ذلك المقام وتلك الحال النصرة لله وحده لا يملكها غيره ولا يستطيعها أحد سواه هو خير ثواب وخير عاقبة .

وقيل : هنالك ، إشارة إلى الآخرة ، أى في تلك الدار الولاية لله .

(١١٠) « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً »

أى فمن كان يؤمل حسن لقاء ربه وأن يلقاه لقاء رضى وقبول .

أو : فمن كان يخاف سوء لقائه .

والمراد بالنهى عن الإشراك بالعبادة ألا يرائى بعمله وألا يبتغى به إلا وجه الله خالصاً لا يخلط به غيره .

تفسير سورة مريم

(٥) « وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا »
(٦) « يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا »

كان موالى زكريا ، وهم عصبته إخوته وبنو عمه ، شرار بنى إسرائيل ، فخافهم على الدين أن يغيروه ويبدلوه ، وألا يحسنوا الخلافة على أمته ، فطلب عقباً من صلبه صالحاً يقتدى به فى إحياء الدين ويرتسم مراسمه فيه .

(٨) « قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا »

أى كانت امرأتى على صفة العقر حين أنا شاب وكهل ، فما رزقت الولد لاختلال أحد السببين ، أفحين اختل السببان جميعاً أرزقه .

(١٠) « قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا »

أى اجعل لى علامة أعلم بها وقوع ما بشرت به ، قال : علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه ، وأنت سليم الجوارح سوى الخلق ، ما بك خرس ولا بكم .

ودل ذكر الليالى هنا والأيام فى سورة آل عمران على أن المنع من الكلام استمر به ثلاثة أيام ولياليهن .

(١١) « فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا »

أوحى : أشار ، ويشهد له « إلا رمزاً » .

(١٢) « يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا »

أى خذ التوراة بجد واستظهار بالتوفيق والتأييد وآتيناه الحكمة وهو صبى .

(١٣) « وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا »
(١٤) « وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا »

أى رحمة لأبويه وغيرهما وتعطفاً وشفقة .

وقيل : حنان الله عليه .

وزكاة : أى طهارة .

وقيل : الصدقة ، أى يتعطف على الناس ويتصدق عليهم .

(١٨) « قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا »

أى إن كان يرجى منك أن تتقى الله وتخشاه وتحفل بالاستعاذة به فإنى عائذة به منك .

(١٩) « قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا »

أى إنما أنا رسول من استعذت به لأكون سبباً فى هبة الغلام بالنفخ فى الدرع .

(٢٠) « قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا »

(٢١) « قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا » .

جعل المس عبارة عن النكاح الحلال .

مقضياً : مسطوراً فى اللوح لابد لك من جريه عليك .

أو كان أمراً حقيقياً بأن يكون ويقضى لكونه آية ورحمة .

والمراد بالآية : العبرة والبرهان على قدرة الله . وبالرحمة : الشرائع والألطاف ، وما كان سبباً فى قوة الاعتقاد والتوصل إلى الطاعة والعمل الصالح .

(٢٨) « يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا »

هارون : كان أخاها من أبيها ، وكان من أمثل بنى إسرائيل .

وقيل : هو أخو موسى صلوات الله عليهما .

وقيل : هو هارون النبى ، وكانت من أعقابه فى طبقة الإخـوة ، وقيل : يا أخت هارون ، كما يقال : يا أخا همدان ، أى ياواحداً منهم .

(٢٩) « فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا »

فأشارت إليه ، أهو الذى يجيبكم إذا ناطقتموه ، فقالوا : كيف عهد من قبل عيسى أن يكلم الناس صبيـّا فى المهد فيا سلف من الزمان حتى نكلم هذا .

(٣٧) « فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ »

الأحزاب : اليهود والنصارى .

وقيل : النصارى ، لتحزبهم فرقا .

فويل لهم من شهودهم هول الحساب والجزاء فى يوم القيامة ، أو من مكان الشهود فيه ، وهو الموقف ، أو من وقت الشهود ، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم ، وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال .

(٣٨) « أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَـكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ »

(٣٩) « وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ »

(٤٠) « إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ »

المراد أن أسماعهم وأبصارهم يومئذ جدير بأن يتعجب منهما بعد ما كانوا صما وعمياً فى الدنيا .

وقيل : معناه التهديد بما سيسمعون ويبصرون مما يسوءهم ويصدع قلوبهم . أوقع الظاهر — أعنى الظالمين — موقع الضمير ، إشعاراً بأن لا ظلم أشد من ظلمهم ، حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين يجدى عليهم ويسعدهم .

والمراد بالضلال المبين : إغفال النظر والاستماع .

وقضى الأمر : فرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار .

(٤٦) « قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِى يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا »

لما أطلع إبراهيم أباه على سماجة صورة أمره ، وهدم مذهبه بالحجج القاطعة ، وناصحه المناصحة العجيبة مع تلك الملاطفات ، أقبل الأب ينكر على الإبن رغبته عن آلهته ، وآلهة ما ينبغى أن يرغب عنها أحد فى رأيه وقال له لأرمينك بلسانى ذمّاً واهجرنى زماناً طويلا .

(٤٧) « قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا »

(٤٨) « وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّى عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيًّا »

فسلم عليه سلام توديع ومتاركة .

ويجوز أن يكون قد دعا له بالسلامة استمالة له .

(٥٣) « وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا »

من رحمتنا ، أى من أجل رحمتنا له وترأفنا عليه ، أو بعض رحمتنا .

وكان هارون أكبر من موسى فوقعت الهبة على معاضدته ومؤازرته .

(٦٢) « لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلا سَلاَماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا »

اللغو : فضول الكلام ومالا طائل تحته . وفيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو واتقائه ، حيث نزه الله عنه الدار التي لا تكليف فيها .

إلا سلاماً ، أى إن كان تسليم بعضهم على بعض ، أو تسليم الملائكة عليهم لغوا ، فلا يسمعون لغواً إلا ذلك .

أو لا يسمعون فيها إلا قولا يسلمون فيه من العيب والنقيصة ، على الاستثناء المنقطع أو لأن معنى السلام هو الدعاء بالسلامة ، ودار السلام هى دار السلامة ، وأهلها عن الدعاء بالسلامة أغنياء ، فكان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث ، لولا ما فيه من فائدة الإكرام .

(٦٦) « وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَامِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا »

(٦٧) « أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً »

(٦٨) « فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا »

(٦٩) « ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا »

(٧٠) « ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا »

(٧١) « وَإِن مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا »

(٧٢) « ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا »

هذا الإنسان ، هو أبىّ بن خلف ، وكان قد وجد عظاماً بالية ففتها بيده ، وقال : زعم محمد أن نبعث بعد الموت . قال ذلك منكراً .

وقيل المراد بالإنسان هنا : الكافر .

أولا يذكر هذا القائل أنا خلقناه من قبل سؤاله ولم يك شيئاً .

ثم أقسم بنفسه بعد إقامة الحجة بأنه يحشرهم من قبورهم إلى المعاد ، كل كافر مع شيطانه الذى أغواه وقد جثوا على ركبهم لما يدهمهم من شدة الأمر التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم ثم لنستخرجن من كل أمة وأهل دين الأعتى فالأعتى ، كأنه يبتدأ بالتعذيب . أشدهم عتياً ثم الذى يليه ، ثم لنحن أعلم بالذى هو أحق بدخول النار ومقاساة حرها وشدتها . وإن منكم إلا داخلها ، ويفسر ذلك قوله ﷺ : يرد الناس النار ثم يصدرون منها بأعمالهم فأولهم كلمح البرق ثم كالريح ثم كحضر الفرس ثم كالراكب المجد فى رحله ثم كشد الرحل فى مشيته . ثم ننجى الذين اتقوا ويؤمر بالذين ظلموا إلى النار .

(٧٣) « وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا »

بينات : مرتلات الألفاظ ، ملخصات المعانى ، مبينات المقاصد .

والمعنى : أنهم إذا سمعوا الآيات وهم جهلة لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا وذلك مبلغهم من العلم قالوا : أى الفريقين من المؤمنين بالآيات والجاحدين لها أوتو حظاً من الدنيا حتى يجعل ذلك عياراً على الفضل والنقص والرفعة والضعة .

(٧٤) « وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا »

أى : كثيراً من القرون أهلكنا ، وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم لأنهم يتقدمونهم ، هم أحسن متاع بيت ومنظراً وهيئة .

(٧٥) « قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا »

أى لا يبرحون يقولون هذا القول ، أى « أى الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا » ويتولعون به لا يتكافون عنه إلى أن يشاهدوا ، الموعود رأى عين : إما العذاب فى الدنيا ، وهو غلبة المسلمين عليهم وإظهار الله دينه على الدين كله على أيديهم ، وإما يوم القيامة وما ينالهم من الخزى والنكال ، فحينئذ يعلمون عند المعاينة أن الأمر على عكس ما قدروه وأنهم شر مكاناً وأضعف جنداً لا خير مقاماً وأحسن نديا وأن المؤمنين على خلاف صفتهم .

(٧٦) « وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا »

أى : ويزيد فى ضلال الضال بخذلانه ، ويزيد المهتدى هداية بتوفيقه لأعمال الآخرة ، كلها خير ثوابا من مفاخرات الكفار وخير مرجعاً وعاقبة ، أو منفعة .

(٧٧) « أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا »

(٧٨) « أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا »

(٧٩) « كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا »

(٨٠) « وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا »

المعنى : أن ما ادعى أن يؤتاه وتألى عليه لا يتوصل إليه إلا بأحد هذين الطريقين : إما علم الغيب وإما عهد من عالم الغيب ، فبأيهما توصل إلى ذلك ؟ أو قد بلغ من عظمة شأنه أن ارتقى إلى علم الغيب الذى توحد به الواحد القهار ؟ وهل له عمل صالح قدمه فهو يرجو بذلك ما يقول ؟ أو هل عهد الله إليه أنه يؤتيه ذلك .

كلا ، ردع وتنبيه على الخطأ . أى هو مخطئ فيما يصوره لنفسه ويتمناه فليرتدع عنه .

سنكتب ما يقول ونطول له من العذاب ما يستأهله ونعذبه بالنوع الذى يعذب به الكفار المستهزئون ونزوى عنه ما زعم أنه يناله فى الآخرة ونعطيه من يستحقه ، ويأتينا غداً فردا بلا مال ولا ولد .

(٨١) « وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا »

أى ليتعززوا بآلهتهم حيث يكونون لهم عند الله شفعاء وأنصاراً ينقذونهم من العذاب .

(٨٢) « كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا »

كلا ، ردع لهم وإنكار لتعززهم بالآلهة ، فسيجحدون عبادتهم وينكرونها ويقولون : والله ما عبدتمونا وأنتم كاذبون ، ويكونوا عليهم ذلا وهواناً لا عزاً ونصراً ، أو يكونوا عليهم عونا .

(٨٣) « أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا »

أى تغريهم على المعاصى وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات .

والمعنى : خلينا بينها وبينهم ولم نمنعهم ولو شاء الله لمنعهم قسرا .

والمراد تعجيب الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الآيات التى ذكر فيها العتاة والمردة من الكفار ، وأقاويلهم وملاحتهم ومعاندتهم للرسل واستهزاءهم بالدين ، من تماديهم فى الغى وانقرائهم فى العناد وتصميمهم على الكفر واجتماعهم على دفع الحق بعد وضوحه وانتفاء الشك عنه ، وانهماكهم لذلك فى اتباع الشياطين وما تسول لهم .

(٨٤) « فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا »

أى : لا تعجل عليهم بأن يهلكوا ويبيدوا حتى تستريح أنت والمسلمون من شرورهم ، وتطهر الأرض بقطع دابرهم ، فليس بينا ، وبين ما تطلب من هلاكهم إلا أيام محصورة وأنفاس معدودة ، كأنها فى سرعة تقضيها الساعة التى تعد فيها لوعددت .

(٨٦) « وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا »

أى يساقون إلى جهنم كما تساق النعم العطاش ، وفى هذا من الإهانة ما فيه .

(٨٧) « لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا »

أى لا يملكون أن يشفع لهم إلا من استظهر بالإيمان والعمل .

(٩٢) « وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا »

أى ما يتأتى للرحمن اتخاذ الولد ، لأنه محال غير داخل تحت الصحة . أما الولادة المعروفة فلا جدال فى استحالتها ، وأما التبنى فلا يكون إلا فيا هو من جنس المتبنى ، وليس القديم سبحانه جنس ، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً .

(٩٣) « إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا »

(٩٤) « لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا »

(٩٥) « وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا »

أى ما من معبود لهم فى السموات والأرض من الملائكة ومن الناس إلا وهو يأتى الرحمن ، أى يأوى إليه ويلتجئ إلى ربوبيته عبداً منقاداً مطيعاً خاشعاً خاشياً راجياً ، لا يدعى لنفسه ما يدعيه له هؤلاء الضلال . وكلهم متقلبون فى ملكوته مقهورون بقهره وهو مهيمن عليهم محيط بهم . ويجمل أمورهم وتفاصيلها وكيفيتهم وكيتهم لا يفوته شيء من أحوالهم . وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفرداً ليس معه من هؤلاء المشركين أحد وهم برآء منهم .

(٩٦) « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا »

أى : سيحدث لهم فى القلوب مودة ويزرعها لهم فيها من غير تودد منهم ولا تعرض للأسباب التى توجب الود ويكتسب الناس بها مودات القلوب ، من قرابة أو صداقة أو اصطناع ببرة أو غير ذلك . وإنما هو منه ابتداء اختصاصاً منه لأوليائه بكرامة خاصة ، كما قذف فى قلوب أعدائهم الرعب والهيبة إعظاماً لهم وإجلالا لمكانهم .

(٩٧) « فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا »

فإنما يسرناه بلغتك ، وهو اللسان العربى المبين ، وسهلناه وفصلناه لتبشر به وتنذر قوماً شديدى الخصومة بالباطل ءاخذين فى كل شق من المراء والجدال لفرط لجاجهم . ويعنى أهل مكة .

(٩٨) « وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا »

تخويف لهم وإنذار .

والركز : الصوت الخفى ، وما لا يفهم من صوت وحركة .

أى هل ترى منهم أحداً وتجد ، أو تسمع لهم صوتاً .

تفسير سورة طه

(٢) « مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى »

لتشقى ، أى لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم وتحسرك على أن يؤمنوا .

(٣) « إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى »

لمن يخشى : لمن يؤول أمره إلى الخشية ، ولمن يعلم الله منه أنه يبدل بالكفر إيماناً ، وبالقسوة خشية .

(٤) « تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى »

تنزيلا ، أى أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله .

(١٦) « فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى »

أى لا يصدونك عن تصديقها ، والضمير للقيامة ، ويجوز أن يكون للصلاة .

(٢٤) « إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى »

(٢٥) « قَالَ رَبِّ أَشْرَحْ لِي صَدْرِي »

(٢٦) « وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي »

(٢٧) « وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي »

(٢٨) « يَفْقَهُوا قَوْلِي »

(٢٩) « وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي »

(٣٠) « هَارُونَ أَخِي »

(٣١) « أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي »

(٣٢) « وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي »

(٣٣) « كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً »

(٣٤) « وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً »

(٣٥) « إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً »

لما أمره بالذهاب إلى فرعون عرف أنه كاف أمراً عظيما وخطباً جسيما يحتاج منه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا ذو جأش رابط وصدر فسيح ، فاستوهب ربه أن يشرح صدره ويفسح قلبه ، ويجعله حليما حمولا يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر بجميل الصبر وحسن الثبات ، وأن يسهل عليه في الجملة أمره الذي هو خلافة الله في أرضه وما يصحبها من مزاولة معاظم الشؤون ومقاساة جلائل الخطوب .

(٤٢) « اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي »

(٤٣) « اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ »

(٤٤) « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ »

أى لا تنسيانى ولا أزال منكما على ذكر حيثما تقلبتما ، معتقدين أن أمراً من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بذكرى .

ويجوز أن يراد بالذكر تبليغ الرسالة ، فإن الذكر يقع على سائر العبادات ، وتبليغ الرسالة من أجلها وأعظمها ، فكان جديراً بأن يطلق عليه اسم الذكر .

ولا تجبها ، بما يكره والطفا له فى القول ، لما له من حق تربية موسى ، ولما ثبت له من مثل حق الأبوة .

(٤٥) « قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ »

أى نخاف أن يعجل علينا بالعقوبة ويبادرنا بها ، أو يجاوز الحد فى معاقبتنا إن لم يعاجل ، بناء على ما عرفا وجربا من شراسته وعتوه أو أن يطغى بالتخطى إلى أن يقول فيك ما لا ينبغى .

(٤٦) « قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ »

(٤٧) « فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ »

(٤٨) « إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ »

أى لا تخافا إنى معكما حافظكما وناصركما أسمع وأرى ما يجرى بينكما وبينه من قول وفعل ، فأفعل ما يوجبه حفظى ونصرتى لكما .

فأتياه فقولا قد جئناك بمعجزة وبرهان وحجة على ما ادعيناه من الرسالة ، ومن اتبع الهدى سلم من سخط الله عز وجل وعذابه ، وأنا قد أوحى إلينا أن الهلاك والدمار فى الدنيا والخلود فى جهنم فى الآخرة على من كذب أنبياء الله وأعرض عن الإيمان .

(٤٩) « قَالَ فَمَن رَبُّكُمَا يَامُوسَى »

(٥٠) « قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى »

خاطب الإثنين ووجه النداء إلى أحدهما وهو موسى ، لأنه الأصل فى النبوة ، وهارون وزيره وتابعه .

أى أعطى خليقته كل شىء يحتاجون إليه ويرتفقون به ، أو أعطى كل شىء صورته التى تطابق للنفعة المنوطة بها ، ثم عرف كيف يرتفق بما أعطى .

(٥١) « قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى »

(٥٢) « قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّى وَلاَ يَنسَى »

(٥٣) « الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِن نَبَاتٍ شَتَّى »

(٥٤) « كُلُوا وَارْعَوْا أَنعَامَكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُوْلِى النُّهَى »

سأله عن حال من تقدم وخلا من القرون ، فأجابه بأن هـذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به لا يعلمه إلا هو ، وما أنا إلا عبـد مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرنى به علام الغيوب . وعلم أحوال القرون مكتوب عنده فى كتاب محفوظ ، ولا يجوز على الله أن يخطىء شيئاً أو ينساه .

وهو الذى مهد الأرض مهـداً وجعل لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرج به أصنافاً من نبات شتى مبيحاً لكم أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها .

(٥٦) « وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى »

أى بصرناه بآياتنا وعرفناه صحتها ويقناه بها فكذب وأبى أن يقبل شيئاً منها أو فكذب الآيات وأبى قبول الحق.

(٨٣) « وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى »

(٨٤) « قَالَ هُمْ أُولاَءِ عَلَى أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى »

أى : أى شىء عجل بك عن قومك ، على سبيل الإنكار .

وكان على موسى أن ينكر العجلة فى نفسها ، وأن يبين السبب الحامل عليها ، وكان أهم الأمرين لموسى بسط العذر وتمهيد العلة فيما أنكر عليه ، فاعتل بأنه لم يوجد منه إلا تقدم يسير ، مثله لا يعتد به فى العادة ولا يحتفل ،

وأن ليس بينه وبين من سبقه إلا مسافة قريبة يتقدم بمثلها الوفد برأسهم ومقدمهم . ثم عقبه بجواب السؤال عن السبب فقال :

« وعجلت إليك رب لترضى » .

(٩٢) « قَالَ يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا »

(٩٣) « أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى »

أى : ما منعك أن تتبعنى فى الغضب لله وشدة الزجر عن الكفر والمعاصى ، وهلا قاتلت من كفر بمن آمن ، ومالك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهداً ، أو مالك لم تلحقنى .

(٩٤) « قَالَ يَبْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلاَ بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى »

ولم يتمالك موسى غضباً لله ودينه حين رأى قومه يعبدون عجلا من دون الله بعد ما رأوا من الآيات العظام ، أن ألقى ألواح التوراة وعنف بأخيه وخليفته على قومه ، فأقبل عليه إقبال العدو المكاشف قابضاً على شعر رأسه وشعر وجهه يجره إليه ، ويقول له أخوه : لو قاتلت بعضهم ببعض لتفرقوا وتفانوا ، فاستأنيتك أن تكون أنت المتدارك بنفسك المتلافى برأيك وخشيت عتابك على إطراح ما وصيانى به من ضم وحفظ الجماعة ، ولم يكن لى بد من رقبة وصيتك والعمل على موجبها .

(٩٧) « قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لاَ مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفاً »

وعوقب السامرى الذى أضل قوم موسى فى الدنيا بعقوبة لا شىء أطم منها وأوحش ، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعاً كلياً ، وحرم عليه ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته ، وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضاً وتحامى الناس وتحاموه ، وعاد فى الناس أوحش من الوحش النافر فى البرية .

وإن الله لن يخلفك موعده الذى وعدك على الشرك والفساد فى الأرض ، ينجزه لك فى الآخرة بعد ما عاقبك بذلك فى الدنيا ، فأنت ممن خسر الدنيا والآخرة ، وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً لنبردنه ليصبح برادة ثم نطيرنه فى اليم .

(١١٠) « يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً »

أى يعلم ما تقدمهم من الأحوال وما يستقبلونه ، ولا يحيطون بمعلوماته علماً .

(١١١) « وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً »

يعنى وجوه العصاة ، وأنهم إذا عاينوا فى يوم القيامة الخيبة والشقوة وسوء الحساب صارت وجوههم ذليلة خاشعة مثل وجوه العناة ، وهم الأسارى .

(١١٢) « وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً »

أى فلا يخاف جزاء ظلم ولا هضم ، لأنه لم يظلم ولم يهضم .

والظلم : أن يأخذ من صاحبه فوق حقه .

والهضم : أن يكسر من حق أخيه فلا يوفيه له .

(١١٤) « فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً »

استعظام له ولما يصرف عليه عباده من أوامره ونواهيه ووعده ووعيده ، والإدارة بين ثوابه وعقابه على حسب أعمالهم ، وغير ذلك مما يجرى عليه أمر ملكوته .

ولما ذكر القرآن وإنزاله قال على سبيل الاستطراد : وإذا لقنك جبريل ما يوحى إليك من القرآن فتأن عليه ريثما يسمعك ويفهمك ، ثم أقبل عليه بالتحفظ بعد ذلك ، ولا تكن قراءتك مساوية لقراءته . وقل ربى زدنى علماً إلى علم ، فإن لك فى كل شىء حكمة وعلماً .

(١٢٧) « وَكَذَلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى »

لما توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين : المعيشة الضنك فى الدنيا ، وحشره أعمى فى الآخرة ، ختم آيات الوعيد بقوله « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » ، كأنه قال : والحشر على العمى الذى لا يزول أبداً أشد من ضيق العيش المنقضى .

أو : ولتركنا إياه فى العمى أشد وأبقى من تركه لآياتنا .

(١٢٩) « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى »

الكلمة السابقة : العدة بتأخير جزائهم إلى الآخرة .

يقول : لولا هذه العدة لكان مثل إهلاكنا عاداً وثمود لازماً لهؤلاء الكفرة .

وأجل مسمى ، أى لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كما كانا لازمين لعاد وثمود ، ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل .

(١٣٣) « وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى »

اقترحوا على عادتهم فى التعنت آية على النبوة ، فقيل لهم : أو لم تأتكم آية هى أم الآيات وأعظمها فى باب الإعجاز ، يعنى القرآن ، من حيث أن القرآن برهان ما فى سائر الكتب المنزلة ودليل صحته لأنه معجزة ، وتلك ليست بمعجزات ، فهى مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة .

تفسير سورة الأنبياء

(١) « اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ »

المراد : اقتراب الساعة ، وإذا اقتربت الساعة فقد اقترب ما يكون فيها من الحساب والعقاب وغير ذلك .

والناس ، هم المشركون ، وهذا من إطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم ، وهو ما يتلوه من صفات المشركين ، فقد وصفهم بالغفلة مع الإعراض ، على معنى أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم ، ولا يتفطنون لما ترجع إليه خاتمة أمرهم ، مع اقتضاء عقولهم أنه لا بد من جزاء للمحسن والمسيء ، وإذا نبهوا عن سنة الغفلة وفطنوا لذلك بما يتلى عليهم من الآيات والنذر أعرضوا وسدوا أسماعهم ونفروا .

(٥) « بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ »

أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام ، ثم إلى أنه كلام مفترى من عنده ، ثم إلى أنه قول شاعر . وهكذا الباطل رجاع غير ثابت على قول واحد .

(٦) « مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ »

يصفهم بأنهم أعتى من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها ، فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا ، فأهلكهم الله ، فلو أعطيناهم ما يقترحون لكان أنكث وأنكث .

(٧) « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »

أمرهم أن يستعلموا أهل الذكر وهم أهل الكتاب ، حتى يعلموا أن رسل الله الموحى إليهم كانوا بشراً ولم يكونوا ملائكة كما اعتقدوا .

(٨) « وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ »

أي : وما جعلنا الأنبياء عليهم السلام قبله ذوي جسد طاعمين ، ووحد الجسد لإرادة الجنس ، كأنه قال : ذوي ضرب من الأجساد .

(١٠) « لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ »

فيه ذكركم ، أى شرفكم وصيتكم ، أو موعظتكم ، أو فيه مكارم الأخلاق التى كنتم تطلبون بها الثناء أو حسن الذكر ، كحسن الجوار ، والوفاء بالعهد ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والسخاء وما أشبه ذلك .

(١١) « وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ »

(١٢) « فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِنْهَا يَرْكُضُونَ »

(١٣) « لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ »

(١٤) « قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ »

(١٥) « فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ »

أى أهلكنا قوماً ظالمين وأنشأنا قوماً آخرين .

فلما علموا شدة عذابنا وبطشنا علم حس ومشاهدة لم يشكوا فيها ركبوا دوابهم وركضونها هاربين مدبرين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب .

ويجوز أن يشبهوا فى سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم .

فقيل لهم لا تركضوا وارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسألون غداً عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة .

تلك إشارة إلى يا ويلنا ، لأنها دعوى ، والدعوى بمعنى : الدعوة .

(١٦) « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ »

(١٧) « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِن لَدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ »

أى : وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع ، وما بينهما من أصناف الخلائق مشحونة بضروب البدائع والعجائب ، للهو واللعب ، وإنما سويناها لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا ، مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التى لا تعد والمرافق التى لا تحصى .

ثم بين أن السبب فى ترك اتخاذ اللهو واللعب وانتفائه عن صنع الله هو أن الحكمة صارفة عنه ، وإلا فهو قادر على اتخاذه من لدنه ، أى من جهة قدرته ، إن كان فاعلا لأنه على كل شىء قدير .

(٢٤) « أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ »

استفظاعاً لشأنهم واستعظاماً لكفرهم ، أى وصفتم الله تعالى بأن له شريكا فهاتوا برهانكم على ذلك ، فهـذا الوحى لوارد فى معنى توحيد الله ونفى الشركاء عنه كما ورد علىّ فقد ورد على جميع الأنبياء فهو ذكر ، أى عظة الذين معى ، يعنى أمته ، وذكر الذين من قبلى ، أى الأمم الأنبياء عليهم السلام .

(٣٤) « وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ »

كانوا يقدرون أنه سيموت فيشمتون بموته ، فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا ، أى قضى الله أنه يخلد فى الدنيا بشراً ، فلا أنت ولا هم إلا عرضة للموت ، وإذا كان الأمر كذلك بأن مت أنت أيبقى هؤلاء ؟

(٣٥) « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ »

أى نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا ، وبما يجب فيه الشكر من النعم ، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر ، وإنما سمى ذلك ابتلاء ، وهو عالم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم، لأنه فى صورة الاختبار .

(٣٧) « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ »
(٣٨) « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »

كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار ،فأراد نهيهم عن الاستعجال وزجرهم ، فقدم أولا ذم الإنسان على ميله إلى العجلة وأنه مطبوع عليها ثم نهاهم وزجرهم .

(٤١) « وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ »

سلّى رسول الله ﷺ عن استهزائهم به بأن له فى الأنبياء عليهم السلام أسوة وأن ما يفعلونه به يحيق بهم كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء عليهم السلام ما فعلوا .

(٤٤) « بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ »

بل ما هم فيه من الحافظ وا كلاءة إنما هو منا ، لامن مانع يمنعهم من إهلاكنا . وما كلأناهم وآباءهم الماضين إلا تمتيعاً لهم بالحياة الدنيا وإمهالا ، كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم حتى طال عليهم الأمد وامتدت بهم أيام الروح والطمأنينة فحسبوا أنهم لا يزالون على ذلك لا يغلبون ولا ينزع عنهم ثوب أمنهم واستمتاعهم . أفلا يرون أنا ننقص أرض الكفر ودار الحرب بتسليط المسلمين عليها .

(٥٥) « قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ »

بقوا متعجبين من وصفه لهم وتضليله إياهم ، وحسبوا أن ما قاله على وجه المزاح والمداعبة لا على طريق الجد ، فقالوا له : هذا الذى جئتنا به أهو جد وحق أم لعب وهزل ؟

(٥٦) « قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّـٰهِدِينَ »

الضمير فى «فطرهن» للتماثيل ، ليكون أوصل فى تضليلهم وأثبت للاحتجاج عليهم . وشهادته على ذلك إدلاؤه بالحجة عليه وتصحيحه بها كما يصحح الدعوى بالشهادة ، كأنه قال : وأنا أبين ذلك وأبرهن عليه كما تبين الدعاوى بالبينات ، لأنى لست مثلكم فأقول مالا أقدر على إثباته بالحجة كما لم تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم ، ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم .

(٩٢) « إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ »

أى إن ملة الإسلام هى ملتكم التى يجب أن تكونوا عليها لاتنحرفون عنها وأنا إلهكم إله واحد فاعبدون .

(٩٣) « وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ »

ينعى عليهم ما أسندوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم ويقول لهم : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين الله .

والمعنى : جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً كما يتوزع الجماعة الشىء ويتقسمونه ، فيصير لهذا نصيب ولذاك نصيب ، تمثيلا لاختلافهم فيه ، وصيرورتهم فرقا وأحزاباً شتى ، ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون فهو محاسبهم ومجازيهم .

(١٠٩) « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ »

(١١٠) « إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ »

(١١١) « وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ »

أى : إنى بعد توليكم وإعراضكم عن قبول ماعرض عليكم من وجوب توحيد الله وتنزيهه عن الأنداد والشركاء، كرجل بينه وبين أعدائه هدنة فأحس منهم بغدرة ، فنبذ إليهم العهد وشهر النبذ وأشاعه وآذنهم جميعاً بذلك مستوين فى الإعلام به ، لم يطوه عن أحد منهم وكاشف كلهم . وإن ماتوعدون من غلبة المسلمين عليكم كائن لامحالة ولابد من أن يلحقكم بذلك الصغار . وإن كنت لا أدرى متى يكون ذلك لأن الله لم يطلعنى عليه ولم يطلعنى عليه. والله عالم لا يخفى عليه ما تجاهرون به من كلام الطاعنين فى الإسلام وما تكتمونه فى صدوركم من الإحن والأحقاد للمسلمين وهو يجازيكم عليه . وما أدري لعل تأخير هذا الوعد امتحان لكم لينظر كيف تعملون ، أو تمتيع لكم إلى حين ليكون ذلك حجة عليكم وليقع الوعد فى وقت هو فيه حكمة .

تفسير سورة الحـــــج

(٣) « وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ »

(٤) « كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ »

تصف كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله ومالا يجوز من الصفات والأفعال ، ولا يرجع إلى علم ، فهو يخبط خبط عشواء غير فارق بين الحق والباطل ويتبع فى ذلك خطوات كل شيطان عات،علم من حاله وظهر أنه من جملة وليا لم تثمر له ولايته إلا الإضلال عن طريق الجنة والهداية إلى النار .

(٦) « ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِى الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »

(٧) « وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَـةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِى الْقُبُورِ »

أى ذلك الذى ذكرنا من خلق بنى آدم وإحياء الأرض، مع ما فى تضاعيف ذلك من أصناف الحكم واللطائف، حاصل بهذا وهو السبب فى حصوله ، ولولاه لم يتصور كونه ، وهو أن الله هو الحق أى الثابت للوجود ، وأنه قادر على إحياء الموتى وعلى كل مقدور ، وأنه حكيم لايخلف ميعاده ، وقد وعد الساعة والبعث ، فلا بد أن يفى بما وعد .

(١١) « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ »

(١٢) « يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ »

(١٣) « يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ »

مثل لكونهم على قلق واضطراب فى دينهم لا على سكون وطمأنينة ، كالذى يكون على طرف من العسكر ، فإن أحس بظفر وغنيمة قر واطمأن وإلا فر وطار على وجهه، فهو جامع على نفسه محنتين: إحداهما : ذهاب ما أصيب به، والثانية : ذهاب ثواب الصابرين ، فهو خسران الدارين ، وهو الخسران الذى ليس وراءه خسران ، فقد تعلق بمعبودات لا تضر ولا تنفع ومن ضرها بكونها معبودات أقرب من نفعها بكونها شفعاً ، لبئس الناصر ولبئس الصاحب .

(١٤) « إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ »

(١٥) « مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ »

أى إن الله ناصر رسوله فى الدنيا والآخرة فمن كان يظن حاسديه وأعاديه أن الله يفعل خلاف ذلك ويطمع فيه ، ويغيظه أنه يظفر بمطلوبه ، فليستقصى وسعه وليستفرغ مجهوده فى إزالة مايغيظه ، بأن يفعل مايفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ ، فلينظر وليتصور فى نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذى يغيظه .

(١٩) « هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ »

(٢٠) « يُصْهَرُ بِهِ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ »

(٢١) « وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ »

(٢٢) « كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ »

أى هذان فوجان أو فريقان مختصمان ، وهما المؤمنون والكافرون ، فى دين الله وصفاته ، فالذين كفروا قدر لهم من النار على مقادير جثثهم تشتمل عليها كما تقطع الثياب للملبوسة ويصب على رؤوسهم الماء الحار ، ويكون تأثيره فى الباطن نحو تأثيره فى الظاهر فيذيب أحشاءهم وأمعاءهم كما يذيب جلودهم . وكلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ، أى إن النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى إذا كانوا فى أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا وقيل لهم ذوقوا العذاب الغليظ المنتشر العظيم الإهلاك .

(٢٩) « ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ »

قضاء التفث : قص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد . والتفث : الوسخ ، فالمراد : قضاء إزالة الوسخ .

وليطوفوا طواف الإفاضة ، وهو طواف الزيارة الذى هو من أركان الحج ويقع به تمام التحلل .

(٣٠) « ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَانِ وَٱجْتَنِبُوا قَوْلَ ٱلزُّورِ »

(٣١) « حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ »

أى إن الله قد أحل لكم الأنعام كلها إلا ما استثناه فى كتابه فحافظوا على حدوده وإياكم أن تحرموا مما أحل شيئاً وأن تحلوا مما حرم الله شيئاً ؛

ولما حث تعالى على تعظيم حرماته وأحمد من يعظمها اتبع ذلك بالأمر باجتناب الأوثان وقول الزور لأن توحيد الله ونفى الشركاء عنه وصدق القول أعظم الحرمات وأسبقها خطراً . واجتنبوا قول الزور كله لاتقربوا شيئاً منه لتماديه فى القبح والسماجة .

ومن أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية ، بأن صورها له بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير ، فتفرق مزعاً فى حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المطاوح البعيدة .

(٣٢) « ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ »

(٣٣) « لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ »

تعظيم الشعائر ، وهى الهدايا ، لأنها من معالم الحج ، أن يختارها عظام الأجرام حساناً سماناً غالية الأثمان ويترك المكاس فى شرائها ، فإن تعظيمها من أفعال ذوى تقوى القلوب .

ولكم فيها منافع إلى أن تنحر ويتصدق بلحومها ويؤكل منها ، ثم إن وقت وجوب نحرها فى الحرم منتهية إلى البيت .

(٣٤) « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ »

(٣٥) « الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ »

شرع الله لكل أمة أن يذبحوا لوجهه على وجه التقرب ، وجعل العلة فى ذلك أن يذكروا اسمه — تقدست أسماؤه — على النسائك ، فأخلصوا له الذكر خاصة واجعلوه لوجهه سالماً لاتشوبوه بإشراك .

(٣٦) « وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »

والبدن ، أى الإبل خاصة ، من أعلام الشريعة التى شرعها الله ، ومن شأن الحاج أن يحرص على شىء منه خير ومنافع بشهادة الله . وذكر اسم الله: أن يقول عند النحر : الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر اللهم منك وإليك وصواف : قد صففن أيديهن وأرجلهن .

ووجوب الجنوب : رقودها على الأرض . والمعنى : إذا وجبت جنوبها وسكنت أرواحها حل لكم الأكل منها وإطعام السائل والمعترض بغير سؤال . ولولا تسخير الله لم تطق ، ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التى هى أصغر منها جرماً وأقل قوة .

(٣٧) لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ »

أى : لن يصيب رضى الله اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المهراقة بالنحر ، والمراد أصحاب اللحوم والدماء .
والمعنى : لن يرضى المضحون والمقربون ربهم إلا بمراعاة النية والإخلاص والاحتفاظ بشرط التقوى فى حل ما قرب به ، وغير ذلك من المحافظات الشرعية وأوامر الورع ، فإذا لم يراعوا ذلك لم تغن عنهم التضحية والتقرب وإن كثر ذلك منهم .

(٤٧) « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ »

(٤٨) « وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ »

أنكر استعجالهم بالمتوعد به من العذاب العاجل والآجل ، كأنه قال : ولم يستعجلون الفوت ؟ كأنهم يجوزون الفوت ، وإنما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف . والله عز وعلا لا يخلف الميعاد .

وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حيناً ثم أخذتهم بالعذاب ، والمرجع إلىّ وإلىّ الحكم

(٦٧) « لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ »

أى لا تلتفت إلى قولهم ولا تمكنهم من أن ينازعوك .

أو هو زجر لهم عن التعرض لرسول ﷺ بالمنازعة فى الدين ، وهم جهال لا علم عندهم .

(٦٨) « وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ »

أى وإن أبوا الحاجهم إلا المجادلة بعد اجتهادك ألا يكون بينك وبينهم تنازع ، فادفعهم بأن الله أعلم بأعمالكم وبقبحها وبما تستحقون عليها من الجزاء فهو مجازيكم به . وهذا وعيد وإنذار .

(٦٩) « اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ »

(٧٠) « أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ »

خطاب من الله للمؤمنين والكافرين ، أى يفصل بينكم بالثواب والعقاب ، وتسلية النبي ﷺ مما كان يلقى منهم .

وكيف يخفى عليه ما يعملون ، والإحاطة بذلك وإثباته وحفظه عليه يسير .

(٧٤) « مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ »

أى ما عرفوه حق معرفته حتى لا يسموا باسمه ما هو منسلخ عن صفاته بأسرها ، ولا يؤهلوه للعبادة ، ولا يتخذوه شريكا له ، إن الله قادر غالب ، فكيف يتخذ العاجز المغلوب شبيهاً به .

(٧٨) « وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ »

أمر بالغزو ومجاهدة النفس والهوى ، وهو الجهاد الأكبر ، فى الله ، أى فى ذات الله ومن أجله .

تفسير سورة المؤمنون

(١) « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ »

أى دخلوا فى الفلاح .

(٣) « وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ »

لما وصفهم بالخشوع فى الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس الذين هما قاعدتا بناء التكليف .

(٥) « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ »

(٦) « إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ »

(٧) « فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ »

أى الذين هم لفروجهم حافظون فى كافة الأحوال إلا فى حال تزوجهم ، فهم يلامون على كل مباشرة إلا على ما أطلق لهم فإنهم غير ملومين عليه . فمن أحدث ابتغاء وراء هذا الحد مع فسحته واتساعه فأولئك هم العاملون فى العدوان المتناهون فيه .

(١٠) « أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ »

(١١) « الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »

أى الأحقاء بأن يسموا وراثاً دون من عداهم ، ثم ذكر جزالة إرثهم التى لا تخفى على الناظر ، وهو الفردوس .

(١٧) « وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ »

يعنى الأفلاك ، لأنها طرائق الكواكب فيها مسيرها ، وما كنا غافلين عن حفظها وإمساكها بقدرتنا أن تقع فوقهم .

(٢٧) « فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ »

بأعيننا ، أى بحفظنا وكلاءتنا ، كأن معه من الله حفاظاً يكلؤونه بعيونهم .

من كل زوجين، أى من كل أمتى زوجين ، وهما أمة الذكر وأمة الأنثى .

(٣١) « ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ »

(٣٢) « فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ »

قرناً آخرين ، هم عاد قوم هود .

فأرسلنا فيهم ، أى فى عاد .

(٤٢) « ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ »

(٤٣) « مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ »

قروناً : قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم .

وقيل : بنى إسرائيل .

وأجلها : الوقت الذى حدد لهلاكها وكتب .

(٤٩) « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ »

أى : ولقد آتينا قوم موسى التوراة لعلهم يعملون بشرائعها ومواعظها .

(٥١) « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ »

أى النداء والخطاب ليس على ظاهرهما ، وكيف والرسل إنما أرسلوا متفرقين فى أزمنة مختلفة ، وإنما المعنى : الإعلام بأن كل رسول فى زمانه نودى لذلك ووصى به ليعتقد السامع أن أمراً نودى له جميع الرسل ووصوا به حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه .

والمراد بالطيبات : ما حل وطاب .

(٥٣) « فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ »

زبراً ، أى كتباً مختلفة ، يعنى : جعلوا دينهم أدياناً .

(٥٥) « أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ »

(٥٦) « نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ »

أى إن هذا الإمداد ليس إلا استدراجاً لهم إلى المعاصى واستجراراً إلى زيادة الإثم ، وهم يحسبونه مسارعة لهم فى الخيرات كما يفعل بأهل الخير من المسلمين .

بل هم لاعطف بهم ولا شعور حتى يتأملوا ويتفكروا فى ذلك ، أهو استدراج أم مسارعة فى الخير ؟

(٦٢) « وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ »

(٦٣) « بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ »

أى إن هذا الذى وصف به الصالحين غير خارج من حد الوسع والطاقة ، وكذلك كل ما كلفه عباده وما عملوه من الأعمال غير ضائع عنده ، بل هو مثبت لديه فى كتاب ، لا زيادة فيه ولا نقصان ولا يظلم منهم أحد .

(٧١) « وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ »

يدل بهذا على عظم شأن الحق ، وأن السموات والأرض ما قامت ولا من فيهن إلا به ، فلو اتبع أهواءهم لانقلب باطلا ، ولذهب ما يقوم به العالم فلا يبقى له بعده قوام .

أو أراد أن الحق الذى جاء به محمد ﷺ وهو الإسلام ، لو اتبع أهواءهم وانقلب شركا لجاء الله بالقيامة ولأهلك العالم ولم يؤخر .

وبذكرهم ، أى بالكتاب الذى هو ذكرهم .

(٧٣) « وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ »

(٧٤) « وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ »

ألزمهم الحجة وقطع معاذيرهم وعللهم بأن الذى أرسل إليهم رجل معروف أمره وحاله ، مخبر ، سره وعلنه ، خليق بأن يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانيهم ، وأنه لم يعرض له عارض حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ، ولم يجعل ذلك سلماً إلى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذى هو الصراط المستقيم ، مع إبراز المكنون من أدوائهم وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل، وولعهم بدين الآباء الضلال من غير برهان .

وأنهم بعدم إيمانهم بالآخرة لعادلون عن هذا الصراط المذكور .

(٧٨) « وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ »

(٧٩) « وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ »

(٨٠) « وَهُوَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ »

إنما خص السمع والأبصار والأفئدة ، لأنه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها ، ومقدمة منافعها أن يعملوا أسماعهم وأبصارهم فى آيات الله وأفعاله ، ثم ينظروا ويستدلوا بقلوبهم ، ومن لم يعملها فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها وهو الذى خلقكم وبثكم بالتناسل وإليه تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم . وهو مختص باختلاف الليل والنهار ومتولاه لا يقدر على تصريفهما غيره .

(٩٦) « ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ »

أى ادفع بالحسنى السيئة .

والمعنى:الصفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان ،حتى إذا اجتمع الصفح والإحسان وبذل الاستطاعة فيه كانت حسنة مضاعفة بإزاء السيئة .

(١١٢) « قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ »
(١١٣) « قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ »
(١١٤) « قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ »

استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا بالإضافة إلى خلودهم ولما هم فيه من عذابها . لأن الممتحن يستطيل أيام محنته ويستقصر ما مر عليه من أيام الدعة إليها ، أو لأنهم كانوا فى سرور ، وأيام السرور قصار ، أو لأن المنقضى فى حكم ما لم يكن .

فسل العادين ، أى لا نعرف من عدد السنين إلا أنا نستقله ونحسبه يوماً أو بعض يوم ، لما نحن فيه من العذاب وما فينا أن نعدها ، فسل من فيه أن يعد ، ومن يقدر أن يلقى إليه فكره .

تفسير سورة النور

(١) « سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »

قالت عائشة رضى الله عنها : لا تنزلوا النساء الغرف ، ولا تعلموهن الكتابة ، وعلموهن سورة النور ، وعلموهن الغزل » .

فيها أحكام العفاف والطهر وأحاديثه . وفيها أحكام إتيان الفاحشة من الزنا وقذف المحصنات الغافلات ، ورمى الأزواج بلا بينة . وفيها حديث الإفك الذى تقول فيه من قطعت ألسنتهم على أهل بيت النبى ، وفيها حكم الذين يحبون أن تشيع الفاحشة . وفيها أدب النظرة من الرجل إلى المرأة ، ومن المرأة للرجل ، وأدب ما ينبغى أن تكون عليه المرأة فى زينتها ، ما الذى تبديه منها وما الذى تخفيه ، ومن يجوز لها أن تبدى له زينتها . وفيها حديث العفة بالزواج لمن أطاقه ، وبالاستعفاف للذين لا يجدون نكاحاً .

ثم فيها مع هذا حديث الإحصان والبغاء . وآداب دخول البيوت ، ووجوب الاستئذان لمن بلغ الحلم . وفيها فى الختام أدب دعاء الرسول صلوات الله وسلامه عليه : أليست جديرة ـ كما قالت عائشة ـ بأن نعلمها النساء ، وأن يتعلمها الرجال ، وأليست جديرة كذلك أن تسمى سورة النور ؟

(٢) « الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »

هذه الآية بإجماع الأقوال ناسخة لآيتى الحبس والإيذاء اللذين كانا عقوبة الزنا من قبل حيث قال سبحانه فى سورة النساء . « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا » .

« واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيما » .

ومن هذه الآية أخذ حد الزنا ، ويعلل بعض المفسرين تقديم « الزانية » على « الزانى » فى الآية بأن الزنا

كان فشياً ، وكن الإماء والبغايا مجاهرة به ، ثم لأن العار — فى هذا الجانب — ألحق بالمرأة إذ الأصل فيها العفاف والصون .

ومعنى قوله سبحانه « ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله » ، لا تمتنعوا عن إقامة الحد شفقة بمن وجب عليه الحد ، ولا ترفقوا به فى ضربه .

« وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » تشهيراً بالمحدود ، وردعاً له حتى لا يعاودها ، ثم هو مزدجر وعبرة للحاضرين ، وكبت لنوازع الشر فى أنفسهم ، وقيل : بل لتدعو بالرحمة والتوبة لهما طائفة من المؤمنين .

وقد روى حذيفة أن رسول الله ﷺ قال : « يا معاشر الناس اتقوا الزنى فإن فيه ست خصال ، ثلاثاً فى الدنيا ، وثلاثاً فى الآخرة ؛ فأما اللواتى فى الدنيا فيذهب البهاء ، ويورث الفقر ، وينقص العمر ؛ وأما اللواتى فى الآخرة فيوجب السخط وسوء الحساب والخلود فى النار » .

وعنه صلوات الله عليه أنه قال : « إذا كان ليلة النصف من شعبان اطلع الله على أمتى فغفر لكل مؤمن لا يشرك بالله شيئاً إلا خمسة : ساحراً ، وكاهناً ، وعاقاً لوالديه ، ومدمن خمر ، ومصراً على الزنى » .

(٣) « الزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ »

كثر اختلاف المفسرين فى هذه الآية وأولى الأقوال عندى أن النكاح فى الآية مراد به الوطء لا الزواج .
قال ابن العربى : « والذى عندى أن النكاح لا يخلو أن يراد به الوطء كما قال ابن عباس أو العقد فإن أريد به الوطء فيكون معنى الآية : « لا يكون زنى إلا بزانية » أى أن وطء الزانية لا يكون إلا من زان أو مشرك .

وقريب منه فى معناه ما روى أبو داود والحاكم فى مستدركه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان على رأسه كالظلة فإذا أقلع رجع إليه » .

والهدف العام من الآية — والله أعلم بمراده — هو تبشيع أمر الزنى ، وتضخيم جرمه وتنفير العباد منه ، حتى ليكاد الزانى فى ساعة الزنى أن يفقد إيمانه فيعتبر وكأنه من المشركين .

(٤) « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ »
(٥) « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »

رمى المحصنات هو قذفهن بالفاحشة والآية عامة فى الرجال والنساء وإن اختص النساء بالذكر فكأنه سبحانه قال : « والذين يرمون الأنفس المحصنات » . وقد شدد القرآن فيه لما يترتب عليه من الإفساد والضرة وإثارة الشكوك والريب بين الناس مما قد ينتهى إلى شر أو فتنة . ولهذا اشترط القرآن على القاذف أن يأتى بأربعة شهداء . قال مالك رحمه الله يشهدون مجتمعين وقال غيره وإن كانوا متفرقين جاز ، فإذا شهدوا بصحة ما قال أقيم الحد على المقذوف وإلا أقيم الحد على القاذف . وهو كما نصت الآية « فاجلدوهم ثمانين جلدة » . وحكمة الله فى التشديد هى ستره سبحانه لعباده ورحمته بهم .

فإذا ثبت كذب القاذف وأقيم عليه الحد بقى طول عمره لا تقبل له شهادة ، وحكم عليه بالفسق والخروج عن طاعة الله . فلا تقبل له شهادة أبداً ولو تاب وهو رأى أبى حنيفة وسفيان الثورى وغيرهما .

إلا الذين تابوا : قيل بأن يصلح حالهم ويعرف فى الناس استقامة سيرتهم . وقيل : وهو مذهب عمر رضى الله عنه بأن يكذبوا أنفسهم فيما قالوه ويستغفروا منه . ويندموا عليه . لأن الله سبحانه يقول : « وإنى لغفار لمن تاب » .

(٦) « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ »

(٧) « وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ »

(٨) « وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ »

(٩) « وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ »

(١٠) « وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ »

هذا خاص بقذف الرجل زوجته ، ولم يكن له شهداء إلا شهادته ، فيكون بينهما ما يسميه العلماء بـ « اللعان » .

ويروى عن ابن عباس رضى الله عنه أن سعد بن عبادة سيد الأنصار لما نزلت « والذين يرمون المحصنات » قال : أهكذا نزلت يا رسول الله ؟ ! والله إنى لأعلم أنها حق وأنها من عند الله ، ولكن قد تعجبت أن لو وجدت لكاع قد تفخذها رجل لم يكن لى أن أهيجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء فوالله إنى لا آتى بهم حتى يقضى حاجته .

قال : فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية من أرضه عشيًّا فوجد عند أهله رجلا فرأى بعينيه وسمع بأذنه، فلم يهيجه حتى أصبح وغدا على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : إنى قد جئت أهلى عشياً فوجدت عندها رجلا ، فرأيت بعينى وسمعت بأذنى .

فـكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه . فقال سعد بن عبادة : الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال ابن أمية ويبطل شهادته فى المسلمين ! !

فقال هلال : يا رسول الله ، إنى قد أرى ما اشتد عليك مما جئتك به ، والله يعلم إنى لصادق وإنى لأرجو الله أن يجعل لى منها مخرجاً .

قال : فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه إذ نزل عليه الوحى وكان إذا نزل عليه الوحى عرفوا ذلك فى تربد جلده ، فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحى فنزلت الآية .

فسرى عن رسول الله ﷺ فقال : أبشر يا هلال ، قد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً . فقال هلال : قد كنت أرجو ذاك من ربى .

وكيفية «اللعان» أن يقول الرجل : أشهد بالله أنى رأيتها تزنى وما وطئتها بعد زناها . يردد هذا أربع مرات . ثم يقول فى الخامسة . « علىّ لعنة الله إن كنتُ من الـكاذبين » .

فإذا كان ينفى أن ما فى بطنها منه قال : أشهد بالله ما هذا الحمل منى . فإذا قال ذلك سقط عنه الحد ، وانتفى الولد .

فإذا فرغ الرجل من لعانه قامت المرأة بعده فحلفت بالله أربعة أيمان تقول فيها : أشهد بالله إنه لمن الـكاذبين فيما رمانى به من الزنى . وتقول فى الخامسة : « علىّ غضبَ الله فيما رمانى به من الزنى » .

ولا خلاف على أن يتم هذا اللعان فى المسجد الجامع . فإذا فرغا تفرقا وخرج كل واحد منهما من باب غير الذى يخرج الآخر منه .

ومذهب مالك رضى الله عنه : أنه بتمام اللعان تقع الفرقة بينهما فلا يجتمعان ، ولا تحل له أبداً لا قبل زواج ولا بعده . ولا يتوارثان كذلك .

ولأبى حنيفة وأبى يوسف ومحمد : أن الفرقة لا تقع حتى يفرق بينهما الحاكم .

وثمة رأى يقول بعدم وقوع الفرقة بعد اللعان ، ولأن الآية ليس فيها ذلك .

(١١) « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ »

(١٢) «لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَـٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ»

(١٣) «لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ»

(١٤) «وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ»

(١٥) «إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ»

(١٦) «وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ»

(١٧) «يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»

(١٨) «وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»

(١٩) «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»

(٢٠) «وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ»

(٢١) «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»

(٢٢) «وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»

هذا حديث الإفك .

أخطر حديث مرّ بيت رسول الله ﷺ .

ذكروا : أن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه .

قالت : فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى ، فخرجت مع رسول الله ﷺ ، وذلك بعد ما نزلت آية الحجاب : فأنا أحمل فى هودجى ، وأنزل فيه مسيرنا حتى فرغ رسول الله ﷺ من غزوته ، وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل .

قالت : فقمت حين أذنوا بالرحيل ومشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى الرحل ، فلمست صدرى فإذا عقد من جزع ظفار ، قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدى ، فحبسنى ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون ، فحملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه .

قالت عائشة : وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن العلقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه . وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل ، وساروا ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش .

فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلى الذى كنت فيه ، وظننت أن القوم سيفقدونى فيرجعوا إلىّ .

فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عيناى فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمى قد عرّس من وراء الجيش ، فأدلج ، فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتانى فعرفنى حين رآنى ، وقد كان يرانى قبل أن يضرب الحجاب علىّ .

فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى ، فخمرت وجهى بجلبابى ، والله ما كلمنى بكلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، حتى أناخ راحلته ، فوطىء على يدها فركبتها .

فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد مانزلوا ، موغرين فى نحر الظهيرة ، قالت عائشة : وهلك من هلك فىّ(١) .

وكان الذى تولى كبره منهم هو عبد الله بن أبىّ بن سلول .

قالت عائشة رضى الله عنها :

---

(١) هذه كناية عذبة لخصت بها أم المؤمنين رضى الله عنها كل ماتقوله المتقولون عنها فى هذه المحنة وماعرضوا به أنفسهم للهلاك والعذاب العظيم .

فقدمنا المدينة ، فاشتكيت حين قدمتها شهراً ، والناس يفيضون فى قول أهل الإفك، ولا أشعر بشىء من ذلك، ويريبنى — فى وجعى — أنى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى .

إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول :

« كيف تيكم ؟ » .

فذلك يحزننى ، ولا أشعر بالشر ، حتى خرجت بعد ما نقهت ، وخرجت معى « أم مسطح » قبل « المناصع » وهو متبرزنا ، ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه ، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا .

فانطلقت أنا وأم مسطح ، وهى بنت أبى رهم بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب .

فأقبلت أنا وابنة أبى رهم قبل بيتى حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت :

تعس مسطح .

فقلت لها : بئسما قلت . أتسبين رجلا قد شهد بدراً ؟

قالت : أى هنتاه !! أولم تسمعى ما قال ؟

قلت : وماذا قال ؟

فأخبرتنى بقول أهل الإفك فازددت مرضاً إلى مرضى ، فلما رجعت إلى بيتى ودخل علىّ رسول الله ﷺ ثم قال: كيف تيكم ؟

قلت : أتأذن لى أن آتى أبوى ؟ — وأنا أريد حينئذ أن أتيقن الخبر من قبلهما .

فأذن لى رسول الله ﷺ فجئت أبوى فقلت : يا أماه ما يتحدث الناس ؟

قالت : يا بنية هونى عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل ولها ضرائر ، إلا أكثرن عليها .

فقلت : سبحان الله !؟ أو قد تحدث الناس بهذا ؟

قالت عائشة : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكى .

ودعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب ، وأسامة بن زيد ، حين استلبث الوحى ، يستشيرهما فى فراق أهله — تعنى طلاقها — .

فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم فى نفسه لهم من الود فقال :

يا رسول الله : هم أهلك ، وما نعلم إلا خيراً .

وأما على بن أبي طالب فقال :

لم يضيق الله تعالى عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك

قالت : فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال :

يا بريرة : هل رأيت شيئاً يريبك من عائشة ؟

فقالت بريرة : والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن فتأكله .

قالت عائشة : فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول فقال وهو على المنبر :

يا معشر المسلمين : من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى ، فوالله ماعلمت على أهلى إلا خيراً .

ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى .

فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : يا رسول الله أنا أعذرك منه .

إن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك .

قال : فقام سعد بن عبادة ، وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحاً ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله .

فقام أسيد بن الحضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة :

كذبت لعمر الله لنقتلنه ، إنك منافق تجادل عن المنافقين .

فثار الحيان من الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت .

قالت عائشة : وبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى .

قالت : فبينا هما جالسان عندى وأنا أبكى استأذنت على امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، وجلست تبكى معى .

قالت : فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ ، ثم جلس ، ولم يجلس عندى منذ قيل لى ما قيل ، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه فى شأنى شيء .

قالت : فتشهد رسول الله ﷺ ثم قال :

أما بعد يا عائشة ، فإنه بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ؛ فإن العبد إذا اعترف بذنبه ، ثم تاب ، تاب الله عليه .

قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبي : أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال :

قال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله .

فقلت لأمي : أجيبي رسول الله .

فقالت : والله ما أدري ما أجيب رسول الله . فقلت — وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن — : والله لقد عرفت أنكم سمعتم هذا ، وقد استقر في نفوسكم فصدقتم به ، ولئن قلت لكم إني بريئة — والله يعلم أني بريئة — لا تصدقوني بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر — والله يعلم أني منه بريئة — لتصدقني . والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا ما قال أبو يوسف : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

قالت : ثم تحولت واضطجعت على فراشي ، وأنا والله أعلم حينئذ أني بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل الله في شأني وحياً يتلى ، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله تعالى فيَّ بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرئني الله تعالى بها .

قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ منزله ، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أخذه الوحي ، فلما سُرِّي عنه سُرِّي عنه وهو يضحك ، وكان أول كلمة تكلم بها أن قال : البشرى يا عائشة ، أما والله لقد برأك الله .

فقالت لي أمي : قومي إليه ، فقلت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله سبحانه وتعالى هو الذي برأني . . . فنزلت الآيات العشرة .

وكان الصديق هو الذي ينفق على مسطح لقرابته وفقره ، فقال : والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة فنزل قوله تعالى : « ولا يأتل أولو الفضل منكم ... إلى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم الآية » ، فقال أبو بكر : والله إني أحب أن يغفر الله لي فأعاد النفقة إلى مسطح ، وقال : لا أنزعها منه أبداً .

(٢٦) « الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » :

قال أبو جعفر النحاس في كتابه « معاني القرآن » : إن من أحسن ما قيل في معنى هذه الآية : الكلمات الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال ، وكذا الخبيثون من الناس للخبيثات من القول ، والكلمات الطيبات من القول للطيبين من الرجال وهكذا .

ولقد كان مما عدته عائشة رضى الله عنها فيما أعطيته واختصت به تبرئة الله لها بالقرآن وإيتاؤها للمغفرة والرزق الكريم فى هذه الآية .

(٢٧) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »

سبب نزولها : على ما رواه الطبرى وغيره أن امرأة من الأنصار قالت : يارسول الله ، إنى أكون فى بيتى على حال لا أحب أن يرانى عليها أحد ، لا والد ولا ولد ، فيأتى الأب فيدخل علىّ ، وإنه لا يزال يدخل علىّ رجل من أهلى وأنا على هذه الحال فكيف أصنع ؟ فنزلت الآية .

(٢٩) « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ »

قيل : المراد بهذه البيوت هى : الفنادق فى طريق السابلة ، لا يسكنها أحد بل هى موقوفة ليأوى إليها كل ابن سبيل ، ومعنى « فيها متاع لكم » أى لكم حق الاستمتاع بمنفعتها .

(٣٠) « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ »

(٣١) « وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »

لم يذكر سبحانه فى الآية تفصيل ما يغض البصر ، وما يحل النظر إليه والمعلوم أن المنهى عنه هنا هو كل ما يحرم على الإنسان .

وعنه ﷺ قال : « إياكم والجلوس على الطرقات » فقالوا : يا رسول الله : ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها .

قال : « فإذا أبيتم إلا الجلوس فأعطوا الطريق حقه» قالوا : وما حق الطريق يارسول الله ؟ قال : «غض البصر، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر » .

وقال صلوات الله عليه لعلى : « لا تتبع النظرة النظرة ، فإنما لك الأولى ، وليست لك الثانية »

وفى قوله : « ويحفظوا فروجهم » روى بهز بن حكيم بن معاوية القشيرى عن أبيه عن جده ، قال : قلت يا رسول الله : «عوراتنا ماتأتى منها وماتذر» ؟ قال: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك» قال: الرجل يكون مع الرجل ، قال : « إن استطعت ألا يراها فافعل » قلت : فالرجل يكون خالياً ، قال : « الله أحق أن يستحيا منه من الناس » .

أما غض المرأة لبصرها فيروى فى الترمذى حديث نبهان مولى أم سلمة أن النبى ﷺ قال لها ولميمونة، وقد دخل عليهما ابن أم مكتوم « احتجبا » فقالتا : إنه أعمى . قال « أفعمياوان أنتما ، أو لستما تبصرانه » .

وفى أمر المرأة بحفظ زينتها وعدم إبدائها ، يروى أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها الرسول وقال : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت الحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا » ، وأشار إلى وجهه وكفيه .

(٣٣) « وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »

(٣٤) « وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ »

الذين لا يستطيعون النكاح ، أو يتعذر الزواج عليهم لسبب ما فعليهم أن يعفوا أنفسهم بالصلاة ، وبالصيام والرياضة والمجاهدة .

ولما كان أكبر الموانع عن الزواج هو عدم وجود المال فقد وعدهم سبحانه بالغنى إذا انتهوا عن محارمه .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة كلهم حق على الله عز وجل عونهم : المجاهد فى سبيل الله ، والناكح يريد العفاف ، والمكاتب الذى يريد الأداء » .

وقوله « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء » نهى صريح عن حمل الجوارى أو الحرائر على الزنى وقد نزلت هذه فى رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ وكانت له جاريتان يضربهما ويكرههما على الزنى ابتغاء المال .

(٣٩) « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ »

(٤٠) « أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ »

قيل نزلت هذه الآية فيما يقوم به الكافر من أعمال الخير كأن يصل رحمه ، أو ينفع جيرانه ، فهذا العمل ظاهره طيب وخير ، ولكنه لفقد الإيمان لا يثمر عند الله ولا يغنى ، وتعجل له منفعته فى دنياه .

وقيل نزلت فى شيبة بن ربيعة بن عبد شمس كان يترهب ، ويلتمس الدين ، فلما جاءه الدين الحق على يد رسول الله ﷺ كفر . والسراب : ما يرى على هيئة الماء عند اشتداد الحر نصف النهار فى المفاوز والصحارى ، وما هو بماء .

وفى الآية الثانية مثل آخر لحال أعمال الكفار بتشبيهها بالظلمات فى بحر هائج كأن أمواجه السحاب ، إذا أخرج المرء يده لم يكد يراها . وكذا الكافر يخبط فى ظلام الضلال والغواية لا يكاد يدرى أين طريقه ، « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشدًا »

(٥٣) « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ »

عاد سبحانه إلى ذكر المنافقين فإنهم لما نزل فيهم ما نزل جاءوا إلى الرسول فقالوا : والله لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا ونسائنا وأموالنا لخرجنا ، ولو أمرتنا أن نخرج للجهاد معك لخرجنا فكذبهم الله بهذه الآية .

(٥٥) « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ »

قيل إن سبب نزولها أن رسول الله ﷺ وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين يدعون إلى الله سرًّا وجهرًا ، ثم أمروا

بالهجرة إلى المدينة ، وكانوا فيها خائفين ، ويصبحون ويمسون فى السلاح فقال رجل : يا رسول الله ، أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ؟ فقال عليه السلام : « لا تلبثوا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبياً ليس عليه حديدة » ونزلت هذه الآية ، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فوضعوا السلاح وأمنوا .

(٦٢) « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

المؤمنون حقاً هم الذين يتصفون بهذه الصفات ومن أبرزها بعد الإيمان بالله ورسوله طاعة الرسول ﷺ والاستماع إليه ، وإنزال أوامره ورغباته منزل الاحترام والتقديس من النفس فكأنهم يسلمون أمرهم للرسول ، ويلقون بقيادهم إليه ، ومن قبل قرأنا تفسير قوله سبحانه : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » .

(٦٣) « لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

أمر سبحانه فى الحجرات بحق الأدب فى مخاطبة الرسول ﷺ فى قوله « إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم » .

ويأمر هنا بألا يدعوه الرجال كما يدعو بعضهم بعضاً برفع الصوت والنداء باسمه المجرد ، والواجب هو تكريمه ﷺ ونداءه بيارسول الله .وكان المنافقون يضيقون بتكريم رسول الله، ويكرهون أن يجتمعوا والمسلمين فى مجتمعاتهم العامة مثل الصلوات الجامعة كالجمعة والعيدين أو المواقف الجامعة كالحرب والجهاد لأنها تكشف نفاقهم وتفضح كراهيتهم للرسول وعدم ولائهم له . فنزلت «قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا» حتى لا يستمعوا إلى أوامر الرسول أو يكرهوا على تنفيذ ما لا يحبون منه .

تفسير سورة الفرقان

(١) « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً »

تعالى سبحانه وتقدست أسماؤه نزل القرآن على محمد ﷺ ليكون نذيراً للعالمين ، وسمى القرآن فرقاناً ، لأنه فرق بين الحق والباطل ، بين الظلام والنور ، ثم فرق للعباد فى الأحكام بين الحرام والحلال .

(٧) « وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً »

(٨) « أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً »

عجب المشركون والكفار أن يكون الرسول بشراً من البشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق إذ لم يكونوا يتصورونه كذلك ، وكانوا يقولون ألا ينزل معه ملك ليصدقه ، ويكون نذيراً معه ، أو يلقى إليه كنز من السماء نراه بأعيننا أو جنة يمتاز بها علينا ونراه وهو يأكل منها ، وإذا لم يفعل ذلك فهو ساحر ومسحور يفترى الأساطير، ويقول غير الحق . هكذا قالوا « فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » .

(١٠) « تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً »

روى سفيان عن حبيب بن أبى ثابت عن خيثمة قال : .

قيل للنبى ﷺ : إن شئت أن نعطيك خزائن الدنيا ومفاتيحها ، ولم يعط ذلك من قبلك ، ولا يعطاه من بعدك أحد ، وليس ذلك بناقصك فى الآخرة شيئاً ، وإن شئت جمعنا لك ذلك فى الآخرة . فقال « تجمع ذلك لى فى الآخرة » فنزلت هذه الآية .

(٢٠) « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً »

قال ابن عباس رضى الله عنه : لما عير المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة فى قولهم «مالهذا الرسول يأكل الطعام» حزن النبى ﷺ فنزلت هذه الآية تعزية له .

وفى الآية تأكيد بشرية الرسول وأنه يأكل الطعام ويمارس الحياة كما يمارسها الناس فيبيع ويشترى ويتجر ، ويسعى . وقوله « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة » توجيه للمؤمنين خاصة ، وللناس عامة ألا يفتتنوا بما يوجد فى أحوال الناس من تفاوت فلا يفتتن المبتلى بصحة المعافى ، ولا يفتتن القوى بهوان الضعيف ، ولا يفتتن الفقير بمال القوى وغناه وهكذا ، ولذا قال « أتصبرون » على الامتحان والابتلاء . وكان ربك بصيراً بعباده يبشر كلا لما يصلح له ويصلح به .

(٢١) « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً »

(٢٢) « يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً »

قال هؤلاء الكفار الذين كفروا بلقاء ربهم وكأنهم لا يرجونه فلم يخافوا عواقب تكذيبه والكفر به . قالوا لولا نزل علينا الملائكة رسلا يبلغونا عن الله بدل الرسل من البشر، أو أن نرى ربنا جهاراً فيخاطبنا هو بما يريد ، ولا رسل ، كبرت كلة من هؤلاء المستكبرين الذين أفحشوا فى الظلم وأوغلوا فى العناد والبغى ، لم يكفهم القرآن ، ولم ينفعهم دليل العقل ومعجزات الرسول فكيف يرجى أن يؤمنوا ، ولو جاءتهم الملائكة .

سيأتى اليوم الذى تتحقق فيه رغباتهم ويرون الملائكة ، لكنه يوم يكون على الكافرين عسيراً ، يوم تقول لهم الملائكة : لا بشرى لكم أيها المجرمون ، وحرام محرم عليكم أن تدخلوا الجنة أو تجدوا لها ريحاً . ثم يقضى رب السموات والأرض فيهم فيقول :

« وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً » .

(٢٤) « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً »

قال ابن مسعود رضى الله عنه « لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء فى الجنة وأولئك فى النار » . ومن حديث أبى سعيد الخدرى قال رسول الله ﷺ « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » فقلت : ما أطول هذا اليوم ، فقال النبى ﷺ « والذى نفسى بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا » .

(٢٧) « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً »

(٢٨) « يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا »

(٢٩) « لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا »

نزلت فى عقبة بن أبى معيط وصديقه أمية بن خلف الجمحى ، وكان قد صنع وليمة دعا إليها أشراف قريش ، ودعا رسول الله ﷺ فأبى حتى يسلم ، وكره عقبة أن يتأخر عن وليمته أحد أشراف قريش ، فأعلن إسلامه ، فأتاه الرسول وأكل من طعامه فعاتبه صديقه كيف دعا الرسول ، وأبى عليه إلا أن يبصق فى وجه الرسول ويشتمه ويقول له كيت وكيت ، فبصق المجرم الظالم فى وجه الرسول ﷺ فنزلت الآيات .

(٣٠) « وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا »

(٣١) « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا »

شكا الرسول ﷺ إلى ربه ، ما صنع به هؤلاء من جحود وكفر وإيذاء وهجران للقرآن ، فعزاه ربه بالآية الثانية يعلمه سبحانه أن له فى وجود هؤلاء الأعداء حكمة ، وهو بهم عليم ومنهم منتقم ، وروى أنهما نزلت فى أبى جهل عدو الرسول ﷺ .

(٣٢) « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا »

(٣٣) « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا »

لم يدر هؤلاء الكفار ماذا يقولون للنبى ﷺ فى أمر القرآن ، مرة يقولون : سحر وساحر ، ومرة يقولون : أساطير الأولين ، ومرة يقولون : إنه مقالة كاهن . وهنا يقولون : لماذا لم ينزل عليه القرآن جملة واحدة ؟ ولا فرق عندهم إن نزل جملة أو نزل تفصيلا لكنه العناد .

وحكمة الله فى تفصيل القرآن حسب المواقف والأحوال ، وبين كل زمن وزمن أن يكون رسول الله على صلة متصلة ، ويقوى بها عزمه ، ويجدد فى كل حين تأييده له وتثبيته لفؤاده .

(٣٨) « وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا »

واذكر يا محمد عاداً الذين كذبوا هوداً فأهلكناهم بالريح العقيم ، واذكر ثمودا الذين كذبوا صالحاً فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين .

وأصحاب الرس هم أصحاب بئر ، قيل جاءهم شعيب لما كذبوه انهارت بهم البئر وخسف الله بهم الأرض ،

وقيل أصحاب الرجل الذى قال فى سورة « يس » «يا قوم اتبعوا المرسلين » فقتلوه ورموه فى البئر ، وقيل غير هذا كثير .

(٤٥) « أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً »

(٤٦) « ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً »

ألم تر بعينيك ، أو ألم تعلم ، والظل الممدود هنا ، ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، يدل عليه أنه ليس من ساعة أطيب من تلك الساعة ، يجد فيها المريض والمسافر وكل ذى علة راحة ، وفيها تطيب نفوس الأحياء ، وترد نفوس الأموات وأرواحهم إلى أجسادهم ، وظل هذه الساعة أشبه شئ بنهار الجنة كما قال أبو العالية .

وقبضه : قيل بطلوع الشمس ، وقيل بغروبها فإذا غابت قبض الظل قبضاً خفيًّا كلما قبض جزء منه حل مكانه جزء من الظلمة .

(٥٣) « وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً »

سبحانه القادر،عاد إلى ذكر آثار قدرته ونعمه وفضله على عباده فذكر هنا قدرته وفضله فى أنه أجرى البحرين — النهر والبحر وغلب أحدهما — ليفيد منهما الإنسان هذا — النهر — عذب فرات حلو شديد العذوبة يشرب منه الإنسان والحيوان والنبات ، وبه تستقيم حياة كل حى . والآخر ملح أجاج شديد الملوحة لا يستساغ شراباً ولكنه مصدر ضخم لما يرتزق به الإنسان من صيد البحر وطعامه ، وطريق يسلكه الإنسان فى تجارته وعمله .

وشاء سبحانه أن يفصل بينهما ويجعل بينهما برزخاً وحاجزاً من قدرته لا يغلب واحد منهما الآخر ، ولايطغى عليه . وهكذا كانت طبيعة الأرض قال سبحانه « مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان » وقيل : المراد بحر السماء — يعنى المطر — والآخر بحر الأرض .

(٥٤) « وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً »

سبحانه جعل من الماء كل شىء حى ، والماء فى هذه الآية ماء النطفة خلق الله منها بشراً هو الإنسان فجعله نسبا وصهراً تقوى به الأصرة ، وتستحصد العلاقات وتمتزج الأسر ، ويصبح البعيد والقريب وكأنهما واحد .

(٥٩) « الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً »

يثبت الله فؤاد نبيه ويطمئنه حتى لا ييأس على من كذبوه ، وذلك بأن يتوكل على من خلق السموات والأرض، ومن يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، ومن سخر الشمس والقمر بحسبان، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون .

والأيام الستة : قيل من أيام الآخرة التى قال فيها « وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » . وقيل ستة أيام من أيام الدنيا .

وحكمة الخلق فى ستة أيام ـ مع أنه سبحانه القادر على أن يقول كن فيكون ـ هى أن يعلم عباده الروية والأناة ، والتثبت من الأمور ، وليظهر آثار قدرته يوماً بعد يوم فتكون للإيمان أدعى وآكد .

والاستواء على العرش ، وجمهور العلماء من المتقدمين والمتأخرين على تنزيه سبحانه عن المكان والزمان والجهة ، ومن شهور أقوالهم : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول . وهذا حسبنا .

(٦٠) « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً »

قالوا وما الرحمن ؟ ! إنكاراً وتعجباً أن يطالب إليهم السجود له . وكان مسيلمة الكذاب يسمى نفسه رحمن اليمامة . وعن سفيان الثورى رضى الله عنه كان يقول إذا قرأ هذه الآية : إلهى زادنى خضوعاً لك ما زاد أعداءك نفوراً .

(٦٣) « وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً »

أول سمات عباد الرحمن أنهم لا يتكبرون على الناس ، بل حلماء متواضعون ذوى سمت حسن ، وتؤدة ووقار ، قال عليه السلام « أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس فى الإيضاع[1] » .

« قالوا سلاما » : أى أعرضوا عن مبادلة الجهل بالجهل وترفعوا عن الجهلاء . وقيل هى خاصة بالأدب مع المسلمين ، أما المشركون ففى آية السيف ما يكفيهم .

(٦٤) « وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً »

والسمة الثانية « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

---

(١) السير المتسرع .

(٦٥) « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا »

(٦٦) « إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا »

والثالثة : أنهم — مع طاعتهم لربهم وخضوعهم له — يخافونه ويخشونه ، وكما يرجون رحمته يخافون عذابه ، فلا يظنون أن عمالهم منجيهم ، وإنما يلجأون إلى عفوه وغفرانه ورحمته أن ينجيهم من جهنم التى يخسر من تقضى عليه .

(٦٧) « وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا »

والرابعة : أنهم يعيشون فى حالة الاعتدال فى أمور المال ، لايبذرون فيكونون كإخوان الشياطين ، ولايقترون فيكونون كمن غلت أيديهم إلى أعناقهم . بل يتخذون سبيلا كان بين الإسراف والتقتير وسطاً وقواماً .

(٦٨) « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا »

فيها سمات ثلاث : هى إيمانهم بالله ربًّا واحداً لا شريك له ، وأنهم لا يقتلون النفس التى حرم الله اتقاء بأسه وعقابه ، وأنهم لا يخونون أمانات الله بالزنا ، لا يعملون من ذلك شيئاً وويل لمن يفعله . يلق الآثام فى الدنيا ، ويضاعف عذابا فى الآخرة ، وسئل الرسول ﷺ أى الذنب أكبر فقال : «أن تدعو لله ندا وهو خلقك» . قيل ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم » .

قيل : ثم أى ؟ قال « أن تزانى حليلة جارك » .

(٧٢) « وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا »

والصفة الثامنة ثم التاسعة أنهم يحافظون على حدود الله ويرعون حرمة الحق الذى أمر به فلا يعينون على باطل، ولا يشاركون فى منكر ، خاصة ما يضيع به حق العباد ويطغى به الظلمة مثل شهادة الزور . وقيل : بل لايشهدون مجالس اللهو والسكر وكل ما فيه إثم وتحريم .

ثم هم ذوى تعفف عما يسقط الكرامة ، أو يمس الدين ، وذوى عفة حتى حين يتحدثون إلى الناس فلا يفحشون فى القول ، وإذا أفحش معهم ، تسامو ، وتجاوزوا .

(٧٣) « وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا »

وهذه وهى السمة العاشرة أن قلوبهم دائماً عامرة بالله ، فإذا ذكرت آياته لم يلقوها بقلوب غلف وآذان صم وعيون عمى ، بل هم الذين «إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون» .

(٧٤) « وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا »

وختام السمات أنهم يعبدون ربهم ويذكرونه حين يدعونه ، يرجون منه خيرى الدنيا والآخرة ، فهم منقطعون بآمالهم كلها إليه ، ومعتمدون فى يومهم وفى غدهم عليه .

(٧٥) « أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا »

فى هذه الآية وما بعدها إلى آخر السورة بيان ما أعد الله سبحانه من ثواب لعباد الرحمن ، يجزون الدرجة الرفيعة فى الجنة بما قدموا من عمل ، ويخلدون فيها دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الشعراء

(١) « طسم »

(٢) « تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ »

(٣) « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ »

(٤) « إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ »

(٥) « وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ »

طسم : سبق الحديث عنه عند القول عم أوائل السور ، وعن ابن عباس : هى اسم من أسماء الله وهو قسم والمقسم عليه إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية ، وقال مجاهد . هو اسم من أسماء القرآن أقسم به .

والخطاب فى قوله « لعلك باخع نفسك » أى مهلكها وقاتلها الرسول ﷺ الذى كان حريصاً على أن يؤمن الناس برب العالمين فأمر أن لايأس عليهم ، إن عليه إلا البلاغ ، ولو شاء الله لأنزل عليهم آية حسية منظورة تخضع لها أعناقهم فيؤمنون مرغمين ، ولكن سبقت مشيئة الله أن يكون بالنظر والتدبر وإعمال العقل ، وهؤلاء ختم الله على قلوبهم وعلى عقولهم فلاتكاد تبصر ، وإن أبصرت ركبهم العناد فظلوا معرضين ، فما تفعل بهم ؟ !

(١٠) « وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ »

من هنا حتى آخر الآية الثامنة والستين يحكى القرآن فى تركيز قصة موسى عليه السلام وما لقيه من فرعون وقومه، حديث السحر والسحرة ، وخروجه ببنى إسرائيل ومجاوزتهم البحر وبعض قصة موسى عليه السلام مذكور فى سورة الأعراف وسيأتى إن شاء الله القول فيه فى سورة القصص فلينظر هناك ، ولينظر كذلك قصة موسى عليه السلام وقصص بنى إسرائيل فى المجلد الخامس من هذه الموسوعة .

(٦٩) « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ »

ومن هنا حتى آخر الآية الرابعة بعد المائة يحكى القرآن ما دار بين إبراهيم عليه السلام وقومه ، حول عبادتهم للأصنام ، وتقرير إبراهيم لهم أنها لا تنفع ولاتضر ، ورفضه مقالتهم أنهم كآبائهم يفعلون ، ثم إعلانه عداءه لكل ما عبدوا من دون الله رب العالمين الخالق الرازق ، الذى يمرض ويشفى ، ويطعم ويسقى ، ويحيى ويميت ، والذى

يتجه إليه الدعاء فيستجيب الدعاء ، والذى يقبل التوبة ويغفر الذنب والخطيئة . ثم يذكرهم بيوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، يذكرهم باليوم الذى يسألون فيه عما كانوا يعملون ، فلا يغنى عنهم ما أشركوا فيكبون فى النار على وجوههم هم والغاودون وجنود إبليس أجمعون وكيف يتبرأ الضالون من الضالين فى هذا اليوم، ويتمنى الضالون لو عادوا إلى الدنيا ليكفروا عن خطاياهم وأنى لهم ذلك !!

وقد سبق أن حكى القرآن بقية قصة إبراهيم فى سورة البقرة وفى الأنعام ، وإبراهيم والأنبياء والعنكبوت فذكر هناك دعوات إبراهيم ربه بأمان البيت الحرام وبأن يهبه الذرية الطيبة . ثم ذكر محاجته قومه فى عبادة الأصنام ، ومحاجته لمن حاجه فى ربه ، ثم ذكر سؤال إبراهيم لربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، واستجابة الله له ، ثم ذكر موقف قومه منه واعتزامهم أن يحرقوه بالنار وإنجاء الله إياه منها . فليراجع فى مواضعه . كما تراجع القصة مجملة فى المجلد الخامس من هذه الموسوعة .

(١٠٥) « كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ »

من هنا حتى الآية الثانية والعشرين تلخيص لقصة نوح عليه السلام ، وقد وردت فى قصته سورة كاملة كما ورد ذكره عليه السلام فى غير موضع من القرآن . وسيأتى إن شاء الله تفصيل قصته فى سورته فليراجع هناك ، كما يراجع ما كتب عنه فى المجلد الخامس من هذه الموسوعة .

(١٢٣) « كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ »

ومن هنا حتى آخر الآية الأربعين بعد المائة يحكى القرآن الكريم موقف قوم عاد من نبى الله هود عليه السلام ، حين دعاهم إلى توحيد الله وعبادته ، وكانوا معروفين بالشدة والبطش والجبروت ، فأنكروا دعوته فأهلكهم الله بذلك . وصار حديثهم مثلا وعبرة يضربها الله للناس فى سورة التوبة ، وإبراهيم ، والحج، ص ، غافر ، وفصلت ، وق ، والفجر . كما تكرر حديثهم فى سور : الأعراف ، وهود، والشعراء ، والأحقاف ، والذاريات ، والقمر ، والحاقة . ونقف إن شاء الله أمام القصة فى سورة القمر . فلينظر هناك ، كما ينظر ما كتب فى المجلد الخامس عن هود عليه السلام .

(١٤١) « كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ »

من هنا حتى الآية التاسعة والخمسين بعد المائة يلخص القرآن مادار بين نبى الله صالح عليه السلام وبين « ثمود » الذين يكاد ذكرهم يقترن فى كل حديث بقوم عاد ، وكيف أنكروا دعوتهم وسألوه الآية فآتاهم الله الناقة ، فعقروها ، فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية .

وقد ورد ذكرهم فى السور التى وردت من قبل فى قوم عاد . وسنقف إن شاء الله أمام حديثهم فى سورة القمر ، فلينظر هناك ، وينظر معه ما كتب عن صالح عليه السلام فى المجلد الخامس .

(١٦٠) « كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ »

من هذه الآية حتى الآية الخامسة والسبعين بعد المائة تلخيص لقصة لوط عليه السلام مع قومه وكيف كانوا يأتون الذكران من العالمين ، وإنكارهم نبوة لوط ، وكفرهم به وبما يدعو إليه ، وأخذ الله لهم بالعذاب ، وإنجاء لوط وقومه إلا امرأته .

وقد ذكرت القصة بتفاصيلها فى مجموع سور : هود ، والحجر ، والأنبياء ، والشعراء ، والنمل ، والعنكبوت وغيرها ، كما أصبح حديثهم مثلا وعبرة فى سور : الشعراء ، والنمل ، والصافات ، ص ، وسنقف إن شاء الله أمام ما ذكر من قصته فى سورة « القمر » . فلينظر هناك ، ولينظر كذلك ما كتب عن « لوط » عليه السلام فى المجلد الخامس من هذه الموسوعة .

(١٧٦) « كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ »

من هذه الآية حتى الآية الواحدة والتسعين بعد المائة يحكى القرآن قصة شعيب عليه السلام مع أصحاب الأيكة حين دعاهم إلى تقوى الله وطاعته . فقالوا : إنما أنت من المسحرين « وكذبوه فأخذهم العذاب » .

وحديث شعيب عليه السلام مذكور فى سور : « الأعراف ، هود ، والشعراء ، والعنكبوت » وسنقف إن شاء الله أمام قصته فى « العنكبوت » فلتراجع ، وليراجع كذلك ما كتب عن « شعيب » وعن « مدين » فى المجلد الخامس من الموسوعة .

(١٩٢) « وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ »
(١٩٣) « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ »
(١٩٤) « عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ »
(١٩٥) « بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ »
(١٩٦) « وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ »

بعد أن عرض سبحانه لقصص الأنبياء والمرسلين ، عاد كما بدأ فى أول السورة إلى الحديث عن موقف المشركين من الرسول ﷺ وإنكارهم لما جاء فأعاد التأكيد بأنه كتاب الله وتنزيله ، نزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام لإنذارهم وغيرهم باللسان العربى المبين الذى يعرفونه ويفهمونه حتى تكون لهم حجة ، ثم أكد أن

ذكر رسول الله ﷺ أو ذكر القرآن الكريم موجود وثابت فى زبر الأولين أى فى كتبهم (جمع زبور وهو الكتاب) .على نحو ما قال القرآن : « الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل » وقوله« مصدقاً لما معكم » إلى آخره .

(١٩٧) « أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ »

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أهل مكة بعثوا إلى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمد عليه السلام فقالوا : إن هذا لزمانه ، وإنا لنجد فى التوراة نعته وصفته ، فهلا أخذوا من ذلك عبرة لهم فآمنوا ، ولو نزلناه بغير لسانهم لاحتاوا وقالوا ما نفقه . ولكنها أعذار وأباطيل فمثل هؤلاء لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم يأخذهم بغتة فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهليهم يرجعون .

(٢١٠) « وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ »

(٢١١) « وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ »

(٢١٢) « إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ »

أكد الله أن القرآن تنزيله ، وهنا ينفى أنه من تنزيل الشياطين ، ولقد كانت الشياطين قبل البعثة المحمدية تسترق السمع ، فمنعت وعزلت،«فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً » .

(٢١٣) « فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ »

الخطاب هنا قيل موجه للرسول يوجهه إلى الكفار . وقيل خوطب هو والمقصود غيره . وأيا كان فالنهى عام عن اتخاذ إله مع الله .

(٢١٦) « فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ »

إن عليك إلا البلاغ ، فإنك لاتهدى من أحببت فدعهم وتوكل على الله يجازيهم بما يفترون ، ويتولى نصرك وتأييدك .

(٢٢١) « هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ »

من قبل نفى القرآن مقالتهم فقال « وما تنزلت به الشياطين » وفى هذه الآية وما بعدها أنبأهم القرآن بالذين تنزل عليهم الشياطين من الكهنة الأفاكين الذين يلقون أسماعهم إلى كذبة الشياطين .

(٢٢٤) « وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ »

من هنا حتى آخر السورة يتحدث فى أمر الشعراء فيقرر أن يتبعهم غاو وضال لأنهم يهيمون فى أودية الأوهام والأباطيل ، ولأنهم ينالون الأعراض ويستبيحون الحرم ، ويثيرون العصبيات والأحقاد ، وهذا هو الشعر المنهى عنه ، وعن اتباع أصحابه ، وقد نهى عمر بن الخطاب رضى الله عنه الحطيئة وغيره ، ونهي عمر بن عبد العزيز «عمر ابن أبى ربيعة » فانتهى ، ولم ينته « الأحوص » فنفاه ، وصادر شعره ، لخطره على الناس والأعراض .

أما شعر يذكر فيه الله ويدعو فيه صاحبه إلى خير أو حق ، أو يدفع به باطلا فلا نهى عنه بدليل استماع الرسول ﷺ إلى شعر أمية بن أبى الصلت بيتاً وراء بيت حتى استمع مائة ، وقال عليه السلام « كاد أمية أن يسلم » . واستمع الخلفاء الراشدون من الشعر ما فيه خير ، بل لقد روى أن أبا بكر رضى الله عنه أنشد الشعر فى رثاء الرسول . وبدليل إقرار الرسول عليه السلام لشعر حسان الذى كان ينافح به عن الإسلام ويدفع عن أعراض المسلمين .

ولذا كان الاستثناء فى موقعه حين قال : إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

تفسير سورة النمل

(١) « طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ »

فى هذه السورة ذكر لقصة موسى عليه السلام وبعض معجزاته ، ثم قصة داود وسليمان عليهما السلام ، وحديث الجن والطير ، وإسلام بلقيس ملكة سبأ ، ثم قصص صالح ولوط عليهما السلام ، هذا إلى مافى بدئها وختامها من بيان فضل القرآن وأثره ، وموقف المشركين منه .

ومن هذه الآية حتى نهاية الآية السادسة يؤكد الله سبحانه أن القرآن كتاب الله المبين يهتدى به المؤمنون الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويؤمنون بالآخرة .

(٧) « إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ »

من هذه الآية حتى نهاية الآية الرابعة عشرة يحكى القرآن قصة موسى عليه السلام وقد سبق أن ذكرنا فى سورة الشعراء عزمنا إن شاء الله على الوقوف أمام القصة فى موطنها من سورة القصص فلا حاجة إلى التكرار .

(١٥) « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ »

(١٦) « وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ »

جاء ذكرهما فى السورة وهما المؤيدان من الله بالملك والنبوة وسلطان العلم بعد ذكر موسى وما لقيه من فرعون الذى جحد وقومه آيات الله استكباراً فى الأرض وعلواً بغير الحق . فكأن الله سبحانه يقرن فى المكان بين نموذج الشر فى فرعون ونموذج الخير فى داود وسليمان ، أو بين صورة التكبر بغير الحق والتواضع مع الحق . تذكرة وعبرة .

وسليمان نبى الله بن داود نبى الله عليهما السلام ، وقد اختص الله سليمان بمعرفة لغات الطير ، ويروى عنه فى هذا من الروايات والأقاصيص ما لايكد يحصى . وورث أباه داود فى العلم والحكمة وفضائل النبوة . وبقية قصته مذكورة فى سورة (ص) .

(١٧) « وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ »

جمعوا لسليمان عليه السلام وتصف الروايات معسكره الذى كان يجتمع فيه جنوده صفات أعتقد أنها لا تخلو من الوضع والمبالغة وقوله « فهم يوزعون » يقودهم وينظمهم ، ويضبط سلوكهم قادة ، أو رؤساء يتولون ذلك .

(١٨) « حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »

(١٩) « فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ »

وادى النمل مكان مجتمعهم ، وما قيل فى تحديده من الروايات لا يطمأن إليه ، وكذا ما قيل عن الحديث الذى دار بين سليمان عليه السلام والنملة .

والثابت ما قررته الآية الكريمة أن النملة أمرت زميلاتها من النمل أن يبتعدوا عن طريق جند سليمان حتى لا تدوسهم أقدامهم فتحطمهم ، فلما سمعها سليمان عليه السلام تبسم ضاحكا من قولها . وروى إنه تبسم ضاحكا من احتراسها إذ قالت « وهم لا يشعرون » فكأنها أنصفت سليمان وجنوده وقررت أنهم لا يفعلون مثل ذلك عمداً لأنها عدول رفقاء بل ، وهم لا يشعرون .

(٢٠) « وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ »

(٢١) « لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ »

روى عن ابن عباس أنه سأل عن الهدهد ليعرف مقدار بعد الماء من وجه الأرض التى نزلها وجنوده ، وأن من مقدرة الهدهد أن ينفذ ببصره إلى باطن الأرض فيخبر بذلك فتأتى الجن فتنزع وجه الأرض وتخرج الماء .

فلما لم يجده قال : لأعذبنه بنتف ريشه كله أو ريش جناحيه ، أو ليأتينى بحجة بينة يبرر بها غيبته .

(٢٢) « فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ »

(٢٣) « إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ »

لكى يدافع الهدهد عن نفسه . أخبر سليمان عليه السلام بما لم يكن يعلم ، وأخذ يسرد له ما علم من قصة سبأ ؛ أهلها وملكتها بلقيس بنت شراحيل ، وعبادتهم الشمس وسجودهم لها وسبأ هى إحدى ممالك بلاد العرب الجنوبية فى اليمن ، وكانت معروفة بثرائها وخصبها ومن أشهر آثارها سد مأرب التاريخى الشهير .

(٢٧) « قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ »

(٢٨) « اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ »

أراد سليمان عليه السلام أن يختبر مدى صدق ما قاله الهدهد ، فأعطاه كتاباً إلى بلقيس ملكة سبأ وأمره بأن يوصله إليها وإلى قومها ، كما أمره بأن ينظر ما يفعلون حين يصلهم الكتاب .

(٢٩) « قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ »

روى الهدهد لسليمان عليه السلام ما فعلته بلقيس الملكة حين وصلها كتابه . إذ جمعت أشراف القوم وأصحاب المشورة عندها ثم أبلغتهم خبر الكتاب وقرأته عليهم ، ونصه مذكور في الآيات ، ثم طلبت إليهم أن يشيروا عليها بالرأى في كيفية الرد على هذا الخطاب .ا

قال الملأ وذوو المشورة لها : إننا أقوياء قادرون على القتال والحرب ، فاقطعى برأيك على هذا الأساس ولا تخافى.

فقالت بلقيس : مؤثرة اللين والمسالمة فى إن الملوك إذا دخلوا البلاد عنوة أفسدوها واستعبدوا أهلها وقررت إرسال هدية لسليمان عليه السلام لعل المودة معه تكون أسلم . فإن كان من أهل الدنيا فحسبه ذلك . وإن كان صاحب دين فلا بأس من اتباعه.

وأرسلت هديتها إلى سليمان عليه السلام ، وكان الهدهد قد أحاطه علماً بما علم فأعد لرسلها استقبالا حافلا جعلهم يشعرون أن ما جاءوا به من الهدايا لا يليق معه بسليمان . ثم إن سليمان عليه السلام رد هديتهم ، وقال: ما آتانى الله خير مما آتاكم ، فإما أن تسلموا وإما أتيتكم بجنود لا طاقة لكم بها .

ورضى الرسل ، وسأل سليمان رجاله والجيطين به أيكم يستطيع أن يأتينى عرشها . وكما روت الآيات استطاع الذى عنده علم من الكتاب . والذى يعلم اسم الله الأعظم فلا يسأل به إلا أعطى أن يأتيه به ، فشكر سليمان لربه على ما آتاه ، فلما وصلت بلقيس عنده — وكانت قد تركت عرشها فى بلادها — دهشت من ذلك خاصة وأنه قد أمرهم بأن يغيروا بعض معالمها وينكروه لها . فلما رأته عجبت بما رأت وعلمت أن ملكها هين بجانب ما أعطى الله لسليمان ، فآمنت بالله وأعلنت إسلامها مع سليمان لله رب العالمين .

(٤٥) « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ »

من هذه الآية حتى الآية الثالثة والخمسون يحكى القرآن قصة ثمود قوم صالح عليه السلام ، وقد عرضنا لذلك فى سورة الشعراء . وتفصل القول فيه فى سورة القمر إن شاء الله .

(٥٤) « وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ »

حتى الآية التاسعة والخمسون يحكى القرآن هنا قصة لوط عليه السلام وقومه ، والقول فيه سيكون إن شاء الله فى سورة القمر .

(٦٠) « أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ »

تبدأ بهذه مجموعة من التساؤلات يوجهها القرآن إلى أولئك الذين ينكرون وجود الله ، ويجحدون آياته فيسألهم هنا عمن خلق السموات والأرض ، ومن أنزل الماء لهم من السماء كى ينتفعوا به ، ويكون لهم منهم حدائق غناء يعجز الإنسان الكافر بل يعجز كل إنسان أن ينبت منها شجرة . . أإله مع الله فعل ذلك ؟ الجواب : لا ولكنهم يعدلون عن قول الحق إلى الباطل الذى يعيشون فيه .

ومثله : السؤال : عمن أرسى الأرض وجعلها مستقراً للانسان وسخر له فيها ماينفعه من أنهار وبحار . وماجعل فيها من سهول وجبال . أإله مع الله ؟ !

وسؤال آخر : عمن يلجأ إليه الإنسان فى حالات اضطراره وشدته فيكشف السوء عنه أإلهمع الله ؟ !

ثم : من الذى يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يسخر لكم الرياح مبشرات بالخير أإله مع الله ؟ !

وأخيراً : من يبدأ الخلق ومن يعيده ، ومن الخالق الرازق للانسان من السماء والأرض أإله مع الله ؟ !

إن كل هذا يؤكد — لو فكرت العقول ، وخلصت الأفئدة — أن الله موجود ، وأنه الذى يعلم غيب السموات والأرض ، وأنه وحده الجدير بالتقديس والعبادة . ومادام سبحانه قد تفرد بما سبق فهو المتفرد بالغيب ، ومايدرون أيان يبعثون ؟ !

(٦٦) « بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ »

تلاحق ادعاؤهم العلم بأمر الآخرة ، ومن أين هذا لهم وقد سبق أنه سبحانه العالم وحده بالغيب . إنهم فى شك لا يعرفون وجه الحق ، لا بل هم فى عماية عنه .

إن منكرى البعث من الكفار يستبعدون أن يعادوا أحياء بعد ما صاروا تراباً . غافلين عما حل بأمثالهم من منكرى البعث من عقاب وعذاب .

(٧٦) « إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ »

فيفصل — وما يفصل به هو الحق — بينهم فيما اختلفوا فيه حتى لعن بعضهم بعضاً ، وذلك بسبب تحريفهم للتوراة والإنجيل ، وكتمانهم ما عرفوا فيهما من الحق .

(٨٢) « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ »

فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاث إذا خرجن لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض » .

وفى تفصيل خروجها وكيفيته يروى أبو داود الطيالسى[1] فى مسنده عن حذيفة قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقال : « لها ثلاث خرجات من الدهر ، فتخرج فى أقصى البادية ، ولا يدخل القرية — يعنى مكة — ذكرها ؛ ثم تكمن زماناً طويلا ، ثم تخرج خرجة أخرى دون ذلك فيفشو ذكرها فى البادية ويدخل ذكرها القرية — يعنى مكة — ؛ قال رسول الله ﷺ ثم بينا الناس فى أعظم المساجد على الله حرمة ، خيرها وأكرمها على الله المسجد الحرام ، لم يرعهم إلا وهى ترغو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب ، فارفض الناس منها شتى ومعاً ، وثبت عصابة من المؤمنين عرفوا أنهم لن يعجزوا الله فبدأت بهم فجلت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدرى ، وولت فى الأرض لا يدركها ولا ينجو منها هارب ، حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول : يا فلان ، الآن تصلى . فتقبل عليه فتسمه فى وجهه ، ثم تنطلق ويشترك الناس فى الأموال ، ويصطلحون فى الأمصار ، يعرف المؤمن من الكافر حتى إن المؤمن يقول : يا كافر ، اقض حقى » .

وقيل : المراد بها كل ما يدب على الأرض من الأناس وغيرها ، والأقرب أن تكون إنساناً متكلما يناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم لينقطعوا ، فيهلك من هلك عن بينه ، ويحيا من حى عن بينه .

والمراد بوقوع القول : اقتراب القيامة ، ووجوب الغضب على الكافرين ، إما لفشو المنكر ، أو موت العلماء ، أو ذهاب العلم ، ورفع القرآن . .

وإذا وقع القول وقامت القيامة حشر الله من كل أمة من المكذبين والجاحدين طائفة هم قادتها وزعماؤها يساقون إلى الحساب فيبكتهم الله سبحانه قائلا أكذبتم بآياتى وأنكرتموها فماذا ترون اليوم ، ثم يقضى فيهم سبحانه القضاء العادل بسوقهم إلى النار فهم لا ينطقون .

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ ١٣ ص ٢٣٥ .

(٨٧) « وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ »

(٨٨) « وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ »

واذكر يا محمد يوم النفخ فى الصور وذكرهم بهذا اليوم الذى يفزع فيه من فى السموات ومن فى الأرض — إلا من شاء الله — ممن عناهم سبحانه بقوله : « من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون » .

واختلف فى عدد النفخات فى الصور : أثلاثا هى أم اثنتين . والصور : القرن أو البوق ، ويروى فى صفته ما قاله أبو هريرة أنه سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عنه فقال الرسول : « قرن والله عظيم ، والذى بعثنى بالحق إن أعظم دارة فيه كعرض السماء والأرض ، فينفخ فيه ثلاث نفخات الأولى : نفخة الفزع ، والثانية : نفخة الصعق ، والثالثة : نفخة البعث والقيام لرب العالمين » .

وفى قوله « وترى الجبال .. الآية » قال القشيرى أن المراد بهذا يوم القيامة ، وهو ما أرجحه أخذاً من قوله سبحانه فى سورة الطور : « يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيراً » وقوله فى سورة المعارج : « يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن » وقوله فى سورة النبأ : « يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجاً وفتحت السماء فكانت أبواباً وسيرت الجبال فكانت سراباً » وغيرها من الآيات مما يرجح أن يكون هذا يوم النفخ فى الصور . وعلى هذا تكون الآية متصلة بسابقتها مؤكدة لمعناها .

ويرى بعض العلماء أن المراد توجيه النظر إلى حالها فى الدنيا كأثر من آثار قدرة الله إذ المراد تقرير أن الجبال تتحرك مع الأرض فى دورانها اليومى ، لكن هذه الحركة لا تدرك . وهى دليل على مقدرة الله فى خلق هذا الكون وإبداع القوانين المنظمة على نحو لا يضطرب ولا يختل ، صنع الله الذى أتقن كل شىء .

(٩٣) « وَقُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ »

وفى ختام السورة يأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحمد الله على ما أنعم عليه بالنبوة والتأييد إنه سبحانه سيظهر لكم — بالعلم — فى الدنيا عن آثار قدرته فتهتدون إليها وتعرفونها ثم هو أعلم بكم وبما تفعلون ، فيجزيكم عليه فى الآخرة .

تفسير سورة القصص

(١) « طسٓمٓ »

(٢) « تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ »

(٣) « نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »

سميت سورة القصص لما تضمه من تفصيل لما سبق إجماله فى قصة موسى عليه السلام منذ ولادته ، ورعاية الله له ، وتربيته فى بيت فرعون الذى كان يذبح الأبناء ويستحيى النساء ، ثم بعثه وإرساله إلى فرعون وملئه ، وما حدث بينه وبين فرعون وسحرته وقومه ، ثم خروجه ببنى إسرائيل ومجاوزته بهم البحر وإغراق الله لفرعون وجحود بنى إسرائيل نعمة الله عليهم بعد خروجهم من مصر ، وما يتصل بهذا كله من أنباء .

(٤) « إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ »

هذه الآية كأنها تمهيد لتاليتها فهى تصور فى إيجاز حالة المجتمع الذى ولد موسى عليه السلام فيه ، وكان فرعون فيه رمز التجبر والبطش والاستعلاء على العباد ، ولما أخبره الكهنة أن مولوداً سيولد من بنى إسرائيل يكون على يده ذهاب ملكه — أو لعله رأى رؤيا بذلك — فقرر أن يذبح جميع الصبيان ، ويستبقى النساء منهم ، كما استبد ببنى إسرائيل فسخرهم طوائف للعمل .

وكانت إرادة الله سبحانه أن يمن على هؤلاء المستضعفين فى الأرض فينقذهم من فرعون وعمله ويجعل منهم دعاة خير بمقدار ما أوتوا من الأمر ، ويظهر لفرعون وهامان وجنودهما أن حذرهم لا يمنع قدر الله ، وأن التجبر فى أرض الله مآله البوار والخيبة .

وكان من سخرية الله بفرعون وكيده أن « الولد » الذى خافه وقتل الأبناء من أجله ، يربى وينمو تحت سمع فرعون وبصره ، بل وبحيطته ورعايته .

(٧) « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ »

ولينفذ الله مشيئته فقد أوحى إلى أم موسى أن ترضعه مطمئنة عليه ، فإذا خافت عليه صنعت له صندوقاً وألقته في اليم ، « ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » .

(٨) « فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ »

(٩) « وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »

وأعدت أم موسى ما ألهمها به المولى سبحانه وألقته في اليمّ ، فالتقطه آل فرعون وما يشعرون أنهم يلتقطون من يعاديهم ويحزنهم ، ومن سيكون ضياع ملكهم على يده وحق لله أن يفعل بهم ذلك لأنهم كانوا عصاة خاطئين .

ويروى أن امرأة فرعون وكان اسمها « آسيا » رأت التابوت يعوم في البحر فأمرت بالتقاطه وفتحه ، فلما رأت الصبي ألقى الله في قلبها محبته فقالت لفرعون : هبه لي ولا تقتله ، فوهبها إياه .

(١٠) « وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »

ما أروع إعجاز القرآن في بيانه هنا عن حال أم موسى ، ألقت وليدها في اليم وما تدرى أي الخطرين يسبق إليه قبل صاحبه ، خطر المياه تنساب إليه فتهلكه غريقاً ، وخطر آل فرعون يعثرون به فيهلكونه بالذبح ، وبين الخطرين لا يبدو لها في النجاة أمل ، وهي أم لا تطيق أن تسكت لأن الصمت على ذلك فوق ما تحتمل ، ولا تطيق أن تتكلم لأن الكلام منها يعجل الفاجعة ولم تكن تدرى أن الذى أوحى إليها بما فعلت قد حفظ الوليد من اليم ، وأنجاه من فرعون بأيدى آل فرعون .

ومن ثم بعثت أخته — في صمت — تتقصى خبره ، وتقتفى أثره ، فبصرت به في بيت آل فرعون ، فكان ما عرفته الأم أخوف لها مما لم تكن تعرف .

(١٢) « وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ »

(١٣) « فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »

وتمضى مشيئة الله تعالى إلى غايتها فتلقى على الطفل كراهية كلِّ مرضع ، فيحارون فى أمره فتدلهم أخته على أهل بيت يكفلونه ، فيشكون فى أمرها فتقول : إنهم ناصحون للملك مخلصون له لما يعلمون من حرص آل فرعون على تربية هذا الطفل .

فيردونه إلى أمه تصديقاً لما قال سبحانه من قبل « إنا رادوه إليك » ، ولتعلم أن وعد الله حق.

(١٥) « وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ »

(١٦) « قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »

(١٧) « قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ »

وبلغ موسى أشده وآتاه الله العلم والحكمة ، وكان قد اختلف مع فرعون وغاب عن المدينة زمناً ، ثم دخلها على حين غفلة من أهلها — قيل : فى يوم عيد — فوجد فيها رجلين يقتتلان : أحدهما من شيعته من بنى إسرائيل ، والثانى من قوم فرعون ، فاستغاثه الإسرائيلى على المصرى ، فوكزه موسى بقبضة يده فقتله خطأ ومن غير عمد .

وشعر موسى بالندم على ما حدث . فأفاق إلى أنه تأثر بغواية الشيطان فتضرع إلى ربه أن يغفر له ما أساء ، فاستجاب الله له فغفر له . فشكر موسى لربه وقال يا رب بما أنعمت على فى الأولى وفى الأخيرة بما حميتنى من فرعون وقومه ، وبما قبلت توبتى وضراعتى أعاهدك أنى لن أكون نصيراً للظالمين ، ولا عوناً للكافرين .

(١٨) « فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ »

لما قتل موسى المصرى وتحدث بها الناس خشى على نفسه أن يعرف مكانه فبات يمشى فى المدينة على حذر مخافة أن يفطن الناس إليه فيؤذوه ، وحدث أن الرجل الإسرائيلى نفسه الذى أعانه موسى من قبل استغاث به ثانية على رجل من المصريين ، فكره موسى ذلك منه ، وأنكر عليه كثرة منازعاته ، وقال له : إنك لغوى كثير الشر والتأثر بالشيطان حيث عدت لمثل ما كان منك .

وهمّ موسى — مع ذلك — أن يبطش بالمصرى ؟ فقال المصرى — وقد توقع من موسى أن يقتله — أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس ؟ أما تريد إلا أن تكون مفسداً فى الأرض ، ولا تكون من المصلحين بين الناس ؟!

وذاع أمر موسى وعرفت حكاية قتله المصرى ، ويقال إن فرعون علم بها فأمر بقتله ، فجاءه رجل — قيل

ابن عمّ فرعون — وكان مؤمناً أشفق على موسى مما يراد به فأخبره باعتزامهم قتله ، وطلب إليه مغادرة مصر .

فخرج منها خائفاً يترقب ، ويسأل الله النجاة من القوم ، وكان فرعون قد أرسل في طلبه ، فتوجه موسى عليه السلام ناحية « مدين » مكان ملكها غير فرعون ، وكانت بين قومها وبين آل موسى صلة ، ولم يكن موسى يعرف الطريق إليها فسأل ربه أن يهديه .

قالوا : فألهمه الله ، أو فبعث إليه من الملائكة من هداه الطريق إليها .

(٢٣) « وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ »

وحين وصل موسى إلى مكان الماء الذى يستقى منه أهل مدين وجد عليه جمعاً كثيراً يستقى ، ووجد من دون هذا الجمع امرأتين تحبسان غنمهما حتى لا تختلطا بغنم الآخرين الذين ازدحموا على الماء فسألهما موسى وقد رأى اضطرابهما وعجزهما عن حبس الغنم وعن مزاحمة القوم : ما خطبكما ؟

قالتا : لا نستطيع أن نسقى حتى ينتهى الرجال ، وما لنا رجل إلا أب شيخ كبير لا يقوى على المزاحمة .

تقول الرواية : إن موسى زاحم الناس فغلبهم فسقى لهما ، وقيل بل إنهما دلتاه على بئر كانت مغطاة وكان الناس ينصرفون عنها لثقل غطائها الذى لا يكاد يرفعه إلا عشرة رجال ، فرفع موسى الغطاء وحده وسقى للمرأتين ، وهذا سبب وصف إحداهما له بالقوة حين حدثت أباها عنه فيما بعد .

وبعد ما سقى لهما مال إلى مكان ظليل فجلس فيه يسأل ربه الخير ، وكان لم يذق طعاماً فى سفره الطويل ، ولم يذق راحة حتى قيل إن خُفَّ قدميه أو أن باطن قدميه نفسهما قد سقط منه ، من طول السفر .

(٢٥) « فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »

أخبرت المرأتان أباهما بما رأتا من أمر موسى فبعث بإحداهما إليه تدعوه فجاءته قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا . وتقول الرواية إن موسى عليه السلام سار من خلفها فهبت الريح فألصقت ثوبها بجسدها فكره موسى أن ينظر إليها فسار أمامها وطلب إليها أن ترشده ، ومن هنا كان وصفها له بالأمانة فيما بعد .

فلما وصل إلى أبيها — شعيب عليه السلام فى أرجح الروايات — أحسن إليه وأطعمه وسقاه ، وقال « لا تخف نجوت » فلا سلطان فى هذه الأرض للقوم الظالمين فرعون وقومه .

واقترحت إحدى الرأتين على أبيها أن يستأجره لقوته وأمانته فعرض عليه - شعيب عليه السلام — ذلك قائلا : إنى أريد أن أزوجك إحدى ابنتى على أن تعمل معنا ثمانى سنوات — تكون مهراً لها — فإذا تطوعت وعملت عشر سنين فهذا من فضلك ، وما أريد أن أشق عليك وستجدنى من الصالحين فى المعاملة وحسن العشرة .

وقَـبِلَ موسى ما عرض عليه وآثره ، واستشهد الله وجعله شاهداً ووكيلا على ما قال وتعهد .

(٢٩) « فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّى آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ »

يروى أن ابن عباس رضى الله عنه سئل : أى الأجلين قضى موسى : ثمانى سنوات أو عشراً ؟ فقال : بل أكملهما وأوفاهما .

وخرج موسى وزوجه بعد انتهاء المدة ، يتجهان إلى مصر ، وفى طريقه من ناحية جبل الطور فى سيناء رأى ناراً فقال لمن معه :

انتظروا حتى آتى هذه النار فأعرف خبرها لعلها نارُ قوم نجد عندهم بعض حاجتنا ، أو لعلى آتيكم بشىء منها تستدفئون به .

(٣٠) « فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَامُوسَى إِنِّى أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »

لما جاء موسى إلى مكان النار ناداه الله سبحانه — على كيفية يحسن التوقف فيها — يا موسى : إنى أنا الله رب العالمين .

ويروى أن موسى عليه السلام قال فى هذا : « سمعت كلام ربى بجميع جوارحى ولم أسمعه من جهة واحدة من جهاتى » .

ثم أمره الله سبحانه : أن يلقى عصاه ، فألقاها ، فإذا هى تهتز — على صورة الحية — كأنها جانٌّ ، خاف منها وولى مدبراً ، فأمره الله أن يعود بلا خوف .

قال وهب : قيل له ارجع حيث كنت ، فرجع فلف ثوبه على يده ليمسك به العصا ، فقال له الملك : أتظن هذا ينجيك من قدر الله لو أراد بك شيئاً ؟ قال : لا ، ولكنى ضعيف ، وخلقت من ضعف ، ثم كشف يده فأمسك بها الحية فعادت كما كانت عصا .

(٣٢) « اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ »

ثم أمره الله أن يدخل يده فى طوق ثوبه وستخرج شديدة البياض من غير أذى ولا مرض ؛ فإذا رأيتها كذلك فلا تفزع ، فهذه والعصا معجزتان لك من ربك ، تمضى بهما إلى فرعون وقومه .

ولما كان موسى عليه السلام — يعرف بطش فرعون وقد عانى منه ، قال لربه ــ وربه به أعلم ــ : إنى قتلت منهم نفساً وأخافهم على نفسى وحيث لا مرد لأمرك فأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ظهيراً لى يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون . فاستجاب الله له وقال سنشد عضدك بأخيك ، ونؤيدكما بسلطاننا فلا ينال فرعون وقومه منكما شيئاً ، وقد سبقت إرادتى أنكما ومن اتبعكما على الحق غالبون .

ويحكى القرآن الكريم فى سورة « طه » : تفصيل ما دار بين موسى وبين فرعون الذى سأله : من ربكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى » . قال فرعون : « أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى » ؟ « فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى » ، « قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى » .

ويمضى القرآن فى السورة نفسها ، فيقص ما حدث من جمع فرعون لسحرته وإغرائه لهم على أن ينتصروا ، واجتماع السحرة بموسى وإلقائهم بسحرهم الذى خافه موسى أول الأمر لما ظهر من إتقانه ثم أمر الله له بإلقاء العصا التى ابتلعت كل ما صنعوا ، مما جعل السحرة يسجدون لموسى ، معترفين بنبوته مؤمنين بربه .

فغضب فرعون وهددهم بالبطش وتقطيع الأيدى والأرجل من خلاف ، وبالصلب فى جذوع النخل ، « ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى » .

(٤٠) « فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ »

استكبر فرعون والملأ من قومه أن يؤمنوا ، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام أن يسرى بعباده ليلا ويعبر بهم البحر ، بعد أن يضربه بعصاه فترتفع مياهه على الجانبين ويصبح الطريق يبساً ، لا خوف منه ، ولا خوف كذلك من أن يدركه فرعون وقومه .

وخرج موسى بقومه ، ثم خرج فرعون وجنوده فى إثرهم ، فلما توسطوا الطريق أطبق الله عليهم مياه البحر فأغرقوا وأضل فرعون قومه وما هدى .

(٤٤) « وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ »

[في هذه الآية ، وفي الآيتين بعدها يذكر القرآن فضل المولى سبحانه على رسوله محمد ﷺ فيقرر أن ماساقه من قصة موسى عليه السلام لم يكن الرسول شاهدها ، ولا أحد من قومه كي يخبروه بها ، وإخبار الرسول ﷺ بها دليل أن القرآن الذي بين يديه إن هو إلا وحيٌ يوحى بدليل هذا الإخبار عن أمور لم يكن لهم بها علم .

ولولا إرادة الله أن يسقط حجة المحتج ، ويبطل اعتراض المعترض من الكفار ما كانت الرسالات ولا أرسل الله الرسل .

(٥١) « وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »

(٥٢) « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ »

(٥٣) « وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ »

(٥٤) « أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ »

أبلغناهم ما أردناه عن طريق الوحي المتتابع لعلهم يتذكرون ، وكان جديراً بهم أن يتذكروا كما تذكر من قبلهم من أهل الكتاب الذين يجدون فيه ذكر محمد ﷺ فيؤمنون به ، وإذا يتلى عليهم القرآن يقولون : آمنا به ، فالتوراة والإنجيل والقرآن كل من عند ربنا .

فهؤلاء الذين آمنوا بالقرآن ، وآمنوا بما أنزل من قبل لهم أجرهم مرتين أجر الإيمان بما أنزل إليهم ، وأجر الإيمان والتصديق بمحمد ﷺ .

(٥٧) « وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »

(٥٨) « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ »

تعلل المشركون بامتناعهم عن الإسلام وبقائهم على الكفر بدعوى أنهم لو أسلموا لآذاهم العرب ، ولحرموهم أرزاقهم وأخافوهم وأخرجوهم من ديارهم .

ويعجب القرآن من هذا المنطق فيسألهم : ألم يمكن الله لهم في هذه الأرض الحرم الآمن الذي يرزق الله أهله من كل الثمرات والذي جعله أمنا وأماناً لمن دخله ، لا تقتل فيه نفس ولا يصاد عنده وحش ولا طير !!

وحق لو كان الأمر كذلك فهل يترك للمتدون والظالمون دون عقاب، أولم يهلك الله من قبل كل من افتروا على الله الكذب فكم من قرية بطرت معيشتها أهلكها الله ،وتركت ديارها خراباً لاتجد من يسكنها وكان وارثها هو الله .

(٦٥) « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ »

(٦٦) « فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ »

يذكرهم الله سبحانه باليوم الذى يجتمعون فيه بين يدى الله فيسألهم : بماذا أجبتم رسلى ؟ فلا يكادون يدرون ما يقولون وعميت عليهم الأنباء ، فلا يسأل واحد صاحبه إذ الكل فى العجز عن الجواب سواء .

(٦٨) « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ »

سبحانه يختار للرسالة من يشاء ، ويصطفى من عباده من يشاء ماكان لهم الخيرة من أمرهم حتى يرشحوا للرسالة رجالا من أغنياء قومهم وذوى الوجاهة فيهم ، وما كان لهم الخيرة من أمرهم حتى يقولوا : لولا أنزل علينا ملك ؟ أو لو كانت للرسول جنة أو لو كان له كذا وكذا من باطل الأوهام وغرور الأمانى ، وسبحان الله عما يشركون .

(٧١) « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ »

فى هذه الآية والآيتين بعدها يطرح القرآن أسئلة التقرير والتحدى، ولتحريك العقول النائمة ، والقلوب الصم، فيسألهم سبحانه ــ وهو بما يسأل عنه أعلم ــ : لو جعل الله عليكم الليل دائماً أبداً فمن من شركائكم كان سيأتيكم بنهار تسعون وتعملون فيه ؟

ولو جعل عليكم النهار دائماً وأبداً من كان سيأتيكم بليل لتسكنوا فيه .

أو ليس من رحمته بكم أن زاوج بين الليل والنهار ، يتم بهما نظام الكون وتستقيم بهما الحياة ، ولو اختل النظام لفسدت الأرض .

أليس كل ذلك داعياً إلى اليقين وإلى الإيمان ؟!

(٧٦) « إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ »

(٧٧) « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ »

(٧٨) « قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ »

(٧٩) « فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ »

(٨٠) « وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ »

(٨١) « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ »

(٨٢) « وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ »

كان قارون من قوم موسى ، وتقول بعض الروايات إنه كان عمه ، ولكنه حسده وأخاه هارون لما آتاهما الله من النبوة والحكمة فقال وماذا بقي لي ؟ فكان ذلك الحسد سبب هلاكه وبغيه .

ويقال : إن فرعون ولاه عملا له فتكبر وبغى وجعل أكبر همه أن يجمع المال ، وقد استدرجه الله بهذا المال فأعطاه من الكنوز ما كانت المجموعة القوية من الرجال تعجز أن تحمل مفاتحه .

وكان فرحاً بالمال مخموراً به يطيل ثيابه ويمشي في الأرض مختالا فرحاً ، ويزيد على هذا أنه لا يؤدي في ماله حق الله فإذا نصحه الناصحون امتنع وقال : وما حق الله أهو الذي أعطانيه ، لقد أوتيته بعلمي ومقدرتي ، ونسي أن الله قادر على أن يخسف به وبماله وبكل ما جمع .

وكانت زينة قارون حين يخرج — على ما تقول الروايات — أكبر من أن توصف مما بهر طلاب الدنيا من قومه فقالوا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون ، وظن هؤلاء أن الظفر بالدنيا — وحدها — هو الظفر بالحظ العظيم .

أما الذين أوتوا العلم ممن يستيقنون بأن ما عند الله خير وأبقى فقد نبهوا الآخرين لذلك ، وقالوا لهم : ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً .

ولما أمر موسى — بإذن ربه — الأرض فابتلعت قارون قالت بنو إسرائيل ، إنما أهلكه ليرث ماله ، لأنه عمه — كما روينا قبل — فخسف الله تعالى به وبداره الأرض وبجميع أمواله كذلك ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين .

وأسقط فى أيدى الذين كانوا بالأمس يتمنون مكانه ، وشعروا بالحسرة ، والندم ، ثم أخذوا يشكرون الله أن هداهم للإيمان ، ومن عليهم إذ لم يمتحنهم بإجابة ما طلبوه وتمنوه أن يكونوا مثل قارون ، ولو ابتلاهم بذلك لقوا مثل مصير قارون .

(٨٥) « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ »

كما بدأت السورة حديثاً عن القرآن تنتهى كذلك حديثاً عنه وعن رسوله كذلك ، فالخطاب فى الآية موجه إلى الرسول ﷺ أن يقول للكافرين : إن ربى أعلم بمن اهتدى ومن ضل .

(٨٦) « وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ »

والخطاب هنا كذلك للرسول وموجه فى عمومه إلى من اتبعه ؛ يقول الله له : ما كنت ترجو أو تأمل أن يلقى إليك القرآن ، ولكن رحمة الله شملتك فنزل عليك ، فلتشكر هذه النعمة بما هى أهل له ، ولا تكن ومن اتبعك معيناً للكافرين . واحذرهم أن يصدوك ومن اتبعك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك . وامض على طريق الدعوة إلى الله ولا تكن من المشركين .

(٨٨) « وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »

لا تعبد سواه ، فما سواه هالك . كل شىء هالك إلا الله . سبحانه له الحكم فى أمركم أحسنتم أم أسأتم ، وإليه ترجعون لتجدوا عنده الجزاء .

تفسير سورة العنكبوت

(١) « الٓمٓ »

مفتتح هذه السورة حديث عن ابتلاء الله لعباده حتى يمحص إيمانهم ثم يأتى بعد : وصية الإنسان بوالديه ، ثم حديث عن أنبياء الله نوح وإبراهيم ولوط ، وقوم شعيب ، وهود وعاد وثمود ، وحديث عن موسى وفرعون ثم يعقبه حديث عن أهل الكتاب وموقفهم من النبى ﷺ والأمر بمجادلتهم بالتى هى أحسن ، ثم حديث عن العقاب والثوبة ، وحديث عن الإنسان ، كيف يعرف ربه فى الشدة ، فإذا كشفها عنه أعرض ونأى بجانبه .

(٢) « أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ »

روى أنها نزلت فى أناس بمكة كانوا قد أقروا بالإسلام ، فكتب إليهم أصحاب النبى ﷺ من المدينة : إنه لا إسلام حتى تهاجروا، فخرجوا فاتبعهم المشركون فآذوهم، فنزلت هذه الآية وكتب إليهم أصحابهم أن قد نزلت فيكم آية كذا وكذا ،فقالوا : نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه فخرجوا ، فاتبعهم المشركون فقاتلوهم فمنهم من قتل ، ومنهم من نجا فأنزل الله تعالى فيهم « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا » .

وروى أنها نزلت فى مهجع ، مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان أول قتيل يوم بدر ، رماه عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله ، فقال النبى ﷺ : سيد الشهداء مهجع ، وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة ، فجزع عليه أبواه وامرأته ، فأنزل الله هذه الآية مخبراً إنه لا بد لهم من البلاء والامتحان فى الله ليميز الله الخبيث من الطيب .

ومع خصوصية سبب النزول فإن الآية — كما يقول ابن عطية — «باقية فى أمة محمد ﷺ ، ثابتٌ ومستمرٌ حكمها أبد الدهر ، وذلك أن الفتنة باقية فى ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو ، وغير ذلك » ولذا يكون للاختبار والابتلاء مكانه .

(٣) « وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ »

روى البخارى عن خباب بن الأرت قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة فقلنا له :

ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال :

« قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار ، فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد لحمه وعظامه ، فما يصرفه ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله ، والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » .

« وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : دخلت على النبى ﷺ وهو يوعك ، فوضعت يدى عليه ، فوجدت حرة بين يدى فوق اللحاف ، فقلت :

يا رسول الله : ما أشدها عليك . قال : « انا كذلك ، يضعف لنا البلاء ويضعف لنا الأجر » .

قلت يا رسول الله : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء .

قلت : ثم من ؟ قال : الصالحون . أن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يحوبها[1] ، وأن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء .

وروى سعد بن أبى وقاص قال : قلت يا رسول الله أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل من أمتى ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على حسب دينه فما يبرح البلاء العبد حتى يتركه يمشى على الأرض بلا خطيئة .

(٤) « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ »

لقد وهم المشركون العصاة أن بوسعهم أن يفلتوا منا ومن عقابنا . ما أضلهم ، وساء ما يحكمون لأن لكل عمل جزاءه .

(٨) « وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ »

وفى غير هذا الموضع قال : وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً » .

ويروى أن هذه الآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، وذلك أنه لما أسلم قالت له أمه حمنة : يا سعد بلغنى أنك صبأت ، فلا يظلنى وإياك سقف بيت ، ولا آكل ولا أشرب حتى تكفر بمحمد وترجع إلى ما كنت عليه .

(١) كما فى الجامع الصغير وكل شىء قطع وسطه فهو مجوب .

وكان سعد أحب ولدها إليها ، فصبرت أياماً ثلاثة لم تأكل ولم تشرب ، ولم تستظل بظل حتى خشى عليها ، فأتى سعد النبى ﷺ فأخبره بأمرها .

فأنزل الله هذه الآية ، والتى فى « لقمان » والتى فى « الأحقاف » .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنه قال إنها نزلت فى جميع الأمة ، إذ لا يصبر على بلاء الله إلا صديق .

(١٠) « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ. أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ »

(١١) « وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ »

قال الضحاك : نزلت فى أناس من المنافقين بمكة كانوا يعلنون الإيمان فإذا لحقهم أذى فى الله عادوا إلى الشرك .

وعن ابن عباس : أنها نزلت فى المؤمنين الذين أخرجهم المشركون عن الدين فارتدوا وهم الذين نزلت فيهم « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم . . . الآية » .

والابتلاء لا بد منه ليميز الله الخبيث من الطيب ، وليعلم الله الذين آمنوا ويعلم المنافقين . أى ليكشفهم ويفضحهم فهو بهم أعلم .

(١٢) « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ. وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ »

(١٣) « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ »

قال المشركون مقالتهم هذه على أساس كفرهم بالآخرة وإيمانهم بأن ليس هناك بعث ولا حساب ، فهم يقولون لهم: اتبعوا سبيلنا وإن كان ثمة حساب فنحن مسئولون عنه لأنا على يقين أنه لا حساب .

ولذا كان رد القرآن فى الآية الثانية تأكيداً البعث والحساب ، وتأكيداً آخر بأن هؤلاء المشركين سيحملون أوزارهم الخاصة بكفرهم ، ثم يحملون معها أوزار الضلال الذى ينشرونه ، وأوزار من يتسببون فى إضلالهم على نحو ما روى الحسن عن الرسول ﷺ قال :

« من دعا إلى هدى فاتبع عليه وعمل به ، فله مثل أجور من اتبعه ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، وأيما داع إلى ضلالة فاتبع عليها وعمل بها بعده فعليه مثل أوزار من عمل بها ممن اتبعه لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً » .

ثم قرأ الحسن : « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم » .

(١٤) « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ »

فى هذه الآية وتاليتها تركيز لقصة نوح عليه السلام ، وموعدنا بتفصيلها فى سورة « نوح » إن شاء الله .

(١٦) « وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ »

من هذه الآية حتى نهاية الآية السابعة والعشرين يعيد القرآن ذكر إبراهيم عليه السلام فى دعوته إياهم إلى عبادة الله وتقواه ، وكيف بين لهم — عليه السلام — أن هذه الأوثان التى يعبدونها من دون الله إفك وباطل ، وأنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تملك لعابديها رزقاً من دون الله الخالق الرازق ، فكيف بالمشركين يدعون رازقهم ويشكرون لغيره .

وتمضى الآيات فى بيان ما قاله إبراهيم عليه السلام لهم وكيف دعاهم إلى النظر فيا حولهم من الكون ، وفيا سبقهم من أخبار الأولين ، فذلك لا بد — متى تدبروا — أن يهديهم إلى الله ، الذى هم راجعون لا محالة إليه ، ومحاسبون عنده ، ضلوا أم اهتدوا .

وليس الكفار أو المشركين بمعجزين لله فى الأرض أن يخسفها بهم أو ينزل عليهم من السماء عذاباً يخزيهم بما كسبوا .

ومن عجيب أمر هؤلاء المشركين الذى سجله القرآن أنه بعد هذا البيان الواضح ، وبعد هذه الحجج المستقيمة يكون ردهم على إبراهيم عليه السلام أن يأمروا بتحريقه فى النار انتصاراً للأباطيل والأصنام ، التى لن تنفعهم لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ،

(٢٨) « وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ »

من هذه الآية حتى نهاية الآية الخامسة والثلاثين يعيد القرآن ذكر لوط عليه السلام ، فيسجل هنا إيمانه بإبراهيم وبما جاء به ، وقوله « إنى مهاجراً إلى ربى » عن هذه الأضاليل التى يدعون إليها ويعبدونها .

ثم : كيف أنكر عليه السلام على قومه تلك الفاحشة التى بدأوها ولم يكن قد سبقهم بها أحد وهى إتيانهم الذكران وهجرهم النساء .

وكيف نبههم إلى ما فى هذا من شر ، وما يجره عليهم من عقاب وخزى فأبوا إلا البقاء على ما هم عليه .

وفى غير هذه السورة رأينا كيف هموا برسل الله إذ جاءوه يريدون بهم الفاحشة رافضين قول لوط عليه السلام

« هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزونى فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد » .

لم يكن منهم بعد هذا إلا الاستمرار فى الغى ، وتحدى لوط أن يأتيهم بعذاب الله ، فلم يسعه إلا أن يسأل ربه أن ينصره منهم .

وقد استجاب الله له ، وجاءت رسل الله بإهلاكهم فنزلوا ضيفاً على إبراهيم عليه السلام — كما ورد فى غير هذه السورة — ثم أنفذوا أمر الله بإهلاك قوم لوط .

(٣٦) « وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ »

فى هذه الآية وما بعدها حتى ختام الآية الأربعين يلخص القرآن ذكر شعيب عليه السلام مع قومه من أهل مدين ، وذكر عاد وثمود مع نبى الله هود ، ونبى الله صالح عليهما السلام .

ثم يلخص ذكر فرعون وهامان وقارون وما كان من أمرهم مع موسى عليه السلام ويختم هذا الذكر ببيان حكم الله فيهم ، وكيف أخذ سبحانه كل أمة من هذه الأمم بالعقاب الذى قدر له : « فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

(٤١) « مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »

شبه الله سبحانه حال الكافرين الذين يتخذون من دون الله أولياء ؛ شبههم فى ضعفهم وهوان أمرهم عليه ، بالعنكبوت تتخذ بيتاً تظنه مانعها وحاميها من الشر والخطر ، « وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

(٤٦) « وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »

هذا هو الأصل فى الدعوة إلى الله مع الناس عامة ، وهى هنا مع أهل الكتاب خاصة « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » .

وقولوا لأهل الكتاب إن بيننا وبينكم من الوشائج والروابط ما يدعوكم إلى التوحيد ، فنحن نؤمن بما أنزل عليكم وبأنبيائكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، فكيف لا تسلمون .

(٤٨) « وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ »

وإن ذكرك لأهل الكتاب ما يعرفونه وزيادتك عليه ما لم يكونوا يعرفون لدليل على أن ما تدعوهم إليه هو الحق من عند الله ، كما أن اتصافك بالأمية دليل أكبر على أنك براء مما يفترون ، وعلى أن الكتاب حق وآيات من عند الله بينات .

(٥١) « أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »

روى فى سبب نزولها أن قوماً أتوا النبى ﷺ بكتف فيه كتاب فقال :

« كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به نبى غير نبيهم ، أو كتاب غير كتابهم » فنزلت الآية . وفى مثل هذا يقول الرسول ﷺ : « لو كان موسى بن عمران حيا لما وسعه إلا اتباعى » .

وعلى هذا تكون هذه الآية كالجواب على الآية السابقة : فكأنهم لما قالوا « لولا أنزل عليه آيات من ربه » ، أجيبوا : إن فى القرآن « لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » .

(٥٣) « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »

(٥٤) « يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ »

المستعجلون بالعذاب هم : عبد الله بن أبى وأمية وأصحابه من المشركين الذين قالوا : « أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا » .

وقيل هما : النضر بن الحارث ، وأبو جهل بن هشام حين قالا : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم » .

وقوله : « ولولا أجل مسمى » أى لنزول العذاب قدره سبحانه لإهلاكهم . أو : لولا أجل قدره ألا يعذبهم والرسول بينهم كما قال سبحانه « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » .

لولا هذا لجاءهم العذاب ، وهو آتيهم بغتة ، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين .

(٥٦) « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ »

أرضى واسعة ، فإن ضاقت بكم مكة أن تعبدونى فيها فهاجروا إلى غيرها ، فكلها أرضى ، وحيثما تكونون فأنتم عبادى .

وقال ابن جبير وعطاء : إن الأرض التي فيها الظلم والمنكر تنطبق عليها هـــذه الآية وتلزم الهجرة عنها إلى بلد حق .

(٦٠) « وَكَأَيِّن مِن دَآبَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وإيَّاكُمْ وهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ »

روى ابن عباس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال للمؤمنين بمكة حين آذاهم المشركون : « اخرجوا إلى المدينة، وهاجروا ، ولا تجاوروا الظلمة » .

قالوا : « يا رسول الله ، ليس لنا بها دار ولا عقار ، ولا من يسقينا » فنزلت « وكاين من دابة » الآية . وهذا أرجح ما قيل فى ذلك .

(٦٩) « والَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإنَّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ »

المراد بالجهاد هنا المجاهدة العامة فى طلب العلم ، وفى العمل به ، وفى مجاهدة النفس ، وابتغاء مرضاة الله ، ومناهضة الكفار ، والملحدين فى آيات الله ، واحتمال تبعات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقول كلمة الحق فى سلطان ظالم ، وما إلى ذلك مما لا يطيقه إلا أولوا العزم ممن عمر الإيمان بالله قلوبهم فعملوا لمرضاته ، مهما غلا الثمن ، أو زادت التبعة ، فأولئك يهديهم الله سبيله ، وييسر لهم طريقه .

والآية بهذا لا تعنى الجهاد بالسلاح لأنها نزلت قبل فرض الجهاد بالسيف على المسلمين .

وقال الضحاك معنى هذه الآية : والذين جاهدوا فى الهجرة لنهدينهم سبل الثبات على الإيمان ، ثم قال : مثل السنة فى الدنيا كمثل الجنة فى العقبى ، من دخل الجنة فى العقبى سلم ، كذلك من لزم السنة فى الدنيا سلم .

تفسير سورة الروم

(١) « الٓمٓ »

(٢) « غُلِبَتِ الرُّومُ »

(٣) « فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ »

(٤) « فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ »

(٥) « بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ »

كان هـذا الغلب الذى غلبته الروم يوم بدر ، وقيل يوم الحديبية : وفى سبب نزول الآية ما يوضح معناها والمراد منها :

كانت القوتان الكبيرتان المتنازعتان على مقربة من الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام هما قوة الفرس ، وقوة الروم ، الفرس على وثنية يعبدون النار ، ويبنون لها المعابد والهياكل ، والروم أهل كتاب يعبدون الله على النحو الذى بينه لهم كتابهم .

وكانت أصداء الصراع بين القوتين تتردد فيما بين الكفار والمسلمين ، الكفار يتمنون أن تغلب فارس لمشاركتهم إياهم فى الوثنية وإن اختلفت التفاصيل ، والمسلمون يحبون أن ينتصر الروم لأنهم أهل كتاب ، يعبدون الله ويوحدونه كما يوحده المسلمون ، وإن اختلف الإسلام كذلك عن دين أهل الكتاب .

ويروى أن المسلمين والمشركين تكلموا فى ذلك ، فقال الكفار ستغلب الفرس ، وقال المسلمون ستغلب الروم فلما نزلت الآية خرج أبو بكر رضى الله عنه يصيح فى نواحى مكة « الم ، غلبت الروم ، فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » .

وقال ناس من المشركين لأبى بكر : فذلك بيننا وبينكم ، زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس فى بضع سنين أفلا نراهنك على ذلك ـ وكان هذا قبل أن يحرم القمار ـ فراهنهم على مائة ناقة ، وجعلوا المدة التى يتحقق الأمر خلالها تسع سنين .

فلما تحقق فى السنة السابعة كان هذا دليلا على صدق النبوة ، وإنجاز ما وعد الله : ومن هنا كان فرح المؤمنين بانتصار الروم .

(٦) « وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ »

(٧) « يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ »

لا يخلف الله وعده لأنه العالم بكل شيء ، المنبئ بالصدق ، والمخبر بالحق . ولكن أكثر الناس لا يعلمون : سوى الظاهر من الحياة الدنيا مما يتصل بأمر معايشها وشئونها العاجلة ، أما الآخرة الباقية فهم عنها غافلون ، وهذه الغفلة دليل قصور النظر وضعف الفكر ، وقلة العلم .

(٨) « أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ »

معناه ألم يتدبروا ويتأملوا خلق الله فالسموات والأرض ومابينهما ليستدلوا من ذلك على وجود الخالق، وعظمته وحسن تدبيره للكون ، وأن هـذا الخلق العظيم والإحكام الدقيق ليس عبثاً ولكنه حق وغاية الحق ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . فما أعجب حال الكافرين الذين هم بلقاء ربهم لا يؤمنون .

(١٠) « ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ »

أولئك الذين لم يتفكروا ولم يتدبروا، ولم يتعظوا بما يرون فى الأرض مما حل بمن قبلهم من الكافرين . هؤلاء الذين أساءوا جزاؤهم السوءى وهى نار جهنم كما قال ابن عباس رضى الله عنه ، لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون .

(١١) « اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »

(١٢) « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ »

(١٣) « وَلَمْ يَكُن لَهُم مِن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ »

عجباً لمن ينكر قدرة الله فى أن يبعث الخلق يوم القيامة !! ألم يكن سبحانه الذى خلقهم أول مرة ، وأنشأهم من العدم ؟! فكيف يعجز عن إعادة الخلق ، والإعادة دائماً أهون من الإنشاء .

هؤلاء الذين يجادلون فى الدنيا إذا قامت الساعة خرست ألسنتهم وضاعت حجتهم فلم يجدوا ما يقولون ، وهذا معنى كونهم « يبلسون » .

(١٤) « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ »

(١٥) « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ »

(١٦) « وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ »

يوم لقاء الله فى الآخرة يجد كل فريق ماأعد له . فأماالذين آمنوا فى روضة يحبرون . وروى فى بيان معنى الحبور الذى يلقونه هناك : أنه إذا أخذ أهل الجنة فى السماع لم تبق شجرة فى الجنة إلا رددت الغناء بالتسبيح والتقديس ، وقال الأوزاعى : ليس أحد من خلق الله أحسن صوتاً من إسرافيل ، فإذا أخذ فى السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم .

وزاد غيره : ولم تبق شجرة إلا رددت ، ولم يبق ستر ولا باب إلا ارتج وانفتح ، ولم تبق حلقة إلا طنت بألوان طنينها ، ولم تبق أجمة من آجام الذهب إلا وقع أهبوب الصوت فى مقاصبها فزمرت تلك القاصب بفنون الزمر .

ولم تبق جارية من جوار الحور العين إلا غنت بأغانيها ، والطير بألحانها ، ويوحى الله تبارك وتعالى إلى الملائكة أن جاوبوهم ، وأسمعوا عبادى الذين نزهوا أسماعهم عن مزامير الشيطان فيجاوبون بألحان وأصوات روحانيين فتختلط هذه الأصوات فتصير دوجة واحدة .

ثم يقول الله جل ذكره : يا داود قم عند ساق عرشى فمجدنى ، فيندفع داود بتمجيد ربه بصوت يغمر الأصوات ويجليها . وتتضاعف اللذة ، فذلك معنى قوله سبحانه « فهم فى روضة يحبرون » .

(٢٠) « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ »

من هنا حتى آخر الآية السادسة والعشرين يعدد القرآن فى هذه السورة عشراً من آيات الله :

منها آيته سبحانه فى خلق الناس من تراب فإذا هم أحياء ينتشرون فى الأرض .

ومنها آيته سبحانه فى أن خلق للانسان من نفسه الزوجة التى يسكن إليها وجعل بينهما مودة ورحمة تستقيم بهما الحياة الزوجية وتتوطد العلاقة ، وتتحقق إرادة الله فى عمران الكون .

ومنها آيته فى خلق السموات والأرض بهذا الإحكام العظيم المعجز ، وآيته فى اختلاف لغات الناس فى الدنيا ، واختلاف ألوان جلودهم ، مع أن الأصل فى الحقيقة واحد .

ومنها أن جعل — سبحانه — الليل سكناً ولباساً وزمن هجوع ونوم ، كما جعل النهار معاشاً ، ومشياً فى مناكب الأرض وزمن ابتغاء الرزق من فضل الله .

ومنها إظهار البرق ، وإنزال المطر من السماء لتهتز به الأرض فتحيا بعد موتها وتنبت من كل زوج بهيج .

وهذه الآيات قائمة تحت سمع الإنسان وبصره يجد آثارها فى نفسه ، وفيما حوله ومن حوله ، وهى لاشك تهدى

المتنفع بها إلى الآية التي جاء ذكرها بعد ، وهي أن تقوم القيامة بأمره ، وأن يبعث الناس من مراقدهم إذا دعاهم إليه سبحانه له من في السموات والأرض كل له خاضعون مطيعون .

(٢٨) « ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »

(٢٩) « بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ »

نزلت في كفار قريش وكانوا يقولون في التلبية : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك .

ومفهوم الآية إنكار أن يكون له سبحانه في ملكه شريك وهو الخالق لكل ما وجد في الكون ، والمالك لجميع أمرهم والتصرف في أرزاقهم وآجالهم فكيف يكون من بين مخلوقاته من تتخذون شريكا له ؟!

هل يقبل أحدكم أن يكون مملوك من مماليكه شريكا له في ملكه ؟ ! وإذا كنتم لا ترضون ذلك لأنفسكم فكيف تقبلونه له سبحانه ؟!

وما قررته الآية هو المنطق والحق ولكن هل اتبعه الكفار أم اتبعوا أهواءهم وما وجدوا عليه آباءهم بغير علم ولا هدى من الله فما أضلهم وما لهم من ناصرين .

(٣٠) « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »

الخطاب للنبي ﷺ ويدخل فيه أمة محمد ﷺ بالإجماع ، ومعنى إقامة الوجه للدين ، الثبات عليه ، والاستقامة على ما شرعه وأمر به مع الإخلاص والجد ، وفي معناه يقول سبحانه : « فأقم وجهك للدين القيم » يعني الإسلام .

وفطرة الله التي فطر الناس عليها : أن يكونوا مسلمين له . خاضعين منقادين لأمر الله ، كما في الحديث « كل مولود يولد على الفطرة » . وللعلماء في هذه الآيات تأويلات شتى لا نقوى على الفصل فيها والله سبحانه أعلم بما يريد .

(٣١) « مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ »

(٣٢) « مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ »

قال المفسرون : قوله : منيبين متعلق بأقم وجهك للدين على اعتبار أن المراد بالخطاب فيه الجمع أى أقيموا وجوهكم منيبين إلى الله تائبين راجعين إليه ، وداوموا على إقامة الصلاة ، ولا تكونوا من المشركين الذين اختلفوا فى دينهم وفرقوه فتحولوا به عن هدفه فى التوحيد إلى الاختلاف والفرقة .

(٣٦) « وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ »

تصور الآية بعض طبيعة الإنسان ، إذا أذاقه الله رحمته فآمنه فى سربه وعافاه فى دينه وبدنه ، ووسع له فى رزقه ومكن له من أرضه فرح بما أفاء الله عليه . وإن تصبه سيئة جزاء ما عمل ، تملكه الجزع والقنوط . وهكذا الإنسان « إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً ، إلا المصلين » .

(٣٩) « وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ »

تؤكد هذه الآية الأساس الذى تتم عليه مثوبة الله لعباده فى مسائل الزكاة والصدقات وما قد يتصل بها من الهدايا والعطايا .

فالأساس فى استحقاق المنفق للثواب أن يكون بما ينفق لايقصد إلا وجه الله تعالى ولا يرجو المثوبة إلا من الله وعندئذ يتولى سبحانه الجزاء ويضاعفه أضعافاً مضاعفة ، كما سبق القول فيه .

أما مايقدمه الإنسان للناس من نفقة أو منحة ، أو هدية ، يبغى بها مجاملتهم ، أو الحظوة لديهم ، أو غير ذلك من شئون الدنيا ، فهذا وإن كان لاضرر منه إلا أنه عند الله لاثواب له ، والعدل فيه ماشرع الله وما دام المعطى لم يقصد وجه الله فكيف ينتظر ثوابه ، إن العدل أن ينتظر الثواب ممن قصدهم ، وهذا مايحدث فى الحياة .

ولذا عبر القرآن عنه فى إعجاز رائع فصوره فى صورة الربا الذى يراد له أن يربو فى أموال الناس ، وقرر أنه لايربو عند الله .

(٤١) « ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ »

اختلف فى معنى الفساد المقصود فى الآية . فقيل : هو الشرك لأنه أعظم الفساد ؛ وقيل فساد البر أن يقتل الإنسان أخاه الإنسان ، وفساد البحر : ذلك الملك الذى كان يأخذ كل سفينة غصباً كما ذكر فى سورة الكهف .

وقيل هو رأى ابن عباس: هو نقصان البركة فى أعمال العباد ليتوبوا . وقيل: هو انتشار للعاصى وكثرة المظالم ، وهذا هو الفساد الحق ، أو الفساد الحسى الواقعى .

وفى الآية دليل : أن مايصيب العباد من البلايا إنما هو بسبب ما يقعون فيه من المعاصى ، ولعلهم يتوبون ، ويرجعون .

(٤٨) « اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ »

(٤٩) « وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ »

سبحانه من آياته إرسال الرياح وتسخيرها كيف يشاء ، فمن الرياح مبشرات ومن الرياح عواصف ، ومنها رياح العذاب الصرصر العاتية . والكل بأمر ربها تتحرك وللغاية التى أرادها تسير .

وذكر فى هذه الآية الرياح المثيرة للسحاب الذى يبسطه سبحانه فى السماء كما يشاء يمنحه قوماً ويحجبه عن آخرين، ثم يجعله قطعاً فترى المطر يخرج من خلاله ، وإذا أصاب به من يشاء من عباده ممن تكون حاجتهم إلى المطر شديدة إذا هم يستبشرون بنعمة الله وفضله بعد ما كانوا فى قنوط ويأس قبل أن ينزل المطر .

(٥١) « وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ »

فإذا بعث الله إليهم ريحاً ، فرأوا من اصفرارها أنها لاتمطر ضاقوا بها ويئسوا من رحمة الله ، وهذا معنى الكفر .

(٥٤) « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ »

فى هذه الآية تلخيص جامع لمراحل حياة الإنسان وتطورها عبر رحلة فى الحياة من ضعف عند الميلاد ، ثم إلى قوة فى ربيع العمر واشتداد فى البأس والبنيان ، ثم إلى ضعف آخر يلاحقه الشيب فى آخر العمر .

وقد فصل القرآن هذه المراحل فى أكثر من سورة من القرآن كسورة « المؤمنون » وغيرها .

(٥٥) « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ »

عند القيامة يقسم الكافرون أنهم لم يلبثوا فى دنياهم غير ساعة ، كذلك كانوا يؤفكون ويكذبون فى دنياهم .

(٥٦) « وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »

يرد الذين أوتوا العلم من الملائكة أو الأنبياء أو علماء الأمم ، أو المؤمنون ، يردون على ماقسم الكفار بأنهم لم يلبثوا غير ساعة قائلين : لقد لبثتم فى قبوركم تنفيذاً لحكم الله إلى هذا اليوم الذى لم تكونوا تؤمنون ، وها أنتم اليوم تعيشون فيه .

تفسير سورة لقمان

(١) « الم »

(٢) « تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ »

الكتاب هو القرآن الحكيم : المحكم الذى لا اضطراب فيه ولا تناقض .

(٦) « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ »

نزلت فى النضر بن الحارث إذ كان يخرج بالتجارة إلى فارس ، فيشترى أخبار الأعاجم فيرويها ليضل بها عن سبيل الله ، ويقول لقريش:إن محمداً يحدثكم بأخبار عاد وثمود ، وأنا أحدثكم بأخبار الأكاسرة ، فكانوا يستملحون حديثه وينصرفون به عن القرآن . وقد تضمنت الآية حكم الله فيه .

(٧) « وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »

أيًّا كان سبب النزول فالآية عامة فى كل من استكبر عن آيات الله وأعرض عنها سواء أعرض فلم يسمع ، أو سمع فلم يطع ، ولم يمتثل .

(١٢) « وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ »

يقال فى نسبه أنه لقمان بن باعوراء ، بن ناحور ، بن تارح أبو إبراهيم عليه السلام ، وقد عمر طويلا ، وأدركه داود عليه السلام وأخذ عنه العلم ؛ وقيل : إنه كان يفتى قبل مبعث داود عليه السلام فلما بعث داود انقطع عن الفتيا .

ومن حديث ابن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« لم يكن لقمان نبياً ، ولكنه كان عبداً كثير التفكر ، حسن اليقين ، أحب الله تعالى فأحبه الله ، فمنّ عليه

بالحكمة ، وخيره فى أن يجعله خليفة يحكم بالحق فقال : رب إن خيرتنى قبلت العافية وتركت البلاء ، وإن عزمت علىّ فسمعاً وطاعة فإنك ستعصمنى » .

ومعنى أن أشكر الله : أتيناه الحكمة ليشكر الله تعالى فشكره .

(١٣) « وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ »

(١٤) « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ »

(١٥) « وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »

تتضمن هذه الآيات الوصية الأولى من لقمان لابنه وما اتصل بها من أحكام .

فالوصية الأولى لابنه ألا يشرك بالله ، وهذا عام وليس خاصاً بولد لقمان .

وموقع الآية الثانية من الوصية : هو الترغيب فى قبولها والاستماع إليها من الأب الحكيم المخلص ، وهذا بعض شكر الوالدين ، وبعض شكر الله على ماهدى .

فإذا أمر الوالدان ولدهما بمعصية أو جاهداه على أن يشرك بالله فالآية صريحة فى عدم طاعتهما ، وصريحة كذلك فى وجوب مصاحبتهما بالمعروف . وقد سبق القول فى ذلك فى سورة العنكبوت .

(١٦) « يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ »

فى هذه الآية يخبر لقمان ابنه عن مدى علم الله الذى يحيط بكل مافى الكون حتى أدق دقائقه ، وفيها كذلك — على ماقيل — تنبيه إلى أن رزق الإنسان مسوق بإرادة الله إليه ، ولو كان كحبة الخردل فى المكان الذى يصعب الوصول إليه فإنه سبحانه يأتى به إلى صاحبه .

(١٧) « يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ »

فيها من خصال الخير أربع : إقامة الصلاة وحسبها طريقاً إلى كل خير ، ثم الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ،

وهما من أسباب تميز أمة محمد صلى الله عليه وسلم على الناس كما قال سبحانه «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» .

كما أن التخلي عنهما من أسباب هلاك الأمم كما قال سبحانه في شأن بني إسرائيل : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » .

والرابعة : الصبر على المصائب ، واحتساب الأجر فيه عند الله ، وحسب الصبر أن يكون من أعظم ما ينجو به الإنسان من الخسران والضياع كما قال سبحانه: « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » ولذا عقب سبحانه في ختامها : « إن ذلك من عزم الأمور » .

(١٨) « وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ »

يحذر لقمان ابنه هنا من شر ما يبتلى به الإنسان ، أعني الكبر والخيلاء وفيم هذا ، وما حياتنا كلها إلا عارية مستردة ، وما نتكبر به من جاه أو مال ليس إلا متاع الغرور . وفي الحديث : « من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة » .

وفي الحديث أيضاً : « كل جعظري جواظ ملعون » أي كل ذي غطرسة وكبرياء .

وليس المراد هنا أن يهون الإنسان على نفسه فيذل فهذا مرفوض أيضاً بنص الحديث : « ليس للإنسان أن يذل نفسه » .

(١٩) « وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ »

توسط فيه واعتدل ، محتفظاً بوقارك وبهائك ، « واغضض من صوتك » خافض منه ، ولا ترتفع به بما يؤذي سامعيك ، أو يؤذيك .

(٢٠) « أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ »

المجادل في الله بغير علم هو رجل من اليهود جاء إلى الرسول ﷺ فقال له : يا محمد أخبرني عن ربك ، من أي شيء هو ؟ ، فجاءت صاعقة فأخذته .

وفيها دليل على وجوب الأخذ بأسباب العلم وتحري الحقيقة قبل الحجاج والمجادلة .

(٢٢) « وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ »

« إن الدين عند الله الإسلام » ، « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنيّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

(٢٧) « وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »

سألت اليهود رسول الله ﷺ عن الروح فأنزل الله قوله : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» .

فلما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار اليهود فقالوا :

يا محمد بلغنا عنك أنك تقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، أفعنينا أم تعنى قومك ؟ قال : كلا قد عنيتُ .

قالوا : ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء ؟

فقال الرسول ﷺ : هى فى علم الله قليل ، ولقد أتاكم الله تعالى ما إن عملتم به انتفعتم به .

فقالوا : يا محمد كيف تزعم هذا وأنت تقول « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وكيف يجتمع هذا : علم قليل وخير كثير . فأنزل الله هذه الآية .

وفى معناها يقول سبحانه :

« قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً » .

(٢٨) « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ »

نزلت فى أبيّ بن خلف وبعض المشركين قالوا للرسول ﷺ :

إن الله تعالى قد خلقنا أطواراً نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم تقول : إنا نبعث خلقاً جديداً جميعا فى ساعة واحدة ! ! فرد سبحانه عليهم بهذه الآية « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ، فما تستعظمونه لضعفكم وعجزكم لا يعظم ولا يصعب على القوى القادر سبحانه .

(٣٢) « وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ »

فيها تصوير لبعض طبيعة الإنسان يعرف ربه فى الشدة وينساه فى الرخاء ، كما تراه فى المحنة ينسى كبرياءه وغروره وتبدو له نفسه على حقيقتها ذليلا ، ضعيفاً غير قادر على شيء فلا يجد سوى ربه ـ الذى كان بالأمس يكفره ويعصيه . حتى فرعون . على ما كان عليه من جبروت واستعلاء وتأله . لما أدركه الغرق « قال آمنت » وهكذا الإنسان .

(٣٣) « يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ »

نعم . فكل امرئ بما كسب رهين ، ولكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، فلا يؤخذ والد بذنب ولده ، « ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً » فكل إنسان يحمل وحده تبعة ما قدم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

ولقد ضرب الله الأمثال فى القرآن بولد نوح ، وبإمرأة لوط ، ثم بإمرأة فرعون ، وبوالد إبراهيم وغيرهم ليؤكد ما تقرر من أنه « لا تجزى نفس عن نفس شيئاً » .

(٣٤) « إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »

قال ابن عباس رضى الله عنه :

هذه الخمسة لا يعلمها إلا الله تعالى ، ولا يعلمها ملك مقرب ولا نبى مرسل ؛ فمن ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه فقد كفر بالقرآن لأنه خالفه .

ولا يناقض هذا ما يعرفه بعض الأنبياء من بعض أخبار الغيب فذلك لا يتم إلا بتعريف الله سبحانه إياهم .

تفسير سورة السجدة

(١) « الٓمٓ »

(٢) « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ »

ويسمونها المنجية ، وفى الصحيح عن ابن عباس أن النبى ﷺ كان يقرأ فى صلاة الفجر يوم الجمعة « آلم ، تنزيل» السجدة و « هل أتى على الإنسان حين من الدهر » .

وروى أنه ﷺ كان لا ينام حتى يقرأها ، ويقرأ « تبارك » .

(٣) « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ »

يزعمون أن محمداً ﷺ قد اختلق القرآن وجاء به من عنده . كذبوا بل هو الحق من ربك لتنذر أهل الفترة ممن لم تبلغهم دعوة عيسى عليه السلام ، كما قال ابن عباس .

أو لتنذر الأميين من قومك الذين لم يأتهم نذير من قبل .

(٥) « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ »

يصرف أمر الأرض التى تضطربون فيها من سماء قدرته وجلاله فيقضى فيها بحكمه ، وينزل عليها قضاءه وقدره ، ورسله إليها من الملائكة ينفذون ما يريد .

ثم يصعد إليه عمل العاملين فيها ، ويرجع إليه الأمر كله ليقضى فيه بحكمته ، وذلك فى يوم القيامة الذى مقداره ألف سنة مما تعدون .

ولقد سئل ابن عباس رضى الله عنه عن قوله سبحانه ، « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » فقال :

أيام سماها سبحانه ، وما أدرى ما هى فأكره أن أقول فيها مالا أعلم . ثم سئل سعيد بن المسيب عنها فقال : لا أدرى . فلما أخبر بقول ابن عباس قال : هذا ابن عباس اتقى أن يقول فيها شيئاً وهو أعلم منى

(٦) « ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ »

(٧) « الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ »

(٨) « ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ »

(٩) « ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ »

هو الله سبحانه عالم ما خفى ، وما ظهر ، وما يغيب عن الناس وما يشهدونه وهو العزيز القادر على مجازاة من يخالفه ، الحكيم فيا يأمر به وينهى عنه .

سبحانه أحسن كل شيء خلقه فى الأرض وفى السماء وأجاده وأتقنه ، لاترى فيه عوجاً ، ولا اضطراباً ، ولا تحس فى صنعه ضعفاً ولا عجزاً . وسبحانه : خالق الإنسان الأول من طين .

ثم جعل ذريته تخرج من ماء زرى ، ممتهن ، ضعيف ، ولا خطر له عندالناس ، وجعل من هذا الماء خلقاً سوياً معتدلا ، تلبسه الروح التى أضافها المولى إلى نفسه تكريماً وتشريفاً . ومع فضله سبحانه فى كل ذلك فما أقل ما يشكر الإنسان .

(١٠) « وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ »

قال المنكرون البعث كيف يمكن لله — سبحانه — أن ينشئنا بعد ما يضل بقايا أجسامنا فى الأرض ، وتصبح تراباً من التراب لا يعرف له مكان .

قالوا هذا لأنهم يكفرون بلقاء الله ويعتقدون أنه لا حساب ولا عقاب .

(١١) « قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ »

أيها الكافرون المنكرون ، لن تفلتوا من بطش ربكم ، وما أنتم بمعجزين فى الأرض ، بل سيتوفاكم ملك الموت الموكل بكم ، وسيأتى بكم إلى ربكم لتذوقوا ما كنتم تكذبون .

ويروى جعفر بن محمد عن أبيه قال :

نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبى : «أرفق بصاحبى فإنه مؤمن».
فقال ملك الموت عليه السلام :

«يا رسول الله : طب نفساً ، وقر عيناً ، فإنى بكل مؤمن رفيق واعلم أن مامن أهل بيت مدر ولا شعر فى بر ولا بحر ، إلا وأنا أتصفحهم فى كل يوم خمس مرات ، حتى لأنا أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ؛ والله يا محمد لو أنى أردت أن أقبض جناح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها » .

(١٢) « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ »

المخاطبة هنا : قيل النبي ﷺ وهى كذلك لأمته ، ومعنى الآية فى هذا لو رأيتم هوان المجرمين وذلهم بين يدى الله لرأيتم العجب من أمر هؤلاء الذين يتجبرون اليوم فى الأرض بغير الحق .

وقيل : بل هى خطاب للمجرمين أنفسهم على معنى : قل للمجرمين يا محمد ، لو رأيتم ما يحدث لكم ولأمثالكم لندمتم على ما كان أو ما يكون منكم ، حيث لا ينفع الندم ، وحيث تتمنون على الله أن يرجعكم إلى الدنيا لتعملوا صالحاً ، ولتؤمنوا بربكم فيحال بينكم وبين ما تشتهون .

(١٣) « وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »

قيل هو رد من الله سبحانه على قول المجرمين : « ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون » .

ومعناه : لو شئنا لرددناهم إلى الدنيا ليتحنوا فيها من جديد ، ولكن سبقت كلمتنا بعذاب من يعذب ، لما هو ثابت فى علم الله من أنهم « لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » .

وقيل معناه لهدينا الناس أجمعين ، ولكن هذا لا يتفق وحكمة الله فى خلقه لأن هذا يناقض الغرض المقصود إليه بالتكليف وهو الثواب والعقاب ، الذى لا يستحقه المكلف إلا بما يفعل مختاراً ، بكسبه وإرادته .

(١٥) « إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ »

(١٦) « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ »

(١٧) « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

فى هذه الآيات تسلية للرسول ﷺ ومواساة له ، فإذا كان الكفار لم يؤمنوا ، فلقد آمن كثيرون ، وأخلصوا إيمانهم لله فإذا ذكروا بآيات ربهم لم يستكبروا عليها ، بل استقبلوها بالخضوع والإذعان طائعين ساجدين ، يسبحون بحمد ربهم ويحسنون عبادته .

هؤلاء المؤمنون يدفعهم إيمانهم بالله وإخلاصهم العبادة له إلى أن يهجروا مضاجعهم فى هدأة الليل يناجون ربهم

ويدعونه ضارعين طامعين ، ثم يقرنون عبادة القول بعبادة العمل ، فينفقون مما رزقهم الله فى الوجوه التى أمر بها الله . فلا تعلم نفس مقدار الثواب الذى أعده الله لهم جزاء ما عملوا .

(١٨) « أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لاَ يَسْتَوُونَ »

لا: لا يستوى الخبيث والطيب ، ولا يستوى الفسوق والإيمان ، لايستويان .

روى أنها نزلت فى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، والوليد بن عقبة ابن أبى معيط ، وذلك أنهما تجادلا وتخاصما فقال الوليد لعلى :

أنا أبسط منك لساناً ، وأحدُّ سنانا ، وأردُّ الكتيبة جسداً : فقال له على : اسكت فإنك فاسق .

(٢١) « وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ »

العذاب الأدنى : قيل هو القتل بالسيف يوم بدر ؛ وقيل : هو ما ابتلوا به من الجوع ، وقيل : هو مصائب الدنيا ، وعلها مما يبتلى به الناس عامة . وقيل هو : عذاب القبر .

ويبتليهم الله بهذا العذاب الأدنى لعلهم يرجعون عن غيهم إن كانوا أحياء، أو ليرجع منهم إلى الله من بقى فى الدنيا إذا كان المراد قتلهم فى يوم بدر

(٢٣) « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلاَ تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِن لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِى إِسْرَائِيلَ »

(٢٤) « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ »

قوله : فلا تكن فى مرية من لقائه أى من لقاء موسى عليه السلام فى ليلة الإسراء .

وقيل : معناه ، ولقد آتينا موسى الكتاب فكذبه قومه وأنكروه ، فلا تشك فى أنك ملاق من قومك مثل مالقى موسى من الإيذاء .

ومع تكذيب من كذبوا من بنى إسرائيل فقد كان منهم قوم صبروا على ما كلفناهم به فجعلنا منهم هداة إلى الخير يدعون إلى طاعة الله وعبادته .

(٢٧) « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ »

ألا يتدبر هؤلاء الكفار فيما حولهم مما صنع الله ؟ ألا يرون الأرض لا نبات فيها جامدة هامدة يسوق سبحانه

الماء إليها فتهتز ، وتخرج زرعاً مختلفاً ألوانه ، تأكل منه الأنعام ويأكل منه الناس ، ثم لا يفكرون وهم يأكلون منه فيمن خلقه . ومن صنعه ، ومن هداهم إليه . أليس هذا عمى ؟! أفلا يبصرون ؟ !

(٢٨) « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »

(٢٩) « قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لاَ يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ »

يروى أن المؤمنين قالوا للكافرين :

سيفتح الله : أى سيحكم الله بيننا يوم القيامة ، فيثيب المحسن بإحسانه ، ويجزى المسيء بإساءته . فقال الكافرون ساخرين مستهزئين : متى هذا الفتح ؟

وقيل : بل المراد : فتح مكة .

فإذا جاء هذا اليوم فقد حقت على الكافرين كلمة العذاب ، حيث لا يكون أمل فى عودة ولا رجاء فى توبة .

(٣٠) « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ »

الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم يأمره ربه بالإعراض عن هؤلاء الكفار ، وأن ينتظر موعد ربه بالنصر الذى أنجز يوم بدر .

« إنهم منتظرون » يتربصون بكم الدوائر ، فدعوهم فى غيهم حتى يحكم الله .

تفسير سورة الأحزاب

(١) « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً »

نزلت فى أبىّ سفيان ، وعكرمة بن أبى جهل ، وأبى الأعور السلمى ، قدموا المدينة بعد قتال أحد ، فنزلوا على عبد الله بن أبى — وقد أعطاهم النبى صلى الله عليه وسلم الأمان — على أن يكلموه .

فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وطعمة بن أبيرق فقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب :

ارفض ذكر آلهتنا : اللات ومناة ، والعزى ، وقل إن لها شفاعة ومنفعة لمن عبدها ، ونحن ندعك وربك .

فشق على النبى صلى الله عليه وسلم قولهم ، فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ائذن لنا يارسول الله فى قتلهم فقال الرسول : إنى قد أعطيتهم الأمان . فقال عمر : اخرجوا فى لعنة الله وغضبه . فأمر الرسول بإخراجهم من المدينة . فنزلت هذه الآية .

وقيل : إن رسول ﷺ لما هاجر إلى المدينة ، وكان يحب إسلام اليهود قريظة والنضير ، وبنى قينقاع ، ولقدتبعه أناس منهم — على نفاق .

وكان الرسول ﷺ يلين لهم جانبه ، ويكرم صغيرهم وكبيرهم ، ويتجاوز عن إساءاتهم تأليفاً لهم فنزلت الآية .

(٤) « مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ »

قالوا : نزلت فى رجل من قريش سمى جميل بن معمر الفهرى وكان لبيباً حافظاً لما يسمع ، فقالت قريش : ماحفظ هذه الأشياء إلا له قلبان .

بل إنه نفسه كاد يقول : إن لى قلبين فى جوفى ، أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد .

فلما كان يوم بدر وهزم المشركون ، وفيهم يومئذ جميل بن معمر هذا تلقاه أبو سفيان وهو معلق إحدى نعليه بيده ، والأخرى فى رجله فقال له : يا أبا معمر ، ماحال الناس ؟

قال : انهزموا . قال : فما بال إحدى نعليك فى يدك والأخرى فى رجلك ؟

قال : ما شعرت إلا أنهما فى رجلى . قالوا : فقيل له : ألا تدرى أين نعليك . وتزعم إن قلبين فى جوفك ؟ !

وقوله « وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن » . يعنى أن يحرم الرجل امرأته على نفسه يقول : أنت على كظهر أمى ، وتفصيله إن شاء الله فى موضعه من سورة المجادلة .

أما قوله « وما جعل أدعياءكم أبناءكم » .

فالإجماع على أنها نزلت فى زيد بن حارثة ، وكان زيد من سبى الشام فاشتراه حكيم بن حزام بن خويلد ، ووهبه لعمته خديجة ، فوهبته خديجة للنبى صلى الله عليه وسلم فأعتقه وتبناه ، وأقام عنده مدة .

ثم جاء أبوه وعمه يرغبان فى فدائه ، وكان هذا قبل بعثة النبى فقال لهما النبى ﷺ :

« خيراه ، فإن اختاركما فهو لكما دون فداء » فاختار زيد الرق مع رسول الله ﷺ على الحرية مع قومه .

فقال صلى الله عليه وسلم : « يا معشر قريش ، اشهدوا أنه ابنى يرثنى وأرثه » وكان الرسول يطوف على الناس يعلمهم بذلك .

وأقام زيد عند رسول الله ﷺ حتى صار رجلا والناس يسمونه « زيد بن محمد » ، وقد أمَّره الرسول ﷺ على الجيش فى غزوة « مؤتة » وقال « إن قتل زيد فجعفر ، فإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة » . فقتل الثلاثة رحمهم الله ورضى عنهم أجمعين .

(٥) « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا »

نزلت هذه الآية فى زيد بن حارثة ، إذ كان التبنى معمولا به فى الجاهلية والإسلام إلى أن نزلت هذه الآية تقرر رفع حكم التبنى ، وترشد إلى الأفضل فى الأمر ، وهو أن يدعى كل إلى أبيه فى النسب ، فكأنما نسخت هذه الآية معتادهم فى ذلك .

وتمضى الآية لتفصل فى أمر التبنى فتقرر أنه إذا كان للمتبنى أب معروف نسب إليه كما سبق ، فإن لم يعرف أبوه نسب إلى مواليه ، فإن لم يكن نودى بالأخ ، كما تنص الآية ، ولقوله سبحانه « إنما المؤمنون إخوة » .

ونهت الآية نهياً حاسماً عن مخالفة ما أمر الله به إلا إن جرى اللسان خطأً على المعتاد القديم ، كما فى أمر « المقداد بن عمرو » الذى عرف باسم المقداد بن الأسود ، ومع الأمر بنسبته إلى عمرو ظل الناس يدعونه بابن الأسود .

(٦) « النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا »

نقل ابن عطية عن بعض العلماء العارفين « هو أولى بهم من أنفسهم لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك ، والرسول يدعوهم إلى النجاة » .

ويؤيده وفى معناه ما فى « مسلم » عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « إنما مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد ناراً ، فجعلت الدواب والفراش يقعن ، وأنا آخذ بحجزكم ، وأنتم تقحمون فيه » .

« وأزواجه أمهاتهم » ومن ثمّ فقد حرم على الرجال نكاحهن ، وزادت تبعاتهن عن غيرهن من الأمهات كما قال سبحانه « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء » .

وقد أثار المفسرون خلافاً حول أمومتهن أتشمل الرجال والنساء ؟ أم هى فقط للرجال ؟ ويرجحون أنها للرجال فقط أخذاً من ظاهر الآية ؛ ولما روى الشعبي عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها أن امرأة قالت لها : يا أمة ، فقالت عائشة : « لست لك بأم ، إنما أنا أم رجالكم » .

ولم يكن ثمة داع لهذا الخلاف ، والأولى تعميم هذه الأمومة زيادة فى تكريم أمهات المؤمنين ، وتعظيما لحقهن على الرجال والنساء على السواء . فمن أولى بالتكريم ممن عشن مع الرسول صلوات الله عليه وصحبنه فى نهاره وليله، يهوّنّ عليه العسير ، ويواسينه إذا حزبه أمر . ويجد بين أيديهن برد الراحة إذا اشتد من حوله هجير الحياة ؟!

بل من أولى بالتكريم منهن إذ وقفن إلى جواره فى كل محنة ؟ ! وأذعن فى الناس من خصائص صفاته وأخلاقه — صلوات الله عليه — ومن سنته فى الأمور الخاصة والعامة ما لم يكن لتعرف دقائقه إلا عن طريقهن؟ وكيف كانت تعرف الجوانب الإنسانية العظيمة فى حياة نبينا صلوات الله عليه زوجاً مثالى العشرة ، وأباً فياض الحنان بالأبوة ، ورب أسرة رقيق الحاشية ، حلو الشمائل لو لم نقف عليها من أخبارهن . بل كيف كان نبينا يواجه — فى صدر دعوته ما واجه لو لم تكن إلى جواره — بعد الله — زوج حبيبة كخديجة رضوان الله عليها ؟ أفبعد هذا يختلف العلماء فى أنهن أمهات للرجال أم للنساء ؟ !

أما قوله سبحانه « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض » .

إنه ناسخ للتوراة بالحلف والمؤاخاة فى الدين ، كما كان فى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، أو كما يقول هشام ابن عروة عن أبيه عن الزبير:

« قدمنا المدينة ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان ، فآخيناهم فأورثونا ، وأورثناهم ، فآخى أبوبكر خارجة بن زيد ، وآخيت أنا كعب بن مالك ، فجئت فوجدت السلاح قد أثقله — يعني كثيراً عنده — فوالله لقد مات عن الدنيا ما ورثه غيري ، حتى نزلت هذه الآية فرجعنا إلى موارثنا .

(٧) « وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا »

(٨) « لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا »

أخذنا على النبيين العهد على الوفاء للأمانة التي حملوها ، وأن يصبروا ويحتملوا ، وأن يصدق كل منهم بمن كان قبله ، ويبشر كل منهم بمن يجيء بعده ، وذلك أخذاً من قوله سبحانه : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا » .

وأخذاً كذلك من قول عيسى عليه السلام « إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » .

ويذكر القرطبي ما قيل عن اختصاص هؤلاء الخمسة من بين النبيين كلهم فيقول : لأنهم أصحاب الشرائع والكتب ، وأولوا العزم من الرسل .

وقوله « ليسأل الصادقين ... » أي ليسأل الأنبياء الصادقين عن صدق أقوالهم لهم أو تكذيبهم وكفرهم بهم ، ولذا أعد للكافرين عذاباً أليما .

(٩) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا »

(١٠) « إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا »

(١١) « هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا »

(١٢) « وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا »

تتحدث هذه الآيات عن غزوة « الأحزاب » و « الخندق » و « بني قريظة » .

وكان سببها : أن نفراً من اليهود حزبوا الأحزاب ، وألبوها على الرسول ﷺ ، فخرجت قريش يقودها

أبو سفيان بن حرب ، وخرجت غطفان يقودها عيينة بن حصن الفزارى على فزارة ، والحارث بن عوف على بنى مرة ، ومسعود بن رخيلة على أشجع .

فلما سمع الرسول باجتماعهم شاور أصحابه فأشار سلمان الفارسى بحفر الخندق قائلا للرسول : إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا . فحفر المسلمون الخندق وعملوا فيه مجتهدين ، وعمل فيه الرسول ﷺ بنفسه وكان يرتجز بكلمات ابن رواحة :

اللهم لولا أنت ما اهتـــدينا ولا تصدقنا ولا صلينــــا

فأنزلن سكينة علينـــا وثبت الأقدام إذ لاقينـــا

فلما فرغ من حفره أقبلت قريش فى عشرة آلاف مقاتل ، وأقبلت غطفان بمن معها من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أحد ؛ ونزل الرسول والمسلمون فى ظهر جبل يسمى « سلع » وكان عددهم ثلاثة آلاف مقاتل . وكان الخندق بين الفريقين .

وأقام الفريقان أياماً بلا قتال ، غير أن بعض الفرسان من قريش منهم عمرو بن ود وعكرمة بن أبى جهل ، وهبيرة بن وهب ، وضرار بن الخطاب ، أقبلوا فاقتحموا الخندق من أحد أماكنه وصاروا فى مواجهة المسلمين .

فخرج على بن أبى طالب فى نفر حتى حاصروهم ، فقال عمرو بن ود : من يبارز ؟ فبرز له علىٌّ وقال له : ياعمرو : إنك عاهدت الله فيما بلغنا أنك لا تدعى إلى إحدى خلتين إلا أخذت إحداهما ، قال : نعم . قال علىٌّ : فإنى أدعوك إلى الإسلام ، قال : لا حاجة لى بذلك . قال فأدعوك إلى البراز .

فقال عمرو : يا ابن أخى ، والله ما أحب أن أقتلك لما كان بينى وبين أبيك .

فقال علىٌّ : وأنا والله أحب أن أقتلك . فحمى عمرو ونزل عن فرسه وعقره وسار نحو على ، فتنازلا ، وتجادلا ، وثار الغبار بينهما حتى أصبحا لا يريان منه .

فما أن انجلى الغبار حتى رُئى علىٌّ رضى الله عنه على صدر عمرو يحزُّ رأسه ، ولما رأى أصحاب عمرو أنه قد قتل ولوا هاربين منهزمين .

وأقام الفريقان ما شاء الله أن يقيما والخندق بينهما حتى كانت إرادته سبحانه نبعث عليهم ريحا عاتية قوضت خيامهم ، وأطفأت نارهم ، وكفأت قدورهم ، فقام أبو سفيان فيهم يقول :

« ويلكم يا معشر قريش ! إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، ولقد هلك الكراع والخف(١) ، وأخلفتنا بنو قريظة(٢) ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، ما يستمسك لنا بناء ، ولا تثبت لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، فارتحلوا إنى مرتحل » . وتلك هى الريح التى قال فيها سبحانه : « فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها » .

---

(١) الكراع : الخيل ، والخف : يعنى الإبل .

(٢) فى كتب السيرة تفصيل ما قام به نعيم بن مسعود الأشجعى من التخذيل بين الفريقين .

وأصبح المسلمون ، وقد رجعت الأحزاب عنهم ، فانصرف المسلمون كذلك إلى المدينة ووضع الرجال أسلحتهم .
فأوحى الله إلى النبي أن يقاتل بني قريظة ، وأن يخرج من فوره إليهم .
فنادى المنادى : لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة .

وخرج المسلمون إليهم فحاصروهم ، ثم حكموا فيهم سعد بن معاذ ، وأنفذوا فيهم حكمه بقتل المقاتلة منهم وسبي الذرارى والنساء .

(١٣) « وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا »

هذه الآية وما بعدها حتى السابعة عشرة نزلت في قوم من المنافقين وقد اختلف فيمن يكونون ، ولكنهم في كل حال قد ضعف يقينهم ، واضطربت عزيمتهم فحاولوا الهرب يوم الخندق ، متعللين بما قالوه إنهم تركوا بيوتهم مكشوفة لا تجد من يحميها .

وقيل : إنهم الذى أنزل الله فيهم : « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا » .

هذه البيوت التى يتعللون بحمايتها ، وترك القتال للانصراف إليها ، لو هجم عليها مهاجم ، وأحاط بها لسلموها دون قتال ، بل ولسلموا لعدوهم كل ما يطلب إليه أن يفعله ، حتى ولو طلب إليهم أن ينطقوا بالكفر .

وكيف يطلبون الإذن بالعودة إلى المدينة فى هذا الموقف الدقيق ، وهم من قبل كانوا عاهدوا الله أن لا ينهزموا ، ولا يفرقوا ، وعهد الله يلزم لمن قدمه أن يفى به .

هذا إلى أن الفرار من المعركة لا يغنى عن صاحبه شيئاً ، ولا يؤخر أجلا إن حان وقته ، ولن يبقى للفارّ سوى العار فى الدنيا ، والنار والعذاب فى الآخرة .

ثم هددهم القرآن بقوله : « قل من يعصمكم من الله ... الآية » يعنى : إذا كنتم تفرون من الموت هنا فكيف تفرون من قدر الله الذى يلاحقكم حيثما كنتم ، ولا يعصمكم منه عاصم ، فهلا كفيتم أنفسكم هذا الخسران الذى تتعرضون له وأنتم فى مواقعكم ؟ ..

(١٨) « قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا »

فى أرجح الأقوال أنهم عبد الله بن أبىّ وأصحابه من المنافقين كانوا يقولون للمسلمين : ما هم إلا أكلة رأس .
يعنون أنهم قليل وأنهم هالكون وهو هالك معهم لا محالة ، تعالوا إلينا .

وقيل : بل هم اليهود من بنى قريظة ، قالوا لإخوانهم من المنافقين : تعالوا إلينا وفارقوا محمداً فإنه لا محالة هالك ، وإذا ظفر أبو سفيان بكم فلن يبق منكم أحداً .

ومهما يكن الخلاف فالثابت بنص الآية أنهم كانوا يخذلون المسلمين وينالون من عزيمتهم ، فإذا جد الجد كانوا عند القتال متخاذلين جبناء .

(١٩) « أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا »

هؤلاء المنافقون لا ينفقون فى سبيل الله إن دعوا إلى الإنفاق ، وإذا أصابوا من الغنائم شيئاً ضنوا به وحرصوا عليه .

ومن كان هكذا حريصاً على الدنيا أسير متاعها الفانى ، فلا تتوقع منه صلابة فى الجهاد ، ولا قوة فى العزيمة ، بل هذا الصنف إذا جاء الخوف ، ولاحت نذر الخطر ، انخلعت قلوبهم و « رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت » ، وتظهر فى هذه اللحظة حقيقة نفوسهم الخاوية العارية من الإيمان واليقين .

فإذا ذهب الخوف عادوا إلى طبائعهم يبسطون ألسنتهم بالسوء فى الرسول وفى المسلمين .

أيمكن بعد هذا أن تكون هذه أخلاق مؤمنين ؟ ! لقد أجاب الله فى قوله : « أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم » .

(٢٠) « يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا »

يعلل القرآن سبب ما أبداه الجبناء والمنافقون من تخاذل وخيانة أنهم لم يكونوا — حين قالوا ما قالوا وفعلوا ما فعلوا — يعرفون أن جيوش الأحزاب وحلفاءهم قد خذلها الله فانصرفت ، وكانوا يظنون أنهم باقون وسيحاربون ، وأن نهاية الرسول والمسلمين قد أوشكت ..

ولو أن الأحزاب عادوا إلى القتال لتمنى هؤلاء أن لم يكونوا بين المسلمين ، وأن لو كانوا بعيدين عنهم يعرفون أخبارهم ليشمتوا بهم من غير أن يصيبهم ضرر .

(٢٢) « وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا »

لما رأوهم يوم الخندق قالوا : صدق وعد الله ورسوله ، لأن الرسول ﷺ كان قد خطبهم عام ذكرت الأحزاب ، فقال « أخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليهم ، فأبشروا بالنصر » .

فاستبشر المسلمون وقالوا : موعد صادق ، إذ وعدنا بالنصر بعد الحصر .

(٢٣) « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً »

(٢٤) « لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً »

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : غاب عمي أنس بن النضر — وبه سميت — عن قتال بدر ، فشق عليه ذلك لما قدم ، وقال :

غبت عن أول قتال شهده رسول الله ﷺ ، والله لئن أشهد في الله سبحانه قتالا ليرين الله ما أصنع .

فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال :

اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء المشركون ، وأعتذر إليك فيما صنع هؤلاء — يعني المسلمين الذين خالفوا عن أمر الرسول وتسببوا في الهزيمة — ثم مشى بسيفه ، فلقيه سعد بن معاذ فقال :

أي سعد ، والذي نفسي بيده إني لأجد ريح الجنة دون أحد ، ومضى يقاتل المشركين حتى قتل .

قال أنس : فوجدناه بين القتلى به بضع وثمانون جراحة من بين ضربة بالسيف ، وطعنة بالرمح ، ورمية بالسهم ، وقد مثلوا بجثته ، وما عرفناه ، حتى عرفته أخته من أطراف أصابعه ، فأنزل الله في شأنه هذه الآية .

أما « من قضى نحبه » فهو طلحة بن عبيد الله ، الذي ثبت مع الرسول ﷺ يوم أحد ودافع عنه حتى أصيبت يده فقال رسول الله ﷺ : « اللهم أوجب لطلحة الجنة » .

(٢٥) « وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً »

الآية في الأحزاب والمنافقين واليهود الذين ردهم الله عن المسلمين بعد ما حاصروهم يوم الخندق ، كما سبق القول فيه ، لم ينالوا خيراً لا في الدنيا لأنهم أقاموا ما أقاموا دون أن يحققوا نصراً ، بل لقد جهدهم الحصار كما جهد المسلمين ، وختم الله أمرهم بالريح التي آذتهم وشتت شملهم وأكرهتهم على الرحيل .

وهم لم ينالوا خيراً في الآخرة لأن عذاب الله في انتظارهم يوم يلقونه .

(٢٦) « وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً »

(٢٧) « وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً »

هاتان الآيتان فى الذين كانوا عوناً للأحزاب على المسلمين والمراد بهم يهود بنى قريظة الذين سبقت الإشارة إلى حديثهم .

وقد أنزلهم الله من صياصيهم أى من حصونهم حين سعى إليهم الرسول والمسلمون بعد انصراف الأحزاب ، وحاصرهم ، حكموا فيهم سعد بن معاذ فقضى بأن يقتل المقاتلون منهم وتسبى الذرارى والنساء ففعل ذلك بهم وهذا معنى قوله : « فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً » .

ثم أورث الله المسلمين ديارهم وأموالهم ، كما وعدهم « حنين » التى لم يكونوا قد نالوها بعد .

(٢٨) « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً »

(٢٩) « وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً »

تتضمن الآيتان تخيير الرسول ﷺ لأزواجه بين ما يردن من الدنيا ، وبين الله ورسوله والدار الآخرة .

وكان سببها : أن بعض زوجات الرسول ﷺ سألنه بعض متاع الحياة الدنيا مما تسأله المرأة من زينة .

ويروى البخارى عن جابر بن عبد الله قال : دخل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم .

قال : فأذن لأبى بكر ، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له ، فوجد النبى صلى الله عليه وسلم جالساً — حوله نساؤه — واجماً ساكتاً .

فقال أبو بكر : والله لأقولن شيئاً أضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله : لو رأيت بنت خارجة — يعنى زوجه هو — سألتنى النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها ؟ فضحك رسول الله ﷺ وقال : « هن حولى كما ترى يسألننى النفقة » .

فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها ؛ وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها ، وكلاهما يقول :

تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده !؟

فقلن : « والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً أبداً ليس عنده . ثم اعتزلهن الرسول صلى الله عليه وسلم شهراً ، أو تسعاً وعشرين ، ثم نزلت هذه الآية ، فى التخيير .

قال : فبدأ بعائشة فقال :

يا عائشة إنى أريد أن أعرض عليك أمراً أحب الا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك ، فقالت : وما هو يارسول الله ؟

فتلا عليها الآية ، فقالت : أفيك أستشير أبوى ؟ ! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأسألك الا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلت .

قال : « لا تسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها ، إن الله لم يبعثنى معنتاً ولا متعنتاً ، ولكن بعثنى معلماً ميسراً » ، وكما فعلت عائشة فعل بقية أزواج النبى رضوان الله عليهم .

(٣٠) « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا »

(٣١) « وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا »

فى الآية إشعار لنساء النبى بأنهن لسن كأحد من النساء كما جاء فى الآية ، ومن ثم فلا ينبغى لهن أن يقسن أنفسهن بغيرهن من النساء .

وإذا كانت نساء أخريات تسعدهن الدنيا وزينتها ، ويجدن فيها كل متاعهن فأزواج النبى سعادتهن ، فى القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدنيا ، وفيما ينتظرهن من نعيم مقيم فى الآخرة .

كما أنه إذا كانت الزوجات الأخريات يستساغ منهن أن يتمتعن بالدنيا فكيف بزوجات الرسول وأمهات المؤمنين ، وقدوة نساء الأمة أن يكن على شاكلتهن .

إن لأزواج النبى وضعاً خاصاً كرمهن الله به ، ويحثهن عليه والدليل على تميزهن أنه بينما يجوز للمرأة أن تتزوج بعد وفاة زوجها فإن هذا لا يحل لزوجات الرسول .

ودليل آخر جاءت به هذه الآية وهو أن منزلة زوج الرسول ضعف منزلة أية زوجة أخرى فى الثواب والعقاب.

فهى إن جاءت بفاحشة مبينة — كالزنا حاشا لله ولرسوله — فعليها ضعف ما على المحصنة المسلمة من العذاب .

وإن قنتت لله وأطاعته ، وعملت الصالحات آتاها الله أجرها مرتين . فهن إذاً لسن كالنساء ، وما ينبغى لهن أن تنصرف رغباتهن لمثل ما تنصرف إليه رغبات الأخريات من نساء العالمين .

ولقد أكرمهن المولى سبحانه لما اخترن الرسول على متاع الدنيا بأن حرم على الرسول فراقهن ، أو حتى أن يتزوج بعدهن فى قوله تعالى : « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج » .

ويروى أن عمر رضى الله عنه كان كثيراً ما يقرأ فى صلاة الصبح سورة الأحزاب هذه ، وكان إذا بلغ هذه الآية « يانساء النبى » رفع بها صوته ، فسئل فى ذلك فقال « إنى أذكرهن العهد » .

(٣٢) « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً »

(٣٣) « وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً »

تستكمل الآيات بيان الفارق بين نساء النبى ﷺ وبين غيرهن من النساء فى الفضل والشرف .

وعليه فمن واجبهن إذا كلمن الرجال ألا يفعلن كما كانت تفعل نساء العرب من لين فى القول وترخيم فى الصوت ، وعرض ملامح الأنوثة ، بل عليهن ألا يخضعن فى القول ، وأن يكون كلامهن جزلا قوياً يؤدى المراد منه ، ولا يترك فى قلب السامع أى ظل من ريبة . أو أى مجال لهاجس من هواجس الشيطان .

ومنه ندب العلماء المرأة إذا خاطبت أجنبياً عنها أن تشدد صوتها حتى تأمن وتؤمن .

ولذا كانت الآية الثانية « وقرن فى بيوتكن » متممة لمعنى ما سبق من وجوب صيانة النفس عن كل ما قد يريب ، فأمرن بلزوم البيت وعدم الخروج منه إلا لضرورة ، وأمرن بأن يقتصدن فى زينتهن إلى حد الكفاف بلا تبرج .

ثم أمرن بالإكثار من أسباب صيانة النفس وتقويتها على الخير كإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله .

وفى ختامها بين سبب هذه التكاليف أو هذه الوصايا فقال : «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

وكما طهر الله رسوله من كل رجس عن طريق الملكين والعصمة كما هو معروف ، يريد أن يطهر آل بيته باتباع ما أمر به هنا ، والاقتداء بالرسول ولزوم طاعته صلوات الله عليه .

(٣٤) « وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً »

وحسبكن يا نساء النبي شرفاً وتكريماً ، ويكفيكن فضلا ، ومعونة على التطهر والسمو أن تذكرن ما يتلى في بيوتكن من الوحي السماوي ، وما تحشنه مع الرسول كل يوم وكل ساعة من أخلاق وسلوك لا تظفر به الزوجات الأخريات مع أي زوج . أثمة نعمة أخرى توازي ما تنعمون به ظفرت بها أنثى ! !

(٣٦) « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا »

والسبب الذي نزلت من أجله هذه الآية : أن رسول الله ﷺ خطب زينب بنت جحش وكانت بنت عمته ، فظنت أنه خطبها لنفسه فقبلت ، فلما تبين أنه خطبها لزيد بن حارثة امتنعت ، امتنع أخوها ، وقالوا إنها ذات المكانة من قريش ، وزيد ما كان إلا عبداً بالأمس ، فلما نزلت هذه الآية قال أخوها : مرني بما شئت . فزوجها من زيد .

وقيل بل نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وكانت وهبت نفسها للنبي ﷺ ، فزوجها من زيد بن حارثة فكرهت ذلك هي وأخوها وقالا ؟ :

إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجنا غيره ، فنزلت الآية فاستجابا إلى تزويج زيد .

وفي الآية دليل واضح على أن الكفاءة في الزواج ليست بالحسب والنسب كما كان المترضون يظنون ، وإنما هي في الدين والخلق وإن كان للعلماء في هذا كلام .

(٣٧) « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا »

هذه أشد آية نزلت على رسول الله، ولو كان يستطيع كتمان شيء مما أوحي إليه لكتم هذه الآية لشدتها عليه كما قالت عائشة رضي الله عنها .

ومن هذه الآية حتى نهاية الآية الأربعين يتناول القرآن بالتفصيل موضوع زيد بن حارثة رضي الله عنه ،

والقول فى تبنى الرسول ﷺ له ، وحدود هذه البنوة ، ثم يتناول كذلك قصة زواجه من زينب بنت جحش وما انتهت إليه .

وفى الخبر أن زيد بن حارثة بعد ما قبلت زينب زواجه منها كما مر ، أمسى فأوى إلى فراشه ، وقالت زينب : ولم يستطعنى زيد وما أمتنع منه ، غير ما منعه الله منى ، فلا يقدر على.

ثم جاء زيد إلى رسول الله ﷺ فقال : إن زينب تؤذينى بلسانها وتفعل وتفعل ، وإنى أريد أن أطلقها فقال له الرسول ﷺ : أمسك عليك زوجك واتق الله » .

وفى قوله « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه »: اختلف المفسرون . فقيل : إن الرسول صلى الله عليه وسلم وقع منه استحسان لزينب بنت جحش ، وربما كان يحب أن تطلق ، فلما جاءه زيد ، وأخبره بسوء ما بينهما ، وباعتزامه طلاقه ، قال له الرسول « أمسك عليك زوجك » وإن كان فى نفسه لايريد له أن يمسكها . فهذا ما أخفاه الرسول ، وما أعلنته الآية ، ومن هنا وجه شدة الآية على الرسول التى أشارت إليها عائشة رضى الله عنها ، فكأنه كان يخفى شيئاً ، ولكنه التزم أمر الله فقال ما ينبغى أن يقال .

وروى على بن الحسين : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيداً يطلق زينب ، وأن الرسول سيتزوجها بتزويج الله إياها له .

فلما جاء زيد وتشكى منها للرسول صلى الله عليه وسلم وأعلمه بعزمه على طلاقها قال له الرسول صلى الله عليه وسلم على جهة الوصية والتأدب « اتق الله وأمسك عليك زوجك » مع أنه يعلم أنه سيفارقها بما أوحى الله إليه ، وأنه هو الذى سيتزوجها .

ولم يرد الرسول أن يأمره بطلاقها ، مخفياً فى نفسه ماعلم خشية أن يلحقه قول الناس فى أنه تزوج زينب من بعد زيد وربيه ومولاه فعاتبه الله سبحانه فى ذلك أى فى هذا القدر من خشية لائمة الناس فى أمر قد أباحه الله له ، وأعلمه بأن الله أحق أن يخشى منه . وأحق بأن يستحى منه فى كل حال .

وعلى هذا القول يمضى أكثر المحققين من المفسرين .

أما ما قاله المنافقون من ذلك وما خاضوا فيه ، فهو ما لا يليق برسول الله ولا يتفق وعصمة الأنبياء ، ولو كانت برسول لله رغبة فيها ، فما الذى كان يمنعه منها ، وقد روينا فى صدر هذا الحديث أن زينب نفسها وأخاها معها كانا فى البداية يعترضان على زيد ، ويرغبان فى الرسول .

ولكن تزويجها من زيد كان من قدر الله إلى الحد الذى نزلت فيه آية تنكر على المؤمنين أن يختاروا لأنفسهم بعد اختيار الله لهم كما قال : « وماكان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة ».

« فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها » .

لما انتهى أمرها مع زيد زوجها الله للرسول بنص الآية ، ويروى أن زينب كانت تفاخر نساء النبي بذلك وتقول: « زوجكن آباؤكن ، وزوجني الله تعالى » .

والحكمة في ذلك — أى فى تزوج النبي امرأة زيد ، وكان متبناه ، هو إباحة الزواج من زوجة الابن بالتبنى لتأكيد الفارق بينه وبين الابن فى النسب ورفع الحظر عنه فى ذلك .

وبصفة عامة ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم ولغيره من الرسل خصوصيات لا تشركهم فيها أممهم كما قال سبحانه :«ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل » .

ولما حدث هذا قال الناس : تزوج امرأة ابنه — إذ كانوا يسمونه زيد بن محمد ، كما تقدم . فقررت الآية رفض هذا القول وأكدت أن المتبنى ليس كالإبن ولكنها أبوة مودة وتبجيل ورحمة ، ولا تترتب عليها قواعد التحريم فى أمور الزواج .

(٤٩) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً »

فى الآية بيان واضح لحكم المرأة إذا تزوجها رجل ثم طلقها قبل الدخول بها فلا عدة عليها فى هذه الحالة بنص الكتاب وإجماع الأمة . فإذا دخل بها فعليها العدة بالإجماع .

وفى قوله : « وسرحوهن » قيل : المراد به دفع المتعة بحسب الحال عسراً أو يسراً ؛ وقيل : المراد أنه متى وقع الطلاق وجب تسريح المرأة إلى أهلها فلا تقيم مع من طلقها تحت سقف واحد .

أما قوله « فمتعوهن » فقيل هى منسوخة هنا بآية البقرة « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف مافرضتم » فقد أوجب نصف المهر ولم يوجب المتعة .

(٥٠) « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا »

معنى : أحللنا يتضمن أنه كان قد سبقه حظر وتحريم ، وهو ما ذهب إليه بعض العلماء فى تفسير هذه الآية

باعتبار أنها نزلت بعد آية « لا يحل لك النساء من بعد ، ولا أن تبدل بهن من أزواج » والتى كانت كالتقدير لزوجات النبي على إيثارهن الله ورسوله على متاع الدنيا .

فكأن هذه الآية نسخت السابقة ، وأحلت له ما كان حرم ، وأيضاً بدليل أن هذه الآية ذكر فيها قوله تعالى : « وبنات عمك وبنات عماتك » ممن يحل له التزوج بهن ، وحين نزلت لم يكن تحت الرسول منهن أحد ، فتأكد بهذا أن المراد التحليل ابتداء .

وقال بعض المفسرين المراد بـ « أحللنا لك أزواجك » أى اللاتى عندك لأنهن قد اخترنك على الدنيا والآخرة ، وعلى هذا جمهور المفسرين ، ويستدلون عليه بقوله : « آتيت أجورهن »فهذا الإيتاء للأجور ماض ، ومعناه ما قد أتى ، لا ما يمكن أن يؤتى فى المستقبل .

وفى قوله تعالى « وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي » روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « لم تكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة إلا بعقد نكاح ، أو ملك يمين ، فأما الهبة فلم يكن عنده منهن أحد » .

وقيل : بل كانت عنده موهوبة بدليل ماروى مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كنت أغار على اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله وأقول : أما تستحى امرأة أن تهب نفسها لرجل ، حتى نزل قوله تعالى « ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء » فقلت له : والله ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك » .

وقوله تعالى : « خالصة لك من دون المؤمنين » تحديد صريح بأن هذا الضرب من الزواج بالهبة خاص برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يجوز لغيره من المؤمنين .

ولقد اختص الله رسوله بأشياء ما أبيحت لغيره ، وفرض عليه أشياء ما فرضت على غيره تكريماً له صلى الله عليه وسلم وتمييزاً لمنزلته بين الناس ، والكلام فى تفصيل ما اختص به لايتسع له المقام الآن .

(٥١) « تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا »

معنى الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان حراً ومخيراً فى أن يقسم لزوجاته أولا يقسم لهن ، وأنه له أن يؤوى إليه منهن من يشاء ، ويرجىء من يشاء ، وحكمة التصريح بهذا التخيير للرسول أن تعلم زوجاته أن هذا من حكمة الله وليس عن هوى للرسول يؤثر به هذه على تلك ... فإذا علمن أن هذا قدر الله اطمأنت نفوسهن وكان ذلك أدعى إلى مرضاتهن كما قال : « ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن » .

ومعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم مع هذه الحرية التي اختصه الله بها كان يشدد على نفسه في المساواة بينهن تطييباً لقلوبهن، وكان يقول :

« اللهم هذه قدرتي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » . يعني ميل قلبه إلى عائشة .

(٥٢) « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا »

لا تحل له النساء من بعد من ذكرن في الآية السابقة « يأيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن ... الآية » .

وقد سبق القول في أن هذه الآية نسختها آية الإحلال السابقة ، كما نسختها السنة لحديث عائشة رضي الله عنها قالت : « مامات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل له النساء » .

وما روى الطحاوي عن أم سلمة قالت : لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله أن يتزوج من النساء من شاء إلا ذات محرم » وذلك قوله عز وجل « ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ... الآية » .

وفي قوله « إلا ماملكت يمينك » يروى بعض المفسرين أن تستثنى منه الأمةُ الكافرة ولو كانت جميلة وأعجبه حسنها ، وذلك تنزيهاً لقدر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مباشرة الكافرة أخذاً من قوله تعالى « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » فإذا كان هذا عاماً للمسلمين فكيف برسول الله .

(٥٣) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا »

تتضمن هذه الآية ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنين في أدبهم مع الرسول وخاصة في بيته صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن عباس رضي الله عنه : نزلت في ناس من المسلمين كانوا يتحينون طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم

فيدخلون قبل أن يدرك الطعام ، فيقعون إلى أن يدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون .

وأكثر المفسرين يقول إن سبب نزولها أنه لما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش أولم عليها بتمر وسويق ، وذبح شاة .

قال أنس بن مالك : فأمرنى النبى صلى الله عليه وسلم أن أدعو أصحابه إلى الطعام ، فجعل القوم يجيئون فيأكلون فيخرجون ، ثم يجىء القوم فيأكلون فيخرجون .

فقلت : يانبى الله قد دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه فقال : ارفعوا طعامكم فرفعوا ، وخرج القوم وبقى ثلاثة أنفار يتحدثون فى البيت ، فأطالوا المكث ، فتأذى منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان شديد الحياء فنزلت هذه الآية وضرب رسول الله ﷺ بينى وبينه ستراً .

وأما الحجاب فى قوله «فاسألوهن من وراء حجاب » فيروى عن عائشة وغيرها أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزلت الآية .

وروى أن عمر رضى الله عنه قال : وافقتُ ربى فى ثلاث : فى مقام إبراهيم ، وفى الحجاب ، وفى أسرى بدر.

(٥٥) « لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِى آبَائِهِنَّ ولاَ أَبْنَائِهِنَّ ولاَ إِخْوانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ ولاَ أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ ولاَ نِسَائِهِنَّ ولاَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ واتَّقِينَ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيداً »

نزلت هذه الآية بعد نزول آية الحجاب وفيها بيان لمن يصح للمرأة ألا تحتجب منه ، وإذا كانت هذه الآية لم تحدد جميع المحارم فقد استكملت هنا فى سورة النور .

ويبرز فى الآية قوله سبحانه « واتقين الله » كما يبرز فيها قوله «إن الله كان على كل شىء شهيداً» . وكأنما المراد إن ما يطلب إلى المرأة أو ما يطلب إليها مع الرجل من رعاية الحجاب ثم ما يحدد بعد من تفاصيل فى ذلك إنما أساسه كله شيئان .

الأول داخلى ينبع من نفس الرجل والمرأة ، وينبغى أن يكون وازعهما على الدوام وهو تقوى الله ، وخشيته ومراقبته ، وحين تتوافر التقوى تحرك فى الإنسان كل نوازع الخير ، وتقوده دائماً صوب كل كمال .

والثانى : هو وجود الشهيد الأعظم الذى لا تخفى عليه خافية ، والذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور سبحانه ،وحين يستحضر المؤمن أن الله شاهده ومراقبه يكون ذلك حسبه ليستقيم أمره ، وليعجز الشيطان عن إغوائه .

(٥٦) « إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً »

الصلاة على النبي مأمور بها فى كل حين ، غير أن إيراد الأمر بها فى هذه السورة ، وبعد ما كان من أمر زينب بنت جحش ، وما تقوّله المشركون والمنافقون فى ذلك يجعل هذه الآية وكأنها دفاع عن الرسول ، وتنىّ قاطع لكل ما قيل ، وما يمكن أن يقال .

وفى فضل الصلاة على النبي يقول الرسول ﷺ : « من صلى علىّ فى كتاب لم تزل الملائكة يصلون عليه ما دام اسمى فى ذلك الكتاب » .

ويقول : « ما منكم من أحد يسلم علىّ إذا مت إلا جاءنى سلامه مع جبريل يقول يا محمد ، هذا فلان بن فلان يقرأ عليك السلام فأقول وعليك السلام ورحمة الله وبركاته » .

وقال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : « الصلاة على محمد ﷺ أفضل العبادات لأن الله تعالى تولاها هو وملائكته ، ثم أمر بها المؤمنين ؛ وسائر العبادات ليس كذلك » .

وروى سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : « الدعاء يُحجبُ دون السماء حتى يصلى على النبي ﷺ ؛ فإذا جاءت الصلاة على النبي ﷺ رفع الدعاء » .

(٥٧) « إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا »

فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال الله تبارك وتعالى : « يؤذينى ابن آدم يقول : يا خيبة الدهر ، فإنى أنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره ، فإذا شئت قبضتهما » . ومفهوم الحديث أن سب الدهر إيذاء الله .

ومن إيذائه سبحانه : افتراء الكذب عليه ، وادعاء الولد له والصاحبة ، وادعاء الشريك له فى ملكه ، ثم من إيذائه وصفه بما لا يليق كقول من قال « إن الله فقير ونحن أغنياء » وقول من قال « يد الله مغلولة » ، وقول اليهود « عزير ابن الله » وقول النصارى « المسيح ابن الله » وما إلى ذلك مما لا يليق بجلاله سبحانه .

أما إيذاء الرسول فقال ابن عباس رضى الله عنه : إن الآية نزلت فى المنافقين الذين طعنوا على رسول الله ﷺ لما اتخذ صفية بنت حيى بن أخطب بعد يوم الأحزاب وقالوا ما قالوا . .

وقيل : بل هى فى الذين طعنوا على الرسول لما كان منه من تكريم لأسامة بن زيد ، وقيل غير ذلك ، وإيذاء الكفار والمشركين والمنافقين النبي ﷺ لا يحتاج إلى أن ندل عليه ، فقد آذوه جميعاً ، بالقول وبالعمل، واستحقوا أن يلعنهم الله ويطردهم من رحمته وأن يكون لهم فى الآخرة العذاب الأليم .

(٥٨) « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا »

سبق القول فى معنى هذه الآية عند تفسير قوله سبحانه فى سورة النساء « ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » .

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لأبىّ بن كعب : قرأتُ البارحة هذه الآية ففزعت منها : فإنى والله أضربهم وأنهرهم ؛ فقال له أبى : يا أمير المؤمنين لست منهم ، إنما أنت معلم ، ومقوّم .

أقول : وما كان لعمر رضوان الله عليه أن يفزع فإن المنهى عنه بنص الآية أن يكون الإيذاء بغير ما اكتسبوا ، أى بغير جريرة أو ذنب ، أما يكون الإيذاء عقاباً على جرم ، فهو القصاص وفيه الحياة ، وهو الجزاء نتيجة العمل ، ولكن عمر رضوان الله عليه كان يخاف ربه حق فيما لا يخاف . ومن ثم كان أعدل الخلفاء وصار بعدله المثل رحمة الله ورضوانه عليه .

(٥٩) « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً »

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ما يمنع المرأة المسلمة إذا كانت لها حاجة أن تخرج فى أطمارها أو أطمار جارتها مستخفية ، لا يعلم بها أحد حتى ترجع إلى بيتها » .

وروى أن نسوة من بنى تميم دخلن على عائشة رضى الله عنها وعليهن ثياب رقاق فقالت عائشة :

« إن كنتن مؤمنات فليس هذا بلباس المؤمنات ، وإن كنتن غير مؤمنات فتمتعن به » .

وأدخلت امرأة عروس على عائشة رضى الله عنها وعليها خمار قبطى معصفر ، فلما رأتها قالت :

« لم تؤمن بسورة النور ؟ ! أمرأة تلبس هذا ؟ !

وقد روى عن الرسول ﷺ قوله : « نساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات رءوسهن مثل أسنمة البخت ، لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها » .

(٦٠) « لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً »

(٦١) « مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً »

(٦٢) « سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً »

رأينا فى هذه السورة وفى غيرها من قبل أكثر من أمر من أمور المنافقين . فهم تألبوا مع الأحزاب يوم الخندق ، وكانوا أعيناً على المسلمين فى الموقف الدقيق ، وهم قد أساءوا إلى الرسول وأحبوا أن يشيعوا الفتنة بين المسلمين

فى حديث الإفك ، وهم الذين خاضوا فى الرسول فى أمر زينب بنت جحش ، وهم الذين قعدوا عن القتال ، وتعللوا بالأموال والأولاد ، وهم الذين لا يؤمن غدرهم ، وتخشى خياناتهم . .

من أجل هذا هددهم القرآن الكريم فى عبارة حاسمة كمن يعطى الإنذار الأخير لعدوه قبل أن يؤذنه بالحرب : لئن لم ينتهوا لنغرينك بهم فنستأصل شأفتهم ، وتأخذهم حينا ثقفوا فيقتلوا تقتيلا .

والجزاء عادل فإنما « جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » .

وليس أشد على الإسلام من عدو يخون المسلمين وهو مقيم بينهم ، وهم فى حال حرب ، والعدو متربص ، ودولة المسلمين لم تبلغ منطقة الاطمئنان بعد .

(٦٣) « يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا »

روى أن قوماً من هؤلاء المنافقين لما نزلت الآيات السابقة تهددهم وتوعدهم سألوا الرسول عن القيامة استبعاداً لها ، وتكذيباً بالوعيد فأمر بأن يجيد القول عليهم بأن علمها عند الله ، وقد مضى القول فى هذا فلينظر فى مواضعه .

(٦٩) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا »

روى أبو هريرة رضى الله عن النبى ﷺ قال : « كان بنو إسرائيل يغتسلون عراة ، وكان موسى عليه السلام يتستر ، ويخفى بدنه ، فقالوا : هو آدر[1] ، أو أبرص ، أوبه آفة . فانطلق ذات يوم يغتسل فى عين بأرض الشام ، وجعل ثيابه على صخرة ، ففر الحجر بثيابه ، واتبعه موسى عرياناً يقول : ثوبى حجر ، ثوبى حجر[2] ، حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل ، فنظروا إليه ، وهو من أحسنهم خلقاً ، وأعدلهم صورة ، وليس به الذى قالوا .

وقيل إن إيذاءهم لموسى لم يكن كذلك ، وإنما كان باتهامهم إياه بقتل أخيه هارون .

وذلك أن موسى عليه السلام خرج وأخاه هارون من مكان فى التيه إلى جبل فمات هارون به ، فجاء موسى

---

(١) مصاب بالأدرة وهى انتفاخ الخصية .

(٢) معناه . دع ثوبى ياحجر .

قومه فقالت بنو إسرائيل : أنت قتلته ، وكان ألين لنا منك وأشد حباً ، فآذوه بذلك ، فأمر الله الملائكة فطافت به في بني إسرائيل ، ولم يكن فيه أي أثر القتل .

ولما كان سبحانه قد ذكر المنافقين وذكر الكفار والمشركين الذين آذوا الرسول ، استتبع ذلك تحذير المؤمنين من التورط في إيذاء الرسول كما فعل هؤلاء تشبهاً بهم ، أو كما فعل بنوا إسرائيل بموسى عليه السلام .

ولقد حدث أن قسم صلى الله عليه وسلم قسماً في إحدى الغنائم ، فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله .

فذكر ذلك للنبي ﷺ فغضب وقال : « رحم الله موسى ، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » .

(٧٢) « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً »

(٧٣) « لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً »

هذا العرض الذى عرضه المولى سبحانه للأمانة : أهو على سبيل الحقيقة ؟ أم على سبيل المجاز ومن قبيل ضرب المثل ؟

وهل الإنسان الذى ورد ذكره في الآية هو إنسان بعينه أى هو آدم عليه السلام ؟ أم هو جنس الإنسان حيثما وجد الإنسان ؟

وهذه الأمانة التى عرضت : أهى الأمانة التى ضدها الخيانة ؟ أم هى مافرض الله على الإنسان من فرائض ؟ أم هى شىء غير ذلك ينفرد سبحانه بعلم حقيقته ؟

مذاهب شتى خاض فيها المفسرون ، وتأولوها ، كلٌّ حسبما هداه اجتهاده .

ولعل من الخير أن نحصى ماقيل فى هذا المقام :

قال ابن عباس رضى الله عنه وأصحابه : « الإنسان » هنا آدم . تحمل الأمانة فما تم له يوم حتى عصى المعصية التى أخرجته من الجنة .

وقيل — عن ابن عباس أيضاً — إن الله تعالى قال له : أتحمل هذه الأمانة بما فيها ؟ قال وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جُزيت ، وإن أسأت عوقبت. قال: أنا أحملها بما فيها بين أذنى وعاتقى . فقال الله تعالى له : إنى سأعينك، قد جعلت لبصرك حجاباً فأغلقه عما لا يحل لك ، ولفرجك لباساً فلا تكشفه إلا على ما أحللت لك .

فمعنى حمل الأمانة — فيما روى عن ابن عباس — هو التزام الإنسان القيام بحقها وهو فى ذلك ظلوم لنفسه ، أو ظلوم للأمانة جهول بقدرها .

وروى على بن طلحة عن ابن عباس أيضاً قوله : الأمانة ، الفرائض ، عرضها الله عز وجل على السموات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم ، وإن ضيعوها عذبهم . فكرهوا ذلك ، وأشفقوا منه — من غير معصية ولكن تعظيما لدين الله عز وجل ألا يقوموا به ، ثم عرضها الله على آدم فقبلها بما فيها .

وقد اختلف فى تفصيل هذه الفرائض التى عرضها الله ليأمن عليها عباده .

فقيل : هى الصلاة ، وقيل : هى أمانة المال : وقيل : أمانة المرأة ، وقيل غير ذلك .

وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« قال الله تعالى لآدم — عليه السلام — يا آدم إنى عرضت الأمانة على السموات والأرض فلم تطقها ، فهل أنت حاملها بما فيها ، فقال : وما فيها يارب ؟ قال : إن حملتها أجرت ، وإن ضيعتها عذبت ، فاحتملها بما فيها فلم يلبث فى الجنة إلا قدر مابين صلاة الأولى إلى العصر ، أخرجه الشيطان منها » .

ويلاحظ أن ما قيل فيها — مما يعتد به ليس سوى اجتهادات لاتكاد تستند إلى أدلة ذات قوة وحسم .

والدليل الوحيد الذى عرض فى هذا الشأن هو حديث الرسول ﷺ ، والذى رويناه آنفاً . والواضح فيه أن الرسول ﷺ لم يحدد ماهى الأمانة التى عرضها المولى سبحانه على آدم .

والذى أراه — أخذاً من أسلوب الآية نفسها فى تعظيم شأن الأمانة ، وإظهار ثقلها ، وضخامة تبعاتها حتى لتشفق السموات والأرض والجبال من حملها . ثم أخذاً من حديث الرسول ﷺ . هو أن الأمانة التى عرضها الله أعظم بكثير مما قاله المفسرون . وأن الإنسان حين عرضت عليه فقبلها كان جاهلا بخطرها ، ومن ثم عرض نفسه لتبعة هى أكبر منه ، ومن هنا كان ظلمه لنفسه فى التصدى لما هو أكبر من طاقته .

وإذا كان الرسول صلوات الله عليه لم يحدد فيما روى عنه ما هى الأمانة ، فما أعجزنا إذ نخوض فى تحديد أمر أشفقت السموات والأرض والجبال أن تحمله .

تفسير سورة سبأ

(١) « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ »

وليس أجدر بالحمد منه سبحانه هو الخالق الرازق ، المبدئ المعيد ، المعز المذل ، خلقنا فأحسن صورنا ، ورزقنا من الطيبات ، وفضلنا على كثير ممن خلق ، وسخر لنا ما في الكون ، وبسط علينا من فضله ورحمته ، يحسن إلينا فنسكفره فلا يحرمنا رزقه ، يجيبنا إذا دعوناه ، ويغضب إن سألنا غيره ، وهو أرحم بعباده من الأم بوحيدها . سبقت رحمته غضبه ، وسبق لطفه قضاءه ، أليس بعد هذا كله جديراً بأن نحمده سبحانه له الحمد في الأولى ، وله الحمد في الآخرة ، وهو الحكيم الخبير .

(٢) « يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ »

ويعلم ما في ظلمات البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين . ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . يعلم ما بين أيدينا وما خلفنا ، ولا نحيط بشيء من علمه إلا بما شاء . سبحانه هو الخالق ، وما أجدر الخالق أن يحيط بعلم ما خلق .

(٣) « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ »

(٤) « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ »

تقرر الآيتان : أن الساعة حق وأنها آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وهو حين يبعثهم عالم بكل شيء لايغيب عنه مثقال ذرة في كونه وإذا كان كذلك فأعمال الخلق جميعاً بين يديه يحاسبهم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى .

(٥) « وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ »

تتضمن الآية بيان أمور ثلاث: أولها الإشارة إلى أعمال أولئك الكفار وما بذلوه لصد عن سبيل الله والكفر به ، وهذا ما تضمنه ذلك التعبير الرائع فى قوله «سعوا فى آياتنا» .

والثانى : إثبات حالة هؤلاء الكفار ، وما كانوا يتصورونه من أنهم حين يصدون عن سبيل الله يعجزون الله فلا ينالهم بطشه ، ولا يدركهم حسابه .

والثالث : تقرير ما ينتظرهم من العذاب الأليم .

(٦) « وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ »

الذين أوتوا العلم: قيل هم جميع من آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما أنزل عليه فاهتدوا بما عرفوا إلى الحق.

وقيل : هم المؤمنون من أهل الكتاب ، كانوا على بينة مما جاء به الرسول فتقبلوه وصدقوه ، وعرفوا أنه الحق المصدق لما معهم .

وعن ابن عباس : هم أصحاب رسول الله ﷺ ، والأول أولاها .

والمعنى أن الذين آمنوا بالقرآن ، يعلمون أنه الحق ويهدى إلى الصراط المستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض .

(٧) « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ »

(٨) « أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ »

تحكى الآيتان صورة من صور التكذيب التى تعرض لها الرسول صلى الله عليه وسلم فهؤلاء الكفار يقولون لمن على شاكلتهم ساخرين مستهزئين ، ألا تريدون أن تروا عجبا ؟ ! رجل يقول لكم إنكم بعد أن تصبحون ترابا ستبعثون من جديد ؟ !

ويصور التعبير بكلمة « ندلكم على رجل » هكذا دون ذكر اسم أو صفة وكأنه — حاشا لله ورسوله — نكرة لا يعرفه أحد . . يصور هذا حالة السخرية والاستهزاء التى كان الكفار يبثونها وهم يعاملون النبى ويتحدثون عنه .

ويحكى فى الآية الثانية بعض ماقالوه عن الرسول متهمين إياه بافتراء الكذب على الله أو بأنه قد أصابته جنة . ثم يرد عليهم فى الحالتين مقرراً أنهم هم الذين يعيشون فى الضلال ، وأن لهم العذاب فى الآخرة .

(٩) « أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ »

ألا يفكر هؤلاء الجاحدون ، ويعملوا عقولهم ، ألا يرون ما يحيط بهم من آثار قدرة الخالق ، مما يدل كل شىء منها على وجوده سبحانه ، وعلى أنه المحيط بهذا كله ورب الأمر فيه ، وأنه بهذا قادر على أن يخسف بهم الأرض ، أو يسقط عليهم السماء .

ألا يرون ولا يفكرون ؟ إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب ينتفع بما يرى فى تأكيد إيمانه ، وتقوية يقينه .

(١٠) « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ »

(١١) « أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »

يقول القرطبى ، بين الله لمنكرى نبوة محمد ﷺ أن إرسال الرسل ليس أمراً بدعاً ، بل أرسلنا الرسل وأيدناهم بالمعجزات ، وأحللنا بمن خالفهم العقاب » .

وقد اختلف العلماء فى « الفضل » الذى آتاه الله داود عليه السلام على تسعة أقول : هى أن الفضل : النبوة ، أو: إيتاؤه الزبور كما قال : « وآتينا داود زبوراً » أو إيتاؤه العلم كما قال سبحانه « ولقد آتينا داود وسليمان علماً » أو إيتاؤه القوة كما قال سبحانه « واذكر عبدنا داود ذا الأيد » . أو تسخير الجبال والطير معه كما تقرر هذه الآية : أو التوبة عليه كما قال « فغفرنا له ذلك » ، أو الحكم بالعدل كما قال « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ، أو إلانة الحديد له كما قال : « وألنا له الحديد » . أو حسن صوته على ما هو معروف .

وإذا كان العلماء يرون فضل الله فى واحدة مما سبق ذكره فلم لا يكون جميعاً دليل فضل الله على داود عليه السلام ، وما الداعى إلى الفصل والتخصيص ؟ لا سيما وأن الفضل دائماً على قدر المتفضل فأولى برب الكون حين يتفضل أن يسبغ ويتم .

ويقال فى معنى تأويب الجبال معه أنها تسبح كلما سبح ، وقيل كان إذا قرأ مزاميره رددت الجبال معه ، وقيل كانت تسير بأمره حيث يشاء .

وقيل في معنى إلانة الحديد له : أنه كان يكون بين يديه كالعجين من غير أن يدخل النار فيعمل منه ما شاء .

والجدير بالالتفات أن داود عليه السلام كان يتكسب من إلانة الحديد له بعمل الدروع ويبيعها للناس ، وفيها دلالة على أن أفضل ما يكسب الإنسان من عمل يده كما قال رسول ﷺ « إن خير ما أكل المرء من عمل يده ، وأن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » .

وهو ما تضمنته الآية الثانية « أن اعمل سابغات » أي دروعاً سابغات ، وقدر في سردها ، أي في نسجها بحيث تكون خفيفة الحمل متينة البناء من كل مواضعها .

(١٢) « وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ »

(١٣) « يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ »

وهذا نبي ثان من أنبياء الله يسوق الولى حديثه ليؤكد للمعنى السابق من أن إرسال الرسل وتأييدهم بالمعجزات هو سنة الله في خلقه ، فقد أعطى سليمان عليه السلام السيطرة على الريح تجرى بأمره رخاء حيث يشاء ، ومن المعروف أنه عليه السلام كان يحب الخيل إلى الحد الذى أغفلته يوماً عن الصلاة ففارقها لمرضاة ربه . فيقال : إن الله أبدله ما هو أسرع وأحسن وهو الرياح تحمله متى شاء إلى حيث شاء .

وقوله « وأسلنا له عين القطر » المراد به النحاس المذاب ، ويقال أنها أسيلت له مسيرة ثلاثة أيام كما يسيل الماء ؛ وقيل بل أسيلت له ثلاثة أيام بلياليهن ، وبصرف النظر عن هذا فإسالة عين النحاس لسليمان دليل على ما يقدم الله لأنبيائه من معجزات تؤيدهم بها الناس .

وقد سخر الله لسليمان عليه السلام الجنّ يعملون له ما يشاء ، وقد مضى في سورة النمل تفصيل بعض مظاهر القدرة التى أعطاها الله لهم فى قصة استحضار عرش ملكة سبأ إليه ، فلينظر .

(١٤) « فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ »

ومع ما هو معروف عن الجن من أعمال خارقة ، فإنهم فى ملك سليمان كانوا لا يعلمون إلا ما يحيطهم به .

فلما قضى الله عليه الموت ، لم تعلم الجن به ، ولولا أن حشرة من حشرات الأرض أكلت عصاه فانكسرت فسقط سليمان ميتاً ، لما علموا بموته ، وعندئذ فقط تبينت الجن أن مسائل الغيب لا يعلمها إلا هو سبحانه .

(١٥) « لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ »

(١٦) « فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ »

تحكى هذه الآيات جميعها قصة سبأ ، وما كانوا يتمتعون به فى أرض الله من جنات ، وما بلغته سبأ فى تلك الأزمنة من حضارة .

ثم كيف أن المولى سبحانه لما أعرضوا شدد عليهم العقوبة ، فأرسل عليهم سيل العرم ، وبدلهم بما كانوا فيه جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ، وهذا هو الجزاء الطبيعى لكل كافر لأنعم الله غير شاكر لفضله ، ثم هو الجزاء الطبيعى للانسان حين تبطره النعمة فيطغى وينسى .

والتثنية فى « جنتين » : قيل هى على حقيقتها ، فإنه كان ثمة جنتان لهما ، إحداهما على يمين الوادى والأخرى على شماله ، وقيل : بل المراد أن بلادهم كانت ذات بساتين وأشجار ، وذات ظلال وثمار ينعم الناس ويجدون خيرها مضاعفاً فكأنهما جنتان .

ولبعض المفسرين مقالات فى حديثهم عن جنات سبأ لا تثبت للتمحيص ، وأقربها إلى القبول ما قالوه من أن وصف الله لها بأنها « بلدة طيبة » كان لأن هواءها لا يسمح بأن تعيش فيه الهوام فكان لا يرى فيها الذباب ، ولا الحيات والعقارب ولا البراغيث وغيرها من الهوام . بل ويقال : إنه إذا جاءهم ضيف من خارج المدينة يحمل فى ثيابه شيئاً من ذلك مات على الفور . والله أعلم بحقيقة ما أنعم به .

و « وسيل العرم » قيل هو المطر الشديد ، وهذا منسوب إلى ابن عباس .

وقيل بل « العرم » هو سد بنته « بلقيس » صاحبة سليمان عليه السلام ، بنته بالصخر والقار ، وجعلت له أبواباً ثلاثة بعضها فوق بعض ، وهى مأخوذة من العرامة وهى الشدة .

وقيل : اسم الفأرة التى ثقبت جدار السد حتى أهلكه السيل .

« والخمط » اللبن إذا تغير طعمه ، أو هو كل ما تغير طعمه إلى ما لا يحب الإنسان .

وقيل : شجر ذو شوك وفيه مرارة .

و « الأثل » : ضرب من الشجر معروف .

و « السدر » : نوع من الشجر منه نوعان ، نوع برى لا ينتفع به ولا يصلح ورقه لشىء وثمره لا يؤكل ، ويسمونه « الضال » .

ونوع آخر ينبت على الماء ، وثمره النبق ، وهو يشبه شجر العناب .

(١٨) « وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ »

« بينهم » بين الشام واليمن . جعل الله سبحانه قرى ظاهرة : مرتفعة ، ومتصلة لا يكاد الطريق ينقطع بالسائر فيها ، ويروى أن الأمن فيها بلغ غايته ، لتوفر الخير والزاد والرخاء ، وانتفاء الأسباب التى تحمل على النزاع والفتنة .

(١٩) « فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ »

أبطرتهم النعمة فطلبوا النقمة ، ولم يصبروا على العافية فتمنوا المشقة والكدح كما قال النضر بن الحارث « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » فأتاه الله ما أراد وقتل بالسيف يوم بدر .

وكقول بنى إسرائيل لموسى بعد ما أطعمهم الله المن والسلوى ، وهى من أطيب الطعام .

« ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » .

فكذلك هؤلاء كانت طرقهم آمنة ، وأسفارهم قريبة ، وما يطلبونه من دنياهم ميسور وقريب ، فلما بطروا مزقهم الله كل ممزق وشتت شملهم ، وشردوا لا يستقرون على حال : ولا يذوقون إلا الشقاء والكدح ، وصاروا مثلا يتحدث به الناس وعبرة وذكرى ، وآية من الله لكل صبار شكور .

(٢٣) « وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ »

فى صحيح الترمذى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قضى الله فى السماء أمراً ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنها سلسلة على صفوان[1] ؛ فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ، قالوا الحق وهو العلى الكبير » .

---

(١) الصخر الأملس .

وروى كذلك عن الرسول ﷺ أنه قال : « إن الله إذا أراد أن يوحى بالأمر تكلم بالوحى فأخذت السموات منه رجفة أو رعدة شديدة خوفاً من الله تعالى ، فإذا سمع أهل السموات ذلك صعقوا وخروا لله تعالى سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله تعالى ويقول له من وحيه ما أراد ، ثم يمر جبريل بالملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها :

« ماذا قال ربنا ؟ فيقول جبريل : قال الحق وهو العلى الكبير . قال : فيقول كلهم كما قال جبريل ، فينتهى جبريل بالوحى حيث أمره الله تعالى » .

(٢٨) « وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ »

(٢٩) « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »

(٣٠) « قُل لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلاَ تَسْتَقْدِمُونَ »

الخطاب للرسول ﷺ يؤكد عموم رسالته للناس كافة ، إنسهم وجنهم ، عربيهم وأعجميهم ، بشيراً لمن أطاع بالثواب والخير ونذيراً لمن عصى ، بالعقاب والشر .

ويتساءل الكافرون — ساخرين منكرين — عن يوم القيامة الذى يوعدون فيه الحساب والجزاء فأمر الله رسوله أن يؤكد لهم أن هذا اليوم آت لا ريب فيه ، وأنهم لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون .

وفسرها بعضهم أن اليوم الذى وعدوه هنا كان يوم بدر : إذ كان موعد عذابهم الدنيوى الذى رأوه وذاقوه .

(٣١) « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلاَ بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ »

(٣٢) « قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ »

(٣٣) « وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِى أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

ركب الكافرون رءوسهم وقالوا : لن نؤمن بشىء ، لا بهذا القرآن الذى جاء به محمد ، ولا بالذى بين يديه من الكتب السابقة .

كلام ، لا منطق فيه ولا استقامة له ، ولـكنها حالة العناد التى تصيب الإنسان حين يعمى الله بصيرته فلا يدرى ما فعل ، أو ما يفعل .

ولو ترى يا محمد هؤلاء المعاندين المتجبرين — يوم القيامة ، وهم فى ذلة وهوان . وفزع من العقاب موقوفون عند ربهم تحبس الملائـكة حركتهم وتصادر حريتهم ، ويقع بأسهم بينهم ، يحاول كل منهم أن يلقى التبعة على غيره وينفضها عن نفسه .

فيقول الذين استضعفوا لـكبرائهم فى الدنيا : لولا أنتم لـكنا مؤمنين .

فيفزع الذين كانوا كبراء فى الدنيا من هذا الاتهام الذى لا يطيقونه ولا يستطيعون أن يحتملوا وزره . يقولون لما رأوا الجحيم بأعينهم .

لا تلومونا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاء ، بل أنتم الذين أجرمتم ولو شئتم الهدى ما صددناكم .

فيسارع الذين كانوا مستضعفين فى الدنيا إلى نفى ما قيل متبرئين من التبعة مذكرين الذين كانوا أكابرهم بما كانوا يكيدون فى الدنيا ويدبرون قائلين لهم : أنسيتم ما كنتم تأمروننا به فى الليل والنهار أن لا نعبد الله ، وأن نتخذ له أنداداً وشركاء .

ورأى الجميع العذاب يحيط بهم ، والتخاصم يوم الحساب لا ينفعهم ، فاستشعروا الضياع وخيبة الآمال وأسقط فى أيديهم ، وتمنوا أن لو كانت لهم رجعة إلى الدنيا ليـكونوا مؤمنين . ولـكن أنى لهم .

يقول القرآن للرسول : ولو ترى صورتهم وحالتهم التى عرضنا عليك لعجبت مما يفعلون اليوم ، وما يظهرونه من تجبر وعناد ، فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون .

(٣٤) « وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ »

(٣٥) « وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ »

(٣٦) « قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »

(٣٧) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ »

(٣٨) « وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ »

المترفون ، والأغنياء ، وأصحاب الدنيا ومن يسمون فى أيامهم الأشراف الـكبراء هم دائماً أول من يعارض

النبي ويشكر رسالته ، حدث هذا مع نبينا محمد ﷺ ، وحدث مع غيره من الأنبياء عليهم السلام . وتلك سنة الله في خلقه .

لأن ظهور النبي في أمة من الأمم معناه إقرار العدل ، وتحقيق المساواة والأمر في أرض الله بشريعة الله ، وذلك ما لا يتفق ومصالح هؤلاء .

إذ الغالب في مثل أحوالهم أن يكون هؤلاء مستأثرين في الأرض بالمال والقوة والنفوذ ، والجاه ، فإذا جاء رسول يحق الحق ، ويضع كل إنسان في موضعه لا بد وأن يردهم عن غيهم وينزلهم عن كبريائهم ، ويأخذ من أيديهم ما ليس من حقهم .

ولذا كان — ويكون — موقفهم من عداء الأنبياء . والرسل هو الموقف الطبيعي ، وليس معنى هذا أن كل الأغنياء والأشراف على مثل ذلك ، فإن بعض هؤلاء ممن هدى الله فكان لهم في تأييد الحق تاريخ حافل وعظيم .

وتشرح الآية الثانية التعاق الغريب لبعض هؤلاء الذين قالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً ، ولذا لن نعذب كأن العقاب والمثوبة يلقاها الناس بمقدار ما لديهم من مال

ولهذا رد القرآن عليهم في الآيتين بعدها مقرراً أولا : أن هذا المال الذي يعتزون به ويظنونه سبيل تقييم الناس ليس إلا من فضل الله الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر .

وثانياً أن الأموال والأولاد لا قيمة لها مطلقاً في تقريب الإنسان من ربه إلا إذا آمن وأخلص ، ثم استخدم هذه الأموال في طاعة الله ومرضاته وعندئذ ينال من ثواب الله ما يرضيه .

أما الذين يتصورون غناهم شيئاً أو سنداً لهم فهم واهمون وأولئك في العذاب محضرون .

(٤٤) « وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ »

(٤٥) « وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ »

هؤلاء الذين كذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم وقالوا : ساحر ، أو شاعر ، أو رجل به جنة ، أو رجل افترى على الله كذباً ليضل الناس ، ويصدهم عما كان يعبد آباؤهم .

الذين قالوا هذا من أين لهم ما قالوه ، ولم نؤتهم كتباً يدرسون فيها شيء من ذلك ، ولم نبعث إليهم قبلك من نذير يمكن أن يزعموا أنهم أخذوا عنه معارفهم .

ولا عجب فى أمرهم فقد كذب الذين من قبلهم ، وبلغ قومك فيما أوتوا معشار ما أتينا الأمم السابقة ، فأهلكنا المكذبين جميعاً فكيف كان نكير .

(٤٦) « قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ »

قل لهم يا محمد كلمة واحدة أعظكم بها وألخص فيها الأمر بيني وبينكم ، وهى أن تؤمنوا بالله ، وتقروا بما جاء من الحق ، ثم تتفكروا فى خلقه وفيما أعطاكم ، وفى أنفسكم .

هذا هو الطريق السوى الذى لا ترتضى غيره ، فما برسولنا من جنة كما تزعمون إن هو إلا نذير .

(٥١) « وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وأُخِذُوا مِن مَكَانٍ قَرِيبٍ »

وكيف لا يؤمن هؤلاء وأنت تدعوهم إلى الإيمان بالحسنى وفى الوقت الذى ينفع الناس فيه إيمانهم .

كيف لا يؤمنون وهم إذا حل بهم الفزع من موت أو شدة ، أو حرب تراهم متخاذلين يسرعون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت يقولون آمنا . . . حيث يكون الزمن قد انقضى ولم يعد للإيمان مكان .

(٥٢) « وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ »

مقالتهم هذه تكون حين يأتيهم أمر الله أو تأتيهم الساعة فيقولون لو عدنا لآمنا ويقولون ولو عدنا لأقررنا . ولكن أنى لهم التناوش والعودة إلى الدنيا من مكان لا يعود منه من مضى إليه .

(٥٣) « وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ »

أنى لهم العودة ، وكيف يمكن الصفح عن ذنوبهم ، وقد كفروا به من قبل ، ورجموا بالغيب وفعلوا ما فعلوا ، وكانت أمامهم آيات الله لم يتدبروها ، ولم يتعظوا بها . . واتبعوا أوهام آبائهم حيث لا ينفعهم اليوم ما كانوا يعبدون .

(٥٤) « وحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُرِيبٍ »

لقد سبقت كلمة الله . وقضى الأمر ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون من أمل فى العودة . . كما فعل بأسلافهم من قبل ليذوقوا العذاب وليبصروا الحق الذى كانوا منه فى شك مريب .

تفسير سورة فاطر

(١) « الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »

أى الحمد لله الذى ابتدأ السموات والأرض وابتدعها وجعل الملائكة رسلا متنوعة ، خلق لكل واحد منهم جناحان أو خلق أجنحتهم ثلاثة ثلاثة ، وخلق أجنحتهم أربعة أربعة ، يزيد فى خلق الأجنحة وفى غيره ما تقتضيه مشيئته وحكمته . والمعنى على القوة والأيد .

(٢) « مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »

أى : أى شىء يطلق الله من رحمة ، أى من نعمة رزق أو مطر أو صحة أو أمن أو غير ذلك من صنوف نعمائه التى لا يحاط بعددها .

وتنكير « الرحمة » للإشاعة والإبهام ، كأنه قال : من أية رحمة كانت سماوية أو أرضية ، فلا أحد يقدر على إمساكها وحبسها ، وأى شىء يمسك الله فلا أحد يقدر على إطلاقه .

من بعده ، أى من بعد إمساكه ، وهو الغالب القادر على الإرسال والإمساك ، الحكيم الذى يرسل ويمسك ما تقتضى الحكمة إرساله وإمساكه .

(٣) « يَأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ »

ليس المراد بذكر النعمة ذكرها باللسان فقط ، ولكن به وبالقلب ، وحفظها من الكفران والغمط ، وشكرها بمعرفة حقها والاعتراف بها وطاعة موليها .

والخطاب عام للجميع لأن جميعهم مغمورون فى نعمة الله .

هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ! فمن أى وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك .

(٤) « وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ »

نعى به على قريش سوء تلقيهم لآيات الله وتكذيبهم بها ، وسلى رسول الله ﷺ بأن له فى الأنبياء قبله أسوة حسنة .

ثم جاء بما يشتمل على الوعد والوعيد من رجوع الأمور إلى حكمه ومجازاة المكذَّب والمكذِّب بما يستحقانه . وإن يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل من قبلك . وإلى الله مصير الأمور كلها .

(٨) « أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ »

لما ذكر الفريقين الذين كفروا والذين آمنوا قال لنبيه « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا » ، يعنى : أفمن زين له سوء عمله من هذين الفريقين كمن لم يزين له ، فكأن رسول الله ﷺ قال : لا ، فقال : فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .

ومعنى تزيين العمل والإضلال واحد ، وهو أن يكون العاصى على صفة لا تجدى عليه المصالح حتى يستوجب بذلك خذلان الله تعالى وتخليته وشأنه ، فعند ذلك يهيم فى الضلال ويترك أمر النهى ويعتنق طاعة الهوى ، حتى يرى القبيح حسناً والحسن قبيحاً ، كأنما غلب على عقله وسلب تمييزه .

وإذا خذل الله المصممين على الكفروخلاهم وشأنهم ، فإن على الرسول ألا يهتم بأمرهم ولايلقى بالا إلى ذكرهم ، ولايحزن ولا يتحسر عليهم ، اقتداء بسنة الله تعالى فى خذلانهم وتخليتهم إن الله عليم بما يصنعون ، وعد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم .

(١٠) « مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ »

كان الكافرون يتعززون بالأصنام ، والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة قلوبهم كانوا يتعززون بالمشركين . وإن العزة كلها مختصة بالله ، عزة الدنيا وعزة الآخرة ، وإن ما تطلب به العزة هو الإيمان والعمل الصالح .

والذين مكروا المكرات السيئات ، أو أصناف المكر السيئات ، وعنى بهن مكرات قريش حين اجتمعوا فى دار الندوة وتداوروا الرأى فى إحدى ثلاث مكرات يمكرونها برسول الله ﷺ : إما إثباته ، أو قتله ، أو إخراجه .

ومكر أولئك الذين مكروا تلك المكرات الثلاث هو خاصة يبور ، أى يكسد ويفسد دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم فى قليب بدر ، فجمع عليهم مكراتهم جميعاً وحقق فيهم قوله « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

(١٢) « وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »

ضرب البحرين العذب والملح مثلين للمؤمن والكافر : ثم قال على سبيل الاستطراد فى صفة البحرين ، وما علق بهما من نعمته وعطائه .

ومن كل ، أى ومن كل واحد منهما تأكلون لحماً طرياً ، وهو السمك . وتستخرجون حلية ، وهى اللؤلؤ والمرجان ، وترى الفلك فى كل مواخر شواق للماء بجريها .

لتبتغوا من فضل الله ولتشكروا .

(١٤) « إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ »

أى : إن تدعوا الأوثان لا يسمعوا دعاءكم لأنهم جماد ، ولو سمعوا على سبيل الفرض والتمثيل ما استجابوا لكم لأنهم لا يدعون لهم من الإلهية ويتبرءون منها ، أو ما نفعوكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالم به .

(١٨) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ »

أى : إن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذى اقترفته ، لا تؤخذ نفس بذنب نفس ، حتى إن نفساً قد أثقلتها الأوزار وبهظتها لو دعت إلى أن يخفف بعض وقرها لم يجب ولم تغث ، وإن كان المدعو بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ .

وإنما تنذر الذين يخشون ربهم غائبين عن عذابه ، أو يخشون عذابه غائباً عنهم ومن تطهر بفعل الطاعات وترك المعاصى فإنما يتطهر لنفسه ، وإلى الله المصير يثيب المتزكين على تزكيهم ، وهذا وعداً منه بذلك .

(٢٩) « إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ »

(٣٠) « لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ »

أى : إن الذين يداومون على تلاوة كتاب الله ويأخذون بما فيه يعلمونه ويعملون به ، جاعلين هذا شأنهم ودينهم وأنفقوا مما رزقناهم فى السر والجهر طالبين الثواب بالطاعة ، وهى تلك التجارة التى ينتفى عنها الكساد وتنفق عند الله ، ليوفيهم الله بنفاقها عنده ما استحقوه من الثواب وليزيدنهم من الفضل على المستحق إنه غفور لهم مثيبهم بما عملوا .

والشكر مجاز عند الإثابة .

(٣٢) « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ »

(٣٣) « جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ »

(٣٤) « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ »

(٣٥) « الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ »

أى إنا أنزلنا إليك القرآن ونورثه الذين اخترنا من عبادنا وهم أمته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة ، لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس ، واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسل الله وحمل الكتاب الذى هو أفضل كتب الله .

ثم قسمهم إلى ظالم لنفسه ، وهو المرجأ لأمر الله ، ومقتصد ، وهو الذى خلط عملا صالحاً وآخر سيئاً ، وسابق من السابقين .

وجنات عدن ، بدل من الفضل الكبير ، الذى هو السبق بالخيرات ، وإذ كان هو السبب فى نيل الثواب نزل منزلة السبب ، فأصبح كأنه هو الثواب ، فأبدلت عنه جنات عدن .

وفى اختصاص السابقين بعد التقسيم بذكر ثوابهم والسكوت عن الآخرين بما فيه من وجوب الحذر ، فليحذر المقتصد ، وليملك الظالم لنفسه حذراً ، وعليهما بالتوبة النصوح المخلصة من عذاب الله ، وقدم الظالم ثم المقتصد ثم السابق للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم ، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقون أقل من القليل .

وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا ما أهمنا من خوف سوء العاقبة ، إن ربنا لغفور شكور .

الذى أحلنا دار الإقامة من عطائه وأفضاله ، لا يمسنا فيها تعب ولا مشقة ، ولا يمسنا فيها كلال وفتور بسبب نصب ما .

(٣٩) « هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِى الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا »

أى جعلكم خلفاً ، فى أرضه ، قد ملككم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها وأباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة . فمن كفر منكم وغمط مثل هذه النعمة بالسيئة فوبال كفره راجع عليه ، وهو مقت الله الذى ليس وراءه خزى وصغار وخسار الآخرة الذى ما بقى بعده خسار .

(٤٥) « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا »

أى لو يؤاخذ الله الناس بما اقترفوا من معاصيهم ما ترك على ظهر الأرض نسمة تدب عليها ، أى ما ترك بنى آدم وغيرهم من سائر الدواب بشؤم ذنوبهم .

إلى أجل مسمى ، أى يوم القيامة

وكان بعباده بصيراً ، وعيد بالجزاء .

تفسير سورة يس

(٢) « وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ »

أى : والقرآن ذى الحكمة ، أو وصف بصفة المتكلم لأنه دليل ناطق بالحكمة ، أو لأنه كلام حكيم .

(٤) « عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »

ليس الغرض تمييز من أرسل على صراط مستقيم عن غيره ممن ليس على صفته ، وإنما الغرض وصفه ووصف ما جاء به من الشريعة ، فجمع بين الوصفين فى نظام واحد ، كأنه قال فإنك من المرسلين الثابتين على طريق ثابت .

ثم إن التنكير فى الصراط دل على أنه أرسل من بين الصراط المستقيمة على صراط مستقيم لايكتنه وصفه .

(٨) « إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ »

(٩) « وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ »

ثم مثل تصميمهم على الكفر ، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم ، بأن جعلهم كالمغلولين الذين وصلت الأغلال إلى أذقانهم فهى مازوزة إليها ، ومقمحين لا يستطيعون طأطأة رؤوسهم لمكان الأغلال من رقابهم فى أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ، ولا يطأطئون رؤوسهم له ، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم ، فى أنه لا تأمل لهم ولا تبصر ، وأنهم متعامون عن النظر فى آيات الله على أبصارهم غشاوة فلا تطمح إلى مرقى .

(١٢) « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ »

أى إنا نحن القادرون على بعث الموتى ، ونكتب ما أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها وما هلكوا عنه من أثر حسن ، أو سيء ، وكذلك كل سنة حسنة أو سيئة يستن بها .

(١٨) « قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ »

(١٩) « قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ »

قالوا : إنما تشاءمنا بكم ، وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منه نفوسهم ، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شىء

مالوا إليه واشتهوه وآثروه وقبلته طباعهم ، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه ، فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا : بركة هذا وبشؤم هذا .

فقيل لهم : إن سبب شؤمكم معكم ، وهو كفرهم ومعصيتهم إن ذكروا ، وما أنتم إلا قوم مسرفون فى ضلالكم متمادون فى غيكم حيث تتشاءمون بمن يجب التبرك بهم من رسل الله .

(٢٨) « وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ »

(٢٩) « إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ »

أى . إن الله كفى أمرهم بصيحة ملك ، ولم ينزل لإهلاكهم جنداً من جنود السماء ، وما كان يصح فى حكمتنا أن ننزل فى إهلاك قوم حبيب جنداً من السماء ، وذلك لأن الله تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون البعض .

(٣٠) « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ »

نداء الحسرة عليهم ، كأنما قيل لها : تعالى ياحسرة فهذه من أحوالك التى حقك أن تحضرى فيها ، وهى حال استهزائهم بالرسل .

والمعنى أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ويتلهف على حالهم المتلهفون .

ويجوز أن يكون من الله تعالى على سبيل الاستعارة ، فى معنى تعظيم ما جنوه على أنفسهم وعنوها به ، وفرط إنكاره له وتعجبه منه .

(٣١) « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ »

(٣٢) « وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ »

ألم يعلموا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم .

« أنهم إليهم راجعون » بدل من « كم أهلكنا » على المعنى لا على اللفظ ، تقديره :

وأن كلهم محشورون مجموعون محضرون للحساب يوم القيامة .

وقيل : محضرون : معذبون .

(٣٨) « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ »

أى ذلك الجرى على ذلك التقدير والحساب الدقيق الذى تكل الفطن عن استخراجه وتتحير الأفهام فى استنباطه ما هو إلا تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور ، المحيط علماً بكل معلوم .

(٣٩) « وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ »

أى قدرنا سيره منازل ، وهى ثمانية وعشرون منزلا ، ينزل القمر كل ليلة فى واحد لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه ، على تقدير مستو لا يتفاوت ، يسير فيه كل ليلة من المستهل إلى الثامنة والعشرين ، ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر . وهذه المنازل هى مواقع النجوم التى نسبت إليها العرب الأنواء المستمطره ، فإذا كان فى آخر منازله دق واستقوس عاد كالعرجون القديم ، وهو عود العذق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة .

(٤٠) « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ »

أى : لا يتسهل الشمس ولا يصح ولا يستقيم لوقوع التدبير على المعاقبة ، أن تجتمع معه فى وقت واحد وتداخله فى سلطانه فتطمس نوره ، ولا يسبق الليل النهار ، يعنى آية الليل آية النهار ، وهى النيران ، ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن يبطل الله ما دبر من ذلك وينقض ما ألف فيجمع بين الشمس والقمر ، وكل ، أى الشموس والأقمار تسبح فى أفلاكها .

(٤٥) « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »

أى : ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر ، أو ما بين أيديكم من الوقائع التى خلت ، يعنى من مثل الوقائع التى ابتليت بها الأمم المكذبة بأنبيائها وما خلفكم عليه من أمر الساعة لتكونوا على رجاء رحمة الله .

(٥٩) « وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ »

أى : وانفردوا عن المؤمنين وكونوا على حدة ، وذلك حين يحشر المؤمنون ويسار بهم إلى الجنة .
وقيل : اعتزلوا عن كل خير .

(٦٠) « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ »
(٦١) « وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ »

يشير تعالى إلى ما ركزه فيهم من أدلة العقل وأنزله عليهم من أدلة السمع بألا يطيعوا الشيطان فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم وأن يلزموا طاعة الله . وهذا الذى عهد إليهم به من معصية الشيطان وطاعة الرحمن صراط بليغ فى استقامته جامع لكل شرط يجب أن يكون عليه .

ويجوز أن يراد . هذا بعض الصراط المستقيمة ، توبيخاً لهم على العدول عنه والتفادى عن سلوكه ، كما يتفادى الناس عن الطريق المعوج الذى يؤدى إلى الضلالة والتهلكة .

(٦٧) « وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ »

أى إنه لو شاء لمسخ أعينهم فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق الذى اعتادوا سلوكه إلى مساكنهم وإلى مقاصدهم المألوفة التى ترددوا إليها كثيراً ، كما كانوا يستبقون إليه ساعين فى متصرفاتهم مسرعين فى أمور دنياهم ، لم يقدروا ، وعقاباً عليهم أن يبصروا ويعلموا جهة السلوك فضلا عن غيره .

أو لو شاء لأعماهم فلو طلبوا أن يخلفوا الصراط الذى اعتادوا المشى فيه لعجزوا ولم يعرفوا طريقاً .

يعنى أنهم لا يقدرون إلا على سلوك الطريق المعتاد دون ما وراءه من سائر الطرق والمسالك ، كما ترى العميان يهتدون فيما ألفوا وضمروا به من المقاصد دون غيرها .

على مكانتهم ، أى لمسخناهم مسخاً يجمدهم مكانهم لا يقدرون على أن يبرحوه لا بإقبال ولا بإدبار ولا مضى ولا رجوع .

(٦٨) « وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ »

أى ومن نمد له فى عمره نقلبه فى الخلق فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل ، وذلك أنا خلقناه على ضعف فى جسده ، وخلو من عقل وعلم ، ثم جعلناه يتزايد من حال إلى حال ويرتقى من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ أشده ويستكمل قوته ويعقل ويعلم ما له وما عليه ، فإذا انتهى نكسناه فى الخلق فجعلناه يتناقص حتى يرجع فى حال شبيهة بحال الصبى فى ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم .

(٦٩) « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ »

أى : وما علمناه بتعليم القرآن الشعر ، على معنى أن القرآن ليس بشعر وما هو من الشعر فى شىء ، وأين هو عن الشعر ، والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى ، فأين الوزن وأين التقفية ؟ وأين المعانى التى ينتحيها الشعراء عن معانيه ؟ وأين نظم كلا منهم من نظمه وأساليبه ؟ فإذن لا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت اللهم إلا أن هذا لفظ عربى ، كما أن ذاك كذلك .

وما يصح له ولا يتطلب لو طلبه .

أى جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له ولم يتسهل ، كما جعلناه أمياً لا يهتدى للخط ولا يحسنه لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض .

وما هو إلا ذكر من الله تعالى يوعظ به الإنس والجن .

(٨٣) « فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »

تنزيه له عما وصفه به المشركون ، وتعجيب من أن يقولوا فيه ما قالوا ، وهو مالك كل شىء والمتصرف فيه بمواجب مشيئته وقضايا حكمته .

تفسير سورة الصافات

(١) « وَالصَّافَّاتِ صَفًّا »
(٢) « فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً »
(٣) « فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً »

أقسم الله بطوائف الملائكة الصافات أقدامها فى الصلاة ، فالسائقات السحاب سوقاً فالتاليات لكلام الله من الكتب المنزلة وغيرها .

وقيل : الصافات : الطير . والزاجرات : كل ما زجر عن معاصى الله . والتاليات : كل من تلا كتاب الله ويجوز أن يقسم بنفوس العلماء العمال الصافات أقدامها فى التهجد وسائر الصلوات وصفوف الجماعات فالزاجرات بالمواعظ والنصائح . فالتاليات آيات الله والدارسات شرائعه ؛ أو بنفوس قواد الغزاة فى سبيل الله التى تصف الصفوف وتزجر الخيل للجهاد ، وتتلو الذكر لا تشغلها عنه تلك الشواغل .

(١٣) « وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ »
(١٤) « وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ »

أى : بل عجبت من قدرة الله على هذه الخلائق العظيمة . وهم يسخرون منك ومن تعجبك ومما تريهم من آثار قدرة الله أو من إنكارهم البعث ، وهم يسخرون من أمر البعث ؛ ودأبهم أنهم إذا وعظوا بشىء لا يتعظون به .

(٦٠) « إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »
(٦١) « لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ »

يقوله المؤمن تحدثاً بنعمة الله واغتباطاً بحاله وبمسمع من قرينه ، ليكون توبيخاً له يزيد به تعذيباً ، وليحكيه الله فيكون لنا لطفاً وزاجراً .

وقيل : هو من قول الله عز وجل تقريراً لقولهم وتصديقاً له .

(٦٢) « أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ »

أى : أذلك الرزق خير حاصلا ، فأصل النزل : الفضل والريع فى الطعام . يقال : طعام كثير النزل . فاستعير للحاصل من الشيء . وحاصل الرزق المعلوم : اللذة والسرور . وحاصل شجرة الزقوم : الألم والغم .

يعنى أن الرزق المعلوم نزل أهل الجنة وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم ، فأيهما خير فى كونه نزلا ؟ ومعلوم أنه لا خير فى شجرة الزقوم ، ولكن للمؤمنين لما اختاروا ما أدى إلى الرزق المعلوم واختار الكافرون ما أدى إلى شجرة الزقوم ، قيل لهم ذلك توبيخاً على سوء اختيارهم .

(٦٣) « إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ »

أى محنة وعذاباً لهم فى الآخرة ، أو ابتلاء لهم فى الدنيا ، وذلك أنهم قالوا : كيف يكون فى النار شجرة والنار تحرق الشجر فكذبوا .

(٦٤) « إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ »

أى منبتها فى قعر جهنم ، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها .

(٧٥) « وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ »

(٧٦) « وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ »

لما ذكر إرسال المنذرين فى الأمم الخالية وسوء عاقبة المنذرين ، أتبع ذلك ذكر نوح ودعائه إياه حين أيس من قومه .

والمخصوص بالمدح محذوف ، تقديره : فوالله لنعم المجيبون نحن . والجمع دليل العظمة والكبرياء .

والمعنى : إنا أجبناه أحسن الإجابة ، وأوصلناه إلى مراده وبغيته من نصرته على أعدائه والانتقام منهم بأبلغ ما يكون .

(٧٧) « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ »

أى هم الذين بقوا متناسلين إلى يوم القيامة .

(٧٩) « سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ »

(٨٠) « إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ »

(٨١) « إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ »

أى : يسلمون عليه تسليما ويدعون له ، وهو من الكلام المحكى .

فى العالمين ، معناه : الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعاً ، وألا يخلو أحد منهم منها كأنه قيل : ثبت الله التسليم على نوح وأدامه فى الملائكة والثقلين يسلمون عليه عن آخرهم .

علل مجازاة نوح عليه السلام بتلك التكرمة السنية من تبقية ذكره ، وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر بأنه كان محسناً .

ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً ليريك جلالة محل الإيمان ، وأنه القصارى من صفات المدح ، والتعظيم ، ويرغبك فى تحصيله والازدياد منه .

(٨٣) « وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ »

أى ممن شايعه على أصول الدين ، وإن اختلفت شرائعهما ، أو شايعه على التصلب فى دين الله ومصابرة المكذبين. ويجوز أن يكون بين شريعتيهما اتفاق فى أكثر الأشياء .

وقيل : من أهل دينه وعلى سنته ، وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان : هود وصالح .

(٨٤) « إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »

المعنى : وإن ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لإبراهيم ، ويكون الظرف متعلق بما فى الشيعة من معنى المشايعة ، أو بمحذوف ، وهو : اذكر .

وسلامة القلب : خلوه من جميع الآفات . وقيل : من الشرك . والأصلح أنه لا معنى للتخصيص فليس بعض الآفات أولى من بعض ، فيتناولها كلها .

ومعنى المجىء بقلبه ربه : أنه أخلص لله قلبه ، وعرف ذلك فضرب المجىء مثلا .

(٨٦) « أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ »

أى أتريدون آلهة من دون الله إفكاً ، وإنما قدم المفعول على الفعل للعناية ، وقدم المفعول له على المفعول به ، لأنه كان الأهم عنده أن يكافحهم بأنهم على إفك وباطل فى شركهم .

ويجوز أن يكون المعنى : أتريدون به إفكاً ، ثم فسر الإفك بقوله « آلهة دون الله » على أنهـا إفك فى نفسها .

كما يجوز أن يكون المعنى : أتريدون آلهة من دون الله آفكين .

(٩١) « فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ »
(٩٢) « مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ »
(٩٣) « فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ »

أى فذهب يعنى فى خفية إلى أصنامهم التى هى فى زعمهم آلهة فقال لها : ألا تأكلون ! مالكم لا تنطقون ! استهزاء بها وبانحطاطها عن حال عبدتها ، وأقبل عليهم مستخفياً ، كأنه قال فضربهم ضرباً ، لأن راغ عليهم بمعنى: ضربهم ، أو فراغ عليهم يضربهم ضرباً ، أو فـراغ عليهم ضارباً باليمين ضرباً شديداً قوياً ، لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما .

(٩٩) « وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ »

أراد بذهابه إلى ربه : مهاجرته إلى حيث أمره بالمهاجرة إليه من أرض الشام ، وسيرشدنى إلى ما فيه خلاصى فى دينى ويعصمنى ويوفقنى .

(١٠٠) « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ »
(١٠١) « فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ »

أى : هب لى بعض الصالحين ، يريد : الولد ، لأن لفظ الهبة غلب فى الولد ، وإن كان قـد جاء فى الأخ فى قوله تعالى« ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً » .

وقد انطوت البشارة على ثلاث ، على أن الولد غلام ذكر ، وأنه يبلغ أوان الحلم ، وأنه يكون حليما .

(١٠٢) « فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ »

أى : فلما بلغ أن يسعى مع أبيه فى أشغاله وحوائجه .

وقيل : فلما بلغ الحد الذى يقدر فيه على السعى ، قيل : مع من ؟ فقال : مع أبيه ، والنبئ فى اختصاص الأب، إذ أنه أرفق الناس به وأعطفهم عليه ، وغيره ربما عنف به فى الاستسعاء فلا يحتمله إلا أنه لم تستحكم قوته ولم يصلب عوده ، وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة .

والمعنى : أنه على غضاضة سنه وتقلبه فى حد الطفولة ، كان فيه من رصانة الحلم وفسحة الصدر ما شجعه على

احتمال هذا الموقف العظيم والإجابة بذلك الجواب الحكيم .

أنى فى المنام فقيل له : اذبح ابنك ، ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى اليقظة ، فلهذا قال « إنى أرى فى المنام أنى أذبحك » .

فانظر ماذا ترى من الرأى على وجه المشاورة وافعل ما تؤمر به .

ولم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته ولكن ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله فيثبت قدمه ويصبره إن جزع ، ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم ، وليعلمه حتى يراجع نفسه فيوطنها ويهون عليها ، ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به ، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله قبل نزوله .

(١٠٢) « فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ »

أى أخلصا نفسيهما لله وجعلاهما سالمتين خالصتين له ، وصرع ابنه على شقه فوقع أحد جبينيه على الأرض تواضعاً على مباشرة الأمر بصبر وجلد ، ليرضيا الرحمن ويخزيا الشيطان .

(١٠٥) « قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ »

تعليل لتخويل ما خولها من الفرج بعد الشدة والظفر بالبغية بعد اليأس .

(١٠٦) « إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ »

أى إن هذا لهو الاختبار البين الذى يتميز فيه المخلصون من غيرهم ، أو المحنة البينة الصعوبة التى لا محنة أصعب منها .

(١٤٩) « فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ »

أمر رسوله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولا ، ثم ساق الكلام موصولا بعضه ببعض ، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التى قسموها حيث جعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور ، مع كراهتهم الشديدة لهن .

ولقد ارتكبوا فى ذلك ثلاثة أنواع من الكفر :

أحدها التجسيم ، لأن الولادة مختصة بالأجسام .

والثانى : تفضيل أنفسهم على ربهم حين جعلوا ما يستنكفون منه لله .

والثالث : استهانتهم بأكرم خلق الله عليه وأقربهم إليه حين جعلوهم إناثاً .

(١٧٤) « فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ »
(١٧٥) « وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ »

أى فأعرض عنهم واغض على أذاهم إلى مدة يسيرة ، وهى مدة الكف عن القتال .

وقيل : إلى الموت ، وقيل : إلى يوم القيامة .

وأبصرهم وما يقضى عليهم من الأسر والقتل والعذاب فى الآخرة فسوف يبصرونك وما يقضى لك من النصرة والتأييد والثواب فى العاقبة .

والمراد بالأمر بإبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة : الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة ، وأن كينونتها قريبة كأنها قدام ناظريك ، وفى ذلك تسلية وتنفيس عنه . ثم توعدهم فقال « فسوف يبصرون » .

(١٧٦) « أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ »
(١٧٧) « فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ »
(١٧٨) « وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ »
(١٧٩) « وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ »

مثل العذاب النازل بهم ، بعد ما أنذروه فأنكروه ، بجيش أنذر بهجومه قدمه بعض نصاحهم ، فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا أخذوا أهبتهم ، ولا دبروا أمرهم تدبيراً ينجيهم ، حتى أناخ بفنائهم بغتة ، فشن عليهم الغارة وقطع دابرهم .

وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحاً فسميت الغارة صباحاً وإن وقعت فى وقت آخر .

والمعنى : فساء صباح المنذرين صباحهم .

وتولى عنهم ، ليكون تسلية على تسلية وتأكيداً لوقوع الميعاد إلى تأكيد ، وفيه فائدة زائدة ، وهى إطلاق الفعلين معاً عن التقيد بالمفعول ، وأنه يبصر وهم يبصرون ما لا يحيك به بالذكر من صنوف المسرة وأنواع المساءة .

وقيل أريد بأحدهما عذاب الدنيا ، وبالآخر عذاب الآخرة .

(١٨٠) « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ »

أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها ، كأنه قيل : ذو العزة .

ويجوز أن يراد : ما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلا وهو ربها ومالكها .

تفسير سورة ص

(٦) « وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ »

الملأ : أشراف قريش ، وكانوا قد كلموا أبا طالب فى شأن محمد بأن يدع ذكر آلهتهم ، وجمع أبو طالب بينهم وبين محمد فسألهم محمد أن يقولوا لا إله إلا الله ، فعجبوا لقوله حين جعل الآلهة إلها واحداً ، وانطلقوا قائلين بعضهم لبعض امشوا واصبروا فلا حيلة لكم فى دفع أمر محمد ، إن هذا الأمر لشيء يريده الله تعالى ويحكم بإمضائه أو ما أراد الله كونه فلا مرد له ولا ينفع فيه إلا الصبر .

أو إن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه .

أو إن دينكم لشيء يراد ، أى يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه .

ويجوز أن يكون الانطلاق بمعنى : الاندفاع فى القول ، وأنهم قالوا : امشوا ، أى أكثروا واجتمعوا واصبروا على عبادة آلهتكم والتمسك بها حتى لا تزالوا عنها .

(٧) « مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ »

أى : ما سمعنا بهذا فى ملة عيسى التى هى آخر الملل ، أو فى ملة قريش التى أدركنا عليها آباءنا .

والمعنى : أنا لم نسمع من أهل الكتاب ولا من الكهان أنه يحدث فى الملة الآخرة توحيد الله ، وما هذا إلا افتعال وكذب .

(٨) « أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ »

أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم وينزل عليه الكتاب من بينهم، وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلى به صدورهم من الحسد على ما أوتى من شرف النبوة من بينهم . بل هم فى شك من القرآن ، يقولون فى أنفسهم : إما وإما ، وقولهم «إن هذا إلا اختلاق» كلام مخالف لاعتقادهم فيه ، يقولونه على سبيل الحسد، بل لا يذوقوا عذابى بعد ، فإذا ذاقوه زال عنهم مابهم من الشك والحسد حينئذ .

يعنى أنهم لا يصدقون به إلا أن يمسهم العذاب مضطرين إلى تصديقه .

(٩) « أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ »

يعنى : ما هم بمالكى خزائن الرحمة حتى يصيبوا بها من شاءوا ويصرفوها عمن شاءوا ، ويتخيروا للنبوة بعض صناديدهم : ويترفعوا بها عن محمد عليه الصلاة والسلام . وإنما الذى يملك الرحمة وخزائنها، العزيز القاهر على خلقه ، الوهاب الكثير للمواهب ، المصيب بها مواقعها ، الذى يقسمها على ما تقتضيه حكمته وعدله .

(١٠) « أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِى الْأَسْبَابِ »

أم لهم ملك السموات أو الأرض فليصعدوا فى المعارج والطرق التى يتوصل بها إلى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله ، وينزلوا الوحى إلى من يختارون ويستصوبون .

(١١) « جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ »

يريد : ماهم إلا جيش من الكفار المتحزبين على رسل الله ، مهزوم عما قريب ، فلا تبال بما يقولون ولا تكترث لما به يهذون .

وهنالك : إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم ، من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله : لست هنالك .

(١٦) « وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ »

أى عجل لنا نصيبنا من العذاب الذى وعدته .

وقيل : ذكر رسول الله ﷺ وعد الله للمؤمنين الجنة ، فقالوا على سبيل الهزء : عجل لنا نصيبنا منها .

أو عجل لنا صحيفة أعمالنا ننظر فيها .

(١٧) « اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ »

أى : اصبر على ما يقولون وعظم أمر معصية الله فى أعينهم بذكر قصة داود ، وهو أنه نبى من أنبياء الله تعالى قد أولاه ما أولاه من النبوة والملك ، لكرامته عليه وزلفته لديه ، ثم زل زلة فبعث إليه الملائكة ووبخه عليها على طريق التمثيل والتعريض ، حتى فطن لما وقع فيه فاستغفر وأناب ، فما الظن بكم مع كفركم ومعاصيكم .

أو : اصبر على مايقولون وصن نفسك وحافظ عليها أن تزل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل أذاهم واذكر أخاك داود وكرامته على الله كيف زل تلك الزلة اليسيرة فلقى من توبيخ الله وتظليمه و نسبته إلى البغى مالقى ذا القوة فى الدين المضطلع بمشاقه وتكاليفه ، إنه تواب رجاع إلى مرضاة الله .

(٢١) « وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ »

(٢٢) « إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ »

ظاهره الاستفهام ومعناه الدلالة على أنه من الأنباء العجيبة التي حقها أن تشيع ولا تخفى على أحد

والخصم : الخصماء ، وهو يقع على التوحد والجمع ، كالضيف .

إذ تسوروا المحراب ، أي تصعدوا سوره ونزلوا إليه .

وقد روى أن الله تعالى بعث إليه ملكين في صورة إنسانين فطلبا أن يدخلا عليه فوجداه في يوم عبادته فمنعهما الحرس فتسوروا عليه المحراب ، فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان ففزع منهم ، فقالوا : لا تخف ، فريقان : خصمان بغي بعضهم على بعض فاحكم بيننا ولا تجر وتبعد عن الحق واهدنا إلى محجة الطريق .

ووسط الطريق يضرب مثلا لعين الحق وصوابه .

(٢٣) « إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ »

(٢٤) « قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ »

(٢٥) « فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ »

ولقد أفاض المفسرون في القول في هـذا الموضوع ، وسقط بعضهم أسير الإسرائيليات والأباطيل التي أذاعها مفترون على الله وعلى أنبياء الله ، فنسبوا في هذه السورة إلى داود عليه السلام مالا يتفق وجلالة النبوة وكرامتها ، وما لا يستقيم وما هو مفروض للأنبياء من العصمة والتنزه عن الخطايا .

ومع أن ناقل الكفر ليس بكافر فلست أحب هنا أن أردد ما قالوه ، ولو حتى لأكذبه وخير لمن يتصدى لتأويل آيات الله — إذا لم يجد وجهاً للتأويل سوى ما قيل من الأباطيل — أن يتوقف ، ويترك لرب علم مالا يستطيع تأويله.

ولقد أنصف بعض أهل البصر والبصيرة من المفسرين فسددوا وقاربوا فذكر منهم — كما روى أبو جعفر النحاس — : عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس رضى الله عنهما إذ قالا : مازاد داود — صلى الله على نبينا وعليه — على أن قال للرجل : انزل لى عن امرأتك . قال أبو جعفر : فعاتبه الله عز وجل على ذلك ونبه إليه ؛ وليس هذا بكبير من المعاصى ، ومن تخطى إلى غير هذا فإنما يأتى بما لا يصح عن عالم ، ويلحقه فيه إثم عظيم .

وقال النحاس فى كتابه « معانى القرآن » : قد جاءت أخبار وقصص فى أمر داود عليه السلام وأوريا (زوج المرأة التى خاض فيها الخائضون) وأكثره لا يصح ، ولا يتصل إسناده ، ولا ينبغى أن يجترأ على القول فيه إلا بعد اليقين من صحته .

وأصح ماروى فى ذلك ما جاء عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : مازاد داود على أن قال « أكفلنيها » أى انزل لى عنها .

وروى مثله عن سعيد بن جبير قال : ما زاد داود ﷺ على أن قال : « أكفلنيها » أى تحول لى عنها وضمها إلى .

ومفهوم هذه الأقوال أن داود عليه السلام سأل الرجل أن يطلق امرأته ولعل هذا كان مألوفاً على عهدهم ، كما يسأل الرجلُ الرجلَ أن يبيعه جاريته فنبهه المولى عز وجل إلى أن هذا — حتى وإن كان مألوفاً لديهم — إلا أنه وهو نبى ، ولديه تسع وتسعون ، فما ينبغى له أن يجمع على نفسه المزيد من شواغل الدنيا .

وقال ابن العربى : وأما قولهم ، إنها لما أعجبته أمر بتقديم زوجها للقتل فى سبيل الله فهذا باطل قطعاً ، فإن داود عليه السلام لم يكن ليريق دمه فى غرض نفسه .

وإنما كان من الأمر أن داود عليه السلام قال لبعض أصحابه : انزل لى عن أهلك ، وعزم عليه فى ذلك ، كما يطلب الرجل من الرجل الحاجة برغبة صادقة سواء كانت الحاجة فى الأهل ، أو فى المال .

ومعروف أن المسلمين حين آخى الرسول بعد الهجرة بين المهاجرين والأنصار كان الرجل منهم ينزل لأخيه عن كل ما يحتاجه ، حتى ليعرض عليه أن ينزل له عن بعض أهله .

روى أن سعيد بن الربيع قال لعبد الرحمن بن عوف بعد هذه المؤاخاة ، إن لى زوجتين أنزل لك عن أحسنهما . فقال له ابن عوف : بارك الله فى أهلك . وما يجوز فعله ابتداء يجوز طلبه .

وليس فى القرآن أن هذا حدث من داود عليه السلام ، ولا أنه تزوج المرأة بعد زوال عصمة الرجل عنها ، ولا ولادتها لسليمان عليه السلام ، فكيف يعتمد بعض المفسرين على ما لا يصح أن يعتمد عليه ؟!

وقيل إن الخطيئة التى استغفر منها داود عليه السلام وظن أن ربه قد فتنه بها وخر راكعاً وأناب حتى غفر الله له ،وهى خطيئته حين تسرع فى الحكم لما قال له أحد الخصمين مقالته ، ولم ينتظر داود حتى يسأل خصمه الآخر فربما أقر ، أو أن يطلب بينة من المدعى توثيقاً للأمر ، ودرءاً لما يمكن أن يكون من شبهة . وذلك أخـذاً من قول رسولنا ﷺ « إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض لأحدهما حتى تسمع من الآخر » .

وحتى هذا يقول فيه بعض المفسرين فيرفضون أن يكون داود قد حكم بمجرد الاستماع إلى أحد الخصمين لأن هذا غير جائز فى العقل وليس من طبيعة الأشياء ، وإذاً فلا بد من تقـدير أن الرجل حين قال ذلك سأل داود خصمه فأقره على ما قال فحكم داود .

وقوله تعالى « وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض » تصوير لبعض طبيعة الإنسان إذ يحب دائماً أن يستأثر بالخير ، وأن يظفر به ، ولو أدى به ذلك إلى العدوان والبغى .

يستثنى من هذا الحكم الذين آمنوا وعملوا الصالحات لأن الإيمان الحق يعصم نفوسهم فلا يكون للشيطان سلطان عليها ، ولا تهزمها غوايته ، ومن ثم عقب القرآن به « وقليل ماهم » .

ومن طريف ما يروى بصدد قوله « وقليل ماهم » أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمع رجلا يقول فى دعائه : « اللهم اجعلنى من عبادك القليل» فقال له عمر : ما هذا الدعاء ؟ فقال الرجل : عنيت قول الله عز وجل ، «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم » .

فقال عمر رضى الله عنه : كل الناس أفقه منك يا عمر .

«وظن داود أنما فتناه » .

قيل : إن داود عليه السلام لـما قضى بينهما بما ذكرته الآية من قبل نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك فلم يفطن لهـما داود ، فأرادا أن يعرفاه ، فصعدا إلى السماء حيال وجهه ، فعلم داود عليه السلام أن الله تعالى ابتلاه بذلك ، ونبهه إلى ما ابتلاه به من سؤال الرجل أن ينزل له عن إمرأته .

« فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب » .

وروى مرفوعاً من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: « إن داود مكث أربعين ليلة ، حتى نبت العشب من دموعه على رأسـه ، وأكلت الأرض من جبينه وهو يقول فى سجوده : يارب داود زل زلة بعد بها ما بين المشرق والمغرب ، رب إن لم ترحم ضعف داود وتغفر له ذنبه ، جعلت ذنبه حديثاً فى الخلق من بعده فقـال له جبريل : يا داود إن الله قد غفر لك الهم الذى هممت به » .

وقال الحسن وغيره : إن داود عليه السلام كان بعد هذا لا يجالس إلا الخاطئين ويقول : تعالوا إلى داود الخطاء ،

ولا يشرب شراباً إلا مزجه بدموع عينيه ، وكان يجعل خبز الشعير اليابس في قصعة ، فلا يزال يبكي حتى يبتل بدموعه ، وكان يذر عليه الرماد والملح فيأكل ويقول : هذا أكل الخاطئين .

وروى كذلك أنه عليه السلام كان قبل الخطيئة يصوم نصف النهار ويقوم نصف الليل ، ثم بعدها صام الدهر كله ، وقام الليل كله .

« وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » .

روى في معناها عن مجاهد قال : يبعث داود يوم القيامة وخطيئته منقوشة في يده ، فإذا أهاويل القيامة لم يجد منهـا محرزاً إلا أن يلجأ إلى رحمة الله سبحانه فيقـال له : ها هنا ، ثم يرى فيقلق فيقال له ها هنا . حتى يقرب فيسكن . فذلك قوله : « وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » .

(٢٦) « يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ »

كأن هذه الآية هي ثمرة ما كان من ابتلاء الله لداود عليه السلام ، وما عوتب فيه باعتباره من غير العدل ، ومن قبيل الميل بالهوى ، فلزم أن يخاطب صراحة بأن يحكم بين الناس بالحق وبالعدل ، ولا يتبع هواه حتى لا يضله عن سبيل الله .

ومع خصوصية الآية هنا فهي عامة في كل حالات العدل بين الناس ومثلها وفي معناها قوله سبحانه في سورة المائدة « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » .

وقوله سبحانه في سورة النساء : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهمـا فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وأن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » .

(٣٠) « وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ »

(٣١) « إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ »

(٣٢) « فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ »

(٣٣) « رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ »

روى الكلبي أن سليمان عليه السلام غزا أهل دمشق ونصيبين فأصاب منهم ألف فرس ، وقيل بل ورثها عن أبيه داود عليه السلام ، وكان داود قد أصابها من العمالقة وأياً كان مصدرها فقد روى أنه عليه السلام جلس يستعرضها للجهاد بها في سبيل الله أو للمسابقة بينها ولم يكن قد صلى العصر ، فلم ينتبه إلى فوات الوقت ، ولم ينبه إليه حتى توارت الشمس وكادت تغرب فغضب لفوات وقت الصلاة ، وأمر برد الخيل فأخذ يمسح سوقها وأعناقها بسيفه أى يضربها به ويقتلها حيث شغله عن العبادة .

وهذا القول لا يثبت للتمحيص ، وحسبه أن يصور سليمان عليه السلام في صورة الحيوان لا ذنب له . وحاشى لنبي من أنبياء الله أن يكون كذلك .

وقيل : وهو ما ذهب إليه النحاس : أن سليمان عليه السلام كان في الصلاة فجيء إليه بخيل قد غنمت لتعرض عليه فأشار بيده لتنحيتها — إذ كان يصلي — فنحوها حتى توارت الخيل بالحجاب ، وسترتها الجدر ؛ فلما فرغ من صلاته قال : ردوها علي فطفق مسحاً بسوقها وأعناقها تكريماً لها منه عليه السلام ، وخاصة إذا كانت مما يصلح مثله للجهاد عليه في سبيل الله .

(٣٤) « وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ »

(٣٥) « قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ »

(٣٦) « فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ »

(٣٧) « وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ »

(٣٨) « وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ »

(٣٩) « هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ »

(٤٠) « وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ »

تروى هذه الآيات السبع ويحكى القرآن الكريم قصة افتتان سليمان وابتلاء الله سبحانه له ، ثم توبته عليه ، وإعطائه الملك الذي لم يؤته أحد من بعده .

وسبب الابتلاء — كما قيل — هو ميل هواه للحكم مع فريق من أهل زوجته ضد فريق آخر اختصما أمامه ، وإن كان لم يفعل فعوقب على همه بذلك .

وقيل : بل لأن زوجته التي قيل إن اسمها «جرادة» كان سَبْياً ، وكانت بنت ملك لإحدى جزر البحر ، ولم يكن

يرقأ لها دمع حزناً على فراق أبيها ، وكان الله قد ألقى محبتها فى قلب سليمان فعرض عليها أن تسلم لله فأبت فتزوجها وهى على شركها ، وكانت ــ كما قيل ــ تعبد تمثالا صنع لأبيها وتسجد له مع جواريها وهو لا يعلم بذلك فعوقب فيه .

وقيل ــ منسوباً إلى سعيد بن المسيب : أن سليمان عليه السلام احتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يحكم الناس ولا ينصف مظلوماً من ظالم ، فأوحى الله إليه « إنى لم استخلفك لتحتجب عن عبادى ، ولكن لتقضى بينهم وتنصف مظلومهم » فكان هذا سبب ابتلائه .

« وألقينا على كرسيه جسداً » .

واختلف فى هذا الجسد الذى ألقى على كرسيه : أهو الشيطان كما يذهب الأكثرون ، أم هو ولد سليمان الذى ولد له فخاف عليه من الشياطين فأمر الريح حتى حملته بين السحاب فعوقب على خوفه من الشياطين فلم يشعر إلا وقد ألقى ميتاً على كرسيه .

أم هو إيتاء الله له بشق رجل لما قال ــ كما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« قال سليمان لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله : فقال له صاحبه . قل إن شاء الله ، فلم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن جميعاً ، فلم تحمل منهن إلا امرأة جاءت بشق رجل ، واسم الذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرساناً أجمعون » .

والروايات كثيرة ، ومن العسير الفصل حيث يفتقد الدليل الحاسم من كتاب الله أو من سنة الرسول ﷺ فندعه لرب القرآن وهو سبحانه به أعلم .

والثابت كما نصت الآية أن سليمان بعد افتتانه تاب وأناب ورجع إلى ربه مستغفراً يسأل ربه « ملكا لا ينبغى لأحد من بعده » حتى تكون هذه خصوصيته .

وقد أعطاه الله سبحانه ملكاً لم يتح بعده لنبى . فسخر الله له الريح تجرى بأمره لينة هينة ، تحمله متى شاء إلى حيث شاء .

وسخر له الشياطين : يبنون له ما يشاء فى البر ، ويغوصون بإذنه إلى حيث يشاء فى البحر ، ومنهم من أمكنه الله منه وبسط عليهم سلطانه من المردة العتاة فقرنهم وقيدهم فى السلاسل قريناً إلى قرين ، يحفظ الخلق من بأسهم ويرد عن الناس شرورهم .

وهذا كله عطاء من عند الله يؤتاه بغير حساب . أما فى الآخرة فله عند ربه الزلفى والتقريب من المولى وحسن المرجع والمآب .

(٤١) « وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ »

(٤٢) « ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ »

(٤٣) « وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ »

(٤٤) « وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ »

الأساطير التى رويت حول أيوب عليه السلام لا تكاد تنتهى ، ولا تثبت واحدة منها لنقد ، وما جاء فى القرآن عنه عليه السلام لا يجاوز هذه الآيات من هذه السورة ، ثم الآيات التى وردت فى سورة الأنبياء يقول فيها سبحانه : « وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين » .

وليس فيما جاء به القرآن ما يتفق وأيا مما روجته الأساطير ، فليحذر المسلم وهو يتلو كتاب الله من خوض الخائضين .

فى صحيح البخارى أن ابن عباس رضى الله عنه قال :

« يا معشر المسلمين ، تسألون أهل الكتاب ، وكتابكم الذى أنزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله ، تقرءونه محضاً لم يشب . وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا ، وكتبوا بأيديهم الكتب ، فقالوا : « هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا » ولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ فلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذى أنزل عليكم » .

وإذاً فليس أمامنا أخذاً مما ذكر عنه فى القرآن سوى القول بأنه عليه السلام قد عرض له مرض آذاه وأضره . فضرع إلى ربه سبحانه ليكشف ما به من ضر فاستجاب له سبحانه بأن أمره أن يضرب برجله الأرض . فضربها فنبع منها ماءاغتسل به وشرب منه فذهب الداء من ظاهر جسده وباطنه .

وأما قوله « خذ بيدك ضغثاً فاضرب به » فقد كان عليه السلام حلف فى مرضه ليضربن امرأته مائة جلدة » واختلف فى سبب ذلك فقيل :

لأنها جاءته ـ بزاد أكثر مما كانت تأتيه به من الخبز فخاف خيانتها فأقسم ليضربنها .

وقيل أن الشيطان تنكر لها فى صورة رجل وطلب إليها أن يشفى أيوب على أن تقر له بأنه الشافى له ، فوافقت هى ودعت أيوب إلى الإقرار بذلك فأخبرها أنه الشيطان وحلف ليضربنها .

وقيل : بل إنها باعت ذؤابتيها برغيفين لتجد له الطعام ، وكان يتعلق بهما إذا أراد النهوض فخلف . .

فلما عوفى أمره الله — وهو سبحانه بحال امرأته أعلم — لكى يبر بيمينه أن يأخذ حزمة من حشيش يختلط رطبه بيابسة عددها مائة فيضربها به فيكون قد وفى بعهده ، ولم يؤذ بريئة .

ولقد أثنى الله سبحانه عليه ووصفه بالصبر والرجوع الى الله وبأنه نعم العبد كما تنص الآية .

(٤٩) « هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ »

(٥٠) « جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ »

(٥١) « مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ »

(٥٢) « وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ »

بعد أن عرض المولى سبحانه لحديث داود وسليمان وأيوب وإبراهيم عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، وذكر ما ابتلوا به وما صبروا عليه ، وما عمر قلوبهم من تقوى الله وطاعته والخوف منه ، ومحاسبتهم أنفسهم على ما قد يتصور العابدون من البشر أنه ليس موطن حساب ، وتوبتهم النصوح التى لا يطيقها إلا أولوا العزم . .

بعد هذا قرر سبحانه ما أفاض عليهم من نعمه ، وما بسط عليهم من سوابغ فضله ورحمته ، وما أعد لهم ولكل من اقتدى بهداهم من تكريم ورضوان فقال : « هذا ذكر ، وإن للمتقين لحسن مآب » .

وقد فصل سبحانه حسن المآب هذا فى الآيات التالية بأنه التنعم فى جنات مفتحة لهم الأبواب ، قال مفتحة ولم يقل مفتوحة مبالغة فى تهيؤها لاستقبالهم وكأنها فى انتظارهم على لهفة وشوق ، وما أجدرهم بها وما أحقهم بما يلقون عنده سبحانه من نعيم لم يشأ سبحانه أن يفصل القول فيه التفصيل الذى يرد فى غير هذه الآيات ليكون أبلغ فى التصوير ، وأعظم فى التمنى ، وأليق بجلال النعم ومقام المكرمين .

(٥٥) « هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ »

(٥٦) « جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ »

(٥٧) « هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ »

(٥٨) « وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ »

(٥٩) « هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ »

لما ذكر سبحانه حال أوليائه وعرض سيرتهم فى طاعته ، وعبادته والخوف منه وكيف يخشونه ويتقونه ، وكيف يحاسبون أنفسهم حيث لا يتصور الحساب وكيف يفزعون من شبهة المعصية ، وكيف يفرحون بلمسة الغفران والقبول .

لما ذكر سبحانه هذا كله عرض بعده لحال الطغاة المستكبرين الذين قست قلوبهم عن ذكر الله وما نزل من الحق فأوعدهم بشر المآب وسوء المنقلب .

أوعدهم جهنم يصلونها يذوقون فيها عذاب الجحيم يشوى الوجوه بناره ، ثم يدلون به الغساق فيحرقهم بزمهريره وبشاعة ريحه .

فقد روى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لو أن دلواً من غساق يهراق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا » .

وأصناف أخرى من العذاب على هذه الشاكلة تنتظرهم ليلقوا ما كانوا به يوعدون .

ويصور القرآن حال هؤلاء المجرمين إذ يصلونها جميعاً ، الكبراء منهم والذين استضعفوا فيلعن بعضهم بعضاً ، ويسىء بعضهم إلى بعض ، ويتلاومون حيث لا يجدى الملام ، ويتجادلون حيث لا يفيد الجدل .

يقول الملائكة للقادة هؤلاء داخلون معكم فيقول القادة عن الأتباع لا مرحباً بهم ، فيقول الأتباع ، بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم سبب ما نحن فيه ، وما انتهينا إليه ، فتسوقهم خزنة النار جميعاً إلى جهنم ، التابع والمتبوع يصلونها فبئس القرار .

(٦٠) « قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ »

(٦١) « قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ »

(٦٢) « وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ »

(٦٣) « أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ »

(٦٤) « إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ »

وحين تلفح وجوههم النار يفزعون ، فيدعو بعضهم على بعض « ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً فى النار » ، كما حكى عن مثلهم فى غير هذه السورة « ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » .

ثم يتلفت هؤلاء المعذبون ويبحثون — والحسرة تغلى فى قلوبهم — عن محمد صلوات الله عليه وأصحابه .

يقول أبو جهل : أين بلال ؟ أين صهيب ؟ أين عمار ؟ ويقول غيره مثل مقالته أين ؟ وأين ؟ فلا يعثرون منهم بأحد .

لقد فازوا برضوان الحق وثوابه « وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً * متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً * ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا » .

عندئذ يذكر المجرمون أيامهم فى الدنيا فيسترجعون ما كانوا يفعلون بالنبى وصحبه ، وكيف كانوا يزدرونهم ويسخرون منهم ، فيشتد جزعهم وفزعهم ويشتد تخاصمهم وتلاومهم ، ولكن أنى يفيد ذلك وهم من قبل قد فرطوا فى جنب الله .

(٧١) « إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ »
(٧٢) « فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ »
(٧٣) « فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ »
(٧٤) « إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ »

يعيد سبحانه هنا ما ذكره من قبل من قصة إبليس وكبريائه أن يسجد لآدم والتفاصيل لا تكاد تختلف ، وإنما تذكر للتأكيد والتثبيت ، وليشعر الإنسان بعدى عداوة الشيطان له ، ومدى حقده عليه وازدرائه له ، حتى يستيقن الإنسان من كل ذلك فيحذر الشيطان ولا يستجيب لغوايته .

(٧٥) « قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ »
(٧٦) « قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ »
(٧٧) « قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ »
(٧٨) « وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ »
(٧٩) « قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ »

وتأتى هذه الآيات ثم يأتى ما بعدها حتى نهاية السورة ليكمل الموضوع ويحدد بدء الموقف وخاتمته .

فإبليس الذى كفر بربه ، وتعرض الطرد من رحمة الله ورضوانه وجنته لا ينسى أن الإنسان سبب ما ابتلى به ، وأن تكريم الله لآدم وبنيه كان مصدر ما أصابه من هوان ، فيأكله الحقد فيقول لربه أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ، ثم يسأل ربه أن يمهله حتى يوم الدين ليثبت لربه أن الإنسان الذى اصطفاه الله واختاره للاستخلاف فى الأرض ليس أهلا لذلك ، وأنه سيعصى ويضل .

فيجيبه الله إلى ما طلب إمعاناً فى إذلاله ، وإطالة لمدى شقائه وبلائه ، واستهانة بشأنه فيقسم إبليس بعزة الله ليغوين بنى آدم ، وليضلنهم وليمنينهم ، حتى يكفروا كما كفر .

فيأبى الله إلا أن يذل كبرياءه ويحطم استعلاءه فيقول له : إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين الضالين ، الذين يحشرون معك ويلاقون مثل مصيرك .

ولقد نقرأ هذه الآيات كل يوم فلا نكاد ننتبه إلى الخطر الذى يحيطنا من تربص إبليس بنا نحن بنى آدم ، ولا نكاد نلتفت إلى مدى التكريم الذى أسبغه علينا رب الجبروت والعزة ، أو لا نكاد نهتم بخطر الصراع الشيطانى الذى يديره إبليس من حولنا ليبدل فطرتنا ، ويفسد عقيدتنا ويثبت لمن اصطفانا وكرمنا أننا لا نستأهل ولا نستحق .

فهل ينتبه الغافل ؟ وهل يشعر الإنسان بالدور الذى ينبغى أن يأخذه فى هذه المعركة الضارية بين الخير والشر؟ وهل من اللائق أن يخذل الإنسان حاميه وناصره ، ويقدم لعدوه بيديه أسباب انتصاره ؟

وإذا كان الإنسان فى كل زمان قد انهار وضعف ، وعجز عن الثبات أمام ضراوة الشيطان فهل لأتباع محمد صلوات الله عليه وهم كما وصفهم القرآن خير أمة أخرجت للناس أن يعدلوا الميزان ، وأن ينتزعوا — بولائهم لله — النصر الذى يريده الله للإنسان على الشيطان ؟!!

تفسير سورة الزمر

(٢) « إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ »

(٣) « أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ »

« فاعبد الله مخلصاً له الدين » الخطاب للرسول ولأتباع الرسول ﷺ حيثما يكونون ، وجوهر الآيتين هو المطالبة بإخلاص الدين لله .

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال : « يارسول الله إني أتصدق بالشيء وأصنع الشيء أريد به وجه الله ، وثناء الناس » ، فقال رسول الله ﷺ :

« والذي نفس محمد بيده لا يقبل الله شيئاً شورك فيه » ثم تلا : « ألا لله الدين الخالص » .

وإخلاص العبادة لله هو الأساس الأكبر في تشريعات الإسلام ، وهو الفيصل الحاسم بين المسلم والمؤمن أو بين من يجرى الإسلام كلمات على لسانه ، ومن تتغلغل العقيدة في قلبه حتى تجرى مجرى الدم في عروقه .

ومن أذاقهم الله حلاوة الإيمان الخالص يشعرون بمدى الفارق بين كلام يردده اللسان فلا يجاوز الحلق ، ولا يترك في أعماق النفس أدنى صدى ، وبين الوجدان المشغول بالله في كل حين .

فالأول كالتمثال الجامد فيه المظهر والصورة ، ولكنه خواء من الروح والحياة أما الثاني فخفي في الشكل وفي الحقيقة .

« قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » .

فبإخلاص الدين لله يمتاز مسلم عن مسلم ، وبإخلاص الدين لله يصبح الفرد من أمة محمد ﷺ وكأنه وحده أمة ، يقول فيسمع ، ويدعو فيستجاب له ، ويتحرك فيرصد التاريخ خطواته وكأنه في الأرض آية حية من آيات الله .

(٥) « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ »

(٦) « خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ »

تتحدث الآيتان عن بعض مظاهر قدرته ووحدانيته سبحانه إذ خلق هذا الكون العظيم بكل ما فيه من السموات والأرض ، وأحكم نظامه فى تقليب الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر ، ومن قبل طالعنا الكثير من الآيات فى تفاصيل ذلك وهى جميعاً تؤكد وجوده سبحانه ووحدانيته ، وتفرده بالأمر .

كما أنها جميعاً تدعو الإنسان إلى النظر والتدبر فى كل ما حوله ، ولو فتح عقله فلابد أن يهتدى .

وإذا كانت الآية الأولى توجه النظر إلى ما يحيط بالإنسان فالآية الثانية تدعوه إلى النظر فى داخل نفسه هو ليرى ما يعجز وما يدهش من أسرار الخلق ودقائق التكوين ، لا يمكن الإحاطة به ، وما يكشف العلم الحديث فى كل يوم عن أسرار عظمة الخالق ، وبديع صنعه . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو له الملك .

(٨) « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ »

(٩) « أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ »

(١٠) « قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ »

فى الآية الأولى تصوير لبعض طبيعة الإنسان فى أنه يخضع ويخشع ويعرف ربه إذا أصابه الضر ، فيحسن الدعاء ويخلص العبادة ، ويملأ الله عليه سمعه وبصره وحياته .

فإذا كشف الله الضر عنه عاد متمرداً طاغية ونسى ما كان فيه وجعل لربه أنداداً ، هكذا الإنسان ، هو هو فى كل زمان ومكان .

ولقد يختلف اتخاذ الأنداد لله من عهد إلى عهد فبعض الإنسان اتخذ أنداد الله حجارة وأوثاناً ، وبعضهم يتخذها — وربما وهو لايدرى أشخاص مثله من بنى الإنسان ، يدعوهم ويرجوهم ، ويتصور أن مقاليد أمره بين أيديهم ، وينسى خالقه وخالقهم وما هذا — كما ورد — سوى الشرك الخفى .

وتعرض الآية الثانية للجانب المقابل لهذا من بنى الإنسان جانب المؤمن العابد، الذاكر لربه فى كل حين، والمخلص لله دينه وعبادته، مظهره كمخبره، تراه آناء الليل حيث لا يراه أحد، ولا تطرأ على عبادته شبهة التراثى لأحد يقنت لربه، ويخافه ويرجوه، ويعيش فى كل حين وثيق الصلة به فهل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ أبداً، لا يستوون. إنما يتذكر أولو الألباب.

وقد شاء الله فى الآية الثالثة أن يشد على أيدى المؤمنين به، المخلصين له الدين والعبادة المتقين له فى السر والعلن حتى يستقيموا ثابتين على طريقهم، لا يصرفهم عنه صارف، ولا ينال منهم بأساء الحياة، بل يزيدون ثباتاً واستمساكا، فيصبرون ويصابرون و « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ».

وروى أنس أن رسول الله ﷺ قال:

«تنصب الموازين فيؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين، وكذلك الصلاة والحج، ويؤتى بأهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان، ولا ينشر لهم ديوان، ويصب عليهم الأجر بغير حساب» قال تعالى « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » حتى يتمنى أهل العافية أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل »

(١٤) « قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي »

(١٥) « فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ »

(١٦) « لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ »

تلخص الآيات من جديد ماسبق القول فيه من وجوب إخلاص الدين لله فبهذا أمر الرسول صلوات الله عليه وبهذا قال، وبهذا عمل، وبهذا دعا الناس « ومن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ».

« فاعبدوا ما شئتم من دونه » « لا أعبد ماتعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ماعبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين ».

والويل للذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة من نار لهم فيها من فوقهم ظلل ولهم فيها من تحتهم ظلل. ألا ذلك هو الخسران المبين.

(١٧) « وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ »

(١٨) « الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ »

أما الذين وفقهم الله فتابوا وأنابوا واجتنبوا عبادة الطاغوت وأخلصوا لربهم ، أما الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، فأولئك المهديون من أولى الألباب المبصرة ، فلهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . وروى أن المنيبين باجتناب الطاغوت هم ثلاثة : زيد بن عمرو ، وأبو ذر الغفارى ، وسلمان الفارسى رضوان الله عليهم أجمعين .

(١٩) « أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ »

(٢٠) لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ »

وتعود هاتان الآيتان لما سبق القول فيه فتؤكد أن الذين حقت عليهم كلمة العذاب بما اختاروا لأنفسهم ، وما ضلوا ، وما عصوا ، لا يستطيع النبى ﷺ ، مهما جد فى دعوتهم ، وحاول فى هدايتهم أن يملك لهم من شىء ، ولا أن ينقذهم مما جعلوا له .

ثم تؤكد الآية الثانية نعم الثواب الذى يلقاه المتقون ، وإذا كانت ظلل النار تحيط بالمجرمين من فوقهم ومن تحت أرجلهم فإن فى غرف الجنات مستقر الطائعين الأتقياء .

(٢٢) « أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »

نزلت فى حمزة وعلى رضى الله عنهما فهما المعنيان بمن شرح الله للإسلام صدره ، ومن هو على نور من ربه .

كما نزلت فى أبى لهب وولده فهم الذين قست قلوبهم عن ذكر الله وما نزل من الحق ، ومفهوم الآية المقارنة بين أصحاب الحالين ، وبين المصيرين ، وإذا كانت قد نزلت فى هؤلاء فهى مطردة فى كل من على شاكلتهم أحسن أو أساء .

(٢٣) « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ »

روى أن قوماً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : يا رسول الله ، لو حدثتنا . فنزلت : الله نزل أحسن الحديث ... الآية .

وقد تضمنت الآية صفتين للقرآن ، بأنه متشابه يشبه بعضه بعضاً فى الحكمة والصدق ، والغاية العامة من ورائه ، لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً ، ولا اضطراباً ، ولا تناقضاً .

ثم هو كذلك « مثانى » يثنى فيه الخير ، والقصة ، والعبرة ، والحكم ، فلا يزداد إلا قوة وتمكينا ، أو تثنى فيه التلاوة مرة بعد مرة فلا يزداد فى السمع إلا عذوبة وحلاوة .

وتضمنت كذلك وصف أثره فى المؤمنين حين يتلى عليهم فتقشعر مما يذكر فيه من عذاب ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم لما يجدون فيه من الرحمة وما يطالعون فيه من ثواب .

وفى معناه يقول سبحانه : « الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً » .

وفى الختام قررت غاية القرآن وهدفه وأنه هدى الله يهدى به من يشاء من عباده .

عن ابن عباس رضى الله عنه قال إن رسول الله ﷺ قال :

«ما اقشعر جلد عبد من خشية الله إلا حرمه الله على النار» وعن العباس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« إذا اقشعر جلد المؤمن من مخافة الله تحاتت عنه خطاياه ، كما يتحات من الشجرة اليابسة ورقها » .

(٢٩) « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »

فى هذه الآية — والله أعلم بمراده — تصوير لما يمكن أن يؤدى إليه كون الإله الواحد آلهة متعددة ، يشتركون فى خلق الكون وإحكامه والسيطرة عليه .

ولعلماء الكلام فى بيان هذا أحاديث طوال لا يتسع لها المقام هنا ، ولكن فى الآية ذاتها أعظم الدلالة على المراد منها .

فلو أن مجموعة من الناس تشاركوا فى ملك عبد واحد لتشاكسوا واختلفوا فى توجيه أمره ، وتدبير الانتفاع به، فهذا قد يريده فى الوقت الذى يريده فيه الشريك الآخر ، أو الشركاء الآخرون .

وهذا قد يرى الإفادة منه على ما لا يرضاه الآخرون ويريدون عكسه . وعندئذ تكون النتيجة اضطراب الحال ، وانتفاء المنفعة من العبد ، واضطراره هو إلى الخلاص مما هو فيه . وهكذا الكون لو كان لله فيه شركاء لاختلفوا ، ولو اختلفوا لاضطرب النظام ، وما دام النظام محكما وكل شىء يجرى إلى غايته فالرب واحد ، والخالق المعبود

ما له من شريك ، تماماً كحال العبد الذى يصرف أمره سيد واحد مطاع يحسن تدبير حاله بما يصلح به .

(٣٣) « وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ »

اختلف فى تأويل الآية فقيل : الذى جاء بالصدق رسول الله ﷺ ، والذى صدق به هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

وقيل الذى جاء بالصدق جبريل عليه السلام ، والذى صدق به هو النبى ﷺ .

وقيل : بل هو عام فى كل من دعا إلى الله دعوة حق وصدق ، وكل من استجاب إليه وصدق عمله فأولئك هم المتقون ، لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين .

(٣٦) « أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ »

نعم هو كافيه ، ومتوليه ، ووكيله ، وسواء كان العبد المراد هنا هو الرسول ﷺ ، أو المؤمنون من أصحابه ، أو جلس العباد عامة .

فالله سبحانه هو متولى عباده .

وعلى المعنيين الأولين تكون الكفاية بالتأييد والمؤازرة وهو حسبهم ونعم المولى ونعم النصير .

وعلى المعنى الأخير يكون المراد أن الله كافى عبده بالثواب إن أحسن والعقوبة إن أساء .

(٤٢) « اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »

عن ابن عباس رضى الله عنه قال : إن أرواح الأحياء والأموات تلتقى فى المنام فتتعارف ما شاء الله منها ، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى الأجساد أمسك الله أرواح الأموات عنده ، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها .

وعن رسول الله ﷺ قال : « كما تنامون فكذلك تموتون ، وكما توقظون فكذلك تبعثون » .

وعليه فمعنى الآية أن توفى النفس فى حالة النوم يكون بإزالة الإحساس منها مع إبقاء الحياة ، أما توفيها فى حالة الموت فهو إنهاء للحياة ، وإزالة الحس بالكلية .

وروى البخارى عن حذيفة قال : كان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول : « اللهم باسمك أموت وأحيا » فإذا استيقظ قال : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » .

(٤٣) « أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ »

(٤٤) « قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »

(٤٥) « وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ »

قل لهم يا محمد : أتظنون من تعبدون من دون الله يشفعون لكم وإن شفعوا أن يشفعوا ؟ ! وكيف وهم لا يملكون شيئاً من أمر الله « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن » و « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » ، « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » .

فالذين تستبشرون بذكرهم من شركائكم لن ينفعوكم ، ولن يشفعوا لكم ، والواحد الذى تشمئز قلوبكم من ذكره هو الذى له الشفاعة جميعا .

(٥٣) « قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »

(٥٤) « وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ »

(٥٥) « وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ »

الذين أسرفوا على أنفسهم ، هم أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التى حرم الله لم يغفر له ، فكيف نهاجر ونسلم ، وقد عبدنا مع الله إلهاً آخر وقتلنا النفس التى حرم الله . . هكذا قال ابن عباس وفيهم نزلت .

وروى عن نافع عن عمر قال : لما اجتمعنا الهجرة ، انبعثت أنا وعياش بن أبى ربيعة وهشام بن العاص ابن وائل فقلنا : الميعاد بيننا هو المناصف « ميقات بنى غفار » فمن حبس منكم لم يأتها فقد حبس فليمض صاحبه .

فأصبحت عندها أنا وعياش ، وحبس عنا هشام وفتن وافتتن ، فقدمنا المدينة فكنا نقول :

ما الله بقابل من هؤلاء توبة ، قوم عرفوا الله ورسوله ، ثم رجعوا عن ذلك لبلاء أصابهم من الدنيا ، فنزلت .

قال عمر رضى الله عنه : فكتبتها بيدى ، ثم بعثت بها فقال هشام : فلما قدمت على خرجت بها إلى ذى طوى فقلت : اللهم فهمنيها ، فعرفت أنها أنزلت فينا فرجعت فجلست على بعيرى ، فلحقت رسول الله ﷺ .

ولما نزلت هذه الآية قال عبد الله بن عمر : هذه أرجى آية فى القرآن ، أى أعظم آية تبعث فى النفس رجاء المغفرة .

فقال ابن عباس : بل أرجى آية هي قوله تعالى : « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » .

ثم دعت الآيات التالية إلى اغتنام رحمة الله والدخول إليها من باب التوبة والإنابة والانقياد لله ، واتباع القرآن الذى هو أحسن ما أنزل الله إلى الناس كافة من قبل أن يأتى العذاب بغتة ، فلا يملك المقصر سوى الألم والتحسر على ما فرط وأضاع ، وما تجدى الحسرة ، ولا يفيد الندم .

(٦٠) « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ »

(٦١) « وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »

بين يدى الله تخضع الرقاب وتذل الرءوس وتعنو الوجوه للحى القيوم . فى هذا اليوم ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة بما قدموا من سوء . وينجى الله أولياءه من المؤمنين لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون .

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« يحشر الله مع كل امرئ عمله ، فيكون عمل المؤمن معه فى أحسن صورة وأطيب ريح ، فكلما كان رعب أو خوف قال له لا ترع ، فما أنت بالمراد به ولا أنت بالمعنى به ، فإذا كثر ذلك عليه قال :

« ما أحسنك فمن أنت ؟ فيقول : أما تعرفنى ؟ أنا عملك الصالح حملتنى على ثقلى ، فوالله لأحملنك ، ولأدفعن عنك» فهى التى قال الله : « وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون » .

(٦٧) « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ »

(٦٨) « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ »

(٦٩) « وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ »

(٧٠) « وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ »

وفى قوله « والأرض جميعا قبضته » يقول الرسول ﷺ : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض » .

ونافخ الصور هو إسرافيل عليه السلام . وقيل يكون مع جبريل ، وقيل جبريل وميكائيل أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره .

وروى أنس أن رسول الله ﷺ تلا « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله » فقالوا : يا نبى الله من هم الذين استثنى الله تعالى ؟

فقال : هم : « جبريل ، وميكائيل وإسرافيل وملك الموت » .

فيقول الله تعالى لملك الموت من بقى من خلقى — وهو أعلم — فيقول : يا رب بقى جبريل وميكائيل وإسرافيل، وعبدك الضعيف ملك الموت .

فيقول الله تعالى : خذ نفس إسرافيل وميكائيل ، فيخران ميتين كالطودين المظيمين ، فيقول سبحانه : مت يا ملك الموت فيموت .

فيقول الله تعالى : يا جبريل : من بقى ؟ فيقول : تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام وجهك الباقى الدائم وجبريل الميت الفانى فيقول الله تعالى : يا جبريل لا بد من موتك فيقع ساجداً يخفق بجناحيه يقول : سبحانك ربى تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام » .

وقيل إن الذين استثناهم الله من الصعق عند النفخ هم الشهداء متقلدين أسيافهم من حول العرش ، وهو حديث أبى هريرة . وقيل كثير فى ذلك ، وهذا فى النفخة الأولى وفى الثانية يبعثون جميعاً ، للعرض على الديان واستحقاق الجزاء من خير أو من شر .

فى هذا اليوم تشرق الأرض بنور ربها أى بعـدله ، وقضائه الحق وفصله بين العباد بما يستحقون حيث لا ظلم .

وقيل : بل يخلق الله سبحانه فى هذا اليوم نوراً غير نور الشمس أو القمر تضىء به الأرض وتشرق .

« ووضع الكتاب » لوح الله المحفوظ ، أو كتاب كل إنسان الذى هو صحيفة أعماله . « فترى المجرمين مشفقين مما فيه يقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » .

(٧١) « وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ »

(٧٢) « قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ »

كما يساق الأسارى والمفسدون فى الأرض ، أو كما تساق شوارد الأنعام يساقون جماعات جماعات إلى جهنم فتفتح لهم أبوابها ويتلقاهم خزنتها بالويل والثبور ، وبمقامع النيران يضربون بها وجوههم وأدبارهم ، ثم يدفعونهم إلى النار ويقولون لهم مبكتين مؤنبين : ألم يأتكم رسل منكم ؟

فيحاولون التعلل والاعتذار ، فلا يستمع إليهم ، ويدخلون إلى النار تشيعهم لعنات الملائكة فبئس مثوى المتكبرين .

(٧٣) « وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ »

(٧٤) « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ »

وسيق الذين اتقوا : سيقت مراكبهم إلى مراقى الرضوان والنعيم تنتظرهم الجنة وأبوابها مفتحة تكاد تسعى إليهم لتضمهم ، فيتلقاهم خزنتها محيين مسلمين سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين .

فيستشعرون فضل الله ونعمته ، ويجدون ما وعدهم ربهم حقاً فيقولون : الحمد لله الذى صدقنا وعده ، ونعم أجر العاملين .

(٧٥) « وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »

محيطين بعرش الله يسبحون بحمد ربهم متلذذين لا متعبدين ، فهم يصلون شكراً لربهم . هكذا قال القرطبى .

وقضى بينهم ، انتهى الأمر ، وقضى الله بين عباده ، والحمد لله فى البداية والحمد لله فى الختام .

تفسير سورة غافر

(٣) « غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ »

فى الآية صفات أربع للمولى سبحانه : ثنتان منها الغفران وقبول التوبة ، وواحدة لشدة البأس والرابعة لفضله وكرمه وغناه عن المطيع والعاصى ، وقد غلبت صفتا الغفران هنا ولعله من ذلك كانت تسميتها « غافر » .

وفى تقديمه سبحانه الغفران على العقاب إشارة إلى ما ينبغى أن يكون عليه الحال فى التأديب والتهذيب والموعظة.

فمن شأن العقوبة أن تخيف ، ولكنها كذلك قد تثير العناد ، وتركب الإنسان مركب الهلكة . فإذا بدأته بها فقد صنعته .

أما البداية بالخير وفتح باب الرجاء والأمل فهى آمن عاقبة ، وأقرب إلى القبول والاستجابة .

روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أنه افتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشام فقيل له : إنه تتابع فى الشراب . أى أفرط فيه وأدمنه .

فقال عمر رضى الله عنه لكاتبه :

أكتب : من عمر إلى فلان .

سلام عليك وأنا أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو « بسم الله الرحمن الرحيم : حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير » .

ثم ختم الكتاب وقال لرسوله :

لا تدفعه إليه حتى تجده صاحياً — أى مفيقاً من الشراب — ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة .

فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول :

قد وعدنى الله أن يغفر لى ، وحذرنى عقابه ، فلم يبرح يرددها حتى بكى ثم نزع فأحسن النزع ، وحسنت توبته .

فلما بلغ عمر رضى الله عنه أمره قال : « هكذا فاصنعوا ، فإذا رأيتم أحدكم زل زلة فسددوه ، وادعو الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه » .

(٧) « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ »

فى هذه الآية والآيتين بعدها يقرر القرآن أن الملائكة الذين يحملون عرش الله يستغفرون لعباده المؤمنين ، ويسألون الله لهم التوبة والنجاة من النار .

كما يسألونه سبحانه أن يدخلهم الجنات التى وعدهم ، هم والصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم .

ثم يسألونه سبحانه أن يقيهم السيئات ويصرف عنهم ما يمنعهم من الفوز برحمته فذلك هو الفوز العظيم .

يا سبحان الله : ما أكرمه ، وما أعظمه ، وما أرحمه: تنام أعين المؤمنين فى مضاجعهم قريرة ناعمة ، وملائكة الرب من فوقهم يدعون لهم ويستغفرون ويتضرعون ، أبعد هذا يقنط الإنسان من رحمته .

(١٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ »

يكون هذا بين يدى الله يوم القيامة حين يتبرم الكفار بأنفسهم ويضيقون بها ويمقتونها ساخطين عليها ، متمنين الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا ويعملوا .

فى هذا الوقت ينادون أن مقت الله وكراهيته لكم حينا كنتم تدعون إلى الإيمان فتكفرون وأنتم فى الدنيا أشد وأكبر من مقتكم أنفسكم اليوم .

(١١) « قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ »

« أمتنا اثنتين » : الأولى وهم فى أصلاب آبائهم . والثانية : التى تكون فى نهاية عهد الإنسان بالحياة .

« وأحييتنا اثنتين » : الأولى عندما خرجوا إلى الحياة مولودين من بطون أمهاتهم ، والثانية عندما خرجوا من باطن الأرض أحياء يوم الدين .

قالوا ذلك ، معترفين من بعد ما أنكروا فى الدنيا ، ومقرين من بعد ما جحدوا بأنه الخالق ، القادر ، المحيى والمميت ، الذى لا شريك له .

ورتبوا على هذا الاعتراف مطلبهم أن يخرجوا مما هم فيه ، وأن يردوا إلى الدنيا للإيمان والعمل ...

(١٢) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ »

وكان الجواب : لا ! لا خروج مما أنتم فيه ، ولا خلاص منه ، والسبب أنتم قدمتموه فى دنياكم حيث كنتم إذا ذكر الله وحده تكفرون وإن يشرك به تؤمنوا .

(١٨) « وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ »

(١٩) « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ »

(٢٠) « وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »

وأنذرهم يا محمد أهوال القيامة وخوفهم بها ، وذكرهم بما لا يتصورون فى هذا اليوم .

قل لهم « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد » .

وما أبدع بيان القرآن فى قوله : « إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين » ففيه ما يغنى لتصور مبلغ الخوف والفزع الذى يهبط على الخلق فيخلع قلوبهم حتى لكأنها تريد الفرار من أماكنها ، وتريد أن تخرج ، فيضيق عنها الحلق ، ويضيق بها . فلا هى استقرت بموضعها ، ولا خف عن الحلق ضغطها ، والويل للانسان أن يكون هذا حاله . .

و « خائنة الأعين » :

قيل : الرجل يسارق أصحابه النظر إلى الحرام فإذا رأوه غض بصره ، وقيل : هى النظرة بعد النظر .

وعن ابن عباس : هو الرجل ينظر إلى المرأة ، فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره وقد علم الله عز وجل منه أنه يود لو نظر إلى عورتها . .

وإذا كان هذا بعض علمه سبحانه فقضاؤه عدل ، وما يقضى به الحق ، وما يدعون من دونه لا يقضون بشىء لأنهم لا يعلمون شيئاً .

(٤٥) « فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ »

(٤٦) « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ »

الذى وقاه الله سيئات مكرهم هو ذلك الرجل المؤمن الذى حاول أن يثنى فرعون وقومه عن غيهم ويردهم

إلى الرشاد والحق ، والذى حذرهم وأنذرهم ، ووعظهم فلم يتعظوا ، وهموا به ليقتلوه ، فوقاه الله سيئات مكرهم ، وحل بآل فرعون سوء العذاب ، وهى النار يعرضون عليها غدواً وعشياً .

وأكثر العلماء على أن هذا العرض فى البرزخ مدة بقاء الدنيا ، ويروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان إذا أصبح ينادى : أصبحنا والحمد لله ، وعرض آل فرعون على النار .

وإذا أمسى ينادى : أمسينا والحمد لله ، وعرض آل فرعون على النار ، فلا يسمع أبا هريرة أحد إلا تعوذ بالله من النار .

روى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال :

« إن الكافر إذا مات عرض على النار بالغداة والعشى » ثم تلا : « النار يعرضون عليها غدواً وعشياً » ، وإن المؤمن إذا مات عرض روحه على الجنة بالغداة والعشى .

فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى للملائكة : « أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » وألقوا بهم فى الهاوية وأذيقوهم مس سقر .

(٤٩) « وَقَالَ الَّذِينَ فِى النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ »

(٥٠) «قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلا فِى ضَلَالٍ »

عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال :

« يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون منه . فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فيأكلونه لا يغنى عنهم شيئاً ، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذى غصة فيأكلونه فيغصون به ، فيذكرون أنهم كانوا فى الدنيا يجيزون الغصص بالماء ، فيستغيثون بالشراب ، فيرفع لهم الحميم بالكلاليب ، فإذا دنا من وجوههم شواها وإذا وقع فى بطونهم قطع أمعاءهم .

أقول وهذا ما عناه الله فى قوله سبحانه : « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً » .

عندئذ يستغيثون بالملائكة : « ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب » ، فيردونهم : ألم تأت إليكم الرسل ؟ فيقولون نعم . فيقولون حق عليكم ما أنتم فيه ، ولن يستجاب لكم .

(٥١) « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ »

(٥٢) « يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ »

خصص بعض المفسرين انتصار الله لرسله فى هذه الآية بأن المراد به موسى عليه السلام ، والأولى عموم الآية فى انتصاره سبحانه لأنبيائه ورسله وأوليائه وهذا هو الموقف الطبيعى من الولى لوليه وهو سبحانه ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور . وكما قال سبحانه : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » وقال: « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

ونصرهم فى الدنيا بتمكينهم بالمعجزات من قهر خصومهم ، وإعلاء كلمتهم ، وبإلانة القلوب لهم ، وتأليفها من حولهم ، ثم بتخذيل عدوهم وإنزال بأس الله بينهم ، ولقد انتصر سبحانه لبعض رسله بأن أنزل ملائكته يحاربون معهم كما أمد نبينا ﷺ بالملائكة يوم بدر ، وكما أنزل السكينة عليه وعلى المؤمنين يوم حنين .

أما نصرهم يوم يقوم الأشهاد فهو تبييض وجوههم ، وتأمينهم من الفزع الأكبر ، واختصاصهم بالرضوان والسلام وغيرهما من فضله سبحانه ، وفى هذا اليوم الذى لا تنفع الظالمين فيه معذرتهم ، وتكون لهم اللعنة ، ويجزون سوء الدار .

(٦٠) « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ »

وقال سبحانه : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » . وقال : « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية » وقال : « إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً » وقال : « ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً » .

والدعاء عبادة وذكر ، وفى حديث الرسول ﷺ : « الدعاء هو العبادة » ، ثم قرأ : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم » .

وقد قيل إن فتح باب الدعاء لأمة محمد ﷺ والاستجابة لها هو من خصوصيات هذه الأمة التى كرمها الله بها ؛ فقد روى عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت أمتى ثلاثاً لم تعط إلا للأنبياء : كان الله تعالى إذا بعث النبى قال : ادعنى أستجب لك ، وقال لهذه الأمة ادعونى أستجب لكم ، وكان الله تعالى إذا بعث النبى قال : ما جعل عليك فى الدين من حرج ، وقال لهذه الأمة : ما جعل عليكم فى الدين من حرج ، وكان الله تعالى إذا بعث النبى جعله شهيداً على قومه ، وجعل هذه الأمة شهداء على الناس » .

ولعل أعظم ما يستوجب النظر فى أمر الدعاء أن الله سبحانه إذ يأمر به فإنه يغضب من عبده إذا لم يدعه ، أو إذا سأل غيره ، وكأنما يغضب سبحانه من عبده أن يستذل نفسه لمخلوق مثله ، وكيف ورب الكل موجود ؟

وفى الحديث « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » ولذا قال فى ختام هذه الآية : « إن الذين يستكبرون عن عبادتى — أى عن دعائى — سيدخلون جهنم داخرين » .

وبعدها تمضى الآيات فى هذه السورة لتعدد أنعم الله على عباده ، وآثار قدرته فيهم من خلقه كل شىء ، وجعله الليل والنهار للانسان سكناً ومعاشاً .

(٦٤) « اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »

(٦٥) « هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »

جعل سبحانه الأرض « فراشاً » و « مهاداً » و« قراراً» للإنسان يجد فيها حاجته ، وتستقيم بالسعى فى مناكبها حياته منها خلقه ، وإليها يعيده ، ومنها يخرجه مرة أخرى .

كما جعل سبحانه السماء ـ بما فيها من شمس وقمر ونجوم مسخرات بأمر الله لصالح الإنسان ، ثم بما ينزل منها من غيث ، وما يتحرك فى أجوائها من رياح ـ مكملة للأرض ، متممة لفائدة الإنسان منها ، فكأنما الأرض أساس والسماء من فوقها البناء الذى ينتفع به الإنسان .

ثم تحدث سبحانه عن فضله على الإنسان فى إحسان صورته ، ورزقه من الطيبات لعل ذلك يحفزه إلى ضرورة الشكر والذكر فيدعو ربه ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ، ولذا عقب عليها فى الآية التالية بقوله : «هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين » وكأنما تلك الغاية المنشودة مما سبق تفصيله من النعم .

(٦٧) « هُوَ الذِى خَلَقَكُمْ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُمْ مَن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »

(٦٨) « هُوَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ »

سبحانه كيف ندعو غيره وهو « الذى خلق فسوى » والذى قدر فهدى » : كيف ؟ وهو الذى جعل حياة الإنسان فى ذاته ـ منذ خلقه من تراب إلى أن يتوفاه ـ مثلا وعبرة لمن يتدبر أو يعتبر .

كيف ؟ وهو الذى يحيى ويميت ، مالك أمر الإنسان كله بين المبتدأ والمنتهى فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون .

(٦٩) « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ »

(٧٠) « الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ »

(٧١) « إِذِ الأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ »

(٧٢) « فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ »

فى هذه الآيات وما بعدها حتى ختام الآية السادسة والسبعين كأنما يعجب سبحانه وهو يضرب المثل بأولئك الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ، فيكابرون ويتقولون بما ليس لهم به من علم إلا اتباع الظن . .

هؤلاء المجادلون الذين كذبوا بالكتاب وبما جاءت به الرسل أين يذهبون من بطش ربهم يوم تسحبهم الملائكة بالأغلال والسلاسل ، ليطرحوا فى جهنم فيكونوا لها وقوداً وحطب ؟ !

وأين يذهبون وماذا يقولون حين تبكتهم الملائكة فتسألهم عما كانوا يدعون من دون الله فيقولون : فقدناهم ، وتركونا وضلوا عنا ، فيقال ذوقوا عذاب الحريق ، « ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تمرحون ، ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين » .

(٧٧) « فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ »

(٧٨) « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ »

الخطاب لرسولنا صلوات الله وسلامه عليه يواسيه ربه بعد ما عرض له من مصائر هؤلاء المستكبرين ، ويطمئنه أن يصبر ولا يجزع فإن وعد الله حق بأن « ينصر رسله والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » كما سبقت الآية .

ثم يزيد نبيه اطمئناناً فيقول له : وسواء أريناك فى حياتك بعض الذى نعدهم ، أو توفيناك قبل أن ننفذ وعيدنا فيهم فاطمئن فإن وعد الله حق ، ولن يفلتوا منا فى الدنيا أو الآخرة فإلينا يرجعون .

ثم ضرب الله المثل بمن ذكر له من أنباء الرسل وما احتملوا وما أوذوا فى سبيل الله وأكد أن العاقبة دائماً لأولياء الله ، وإذا جاء أمر الله قضى بالحق ، وخسر هنالك المبطلون .

(٧٩) « اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ »

(٨٠) « وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ »

ويعود سبحانه فى هذه الآيات — وفى كثير غيرها — إلى تذكير عباده بأنعمه ، وإلى تحريك فكرهم لينظروا ويتدبروا فيعتبروا ، ومن قبل تحدث سبحانه — إليهم — عن خلقه للسموات والأرض ، وعما فى خلق الإنسان

نفسه من آيات ويتحدث هنا سبحانه عن أنعمه عليهم فيا خلق لهم من الأنعام يعتمدون عليها فى أسس معيشتهم وحياتهم يأ كلون من لحومها ويشربون من ألبانها ويكتسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، ثم هم عليها وعلى الفلك فى البحر يحملون وينتقلون وكما قال سبحانه « وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس » .

أليست كلها آيات لو أنصف الإنسان ربه ونفسه فأى آيات الله تنكرون ؟ !

(٨٢) « أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ »

(٨٣) « فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ »

(٨٤) « فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ »

(٨٥) « فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ »

ثم ذكر سبحانه — أولئك الغافلين بمصير من سبقوهم من الكافرين أمثالهم ودعاهم إلى أن يسيروا فى الأرض فينظروا فى أخبار السابقين ، ويتعرفوا على مصائرهم ، وهم كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولاداً وآثاراً فى الأرض ، وعمروها أكثر مما عمروها فما أغنى كل ذلك عنهم ، ولا منعهم من أمر الله متى جاء . .

وحذرهم القرآن من السير على طريقهم إذ كذبوا الرسل ، وفرحوا بما عندهم من العلم وظنوا أنفسهم قادرين على الدنيا ، وأن ما أفاض الله عليهم هو من فضل أيديهم وعقولهم . . فأصابهم الله بعذابه .

فلما رأوا بأسه قالوا : آمنا . . ولكن أنى ينفع الإيمان إذا جرى القلم بالقضاء ؟ ! « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون » .

تفسير سورة فصلت

(٣) « كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »

(٤) « بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ »

(٥) « وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ »

هذا كتاب فصلت آياته ، يبين الرشد من الغى ، ويفرق بين الحق والباطل وبين النور والظلام ، ويبين الحرام من الحلال ، ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، ويبشر بالمثوبة ، وينذر بالعقاب .

وبعد هذا التفصيل لا عذر لعاقل ، ولا حجة لمحتج ، ومع هذا فقد أنكره المشركون ، عناداً وبغياً ، وقالوا للرسول : وقلوبنا لا تقبلك ، ولا ما جئت به ، إذ بيننا وبينك حجاب وفى هذه صدقوا : إذ حجبتهم أحقادهم على الرسول ، وحسدهم له فيما آتاه ربه أن يروا الحق بين يديه .

وحجبهم أنهم لم يفكروا ، ولا ارتضوا أن يفكروا ، فعطلوا عقولهم أن تتدبر فتوازن وتقارن ، ثم تحكم ، بل استسلموا لأهوائهم ، وساروا كالعمى على مسار سابقيهم ، ولذا كان من الطبيعى أن يكونوا كالمصابين بالصمم لا يسمعون داعى الله وكالعمى لا يبصرون آية الحق ، وهكذا الإنسان فى كل زمان ومكان حين يعطل عقله ويقوده هواه .

ويروى أن قريشاً لما أهمهم أمر رسول الله ﷺ ندبوا إليه عتبة بن ربيعة ليكلمه فأتاه فقال له فيما قال :
« يا محمد : بم تشتم آلهتنا ، وتضلل آباءنا وتسفه أحلامنا ؟ وتذم ديننا ؟ إن كنت إنما تريد الرياسة عقدنا إليك ألويتنا فكنت رئيسنا ما بقيت .

إن كنت تريد الباءة زوجناك عشر نساء من أى بنات قريش شئت ؟

وإن كنت تريد المال جمعنا لك ما تستغنى به أنت وعقبك من بعدك ؟

وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً من الجن قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا فى طلب ما تتداوى به .

فلما فرغ عتبة قال له النبى ﷺ : قد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم قال : فاسمع :

« بسم الله الرحمن الرحيم . حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً ... إلى قوله تعالى: فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » .

فوثب عتبة فوضع يده على فم النبي ﷺ ، وناشده الرحم ليسكتن ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش .
فجاءه أبو جهل يقول له أصبوت إلى محمد ؟ أم أعجبك طعامه ؟ فغضب عتبة وأقسم لا يكلم محمداً أبداً فى مثل ذلك ثم قال :

والله لقد تعلمون أنى من أكثر قريش مالا ، ولكنى لما قصصت عليه القصة أجابنى بشىء والله ما هو بشعر ولا بسحر ولا كهانة ، ثم تلا عليهم ما سمع من رسول الله ﷺ إلى قوله : « مثل صاعقة عاد وثمود » . ثم قال :
ولقد أمسكت بفيه ، وناشدته بالرحم أن يكف . ولقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فوالله لقد خفت أن ينزل بكم العذاب .

وفى رواية أخرى أنه قال لهم : خلوا محمداً وشأنه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لما سمعت من كلامه نبأ ، فإن أصابته العرب كفيتموه بأيدى غيركم ، وإن كان ملكا أو نبياً كنتم أسعد الناس به ، لأن ملكه ملككم وشرفه شرفكم .

فقالوا : هيهات ! سحرك محمد يا أبا الوليد . فقال : هذا رأيى لكم فاصنعوا ما شئتم .

(٦) « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ »
(٧) « الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ »

قل لهم يا محمد إنى بشر مثلكم ، ولو كنت متروكا لأمرى فربما قبلت ما تعرضون ، أو ملت إلى ما تطلبون .
ولكننى رسول : أومر فأئتمر ، ويوحى إلى فأبلغ ، فاستقيموا إلى الله الإله الواحد وأخلصوا العبادة له ، وسلوه الغفران مما تخوضون فيه ، فويل للمشركين .

(٩) « قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ »
(١٠) « وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ »
(١١) « ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ »
(١٢) « فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ »

فى هذه الآيات — كما فى كثير أمثالها — دعوة لهؤلاء الغافلين إلى أن يعملوا عقولهم وينزعوا أنفسهم من أوهامها فينظروا فيما خلق الله ، ولو قد فعلوا لاهتدوا .

فما لا يقره العقل أن يكفر الإنسان بهذا الخالق الأعظم ويجعل له — مما لا ينفع ولا يضر — أنداداً وشركاء !

ولقد عرض القرآن فى هذه الآيات لأمر خلق السموات والأرض فقرر سبحانه أنه خلق الأرض فى يومين ، ثم جعل فيها الرواسى وهى الجبال تثبيتاً لها ، وقدر فيها أرزاق أهلها وما يصلحون به فى تتمة أربعة أيام، ثم استوى إلى السماء أى صعد أمره إليها — كما قال ابن عباس — فقال لها اطلعى شمسك وقمرك وكواكبك ، وأجرى رياحك وسحابك : وقال للأرض شقى أنهارك ، وأخرجى ثمارك .. طائعتين أو كارهتين قالتا أتينا طائعين .

وبعد أن فرغ سبحانه من خلق السموات فى يومين أوحى فى كل سماء أمرها الذى تستقر به ، ويحكم نظامها وتدبيرها على أساسه .. ثم زين السماء الدنيا بالنجوم والكواكب يهتدى بها الناس ، وحفظاً لهـا من استراق الشياطين للسمع .

هذا الإعجاز الأعظم من يطيقه إلا إله ؟ وهو الله رب العالمين ، وإذا كان كذلك فكيف لا تؤمنون به ؟ بل كيف تجعلون له أنداداً وشركاء .

(٢١) « وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »

(٢٢) « وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ »

(٢٣) « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ »

(٢٤) « فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ »

حين يحشر أعداء الله إلى النار يوم القيامة تشهد عليهم جوارحهم بما عملوا ، وكما قال سبحانه « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » وزاد فى هذه الآية شهادة السمع والأبصار والجلود .

فيعجب الكافر وخاصة من شهادة الجلد على صاحبه فكأنما يشهد على نفسه إذ هو أول ما يذوق النار من بدن الإنسان ، فيظن الكافر أنه لا يشهد ، ولكنه غفل أن الله الذى أنطق كل شيء قد أنطقه.

وفى قوله « وما كنتم تستترون » . الآية يروى فى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : اجتمع عند البيت ثلاثة نفر قرشيان وثقفى . أو ثقفيان وقرشى : قليل فقه قلوبهم ، كثير شحم بطونهم ، فقال أحدهم :

أترون الله يسمع ما نقول ؟

فقال الآخر . يسمع إن جهرنا ، ولا يسمع إن أخفينا .

فقال الثالث : إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا فنزلت هذه الآية .

ومعنى الآية فى عمومها : إنكم كنتم عند المعاصى تستترون من الناس ولا تستترون من جوارحكم لاعتقادكم أنها لا تشهد عليكم ، ولذا لم تتقوا المعاصى ظناً منكم أن الله لا يعلم كثيراً من الذى تعملونه فيما بينكم وبين أنفسكم . وهذا الظن هو الذى أهلككم فأصبحتم من الخاسرين .

فإن تصبروا على هذه المعاصى وتحتملوا الإقامة والثبات عليها فالنار مثواكم ، ولو أدخلتموها ثم استعتبتم وسألتم لله الرضا والصفح فما أنتم بمعتبين . ولا مجابين لما سألتموه .

(٢٥) « وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ »

هيأنا لهم شياطين من الجن أو من الإنس يزينون لهم ما هم فيه مما بين أيديهم من أمر الدنيا ويدعونهم إلى الاستمتاع بكل ما فيها حل أو حرم ، وزينوا لهم ماخلفهم من أمر الآخرة زاعمين لهم أن لاحساب ولا جزاء حتى أوردوهم موارد البوار والهلاك ،وحق عليهم القول ،كما حق على نظرائهم فى كل مكان القول بأنهم كانوا خاسرين .

(٣٠) « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ »

(٣١) « نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ »

(٣٢) « نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ »

روى مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال :

قلت يا رسول : قل لى فى الإسلام قولا ، لا أسأل عنه أحداً بعدك ـ وفى رواية ـ غيرك : فقال ﷺ : قل آمنت بالله ثم استقم .

وزاد الترمذى : قلت يا رسول ما أخوف ما تخاف علىّ ؟ فأخذ بلسانه وقال : هذا .

وفى الترمذى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قرأ : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » ثم قال : « قد قال الناس ، ثم كفر أكثرهم ، فمن مات عليها فقد استقام .

وقد أفاض المفسرون فى بيان معنى « الاستقامة » وكله لا يخرج عن مضمون واحد هو إخلاص الدين لله ، ولذا فقد أكرمهم الله بإنزال الملائكة عليهم تطمئنهم ألا يخافوا ولا يحزنوا ، وأن يستبشروا بالجنة ، وليكونوا على ثقة فى أن الله مولاهم فى الدنيا وفى الآخرة ، وهو حسبهم فنعم المولى ونعم النصير .

(٣٣) « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ »
(٣٤) « وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ »
(٣٥) « وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ »
(٣٦) « وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »

« ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله » ، قالوا نزلت فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت عائشة رضى الله عنها ، بل نزلت فى المؤذنين .

وكان الحسن إذ تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله ، هذا حبيب الله ، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله .

والأولى أنها عامة فى كل من دعا إلى الله وعمل صالحاً .

« ولقد أمر رسول الله هنا أن يدفع بالتى هى أحسن ، أى بالسلام وبالكلمة والموعظة الحسنة فإن استجابوا فيها ونعمت ، وإلا ففى آيات السيف والقتال ما يستقيم معه كل معوج .

ولما كان الصفح عن المسىء ، ومبادلة السيئة بالحسنة مما لا تطيقه كل نفس ، ولا يكاد يصبر على مشاقه إلا الأقلون قال سبحانه : إن ذلك مما لا يستطيعه إلا الصابرون أصحاب الحظ العظيم من الخير ومن رضوان الله .

هذا هو سبيل الله ، وهذا ما يأمر به الدين فإذا نزغك من الشيطان نزغ استثار حميتك للبطش والانتقام ، والعدوان فلا تستجب إليه بل احذره وتعوذ بالله من شره ، وهو سبحانه السميع القادر على أن يصرف كيد الشيطان عنك .

(٣٧) « وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ »
(٣٨) « فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ »
(٣٩) « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »

ومن آياته الليل والنهار كما قال سبحانه : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب » .

ومن آياته الشمس والقمر خلقهما وأبدع نظامهما وتدابيرها وسخرها لصالح الإنسان ، « لا الشمس ينبغى

لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » .

وإذا كانا كذلك مخلوقين لله فلا تسجدوا لهما ولا تعبدوهما ، واسجدوا لله الذى خلقهم .

فإن استكبرتم عن عبادة الله والسجود فإن الذين عنده من الملائكة يسبحون بحمده ولا يملون تقديسه وتسبيحه، فليس بحاجة إليكم ، ولا يضيره أن تكفروه .

وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . تلك آية من آياته سبحانه آية الخلق من العدم وتفجير الحياة والنماء والحركة فى قلب الجماد الهامد الساكن ، إن الذى أحياها لمحي الموتى سبحانه وهو على كل شيء قدير .

(٤٠) « إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »

(٤١) « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ »

الملحدون فى آيات الله ، والمنكرون لها ، والمائلون بها عن قصدها السوى يعرفهم الله سبحانه ويحيط بهم ولا يخفون عليه . وكيف وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية

هؤلاء الملحدون يجنون على أنفسهم ويعرضون أنفسهم يوم القيامة للفزع والهلع والإلقاء فى الجحيم . وفى الآيتين تهديد لهم ووعيد إذا استمروا على إلحادهم فى آيات الله .

(٤٢) « لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »

(٤٣) « مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ »

« إن هذا الكتاب الذى يلحدون فى آياته عزيز الله وعزيز بالله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » فمن سولت له نفسه من أن يلحد فى آياته فلينتظر ما يحل به من عذاب الله .

وهذا الذى تعانيه يا محمد ليس إلا صورة مما عاناه الأنبياء من قبل فلا تأس عليهم ، ودعهم لله رب المغفرة لمن ارعوى عن غيه وأفاق إلى رشده ورب العقاب الأليم لمن اعتدى وألحد .

(٤٤) « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ »

من مظاهر الضلال والإعنات فى سلوك هؤلاء المشركين تجاه رسول الله ﷺ وتجاه الحق أنهم لا يجادلون

لأن ثمة مايستوجب الجدل ، ولا يمارضون لأن ثمة ما يوجب المارضة ولكن يفعلون ذلك عناداً وكبراً وإعناتاً .

وكذلك ذلك لو أنزل الله عليهم القرآن أعجمياً ، بغير لغة العرب كما أراد بعضهم ، فإن ذلك لن يهديهم ، ولن يصل بهم إلى الإيمان ، ولكنهم عندئذ سيعارضون من جديد قائلين : أهذا مما يصح أن يكون النبي عربياً وكتابه أعجمي !!

فقل لهم يامحمد إن الأمر ليس أمر الأعجمية والعربية ولكنه أمر قلوب شرحها الله فتجد فى القرآن شفاءها وهداها ، وقلوب أغلقها فهو فى آذان أصحابها صمم ، وهوعليهم عمى ، أولئك يقصون من رحمة الله ويبعدون عن محيط رضوانه .

(٤٧) « إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ »

(٤٨) « وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِن مَحِيصٍ »

وفى معناه قال سبحانه : « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت » .

فإذا كان يوم القيامة طلب سبحانه إلى هؤلاء الملحدين المعاندين أن يأتوا بشركائهم فلما رأوا العذاب تبرأوا منهم وقالوا : « آذناك ما منا من شهيد » وتلاشت الأوهام وزهق الباطل .

(٤٩) « لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ »

(٥٠) « وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ »

(٥١) « وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ »

هكذا الإنسان وهذه بعض ملامحه ، لا يسأم من طلب الخير لنفسه ، ويحب أن يستكثر منه ، فإذا مسه الشر فيئوس من روح الله قنوط من رحمته ، وفى هذا قال سبحانه : « إن الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير منوعاً * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون » .

وهكذا الإنسان إذا أذاقه الله رحمة من بعد شدة مسته يلحقه الغرور ، ويسعى إليه الباطل فيصور لنفسه أن

ما وصل إليه من الخير كان بفضل علمه أو جهده ، أو خبرته وينسى النعم المتفضل ، ولقد تغريه الدنيا ، إذ مد الله له فيها فينسى الآخرة وحقها ، ويتوهم أن يدخل الجنة بلا عمل ، وينال من الثواب ما لم يقدم له .

ثم : هكذا الإنسان إذا أوتى النعمة بطرها ولم يشكرها ، وقابلها بالكبرياء والاستعلاء على الحق والصد عن سبيل الله ، فإذا مسه الشر أفاق وانتبه إلى وجود الله يجأر بالشكوى إليه ، ويرجو عونه ، ورحمته .

(٥٢) « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ »

(٥٣) « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »

(٥٤) « أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ »

قل لهم يا محمد منذراً ومحذراً ، لقد أنكرتم القرآن وقلتم إنه من عمل محمد فكيف تكونون إذا استيقنتم أنه من عند الله ، وأنكم تكفرون به ؟ فأين تذهبون يومها من عذابه ؟

سنريهم آياتنا فى الآفاق ، بالخسف ، وبالزلازل وبالجدب وحبس المطر ، وفى أنفسهم بالأمراض والعلل حتى يفيقوا من غيهم فيتبين لهم أنه الحق .

إنهم لا يزالون فى شك من لقاء ربهم بعد أن يبعثوا ، فدعهم فإن الله من ورائهم محيط قادر على جمعهم ، وقادر على مناقشتهم الحساب .

تفسير سورة الشورى

(٥) « تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »

(٦) « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ »

تقوّل المشركون على الله ، وقالوا «اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إداً * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » .

وبينما يفترى المشركون ذلك على الله « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا» فإن الملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لهم ولكل العصاة فى الأرض .

والذين اتخذوا أصناما يعبدونها من دون الله ، فلست مسئولا عنهم وحسب أن بلغت ، والله الحفيظ عليهم وما أنت عنهم بوكيل . ولقد كان هذا قبل أن يُشرع القتال ، ويفرض على النبى قتال المشركين وحملهم ولو بالسيف على طريق الله .

(١٠) « وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ »

(١١) « فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »

الخطاب للمؤمنين ، والآية تحكى قول الرسول ﷺ لهم فى هذا المقام : إذا خالفكم الكفار والمشركون من أهل الكتاب فى شأن من شئون الدين فقولوا إن الحكم لله لا لما يقولون . ولقد حكم سبحانه من قبل بأن الدين عند الله الإسلام .

ذلكم الله ربى الذى أدعوكم إلى الاحتكام إليه والذى عليه توكلى وإليه مرجعى ومآبى .

سبحانه ، مبدع السموات والأرض بلا سابق مثال ، متحكم القرار والمسكن حين خلق لكم من أنفسكم ، ومن الأنعام أزواجاً ، لتعمروا الكون وتكثر ذريتكم .

سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

(١٤) « وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ »

المقصود هنا أهل الكتاب الذين جاءتهم كلمات الله فى التوراة والإنجيل . وكان حرياً بهم ، وقد جاءهم الهدى أن يهتدوا ، وخاصة أن أسس الرسالات السماوية واحدة ، وأنها جميعاً تدعو إلى وحدانية الله ، وإلى الفضائل والخير .

ولكن أهل الكتاب اختلفوا وتفرقوا شيعاً ومذاهب ينكر بعضها بعضاً ويكفر بعضها ببعض .

وفى معناه قال سبحانه «وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة * وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » .

(١٥) « فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ »

لهذا الخلاف الذى اختلفه أهل الكتاب حول ما بأيديهم من كتب ، ولما أثاروه من شك أو ريبة ، فعليك أن تدعو إلى الله وألا تكف عن الدعوة إليه لتوضح لهم وجه الحق ، وتجلوه للحيارى من حولهم ، فما تقوله أنت هو الفيصل فيما بينهم من خلاف .

واستقم على الإسلام كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عما أنزل الله إليك . فإذا حاولوا فتنتك ، أو مجادلتك ، فحدد لهم بوضوح أنك تؤمن بكل ما أنزل من الكتب من قبلك ، وأنك مأمور بالعدل بينهم ، وأعلن لهم أن ربك وربهم واحد . يجمع بينكم يوم القيامة وإليه المصير .

(١٦) « وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ »

الذين يرتدون بفكرهم ، فيحاولون ابتعاث الفتن ونشر سحائب الشك فى الله من بعد ما أسلم الناس له وانقادوا إليه .. هؤلاء حجتهم باطلة وزائلة وعليهم غضب ولهم عذاب شديد لما يحاولون من شر .

(١٧) « اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ »

سبحانه أنزل الكتاب أى القرآن وغيره مما أنزل بها جميعاً بالحق، وبالعدل فاعمل بما أوحي إليك فيها ، وليعمل أهل كل كتاب بما شرع الله لهم من الدين فيه ، وليحذروا الآخرة فما يدريك ، ومايدرى غيرك أن يكون يوم القيامة قريباً .

(١٨) « يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ »

تصور هذه الآية اختلاف الموقف من يوم القيامة بين المؤمن والكافر فالكافر يستعجل هذا اليوم لأنه لايؤمن به، ولا يعتقد به ولا يتصور وقوعه فهو لذا يستعجله يتحدى به المؤمنين .

أما المؤمن بهذا اليوم ، المقدر لخطره وهوله ، الذى يستيقن أنه اليوم الذى يجزى فيه على ما عمل فإنه يشفق منه ويضرع إلى الله أن ينجيه من هوله .

(١٩) « اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ »

سبحانه يرزق البر والفاجر ، والمطيع والعاصى ، والمسلم والمشرك ، وليس لأمر الرزق صلة بمدى طاعة الإنسان أو معصيته ، وليس دليلا على أن الإنسان مقبول من الله أو مغضوب عليه . لأن رزق الله لعباده مما قضى به سبحانه على نفسه والتزم به فى مثل ما قال سبحانه : « ما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » .

« وهو القوى العزيز » الذى يرزق المشرك وهو قاهر من فوقه ، وقادر على سحقه . لكنه المتفضل .

(٢٠) « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ »

وفى معناه قال سبحانه : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » .

والمراد من الآية تبصير الخلق بما ينبغى أن تكون عليه أهدافهم فى الحياة الدنيا .

فمن كانت الدنيا كل همه أتاه الله ما أراد منها ومكن له منه وأعانه عليه ، ولكنه الخاسر فى النهاية إذا كانت دنياه قد أفقدته آخرته .

ومن كانت الآخرة بين عينيه ، أعطاه الله منها ما طاب وزاد له بأن أعطاه الدنيا ، وهذا معنى قوله فى الآية : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه » .

(٢٣) « ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ

أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ »

الذى يبشر الله به عباده هو الفضل الكبير الذى وعده المتقون وأصحاب العمل الصالح والذى تضمنته الآية السابقة فى قوله : « لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير » .

وفى قوله « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال :

لما قدم النبى ﷺ المدينة كانت تنوبه نوائب ، وحقوق لايسعها ما فى يديه .

فقالت الأنصار : إن هذا الرجل هداكم الله به ، وهو ابن أختكم ، وتنوبه نوائب وحقوق لايسعها ما فى يديه ، فنجمع له ، ففعلوا ، ثم أتوه به فنزلت هذه الآية .

وروى عن ابن عباس كذلك قال : سمع رسول الله ﷺ شيئاً فخطب فقال للأنصار :

« ألم تكونوا أذلاء فأعزكم الله بى ؟ ألم تكونوا خائفين فأمنكم الله بى ؟ ألا تردون على ؟

فقالوا : بم نجيبك ؟

قال : « تقولون : ألم يطردك قومك فآويناك ؟ ألم يكذبك قومك فصدقناك ! » .

قال : فجثوا على ركبهم فقالوا : أنفسنا وأموالنا لك فنزلت الآية .

وقد أطال المفسرون الوقوف أمام قوله « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » .

ويروى عن الشعبى فى هذا أنه قال : أكثر الناس علينا فى هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس رضى الله عنه نسأله عنها . فكتب ابن عباس :

إن رسول الله ﷺ كان أوسط الناس فى قريش ، فليس بطن من بطونهم إلا وقد ولده ، فقول الله « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » معناه إلا أن تودونى فى قرابتى منكم ، أى تراعوا ما بينى وبينكم فتصدقونى .

« فالقربى » هنا قرابة الرحم . كأنه قال : اتبعونى للقرابة ، إن لم تتبعونى للنبوة .

قال عكرمة : وكانت قريش تصل أرحامها ، فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم قطعتها فقال : « صلونى كما كنتم تفعلون » .

فالمعنى على هذا : قل لا أسألكم عليه أجراً لكن أذكركم قرابتى .

(٢٤) « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ »

توضح الآية أن ما يزعمه الكفار من أن الرسول إفترى القرآن من عنده وكذب على الله به . أو أنه يزيد فيه وينقص منه حسبما شاء ، زعم باطل لا يمكن أن يستقيم ، إذ لو كان أمر محمد ﷺ كما زعموا لانتقم رب القرآن منه ، ولختم على قلبه فمحا منه الباطل ، وأثبت مكانه الحق ، فما تقولون باطل .

وفى معناه قال سبحانه : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين » .

(٢٥) « وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ »

ما أكثر ما يفتح القرآن باب التوبة فى آياته ، فيقول عن رب العزة إنه « غافر الذنب وقابل التوبة » ويقول: « كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم » ويقول : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة » ، ويقول : « ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم » .

ويروى فى سبب نزولها أنه لما نزل قوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » قال قوم فى نفوسهم :

ما يريد إلا أن يحثنا على أقاربه من بعده ، فأخبر جبريل النبى ﷺ بأنهم قد اتهموه ، فنزل قوله تعالى : أم يقولون إفترى على الله كذباً » الآية .

فقال القوم : يارسول الله ، فإنا نشهد أنك صادق ونتوب ، فنزلت وهو الذى يقبل التوبة عن عباده » .

(٢٧) « وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ »

قيل فى سبب نزولها أنها نزلت فى قوم من أهل الصفة تمنوا سعة الرزق .

وقال خباب بن الأرت (وهو منهم) : فينا نزلت ، نظرنا إلى أموال بنى النضير ، وبنى قريظة وبنى قينقاع فتمنيناها فنزلت .

ومعنى « البغى » فى الآية : أن تطمع النفوس فلا تشبع من مال ، أو أن تغريها سعة الرزق بالعدوان والبغى وارتكاب المعصية ... وهذا التفسير هو الأول ... فما أكثر ما يعرف الناس من أموال عباد كانوا فى أمر المال على قلة وكانت أخلاقهم قيمة فلما بسط الله لهم فى الرزق أبطرتهم النعمة فبغوا فى الأرض بغير الحق » .

وقيل بل المراد أن لو بسط الله لهم جميعاً فى الرزق لما استقامت أحوالهم بمعنى أنهم قد لايقبل الواحد منهم أن ينقاد إلى غيره أو يستمع إلى أمره مادامت الأرزاق واحدة ، وفى هذا مافيه من تعطل المصالح واضطراب الأحوال ، وهو معنى قريب التناول ، وكثيراً مايحدث .

ومعنى « ولكن ينزل بقدر مايشاء » : أن الله سبحانه يعطى لكل عبد من الرزق مايصلح له ، ومن عباد الله من لايصلحه إلا الغنى ، ولو أفقره الله لفسد حاله ، ومنهم من لايصلحه إلا الفقر ، ولو اغتنى لفسد حاله .

سنة الله وحكمته فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

(٢٨) « وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِىُّ الْحَمِيدُ »

إذا كان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر فهو سبحانه الذى يفيض على عباده بالغيث يأتيهم بعد يأس منه وقنوط، فينشر عليهم رحمته ، ويحيى أرضهم بعد موتها .

(٢٩) « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ »

إذا كان إنزال الغيث بعض آثار رحمته سبحانه بعباده فإن خلقه السموات والأرض ، وما بث فيهما من مخلوقات دقت أو عظمت لآية من آياته حسب العاقل أن يتدبرها ليجدها دليلا على إمكان البعث والنشور ، ومن خلق ابتداء كانت إعادة الخلق عليه أهون .

(٣٠) « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ »

روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله حدثنا بها النبى ﷺ : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » الآية : « يا على ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم والله أكرم من أن يثنى عليكم العقوبة فى الآخرة ، وما عفا عنه فى الدنيا فالله أحلم من أن يعاقب به بعد عفوه » .

(٣٢) « وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ »

(٣٣) « إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ »

(٣٤) « أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ »

من آياته سبحانه ومن علامات قدرته السفن الجارية فى البحار كأنها الجبال يسلط الله عليها الرياح إن شاء فتسوقها إلى حيث يراد لها ، وإن شاء أسكن الرياح فيظللن رواكد على ظهر الماء دون حركة . وفى الآية رمز وإشارة عميقة إلى تسخير الله سبحانه لقوى الطبيعة كى تكون فى خدمة الإنسان من رياح وأمطار وبحار وأنهار، وجبال وصحارى وسهول وغابات وما إلى ذلك مما لو شاء سبحانه حرم الإنسان منه لكانت حياته غير محتملة، وربما زحف عليه الفناء . وقوله « أو يوبقهن » يعنى يهلكهن .

(٣٦) « فَمَا أُوتِيتُمْ مِن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ »

الخطاب موجه إلى الكافرين الذين أبطرتهم النعمة ، وأعمتهم أموالهم وأولادهم أن يروا الحق فكفروا وتولوا .

وهى كذلك خطاب للإنسان حيثما كان مسلماً كان أو كافراً ، تنبهه إلى هوان مايعتز به من متاع الحياة الدنيا ، وتدله على أن القيمة الحقيقية الباقية هى مايستبقيه الإنسان من دنياه ليحفظه لنفسه فى الآخرة فهذا خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون .

(٣٧) « وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ »

والذين يجتنبون كبائر الإثم من الكفر بالله وقتل النفس التى حرم الله بغير حق وغيرهما ويجتنبون الفواحش من الزنا وغيره من موجبات الحدود كقذف المحصنات بغير ما اكتسبوا . . الذين يستطيعون ضبط شهوات أنفسهم ، ويستطيعون معه إذا غضبوا أن يغفروا فيضبطون كذلك سورة الغضب فى رءوسهم . هؤلاء جديرون بأن يظفروا بما هو عند الله خير وأبقى .

وفى معناها يقول سبحانه « إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً » . ويقول : « ولله مافى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى * الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم . . الآية » ويقول : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » .

(٣٨) « وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ »

استجابوا لربهم فى كل مادعاهم إليه حتى ولو دفعوا أرواحهم فى سبيله كما قال سبحانه : « يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لايضيع أجر المؤمنين * الذين استجابوا لله والرسول من بعد ماأصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم » .

وكما يقول سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم . . »

ويقول : « للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم مافى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد » .

وفى قوله : « وأمرهم شورى » بيان وتأكيد لأهمية الشورى فى بناء المجتمع الإسلامى والإنسانى عامة وتحديد ماينبغى أن تكون عليه طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم .

ولقد أمر الرسول ﷺ بمشاورة المسلمين فى قوله سبحانه : « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » .
وكان الرسول ﷺ يشاور أصحابه فى كل أمر لاينزل الوحى بشأنه ، ومعروف أنه ﷺ قد شاور المسلمين فى أمر أسارى بدر كما سبق ذكره ، وشاورهم قبلها فى المكان الذين ينزلون فيه يوم بدر ، ثم شاورهم يوم الخندق وأشار عليه سلمان الفارسى بحفر الخندق فأنفذ مشورته .

ومشورات أصحاب الرسول ﷺ كثيرة ومعروفة بدأت منذ تشاوروا فى أمر الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ .
وحدثت فى أمر المرتدين أيقاتلون ؟أم تقبل منهم المصالحة ؟ والأخبار لاتكاد تحصى .

عن الحسن رضى الله عنه قال : « ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم»

(٣٩) « وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ »

(٤٠) « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ »

(٤١) « وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ »

من خلال هذه الصفة الكريمة للمؤمنين المستحقين أعظم الأجر عند الله تعطى هذه الآيات سمة من أبرز السمات التى امتاز بها التشريع الإسلامى ، وهى مطالبة المسلم بالانتصار لحقه إذا اعتدى عليه ، واعتبار ممارسته لهذا الحق من أكرم الصفات التى يستحق عليها المثوبة بما هو خير وأبقى عند الله .

وفى هذا المعنى شرع الجهاد وكانت غزوات رسول الله ﷺ وحروبه لكل من بغوا عليه من الكفار والمشركين ومن يعاونونهم على البغى من أهل الكتاب عامة واليهود بوصف خاص .

يقول سبحانه : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » .

ويقول سبحانه : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله » .

ويقول : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » ويقول : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » ويقول : « فاقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » .

والأصل العام في كل هـذا هو رفض الظلم والبغي وعدم الاستسلام لهما ، واعتبار انتصار المظلوم لحقه أمراً مشروعاً بل محموداً وأهلا للمثوبة الكريمة من الله .

وإذا كان ثمة من يستحق المؤاخذة ، فهو الباغي الظالم لا المظلوم المنتصر من الظلم كما قال سبحانه هنا : « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم » .

وواضح من الآيات وما سقناه معها من آيات أخرى أن الإسـلام حين قرر رفض الاستسلام للبغي فقد نهى صراحة عن العدوان ، لأن ما ترفضه لنفسك لا ينبغي أن تقبله لغيرك .

كما أنه بعد أن قرر الحق في الانتصار من الظلم آثر الصفح والعفو إذا لم يتنافيا مع المبدأ الأساسي بأن كان العفو عن مقدرة ، وكان العافي من القوة بحيث يصان له حقه ، ولا يتكرر الظلم له . فقال سبحانه :

« وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله » وقال : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » .

(٤٤) « وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِن سَبِيلٍ »

قيل إن الآية فيمن أعرضوا عما دعاهم إليه الرسول ﷺ من الإيمان بالله والعمل الصالح ، والمراد أنهم بهذا قد ضلوا وكفروا بالله فحرموا ولايته ونصره ، وظلموا أنفسهم بما تورطوا فيه ، فإذا جاء اليوم الذي يحاسبون فيه وأفاقوا إلى ضلالهم وقالوا ياليتنا نرد إلى الدنيا فنعمل غير الذي كنا نعمل كما قال سبحانه هنا : « هل إلى مرد من سبيل » وأنى لهم ؟ .

(٤٥) « وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ »

ترى هؤلاء الضالين يعرضون على النار خاشعة نفوسهم ذليلة أعينهم لا يجدون من يرحمهم من عذاب الله ، ولا من يشفع لهم من عذابه ، فإذا رآهم المؤمنون قالوا : هذا هو الخسران المبين ، وهؤلاء الذين خسروا أنفسهم وأهليهم اليوم ، وما ظلمهم الله ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون .

(٤٧) « اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِن مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِن نَكِيرٍ »

بعد ما عرض سبحانه لحال الذين خسروا أنفسهم وأهليهم ، وصـور هوانهم بين يدى الله أمر بالاستجابة إلى ما يدعوهم إليه من الإيمان والعمل الصالح ، وحذرهم فوات الأوان حين يجيء اليوم الذى لا مرد له من الله ، والذى تنتهى فيه فرصة العمل وتبدأ ساعات المؤاخذة والحساب ، وعندها لا يـكون للـكافر حق الإنـكار والاعتراض ، ولا يـكون له من يحميه من الله أو يلجأ إليه من بطشه .

(٤٨) « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ »

فإن أعرضوا فقد بلغت وعليهم ما حملوا ، ولا يحزنك ما يفعلون فهـكذا الإنسان تفرحه النعمة وتقنطه النقمة فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون . ومعلوم أن مثل هذه الآية ونظائرها نسختها آيات القتال ، وبات على الرسول ﷺ وللمؤمنين معه أن يجاهدوا أمثال هؤلاء ليردوهم إلى الحق ويستنقذوهم بالسيف من ظلمات الـكفر .

(٤٩) « لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ »
(٥٠) « أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ »

تقرر الآيتان تفرد الله سبحانه بالملك وبالخلق ، وتقرر مشيئته فيما يعطى وما يدع ، وهو سبحانه حين يعطى من يشاء ويحرم من يشاء لا يفعل ذلك عفواً أو تسلطاً ولـكن له فى خلقه حـكمة ، فهو العليم القدير الذى يعطى كلا بما يصلحه ، فيهب الذكور أو يهب الإناث ، أو يزوج بينهما لمن يشاء وفق ما تقتضى حكمته سبحانه .

(٥١) « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ »

يروى فى سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا للنبى ﷺ : ألا تـكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلم الله موسى ونظر إليه ؟ فإنا لن نؤمن بك حتى تفعل ذلك فقال ﷺ : لم ينظر موسى إلى الله .

والمراد من الآية أن مقام الألوهية الأعظم لا تقوى طبيعة البشر على احتمال أنواره فلا تستطيع الثبات لرؤيته ، ولذا لا يمكن للبشر أن يكلموا الله مشافهة بحيث يرونه سبحانه .

وإنما يتم التكليم وحياً بان ينفث الإلهام بالمراد فى القلب ، أو من وراء حجاب كما حدث فى تكليم موسى عليه السلام ، أو يرسل رسولا كما أرسل جبريل عليه السلام .

وقال ابن عباس رضى الله عنه : نزل جبريل عليه السلام على كل نبى ، فلم يره أحد إلا محمد ، وموسى ، وعيسى عليهم السلام ، فأما غيرهم فكان وحياً وإلهاماً فى المنام .

(٥٢) « وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ »

(٥٣) « صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ »

كما أوحى الله سبحانه إلى الأنبياء من قبل ؛ أوحى إلى نبينا ﷺ ، فألقى عليه تكاليف الرسالة وأعباءها وتفاصيل ما أمر بالإيمان وبتبليغه ، ولم يكن من قبل يدرى من ذلك شيئاً ، سوى ذلك النور الذى جعله فى قلبه يهدى به من يشاء من عباده الذى يصطفيهم للنبوات والرسالات ، فيباعد هذا النور بينهم وبين الشرك والضلال ويعصمهم من الوقوع فى الخطايا وينزههم من التورط فى الآثام ، حتى إذا أتاهم أمر الله كانوا وكأنما ينتظرونه ، مؤهلين ، صالحين .

« وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » إلى الدين القيم ، أو إلى الإسلام الذى هو المراد بصراط الله فى الآية « ألا إلى الله تصير الأمور » فكل شىء هالك إلا وجهه ، وإلىّ المرجع والمآب .

يروى عن سهل بن أبى الجعد قال : احترق مصحف فلم يبق منه إلا هذه الآية لم تأكلها النار : « ألا إلى الله تصير الأمور » .

تفسير سورة الزخرف

(٣) « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »

(٤) « وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ »

« قرآناً عربياً باللغة التي يتكلمها من أنزل إليهم ليفهموه ، ويعقلوا معانيه كما قال سبحانه : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » .

وإن هذا القرآن في أم الكتاب أي في اللوح المحفوظ ، مثبت أنه علىّ أي رفيع لا يناله التبديل ولا التحريف، كما قال سبحانه : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

(٥) « أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ »

(٦) « وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ »

(٧) « وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ »

(٨) « فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ »

وإذا كان القرآن الكريم قد أنزل بالحق بشيراً ونذيراً ، فإن إسرافكم وإعراضكم لا يغير من الأمر شيئاً ، وسيبقى هذا الكتاب منذراً لكم بين يدى عذاب شديد ، ولستم يا كفار قريش ، أول من كذبوا ولن تكونوا آخرهم ، فكم أرسلنا من نبي في الأولين فكذبوا كما كذبتم ، واستهزءوا كما استهزأتم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قوماً آخرين .

(١٢) « وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ »

(١٣) « لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ »

تكمل هاتان الآيتان ما سبقهما من الآيات في تأكيد قدرة الله سبحانه حيث خلق السموات والأرض ، فجعل الأرض ، مهداً للإنسان وسخرها وما فيها له وأنزل من السماء ماء ، لا طوفان فيغرقها ولا قليلا فتتعدم به الفائدة ، ولكنه ماء بقدر تحيا به الأرض بعد موتها كما يحيا البشر يوم البعث وعند الخروج .

أما فى هاتين الآيتين فالحديث عن خلقه سبحانه للأزواج كلها قيل من الأحياء كالذكر والأنثى ، وقيل من كل شىء كالليل والنهار ، والشمس والقمر ، والجنة والنار ، والسماء والأرض وهكذا ، وقيل : خلق الأزواج كلها مما يتقلب على الإنسان من عوارض ، كالخير والشر ، والصحة والمرض ، والشقاء والسعادة وغيرها .

وجعل لكم من الفلك فى البحر والأنعام فى البر ما تركبون ، « وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس » لكى تذكروا الله عند ركوبكم لها ، وتشكروا له نعمته ، وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنا — لولا تسخيره لنا — على تطويعه بقادرين ، ولقد يؤخذ منه الدعاء الذى ينبغى أن يدعـوه المسلم إذا ركب اعترافاً بفضله سبحانه ، كما علم أصحاب نوح فى قوله : « وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها » .

(١٥) «وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ »
(١٦) « أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ »
(١٧) « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ »

تصف هذه الآيات بعض مفتريات العباد على الله سبحانه إذ جعلوا له جزءاً من خلقه حين قالوا للملائكة بنات الله ، أو حين قالوا للمسيح ابن الله ، أو عزير ابن الله وغيره مما لا يتفق وملك الخالق سبحانه لكل ما خلق ، كما قال سبحانه : « ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى » وقوله : « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » ، وقوله : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون » .

ولقد أنكر القرآن كل هذه المزاعم كما قال هنا : « أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين » وكما قال : « ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذاً قسمة ضيزى» . كما عجب من حالهم إذ يجعلون للخالق مالا يرتضونه لأنفسهم كما قال : « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً وهو كظيم » .

(١٨) « أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ »
(١٩) « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ »
(٢٠) « وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ »
(٢١) « أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ »

تكمل هذه الآيات ما سبقها ، والمراد أن هذا الذى يدعونه لله إذا بشروا هم به رفضوه ، وأنكروه ، وقالوا فى تعليل ذلك إن البنات ينشأن فى الحلية والزينة ولا يصلحن للخصام والحرب .

يقولون هذا فى الوقت الذى يجعلون الملائكة إناثاً وينسبون إلى الله أنهم بناته ، ولذا تعجب القرآن من أمرهم وبما يفترون إذ كيف علموا ذلك وهم لم يشهدوا خلق الملائكة ، وحتى لم يروها ، وقد لا يستطيعون أن يتصوروها . وما لهم بذلك من علم ولم نعطهم كتاباً يشهد بذلك ، ويستمسكون به علينا ، وإذاً فليس ما يقولون إلا الافتراء والكذب .

ولذا أوعدهم القرآن بأن ما يقولون محصى عليهم وسوف يسألون أمام الله عنه .

(٢٢) « بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ »

(٢٣) « وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ »

ليس لدى هؤلاء المفترين علم ولا دليل واحد يسند ما يزعمون ، ولكنهم إذا سئلوا قالوا : إنا وجدنا آباءنا كذلك ، يعبدون هذه الأحجار ، ويرددون هذه الآراء وإنا على آثارهم مقتدون .

ولا عجب فيما قاله الكفار للنبي ﷺ ، وليسوا بدعاً فى ذلك فهذا شأن الكفار دائماً وخاصة الملأ والأشراف المترفون منهم الذين يعارضون كل تغيير يخشون فيه على منافعهم فيقولون : « إنا وجـدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » ، وهذه دائماً مقالة من لا يعمل عقله ، ولا يريد أن يحرك فكره ، ويقف بعناده حيث لا عقل ولا منطق .

(٢٤) « قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ »

(٢٥) « فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ »

يقول الرسول وتقول كل الرسل لمن يقولون : « وجدنا آباءنا على أمة »: أتظلون على طريقتهم حتى ولو كان ما جئنا كم به أفضل وأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ فيجيبون مقررين ثباتهم على ما قالوه ، وإصرارهم على عنادهم ويقولون للرسل:أياً كان ما عبد الآباء ضلالا وباطلا ، فنحن مستمسكون به ، وإنا بما أرسلتم به كافرون .

ومثل هؤلاء لا يرجى منهم خير ، ولا تتوقع منهم توبة ولا أوبة ، فلا يصلحهم غير العذاب والبطش ، ولذا قال سبحانه : « فانتقمنا منهم » .

(٣١) « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »

(٣٢) «أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ»

قال الكفار بعد بعثة النبي ﷺ : أما كان جديراً بالقرآن أن ينزل على أحد رجلين من أكابر الرجال فى مكة والطائف ، يعنون بذلك : الوليد بن المغيرة المخزومى ، وأبا مسعود عروة بن مسعود الثقفى .

وكان الوليد بن المغيرة يسمى ريحانة قريش ، وكان يقول : لو كان ما يقول محمد حقاً لنزل علىّ ، أو على أبى مسعود .

وهم فى هذا القول يصدرون عن معين واحد أساسه أنهم يقيسون النبوات بمقاييس دنياهم ، فيتصورون أن معطاء الله لرسله يمكن أن يقاس بالغنى والجاه وغيرهما من مواصفات البشر ، ولذا قالوا مقالتهم .

ولذا — أيضاً — كان رد القرآن عليهم بأن هذا التفضيل فى الرزق والمعيشة الذى أراده الله بين عباده فى الدنيا ، إنما هو فقط لتسيير نظام الحياة ، وتدبير أمر الناس فى معايشهم .

أما أن يكون لهذا أثر فى تفضيل إنسان على إنسان ، أو تمييزه عليه فى الفضل وفيما يختص به من رحمة الله ، فهذا ما يرفضه القرآن حيث يقول : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون».

(٣٣) « وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ »

(٣٤) « وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ »

(٣٥) « وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ »

ولولا أن تصبح الدنيا هم الخلق أجمعين فينصرفوا بها عن الآخرة ، ولولا أن يصبحوا أمة واحدة فى طلبهم لها وحرصهم عليها ، لزدنا هؤلاء الكفار من الدنيا فوق ما يطلبون ، ولجعلنا لبيوتهم سقفاً من الفضة ، ومعارج أى سلالم يظهرون عليها إلى الطبقات العالية . ولجعلنا لهم كذلك سرراً يتكئون عليها ، وغير ذلك من ألوان الزخرف والمتاع الدنيوى الذى دل عليه ما سبق .

كل هذا يسير على الله وفى محيط قدرته ومشيئته ، ولكنه — سبحانه — لم يفعل لأن هذا كله عند الله غير ذى قيمة ، وما هو إلا زخرف الدنيا ، ومتاعها الفانى ، وما عند الله خير وأبقى ، للمؤمنين المتقين .

(٣٦) « وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ »
(٣٧) « وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ »
(٣٨) « حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ »
(٣٩) « وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ »

العشى : عدم البصر ، أو شدة ضعفه ، فمن يعش عن ذكر الرحمن : أى يعرض عنه ويتبع ماكان عليه الآباء والأجداد ، فكأنما فقد بصره فأصبح لا يرى الظلام من النور ولا الحق من الباطل ، وجزاء كفره هذا وإصراره على الضلال يجعل الله له شيطاناً ملازماً له يدله دائماً على ما يتفق وضلاله ، فيصده عن الحلال ، ويهديه إلى الحرام والعياذ بالله ولذا قال فى الآية الثانية : « وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » لأنهم لعماهم لا يدرون ما يفعلون ..

ولا يفيق الضال من ضلال هذا إلا بين يدى الله يوم القيامة حين ترفع الحجب وتكشف الغشاوات عن الأعين والقلوب فيبرأ الكافر من شيطانه ويبرأ شيطانه منه وكلا يقول لصاحبه « بينى وبينك بعد المشرقين » فبئس القرين .

وعندئذ يؤمر بهما جميعاً فيلقيان فى جهنم ، فيشغلهم الجحيم والعذاب العظيم عن مواساة بعضهم بعضاً، أو اهتمام بعضهم بأمر بعض ، كما قال سبحانه : « ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون » .

(٤٣) « فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ »
(٤٤) « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ »
(٤٥) « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ »

يأمر الله رسوله والمؤمنين معه بالاستمساك بالقرآن، وعدم التحول عنه كما قال: « ولا تتبع أهواءهم » لأن صراط الله هو الصراط المستقيم .

وفى قوله سبحانه : « وإنه لذكر لك ولقومك » قال المفسرون معناه أن القرآن شرف للنبى ﷺ وقومه ، وبنوا على هذا تفريعات كثيرة ، أهمها اختصاص قريش بالخلافة بعد الرسول ﷺ .

والذى أعتقده : أن المراد بقوم الرسول ﷺ هنا كل من اتبعه من أمته ، وكل من سار على دربه قرشياً كان أو غير قرشى بدليل قول الرسول ﷺ لفاطمة وهى من أحب أهله وأقربهم إلى قلبه « يا فاطمة اشترى نفسك من الله فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً » .

وقوله ﷺ فيما رواه ابن عباس :

« ما بنو هاشم بأولى الناس بأمتي ، إن أولى الناس بأمتي المتقون ، ولا قريش بأولى الناس بأمتي ، إن أولى الناس بأمتي المتقون ، ولا الأنصار بأولى الناس بأمتي ، إن أولى الناس بأمتي المتقون ؛ إنما أنتم من رجل وامرأة وأنتم كجمام(1) الصاع ليس لأحد فضل على أحد إلا بالتقوى » .

وروى مثله عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« لينتهين أقوام يفتخرون بفحم من جهنم ، أو يكونون شراً عند الله من الجعلان التي تدفع النتن بأنفها ، كلكم بنو آدم ، وآدم من تراب ؛ إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية ، وفخرها بالآباء ؛ الناس مؤمن تقي وفاجر شقي » .

وقوله : « واسأل من أرسلنا قبلك » :

قيل : إن هذا كان ليلة أسرى به ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى حيث أوحى الله إليه أن يسأل الأنبياء والمرسلين الذين اجتمعوا إليه . أكان فيما أوحى إليهم أن ثمة آلهة يعبدون من دون الله ؟ !

والسبب في هذا الأمر بالسؤال : أن اليهود والمشركين قالوا للنبي ﷺ : إن ما جئت به يخالف ما جاء به من كان قبلك ، فأمر الرسول بذلك ليكون فيه الرد على ما زعم المشركون واليهود .

(٥١) « وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ »

(٥٢) « أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَـٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ »

كما قال القائلون من قبل عن رسول الله : « لولا نزل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » معتدين بأموالهم وأحسابهم ، ومكاناتهم في الأرض ... فعل هذا نفسه فرعون إذ قال لقومه بعد ما جاءتهم آيات موسى :

أليس لي هذا الملك العظيم في مصر ، بما هي عليه من ثراء وخصب ، وأنهار تفيض بالخير والنماء والأموال ؟

وإذا كان الأمر كما ترون من غناي وفقر موسى ومن قوتي وضعفه ، أفلا أكون خيراً منه ، وأولى بالطاعة وأحق بالعبادة من دون الإله الذي يدعو له .

(٥٣) « فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ »

(٥٤) « فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ »

---

(1) الجمام : ما زاد على حافة المكيال وعلا رأسه من الزيادة .

وبنفس المنطق قال فرعون لقومه : كيف يكون هذا رسولا وهو يأتينى هكذا فقيراً مهيناً ليس فى يديه ذهب ولا فوق رأسه تاج ، ولا تحف الملائكة من حوله كما يحف الجنود بالفرعون .

ولقد تأثر الملأ من قومه بهذا القول واستخفهم بزينته فأطاعوه واتبعوه على ضلاله ، كما استخف قارون بزينته من فتنوا به من قومه ، فانتقم الله منهم بإغراقهم ، وتركهم مثلا وعبرة للآخرين .

(٥٧) « وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ »

لما نزل قوله تعالى « واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون » قالت المشركون :

« ما يريد محمد إلا أن نتخذه إلهاً كما اتخذت النصارى عيسى بن مريم إلهاً » فأنزل الله هذه الآية .

وروى ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يا معشر قريش لا خير فى أحد يُعبد من دون الله » فقالوا : أليس تزعم أن عيسى كان عبداً نبياً وعبداً صالحاً ؟ فإن كان كما تزعم فقد كان يعبد من دون الله» . فأنزل الله هذه الآية . ومعنى « يصدون » بكسر الصاد : أى يضجون كما تضج الإبل حين يفزعها شىء .

(٥٨) « وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ »

قيل المراد بالقائل هنا « عبد الله بن الزبعرى »حالة كفر . لما قالت له قريش إن محمد يتلو « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم »الآية فقال . لو حضرته لرددت عليه .

قالوا : وما كنت تقول له . قال : كنت أقول له : هذا المسيح تعبده النصارى ، واليهود تعبد عزيراً أفهما من حصب جهنم ؟ فعجبت قريش من مقالته ، وظنوا بها أن الرسول ﷺ قد غلب . فأنزل الله تعالى قوله : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ، أولئك عنها مبعدون » .

(٥٩) « إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ »

(٦٠) « وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ »

المراد عيسى عليه السلام . أى ما هو إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوة وجعل منه فى الكيفية التى خلقه الله عليها ، وللمعجزات التى أوتيها مثلا وعبرة وعظة لبنى إسرائيل .

وفى معناه قال سبحانه « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » وقال : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » وقال : « ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم

وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم » وكلها تؤكد عبودية عيسى عليه السلام لربه وخضوعه له .

والخطاب فى الآية الثانية موجه إلى الكفار والمشركين أو إلى الناس جميعاً ينذرهم لإنكارهم ، ويؤكد لهم قدرته سبحانه على أن يذهبهم من الأرض « ويستخلف من بعدهم ما يشاء » بل إنه القادر ، لو شاء، على أن يجعل بدلهم فى الأرض«ملائكة لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » .

وقيل : بل المراد أن الله قادر على أن ينزل الملائكة إلى الأرض ليعمروها ، ويكونوا مثلكم فيها ، ومن ثم لا يكون لهم التشريف الذى تتصورونه موجباً لعبادة بعضكم له .

(٦١) « وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ »
(٦٢) « وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ »

وإن القرآن الذى بين يديكم لعلم للساعة يصف لكم أحوالها وأهوالها ويذكركم بما يكون عليه حالكم عند قيامها ، كما يؤكد قيامها وضرورة حدوثها وانفراد المولى سبحانه بعلمها متى تكون وكيف تكون،فلا تشكوا فيه.

وقيل : المراد بعلم الساعة . هو بعثة محمد ﷺ وذلك أخذاً من قوله عليه السلام : «بعثت أنا والساعة كهاتين» وضم السبابة والوسطى ، وإذا كانت الساعة آتية وقدم الله بين يديها علمها ودليلها فلا ينبغى أن تظلوا كما أنتم أسارى للشيطان ، وصرعى كيده وإغوائه فإنه لكم عدو مبين .

(٦٦) « هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »
(٦٧) « الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ »

هؤلاء الكفار المعاندون ألا يتوقعون أن تأتيهم الساعة بغتة ، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ، وتنفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون .

وعندها لا تغنى نفس عن نفس شيئاً ، يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه .

يومها سينكر كل خليل من خلان السوء صفيه وخليله ، ويقبل بعضهم على بعض يتلاومون .

يقول كل : إن هذا الذى أغوانى ، وهذا الذى صدنى ، ولولا هذا ما كفرت ولا عصيت هكذا أخلاء السوء .

أما المتقون من الأخلاء ، ومن كانوا فى دنياهم أعواناً على كل خير ، وأعواناً على البر والتقوى وطاعة الله ومرضاته ، فهؤلاء لا عداء بينهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، إذ يغمرهم الله بفضله . ويبسط عليهم ظلال رضوانه .

روى أنها نزلت فى أمية بن خلف الجمحى وعقبة بن أبى معيط وكانا خليلين ، فغشى عقبة مجالس النبى ﷺ فقالت قريش إنه قد صبأ يعنون أنه ترك دينهم إلى دين محمد ﷺ :

فقال له أمية بن خلف : وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمداً ولم تتفل فى وجه ، ففعل عقبة بن أبى معيط — لعنه الله — ذلك . فنزلت هذه الآية .

أما عقبة فقد نذر النبى ﷺ أن يقتله ، فلما كان يوم بدر أخذ فقتل صبراً[1] ، بعد ما أمكن الله منه ، وقتل خليله أمية فى المعركة .

(٦٨) « يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ »

(٦٩) « الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ »

(٧٠) « ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ »

(٧١) « يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »

هذا نداء السلام وحسن الختام يدوى فى أفنية يوم القيامة فيرفع الجميع رؤوسهم كل يتمنى أن لويكون المنادى ، المؤمن والكافر ، والمطيع والعاصى الكل يرهف سمعه للكلمة فيشخص ببصره لعلها تشمله .

وعندئذ ينادى المنادى : « الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ، ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون » » .

وقد روى فى الحديث : أن المنادى ينادى يوم القيامة : « يا عباد لاخوف عليكم . . الآية » فيرفع الخلائق رءوسهم يقولون : نحن عباد الله ، فينادى عليهم : « الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين » فينكس الذين لم يسلموا رءوسهم ، فينادى الثالثة « الذين آمنوا وكانوا يتقون» ، فينكس أهل الكبائر رءوسهم ، ويبقى أهل التقوى رافعى رءوسهم ، قد أزيل عنهم الخوف والحزن كما وعدهم ، فيؤمرون بدخول الجنة هم وأزواجهم يحبرون ، ويلقون من أنواع السرور والرضى مالا سبيل إلى وصفه .

ولقد اشارت الآية إلى طرف منه فى قوله سبحانه « يطاف عليهم بصحاف من ذهب» الآية ، لتصور بعض ما أعد لهم من نعيم فى هذه الناحية ، وحسبهم نعيماً أن لهم — كما تقول الآية — «ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين » وأنهم فيها خالدون . طوبى لهم .

---

(١) المقتول صبراً من يؤخذ باليد فيقتل بعد أن يقيد لذلك ، وليس منه قتلى المعارك . .

(٧٤) « إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ »

(٧٥) « لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ »

(٧٦) « وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ »

صور القرآن فيما سبق من الآيات حال عباد الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وبين أطرافاً مما ينتظرهم من النعيم المقيم . وفى هذه الآيات يعرض الصورة من وجهها الآخر حيث العذاب والشقاء وسوء المنقلب .

فهؤلاء المجرمون فى العذاب الدائم ، لا يخفف عنهم ، ولا تتاح لهم الراحة منه فترة وهم يعانونه حيث لا يأملون الخلاص منه ، ولا يرجون من ربهم رحمة .

هكذا قدموا للنار أنفسهم وما ظلمهم الله ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون .

(٧٧) « وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ »

وحين تشتد وطأة العذاب إليهم يضرعون إلى مالك خازن النار أن يسأل الله أن يقضى عليهم بالموت لتكون لهذا العذاب خاتمة . فيقول — بإذن ربه سبحانه . إنـكم ماكثون فى العذاب مقيمون فيه . يوضح لهم سبب حكم الله فيهم ، « لقد جئنا كم بالحق ولـكن أكثركم للحق كارهون » .

(٧٩) « أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ »

(٨٠) « أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ »

نزلت الآيتان فى ذلك التآمر الذى دبره المشركون فى دار الندوة وأخذوا فيه بمشورة أبى جهل أن يختاروا من كل قبيلة فتى جلداً قوياً ليشترك الجميع فى قتل رسول الله ﷺ فيتفرق دمه فى القبائل ولا تستطيع قريش محاربتها جميعا فينتهى بذلك أمره . .

وقد أشارت الآية الثانية إلى حماية الله لرسوله ، وتوليه أمره لأن رسل الله من الملائكة كانت حاضرة هذا الاجتماع وأعلمت به الرسول ؟ وهذا معنى قوله « بلى ورسلنا لديهم يكتبون » .

(٨٥) « وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »

(٨٦) « وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ »

سبحانه له ملك السموات والأرض ، وملك ما بينهما ، وسبحانه فى السماء إله وفى الأرض إله سبحانه له الحكم

وعنده علم الساعة وإليه المرجع والمآب . . وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون حين لايجدون شيئاً ولا ناصراً .

(٨٨) « وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ »

أطال المفسرون وأكثروا فى تأويل هذه الآية ، وليس بينها جميعاً ما يشفى النفس ، وأقرب ما يطمأن إليه — والله أعلم بمراده — أن الأسلوب أسلوب قسم والمقسم عليه : ويعين الله إن هؤلاء قوم لا يؤمنون فكأنما قيل : اقسم بقوله يارب أن هؤلاء قوم لا يؤمنون .

(٨٩) « فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ »

الخطاب للرسول ﷺ أن يصفح عن هؤلاء المعاندين المنكرين وألا يلتفت إلى ما يأتون من قول أو عمل ، ومن قبل قال سبحانه فى هذه السورة : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون » .

فالصفح المطالب به الرسول ﷺ ليس إهمالا لما أجرموا ولا تجاوزاً من الله عنه ، ولكنه سبحانه أمره بالصفح لأنه سبحانه متكفل بهم ، ومتولى حسابهم فى الآخرة ، ولذا قال فى ختام الأمر بالصفح : « فسوف يعلمون » . ففى الآية التهديد والوعيد .

وأكثر المفسرين على أن أمثال هـــذه الآيات قد نسختها آيات القتال والحرب وقيل بل هى محكمة لم تنسخ . والله أعلم .

تفسير سورة الدخان

(٣) « إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ »
(٤) « فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ »
(٥) « أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ »
(٦) « رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »

الليلة المباركة التى أنزل القرآن فيها هى ليلة القدر ، وهذا ما عليه الجمهور من المفسرين بدليل قوله تعالى « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » وقوله : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر * تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر * سلام هى حتى مطلع الفجر » . وفى هذا ما يقطع بأنها الليلة المباركة التى ورد ذكرها فى هذه الآيات .

أما القول بأنه أنزل فى ليلة النصف من شعبان فينفيه قوله تعالى « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » .

والأكثرون يجمعون على أن القرآن أنزل فى هذه الليلة كله إلى السماء الدنيا ، ثم أخذ ينزل متفرقاً على الرسول ﷺ بحسب مقتضيات الأحوال .

وفى قوله « فيها يفرق كل أمر حكيم » بيان لما تميزت به هذه الليلة من التكريم عند الله ، وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال :

« يكتب من أم الكتاب فى ليلة القدر ما يكون فى السنة من موت ، وحياة ، ورزق ومطر حتى الحج ، وقال : وإنك لترى الرجل يمشى فى الأسواق وقد وقع اسمه فى الموتى » .

ويرجح القاضى أبو بكر بن العربى أن كل ما ينسب إلى ليلة النصف من شعبان من الفضائل إنما يراد به ليلة القدر من رمضان .

(١٠) « فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ »
(١١) « يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ »
(١٢) « رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ »
(١٣) « أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ »

هذا الدخان المبين قيل هو دخان يعتبر من علامات الساعة ، يصيب المؤمن منه مثل الزكام ، ويأخذ الكافر فيخرج من أنفه وأذنيه وكل مخرج فى جسده ، فإذا جاء لا ينفع الكفار ما يدعون .

وقيل بل هو مما أصاب قريشاً بدعاء الرسول ﷺ ، لما استعصت عليه فقال «اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف» ، فأصابهم جهد وبلاء وقحط ، حتى كان الرجل ينظر فى الأفق فلا يرى إلا الدخان .

ولقد جاءت قريش فسألوا رسول الله أن يدعو الله أن يكشف الضر عنهم وقالوا : أسلمنا ، وهذا معنى قوله حكاية عنهم « ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون » فلما كشف عنهم نقضوا ما عاهدوا الله عليه .

وفى قوله « أنى لهم الذكرى » بيان أن التوبة عند حلول العذاب لا تنفع ، لأن المعرفة هنا تكون ضرورية ولا تنفع صاحبها بشىء وخاصة هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم ، وكذبوا الرسول وتولوا عنه .

(١٥) « إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ »
(١٦) « يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ »

فى قوله « إنا كاشفوا العذاب قليلا » ما قد يرجح أن المراد بالدخان دخان العذاب والقحط والجهد الدنيوى وليس المراد دخان الساعة ، وكشفه هنا لإظهار ما انطوت عليه نفوس الكفار من نقض للعهد ، ونكث بالعهود ، وردة عن التوبة فكأنه سبحانه يكشفه عنه قليلا ليظهر للرسول نقضهم لعهده وعودتهم للكفر بعد ذلك ، وهذا ما كان منهم ، وهو ما يؤكده سبحانه بقوله « إنكم عائدون » أى فى الضلال والكفر .

ويوم البطشة الكبرى : قيل هو يوم بدر الذى تحطمت فيه رءوس الكفرة وأعز الله فيه دينه ونبيه وأظهرهم على عدوهم ، وهذا أرجح مما قيل من أنها بطشة العذاب الأكبر يوم القيامة .

(١٧) « وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ »

ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ، بما أوتوه من علو فى الأرض وزينة ومتاع فى الحياة الدنيا فلما جاءهم موسى عليه السلام ازدهتهم الدنيا فطغوا وأعرضوا ، وقال فرعون : « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى » ، وقال « يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى » وفعلوا ما فعلوه مما هو معروف مشهور .

فلما أراد الله نصر نبيه والانتقام منهم أمر موسى أن يجتاز البحر بمن معه ، فاتبعهم فرعون فكان من المغرقين .

(٢٨) « كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ »
(٢٩) « فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ »

إن ما حـــدث لفرعون وآله درس أكبر لـكل من تطغيهم أموالهم أو يطغيهم سلطانهم وبأسهم فى الأرض فيغفلون عن قدرة الله عليهم ، ولذا أظهر الله سبحانه هنا مبلغ هوانهم عليه ، وأنهم — على ما يلغوه — قد زالوا فما زالت الدنيا لفرقتهم ، ولا بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا — كما توهموا — مخلدين ، بل أذهبهم الله وأورث الأرض بعدهم من عباده قوماً آخرين .

(٣٨) « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ »
(٣٩) « مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ »

ولقد كان حسبهم أن ينظروا فى خلق السموات والأرض ليستيقنوا أن الله سبحانه لم يخلقهما عبثاً ولا لعباً ، وإنما خلقهما بالحق ، وكانت له فى خلقتهما حكمة ، ولـكن أكثر الناس لا يعلمون . وإذا كان كل عمل يدل على من عمله ، فـكيف بهذا الخلق الأعظم لا يهدى هؤلاء إلى الخالق الأعظم .

(٤٠) « إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ »
(٤١) « يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ »
(٤٢) « إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ »

فليـكفر الـكفار ماشاءوا ، وليجحدوا آيات الله ، وليغفلوا أعينهم وعقولهم عن النظر فى آثار قدرته وحكمته فما هم بضارين من أحد سوى أنفسهم ، وستمضى الحياة مهما طالت ويأتى يوم الفصل الذى يحشر الجميع فيه .
وفى هذا اليوم لن يغنى عن الـكافرين من جعلوهم لله أنداداً ، ولن ينفعهم شركاؤهم ، بل لا تغنى فى هذا اليوم نفس عن نفس شيئاً إلا من رحمه الله .

(٤٣) « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ »
(٤٤) « طَعَامُ الأَثِيمِ »
(٤٥) « كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ »
(٤٦) « كَغَلْيِ الْحَمِيمِ »

تصف الآيات بعض أنواع العذاب الذى يذوقه المجرمون فى الآخرة ، فهم يطعمون من شجرة الزقوم ، وهى شجرة فى جهنم ذكرها القرآن وسماها الشجرة الملعونة . يلجأ إليها أهل النار حين يهلـكهم الجوع فلا يجدون غيرها ، فإذا أكلوا منها مزقت أحشاءهم ، وأشعلت النار فى أجوافهم ، وشبه القرآن تأثير طعامهم عليهم بأثر النحاس المذاب لو صبت فى أمعائهم تمزقها .

(٤٧) « خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ »

(٤٨) « ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ »

(٤٩) « ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ »

(٥٠) « إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ »

هكذا يقال للزبانية خذوا هذا الكافر فاعتلوه : أى سوقوه وجروه إلى سواء الجحيم أى جروه إلى وسط الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الجحيم وناره ما يتفق وجرمه فى الدنيا .

وفى قوله : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » يجتمع عذاب النفس إلى عذاب الحس فتقال هذه الكلمة لمن كانوا فى الدنيا من أهل الكبرياء والتجبرف ، ومن أبطرتهم نعمة الله فاستعلوا بها فى الأرض .

وروى أنها نزلت فى أبى جهل ، حين التقى يوماً بالنبى ﷺ فقال له النبى : « إن الله أمرنى أن أقول لك : أولى لك فأولى » .

فقال أبو جهل :

بأى شىء تهددنى : والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيئا ، إنى لمن أعز هذا الوادى وأكرمه على قومه ، فقتله الله يوم بدر ، وأذله ، ونزلت فيه هذه الآية .

(٥١) « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ »

(٥٢) « فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ »

(٥٣) « يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ »

لما ذكر سبحانه مايلقاه الكافرون من الخزى والعذاب عرض سبحانه لأمر المتقين فقرر أن لهم المقام الأمين ، وهو الجنات ذوات العيون ، يلبسون فيها ما رق من الديباج وهو السندس ، وما غلظ منه وهو الإستبرق .

(٥٤) « كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ »

ولتكمل المتعة زوجهم الله فى الجنة بالحور العين ، وقيل فى تسميتهم بالحور العين أنهم ذوات أعين حوراء ؛ والحور هو شدة بياض العين فى شدة سوادها ، وقيل : بل لاشتداد بياضهن وصفاء بشراتهن حتى ليكاد يرى ساقها من خلف ثيابها .

وأحسن تعليل ماروى عن مجاهد قال :

سميت الحور حوراً ، لأنهن يحار الطرف فى حسنهن ، وبياضهن وصفاء ألوانهن .

وقد أفاضت الروايات فى صفات الحور العين ، وتحدثت عن مهورهن كذلك ، فروى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال :

« مهور الحور العين قبضات التمر وفلق الخبز » يعنى التصدق بهما .

(٥٥) « يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ »

(٥٦) « لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ »

يطلبون فيها كل ما يشتهون من أنواع الفاكهة ، آمنين من كل مايفزع شيطاناً كان أم غير شيطان حتى الموت فإنهم لا يخشونه فلقد منحهم الله سبحانه الخلود ، ولذا جاء بعدها قوله سبحانه : « لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى » يعنى أنهم بعد أن ذاقوا الموتة الأولى فى الدنيا ، لا يذوقون فى الجنة موتاً بعد .

(٥٧) « فَضْلًا مِن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »

هذا الذى يلقاه المؤمنون فى الآخرة من تكريم ومثوبة ، إنما هو من فضل الله الذى وفقهم فى الدنيا إلى العمل بما أوصلهم إلى الفوز بهذه الغاية ، وذلك هو الفوز العظيم .

(٥٨) « فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »

المراد هنا القرآن ، وتيسيره : تسهيل قراءته ، وتيسير تدبره ، والإفادة منه كما قال سبحانه : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

وكما افتتحت السورة بالحث على اتباع القرآن ختمت به كذلك .

(٥٩) « فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ »

قد بينا الآيات للكفار والمشركين وفصلناها لهم ، وحذرناهم وأخذناهم ، ثم أنذرناهم وبشرناهم وضربنا لهم المثل بمن سبقوهم من الأمم ، فانتظر ما وعدناك ، من النصر عليهم فإنهم منتظرون يتمنون لو نزل بساحتك ما يريحهم منك .

(٧) « وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ »

(٨) « يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »

(٩) « وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ »

(١٠) « مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ »

الأفاك الأثيم : الكذاب الذى لا يخلص من الإثم لأنه لا يكف عن الخطايا ، الويل لهذا الأفاك الذى يسخر من القرآن ، ويعرض عنه ، وإذا سمع آيات الله تتلى عليه ولى مستكبراً كأن لم يسمعها ، تأخذه العزة بالإثم أن ينقاد ويرعوى ، فلا تزيده العظة بالله وكتابه إلا عتواً ونفوراً .

ومثل هذه الحالة من العصيان والضلال قد أعد الله لصاحبها العذاب المهين لأن من يفعل هذا بأساس الشريعة لا يرجى منه خير ، ولا يتوقع منه سوى العصيان المتصل والانغماس إلى الأذقان فى الآثام والخطايا ، فمن لم يقدس كتاب الله ، ويوقره ويعطه حقه من الإجلال والخشية ، لا يمكن أن يكون فى قلبه سوى ما يوسوس الشيطان . ولقد روى أن واحداً من ملوك بنى أمية فى أخريات دولتهم فتح القرآن يطالعه فصادفه قوله سبحانه « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد » فثار بالقرآن وفعل به ما يجل بالقرآن حتى عن إعادة ذكره ، فما لبث أن مزق الله ملكه وفعل به الأفاعيل .

والقرآن كتاب الله ودستور المسلمين فى الأرض يحفظ الله من حفظه ويضيع من ضيعه .

(١١) « هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ »

ولذا أكد الله سبحانه فى هذه الآية القرآن هو الهدى ، وضمنها أن الإعراض عنه إصرار على الضلال والباطل ، وأن الانقياد لغيره معناه الكفر بآيات الله ، والذى يكفرون بآيات الله لهم عذاب من رجز أليم .

(١٤) « قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »

ذكر الواحدى فى أسباب النزول أن المراد بالذين آمنوا عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، وبالذين لايرجون أيام الله عبد الله بن أبى كبير المنافقين .

وذلك أنهم — فى غزوة بنى المصطلق — نزلوا على بئر يقال « المريسيع » فأرسل عبد الله غلامه ليستسق فأبطأ عليه فلما أتاه قال له : ما حبسك ؟ قال : غلام عمر ، قعد على فم البئر ، فما ترك أحداً يستسق حتى ملأ قرب النبى ﷺ ، وقرب أبى بكر ، وملأ لمولاه .

فقال عبد الله بن أبى : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل : سمن كلبك يأكلك .

فبلغ قوله عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فاشتمل بسيفه يريد التوجه إليه فأنزل الله هذه الآية

ويروى : أنه لما نزل قوله تعالى « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً » قال يهودى بالمدينة يدعى «فنحاص» : لقد احتاج رب محمد .

فلما سمع عمر مقالته ، اشتمل على سيفه وخرج فى طلبه .

فجاء جبريل عليه السلام ، وأخبر النبى ﷺ فقال له : إن ربك يقول : «قل للذين آمنوا يغفروا الذين لا يرجون أيام الله » وأعلم أن عمر قد اشتمل على سيفه وخرج فى طلب اليهودى .

فبعث النبى ﷺ فى طلبه ، فلما جاءه قال : يا عمر ضع سيفك .

قال عمر : صدقت يا رسول الله ، أشهد أنك أرسلت بالحق . قال الرسول . فإن ربك يقول : « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله » .

فقال عمر : « لا جرم . والذى بعثك بالحق ولا ترى الغضب فى وجهى » .

وقوله هنا « من عمل صالحاً . . . الآية » ليس إلا تأكيداً للمعنى السابق وهو أن إثم كل عمل على من عمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر . وقد تقدم القول كثيراً فى ذلك .

(١٥) « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ »

(١٦) « وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ »

فى هذه الآية والآيتين بعدها يعيد القرآن حديث بنى إسرائيل معدداً أفضاله سبحانه عليهم حيث أتاهم التوراة ، وآتى أنبياءهم الحكم والنبوة ، ورزقهم المن والسلوى ، أو غيرهما من حلال الرزق ، وفضلهم على أهل زمانهم ،

ثم أتاهم فى كتابهم بينات من أمر الرسول محمد ﷺ : فما اختلفوا إلا من بعد ما علموا بنبوته ، وكانوا من أشد الناس عداوة له . وسيقضى الله فى أمرهم يوم القيامة . .

(١٨) « ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ »

(١٩) « إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ »

والخطاب للرسول ﷺ ، وصلته بما قبله أنه جاء بعد ذكر اختلاف اليهود فيما أوتوا ، وكتابهم الحق الذى أنزل حسداً وبغياً ، وانقياداً للأهواء ولذا أكد المولى سبحانه على رسوله : أن طريقه هو الحق ، وأن صراطه هو الصراط المستقيم ، ومن ثم فعليه يلتزم شريعته ، ولا يحيد عنها ، ولا يتبع أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل .

وفى قوله : « لن يغنوا عنك من الله شيئاً » خطاب لكل أتباع النبى ﷺ وتحذيراً لهم من أن يستميلهم هؤلاء ، أو يلبسوا عليهم دينهم الذى ارتضاه الله لهم ، ومن يفعل ذلك كما فعله بنو النضير وقريظة فلهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة .

وإذا كان لابد من موالاة أحد ، فالله ولى المتقين وهو حسبهم .

(٢٠) « هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ »

هذا القرآن بما تفصل فيه من آيات الله ، وبما عالج فيه من أحوال الدنيا وشئون الآخرة إنما هو بصائر من استرشد بها هدى ، ومن أعرض عنها فقد ضل ، إنه كذلك رحمة من الله لقوم يوقنون .

(٢١) « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ »

قال إبراهيم بن الأشعث فى معرض حديثه عن جلال هذه الآية :

كثيراً ما رأيت الفضيل بن عياض يردد من أول الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرها ويقول : ليت شعرى من أى الفريقين أنت ؟ !

وقيل عن تميم الدارى إن هذه الآية كانت مقامه : رآه رجل من أهل مكة ذات ليلة حتى أصبح أو قرب أن يصبح يقرأ بهذه الآية . يركع بها ويسجد ثم يبكى .

ولذا كانوا يسمونها : « مبكاة العابدين » .

وهى آية محكمة ، وصريحة فى التفريق بين العاصى وللطيع فى المحيا والممات ، أى فى الدنيا وفى الآخرة .

(٢٣) « أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ »

حدث أبو أمامة قال سمعت رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقول: «ماعبد تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى».

وعن عبد الله بن عمر بن العاص عن النبي ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

وعنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : «ثلاث مهلكات ، وثلاث منجيات : فالمهلكات : شح مطاع، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه ، والمنجيات : خشية الله فى السر والعلانية ، والقصد فى الغنى والفقر ، والعدل فى الرضا والغضب » .

ولهذا برأ الله سبحانه نبيه ﷺ أن يكون ما يأتى به وحى هواه فقال : « وما ينطق عن الهوى » .

وذم متبعى أهوائهم فقال : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » وقال : « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم » وقال : « واتبع هواه وكان أمره فرطاً » . وقال : « واتبع هواه فمثله كمثل الكلب » .

وكل هذا يؤكد أن اتباع الهوى مفسدة أى مفسدة : فإذا استبد الهوى بصاحبه فقد ختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فيعميه الهوى فلا يكاد يبصر . ولا دواء لهذا الداء إلا عصيانه ومخالفته كما قال سبحانه : «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » .

يروى عن سهل بن عبد الله التسترى رحمه الله قال : « هواك داؤك : فإن خالفته فدواؤك » .

(٢٤) « وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ »

(٢٥) « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »

أصحاب الهوى هؤلاء الذين لهم أعين يعميها الهوى فلا يبصرون بها ، ولهم قلوب يحجبها الهوى فلا يفقهون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أعجزهم هواهم عن إدراك الحقيقة فى هذا الوجود فقالوا : « ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين » وإذا تليت عليهم آيات الله لم يقولوا سوى : أرجعوا الموتى من آبائنا إن كنتم صادقين ولو صح ما قالوا لما كانت لرحلة الحياة كلها قيمة ، ولا كانت لهذا الوجود كله حكمة .

(٢٦) « قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ »

قل لهم يا محمد : إن الله أحياكم من بعد موتكم فى أصلاب آبائكم ، ثم يميتكم بعد أن تبلغوا آجالكم فى الدنيا ، ثم يجمعكم إلى اليوم الذى لاريب فيه ، وهو على جمعكم « إذ يشاء قدير » .

(٢٧) « وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ »
(٢٨) « وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ »

سبحانه له الملك ، وستأتيكم الساعة وما أخسر المبطلين المكذبين يوم تأتيهم . ويروى عن سلمان رضى الله عنه قال :

« إن فى يوم القيامة لساعة كأنها عشر سنين ، يخر الناس فيها جثاة على ركبهم حتى إن إبراهيم عليه السلام لينادى « يارب : لا أسألك اليوم إلا نفسى » .

وما ذلك إلا من هول ما يرون عند المساءلة والحساب ، إذ تدعى كل أمة إلى كتابها الذى أنزل إليها : لتسأل : ماذا فعلت به فتجزى كل نفس بما عملت .

(٢٩) « هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ »

قيل إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله عز وجل أمر بأن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب ، وأن يسقط منها ما لا ثواب فيه ولا عقاب .

وروى عن على رضى الله عنه قال : « إن لله ملائكة ينزلون كل يوم بشىء يكتبون فيه أعمال بنى آدم » .
وإذا كان كل عمل مثبتاً على من عمله فللصالحين الفوز ، وللمجرمين النار .

(٣٢) « وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ إِن نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ »
(٣٣) « وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ »

إذا قيل أن البعث، وإعادة الأحياء يوم القيامة حق ، وأن الساعة آتية رفض الكافرون أن يصدقوا ، وتشككوا فى القيامة : أحق هى أم باطل ، فإذا قامت القيامة : وتحقق ما كانوا يرونه باطلا ووجدت كل نفس عملها محضراً ، عندئذ يحيق بالكافرين عقاب ما كانوا به يستهزئون .

(٣٤) « وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ »

(٣٥) « ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ »

فى هذا اليوم يهمل المجرمون فى نار جهنم ، ويقال لهم : اليوم ننساكم فيها كما نسيتم فى الدنيا لقاء يومكم هذا ، ومستقركم الأبدى فى النار ، ومالكم من ناصرين .

لا نظلمكم فى هذا الجزاء ، ولا ننزل بكم إلا ما أنزلتموه بأيديكم ، فقد سخرتم من آيات الله وعصيتموها ، وكفرتم بما جاءت به ، ولقد غرتكم الدنيا وظننتموها باقية فألهتكم عن أخذ عدتكم لهذا اليوم ، فالنار اليوم مثواكم لا تخرجون منها ، ولا يخفف عنكم من عذابها ، ولا من راحم ولا شفيق .

(٣٦) « فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »

(٣٧) « وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »

لله الحمد فى الأولى وفى الآخرة على أن هدانا لدينه ووفقنا لطاعته سبحانه له الكبرياء فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم . .

تفسير سورة الأحقاف

٥) « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللهِ مَن لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ »

تعقب هذه الآية على سابقتها التى كانت كالتحدى للمشركين : أن يجدوا لمن أشركوا بهم أثراً واحداً يستحقون به أن يعبدوا من دون الله .

فلما عجزوا عن ذلك ، واستمروا مع هذا يعبدون هذه الأصنام ويشركون بها كانوا أهلا للوصف بالضلال الذى تضمنته هذه الآية ، ومن أضل ممن يدعو من لا يسمع دعاءه ، ومن سيظل كذلك حتى قيام الساعة !! .

بل إن هذه الأصنام التى يعبدونها إذا كان يوم القيامة وأنطقها الله أنكرت عبادتهم لها ، وكانت عدواً لهم .

(٨) « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »

رد القرآن عن نبيه ﷺ ما زعمته الكفار من أنه افترى القرآن من عنده ، ويقرر أنه سبحانه على علم بكل شيء في كونه ، ولو افترى النبي ﷺ شيئاً فالله أعلم به وكفى به شهيداً ، لم يكن ليدع كتابه يفترى عليه أو حق تحرف آياته وكما قال سبحانه :

« ولو تقول علينا بعض الأقاويل ● لأخذنا منه باليمين ● ثم لقطعنا منه الوتين » .

(٩) « قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ »

لما اشتد البلاء بأصحاب الرسول ﷺ رأى فى منامه أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء ، فقصها على أصحابه فاستبشروا بذلك ورأوا فيها فرجاً مما هم فيه من أذى المشركين » .

ثم إنهم مكثوا زمناً لا يرون ذلك فقالوا : يارسول الله متى نهاجر إلى الأرض التى رأيت ؟ فسكت رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى « وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم » يعنى أنه لا يدرى أيخرج إلى الموضع الذى رأى فى منامه أم لا .

ثم قال : إنما هو شيء رأيته فى منامى ، ما أتبع إلا ما يوحى إلى .

ثم إنه لما نزلت هذه الآية فرح المشركون ، واليهود ، والمنافقون وقالوا : كيف نتبع نبياً لا يدرى ما يفعل به ولا بنا ، وإنه بذلك لا فضل له علينا ، ولولا أنه ابتدع الذى يقول من عند نفسه لأخبره الله بالذى يفعل به .

هكذا ذكره القرطبى وذكر الواحدى أنه قد نزلت « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » .

وجاء الصحابة يهنئون الرسول وقالوا : قد بين الله لك ما يفعل بك فليت شعرنا ما هـو فاعل بنا ؟ فنزلت : «ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار . . الآية » ، ونزلت : « وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً » .

وقد اختلف العلماء فى تأويل هذه الآية فرجح الطبرى أن يكون معناها : ما أدرى ما يصير إليه أمرى وأمركم فى الدنيا : أتؤمنون أم تكفرون ؟ أم تعاجلون بالعذاب أم تؤخرون .

وهو أيضاً قول الحسن على معنى « ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى الدنيا : أى لا يدرى ﷺ ما يلحقه وإياهم من مرض وصحة ، وغنى وفقر » .

وذلك أخذاً من قوله سبحانه : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير » .

(١٠) « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ »

الخطاب موجه إلى اليهود الذين أنكروا ذكر محمد ﷺ والتوراة وخرجوا من هـذا القول بإنكار نبوته . قيل لهم : ماذا تقولون إذا كان هذا الكتاب وهذا النبى الذى كفرتم به مرسلا من عند الله ، وقد شهد شاهد منكم هو عبد الله بن سلام على أنه مذكور عندكم فى التوراة ، وبعد هذا كفرتم .

ويروى أن عبد الله بن سلام لما جاء الرسول ﷺ مسلماً من قبل أن تعلم اليهود بإسلامه قال للنبى :

يارسول الله اجعلنى حكماً بينك وبين اليهود ، فسألهم النبى ﷺ عنه فقالوا هو سيدنا وعالمنا ، وإن يشهد لك آمنا بك .

فقال الرسول ﷺ : « إنه قد آمن بى » فأساءوا القول فيه ورفضوا أن يسلموا ، فهذا معنى قوله سبحانه : « فآمن واستكبرتم » ، وهذا مفهوم الظلم الذى أشارت إليه الآية فى قوله « إن الله لا يهدى القوم الظالمين الذين رأوا الحق وثبت لديهم صحته ، ومع هذا أنكروه استكباراً وحسداً .

(١١) « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ »

ثمة روايات كثيرة فى سبب نزولها وهى جميعاً تختلف فى تحديد اسم من نزلت فيه فقيل إنها نزلت فى الغفاريين آل أبى ذر الغفارى رضى الله عنه ، أسلموا فقالت قريش : غفار الحلفاء !! لو كان خيراً ما سبقونا إليه .

وقيل : هم اليهود قالوا ذلك فى عبد الله بن سلام وأصحابه لما أسلم كما سبق ذكره ، فقالت اليهود : لو كان خيراً ما سبقونا إليه ، وعلى هذا كثيرون من المفسرين ويرجحونه بالسياق وبصلته بما قبله .

وبعيداً عن الخلاف فالمضمون واحد وهو أن المشركين كانوا يجعلون إسلام من دونهم فى الحسب والنسب دليلا — كما أوهموا — على أن الإسلام ليس فيه خير ، ولو كان خيراً ما سبقهم إليه الضعفاء ، والفقراء ، وهو المنطق الذى جعلهم يقولون : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

ولما لم يوفق الله الكفار والمشركين إلى الاهتداء بالقرآن ، ولا إلى الإيمان بالرسول ﷺ ، أخذوا يطعنون فى القرآن وفى النبى ﷺ ويقولون : « هذا إفك قديم ، وهذه أساطير الأولين » .

(١٣) « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »

(١٤) « أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

جمعت هذه الآية طرفى الخير فى الإسلام ، وهما الإيمان بالله والإقرار بوجوده ثم الاستقامة ، وحسب هذه الكلمة أنها تجمع كل خصال الشريعة من صلاة وصيام وزكاة وحج ، وعفة عن الحرام ، ومسارعة إلى الخير ، ... الخ . فهؤلاء لا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون ، وقيل إنها نزلت فى أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

(١٥) « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ »

تبين الآية حق الوالدين على ولدهما ، تشرح بصفة خاصة ما عانته الأم فى حملها لولدها . وتربيتها له بين المهد والفطام ، ثم بين الفطام حتى يبلغ أشده ، ثم ما يكون عليه الإنسان من الرفق بهم والرحمة لهم إذا بلغ الأربعين التى هى سن الحكمة واكتمال العقل ، دعا الله لنفسه ولهما .

(١٧) « وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ »

(١٨) « أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ »

قيل إنها نزلت فى عبد الله بن أبى بكر رضى الله عنهما ، وكان أبواه يدعوانه إلى الإسلام فيجيبهما بما رواه القرآن فى هذه الآية وكان ذلك منه قبل إسلامه .

ولقد أنكرت عائشة رضى الله عنها أن تكون قد نزلت فيه أوفى عبد الرحمن أخيه وهذا هو الحق : إذ كيف يصح ذلك مع أن عبد الرحمن بن أبى بكر من أفاضل المؤمنين ؟ ! والأصح والأولى والمتفق وسياق الآية أنها نزلت فى كافر عاق لوالديه .

(٢٠) « وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ »

روى عن الأحنف بن قيس أنه سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لأنا أعلم بخفض العيش ، ولو شئت لجعلت — أى فى طعامه — أكباداً وصلاء وغيرها ، ولكنى أستبقى حسناتى ، فإن الله عز وجل وصف أقواماً فقال : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ... الآية » .

(٢١) « وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ »

اذكره لقومك ، واذكر أخبار هود ، وأحطهم علماً بما كان من أمر قومه معه وكيف عاقبهم الله على عصيانهم أو : اذكره فى نفسك واستحضر من أمره ، وأمر قومه معه ما كان فإنه مواسيك ، ومهون عليك ما لقيت من قومك .

وقد أرسل هود عليه السلام إلى قوم عاد فى ديارهم بالأحقاف حيث الرمال العظيمة المستطيلة كهيئة الجبال ، ولما تبلغ أن تكون كذلك ، ومكانها فى جنوب الجزيرة العربية .

ولقد دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله ، فما استجابوا له ، وقالوا مثل مقالة المشركين والكفار من قريش لرسولنا ﷺ : « أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا » وتصرفنا عن عبادتها . « فأتنا بما تعدنا » لأنا لن نؤمن لك .

ولقد حقت عليهم كلمة العـذاب فأرسل عليهم الريح « تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا تُرى إلا مساكنهم » .

(٢٧) « وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ »

وإذا كان خبر قوم هود قد خفى عليكم لبعده عنكم ، فثمة مثل قريب من أخبار القرى المجاورة لكم فى الحجاز وهى قرى ثمود ولوط المجاورة لكم ، وقد أهلكناها كذلك بذنوب أهلها وعصيانهم الرسل ، فما أغنى عنهم ما كانوا يدعون من قبل .

(٢٩) « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ »

لما مات أبو طالب عم النبى ونصيره فى صدر دعوته إلى الله خرج النبى وحده إلى الطائف يستنصر بأهلها من ثقيف فلقى جماعة منهم فآذوه ، وأغروا به سفهاءهم يسبونه ، ويضحكون منه حتى اجتمع عليه الناس ، وألجئوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، فرفع الرسول صلى الله عليه وسلم يديه إلى ربه يناجيه ويقول :

« اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ؛ يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين، وأنت ربى فإلى من تكلنى ؟

« إلى عبد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟! إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » .

فرحمه ابنا ربيعة صاحبا البستان ، وأمرا غلاماً لهما نصرانياً أن يضع بين يديه قطفاً من عنب ففعل :

فلما وضع العنب بين يديه ، قال الرسول ﷺ : « بسم الله » آكل ، فنظر الغلام إلى وجه النبى ﷺ ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة .

فقال ﷺ : من أى البلاد أنت وما دينك ؟ قال : أنا نصرانى من أهل نينوى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى » .

فقال الغلام : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « ذاك أخى كان نبياً وأنا نبى » فانكب الغلام على النبى حتى قبل رأسه وقدميه ورجليه فسأله سيداه : لم فعلت ذلك ؟ فقال لهما :

ما فى الأرض خير من هذا . أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبى .

ولما يئس النبي ﷺ من ثقيف انصرف إلى غيرهم ، فلما كان ببطن نخلة قام من الليل يصلى ، فمرّ به نفر من جن أهل نصيبين ، فلما بلغوا بطن نخلة سمعوا النبي ﷺ يصلى ، ويتلو القرآن فاستمعوا له وقالوا انصتوا ، فلما انتهى من تلاوته ولوا إلى قومهم منذرين وداعين إلى الله على نحو ما تضمنته الآيات بعد :

ولقد ورد حديث الجن هذا فى السورة التى تحمل اسمهم ، فلينظر بها كذلك .

(٣٥) « فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُم كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِن نَّهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ »

من هم أولوا العزم من الرسل ؟ قال الحسن : هم أربعة : إبراهيم ، وموسى ، وداود ، وعيسى .

فأما إبراهيم ، فقيل له : « أسلم قال أسلمت لرب العالمين » ثم ابتلى فى ماله وأهله ونفسه نصدق فى جميع ما ابتلى به .

وأما موسى فظهر عزمه حين قال قومه وفرعون يتبعهم بجنوده : « إنا لمدركون » قال : « كلا إن معى ربى سيهدين » .

وأما داود فأخطأ خطيئة نبه إليها ، فأقام يبكى حتى نبتت من دموعه شجرة .

وأما عيسى فكان عزمه فى الإعراض عن الدنيا ، فهو لم يضع لبنة فوق لبنة وقال عن الدنيا : « إنها معبرة فاعبروها ولا تعمروها » .

وقيل : بل كل الأنبياء من أولى العزم إلا يونس بن متى لأن رسولنا نهى أن يكون مثله فى قوله تعالى : « ولا تكن كصاحب الحوت » وذلك لما ذهب مغاضباً قومه فظن أن لن يقدر الله عليه فكان من أمر الله معه ما كان .

ويروى أنها نزلت على الرسول ﷺ يوم أحد تثبيتاً للرسول ﷺ ومواساة له . حتى لا يتعجل نزول العذاب بقومه ، فإنه آتيهم لا محالة ، وحين يأتيهم « فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » .

تفسير سورة محمد ﷺ

(٤) « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ »

نزلت هذه الآية كما روى عن قتادة : فى يوم أحد ، ورسول الله ﷺ فى الشعب ، وقد فشت فيهم الجراحات والقتل ، ونادى المشركون : اعلُ هُبَل ونادى المسلمون : الله أعلى وأجل .

فقال المشركون : يوم بيوم بدر والحرب سجال .

فقال النبى ﷺ : « قولوا : لا سواء ، قتلانا أحياء عند ربهم يرزقون وقتلاكم فى النار يعذبون » .

فقال المشركون : إن لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال المسلمون : الله مولانا ، ولا مولى لكم .

ومجمل القول فى معنى الآية : إن الله لما ميز فى الآيات السابقة لها بين الكافر والمؤمن أمر سبحانه بمجاهدة وضرب رقابهم ، حتى أثخنوا بالجراح واشتد القتل فيهم فشدوا الوثاق : أى خذوهم أسرى موثقة بالحبال أيديهم ، وأنتم ذوى خيرة إما أن تمنوا عليهم فتطلقوهم بلا فدية ، وإما أن تقبلوا الفدية فيهم ، ويكون هذا أمركم معهم حتى يستقر أمر هذه الأمة وتضع الحرب أوزارها .

ولو شاء الله سبحانه لانتصر منهم دون أن يكرهكم على قتالهم ، ولكنها حكمته أن يبلو بعضكم ببعض ، ويميز الصابر من الخاسر ، والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم .

وقد قيل فى بيان « الذين كفروا » أنها شاملة الكفار والمشركين من عبدة الأوثان كذلك . وقيل : بل هى شاملة لكل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كتابى ، ما لم يكن صاحب ذمة أو عهد .

واختصها بعضهم بعبدة الأوثان دون غيرهم .

واختلف كذلك فى حكمها فقيل : هى منسوخة بقوله تعالى فى سورة براءة : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » وقوله « فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم » وقوله « وقاتلوا المشركين كافة » .

وقيل : بل هى ناسخة لغيرها ، يعنون آية براءة من آخر ما نزل فلا ينسخها ما كان قبلها .

(٧) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ »

إن تنصروا الله بالانتصار لدينه وتأييد نبيه ، والدفاع عن كلمته ، وتكونوا جنده في الأرض ينصركم ويثبت أقدامكم وعددكم بجنده ، ويلق الرعب في قلب عدوكم ، ويثبت قلوبكم . وفي معناه قال سبحانه « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » وقال : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » وقال : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان » .

وقال « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي » .

وقيل : إن تنصروه بالطاعات والتزام أوامره واجتناب نواهيه ينصركم .

(٨) « وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ »

وإذا كان النصر للمؤمنين فللكافرين الخيبة والهزيمة ، والشقاء والهلكة ، كما قال سبحانه « ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب » وكما قال : « إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم ، وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين » .

ومعنى قوله « وأضل أعمالهم » أى أحبطها ، وأبطل أثرها ، وهو ما تأكد في الآية التالية مع بيان السبب إذ قال سبحانه :

« ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم » .

(١٣) « وَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ »

القرية التي أخرجته مكة حين اضطره المشركون فيها إلى الهجرة بدينه ورجاله إلى المدينة ، ولم يعد إليها إلا يوم الفتح الأكبر .

والآية تواسى الرسول ﷺ وتثبت قلبه ، وتحيى في نفسه الأمل في العودة إلى الوطن الذي أوذى فيه وأخرج منه بغياً بغير حق ، فكم من قرى كانت أشد بأساً من أهل هذه القرية مكة أهلكهم الله ولم يكن لهم من دون الله من ولى ولا نصير .

وروى قتادة وابن عباس رضى الله عنهما :

أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار وهو في طريق الهجرة ، التفت إلى مكة وقال :

« اللهم أنت أحب البلاد إلى الله ، وأنت أحب البلاد إلى ، ولولا المشركون أهلك أخرجوني لما خرجت منك » .

قالها فنزلت هذه الآية .

(١٥) « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ »

هذه بعض صفات الجنة التى وعد المتقون عند الله . « فيها أنهار من ماء غير آسن » أى لم تتغير رائحته و «أنهار من لبن لم يتغير طعمه» لم يصب بالحموضة كما يصاب بها فى الدنيا .

« وأنهار من خمر لذة للشاربين » بين امتيازها عن خمر الدنيا فى غير هذه السورة حيث قال « لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون » وقال « يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون » .

« وأنهار من عسل مصفى » أى من الشمع وما قد يختلط به من القذى خلقه الله كذلك لم يطبخ بنار ، ولم يلتجه نحل .

ولأهل الجنة فيها من كل الثمرات ، وفوق هذا كله فلهم من ربهم المغفرة والرضوان ، فتجمع لهم متعة الحس إلى متعة النفس .

وإذا كان ما تقدم هو ما أعد للمتقين فى الجنة فهل يستوى ذلك وحال من خلدوا فى النار ، « لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ، إلا حميا وغساقاً ، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، بئس الشراب وساءت مرتفقاً .

(١٦) « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ »

هم المنافقون على رأسهم عبد الله بن أبى ، كانوا يحضرون الخطبة فى يوم الجمعة ، فإذا جاء ذكر المنافقين فيها أعرضوا عنها ، وإذا خرجوا سألوا الذى أوتوا العلم : ماذا قال آنفاً ؟ يعنون أنهم لم يكونوا ملتفتين أو مهتمين بما كان يقول .

« أولئك الذين طبع الله على قلوبهم »فلا تصلح للإيمان الخالص ، ولا تصفو من عداوة الرسول والمؤمنين .

(١٨) « فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ »

هؤلاء المنافقون الذين يحادون الله ورسوله ، وهؤلاء المكذبون من أهل الكتاب لم لايتوبون ، ولم لايخلصون الدين لله ؟ وما الذى ينتظرون حتى يؤمنوا بعد ما جاءتهم آيات الله وأتاهم رسوله ؟!

هل ينتظرون القيامة ليؤمنوا ؟ إن كانوا كذلك فقد جاء أشراطها : أى بعض أماراتها وعلاماتها .

ولما كانوا قد قرأوا فى كتبهم من قبل أن محمداً ﷺ آخر الأنبياء فبعثه إذاً من أشراط الساعة وأدلتها . فإذا جاءتهم الساعة فكيف لهم النجاة وأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم .

(٢٠) « وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ »

(٢١) « طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ »

كان المؤمنون المخلصون إذا تأخر الوحى أبدوا شوقهم وحنينهم وكانوا يسألون عنه الرسول ، ويتمنون أن يسمعوا منه صلوات الله عليه ، ولا سيا آيات الجهاد والقتال التى كانت تهز نفوسهم ، وتثير فيهم روح البذل والفداء والبطولات على طريق الله .

هكذا المؤمنون ، أما المنافقون فلم يكن أشد على نفوسهم وقلوبهم من آيات الجهاد والحرب لما تتميز به من كشف لأحوالهم وبيان مدى نكوصهم من القتال وقعودهم عنه ، وتعللهم بالأعذار ، وتثبيطهم الهمم ثم ما تقرر فى شأنهم من أحكام وما تفضح من مستورهم على ملأ الناس . ولذا كانوا يضيقون بها .

فإذا أنزلت سورة وذكر فيها القتال اضطربت حالهم ، وأصبحوا مذهولين كالمغشى عليه من الموت .

أو ما كان من الخير لهم أن يطيعوا ويخلصوا ، ويصدقوا الله إذا جد الجد ، أو ما كان هذا أولى لهم من افتضاح أمرهم كل يوم ، ومن سوء المنقلب الذى ينتظرون فى الآخرة ؟!

(٢٢) « فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ »

(٢٣) « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ »

« فهل عسيتم » أى فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن ، وفارقتم أحكامه ، ولم تعملوا بها ، وسخرتم منها أن ينتهى حالكم إلى أن تصبحوا مفسدين فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟

ولو بلغ بكم الأمر هذا المدى لكنتم من الذين استحقوا لعنة الله والطرد من رحمته .

روى مسلم عن أبى هريرة قال قال : رسول الله ﷺ :

« إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هـــذا مقام العائذ من القطيعة ، قال نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك . ؟ قالت : بلى . قال : فذاك لك .

ثم قال الرسول : اقرأوا إن شئتم : فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ، أولئك الذين لعنهم الله وأصمهم وأعمى أبصارهم » .

(٢٥) « إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ »

(٢٦) « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ »

اعتبر القرآن النفاق ضرباً من الردة عن الحق بعد الإهتداء إليه والآية فى كفار أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون ويعترفون بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم لما علموه عنها فى كتبهم ، فلما جاءهم النبى ﷺ أنكروا ما كانوا يعترفون به ، وكفروا بما كانوا يصدقون به من قبل .

ذلك لأن الشيطان سول لهم وحدثهم بأن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ستقضى على نفوذهم ، وتصادر مغانمهم ، ثم إنهم قالوا للكافرين والمشركين الذين يكرهون ما أنزل الله .. قالوا لهم : سنطيعكم فى بعض الأمر ، أى فى معاداة محمد ، والتخلى عنه فى الجهاد ، وتخذيل المجاهدين وتثبيط هممهم ، ولم يكن هؤلاء يتوقعون أن يهتك الله أسرارهم .

(٢٩) « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ »

(٣٠) « وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ »

أيظن هؤلاء المنافقون ، والمخادعون من أهل الكتاب الذين فى قلوبهم مرض أن الله سبحانه لن يكشف سرهم ويفضح للنبى والذين آمنوا ما يكيدون لهم ، وما يدبرون لهم من مكروه ؟!

لو شاء سبحانه لأطلع رسوله على هؤلاء وميزهم له من دون المؤمنين فيعرفهم ، بسيماهم ، ويعرفهم باللحن فى القول الذى كانوا يرتبونه فيما بينهم ليتخاطبوا به فى حضرة الرسول .

قال أنس بن مالك : « فلم يخف منافق بعد هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

(٣٥) « فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ».

الخطاب موجه إلى المؤمنين ، الذين قد يفت فى عضدهم تحالف المنافقين ، والمشركين ، وأهل الكتاب عليهم ، فأمروا ألا يضعفوا ، ولا يهنوا ، وألا يسالموا هؤلاء . . . لأنهم الأعلون ، المنتصرون والله معهم ، ولن ينقصهم ثواب عملهم ، ولن يجزيهم بإخلاصهم لله إلا النصر والظفر .

(٣٦) « إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ »

(٣٧) « إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ »

(٣٨) « هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم »

تتحدث الآيات الثلاث عن جانب آخر من جوانب الجهاد فى سبيل الله وهو الجهاد بالمال .

وبدأت الآيات حديثه هنا بتهوين شأن الحياة الدنيا كلها ، وأن ما فيها من متاع لا يوازى عند الله جناح بعوضه ، والفائز فيها من آمن واتقى .

كما أكدت الآيات أن المال الذى ينفق إنما هو مال الله ، وأن من ينفق منه يثب ويجز عليه الجزاء الأوفى .

ومع أن المال مال الله ، وهو الذى استخلف الناس فيه فإن كثيرين منهم إذا سئلوا فى أن ينفقوه فى سبيل الله وألح الله عليهم فى المسألة ، بخلوا وتولوا ، وظنوا بالله الظنون .

وها أنتم أيها المؤمنون تدعون لتنفقوا فى سبيل الله على مطالب الجهاد والخير ، فمنكم من يبخل ، غافلا عن أن الله هو الغنى وأنه سبحانه ليس بحاجة إلى ما بأيديكم ، وغافلا كذلك عن أن الله سبحانه يستطيع أن يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين .

وفى قوله : « ثم لا يكونوا أمثالكم » أى فى البخل والحرص على المال والامتناع عن الإنفاق فى سبيل الله .

وحكى أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية فرح بها رسول الله ﷺ وقال :

« هى أحب إلى من الدنيا » .

تفسير سورة الفتح

(١) « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً »

(٢) « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً »

(٣) « وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً »

روى عطاء عن ابن عباس رضى الله عنه قال : إن اليهود شتموا النبي ﷺ لما نزل قوله تعالى «وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم » وقالوا : كيف نتبع رجلا لا يدرى ما يفعل به !! فاشتد ذلك على النبي ﷺ فأنزل الله السورة « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » .

روى عن عمر رضى الله عنه أنها لما نزلت قال رسول الله ﷺ :

« لقد أنزلت على سورة هى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » .

والفتح الذى عنته الآية : قيل : هو « صلح الحديبية » إذ كانوا يعدونه فتحاً ويروى فى ذلك أن رجلا قال عند منصرفهم من الحديبية : ما هذا بفتح ..

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «بل هو أعظم الفتوح، لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح ، ويسالوكم القضية، ورغبوا إليكم فى الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا » .

وروى عن الزهرى قال : لقد كان الحديبية أعظم الفتوح، وذلك أن النبي ﷺ جاء إليها فى ألف وأربعمائة، فلما وقع الصلح مشى الناس بعضهم فى بعض ، وعلموا ، وسمعوا عن الله ، فما أراد أحد الإسلام إلا تمكن منه .

فما مضت تلكما السنتان ـ يعنى المضروبتان أمداً لهـذا الصلح ـ إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة فى عشرة آلاف .

وقيل : بل هو فتح مكة ، فإن لم يكن يوم نزول الآية قد حدث ولكنه من قبيل الإخبار عما سيكون باعتباره قد كان .

ولقد نزلت هذه السورة بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية من أولها إلى آخرها .

واختلف فى معنى قوله سبحانه : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » .

فقيل : المراد لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه ، وهذا التقدير مبنى على أساس أنه ليست للنبي صلى الله عليه وسلم ذنوب .

وقيل : ليغفر لك ما تقدم فى الجاهلية قبل البعثة النبوية ؛ وما تأخر مما لم تعمله .

وقيل : ما تقدم هذا الفتح ، وما تأخر عنه .

وقد جهد المفسرون أنفسهم ليبينوا الذنب الذى قصدته الآية هنا . فقيل : هو ذنبه يوم « حنين » . فإن الناس لما انهزموا يومها قال لعمه العباس ولابن عمه أبى سفيان : « ناولانى كفاً من حصباء الوادى » ، فناولاه فأخذه ورمى به المشركين وقال :

« شاهت الوجوه » « حم ـ لا ينصرون » فانهزم القوم عن آخرهم ، فلم يبق أحد منهم إلا امتلأت عينـــه رملا وحصباء .

ثم نادى أصحابه فرجعوا فقال لهم عند رجوعهم :

« لو لم أرمهم لم ينهزموا » فأنزل الله عز وجل « وما رميت إذ رميت ولـكن الله رمى » وكان هـذا هو الذنب المتأخر .

وأما الذنب المتقدم ـ كما قالوا ـ فهو أنه صلى الله عليه وسلم لما حزبه الأمر فى يوم بدر جعل يدعو ويقول :

« اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض أبداً » فأوحى الله إليه : من أين تعلم أنى لو أهلـكت هذه العصابة لا أعبد فى الأرض !

فـكان هذا ذنبه .

وهذه كلها اجتهادات لا تستند إلى نقل عن الله أو الرسول صلى الله عليه وسلم من الخير ترك القصل فيها لرب القرآن وحده سبحانه .

(٤) « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّـــكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَـكِيمًا »

السكينة : الإطمئنان والإحساس بالأمن وهى كذلك حيثما ورد لفظها فى القرآن إلا ما جاء فى سورة البقرة من قوله سبحانه « إن آية ملـكه أن يأتيـكم التابوت فيه سكينة من ربكم» فلها معنى آخر على ماروى عن ابن عباس رضى الله عنه .

وأما ازدياد الإيمان فى قوله : « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » فمعناه ليزداد إيمانهم رسوخاً وتمكناً من القلوب ، وتزداد ثقتهم فى الله يقيناً وقوة .

وقوله « ولله جنود السموات والأرض » يعنى جنوده من الملائكة فى السماء ومن المؤمنين المخلصين فى الأرض، ولقد أمد الله المسلمين بجنود السماء فى يوم بدر على ما سبق القول فيه .

(٥) « لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا »

أثاب الله رسوله ، ومنحه المغفرة لما تقدم من ذنبه وما تأخر كما تقدم فى قوله « ليغفر لك الله .. الآية » .

فلما قرأها النبى صلى الله عليه وسلم على أصحابه قالوا : هنيئاً لك يا رسول الله فماذا لنا ؟ فنزلت هذه الآية « ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار .. الآية » .

ونقل القرطبى عن القشيرى ما معناه أنه ما من فضل منحه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم إلا أعطى مثله للمؤمنين من عباده .

فلما أتم الله نعمته على رسوله وقال : « ويتم نعمته عليك » قالوا : هنيئاً لك ، فنزلت « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى » .

ولما قال الله لنبيه : « ويهديك صراطاً مستقيما » جاء فى حق المؤمنين : « ويهديكم صراطاً مستقيما » .

ولما قال لرسوله : « وينصرك الله نصراً عزيزاً » جاء فى شأنهم « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » ، وهكذا مما يؤكد شمول فضل الله سبحانه النبى صلى الله عليه وسلم ولأتباعه المؤمنين .

(٦) « وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا »

وكل انتصار يحرزه النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه كان المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات يفزعون له ، ويضيقون به ، وينزل من نفوسهم منزل الصاعقة لأنهم كانوا دائماً يتربصون بالمسلمين الدوائر، ويتمنون لهم السوء والخذلان .

ولذا جاءت الآية تقضى بتعذيبهم ، وإذلال نفوسهم ، وجعل الغيظ والكمد يأكلان صدورهم وقلوبهم . هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فعليهم غضب الله ولعنته ، ولهم بعدهما جهنم وبئس المصير .

(٧) « وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا »

يؤكد سبحانه هنا ما سبق ذكره عن جنود الله فى السموات والأرض، وحكمة إعادة الحديث عنها هنا هو زيادة

كبت المشركين والمنافقين الذين ظنوا الظنون بالمسلمين وبرسولهم ، وبربهم ، وقالوا[1] . بعد صلح الحديبية :

أيظن محمد إنه إذا صالح أهل مكة ، أو فتحها لا يبقى له عدو ، فأين فارس والروم ؟ !

فأكد الله لهم : أن ما لديه من جنود السموات والأرض أقوى وأبقى من فارس ومن الروم ، ولذا وصف سبحانه نفسه بالعزة فى ختام الآية ليؤكد معنى القوة والقدرة على كل من يعادى الحق ، سواء من المشركين أم من المنافقين ، أم من غيرهم من الفرس والروم .

(١٠) « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا »

هذه المبايعة هى التى عرفت من بعد باسم بيعة الرضوان ، والتى سيأتى الحديث عنها عند تفسير قوله سبحانه : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » .

وقد اعتبر القرآن مبايعة الرسول مبايعة لله ليعطيها التأكيد والتوثيق الذى يليق بجلال معاهدة الله ، وزاد المعنى تأكيد بقوله : « يد الله فوق أيديهم » .

(١١) « سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا »

هم الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ حين اعتزم السفر إلى مكة فى عام الفتح : واعتلوا وقالوا : « شغلتنا أموالنا وأهلونا » وجاءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم يسألونه الاستغفار لهم ، ففضح الله أمرهم ،وقال: « يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم » .

ثم هددهم القرآن هنا إذ قال لهم : « قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً » من يحميكم من بأسه إن شاء أن يبطش بكم ؟ ومن يعطيكم إن شاء الله أن يحرمكم؟ وكيف يمكن لكم أن تخدعوا رسول الله إذا « كان الله بما تعملون خبيراً » .

(١٢) « بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا »

---

(١) قالها عبد الله بن أبى كبير المنافقين .

ثم أبى القرآن إلا أن يفضح نفاقهم ، ويخرج للناس مافكروا فيه وما قالوه فقال وقوله الحق « بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً » وتصورتم أن ما تقولونه لن تحاسبوا عليه ، وخيب الله ظنكم وكنتم قوماً هالكين .

(١٥) « سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ. يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا »

هؤلاء المنافقون حين دعوا إلى الجهاد تشاغلوا وتعللوا وقالوا ما قالوه فلما نصر الله عباده ، وكتب لهم الفوز على عدوهم ، أسرعوا بالخروج يطالبون أن يشاركوا المسلمين فيما غنموه ، فكيف يصح هذا ؟ وبأى حق يريدون الغنائم التى أحجموا حين خوض معاركها وقعدوا ساعة الخطر عن التصدى لها ؟!

والمراد هنا مغانم خيبر التى وعدها الله لمن ثبتوا مع الرسول ﷺ يوم الحديبية وأنها خاصة لهم من غاب منهم أو من حضر ، ولقد حضر أهل الحديبية جميعاً غزوة خيبر . ولم يغب منهم إلا جابر بن عبد الله فقسم له الرسول ﷺ وأخرج له سهمه كما لو كان حاضراً .

ومعنى قوله « يريدون أن يبدلوا كلام الله » فى أصح ما قيل : أنهم يريدون أن يغيروا وعد الله بالغنائم لأهل الحديبية .

فلما خوضوا بذلك ، ولم يسمح لهم ومنعوا من الخروج ، قالوا : بل تحسدوننا ، وتحقدون علينا أن ينالنا خير ، كذب المنافقون ، « بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا » .

(١٦) « قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا »

ولقد أمر الله رسوله أن يخبر هؤلاء المخلفين الذين تعللوا واعتذروا أن يخبرهم بأنهم إن كانوا حقاً صادقين فى طلب الخروج للغزو والجهاد فى سبيل الله فسوف يدعون إلى قوم محاربين أولى بأس شديد ، لا يقبل منهم إلا الإسلام أو الحرب . فإن تطيعوا وتخرجوا لقتالهم يؤتكم الله النصر فى الدنيا والنعيم فى الآخرة .

وإن تتولوا وتعرضوا كما سبق منكم يعذبكم عذاباً أليماً .

(١٧) « لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا »

هذه الآية ترفع التبعة عن أصحاب الأعذار إذا تخلفوا ومنعتهم أعذارهم من الجهاد . فإنه لما نزلت الآية السابقة، وهدد فيها المتخلفون ذلك التهديد الشديد بقوله «وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً » .

لما نزلت جاء أصحاب الأمراض من أهل الزمانة فقالوا يارسول الله : كيف بنا ؟ فنزلت « ليس على الأعمى حرج » الآية .

والمفهوم أن التخلف المقصود بالعقوبة والإثم هو التخلف بلا عذر شرعي ، أما تخلف العاجز المضطر فعذره عند ربه ، ولا تبعة عليه وحسبه أن يكون في طاعة الله فيما يستطيع الطاعة فيه .

(١٨) « لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً »

(١٩) « وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً »

رضي الله عن المؤمنين فسميت بيعة الرضوان ، وكانت بالحديبية وبيانها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج معتمراً في ذي القعدة بعد غزوة بني المصطلق ، استنفر الأعراب من حوله للخروج معه فتخلف أكثرهم على ماسبق القول فيه مما أشارت إليه الآية « سيقول لك المخلفون من الأعراب .. الآية » .

وخرج النبي صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن أطاعه من بقية العرب ، وكانوا جميعاً نحو ألف وأربعمائة ، وساق معه الهدى ، وأحرم ليبين للناس أنه لايريد الحرب .

فلما علمت قريش بخروجه أجمعت على صده عن المسجد الحرام وعن دخول مكة ، وأعلنوا أنه إن قاتلهم دون ذلك فسيقاتلونه .

وجاء الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلك طريقاً لايواجههم فيه وخرج إلى الحديبية من أسفل مكة .

وعلمت بذلك خيل قريش التي كان عليها خالد بن الوليد ، فأبلغت خبره إلى قريش في مكة .

ولما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحديبية » بركت ناقته صلى الله عليه وسلم ، فقال الناس: خلأت ، خلأت (١) .

فقال صلى الله عليه وسلم : ماخلأت،وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، لاتدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .

---

(١) خلأت الناقة حرنت وبركت من غير علة .

ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم هناك فقيل له : يارسول الله ليس بهذا الوادى ماء، فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم سهماً من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه ، فنزل فى قليب من تلك القلب فغرزه فى جوفه فجاش بالماء حتى كفى جميع الجيش .

ثم كانت السفارة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش ، وكان أخذ ورد ، وطال التراجع بين الطرفين حتى جاء فى النهاية سهيل بن عمرو العامرى ، فاتفق مع رسول الله على أن ينصرف الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون عن مكة عامهم هذا .

وإذا كان العام القابل أتى معتمراً ، ودخل هو وأصحابه مكة بغير سلاح حابساً السيوف فى قربها فيقيم بها ثلاثاً ويخرج .

وعلى أن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضاً .

على أن من جاء من الكفار إلى المسلمين مسلماً من رجل أو امرأة رد إلى الكفار .

ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتداً لم يردوه إلى المسلمين .

فعظم ذلك على المسلمين حتى كان لبعضهم فيه كلام . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعلمه الله من أنه سيجعل من ذلك للمسلمين فرجاً فقال لأصحابه :

« اصبروا فإن الله يجعل هذا الصلح سبباً إلى ظهور دينه » ، فاطمأن أصحابه إلى ذلك .

ولما شرعوا فى كتابة صحيفة الصلح بذلك أبى سهيل بن عمرو أن يكتب فى صدرها : من محمد رسول الله ، وقال له :

لو صدقناك بذلك مادفعناك عما تريد! فلا بد أن تكتب : « باسمك اللهم» وكان على رضى الله عنه يكتب الصحيفة فقال له الرسول :

« امح يا على واكتب باسمك اللهم » .

فأبى على رضى الله عنه أن يمحو بيده « محمد رسول الله » فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم :

« اعرضه على » فعرضه وأشار إليه فمحاه صلى الله عليه وسلم بيده وأمره أن يكتب « من محمد بن عبد الله » .

وحدث بعد توقيع كتاب الصلح هذا أن جاء أبو جندل بن سهيل إلى المسلمين يرسف فى قيوده ، ويطلب إليهم أن يستبقوه عندهم ، ولكن العهد كان ينص على غير ذلك ولهذا رده رسول الله صلى الله عليه وسلم

وعظم ذلك على المسلمين ، فأخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبر أبا جندل نفسه أن الله تعالى سيجعل له من أمره مخرجاً ومن ضيقه فرجاً .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث — قبل الصلح — بعثمان بن عفان رضى الله عنه رسولا إلى مكة ، فتأخر هناك قليلا ، وجاء الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن أهل مكة قد قتلوه .

عندئذ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المبايعة له على القتال والحرب .

وفى صحيح مسلم عن أبى الزبير عن جابر قال :

كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة ، فبايعناه ، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة . وقال : بايعناه على ألا نفر ، ولم نبايعه على الموت .

وعن يزيد بن أبى عبيد قال :

قلت لسلمة : على أى شىء بايعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ؟

قال : على الموت .

ويروى أنه عند توقيع الصلح أو بعده جاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : ألسنا على حق وهم على باطل ؟ !

قال : بلى .

قال : أليس قتلانا فى الجنة ، وقتلاهم فى النار ؟

قال : بلى .

قال : ففيم نعطى الدنية فى ديننا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا ابن الخطاب إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبداً » .

ولم يصبر عمر رضى الله عنه فانطلق متغيظاً فأتى أبا بكر رضى الله عنه فقال له :

يا أبا بكر ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال : بلى . قال أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار . قال : بلى ، قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم .

فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا ابن الخطاب : إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً .

فلما نزلت « الفتح » على رسول الله ﷺ أرسل إلى عمر فأقرأه إياها فقال عمر :

أو فتح هو يارسول الله ؟!

قال « نعم » فطاب عمر نفساً .

أما المغانم الكثيرة التى وعدهم الله بأخذها ، فالمراد بها أموال خيبر وكان بين مكة والحديبية ، وكانت ذات أموال وعقار فأظفرهم الله بها .

(٢٠) « وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا »

وعد الله للمؤمنين الذين ثبتوا فى المحنة وآزروا رسول الله يوم الشجرة ، وعدهم الله ، ومن على شاكلتهم من المؤمنين المخلصين وعدهم مغانم كثيرة . . . من ثواب عند الله ، وظفر بالجنة ، أو ما وعدهم سبحانه من نصر واتساع ملك ، واستقرار دولة .. وعدهم هذا كله فعجل لهم مغانم خيبر ، أو عجل لهم صلح الحديبية كما قال ابن عباس .

وقوله : « وكف أيدى الناس عنكم » ، يعنى أهل مكة ، إذ كفهم بالصلح يوم الحديبية ، أو هم اليهود كف الله أيديهم عن المدينة بعد خروج الرسول ﷺ منها فى طريقه إلى الحديبية وإلى خيبر .

وعن ابن عباس رضى الله عنه : الذين كفت أيديهم عن المسلمين هما : عيينة بن حصن الفزارى ، وعوف ابن مالك النضرى ، ومن كان معهما ، جاءا لينصرا أهل خيبر إبان محاصرة النبى ﷺ لها ، فألقى الله عز وجل الرعب فى قلوبهم وكفهم عن المسلمين ، ليكون هذا آية من الله للمؤمنين ، يثبت بها يقينهم ، وينعش بها الأمل فى نفوسهم ويهديهم صراطاً مستقيما .

(٢١) « وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً »

والمراد ، ووعدكم الله مغانم أخرى لا تطيقون تبعاتها ، وقد لا تظنون مقدرتكم على تحقيقها ، فلا تطمح آمالكم إليها ، ولكن الله سبحانه قد أحاط بها ووعدكم الظفر ، وأقدركم عليها ، وكان الله على كل شيء قديراً .

(٢٢) « وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً »

إن الله سبحانه حينما كتب « الفتح » لنبيه فى هذه البيعة وفى يوم الرضوان هذا ، كما أراد أن يطمئن عباده المؤمنين على أنه دائماً مولاهم وناصرهم ، فقرر لهم فى هذه الآية ، أنه حتى لو كان أهل مكة قد قاتلوكم فإن الله سبحانه كان سينصركم عليهم ، وكانوا سيولون الأدبار ، ولا يجدون لهم ولياً ولا نصيراً ..

وهذه سنة الله التى سلفت واتصلت على مر الزمن أن ينصر أولياءه ويقهر أعداءه .

(٢٤) « وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً »

ذكر الواحدى فى أسباب النزول عن أنس رضى الله عنه قال :

إن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا من جبل التنعيم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمين يريدون أخذه

على غرة هو وأصحابه ، فأخذهم النبي وأصحابه أسراء ، فاستحياهم نزلت هذه الآية .

وروى ابن هشام عن وكيع قال : وكانت قريش — يعني أثناء مفاوضات الحديبية — قد جاء منهم نحو سبعين أو ثمانين رجلا للإيقاع بالمسلمين وانتهاز الفرصة في أطرافهم ، فانطلق إليهم المسلمون وأخذوهم أسرى .

وكان ذلك والسفراء يمشون بالصلح بينهم ، فأطلقهم رسول الله ﷺ ، فهم الذين يسمون الطلقاء ، ومنهم أبو سفيان وابنه معاوية .

(٢٥) « هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا »

تحكي الآية عدوان المشركين في هذا الموقف الذي صدوا فيه المسلمين ومنعوهم من دخول المسجد الحرام ، ومنعوا الهدي وحبسوه حتى لا يبلغ محله ، ولم يكن من عادتهم من قبل أن يحبس الهدي عن بيوت الله .

ولولا أن تطئوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات لا تعلمونهم لأنهم يكتمون إيمانهم بمكة وخشية أن يصيبكم العار بسبب ذلك فيقول المشركون عنكم إنكم قتلتم أتباعكم وأهل دينكم .

لولا هذا لأذن الله لكم في دخول مكة «لقتال أهلها لكي يدخل الله في رحمته من يشاء » بمعنى أن يسلم بعد الصلح من أهل مكة من شاء الله أن يسلمه ، وقد أسلم كثيرون منهم وحسن إسلامهم .

وفي قوله : « لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا » قال علي رضي الله عنه : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال :

هم المشركون من أجداد نبي الله ، ومن كان بعدهم في عصرهم — كان في أصلابهم قوم مؤمنون ، فلو تزيل المؤمنون عن أصلاب الكافرين « لعذب الله الكافرين عذاباً أليماً » .

(٢٦) « إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا »

في هذه الآية تعجيب على ما دار في المفاوضة بين رسول الله ﷺ وبين سهيل بن عمرو يوم الحديبية إذ رفض سهيل أن يكتب في صدر الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم ، أو أن يكتب محمد رسول الله كما سبق القول فيه ،

فهذا معنى الحمية ، حمية الجاهلية التى أشارت إليها الآية .

أما موقف الرسول ﷺ ، وموافقته سهيلا على ما أراد ، ومحوه بيده عبارة « محمد رسول الله » وأمره علياً بأن يكتب كما أراد سهيل ، ثم انقياد الصحابة للرسول ، وخاصة عمر الذى اطمأن بعد قلقه .

أما هذا فهو ما عنته الآية بقوله « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها .

« وكان الله بكل شىء عليما » بما سيكون من نصر للمؤمنين إذ أوحى إلى نبيه ﷺ أن يقبل ما شرطوه ويقره، مع ما يبدو فى مظهره من الحيف بالمسلمين ، لأنه سبحانه كان قد كتب النصر له وللمؤمنين وكان من صالح المؤمنين ألا يدخلوا مع الكفار فى حرب هذا العام .

بدليل أن عدد المسلمين يوم الحديبية كان ألفاً وأربعمائة ، فلما كان فتح مكة بعدها . . زحفوا عليها فى أكثر من عشرة آلاف .

(٢٧) « لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا »

رأى رسول الله ﷺ فى منامه أنه يدخل مكة والمسلمون محلقين رءوسهم ومقصرين لا يخافون شيئاً ، ولا يمنعهم عن البيت مانع . وكانت رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم قبل يوم الحديبية .

فلما خرج وأصحابه وساقوا الهدى ، واعترضتهم قريش وكان ما كان من صلح الحديبية تقول المنافقون الأقاويل فأنزل الله هذه الآية يؤكد أن دخول النبى وأصحابه للمسجد الحرام سيتم بإذن الله دون ريب ، ولكنه إذا لم يتم هذا العام فسيتم من قابل .

وفى قوله « فعلم ما لم تعلموا » بيان لحكمة الله سبحانه فى تأخير دخول مكة هذا العام لأنه كان فى هذا مصلحة للمسلمين ، إذ عوضه الله عن رجوعه غنائم خيبر فعاد بمال وعتاد ، وأعطاه العام الذى مر بعد الحديبية — فى هدنة — الفرصة للاتصال الهادىء بالقبائل وبالأفراد ، ومناظرتهم ، مما أعطى الفرصة الطبيعية لمناقشات مجدية كانت ثمرتها دخول الآلاف فى الإسلام ، بدليل أن عدد المسلمين يوم الحديبية كان ألفاً وأربعمائة ، وكان يوم فتح مكة أكثر من عشرة آلاف .

(٢٩) « مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا

سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً »

هذا مثل النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وصورتهم فى القرآن ، وهى ليست صفات شخصية بالنبى صلى الله عليه وسلم وبكل من أصحابه ، ولكنها سمات عامة لموقفهم العام كذلك وبالنسبة لما بينهم وبين أنفسهم .

فهم أمام عدو هم أشداء عليه ، غلاظ الأكباد وكأنهم الوحوش المفترسة يراهم عدوٌ فيلقى الله الرعب منهم فى قلبه فلا يستطيع إلا أن يفر ، وإذا ثبت وقاتلهم صنعوا فى قتاله المعجزات ، فترى الواحد من المؤمنين وكأنه بعشرة ، فإذا اشتد به الضعف كان كأنه اثنان .

أما فيا بينهم بعضهم وبعض فهم متعاطفون رحماء ، يرقُّ الرجل منهم لأخيه فى الله حتى كأنه ابنه أو أبوه ، ويهاجر المهاجرون منهم فتفتح لهم الأنصار بيوتها وقلوبها ، وتوسعهم من كرمها ، ومودتهما وعطفها ما يجعلهم يتقاسمون كل الشيء فيا بينهم ، البيت والمال ، والمتاع والسلاح وحتى النساء ، كان الرجل من الأنصار ينزل لأخيه المهاجر عن زوجة من زوجاته فيطلقها فتعتد فيتزوجها المهاجر .

هذا عن علاقاتهم بعد ، وعلاقاتهم بإخوانهم وذويهم .

أما علاقاتهم برب القرآن ، وجبار الأرض والسموات ، فهم عبيد مُخلص « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون » .

يقف العبد منهم بين يدى مولاه فيغفل عن دنياه كلها إلا أن يقول سبحانك بيدك محياى ومماتى ، وإليك أولاى وأخراى ، عبدك ، وابن عبدك يسعى خاضعاً على بابك أن تقبله .

« سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » .

هى لمسة من لمسات نور النفس تفيض على الملامح فتكسوها البهاء والجلال والطمأنينة ، هى آثار سهر الليل فى العبادة ووصال الله يطلع النهار فتدل على صاحبها كأنما تقول : هذا عابدٌ ، هذا قانت ، هذا تقرحت جفونه بكاء من خشية مولاه .

« ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه » كنبات أخرج فروعه ، وما ينبت منه « فآزره » فآزر الأصل الفرع ، أو آزر الفرع الأصل أو هما معاً يقوى كل منهما الآخر ، حتى يصبح النبات كله قوياً مستحصداً .

هكذا أراد الله بأمة محمد ﷺ ما أراد لها من القسوة ، والصفاء ، وخلوص العبادة ، وقوة الدين . ليغيظ بهم الكفار .

« وعد الله الذين آمنوا منهم » من هذا الصنف ، أو من هذا الجنس ومن كان على مثاله للمغفرة والأجر العظيم .

ونخرج من هذا إلى تذكر ما لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضل ، وكيف أثنى الله سبحانه عليهم بما هم له أهل فقال ، « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » .

ثم وصفهم مرة ثانية فى قوله : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

وقال فى صفتهم :

« للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » .

وقال :

« والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم فى شأنهم :

« إن الله اختار أصحابى على العالمين ، سوى النبيين والمرسلين » .

وقال :

إن الله عز وجل اختارنى واختار لى أصحابى ، فجعل لى منهم وزراء وأختاناً وأصهاراً ، فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا يوم القيامة .

وقال صلوات الله عليه :

« لا تسبوا أصحابى ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ، لم يدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه » .

وفى حديث آخر : « فلو أن أحدكم أنفق ما فى الأرض لم يدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه » .

تفسير سورة الحجرات

(١) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »

هذه السورة فى جملتها تعلم الآداب ومكارم الأخلاق ، وخاصة فى حضرة رسول الله ﷺ .

وروى الواحدى فى سبب نزولها أن عبد الله بن الزبير أخبره أن ركباً من بنى تميم قدم على رسول الله ﷺ ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : أمر القعقاع بن معبد .

وقال عمر : أمر الأقرع بن حابس . فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافى ، وقال عمر : ما أردت خلافك .

فتماديا ، حتى ارتفعت أصواتهما فنزل فى ذلك « يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله . الآية إلى قوله تعالى « ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم » .

ومعنى لاتقدموا بين الله ورسوله . لاتفتاتوا على الله ورسوله حتى يقضى الله على لسان رسوله .

وقال ابن عباس : معناها النهى من الكلام بين يدى كلام الله أو كلام رسول الله ﷺ .

وقيل بل نزلت فى قوم ذبحوا أضحياتهم قبل أن يصلى رسول الله ﷺ فأمروا أن يعيدوا الذبح .

ويكون معنى الآية على هذا — كما قال ابن جريج — لاتقدموا أعمال الطاعات عن وقتها الذى أمر الله تعالى ورسوله به .

(٢) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ »

ذكر المهدوى عن على رضى الله عنه قال :

نزل فينا قوله تعالى « لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى» لما ارتفعت أصواتنا أنا وجعفر ، وزيد بن حارثه ، نتنازع ابنة حمزة لما جاء بها زيد من مكة ، فقضى بها رسول الله ﷺ لجعفر ، لأن خالتها عنده .

وروى البخارى عن عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قدم على النبى ﷺ فقال أبو بكر : يارسول الله استعمله على قومه .

فقال عمر : يارسول الله لاتستعمله .

فكانا عند النبي ﷺ حتى ارتفعت أصواتهما فقال أبو بكر لعمر رضى الله عنهما : ما أردت إلا خلافى . فقال عمر رضى الله عنه : ما أردت خلافك فنزلت هذه الآية « يأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي » .

فكان عمر رضى الله عنه إذا تكلم عند النبي ﷺ بعد ذلك لم يسمع كلامه حتى يستفهمه .

« ولا تجهروا له بالقول » أى لا تخاطبوه باسمه ، مثل يا محمد ، ويا أحمد ولكن : يانبي‌الله يارسول الله تكريماً لقدره وتوقيراً وإعظاماً له .

وقيل — وهذا أقرب وأنسب — إن المنافقين كانوا يرفعون أصواتهم فى مخاطبته ﷺ ، محاولين بذلك النيل من هيبته وتأليب الضعفاء عليه حتى يقتدوا بهم فيسيئوا معاملتهم له كما يسيئها المنافقون ، فنهوا عن ذلك بدءاً من رفع الصوت فوق صوت النبى أو الجهر له بالقول .

(٣) « إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ »

هذه الآية بيان وتأكيد لمعنى الآية السابقة ، والجديد هنا هو الربط فى هذه الآية بين غض الصوت فى حضرة الرسول ﷺ وبين تقوى القلوب . لأن غض الصوت ليس مقصوراً لذاته ، ولكن لما يدل عليه من صدق الحب للرسول ، وتمكين الود والإخلاص له حتى ليتحدث إليه المتحدث وكأنه حبيب يسار حبيبه ويناجيه .

ولذا قال أبو بكر رضى الله عنه لما نزلت هذه الآية : والله لا أرفع صوتى إلا كأخى السرار .

٤) « إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ »

نزلت هذه الآية فى قوم من الأعراب من بنى تميم ، قدم وفد منهم على النبى صلى الله عليه وسلم ، فدخلوا المسجد ونادوا النبى صلى الله عليه وسلم من وراء حجراته ، وقالوا : أخرج إلينا فإن مدحنا زين وذمنا شين . وكان صلى الله عليه وسلم نائماً فى وقت القائلة فنزلت هذه الآية .

٥) « وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »

لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحتجب عن الناس إلا فى أوقات جد قليلة يكون فيها مشغولا بمهام نفسه ، ومن ثم يكون إزعاجه فى مثل هذه الحال مما لايرتضيه الأدب المكتمل ، ولا الذوق السليم . ولذا طلب إليهم أى إلى مثلهم أن يؤثروا الانتظار فى مثل هذه الحال .

(٦) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ »

ذكر الواحــدى فى أسباب النزول : أنها نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط حين بعثه النبى ﷺ إلى بنى المصطلق مصدقاً(١) ، وكان بينهم وبينه عداوة فى الجاهلية .

فلما سمع القوم بمقدمه تلقوه تعظيما لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فحدثه الشيطان أن القوم يريدون قتله فخشيهم ورجع من الطريق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

إن بنى المصطلق قد منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلى ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أن يغزوهم .

فلما بلغ القوم رجوع الوليد أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا :

سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ، ونكرمه ، ونؤدى إليه ماقبلنا من حق الله تعالى ، فبدا له فى الرجوع ، فخشينا أن يكون إنما رده من الطريق كتاب جاء منك بغضب غضبته علينا ، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله صلى الله عليه وسلم .

فأنزل الله هذه الآية .

وبعيداً عن خصوصية السبب فالآية عامة فى كل موقف مماثل ، ومن واجب المسلم فى كل حال ألا يصدق كل مايقال إليه حتى يعرضه على موازين الاعتدال والتبصر ليميز الصحيح من الزيف ، ويكشف الحق من الباطل .

وما ذلك إلا لأن سوء الفهم أو سوء التقدير يؤدى فى كثير من الأحوال إلى نقد ومنازعات لم تكن لتحدث إذا أبصر الإنسان وتبصر .

(٩) « وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ »

فى سبب نزولها يروى المعتمر بن سليمان عن أنس بن مالك قال : يانبى الله لو أتيت عبد الله بن أبى ؟ ! فانطلق إليه النبى ﷺ ؛ فركب حماراً أو انطلق المسلمون يمشون وهى أرض سبخة ، فلما أتاه النبى ﷺ قال : إليك عنى ، فوالله لقد آذانى نتن حمارك .

---

(١) جامعا الصدقات المستحقة .

فقال رجل من الأنصار : والله لَحِمَارُ رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك ، فغضب لعبد الله رجل من قومه. وغضب لكل منهما أصحابه . فكان بينهم حرب بالجريد والنعال والأيدى .

فبلغنا أنه أنزل الله فيهم هذه الآية .

وروى عن مجاهد قال : بل نزلت فى الأوس والخزرج . ومثله عن سعيد بن جبير رضى الله عنه قال :
إن الأوس والخزرج كان بينهم على عهد رسول الله ﷺ قتال ، بالسعف والجريد والنعال فنزلت فيهم هذه الآية .
وكثرت الروايات فى أسباب نزولها على نحو لايكاد يتكرر مع غيرها من الآيات مما يؤكد أنها فى عمومها أقرب وأولى من أن ترتبط بسبب خاص .

فالمبادىء التى تتضمنها هى مبادىء أو أسس عامة وسليمة ينبغى تطبيقها فى كل حالة مماثلة ، فإذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين وجب الإصلاح بينهما .

فإذا كانت إحداهما باغية على الأخرى ، ولم تستمع إلى دعوة الصلح والكف عن الباطل وجب قتالها حتى تفىء إلى أمر الله ، وترتد إلى طريق الصواب والحق .

فإذا عادت الطائفة الباغية إلى حكمتها واعتدالها وجب حملهما معاً على الإنصاف، والحسنى ، وإعادة الود بينهما . تمكيناً لأواصر الأخوة التى لا يقبل الإسلام أن يقطعها بين المؤمنين .

(١١) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِن نِسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ ولا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ولا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »

اختلف فى سبب نزول هذه الآية . فقيل : نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس وكان فى أذنيه وقر فإذا سبقوه إلى مجلس النبى ﷺ أوسعوا له إذا أتى حتى يجلس إلى جنبه ليسمع ما يقول النبى .

فأقبل ذات يوم ، وقد فاتته من صلاة الفجر مع النبى ﷺ ركعة ، فلما انصرف النبى ﷺ أخذ أصحابه مجالسهم منه ، فربض كل رجل منهم بمجلسه ، فلا يكاد يوسع أحد لأحد ، حتى ليظل الرجل لا يجد مجلساً فيظل قائماً :

فلما انصرف ثابت من الصلاة جاء يتخطى رقاب الناس يقول :

تفسحوا . تفسحوا . ففسحوا له حتى انتهى إلى النبى ﷺ ، وبينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فقال له : تفسح .

فقال الرجل : قد وجدت مجلساً فاجلس .

فجلس ثابت من خلفه مغضباً ثم قال : من هذا ؟ قالوا : فلان .

فقال ثابت : ابن فلانه ! يعنى أماً له فى الجاهلية يعيره بها ، فخجل الرجل ونكس رأسه حياء فنزلت هذه الآية .

وقد أوردوا لنزولها أسباباً كثيرة ، وكلها تؤكد للمعنى العام الذى وردت فيه الآية وهو تحريم سخرية الإنسان من الإنسان أو حتى من غير الإنسان من مخلوقات الله .

يقول عمرو بن شرحبيل رضى الله عنه ، لو رأيت رجلا يرضع عنزاً فضحكت منه لخشيت أن أصنع مثل الذى صنع .

وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قوله ، إن البلاء موكل بالنطق ، لوسخرت من كلب لخشيت أن أحول كلباً .

وقوله « ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن » : نزلت فى اثنتين من أزواج النبى ﷺ هما عائشة وحفصة سخرتا من أم سلمة ، وذلك أنها ربطت خصريها بسبيبة — وهى ثوب أبيض — وسدلت طرفها خلفها فكانت تجرها .

فقالت عائشة لحفصة رضى الله عنها ، انظرى ! ما تجر خلفها كأنه لسان كلب .

وقيل : إن صفية بنت حيى بن أخطب أتت رسول الله ﷺ فقالت :

يا رسول الله : أن النساء يعيرنى ويقلن :

يا يهودية بنت يهوديين . ! فقال رسول الله ﷺ :

« هلا قلت : إن أبى هارون ، وإن عمى موسى ، وإن زوجى محمد » . فنزلت الآية .

وفى الآية تنبيه عظيم إلى العلة فى تحريم السخرية بالناس والنهى عنها وهى أن عملية السخرية تتم على اعتقاد أن الساخر خير أو أفضل من الذى يسخر منه ، إذا كان الظاهر كذلك . كأن يسخر المبصر من الأعمى ، أو يسخر القوى من الضعيف ، أو يسخر الغنى من الفقير . . إلى آخره .

ولكن الآية نبهت إلى أن الأساس باطل ، وقابل للنقض ، ومن ثم لا يجوز البناء عليه ، فلقد يكون الأعمى الذى يسخر منه المبصرون خيراً منهم إيماناً ، وأعظم يقيناً وأصح بصيرة ، بينما يكونون هم العمى قلوباً ، والمحتاجون فى الحقيقة إلى من يأخذ بأيديهم .

ولقد يكون الفقير الذى يسخر منه الأغنياء ، أعظم منهم عند الله منزلة ، وأغنى عند ربه من صالح الأعمال ، بينما أغنياء الدنيا هم المساكين والفقراء .

ولقد قال رسولنا صلوات الله عليه ، وما أعظم ما قال .

« إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

وما دام مقياس التفضيل وأساسه فى الإسلام هو المخبر لا المظهر ، وهو الجوهر لا الشكل ، فلا ينبغى لأحد أن يسخر من أحد .

« ولا تلمزوا أنفسكم » لا يعب بعضكم بعضاً ، واللمز الإشارة باليد ، أو بالعين ، « ولا تنابزوا بالألقاب » أى لا يلقب بعضكم بعضاً بألقاب تكرهونها .

« بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان » .

بئس ما يفعل المؤمن أن يخرج نفسه بيده من الإيمان إلى الفسق حينما يسخر من غيره ويؤذيه فى نفسه .

يقول الرسول صلوات الله عليه .

« يبصر أحدكم القذاة فى عين أخيه ، ويدع الجذع فى عينه » وقال أبو بكر بن عبد الله المزنى :

« إذا أردت أن ترى العيوب جمة ، فتأمل عياباً ، فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب » .

وما أسعد الإنسان إذا شغلته عيوبه عن عيوب الناس .

(١٢) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ »

نقل القرطبى عن الثعلبى أن النبى ﷺ كان إذا سافر ضم الرجل المحتاج إلى الرجلين الموسرين فيخدمهما .

فضم سلمان إلى رجلين ، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام ، ولم يهيء لهما شيئاً ، فجاءا فلم يجدا طعاماً وإداماً ، فقالا له : اذهب إلى أسامة بن زيد فقل له :

إن كان عندك فضل من طعام فليعطك ، وكان أسامة خازن النبى ﷺ . فذهب إليه فقال أسامة : ما عندى شىء ، فرجع فأخبرهما فقالا : قد كان عنده ولكنه بخل .

ثم بعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهما شيئاً فقالا :

لو بعثنا سلمان إلى بئر سميحة لغار ماؤها .

ثم انطلقا يتجسسان على أسامة ، هل عنده شىء ؟ ! فرآهما النبى صلى الله عليه وسلم فقال مالى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما ؟

فقالا : يانبى الله والله ما أكلنا فى يومنا هذا لحماً ولا غيره فقال الرسول : « ولكنكما ظلتما تأكلان لحم سلمان

وأسامة » فنزلت : «ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم » والظن المنهى عنه ، هو الاتهام بغير دليل ، وهو الذى ورد فيه حديث أبى هريرة أن الرسول ﷺ قال :

« إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ، ولا تجسسوا ، ولا تناجشوا ، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً » .

« ولا تجسسوا » أن لا يتتبع بعضكم عورات بعض ، وفى حديث أبى برزة الأسلمى أن رسول الله ﷺ قال :

« يا معشر المسلمين من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته » .

« ولا يغتب بعضكم بعضاً » :

والغيبة — كما قال الرسول ﷺ — فى حديث أبى هريرة ، هى ذكرك أخاك بما يكره .

قيل يا رسول الله : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال :

«إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ؟ وإن لم يكن فقد بهته » .

وقد صور القرآن مغتاب الناس بآكل لحم أخيه ، وهو ميت ، فجمع فيه ثلاث سوءات : سوأة أكل لحم الإنسان ، والثانية أن يكون هذا الإنسان هو أخوك ، والثالثة أن تأكل لحمه ، وهو ميت . فما أبشعه وما أفظعه .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل » ؟

« قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم » .

وعنه ﷺ أنه قال :

« من أكل برجل مسلم أكلة ، فإن الله يطعمه مثلهـا من جهنم ؛ ومن كسى ثوباً برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله من جهنم ؛ ومن أقام برجل مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة » .

(١٣) « يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »

فى هذه الآية شعار المساواة الأعظم بين الإنسان والإنسان جاء به الإسلام فرفع عن الناس ما كانوا يضعون فوقهم من تقاليد جامدة وظالمة تفرق هذا من ذلك لأنه غنى وهو فقير ، وتحول بين هذا وهذا ، لأن أحدهما أسود والثانى أبيض ، ثم تزيد الفرقة بين الناس لأن هذا حسيب نسيب وهذا من أوساط الناس .

منطق جاهلى بغيض جاء الإسلام فوضعه عن الإنسان ، وصعد العبد الأسود بلال بن أبى رباح رضوان الله عليه على ظهر الكعبة يؤذن بالصلاة يوم فتح مكة ، فقال عتاب بن أسيد ، الحمد لله الذى قبض أبى حتى لا يرى هذا اليوم .

وقال الحارث بن هشام : ما وجد محمد غير هذا العبد الأسود مؤذناً . وكلهم يستكبر أن يظفر العبد الأسود بمثل هذه المكانة فى دولة عزيزة أيامها مقدمة .

ولكن الإسلام كان من غاياته أن يرد إلى الإنسان اعتباره ، وأن يجعل أساس التفاضل والتمايز التقوى وصالح العمل ، ولقد أكد هذا المعنى فقال الرسول :

« إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا أنسابكم ، ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم ، فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه ، وإنما أنتم بنو آدم ، وأحبكم إليه أتقاكم » .

وعنه صلوات الله عليه أنه قال : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة إنى جعلت نسباً ، وجعلتم نسباً ، فجعلت أكرمكم أتقاكم ، وأبيتم إلا أن تقولوا فلان ... بن فلان » .

« وأنا اليوم أرفع نسبى ، وأضع نسبكم ؟ أين المتقون ؟ أين المتقون ؟ » .

وعنه صلوات الله عليه أنه قال : « إن الله تبارك وتعالى جاء بالإسلام فرفع به الخسيسة ، وأتم به الناقصة ، وأذهب به اللوم فلا لوم على مسلم ، إنما اللوم لوم الجاهلية » .

(١٤) « قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ. وإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

ذكر الواحدى فى أسباب النزول أن هذه الآية نزلت فى أعراب من بنى أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فى سنة مجدبة ، وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين فى السر ، وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات ، وأغلوا أسعارها وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

أتيناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فأعطنا من الصدقة ، وجعلوا يمنون عليه فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية

وذكر القرطبى عن ابن عباس أنها نزلت فى أعراب أرادوا أن يتسموا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا ، فأعلم الله أن لهم أسماء الأعراب لا أسماء المهاجرين .

ومهما يكن السبب فالآية حاسمة فى التفريق بين المؤمن وبين المسلم ، بين من أشرب قلبه حب الله ورسوله والإيمان بدينه وبين من أسلم أو على الأصح استسلم خوفاً من القوة ، أو طمعاً فى عرض الدنيا . فهؤلاء كالمنافقين يعلم الله حالهم ويجزيهم عليه .

والفرصة أمامهم قائمة ، وباب التوبة وتصحيح العوج مفتوح لمن يلج ، والله عليم بالمؤمن والمنافق غفور رحيم بمن تاب وأناب .

(١٥) « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ »

(١٦) « قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »

ولقد ناسب المقام أن تجسم الفرق كذلك بين المؤمن وغيره ، وأن تحدد سمة المؤمن بما لا يمكن أن يشركه فيه غيره . فكانت هاتان الآيتان :

الأولى : تحدد خصائص المؤمنين بما يناسب موقف ضدهم من أهل النفاق .

فالمؤمن هنا : من آمن ، ولم يرتب أو يشك ، ثم ارتقى به إخلاصه الإيمان إلى درجة المجاهدة بالنفس والمال ، أعنى إلى درجة التضحية فى أعلى قممها ، حتى ينتفى بهذا أنه آمن خوفاً من شىء لأن من لم يخفه الموت لا يمكن أن يخيفه شىء بعد .

ولأن من هان عليه ماله فى سبيل الله ، لا يمكن الشك فى أنه دخل الإسلام لأجل المال .

ومن اجتمعت فيهم الصفتان ، فأولئك هم المؤمنون حقاً ، وأولئك هم الصادقون .

(١٧) « يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »

خيل إلى أولئكم النفر من الأعراب أنهم متفضلون على الرسول وعلى الإسلام بالدخول فيه ، فأمر الرسول بأن يرفض منهم هذا المنطق ، لأن الإسلام هو المنة العظمى لمن يظفره الله بها ويعينه عليها .

ولذا قال سبحانه : « بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » .

وفى ختام السورة أكد سبحانه أنه يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ومن ثم فهو سبحانه أعلم بأحوال خلقه ، وأدرى بكل ما فى نفوسهم ، وأنه فوق هذا بصير بما يعملون .

تفسير سورة ق

(٢) « بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ »
(٣) « أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ »

يقسم الله سبحانه فى صدر هذه السورة بالقرآن أن ما يعد به الخلق من البعث بعد الموت لحق لا ريب فيه ، وأنه سبحانه يعلم كل ما تنقص الأرض من أطرافهم بعد أن يموتوا ، وهو قادر على جمعه وتكوينه وإعادة خلقه من جديد .

ولما كان الكافرين قد أنكروا البعث وعجبوا من أن يأتيهم منذر به ، استوجب المقام التأكيد بالقسم ، واستوجب كذلك تأكيد للقدرة على تنفيذ البعث الذى لا يؤمنون به ، بل يستكبرون عنه .

(٦) « أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ »
(٧) « وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ »

فى هاتين الآيتين وما بعدها حتى ختام الآية الحادية عشرة يوجه القرآن النظر إلى ضرورة التدبر فيما خلق الله فى هذا الكون من السماء التى بناها الله ورفعها بلا عمد ، وزينها بالنجوم والكواكب ، وأحكم بناءها لا ترى فيها فروجاً ولا ثغرات ، والأرض التى بسطها وألقى فيها الرواسى وأنزل عليها الماء من السماء فأنبت فيها ما به صلاح الإنسان .

ومناسبة الحديث عن آثار قدرته سبحانه هنا هو البيان الشافى لمن عجبوا من إمكان بعث الإنسان بعد ما يصير تراباً ، وإظهار أن من خلق هذه الكون العظيم الهائل ، لايعجزه أن يعيد هذا الإنسان الضعيف الخلق إلى الحياة من جديد بعد أن يميته ويقبره ، وهذا ما قررته الآية فى قوله سبحانه « كذلك الخروج » أى هكذا يكون البعث .

(١٥) « أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ »

ولذا كانت هذه الآية ملخصاً لتأكيد ما سبق تقريره إذ من خلق ابتداء ، لا تعجزه الإعادة .

(١٦) « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ »
(١٧) « إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ »

(١٨) « مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »

(١٩) « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ »

فيا سبق وجه القرآن النظر إلى ما فى الملكوت من أسرار وعجائب .

أعنى وجه نظر الإنسان إلى تأمل ما حوله من مخلوقات ، وهنا يوجه القرآن النظر إلى ما فى النفس .

أعنى أن ينظر الإنسان إلى نفسه هو ، كيف أبدع الرحمن خلقه ، وأحاط علماً بكل ما يعتمل فى وجدانه من وساوس ، ووكل به ملكين قعيدين له عن يمينه وشماله يتلقيان عنه كل ما يلفظ به من قول ، أو ما يأتيه من عمل حتى خطرات نفسه ، وهواجس فكره يدونانها ويكتبانها ويرفعان أمرها إلى رب الكون كله فيقضى فيها بأمره .

فإذا بلغ الإنسان غايته التى قدرت له فى الدنيا أتته سكرة ، ليكشف الغطاء عن بصره فيرى ما لا يرى ، ويدرك ما لم يكن يدركه ، وعندئذ يشعر بالضياع ، ويستشعر الندم والألم حين يرى حقاً ما كان يمارى فى أمره فى الدنيا ، فيقضى الله فى أمره بما يرى .

إن من استطاع الإحاطة بالإنسان منذ بداية خلقه إلى نهاية عمره ، ألا يقدر على بعثه وإعادة خلقه ، بلى قادر .

(٢٠) « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ »

فى هذه الآيات من هنا حتى ختام الآية التاسعة والعشرين يلخص القرآن قصة القيامة عند النفخ فى الصور حتى انتهاء الحساب وانصراف الناس إلى ما قدر لهم من الجنة أو النار .

فبعد النفخ فى الصور تمضى كل نفس إلى لقاء ربها ، عليها شهيد ومن خلفها سائق ، يذكران الإنسان بما كان عليه من غفلة ، وبم أضاع فى دنياه .

حتى إذا قام بين يدى ربه ليحاسب عرض الملك الموكل به سجل أعماله فينظر فيه الرب سبحانه فيحكم على الكافر بأن يلقى فى جهنم .

فما يكاد الكافر يحس شواظ النار حتى يهرع إلى قومه يبحث بينهم عن الذين أغووه فيقول : ياربِ هذا قرينى هذا أضلنى خلصه عنى ، فيتبرأ كل قرين من قرينه ، فلا يقبل الله منهما ، ويقضى فى الجميع بقوله :

« ما يبدل القول لدىّ وما أنا بظلام للعبيد » .

(٣٠) « يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ »

روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال « ما فى النار بيت ولا سلسلة ، ولا مقمع ولا تابوت إلا وعليه اسم

صاحبه ، فكل واحد من الخزنة ينتظر صاحبه الذى قد عرف اسمه وصفته ، فإذا استوفى كل واحد منهم ما أمر به ، وما ينتظره ولم يبق منهم أحداً قال الخزنة : حسبنا حسبنا أى اكتفينا اكتفينا ، وحينئذ تنزوى جهنم على من فيها ، وتنطبق ، إذ لم يبق أحد ينتظر » .

وبينما يكون هذا حال أهل النار ، تقرب الجنة لأهلها ويقال لهم : ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود « لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد » .

(٣٧) « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ »

إن فيما قصه القرآن وما صوره من أحوال الدنيا ، ومن أمور الآخرة لذكرى لمن كانت الذكرى تنفعه، ففتح قلبه ليعيها ، وأرهف سمعه ليسمع فيطيع .

(٤١) « وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ »

(٤٢) « يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ »

«يوم ينادى المنادى» ، هو يوم ينفخ فى الصور، وهو يوم الخروج، وهو استماع الصيحة بالحق وهو يوم تشقق الأرض عن الخلق سراعاً ، وهو يوم النشور ، وهو اليوم الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

فالخير كل الخير لمن آمن به ، وعمل له .

تفسير سورة الذاريات

(١) « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً »

(٥) « إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ »

أقسم سبحانه بالرياح الذاريات ، وبالسحب الحاملات وقراً ، وبالسفن الجاريات فى يسر ، وبالملائكة المقسمات أمراً ، على أن ما يوعده خلق الله ، من البعث والنشور حق ووعد صادق .

وروى أن ابن الكوار سأل علياً رضى الله عنها فقال :

يا أمير المؤمنين : « ما الذاريات ذرواً » ؟

فقال على رضى الله عنه : « ويلك سل تفقهاً ، ولا تسأل تعنتاً « الذاريات » : الرياح ، « الحاملات وقراً » : السحاب ، « والجاريات يسراً » : السفن ، « والمقسمات أمراً » : الملائكة .

(١٠) « قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ »

هذا دعاء من الله عليهم ، والخراصون هم الذين حددتهم الآيتان التاليتان بأن الذين كانوا فى دنياهم يعيشون فى غمرة لا يدرون من الحقيقة شيئاً ، والذين كانوا من الآخرة ومن يوم القيامة فى شك وتحير ، وهو ما عبرت عنه الآية : « يسألون أيان يوم الدين » .

وقد وصفت الآيات لتحدد صفاتهم .

(١٥) « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ »

إذا كان حال المجرمين من الكفار قد اتضح فيا سبق من الآيات ، فإن حال أهل الجنة هو الجنات والعيون ، ينعمون بها آخذين ما آتاهم ربهم لأنهم أخلصوا العبادة لله ، وكانوا فى دنياهم محسنين ، يقومون الليل ، ويستغفرون بالأسحار ، ويؤدون حق الله للسائل والمحروم .

(٢٤) « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ »

تبدأ هذه الآية ذكر ضيف إبراهيم من الملائكة الذين دخلوا عليه فخاف منهم ، ثم قام فحاول أن يطعمهم ، ويفى لهم بواجب الضيافة فلم يطعموا من طعامه فازداد فزعه حيث لم يأكلوا ، فلما رأت الملائكة حاله ، طمأنته وأزالت مخاوفه ، وبشرته بأن سيكون له غلام ، وما تبع ذلك من أمور حتى أتخذوا مهمتهم فى أخذ قوم لوط .

(٣٨) « وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ »

كما لخصت الآيات من قبل حديث إبراهيم عليه السلام تلخص هنا ذكر موسى عليه السلام وما كان من أمره وأمر فرعون حتى انتهى بأخذ الله له وجنوده ونبذهم فى اليم ، ونجاة موسى وقومه .

(٤١) « وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ »

وهـذا حديث قوم عاد الذين أرسل الله عليهم الريح العقيم التى لا خير فيها ولا بركة والتى لا تلقح شجراً ، ولا تسوق سحاباً ، وإنما تأتى بالموت إلى كل شىء مرت عليه .

(٤٣) « وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ »

وهذا حديث ثمود : قوم صالح عليه السلام ، وقد أمهلهم الله يتمتعون حتى يأتى أجلهم، فإذا جاء الأجل وحل بهم عذاب الله الذى ينتظرونه .

(٤٧) « وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ »

وهذا حديث قوم نوح عليه السلام ملخص العرض فى إيجاز شديد قصـــة نبى الله نوح عليه السلام ، وندع التفاصيل لما سيأتى ، ولـكنها تعطى اللمسة الدالة على ما ينتظر هؤلاء القوم من سوء المنقلب بدليل وصفهم عنه سبحانه وإنهم كانوا قوماً فاسقين .

(٥٦) « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »
(٥٧) « مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ »
(٥٨) « إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ »

هذه رسالة النبوة أوهى رسالة الأحياء عامة ، وهى بأن يعبدوا الله ، لا يشركون به شيئاً ، وهو سبحانه لا يريد منهم رزقاً ، ولا يريد أن يطعموه ، لأنه سبحانه الرزاق ، ذو القوة المتين .

(٥٩) « فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ »
(٦٠) « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ »

إن للـكافرين من العذاب مثل ما يعذب أصحابه ، لا يغنى أحد عن أحـد ، وسيأخذون نصيبهم منه كاملا غير منقوص .

والويل كله لمن ظلم نفسه فلم يؤمن ، ولم يعمل ، الويل للظالمين جميعاً من يومهم الذى كانوا يوعدون .

تفسير سورة الطور

(١) « وَالطُّورِ »

أقسم سبحانه هنا بجبل الطور الذى كلم عليه موسى عليه السلام ، تشريفاً له وتكريماً ، وتذكيراً بما كان قد جرى فوقه من آثار رحمة الله بعباده .

ثم أقسم بالكتاب : أى القرآن ، أو بكل كتاب يقرأ مما أنزل الله على أنبيائه ورسله ، وأقسم سبحانه كذلك بالبيت المعمور ، وبالسقف المرفوع ، والبحر المسجور المتقد يوم القيامة .

(٧) « إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ »

أقسم سبحانه بكل هذا على أن ما وعدناه ونوعده صادق وحق وآت لا ريب فيه ، وأن العذاب الذى أنذر به المكذبون واقع ، وما له من دافع .

(٩) « يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً »

(١٠) « وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً »

وسيتحقق منه المكذبون يوم يرون السماء تضطرب وتمور وتدور ، يتكفأ بعضها على بعض ، ويختل أمر أفلاكها وكواكبها ونجومها .

(١٣) « يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا »

وسيتحقق منه المكذبون يوم يرون الجبال تسير سيراً ، وتكون كالعهن المنفوش ، ويومها تسود وجوه المكذبين الكافرين الذين كانوا غافلين عن هذا اليوم فلم يعملوا له ، ولم يحسنوا الإعداد له ، فتأخذهم زبانية النار فيسافون إليها يضربون فى وجوههم وأقفائهم ويقال ذوقوا عذاب الحريق ، ذوقوا وخبرونا ، أسحر هذا كما كنتم تقولون : أم هى النار تشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا !!

(١٧) « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ »

كما صور سبحانه حال المكذبين ، وما يلاقونه من الويل والثبور والعذاب المقيم ، صور كذلك حال المتقين

لكي تتضح للسامعين الفوارق فيعلم المكذب حاله ، ويعلم المتقي حاله ، ولقد يدعوه هذا إلى إيقاظ فكره ، وتحريك عقله ، وإحسان الإختيار وإيثاره سبيل الجنة على طريق النار .

ولقد صور حال أهل الجنة بأنهم فكهون سعداء بما آتاهم ربهم من رزق وفضل ثم بما رفع عنهم من عذاب الجحيم ووقاهم إياه ، فهي سعادة ونعمة مضاعفة يشكرون الله عليها ويزدادون له خضوعاً ، وعبادة .

(٢١) « الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِنْ عَمَلِهِم مِن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ »

عن سعيد بن جبير عن طه بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في الجنـــة ، وإن كان لم يبلغها بعمله لتقر بهم عينه » ثم قرأ : « والذين اتبعتهم ذريتهم بإيمان ... الآية » .

وعن ابن عباس رضي الله عنه يرفعه كذلك إلى رسول الله ﷺ قال :

« إذا دخل أهل الجنة الجنة سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده فيقال لهم إنهم لم يدركوا ما أدركت ، فيقول يارب إني عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به » .

ولعل هذا من قبيل تكريمه الله لعباده المؤمنين ، إذ يسبغ عليهم من فضله ما لا ينقص من ثوابهم شيئا ، والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

(٣٠) « أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ »

(٣٣) « أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَا يُؤْمِنُونَ »

في هذه الآيات وما بعدها عرض لمقالات الكفار والمشركين في الرسول ﷺ وفي القرآن الكريم ، ولقد قالوا عن الرسول ﷺ إنه شاعر ، فرد القرآن في غير هذا الموضع وقال : « وما علمنا الشعر وما ينبغي له » .

ولقد توعد المشركين الذين يتربصون هنا بالرسول ، ودمغهم بالباطل والطغيان والافتراء ، وتحداهم — فيما زعموه من أن القرآن من عمل الرسول — أن يأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين .

ومن قبل تحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله ، ثم تدرج متنازلا ، فتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة ، ويتحداهم هنا أن يأتوا بحديث مثله . ولقد عجزوا وعجزوا ، وأنى لهم أن يطاولوا فيطولوا .

(٣٥) « أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ »

(٣٦) « أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ »

(٣٩) « أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ »

(٤٣) « أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ »

فى هذه الآيات يطرح القرآن الكريم على المكذبين والكفار تسعة أسئلة كل سؤال منها يفتح فى العقل باباً من النور ، ويهديه إلى جانب من الخير إذا شاء أن يهتدى . فقد سألهم عن أنفسهم أخلقوا من غير شىء ؟ أم هم الخالقون لها ؟ وسألهم عن السموات والأرض أشاركوا فى خلقها أم يعلمون أحداً غير الله هو الذى تولى خلقها ؟ وسألهم عن الرزق الذى يؤتونه ، وتؤتاه كل الأكباد الحية فى هذا الوجود من أين ؟ وهل هم أصحاب خزائنه ؟ وتتابعت الأسئلة حتى انتهت إلى الجواب الذى لا يصح أن يكون غيره ، وهو أن رب هذا كله ، وصاحب هذا كله ، وخالقه ومالكه هو الله سبحانه وتعالى عما يشركون .

(٤٥) « فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ »

وإذا كان العقل يؤكد وجود الله ، والمنطق يؤكد وجود الله ، وإذا كان الكفار قد عجزوا تماماً عن تحدى القرآن والاتيان بما يشبهه ، ولو كان آية أو جزءاً من آية .

إذا كان هذا كله يؤكد وجود الخالق ويدفع العاقل دفعاً إلى الإيمان به والانقياد له والطاعة لانبيائه ورسله .

فكيف بهؤلاء المشركين ، تعمى عن رؤية الحق أعينهم ، ويبطرهم العناد أن يستجيبوا لربهم ولما يدعوهم رسوله إليه ؟

فيقول المولى سبحانه للرسول ذرهم وكفرهم وعنادهم ، واتركهم حتى يلاقوا اليوم الذى يوعدونه ، والذى تصعقهم فيه الصواعق ـ وينزل بهم فيه عذاب الله ، فمثل هؤلاء لاتصلحهم الحجة ، ولا يهتدون بالمنطق ، ولاتقودهم عقولهم ، وإنما هم أصحاب أهواء ونزعات وأهل تقليد لما كان عليه آباؤهم ، فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون .

(٤٨) « وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ »

لا تجزع يامحمد مما لقيت وتلقى من أذى المشركين ، ولا تحزن عليهم ، ولا تك فى ضيق مما يمكرون ، واصبر فإن الله معك ، اصبر لحكم ربك وحكمته إذ يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا

ترعاك ، وتسدد خطاك ، وتكفيك من لا تطيقه ، وتسير بك إلى ما شاء الله لك ، على نحو ما قال سبحانه لموسى : « ولتصنع على عينى » أى فى حفظى ورعايتى وصونى .

وفى قوله : « وسبح بحمد ربك » .

ما أحسن الختام من الله للرسول ، وما أحب الطلب إلى من طلب منه ، لقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالتسبيح فى كل حين فى النهار وفى الليل ، وعند الصلاة ، وفى غير الصلاة ، أمره الله أن يسبح ربه وينزهه عما يخوضون فيه ، ولذكر الله أكبر .

تفسير سورة النجم

(١) « والنَّجْمِ إِذَا هَوَى »

أقسم سبحانه بالنجم : أى بالثريا عند سقوطها ، أو بالقرآن ! إذ كان ينزل منجماً أو بالنجوم إذا هوت يوم القيامة .

وقيل المراد النجوم التى ترجم بها الشياطين ، وسببه كما ذكره « القرطبى » أن الله تعالى لما أراد بعث محمد ﷺ رسولا كثر انقضاض الكواكب قبل مولده ، فذعر أكثر العرب وفزعوا إلى كاهن ضرير كان يخبرهم بالحوادث فسألوه عنها فقال :

انظروا البروج الإثنى عشر ، فإن انقض منها شىء فهو ذهاب الدنيا ، وإن لم ينقض منها شىء فسيحدث فى الدنيا أمر عظيم ، فاستشعروا ذلك :

فلما بعث رسول الله ﷺ كان هو الأمر العظيم الذى استشعروه ، فأنزل الله تعالى « والنجم إذا هوى » .

(٥) « عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى »

أقسم سبحانه بالنجم على أن محمداً رسول ، ما ضل ، وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، وأقسم بالنجم على أن القرآن وحى يوحى من الله إلى الرسول ، وليس من عمله ، ولا من افترائه ولاهو سحر ساحر ، ولا شعر شاعر ، ولا هو من أساطير الأولين .

علمه إياه « شديد القوى » أى جبريل عليه السلام بأمر ربه سبحانه ، وكان يتدلى فينزل إليه ليبلغه ما أمره المولى سبحانه بتبليغه .

(١٢) « أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى »

(١٣) « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى »

أتجادلون محمداً ﷺ وتشكون فى أنه رأى ربه ؟ ومن قبل قال سبحانه: « ما كذب الفؤاد ما رأى »، ويقول هنا بعد « ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى » .

وفى صحيح مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه قال :

سألت رسول ﷺ هل رأيت ربك ؟ قال : « نورانيٌّ أراه » .

وروى أبو العالية قال :

سئل رسول ﷺ : هل رأيت ربك ؟ قال :

« رأيت نهراً ، ورأيت وراء النهر حجاباً ، ورأيت وراء الحجاب نوراً لم أر غير ذلك » .

(١٨) « لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى »

كثر اختلاف المفسرين حول معناها : وأقرب ما يطمأن إليه هو أن المراد ما رآه ﷺ في مسراه ، في صعوده وهبوطه ، والله وحده الأعلم.

(١٩) « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى »

بعد هذا الحديث عن الوحي ونزول جبريل عليه السلام به إلى رسول الله ﷺ عرض القرآن الكريم لذكر آلهتهم التي كانوا بها في ضلال » .

ولقد عددها القرآن منها في هذه الآية : « اللات والعزى ، ومناة » وهي أصنام كانت العرب تقدسها وتعتز بالانتماء إليها والولاء لها .

والاستفهام عن هذه الأصنام لإنكار أن تكون هذه آلهة تعبد ، ولإنكار أن يتدنى العرب بفكرهم إلى هذه الصورة المهينة لعقل الإنسان .

وإذا كان ثمة منطق يرضيه الإنسان حين يفضلا شيئاً ، أو يعتز به ، أو يقدسه فأي منطق وراء عبادة هذه الأحجار الصماء ، وهي لا تنفع ولا تضر ، ولا تميت ولا تحيي ، ولا تسمع ولا تبصر ، وحتى لا تنفي عن نفسها شيئاً ؟ ! !

(٢٣) « إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى »

هذه الأصنام التي صنعتموها بأيديكم ثم عبدتموها ، وما هي إلا أسماء أطلقتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » فكيف تعبدونها ؟ إن عبادتكم إياها دليل على أنكم لم تعملوا عقولكم في التفكير فيها ، وإنما اتبعتم الأوهام ، واتبعتم أهواء نفوسكم التي ألفت ما كان الآباء عليه .

لقد كان يعتذر لكم وعنكم إذا لم تأتكم رسل الله تبين لكم الغيَّ من الرشد والضلال من الهدى ، أما وقد

جاءتكم الرسل وجاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير .

(٢٧) « إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى »

هذا مثال من أمثلة انحراف فكر الإنسان ، وتخبطه حين يقول بغير علم ، فهؤلاء المشركون قالوا إن الملائكة بنات الله ، فمن أين لهم هذا الذى قالوه ؟ وكيف عرفوا إن كن بنات أم رجالا ؟ ثم كيف يبنون أحكامهم على غير دليل ؟ وكيف يجعلون لله ما يكرهون ؟

ذلك مبلغهم من العلم ، ولا يجدون غيره ، فاعرض عنهم وتوكل على الله ..

(٣١) « وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى »

أعرض عنهم يا محمد ، ودعهم لخالق السموات والأرض يجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

(٣٢) « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى »

فى هذه بعض صفة « المحسنين » أو « الذين أحسنوا » كما وردت اللفظة فى الآية السابقة فهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم » .

وحسب المؤمن أن يكون لديه هذا الأساس العريض من مظاهر الإيمان ، وهو امتناعه عن الكبائر ، من الشرك بالله ، والزنى ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وافتراء البهتان على الأبرياء ..

أقول : حسب المؤمن ألا يجرؤ على ارتكاب الكبيرة ليدل بذلك على أن خوف المولى ساكن فى فؤاده ، وأنه لا يقوى على مواجهته بهذه الكبائر ، وليكون بهذا أهلا لمثوبة ربه ، ورعايته ورضوانه .

وقوله « إلا اللمم » مراد به الصغائر التى قد لا يسلم من التورط فيها بشر إلا من عصمه الله وحفظه ، وقد اختلف المفسرون فى تحديد القدر الذى يعتبر من اللمم .

فقيل : هو ما دون الزنى ، وقيل : هو ما دون الوطء من القبلة ، والنظرة والمناجمة .

وقال ابن عباس رضى الله عنه : اللمم هو : الرجل يلم بذنب ثم يتوب ، وابن عباس يأخذه من قوله تعالى :

« والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا ، وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين »

(٣٣) « أَفَرَأَيْتَ الَّذِى تَوَلَّى »

نزلت هذه الآية فى عثمان بن عفان رضى الله عنه، كان يتصدق وينفق فى الخير : فقال له أخوه من الرضاعة : عبد الله بن أبى سرح : ما هذا الذى تصنع ؟ يوشك أن لا يبقى لك شىء ؟

فقال عثمان : إن لى ذنوباً وخطايا ، وإنى أطلب بما أصنع رضى الله سبحانه وتعالى فأرجو عفوه .

فقال عبد الله : أعطنى ناقتك برحلها ، وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها ، فأعطاه عثمان وأشهد عليه ، وأمسك عن بعض ما كان يصنع من الصدقة فأنزل الله هذه الآية فعاد رضى الله عنه إلى أحسن ذلك وأجمله .

وقيل : بل نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتبع رسول الله ﷺ على الإسلام فعيره بعض المشركين وقال :

لم تركت دين الأشياخ ، وضللتهم ، وزعمت أنهم فى النار ؟

قال : إنى خشيت عذاب الله .

قال له معاتبه : إنى أضمن لك إذا أعطيتنى شيئاً من مالك ثم عدت إلى شركك وتركت الإسلام أن أحمل عنك كل ذنوبك ، وأن أتحمل عنك عذاب الله تعالى .

فأعطى الوليد لهذا الذى عاتبه بعض ما كان ضمن له ، ثم بخل ومنعه فأنزل الله هذه الآية .

ولقد رد القرآن الكريم وفى هذه السورة نفسها على ذلك الوهم الذى ابتدعوه وظنوا أن من الممكن أن يحمل أحد عن أحد خطيئته وأوزاره فقال : « ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرى ، ثم يُجزاه الجزاء الأوفى » .

(٤٢) « وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى »

إليه المرجع والمصير ، وقيل عنده ينبغى أن ينتهى الفكر ، فلا يسأل ، وفى معناه .

وروى أن رسول الله ﷺ قال :

« يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا وكذا حتى يقول : من خلق ربك ، فإذا بلغ ذلك ، فليستعذ بالله ولينته » .

(٤٨) « وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى »

(٤٩) « وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى »

من الآية السابقة فى قوله سبحانه وإن إلى ربك المنتهى إلى آخر قوله « وأنه أهلك عاداً الأولى تتتابع الآيات الكريمة فى الحديث المتصل عن بعض صفات أفعال المولى سبحانه فهو الذى أضحك وأبكى ، والذى أمات وأحيا ، والذى خلق الذكر والأنثى ، ومن عليه النشأة الأخرى ، وأنه هو أغنى وأقنى ، وأنه هو ربُّ الشعرى ، وأنه أهلك عاداً الأولى ...

وتعداد هذه الصفات كلها إنما هو تقديم لنتيجة طبيعية واحدة وهى وجوب عبادته والانقياد له سبحانه ، وقد اختص الشعرى بالذكر لأن العرب كانت تعبده .

(٥٧) « أَزِفَتِ الْآزِفَةُ »

اقترب موعدها ، والآزفة هى القيامة وإذا دنت فليس غير الله سبحانه من يقدم موعدها أو يؤخره .

وفى معناه قال سبحانه « اقتربت الساعة وانشق القمر » .

وإذا كنا على أهبة رحيل ، فهلا بكينا إذ سمعنا من هذا القرآن ما نسمع حتى نصفى بعض ما فى النفوس ، ونخفف بعض ما نحمل من أوزار ..

« أفمن هذا الحديث تعجبون * وتضحكون ولا تبكون * وأنتم سامدون * فاسجدوا لله واعبدوا »

تفسير سورة القمر

(١) « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ »

هو كما سبق القول فى « أزفت الآزفة » .

« وانشق القمر » قيل إنه لم يقع ، وأنه منتظر مما ينتظر يوم القيامة ، وأنه حين تقوم الساعة ستنشق السماء بما فيها من القمر وغير القمر .

وقيل : بل إن انشقاق القمر مما حدث فعلا معجزة للرسول ، ورآه الناس ، وذلك أخذاً مما روى البخارى وغيره من أهل مكة سألوا الرسول ﷺ معجزة فانشق القمر بمكة مرتين فنزلت الآية .

(٦) « فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ »
(٧) « خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ »
(٨) « مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ »

هؤلاء المشركون تأتيهم الآيات فيعرضون عنها ويكذبون بها ، ولذا أمره الله سبحانه أن يتولى عنهم ، أى يعرض عنهم ويدعهم وشأنهم ليواجهوا ما أوعدوا به يوم يدع الداع إلى شىء تنكره وهو العذاب الشديد يوم القيامة ، إذ تراهم منكسة رءوسهم ذليلة نفوسهم خاشعة أبصارهم يخرجون من القبور فزعين مضطربين على غير نظام أو هدى كأنهم جراد منتشر . فنى هذا اليوم يجزون الجزاء الأوفى ، ويحصدون ما زرعوا ، ويقولون هذا يوم عسر .

وقيل : إن هذه الآية منسوخة بآية السيف وآيات الجهاد والحرب .

(٩) « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ »
(١٧) « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ »

تلخص هذه الآيات من التاسعة إلى السابعة عشرة قصة نوح عليه السلام وما جرى بينه وبين قومه . يسوقها المولى سبحانه فى معرض المواساة لنبيه ﷺ وضرب المثل له .

فليس كفار قريش أو أهل مكة أوغيرهم من أهل الكتاب، أول من عادوا نبيهم وأخرجوه، وكذبوه، وآذوه .

فهؤلاء قوم نوح عليه السلام قد كذبوه وسبوه ، وسفهوا عقله ، وسخروا منه ، وعلى طول ما عمر نوح عليه السلام فما آمن له من قومه إلا الأقلون ، فدعا ربه : « قال رب إنى دعوت قومي ليلا ونهاراً * فلم يزدهم دعائى إلا فراراً * وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً » .

ولما يئس نوح من دعوتهم دعا عليهم فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » .

ولقد استجاب الله دعاء نوح عليه السلام ، وأوحى إليه أن يصنع الفلك ، وأقام يصنعها وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه .

وما أن أتم صنعها حتى دعا إليها من آمن به من أهله وقومه فركبوا فى السفينة إلا ابنه « قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم » .

ثم أمر الله السماء فانفتحت أبوابها بماء منهمر ، وأمر الله الأرض فتفجرت عيوناً « فالتقى الماء على أمر قد قــدر » .

وأغرق المكذبون بالطوفان ونجى الله نوحاً والذين آمنوا معه ، وبقيت قصته آية وعبرة وعظة لكل معتبر فهل يتذكر كفار قريش وأهل مكة وكل المعاندين للرسول ما حل بأمثالهم وما يمكن أن يتعرضوا له مثلهم ؟

(١٨) « كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ »

(٢١) « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ »

بين هاتين الآيتين يلخص القرآن فى هــذه السورة حديث قوم عاد : « إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون » .

« قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين * إن هذا إلا خلق الأولين * وما نحن بمعذبين * فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين » .

لما كذب قوم عاد نبيهم أرسل الله عليهم ريحاً شديدة البرد فى يوم كان أشأم أيامهم عليهم ، وكانت الريح تنزع الناس من أماكنهم كما تنزع النخل من جذورها ، لقاء ما كذبوا وجزاء ما كفروا : « فكيف كان عذابى ونذر !! » .

(٢٣) « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ »

(٣٢) « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ »

بين هاتين الآيتين كما مر فى قصة نوح عليه السلام يلخص القرآن قصة ثمود « إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * .

فلما دعاهم عليه السلام بدعوته تلك كذبوه ، وأنكروا أمره ، وعجبوا أن يكون الرسول واحد منهم : « فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفى ضلال وسعر * أألقى عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر » .

ثم سألوا صالحاً عليه السلام أن يأتيهم بآية فاستجاب الله له وقال : « إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر » .

وأرسل الله الناقة إليهم وأعلمهم نبيهم أن الماء مقسوم بينها وبينكم ، لها يوم تشرب فيه ، ولكم يوم تشربون فيه .

فكانت الناقة فى يوم شربهم لا ترد الماء ، وتسقيهم من ضرعها لبناً ، وإذا كان يوم شربها هى أخذت الماء كله .

ولكنهم مع نزول هذه الآية لم يصدقوا ، ولم يمتثلوا ، ولم يطيعوا ، فدبروا قتل هذه الناقة ، فكمن لها أحدهم تحت شجرة ، ثم سها فرماها بسهم حتى خرت فعلاها بالسيف وأجهز عليها .

فلما رآها نبى الله صالح عليه السلام بكى ، وقال : قد انتهكتم حرمات الله فأبشروا بعذاب أليم .

فأرسل الله جبريل عليه السلام فصاح بهم صيحة واحدة ، فكانوا كالهشيم الذى يسقط مما يجمعه الرجل من الشوك والشجر ليجعل منه لغنمه حظيرة .

(٣٣) « كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ »

(٤٠) « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ »

ومن هاتين الآيتين حديث قوم لوط الذين كذبوه إذ نهاهم عن الفاحشة وقال لهم : « أتأتون الذكران من العالمين * وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون » فكذبوه فأرسل الله عليهم ريحاً ترميهم بالحصباء ، فأهلكتهم .

ونجى الله لوطاً عليه السلام وآله ، إلا امرأته ، فلقد أصابها ما أصابهم .

(٤١) « وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ »

(٤٢) « كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ »

كما كذب قوم لوط ، وقوم هود ، وقوم صالح فأخذوا بما كذبوا ، كذلك ضرب الله المثل هنا بقوم فرعون ،

لما جاءهم موسى عليه السلام فأنذرهم وحذرهم ودعاهم إلى الله لم يستجيبوا له ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .
إذ نجى موسى وقومه ، وأغرق فرعون وآله .

(٤٣) « أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ »
(٤٤) « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ »
(٤٥) « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ »
(٤٦) « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ »

بعد أن عرض سبحانه لقصص القوم الذين كذبوا أنبياءهم وبين ما جرى لهم من العذاب وما وقع عليهم من غضب الله سبحانه ، إتجه بالخطاب إلى مشركي قريش وأهل مكة فقال :
« أكفاركم خير من أولئك ؟ أهم أشد بأساً وقوة من عاد وثمود ، أهم أعظم شأناً من فرعون وقومه ؟ أهم أعز على الله من قوم لوط أو قوم نوح ؟
أم لهم عهد وميثاق وبراءة مكتوبة أسكنهم الله منها وأعطاهم إياها حتى يفلتوا من المصير المحتوم لأمثالهم من الكافرين ؟

أم يظن كفار قريش أنهم كثرة غالبة عديدة البأس قوية الجانب لا سبيل لمحمد ﷺ وصحبه بمنازلتها ؟
لن تكونوا — مهما كنتم — بمعجزي الله في الأرض ، ستلقون جزاء أمثالكم من المكذبين الضالين و « سيهزم الجمع ويولون الدبر » عند القتال بالمسلمين في الدنيا ، أما عند الله فيوم الساعة موعدهم « والساعة أدهى وأمر » .

(٤٧) « إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ »
(٤٨) « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ »

حين تقوم الساعة يسحبون في النار على وجوههم ، ويقال لهم : ذوقوا مس سقر .

(٥٤) « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ »
(٥٥) « فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ »

لا تغني عن الكفار كثرتهم ، ولا يغني عنهم ما جمعوا من الله شيئاً ، وأولئك هم وقود النار ..
وإذا كان مصير الكفار مهما يكن خطرهم إلى البوار والدمار ، فإن العاقبة للمتقين،ولذا اختتم سبحانه السورة بتكريم ذكرهم ، فقال إن لهم الجنة وأنهم يكرمون بمجلس الحق عند المليك المقتدر ، الرحمن سبحانه .

تفسير سورة الرحمن

(١) « الرَّحْمَـٰنُ »
(٢) « عَلَّمَ الْقُرْآنَ »

قال أهل مكة عن رسول الله ﷺ : إنما يتعلم قرآنه من رحمن اليمامة يعنون مسليمة الكذاب فأنزل الله « الرحمن علم القرآن » .

ومعنى تعليم الرحمن القرآن : قالوا علم نبيه ﷺ فنقله إلى جميع الخلق ، وقالوا : علمه أى يسره للذكر ، ويسر لعباده تعلمه ، وفهمه ، والوقوف على أحكامه ، وتبين حلاله من حرامه على نحو ما قال تعالى « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

وقيل : علمه ، أى جعله علامة يتعبد الناس به ، ويأخذون عنه ، ويرجعون إليه ، ففيه من ذلك هدايتهم وإرشادهم .

(٣) « خَلَقَ الْإِنسَانَ »
(٤) « عَلَّمَهُ الْبَيَانَ »

ولما كانت هذه السورة موضع الحديث عن آلاء الله وبيان فضله ونعمه على عباده فقد قرر فى بدايتها نعمته بأنه خلق آدم وعلمه الأسماء كلها كما قال سبحانه « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » .

وقيل : المراد جنس الإنسان ، أى الإنسان حيث كان ، وعلمه البيان أى القدرة على الإبانة والإفصاح عما فى النفس .

ومهما تكن اجتهادات المفسرين فما لاشك فيه هو أن هداية الله الإنسان إلى الإعراب عما فى النفس ، وتمكينه من النطق ليصف حاجاته ، ويعبر عن رغباته دون شك ميزة كبرى أضفاها الخالق سبحانه على الإنسان ، وكانت أهلا لأن تذكر فتشكر .

(٥) « الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ »

بهذه الآية يبدأ سبحانه تعداد مجموعة من آثار قدرته فى الكون ، فيبدأ فى هذه بالحديث عن الشمس والقمر كمخلوقين من مخلوقات الله يقترنان فى الذكر ، ويتبادلان الظهور والتأثير فى الكون .

وقوله : « بحسبان » أى يجريان بحساب دقيق فى منازلهما المقدرة لهما لا يجاوزانها ولا يضطرب سيرهما فى مدارها .

وقيل : المراد ، خلقهما ليستعين الإنسان بهما فى حساب أوقاته ، وفى تقدير الآجال والأعمار ولولاهما لما عرف الليل من النهار ، ولا أول من آخر .

« والنجم والشجر يسجدان » المراد أنهما مسخران لإرادة الله سبحانه كما سخر الشمس والقمر ، فما ينبغى لذلك أن يُعبدا من دون الله . أما كيفية سجودهما فهذا ما يعلمه الله .

(١٠) « وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ »

ويتحدث فى هذه سبحانه عن آثار قدرته وفضله على الإنسان فى الأرض وما يتصل بها من خلقه النبات والفاكهة مختلفة الألوان والأشكال والطعوم ، ووضعها للأنام تسخيرها للإنسان وغيره من كل ما يدب فيها فكان من حكمته سبحانه أن وفر لهم فيها ما يكفل لهم الحياة والاستقرار ، ولو قد أجدبت الأرض من أسباب الحياة لما استطاع الإنسان وغير الإنسان أن يبقى بها لحظة .

(١٤) « خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ »

وتحدث هنا آثار قدرته سبحانه فى خلق الإنسان بعد ما تحدث عن قدرته فى خلق الكون الكبير والصلصال: الطين اليابس الذى يشبه الفخار ، وقيل هو الطين ذو الرائحة الكريهة .

« وخلق الجان من مارج من نار » من شعلتها القوية ، أو من اللهب الذى يعلو النار فتختلط ألوانه بعضه ببعض .

(١٩) « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ »

خلقهما وأرسلهما ، والمراد بالبحرين فى أقرب الأقوال : البحار المالحة ، والأنهار العذبة ، يلتقيان فيما تصلح به الحياة ، ويفيد الإنسان منه ، وقد أكمل سبحانه للإنسان أسباب الاستفادة منهما فأحل له صيد البحر وطعامه ، وسخرهما له يستخرج منهما لحماً طرياً ، وحلية يلبسها من اللؤلؤ والمرجان ، وسخرها لتجرى الفلك فيهما بأمره .

ولذا ناسب أن يجىء بعدهما قوله سبحانه : « وله الجوار المنشئات فى البحر كالأعلام » .

(٢٦) « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ »

(٢٧) « وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »

نعم وبه نصدق ونؤمن وليس أهل الأرض وحدهم الهالكين والفانين ، فكل شيء هالك إلا وجهه ، سبحانه له البقاء والدوام ، ولعل حكمته سبحانه عن ذكر فناء الدنيا ومن عليها بعد ما ذكر من حسنها وزينتها ومنفعتها للإنسان أقول : لعل الحكمة هي أن يذكر الإنسان دائماً ويعلمه دائماً أن الحياة قرينة الموت ، وأن البقا قرين الفناء ، وأن سعادة الدنيا قرينة عدم الدوام فينتبه لأسرار وجوده ، ويعمل لآخرته مثل ما يعمل لدنياه .

(٣١) « سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ »

سبحانه : ليس له شغل فيفرغ منه . ولعل المراد الوعيد والتهديد بمعنى : نحن خلقناكم ورزقناكم ويسرنا أسباب الحياة لكم ، وسنفرغ لمحاسبتكم لننظر كيف تعملون .

وفي الحديث أن النبي ﷺ لما بايع الأنصار ليلة العقبة صاح الشيطان : يا أهل الجباجب (يعني يا أهل منازل منى) هذا مذمم يبايع بني قيلة على حربكم ، فقال صلى الله عليه وسلم : وهذا إزب العقبة (أي شيطانها) : أما والله يا عدو الله لأفرغن لك » . والثقلان : الجن والإنس .

(٣٣) « يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ »

قالوا : إن هذا في الآخرة حين يطلع الخلق على نار جهنم فيحاولون الفرار منها فيجدون ملائكة الله صفوفاً محيطين بهم من حولهم،فلا يستطيعون فراراً .

وقال ابن عباس رضي الله عنه — وهو أولى وأحسن — إن المراد إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات وما في الأرض فأعلموه ، ولن تعلموه إلا بسلطان أي بينة من الله .

ولقد يستفاد بمثل هذا في التنبيه إلى أن القرآن الكريم لا يعارض ومحاولات العلم الحديث في التعرف على أسرار الفضاء العلوي للافادة منها في خدمة الحياة ، وسعادة الإنسان .

كما يستفاد به في الدلالة على إعجاز القرآن الكريم حيث أخبر منذ قرابة ألف وأربعمائة عام بأمور تجرى اليوم محاولات تنفيذها .

(٣٥) « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ »

قيل : إن هذه الآية متعلقة بآية النفوذ من أقطار السموات والأرض ، وعليه فالمعنى : لو ظننتم أنكم بما تعلمون

تخرجون على سلطانى وإرادتى أرسل عليكما شواظ النار والنحاس فلا تستطيعون تحقيق ما تريدون .

وعن ابن عباس رضى الله عنه : الشواظ اللهب الذى لا دخان له ، والنحاس : الدخان الذى لا لهب له . وغير جيد أن يكون من هذا تلك الأشعة الكونية التى تملأ أجواز الفضاء ، ويحاول العلماء اليوم بسلطان العلم أن يقفوا على أسرارها .

وقيل إن إرسال الشواظ والنحاس ليس متعلقاً بآية النفوذ السابقة ، ولكنه متعلق بتكذيب آلاء الله التى ترددت فى كل ما سبق ، وعليه فالمعنى إن كذبتم بآلائى يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس ، عقوبة وعذاباً لكم فى الآخرة فتكون الآية إخباراً بما سيكون بعد .

(٣٧) « فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ »

هذا حديث عن القيامة يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ، فيصفها سبحانه هنا بأنها تتصدع وتنشق فتكون فى حمرة الورد ، وفى سيولة الدهن ، فى هذا اليوم لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ؛ لأن الذنوب كلها معلومة معروفة لديه سبحانه ، كما قال : « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » .

(٤١) « يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ »

هذه الآية كالتتمة للآية السابقة ، وكأنهم لا يسألون عن ذنوبهم لأن المذنبين المجرمين منهم يعرفون بسيماهم بسواد الوجوه ، وزرقة الجباه ، فتأخذ الملائكة بنواصيهم وأقدامهم ليقذفوا فى النار ، ويقال لهم : هذا ما كنتم به تكذبون .

(٤٦) « وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ »

لما ذكر سبحانه أحوال الفجار وما يلقونه ، ناسب أن يذكر أحوال الأبرار وما أعد لهم عنده . فذكر هنا مقام الخائفين من الله ، وما يثابون به .

وقالوا : هى فى الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقام ربه فيدعها حياء وخوفاً منه سبحانه فلهؤلاء الخائفين من ربهم جنتان .

وقيل : إنها نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه لما روى أنه شرب ذات يوم لبناً على ظمأ فأعجبه فسأل عنه فأخبر بأنه من غير حلّ فاستقاءه ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه ؛ فقال الرسول : رحمك الله ، لقد نزلت فيك آية ؛ وتلا هذه الآية .

(٦٠) « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ »

بعد ماعرض سبحانه لألوان النعم التى يلقاها المتقون عند ربهم عقب على هذا كله بقوله : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » .

قرأها رسول الله ﷺ ثم قال : « هل تدرون ماذا قال لكم ربكم ؟ »

قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « يقول : ماجزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة » .

وقرأها ابن عباس رضى الله عنه وقال :

يقول الله « هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتى وتوحيدى إلا أن أسكنه جنتى وحظيرة قدسى برحمتى » .

وفى هذه الآية دليل على أن مناط العقاب والمثوبة « هو العمل » وعلى أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

(٧٢) « حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ »

(٧٨) « تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »

تبارك اسم الرحمن الذى افتتحت به السورة ونسبت إليه ، والذى كان ما رأيتم فى السورة من خلق السموات والأرض والإنس والجان ، وألوان العذاب للعصاة ، وألوان النعيم للمتقين — من آثار قدرته ، ومن فضل إنعامه ورحمته .

تبارك : الجليل فى ذاته ، الكريم فى أفعاله سبحانه : ذو الجلال والإكرام .

تفسير سورة الواقعة

(١) « إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ »

(٢) « لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ »

ذكر القرطبي عن مسروق قال :

« من أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين ، ونبأ أهل الجنة ، ونبأ أهل النار ، ونبأ أهل الدنيا ، ونبأ أهل الآخرة ، فليقرأ سورة « الواقعة » .

إذا قامت القيامة ، وأتى أمر الله وهو آت ليس فيه شك ، فإن وقعتها غير كاذبة لا يردها شيء ولا يحول دون وقوعها حائل ، ولا يوجد — حين تقع من يكذب بقيامها ، ولا ينبغى الآن أن يكون بها مكذبون .

(٣) « خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ »

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « تخفض أقواماً فى عذاب الله ، وترفع أقواماً فى طاعة الله » .

وقيل : بل تخفض المتجبرين العصاة فتذل جبروتهم ، وترفع المستضعفين الأتقياء فتكرم إحسانهم . وقيل : غير هذا كثير ، وكله على أن الخفض والرفع معنوى لا حسى .

ويجوز أن يكون الخفض والرفع حسيين مما تراها الأعين ، ويلمسان باليد فهى حين تقوم تسقط السماء على الأرض ، وتدك الجبال ، وتفجر الأنهار والبحار ، « يوم تمور السماء موراً * وتسير الجبال سيراً » ، « يوم تكون السماء كالمهل * وتكون الجبال كالعهن » ، « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال كالعهن المنفوش » ، « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » .

(٤) « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا »

(٥) « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا »

(٦) « فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا »

إذا رجت الأرض رجاً : فأخذتها زلازل القيامة ، وحرك سواكنها ، وحطم رواسيها ، ولم يدع شيئاً إلا بدله وحركه .

وبست الجبال بسا : قلعت من أصولها فذهبت ، ومضت هباء كما يقول سبحانه : « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً * فيذرها قاعاً صفصفاً » .

وقيل : معناه فتت فصارت كالبسيسة ، والأول أولى لقوله سبحانه من بعد « فكانت هباء منبثاً » .

وقيل : بل الهباء المنبث هنا صفة لأعمال الكافرين من خلق الله وليس للجبال ، والهباء ما يتطاير من حوافر الخيل والدواب من الغبار ، يظهر قليلا ، ثم يمضى هباء .

(٧) « وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً »

(٨) « فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ »

(٩) « وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ »

(١٠) « وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ »

عند القيامة يكون الخلق ثلاثة أصناف :

صنف هم أصحاب الميمنة ، الذين يؤخذ بهم إلى الجنة ذات اليمين ، وهم كل من أوتى كتابه بيمينه ، من أهل الحسنات ، اليامين على أنفسهم .

وصنف هم أصحاب المشأمة : الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ، وهم كل من أوتى كتابه بشماله من أهل السيئات المشائيم على أنفسهم .

والصنف الثالث هم : السابقون ، السباقون إلى كل خير ، إلى الإيمان ، وإلى الجهاد ، وإلى التوبة وأعمال البر والخير .

وقيل : هم الذين صلوا إلى القبلتين ، لقوله تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » .

وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال :

« السابقون الذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سئلوه بذلوه ، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم » .

(١٣) « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ »

(١٤) « وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ »

لما نزلت آيات التخويف والعذاب بالواقعة ، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية « ثلة من الأولين » : أى ممن قد مضى قبل أمة محمد ﷺ وقليل من أصحابه . واعتبروا قليلا بالإضافة إلى من سبقهم .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية : « إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، بل ثلث أهل الجنة ، بل نصف أهل الجنة ، وتقاسمونهم فى النصف الثانى .

ويروى عن أبي بكر رضى الله عنه ، وهو أيضاً رأى مجاهد أن الثلثين من أمة محمد ﷺ ومعناه : ثلة من أول هذه الأمة ، وقليل من آخرها مجاهد حتى يلحق بمقام الأولين ، واستمد أصحاب هذا القول إلى ما روى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال :

« الثلثان جميعاً من أمتي » يعني : « ثلة من الأولين وثلة من الآخرين » .

(١٥) « عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ »

(١٦) « مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ »

(٢٥) « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا »

(٢٧) « وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ »

ومن هنا حتى ختام الآية السابعة والعشرين يتحدث القرآن في هذه السورة عن نعيم السابقين المقربين في الجنة ، وكيف أن مجالسهم على السرر الموضوعة : المنسوجة بالذهب يجلسون عليها متقابلين يسعد بعضهم بمواجهة بعض ، وكيف يطوف عليهم الولدان المخلدون بشراب في أكواب وأباريق لا يصدعون عنه ولا ينزفون ، وكيف أنهم يتخيرون ما يأكلون من طعام ومن فاكهة .

ثم : كيف يتمتعون بالحور العين كأمثال اللؤلؤ المكنون ، وكيف أنهم لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما إلا قيلا سلاماً سلاماً .

(٢٨) « فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ »

(٢٩) « وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ »

ومن هنا حتى ختام الآية الأربعين يتحدث القرآن عن نعيم أصحاب اليمين في الجنة ، وكيف يقمن بها في ظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ، ولا ممنوعة ، ثم كيف يكرمهن الله في الجنة بنساء عُرُبٍ عواشق لأزواجهن .

(٤١) « وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ »

(٥٦) « هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ »

فيما بين هاتين الآيتين يتحدث القرآن عن أصحاب الشمال فيذكر منازلهم في النار وهم — أعاذنا الله — في سموم تهب عليهم حارة تحترق مسام أبدانهم فتشويها ، فإذا ما عطشوا ، واستسقوا ، « سقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم » .

ثم هم إذا آذتهم السموم فزعوا منها إلى مكان فيه ظل ، فيجدونه ظلا أسود من دخان جهنم .

ولقد زاد هنا أن بين الأسباب التى استحقوا من أجلها هذا العذاب فقال : إنهم كانوا قبل ذلك فى دنياهم مترفين ، منعمين بالحرام ، وقيل بل كانوا مشركين ، وكانوا يصرون على الشرك ، ويقسمون أن لن يكون هناك بعث ولا حشر ولا قيامة ، كما قال « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت » ، وكما قال : « وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون » ؟

ولذا أعاد سبحانه هنا التحدى لهم ، وأعاد الحكم عليهم بما يلقونه من عذاب .

(٥٨) « أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ »

فى هذه الآية وما بعدها يناقش القرآن منكرى البعث ، فيعود بهم إلى بداية خلق الإنسان فى أولى مراحله منذ يكون نطفة فى الأصلاب إلى أن يكتمل . فيسألهم : « أفرأيتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » ؟

وإذا كان الله سبحانه هو خالق النواة الأولى للإنسان ، ووراعيها فى مراحل تطورها إلى نطفة من علقة إلى مضغة إلى عظام إلى آخر الصورة التى يكون الإنسان عليها ، فكيف يظن به العجز — سبحانه — أن يستطيع إعادة ما بدأ ، وينشئ فى الآخرة مثل ما أنشأ فى الأولى ؟!

(٦٣) « أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ »

وفى هذه الآية وما بعدها يحكى مثالا آخر من أمثلة قدرته سبحانه على الإبداع والخلق فيضرب المثال بالأرض التى يحرثها الزارع ويلقى فيها بذوره ، إذ كيف تنبت هذه البذور ، ومن الذى يقدر لها أن تحيا وتتخلق ، وتدب فيها الحركة ويغشاها النماء . هو الله سبحانه .

ولو شاء لجعلها حطاماً ، وقضى عليها قبل أن تخرج ، وحرم الزارع ما يرجوه ، وتركه يعنى الضياع والحرمان والغرم .

(٦٨) « أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ »

وهذا مثال ثالث ضربه الله سبحانه بالماء الذى نشرب ، والذى هو عماد الحياة وقوامها : من أين للإنسان به ، ومن القادر على أن ينزله لأصحابه من المزن فى مواعيد لا تكاد تضطرب ، وبأحجام وكميات لا تمضى من دونها الحياة ؟!

هو الله سبحانه ، ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً ، لا تروى به الأرض ولا يسقى به نبات ولا حيوان ولا إنسان .

(٧١) « أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ »

وهذا حديث عن النار التى « تورون » فتقوم عليها المنافع ولا يستغنى الإنسان بغيرها عنها ، ويسأل سبحانه : « أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ ثم يجيب : نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين » .

وشجر النار هنا ليس إلا رمزاً لكل مصادر الطاقة التى أودعها الله للإنسان فى الأرض وسخرها له ، وهداه إلى استخراجها والإفادة منها وإيثار الشجر بالذكر ليس إلا لمناسبته لمقام المخاطبين على عهد الرسول ﷺ .

(٧٥) « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ »

وفى ختام هذه الأحاديث يقسم سبحانه مؤكداً للمنكرين أن القرآن حق ومن عند الله وأنه تنزيل رب العالمين .

وفى قسمه سبحانه بمواقع النجوم . قيل : المراد مساقطها ومواقعها حين تغرب ، وقيل : مساقطها من السقوط حين يحل بها ذلك يوم القيامة .

(٨١) « أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ »

(٨٦) « فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ »

(٨٧) « تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »

وبعد فيأيها الكافرون هل استندتم بما حدثناكم ؟ أم أنتم مكذبون ولا تزالون ؟ إن القرآن يذكركم لحظات غريبة تواجهون فيها ربكم فرادى مغلوبين شاخصة أبصاركم ، عانية وجوهكم للحى القيوم ، ويوم تأتى سكرات الموت وتحف بكم جنود الله . وتبلغ الروح الحلقوم ...

فهلا تستطيعون فى هذه الساعة أن ترجعوا الروح مكانها ، وتردوا عن أنفسكم الموت ؟! لو قد فعلتم لحق لكم أن تنكروا ، وأن تجحدوا .

أما وأنتم خاضعون لأمرنا ، موقوفون لإرادتنا ، فما لكم إلا الانقياد والطاعة .

(٩٥) « إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ »

(٩٦) « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ »

هذه خلاصة الحديث الطويل الذى طالعناه موجهاً من الله سبحانه إلى عباده يعظهم ويعلمهم ويهديهم .

وخلاصته : أن هـذا القرآن حق وهو الحق الذى لا ريب فيه ، ولا يرقى ولا ينبغى أن ترقى الشـكوك إليه .

وإذا كان الجهال يخطئون ويشركون ويخوضون فيما لا يعلمون ، فسبح يامحمد باسم ربك العظيم ، ولتسبح الأمة معك ، لتسبحوا جميعاً باسم الله العظيم .

تفسير سورة الحديد

(١) « سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »

سبح لله : نزهه عن القرين والشريك ، ونزهه عن الوالد والولد ، وكل ما لا يليق بذاته سبحانه من صفات أو أفعال .

وما في السموات والأرض من مخلوق حي أو من جماد هامد ، من إنسان أو من حيوان ، أو نبات ، أو طير ، كما قال سبحانه « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم » . وكما قال « وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير » .

(٢) « لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »

وكيف لا يسبح له كل ذلك وهو خالقه ومالكه ومدبر أمره من مبدئه إلى منتهاه ، سبحانه يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير .

(٣) « هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »

شرح الرسول ﷺ هذه الآية فقال على ما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، واغننا من الفقر » .

(٧) « آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ »

يأمر الله سبحانه في هذه الآية بالإيمان ويطالب المؤمن بالإنفاق ، وسواء كان المراد بالإنفاق هنا الزكاة المفروضة ، أوغيرها من وجوه الطاعات ، فالذي يلفت النظر ويستدعي التأمل والانتباه هو قوله سبحانه «مما جعلكم مستخلفين فيه » .

وإذا كان المال في الأصل مال الله والرزق الذي بين أيدينا رزقه ، وما نحن فيه إلا مستخلفون كأننا وكلاء ، فكيف بنا نبخل أو نقتر ، أو تمتنع أيدينا عن الاستجابة لما أمر الله به .

وإنه ليوشك سبحانه ـ إذا لم ننفق ـ أن ينزع عنا ما بأيدينا من رزق فيضعه فى أيدى أناس من عباده يرزقون فينفقون ، ويوسع الله عليهم فيحسنون التوسعة على عباده .

ولو تأمل صاحب المال معنى هذه الجملة « أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ثم نظر فى حاله لم يجد نفسه ـ ولو بلغ ماله مثل ما أوتى قارون ـ إلا وكيلا فى المال لا يظفر منه إلا بمثل أجر الوكيل .

وإلا فما هو المقدار الحقيقى الذى يظفر به من المال مالك الأموال ؟ !

إن أى صاحب مال ـ مهما عظم ـ ليس له من ماله إلا كما قال الرسول ﷺ «ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » .

تماماً كما يأخذ الفقير أو المسكين مما يجدان . ويبقى الباقى من مال الغنى ليكون عبئاً على ظهره يسأل عن حسابه من أين جمعه ؟ وفيم أنفقه ؟ !

وإذا كانت حقيقة الحال كذلك فهلا بسطنا أيدينا بالإنفاق فيما أمرنا رب المال أن ننفق فيه ؟ !

(٨) « وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ »

وكيف لا تؤمنون وقد دعاكم الرسول إلى الإيمان بربكم . وأخذ الميثاق بالإيمان عليكم ؟ بل كيف لا تظهر آثار هذا الإيمان فى الإنفاق والبذل السخى فى سبيل الله ، واثقين مما عنده غير خائفين من عَيْلة ، ولا من ضياع وما يخشى العَيْلة من عَمَرَ بالإيمان قلبه ، وربط أسبابه بالله واسع الخزائن الغنى الحميد .

(٩) « هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ »

سبحانه ييسر لكم سبل الهداية ، ويعينكم على الإيمان والفوز إذ ينزل على عبده محمد ﷺ الآيات البينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وينقذكم من الضلال إلى الهدى ، ويسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، ثم هو لا يكلفكم ما لا تطيقونه ، ولا يحملكم إلا ما تقدرون على حمله ، وإن الله بكم لرءوف رحيم .

(١٠) « وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ »

فى هذه الآية تأكيد لمعنى ما سبق فى قوله سبحانه «وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه» إذ يقول سبحانه هنا: «وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض».

يعنى كيف لا تنفقون ، ولستم أصحاب المال وهو فى أيديكم ، ولا وارثيه حين تموتون فيرثه غيركم . . وإنما وارث السموات والأرض هو الله سبحانه إن يشأ يورثكم الأرض ، وإن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم من يشاء وإذا كان هذا هو الحال فما يبخل بالإنفاق إلا من غاب عقله فى زحمة الأهواء وغرور الشيطان وزينة الحياة .

ثم مضى سبحانه فى الآية ليفرق بين درجات المنفقين فيقدم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا ، على الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا .

ويدل هذا التفريق على معنى سام عظيم فى تقدير القرآن للأعمال حسب الظروف التى يتم العمل فيها .

فالإنفاق والجهاد قبل الفتح تم فى ظروف كان المسلمون فيها لا يزالون مستضعفين فى الأرض لم يظهروا على عدوهم ولم يتخذوه بعد ، ولقد كان من الجائز عقلا أن ينتصر عدوهم وتدول دولتهم .

ومن ثم يكون إنفاق المنفقين ، وقتال المقاتلين فى ظل هذه الظروف دليلا على تمكن الإيمان من قلوبهم ، وعلى أنهم حين أنفقوا ، وحين جاهدوا لم يكونوا طلاب مغنمة ، أو عباد دنيا ، وإنما كانوا أرواحاً خالصة تحركها غاية نبيلة سامية هى إعلاء كلمة الله فى الأرض .

أما الإنفاق والجهاد بعد الفتح (فتح مكة) وبعد أن أظهر الله المسلمين على عدوهم وأمكنهم منه ، واستقرت دولتهم فى قلب جزيرة العرب فهو إنفاق وجهاد فى ظروف مطمئنة ، وفى حال ليست بذات عسرة ، ومثل هذه الأحوال تختلط فيها الغايات أمام كثيرين من الناس فلا يدرى أهم يعملون ما يعملون من الخير لوجه الله أم لوجه الدنيا المتوقعة فى غد .

ومن هنا كان تفضيله سبحانه لمنفق على منفق ، وإن كان الجميع قد وعدوا من الله حسن العاقبة .

(١١) «مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ»

سبحانه هو الغنى ونحن الفقراء إليه ، وسبحانه هو رب المال ووارثه ومستخلفنا فيه ، ومع هذا إذا أمرنا بالإنفاق مما أعطانا سماه قرضاً ، وقال : من ذا الذى يقرض الله ؟

وأروع من ذلك ما يختفى وراء اللفظ من رقة وعذوبة إذ يجعل المولى نفسه وكأنه المقترض ـ بينما الذين يذهب القرض إليهم من أصحاب الحاجة الحقيقية لا يظهر لهم فى الآيات ذكر ، وفى ذلك ما فيه من حرص عظيم على تكريم الفقير ورعاية كرمته وإنسانيته حتى لا تستذلها الحاجة ، أو تطحنها مرارة السؤال .

(١٢) « يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »

هذا يوم توفية للؤمنين المنفقين المجاهدين أجورهم عند ربهم ، وحسبهم من سعادة أن تحيط بهم الأنوار فى ساعات يضل من هولها البصر فلا يكاد ينظر . .

بل حسبهم مايلقونه من تكريم أن تتلقاهم الملائكة بالبشرى فى وقت تشخص فيه الأبصار ، وتعنو فيه الوجوه للحى القيوم ، وينتزع فيه الأمن من القلوب حتى لا يسأل والد عن ولده ، فإذا هؤلاء من بين الخلق يلقون فيها تحية وسلاماً وتقول لهم الملائكة : بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار . . فهنيئاً لهم بما قدموا وما ظفروا .

(١٣) « يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ »

ولما كانت مقارنة الشيء بضده تكشف عن حقيقته فقد عرض سبحانه لحال المنافقين فى هذا اليوم .

المنافقون الذين كانوا يقولون : أن الله فقير ونحن أغنياء ، والذين قالوا لما دعوا لأن يقرضوا الله قرضاً حسناً إن رب محمد قد احتاج إلينا .

فى هذا اليوم يتخبط المنافقون فى الظلمة ، لا يتضح لهم طريق جزاء ما تخبطوا فى الدنيا بين الكفر والإيمان ، فإذا ضلوا طريقهم سألوا المؤمنين والمؤمنات أن ينتظروهم ليقتبسوا من نورهم .

فتقول لهم الملائكة « ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً » أى فى المكان الذى أخذ منه المؤمنون النور . فيرجعون إليه ،فيضرب بينهم بسور له باب باطنه الذى يلى المؤمنين فيه الرحمة ، وظاهره الذى يلى المنافقين من قبله العذاب .

(١٤) « يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ »

وعندئذ يذهل المنافقون مما حدث فينادون المؤمنين : ألم نكن معكم ؟ ! نظهر الإيمان فنصلى كما كنتم تصلون ، ونفعل مثل ما كنتم تفعلون ؟ !

فيقول المؤمنون : بلى كنتم مثلنا ، أى فى ظواهركم ، ولكنكم لم تخلصوا العبادة ، بل فتنتم أنفسكم وأهلكتموها بالنفاق ، والكيد لرسول الله ﷺ وتربص الدوائر بالمسلمين ، وخدعكم الشيطان فاستمرأتم خديعته حتى أفقتم اليوم على الحق الذى أنتم عليه . .

(١٥) « فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ »

فاليوم — وقد ضاع الأمل وفاتت فرصة العمل ، لا يؤخذ منكم فدية ولا يغني عنكم من الله شيء ، والساعة ساعة الحساب فالقوا مصيركم واذهبوا إلى النار هي مأواكم ، ومأوى الكافرين جميعاً وبئس المصير .

(١٦) « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ »

ذكر الكلبي ومقاتل أنها نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة ، وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسي رضي الله عنه ذات يوم فقالوا :

حدثنا عما في التوراة فإن فيها العجائب ، فنزلت هذه الآية .

وقيل : بل نزلت في المؤمنين على مارواه مصعب بن سعد عن أبيه قال :

أنزل الله القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً فقالوا :

يارسول الله : لو قصصت علينا ؟ ! فأنزل الله تعالى قوله : نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن .

فتلاه عليهم زمانا فقالوا : يارسول الله : لو حدثتنا فنزل قوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً » الآية .

قال : فتلاه عليهم زمناً فقالوا : يارسول الله لو ذكرتنا ؟ ! فأنزل الله تعالى : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » .

ولما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : « إن الله يستبطئكم بالخشوع » فقالوا : خشعنا .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ماكان بين إسلامنا ، وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين ، فجعل بعضنا ينظر إلى بعض ويقول : ما أحدثنا ؟ ؟

ثم نهاهم الله فيها أن يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فحرفوه وبدلوه لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم فابتدعوا وغيروا وبدلوا .

(٢٠) « اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ »

مضى القول فى الإيمان ، وفى الجهاد ، وفى إخلاص العبادة ، والإنفاق فى سبيله ، ولما كان هذا كله مما لا يتفق وامتلاء القلب بمحبة الدنيا .

ولما كانت الدنيا قوية السلطان على النفس ، وشديدة التأثير فى العقل .

فقد وجه القرآن النظر إلى خطرها على الدين والعبادة وصوّرها فى صورتها الحقة حتى لا ينخدع المؤمن بها فينسى ربه ودينه فقال :

« اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ... » .

وكل ما فيها غرور وباطل ، وأفراح تنقضى وتبعات لا تبلى ، وضرب مثلها بالزرع يعجب الناظرين إليه بكثرة خضرته ، وبهاء رونقه ، ثم لا يلبث أن يكون حطاماً ، فيذهب حسنه ، ويضيع بهاؤه .. وهكذا دنيا الكافر . وفى الآخرة عذاب شديد للكافر ، ومغفرة ورضوان لمن آمن وعمل .

(٢١) « سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ »

يأمر الله بالمسارعة إلى طلب المغفرة ، وإلى اغتنام النعيم المقيم ، وما أيسر المطلوب منكم لتظفروا بذلك وهو أن تؤمنوا بالله ورسله ، ومعناه أن الجنة لا تنال إلا بفضل الله ورحمته ، لأنه فى هذه الآية لم يذكر سوى الإيمان بالله ورسله ، ولم يحدد عملا بعدهما .

وإن كان فى سورة آل عمران قد ذكر أعمالا بعد الإيمان فقال :

«أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين»

(٢٢) « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ »

(٢٣) « لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ »

عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه» ثم قرأ « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » من الدنيا .

ولقد تأتى هذه الآية فى موضعها هنا من حيث أنه لما كان ماسبق حديثاً عن تبعات الإيمان من جهاد وإنفاق ونحوه ، وما قد يؤدى إليه ذلك من مخاطر ، أو جراح أو غيرها ، لذا ناسب فى هذه الآية أن يقرر أن كل شىء مكتوب ومقدر لكى لايستبد بنا الجزع عند المصاب ، ولا يستخفنا الفرح عند النعمة .

(٢٤) « الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ »

هذه الآية متصلة فى الحكم بما قبلها ، أى لايحب الله كل مختال فخور يبخل بما آتاه الله من فضله .

وقيل إنها نزلت فى بعض أحبار اليهود الذين بخلوا بما يعلمون فى كتبهم من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لئلا يؤمن الناس فتضيع مصالحهم .

والأولى أنها عامة فى كل من يبخل عن أن ينفق فى سبيل الله ، ثم لايكتفى أن يبخل هو وإنما يأمر غيره بالبخل ، ويثبطه عن الخير .

ومثل هؤلاء الخيبة فى الدنيا ، والطرد من رحمة الله فى الآخرة ، فإن الله هو الغنى الحميد .

(٢٥) « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » .

« وأنزلنا معهم الكتاب » المراد : كل كتاب أنزل على رسول منهم « والميزان » وهو كناية عن إنزال العدل وتقرير مبدئه بين الناس فى الأرض ، وذهب بعض المفسرين إلى أنه : الميزان المعروف ، وهو تجاوز لا معنى له .

روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض : الحديد ، والنار ، والماء ، والملح » .

« فيه بأس شديد ومنافع للناس » البأس هو القوة ، ومنافع الحديد فى الحرب . وفى السلام لاتكاد تحصى أنفعه للناس .

(٢٧) « ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ »

ثم أتبع الله سبحانه السابقين الأولين من الرسل كنوح وإبراهيم عليهما السلام برسله من بعدهم موسى وإلياس وداود وسليمان ويونس وغيرهم ، ثم أتبعهم بعيسى بن مريم وآتاه الإنجيل .

وفى قوله « وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة » إشارة إلى المعنى الذى تضمنه قوله تعالى « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لايستكبرون * وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » .

وفى قوله « ورهبانية ابتدعوها » .

قيل : هى رفضهم النساء واتخاذهم الصوامع ، ولحوقهم بالبرارى والجبال إمعاناً فى الفرار من الدنيا .

«ما كتبناها عليهم » لم نفرضها على هذا النحو الذى ابتدعوه وأفرطوا به على أنفسهم لأن الله سبحانه يحب لعباده أن يحلوا ما أحل ويحرموا ما حرم .

ولقد يذهب بعض المفسرين إلى القول بأن الله سبحانه كان قد فرض عليهم هذه الرهبانية على حدّ الاعتدال ولكنهم جاوزوا واشتطوا ، ويأخذون هذا من قوله « ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله » أى مافرضنا الرهبانية عليهم إلا لذلك ، ولكنهم غيروا وبدلوا .

وهذا ما يدل عليه قوله تعالى « فما رعوها حق رعايتها » أى إن بعضهم قصر فى هذه الرعاية ، بمعنى أنه حرّف هذه الرهبانية عن هدفها من ابتغاء مرضاة الله إلى ابتغاء الدنيا تطلب رياسات الدين مثلا ، أو حرفها من القصد والاعتدال إلى الشطط والغلوّ .

ويروى القرطبى عن سفيان الثورى قوله :

كانت ملوك بعد عيسى عليه السلام بدّلوا التوراة والإنجيل ، وكان فيهم مؤمنون يحسنون عبادة الله لم يبدلوا ولم يغيروا ، فضاق الملك بهم فقال أناس له :

لو قتلنا هذه الطائفة لاسترحنا منها .

فقال المؤمنون أنفسهم : نحن نكفيكم أنفسنا ولا تقتلونا ، فقال بعضهم : دعونا نهيم فى الأرض ونسيح فيها كالوحوش نأكل كما تأكل ، ونشرب كما تشرب . وقال آخرون : بل ابنوا لنا فى الفيافى دوراً ، نسكنها فنحتفر الآبار ونحترث الحقول فلا ترونا .

وأقرهم الملك ، ومضى هؤلاء على منهاج عيسى عليه السلام يعبدون الله ، ثم خلف من بعدهم قوم غيروا الكتاب فقالوا : نسيح ونتعبد كما تعبد أولئك — قالوا هذا وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان من تقدموهم . فذلك معنى الابتداع فى الرهبانية .

وعليه يكون المعنى العام ابتدعها الصالحون فما أحسن رعايتها المتأخرون .

وسواء أخلص الراهب فى الرهبانية أم لم يخلص فهذا الترهب ليس من أصل ديننا ، ولا هو من أساس دعوة الإسلام ، لأن الإسلام دين يدعو الإنسان إلى خوض تجربة الحياة ومجاهدة الشر فيها من داخلها ، لا بالفرار أمام الشر إلى قنن الجبال .

ولو قد ترهب الناس واتخذوا الرهبانية سبيلا إلى الخلاص من الآثام لتوقفت الحياة ومحال أن تتوقف الحياة ، ثم لانتشر أسلوب السلبية فى مواجهة أى انحراف ، ولأصبح الحق دائماً مخضود الشوكة أمام الباطل ، ولا يقوى على منازلته .

ومن هنا لم يقر الإسلام هـذه الرهبانية ، ولم يقبلهـا أسلوباً للتدين عند جماعة المسلمين ، بل التدين الحق فى الإسلام ما يتم وأنت فى خضم الحياة تصارع الشر وتقاومه وتهزمه ، لا أن تفر أمامه .

روى الإمام أحمد بن حنبل فى سنده من حديث أبى أمامه الباهلى رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى سرية من سراياه فقـال :

« مر رجل بغار فيه شىء من ماء ، فحدث نفسه بأن يقيم فى ذلك الغار ، فيقوته ما كان فيه من ماء ، ويصيب ما حوله من البقل ، ويتخلى عن الدنيا .

قال : لو أنى أتيت النبى ﷺ فذكرت ذلك له فإن أذن لى فعلت وإلا لم أفعل . فأتاه فقال :

يا نبى الله ، إنى مررت بغار فيه ما يقوتنى من الماء والبقل ، حدثتنى نفسى بأن أقيم فيه ، وأتخلى عن الدنيا .

قال : فقال النبى ﷺ :

« إنى لم أبعث باليهودية ، ولا بالنصرانية ، ولـكنى بعثت بالحنيفية السمحة ، والذى نفس محمد بيده لغدوة ، أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، ولمقام أحدكم فى الصف الأول خير من صلاته ستين سنة » .

وبهذا المعنى روى الـكوفيون عن ابن مسعود قال :

قال لى رسول الله ﷺ : هل تدرى أى النـاس أعلم ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف النـاس فيه ، وإن كان مقصراً فى العمل ، وإن كان يزحف على إسته ، هل تدرى من أين اتخذ بنو إسرائيل الرهبانية ؟ .

« ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصى الله ، فغضب أهل الإيمـان فقاتلوهم ، فهُزم أهل الإيمـان ثلاث مرات ، فلم يبق منهم إلا القليل فقالوا :

« إن أفنونا لم يبق للدين أحد يدعو إليه ، فقالوا نفترق فى الأرض إلى أن يبعث الله النبى الأمى الذى وعدنا

عيسى — يعنون محمداً ﷺ — فتفرقوا فى غيران الجبال ، وأحدثوا رهبانية ، فمنهم من تمسك بدينه ، ومنهم من كفر » ثم تلا : « ورهبانية ابتدعوها ... الآية » وقال :

« أتدرى ما رهبانية أمتى ؟ : رهبانية أمتى الهجرة والجهاد والصوم والصلاة والحج والعمرة ، والتكبير على التلاع .

« يا ابن مسعود : اختلف من كان قبلكم من اليهود على إحدى وسبعين فرقة فنجا منهم فرقة وهلك سائرها .

« واختلف من كان قبلكم من النصارى على اثنين وسبعين فرقة ، فنجا منهم ثلاثة وهلك سائرها :

« فرقة وازت الملوك وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى عليه السلام حتى قتلوا .

« وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك أقاموا بين ظهرانى قومهم يدعون قومهم إلى دين الله ، ودين عيسى ابن مريم فأخذتهم الملوك ، وقتلتهم ، وقطعتهم بالمناشير .

« وفرقة لم يكن لهم طاقة بموازاة الملوك ، ولا بأن يقيموا بين ظهرانى قومهم ليدعوهم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم فساحوا فى الجبال وترهبوا فيهـا وهى التى قال الله فيهم « ورهبانية ابتدعوها .. الآية » فمن آمن بى واتبعنى وصدقنى فقد رعاها حق رعايتها ، ومن لم يؤمن بى فأولئك هم الفاسقون » .

(٢٨) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »

الخطاب هنا يوجه إلى الذين آمنوا من أهل الكتاب بموسى وعيسى عليهما السلام أن يؤمنوا بمحمد ﷺ لكى يؤتيهم الله نصيبين من رحمته وثوابه نصيب لسابق إيمانهم بموسى وعيسى ونصيب لإيمانهم بمحمد ﷺ .

وفى معناه يقول سبحانه : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » .

وقيل : إنه لما نزل قوله تعالى « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » .

افتخر المؤمنون من أهل الكتاب على أصحاب النبى ﷺ فنزلت هذه الآية .

(٢٩) « لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ »

روى أن اليهود قالوا : يوشك أن يخرج منا نبى يقطع الأيدى والأرجل — يعنون أنه يقيم الحدود — فلما خرج من العرب كفروا به فنزلت .

والمعنى أن إيتاء الله النبوة لمحمد صلى الله عليه وسلم إنما يدل على أن أهل الكتاب لا يقدرون على شىء من فضل ، ولا يتصرفون فيه ، ولا يستطيعون أن يحولوا عن أهله .

ولو قد استطاعوا لحولوا النبوة عن محمد ﷺ إلى أنفسهم أو إلى حيث تهوى قلوبهم .

وروى سالم عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على المنبر :

« إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ؛ أعطى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا ، فأعطوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أعطى أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى صلاة العصر ، ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين ، فقال أهل التوراة ربنا هؤلاء أقل عملا وأكثر أجراً قال : هل ظلمتكم من أجركم من شيء ؟ .

قالوا : لا . فقال فذلك فضلي أوتيه من أشاء » .

تفسير سورة المجادلة

(١) « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ »

(٢) « الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ »

(٣) « وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ »

(٤) « فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

حقيقة الظهار أن يقول الرجل لامرأته أنت على كظهر أمى أى أنت محرمة على مثلها وفى هذه الحالة لا يصح له أن يباشرها ولا أن يستمتع بشىء منها حتى يكفر .

وقد اعتبره القرآن من الأمور المستفظعة ومن الزور ومنكر القول ولولا أن الله غفور رحيم لما قبل الكفارة للتحلل منه .

وذكر الواحدى عن تميم بن سلمة عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت :

« تبارك الذى وسع سمعه كل شىء ، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى على بعضه ، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ وهى تقول :

يا رسول الله ، أبلى شبابى ، ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبر سنى ، وانقطع ولدى ، ظاهر منى ، اللهم إنى أشكو إليك .

قالت عائشة رضى الله عنها : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية . قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، وزوجها الذى تشكت منه هو أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت .

ولقد عاشت خولة حتى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ويروى أنه مر بها فى خلافته والناس معه ، فاستوقفته طويلا ، ووعظته قالت :

ياعمر : قد كنت تدعى عميراً ، ثم قيل لك عمر ، ثم قيل لك أمير المؤمنين ، فاتق الله ياعمر ، فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت ، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب .

وبقيت تعظه وهو واقف يستمع فقيل له :

يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف ؟ فقال : والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره لا زلت ، إلا الصلاة المكتوبة ، أتدرون من هذه العجوز ؟

هي خولة بنت ثعلبة ، سمع الله قولها من فوق سبع سموات ، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر ؟!

ويروى في سبب مظاهرته منها ، أنه رآها ساجدة فأعجبه أمرها ، فلما انصرفت من الصلاة أرادها فأبت فغضب عليها ، فقال لها : أنت علي كظهر أمي .

وكان الإيلاء ، والظهار ، من الطلاق في الجاهلية ، فسألت النبي ﷺ فقال لها : « حرمت عليه » .

فقالت : والله ما ذكر طلاقاً ، ثم قالت :

إلى الله أشكو فاقتي ، ووحدتي ، ووحشتي ، وفراق زوجي وابن عمي ، وقد نفضت له بطني فقال لها الرسول : « حرمت عليه » .

فما زالت تراجعه ويراجعها حتى نزلت عليه هذه الآية .

ويروى الدارقطني من حديث قتادة عن أنس بن مالك ، أنه لما نزلت آية الظهار هذه في شأن خولة بنت ثعلبة قال رسول الله ﷺ لزوجها أوس بن الصامت . « اعتق رقبة » . قال : ما لي بذلك يدان ، قال : « فصم شهرين متتابعين » قال : أما إني إذا أخطأني أن آكل في كل يوم ثلاث مرات يكلُّ بصري .

قال : « فأطعم ستين مسكيناً » .

قال : ما أجد إلا أن تعينني منك بعون وصلة .

قال . فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعاً حتى جمع الله له ، والله غفور رحيم .

(٥) « إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ »

(٦) « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »

الذين يشاقون الله ورسوله ويخالفون حدود الله ، ويعادون أنبياءه وأولياءه « كبتوا » وأخزوا بها ولعنوا ، وحقت عليهم الهزيمة كما كبت الذين من قبلهم ، وما أنزل الله من الآيات في إهلاك أعداء الله ومكذبي رسله يشهد بسوء المصير الذي أعد في الدنيا لهؤلاء .

أما فى الآخرة فسيذهلون إذ يعلمون أن الله سبحانه قد أحصى عليهم كل ما عملوا ، وأن ما نسوه هم من ذنوبهم لم ينسه الله لهم فيجزيهم به العذاب المهين .

(٨) « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ »

نزلت فى اليهود والمنافقين ، كانوا يتناجون فيما بينهم ، وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم ، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا : ما نراهم إلا وقد بلغهم عن إخواننا وأقربائنا الذين خرجوا فى السرايا قتل أو مصيبة أو هزيمة ، فيقع ذلك فى قلوبهم ويحزنهم ، فلا يزالون كذلك حتى يقدم أصحابهم وأقاربهم .

فلما طال ذلك وكثر شكوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرهم ألا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا وعادوا فنزلت الآية .

وقوله : « وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله » لأن اليهود كانوا إذا جاءوا الرسول ﷺ قالوا : السام عليك يريدون بظاهرها السلام وهم يعنون الموت . ولذا كان عليه السلام يرد بقوله : « وعليكم » .

وكانوا يقولون : لو كان محمد نبياً لما أمهلنا الله بسبه والاستخفاف به ، وجهلوا قول الرسول ﷺ : « ما أحد أصبر على الأذى من الله عز وجل ، يدعون له الصاحبة والولد ، وهو يعافيهم ويرزقهم » .

(٩) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ »

ينهى الله المؤمنين أن يتورطوا فى مثل ما كانت تفعل اليهود من التناجى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، ويحدد لهم المناجاة المشروعة وهى ما تكون فى طاعة الله ، أو التعاون على خير . وقيل الخطاب لمدعى الإيمان من المنافقين وكأنه قال : يأيها الذين آمنوا كما زعموا !!

(١٠) « إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ »

يبين القرآن فى هذه الآية حكمة النهى عن المناجاة فى الآية السابقة فيوضح السبب النفسى الذى يجعل المناجاة غير مرغوب فيها ، وهى ما قد تثيره فى النفس من الارتياب ، وما تجره عليها من الهواجس ، فلو أن ثلاثة يجلسون بمكان ، وأخذ اثنان منهما يتناجيان دون الثالث فلقد يسوِّل له الشيطان أنهما يتحدثان عنه، أو أنهما يكيدان له ،

فإذا لم يسىء بهما الظن إلى هذا الحد فأبسط ما يحرص له أن يشعر أنه غير ثقة عندهما ، وأن مكانه بنفسيهما دون ما يرجو فيحزنه ذلك ويسوءه ، ولذا قال الرسول ﷺ : « إذا كان ثلاثة فلا يتناجى إثنان دون الواحد » .

ولو قد حدث ما ينهى القرآن والرسول عنه فعلى من أقصى عن المناجاة ألا يستسلم لهواجس الشيطان ، وأن تستشعر اليقين فى أن الضر والنفع بأمره سبحانه : « وأن تناجى المتناجين لن ينقصه أو يزيده » .

(١١) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ. وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ. وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ »

كان ﷺ فى الصفة ، واليوم جمعة وفى المكان ضيق ، وكان عليه السلام يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار . فجاء أناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجلس فقاموا حيال النبى ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ فقال لمن حوله من غير أهل بدر : قم يافلان ، وأنت يافلان ، فأقام من المجلس بقدر النفر الذين قاموا بين يديه من أهل بدر .

فشق ذلك على من أقيم من مجلسه ، وعرف النبى ﷺ الكراهية فى وجوههم ، فقال المنافقون للمسلمين : ألستم تزعمون أن صاحبكم يعدل بين الناس ؟ فوالله ما عدل . هؤلاء قوم أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب من نبيهم ، أقامهم وأجلس غيرهم .. فنزلت الآية .

وفى قوله : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » بيان لأن الرفعة عند الله بالعلم وبالإيمان والجهاد فى سبيله لا بالسبق إلى صدور المجالس ، وفى هذا يقول الرسول : « إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين » . وعنه ﷺ أنه قال : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » .

(١٢) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

ذكر الواحدى عن مقاتل بن حيان قال : نزلت الآية فى الأغنياء ، وذلك أنهم كانوا يأتون النبى صلى الله عليه وسلم فيكثرون مناجاته ، ويغلبون الفقراء على المجالس حتى كره رسول الله ﷺ ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية يأمر بالصدقة عند المناجاة ، فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئاً وأما أهل الميسرة فبخلوا واشتد ذلك على أصحاب النبى ﷺ فنزلت الآية التالية ترخص لهم ما كان مضيقاً فى هذه الآية .

(١٣) « أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ »

بخل الأغنياء أن يقدموا الصدقة ، ولم يجد الفقراء ما يتصدقون فامتنعوا جميعاً من المناجاة فنسخ الله الصدقة بهذه الآية التى كان فيها تأكيد لفرضية الزكاة ونسخ لما عداها .

(١٤) « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ »

(١٥) « أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

(١٦) « اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ »

نزلت فى المنافق عبد الله بن نبتل ، كان يجالس النبى ﷺ ، ثم يرفع حديثه إلى اليهود ، فبينا رسول الله ﷺ فى حجرة من حجره إذ قال :

يدخل عليكم الآن رجل ، قلبه قلب جبار ، وينظر بعينى شيطان ، فدخل عبد الله بن نبتل فقال له رسول الله ﷺ : علام تشتمنى أنت وأصحابك ؟

فحلف بالله ما فعل فقال له النبى ﷺ : فعلت ، فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا ما فعلوا .. وهم الكاذبون .

ثم جاءت الآيات بعد لتؤكد للمنافقين أن أموالهم لن تنفعهم ، وأن الشيطان قد استحوذ عليهم فأضاعهم وأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون .

(٢٢) « لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »

روى أنها نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه لأن أباه « أبو قحافة » سب النبى صلى الله عليه وسلم فصكه ابنه أبو بكر صكة شديدة سقط منها.

ثم ذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : أو قد فعلته ؟ قال نعم . قال : فلا تعد إليه .

فقال أبو بكر ، والله لو كان السيف قريباً منى لقتلته ، فأنزل الله تعالى هذه الآية يبين فيها أن الإيمان حين يملك على المؤمن قلبه وعقله تكون الغيرة عليه قبل الأهل والولد .

تفســـير ســـورة الحشر

(٢) « هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ »

نزلت فى بنى النضير من اليهود ، وذلك أن النبى ﷺ لما قدم المدينة صالحوه على ألا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه ، وقبل الرسول ﷺ ذلك منهم .

فلما غزا بدراً وظهر على المشركين قالوا : والله إنه النبى وجدنا نعته فى التوراة لا ترد له راية . فلما غزا أحداً وهزم المسلمون نقضوا العهد ، وأظهروا العـداوة للرسول ﷺ وللمؤمنين فحاصرهم ﷺ وأجلاهم عن المدينة ، يأخذون كل شىء معهم إلا السلاح . فكانوا يخربون بيوتهم ، ويأخذون ما وافقهم من خشبها وأثاثها لئلا يسكنها المسلمون ، وكان المسلمون يخربونها عليهم . فنزلت الآية .

« وقذف فى قلوبهم الرعب » بقتل سيدهم كعب بن الأشرف حين خرج فى أربعين راكباً إلى مكة يصالح قريشاً على الرسول بعد أحد وينقض عهده معهم ، فبعث إليه الرسول من قتله ، ثم صبحهم بالكتائب .

(٣) « وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ »

(٤) « ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ »

ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء فقبلوه وأذعنوا له تنفيذاً لإرادته سبحانه فى أن يتوب بعضهم يوماً فيؤمن ، ويكون من ذرية بعضهم يوماً من يؤمن .. لولا هذا لعذبهم الله بالقتل والسبى كما حدث لإخوانهم من بنى قريظة ولهم فى الآخرة عذاب النار .

وما ذلك إلا لما قدمت أيديهم من معاداة الله ورسوله وتدبير الغدر به والكيد له .

(٥) « مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ »

سبب نزولها أن رسول الله ﷺ لما نزل بنى النضير فتحصنوا منه أمر بقطع نخيلهم وإحراقها فجزع أعداء الله عند

ذلك وقالوا : زعمت يا محمد أنك تريد الصلاح . أفمن الصلاح عقر الشجر المثمر وقطع النخل ؟ وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد فى الأرض ؟

فشق ذلك على النبى ﷺ ، ووجد المسلمون فى أنفسهم من قولهم ، وخشوا أن يكون ذلك فساد فى الأرض ، واختلفوا فيه . فقال بعضهم : لا تقطعوا فإنه مما أفاء الله علينا ، وقال بعضهم : بل اقطعوا : فأنزل الله الآية : تصديقاً لمن نهى عن القطع ، ورفعاً للإصر عمن قطع ، وبيان لأن ما حدث كان بأمر الله وليخزى الكافرين .

(٦) « وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »

المراد بها : أن أموال بنى النضير التى أخذت بعد جلائهم لم يصل إليها المسلمون بركوبهم الخيل وإسراعهم فى السير ، ولكنه كان بنصر الله وقذفه الرعب فى قلوبهم ، ومن ثم فلا حق للمسلمين فى غنيمته ،وإنما هو للرسول ﷺ يقسمه ويصرفه كما يشاء ولذا قسمها عليه السلام بين المهاجرين ولم يعط الأنصار فيما خلا ثلاثة نفر منهم هم:أبو دجانة، وسهل بن حنيف ، والحارث بن الصمة .

وفى صحيح مسلم عن عمر قال : أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، وكانت للنبى خاصة ، فكان ينفق على أهله نفقة سنة وما بقى يجعله فى الكراع والسلاح عدة فى سبيل الله تعالى .

(٨) « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ »

هذه الآية كالبيان لسابقتها ، وكأنه لما عدد مصارف الفىء ومن يختصون به قال إنما هذا لأنهم فقراء يحتاجون هذا المال ، لأنهم مهاجرون قد أخرجوا فى سبيل الله من ديارهم وأموالهم يبتغون من فضل الله ، وينصرون الله ورسوله فهم أولى بفضله .

(٩) « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »

هم الأنصار بلا خلاف ، ولما غنم عليه السلام أموال بنى النضير دعاهم وشكرهم فيما صنعوا بالمهاجرين فى إنزالهم منازلهم وإشراكهم فى أموالهم ثم قال :

« إن أحببتم قسمت ما أفاء الله علىّ من بنى النضير بينكم وبينهم ، وكان المهاجرون على ماهم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم . وإن أحببتم أعطيتهم — أى ولم تأخذوا — وخرجوا من دوركم » .

فقال سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة كبيرا الأنصار ، بل تقسمه بين المهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا .

ونادت الأنصار : رضينا وسلمنا يا رسول الله ، فقال الرسول ﷺ : اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار .

وقوله : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

قيل : نزلت فى الموقف السابق من الأنصار تجاه المهاجرين . وقيل وهو الأصح : أنها نزلت فى رجل أكرمه ضيفه ، وآثره بقوت ليلته هو وعياله ، فعجب الله من أمره وأكرمه ، ونبه فى الكتاب إلى خبره .

(١٠) « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ »

قال ابن أبى ليلى : إن الناس على ثلاث منازل : المهاجرون ، والذين تبوأوا الدار والإيمان والذين جاءوا من بعدهم ، فاجتهد ألا تخرج من هذه المنازل .

والمعنى : كن مهاجرياً ، فإن قلت لا أجد ، فكن أنصارياً ، فإن لم تجد ، فاعمل كأعمالهم ، فإن لم تستطع فأحبهم واستغفر لهم كما أمرك الله .

(١١) « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ »

كان هذا بين عبد الله بن أبىّ كبير المنافقين ، وبين بنى النضير لما حاصرهم المسلمون حصار الجلاء ، فدسّ إليهم ابن أبىّ من يقول لهم لا تخرجوا وقاتلوا . فإن أخرجتم لنخرجن معكم ولئن قوتلتم لننصرنكم ، ولا نطيع فيكم قول محمد ولا أمره ولا نهيه ، يقولون .. هذا والله يشهد إنهم لكاذبون كما قررته الآية التالية .

(١٤) « لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ »

ولجبن اليهود ورهبتهم منكم لا يجرؤون على قتالكم إلا فى قرى محصنة ومن وراء الحيطان والجدر، وجاء بما يشبه التعليل لجبنهم هذا نعزاه إلى تفرق كلمتهم فيما بينهم وعدائهم الشديد بعضهم لبعض كما قال « بأسهم بينهم شديد»

تحسبهم — لما هم عليه من خلاف — جميعاً متحدين — ولـكنهم متفرقى القلوب مختلفى الأهواء والمصالح .

(١٦) « كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ »

مثل اليهود والمنافقين فى كذب ما يزعمه كلٌّ لصاحبه من النصرة والمؤازرة : ويشبههم فيه بالشيطان الذي أغرى الإنسان بالـكفر كما أغرى المنافقون بنى النضير على معاداة النبي ﷺ ، فلما كفر الإنسان تخلى الشيطان وتركه وحده يحمل تبعة خطيئته .

(٢٠) « لَا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ »

وكيف يستويان ، وهل يستوى الأعمى والبصير ؟ وهل تستوى الظلمات والنور ؟ !

(٢١) « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »

مثل يضربه الله للإنسان كيف لا يغريه وعد الله فيعمل ويخلص العبادة ، وكيف لا يخيفه وعيد الله فيعمل بما أمر وينتهى عما نهى . كيف هذا ولو أنزل الله القرآن على جبل لخشع من ذكر الله .

تفسير سورة الممتحنة

(١) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِى سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ »

ذكر الواحدى وجماعة من المفسرين أنهـا نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة . وذلك أن سارة مولاة أبى عمرو ابن صيفى بن عبد مناف أتت رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة وهو يتجهز للفتح فقال لها : أمسلمة جئت ؟ قالت : لا . قال : فما جاء بك ؟ قالت : أنتم الأهل والعشيرة والموالى ، وقد احتجت فأتيتكم لتعطونى ، فحث رسول الله ﷺ بنى عبد المطلب فكسوها وأعطوها وحملوها .

فأتاها حاطب بن أبى بلتعة وكتب معها إلى أهل مكة كتاباً وأعطاها عشرة دنانير على أن توصل إلى أهل مكة، وكتب إلى أهل مكة : إن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم .

فخرجت سارة ونزل جبريل عليه السلام فأخبر الرسول ﷺ بما فعل حاطب ، فبعث الرسول ﷺ علياً وعماراً والزبير وطلحة والمقداد بن الأسود ، وأبا مرثد وكانوا كلهم فرسانا وقال لهم :

انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ(١)، فإن فيها ظعينة ، معها كتاب فخذوه منها وخلوا سبيلها فإن لم تدفعه إليكم فاضربوا عنقها .

فخرجوا حتى أدركوها فسألوها عن الكتاب فحلفت بالله ما معها كتاب ، ففتشوا متاعها فلم يجدوه فهموا بالرجوع ، فقال علىٌّ :

والله ما كذبنا ولا كذبنا ، وسلَّ سيفه وقال : أخرجى الكتاب وإلا والله لأجردنك ولأضربن عنقك . فلما رأت الجد أخرجته من ذؤابتها قد خبأته فى شعرها ، فخلوا سبيلها ، ورجعوا بالكتاب إلى النبى ﷺ .

فأرسل الرسول إلى حاطب فأتاه فقال له :

هل تعرف الكتاب ؟ قال : نعم . قال : فما حملك على ما صنعت . فقال :

---

(١) موضع بين مكة والمدينة على إلى عشر ميلا من المدينة .

يارسول الله ، والله ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششتك منذ نصحت لك ولا أحببتهم منذ فارقتهم .

ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته ، وكنت غريباً فيهم ، وكان أهلي بين ظهرانيهم فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم يداً . وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه ، وكتابي لايغني عنهم شيئاً ، فصدقه رسول الله ﷺ ، وقبل عذره . فنزلت هذه السورة .

فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : دعني يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : وما يدريك ياعمر ، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

(٤) « قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ »

(٧) « عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

يقول تعالى للمؤمنين : لقد كانت لكم في إبراهيم عليه السلام ومن معه من الأنبياء والأولياء إذا تبرأوا من قومهم حين عبدوا غير الله ، وظاهروهم بالعداء وقالوا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ما بقيتم على كفركم وشرككم، ولن نوادكم حتى تؤمنوا بالله وحده .

فعلوا ذلك معتمدين على الله متوكلين عليه راجين غفرانه ورحمته .

فلما نزلت هذه الآية عادى المسلمون أقاربهم من المشركين وأظهروا ذلك لهم ، وعلم الله سبحانه شدة وجد المسلمين في ذلك فنزلت الآية « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة » .

وذلك بأن يسلم كثير من أهليهم وأقاربهم الذين كانوا على الشرك فيصبحوا من جديد لهم أولياء وإخواناً .

وقد حدث ذلك فعلا ، وعادت المودة وخالطوهم وتزوجوا منهم ، وتزوج الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب فلانت عند ذلك عريكة أبي سفيان وقال لما بلغه خبر تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم من ابنته : « ذلك الفحل لايقدع أنفه » .

(٨) « لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ »

(٩) « إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »

نزلت فى أسماء بنت أبى بكر، وذلك أن أبا بكر رضى الله عنه كان قد طلق امرأته قُتيلة بنت عبد العزى فى الجاهلية — وهى أم أسماء — فقدمت على ابنتها فى المدة التى كانت فيها المهادنة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش ، فأهدت إلى ابنتها هدايا ، فلم تقبل هداياها ولم تدخلها منزلها حتى سألت رسول الله ، أو حتى سألته عائشة لها فقال : لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين .. الآية .

ثم كانت الآية التالية لها تحديداً واضحاً لسبب المعاداة والنهى وفيها البيان للذين قاتلوا المشركين وأخرجوهم من مكة وساعدوا على إخراجهم فهؤلاء هم الذين تجب مقاطعتهم ، وتعتبر موالاتهم ظلماً وعدواناً .

(١٠) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »

اقتضت مقاطعة المسلمين للمشركين أن يهاجر المسلمون عن بلاد الشرك — التى يكونون بها حيثما وجدوا — إلى بلاد الإسلام ، ولما كان التزاوج كثيراً آنذاك بينهم ، وكانت ثم علاقات نسب كثيرة قائمة اقتضى ذلك بيان الحكم فى هجرة النساء .

وذكر الواحدى عن ابن عباس قال :

إن مشركى مكة صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية على أن من أتاه من أهل مكة ردّه إليهم ، ومن أتى أهل مكة من أصحابه فهو لهم ، وكتبوا بذلك الكتاب وختموه .

فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب والنبى صلى الله عليه وسلم بالحديبية فأقبل زوجها وكان كافراً فقال :

يا محمد ردّ علىّ امرأتى فإنك قد شرطت لنا أن تردعلينا من أتاك منا، وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد، فأنزل الله

هذه الآية وفيها بيان الحكم في أمر النساء خاصة ، وهو يقضى بعدم ردهن إذا ثبت إيمانهن وأنهن جئن برغبة صادقة في الإسلام .

وفي هذه الحالة يجوز ردُّ مهورهن لأزواجهن من الكفار إذا تمت للعاملة بالمثل وردَّ الكفار على المسلمين مهور النساء المسلمات اللواتي يحبسنهن عن أزواجهن .

قال ابن عباس رضي الله عنه ، وكان امتحان المرأة منهن أن تستحلف بالله بأنها ما خرجت من بغض زوجها ، ولا رغبة من أرض إلى أرض ، ولا لالتماس دنيا ، ولا عشقاً لرجل منا ، بل حباً لله ورسوله .

فإذا حلفت — على ذلك — بالله الذي لا إله إلا هو ، أعطى النبي صلى الله عليه وسلم مهرها لزوجها ، ولم يردّها عليه ، فذلك قوله تعالى :

« فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار ، لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن » .

(١١) « وَإِنْ فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ »

روى عن عائشة رضي الله عنها قالت :

لما حكم الله عز وجل فقال : « واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا » كتب إليهم المسلمون : قد حكم الله بيننا ، بأنه إذا جاءتكم امرأة منا أن توجهوا إلينا بصداقها ، وإن جاءتنا امرأة منكم وجهنا إليكم بصداقها .

فكتب المشركون إلى المسلمين : أما نحن فلا نعلم لكم عندنا شيئاً ، فإن كان لنا عندكم شيء ، فوجهوا به فنزل قوله سبحانه « وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار .. الآية » .

قال ابن عباس رضي الله عنه في تفسيرها :

« يقول إن لحقت امرأة مؤمنة بكفار أهل مكة ، وليس بينكم وبينهم عهد ، ولها زوج مسلم قبلكم فغنمتم ، فأعطوا هذا الزوج المسلم مهره من الغنيمة قبل أن تخمس .

(١٢) « يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة جاء نساء أهل مكة يبايعنه ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ عليهن ألا يشركن .

وقالت عائشة رضى الله عنها : كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يمتحنّ بقول الله تعالى « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك .. الآية » .

فمن أقر بهذا من المؤمنات فقد أقر بالمحنة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقررن بذلك قال لهن : « انطلقن فقد بايعتكن » . ولا والله ما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة قط ، غير أنه بايعهن بالكلام .

تفسير ســــــورة الصف

(٢) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَالا تَفْعَلُونَ »

(٣) « كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أن تَقُولُوا مَالاَ تَفْعَلُونَ »

يروى فى سبب نزولها أن المسلمين كانوا يقولون :

لو نعلم أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا ، فدلهم الله سبحانه على أحب الأعمال إليه وهو الجهاد فى سبيله إذ قال فى هذه السورة « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » .

فابتلوا بذلك يوماً ففر بعضهم وولوا مدبرين ، فنزلت الآية توبخهم على فعلهم .

ومع خصوصية السبب فهى عامة فى كل موقف يقول فيه الإنسان مالا يفعل .

وقال صهيب :

كان رجل قد آذى المسلمين يوم بدر وأنكاهم فقتلته ، فذهب رجل إلى النبى ﷺ وقال :

يا نبى الله إنى قتلت فلاناً ، ففرح النبى ﷺ بذلك ، فقال عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف ، — وكانا يعرفان أن الذى قتله هو صهيب وليس ذلك الرجل — :

قالا : ياصهيب ، أما أخبرت رسول الله ﷺ أنك قتلت فلاناً ، فإن فلاناً انتحل قتله ، فأخبر صهيب الرسول ؛ فقال الرسول لصهيب : « أ كذلك يا أبا يحيى » ؟!

قال : نعم والله يارسول الله ، فنزلت الآية ..

(٦) « وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ » .

فى الآية بيان صريح بأن ذكر رسول الله ﷺ ورد فى الإنجيل ، وبأنه كذلك جاء فى التوراة ، ولكن أهل الكتاب غيروا وبدلوا ، وأنكروا ما يعرفون فى كتبهم من ذلك حسداً وبغياً وحرصاً على ألا يعلم ذلك من قومهم أحد لتظل لهم رئاساتهم ومنافعهم الدنيوية .

ولهذا ما أكثر ما ذكر القرآن كتمانهم لما فى التوراة والإنجيل، وما أكثر ما نعى عليهم ذلك وأنذرهم به .

ومع هذا لم يرعوا هؤلاء وغلوا على بغيهم ، ولما جاءهم محمد عليه السلام . وقبل : عيسى عليه السلام بالبينات وكلمة الحق قالوا : هذا سحر مبين .

(١٠) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ »

(١١) « تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ »

(١٢) « يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »

(١٣) « وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ »

روى أنها نزلت فى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قيل : هو عثمان بن مظعون ، ذهب إلى الرسول ﷺ فقال له :

لو أذنت لى فطلقت خولة — يعنى زوجته — ، وترهبت ، واختصيت وحرمت اللحم ، ولا أنام بليل أبداً ، ولا أفطر بنهار أبداً ...

فقال صلوات الله عليه :

« إن من سنتى النكاح ، ولا رهبانية فى الإسلام ، إنما رهبانية أمتى الجهاد فى سبيل الله ، وخصاء أمتى الصوم ، ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ومن سنتى أنام ، وأقوم ، وأفطر ، وأصوم ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

فقال عثمان بن مظعون :

« والله لوددت يانبى الله أى التجارات أحب إلى الله فأتجر فيها» فنزلت هذه الآية تدله وتدل المؤمنين جميعاً على أربح تجارة ، وفى معناها قال سبحانه :

«إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم».

ولما ذكر سبحانه تجارة الجهاد فى الآية الأولى حدد فى الآيتين بعدها مكاسب هذه التجارة .

فالأولى فى حالة الفوز بالشهادة هى : غفران الذنوب ودخول الجنة ، والتمتع بالفوز العظيم وبالمساكن الطيبة والنعيم المقيم .

ومثله ما قاله سبحانه عن نعيم الشهداء في قوله : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

فإذا لم تظفروا بالشهادة كان حسبكم من الفوز أن يمكنكم الله من عدوكم وينصركم عليه ، وهذا معنى قوله : « وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب » .

فتجارة الجهاد رابحة وأصحابها دائماً فائزون بإحدى الحسنيين إما النصر في الدنيا ، وإما الظفر بمكانة الشهداء في الآخرة .

(١٤) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ فَآمَنَت طَائِفَةٌ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ »

في هذه الآية وهي ختام السورة تأكيد لأمر الجهاد ، وتثبيت لفكرته في النفوس ، وربطه نفسياً بالانتصار للنبي ، وبتأييد الله للمجاهدين ونصره لهم فهو يأمرهم سبحانه بأن يكونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى عليه السلام أول من آمن به واحتمل معه وفي سبيله ، فليكن أتباع محمد ﷺ من المؤمنين كذلك .

قال معمر : كذلك كانوا بحمد الله ، ولقد نصروه ليلة العقبة وكانوا سبعين إذ بايعوه فأكرمهم الله ورضي عنهم وأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً .

(٥) « مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ »

هذا مثل ضربه الله سبحانه لليهود حين تركوا العمل بالتوراة وحرفوا وبدلوا فيها وكتموا ما يعلمون فيها من أمر النبي محمد ﷺ .

والمثل صريح فى اعتبارهم بهذا ظالمين معتدين ذوى حال ذميمة . والمثل عام فى كل عالم غير عامل ، وفى كل من يقول ما لا يفعل ، وفى كل من يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم .

(٦) « قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »

(٧) « وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ »

تناقش الآيتان بعض مزاعم اليهود فى أنهم أبناء الله وأحباؤه وأنهم أولياء لله من دون الناس . .

وفى غير هذه السورة رد الله عليهم بقوله : « فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق » وذلك لما قالوا : « نحن أبناء الله وأحباؤه » .

وهنا يرد بقوله : « إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » لتظفروا بما تزعمون أنه معد لكم من ثواب الله ومن نعيمه ..

ولكن الحق أنهم لن يتمنوا الموت أبداً لأنهم يعلمون — أكثر من غيرهم — ما ينتظرهم فى الآخرة بسبب ما قدمت أيديهم .

(٨) « قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »

فى معناه قال سبحانه « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر » .

فهم إن مروا من الموت فالموت ملاقيهم وكيف الفرار والله يقول : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » .

(٩) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ »

قيل سمي اليوم يوم الجمعة لأن الله سبحانه كان قد فرغ فيه من خلق كل شيء فاجتمعت المخلوقات فيه ، وقيل بل لتجمع الناس فيه للصلاة .

في قوله « فاسعوا إلى ذكر الله » يقول ﷺ : « الرواح إلى الجمعة واجب » وقال « من ترك الجمعة ثلاثة من غير ضرورة طبع الله على قلبه » .

« وذروا البيع » المراد هنا التجارة عامة ، وأساس النهي هو ترك كل عمل من شأنه أن يحول بين المسلم وبين عبادة ربه .

(١٠) « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »

ولما كان الأصل في الأمر والنهي هنا هو رعاية مصالح العبد كلها في الدنيا والآخرة فقد أتاح له بعد انقضاء الصلاة ، أي بعد تحقيق المصلحة الدينية أن ينطلق ليسعى حيثما يشاء يكسب من فضل الله .

(١١) « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ »

وفي ختام السورة نعى القرآن على من تشغلهم دنياهم أياً كانت شواغلهم بها عن ذكر الله ، وخاصة من يشغلون اللهو عن الذكر والعبادة .

تفسير سورة المنافقون

يروى فى سبب نزولها عن زيد بن أرقم قال :

غزونا مع النبى ﷺ وكان معنا ناس من الأعراب ، وكنا نبتدر الماء ، وكان الأعراب يسبقونا ، فيسبق الأعرابى فيملأ الحوض ، ويجعل النطع عليه حتى يجىء أصحابه .

فأتى رجل من الأنصار فأرخى زمام ناقته ليشرب ، فأبى الأعرابى أن يدعه ، فتشاجرا فأخذ خشبة فضرب بها رأس الأنصارى فشجه . فأتى الأنصارى إلى عبد الله بن أبىّ بن سلول رأس المنافقين وكان من أصحابه فأخبره .

فغضب عبد الله بن أبىّ وقال : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ، ثم قال لأصحابه : إذا رجعتم للمدينة فليخرج الأعز منها الأذل .

قال زيد بن أرقم : وكنت ردف عمى فسمعت ما قال عبدالله فأخبرت به رسول الله ﷺ . فأرسل إلى ابن أبىّ وأصحابه فجاءوا وحلفوا ، فصدقهم الرسول ﷺ وكذبنى .

قال فجاء إلى عمى وقال : ما أردت إلى أن مقتك رسول الله ﷺ وكذبك المسلمون ، فأصابنى من ذلك غم شديد ووقع على من جرأتهم ما لم يقع مثله على أحد .

فبينا أنا أسير مع رسول الله ﷺ إذ أتانى فعرك أذنى وضحك فى وجهى ، فما كان يسرنى أن لى بها الدنيا ؛ فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين . ولأهل التفسير وأصحاب السير فى النزول رواية غير هذه .

(١) « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ »

وفى الآية حكاية من الله سبحانه لما حدث بالفعل ، وتكذيب صريح لعبد الله بن أبىّ ومعلوم من حديث الرسول ﷺ أن أول صفة فى المنافق أنه « إذا حدث كذب » .

وفى قوله « والله يعلم إنك لرسوله » تحد لهم واستهانة بهم ، ثم هو تأكيد لرسالة الرسول التى قالها المنافقون بأفواههم ولم تؤمن بها قلوبهم .

(٢) « اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

وفى هذه الآية فضح لأسلوب المنافقين فى استخدام يمين الله باطلا لستر كذبهم على الله ورسوله . وفى معناه يقول

سبحانه « يحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم » ويقول « يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم » .

وفى قوله « فصدوا عن سبيل الله » بيان لجريمة المنافقين فى الصد عن سبيل الله ، وعن الدخول فى دينه ، إذ كانوا يقولون لليهود والمشركين : فيم دخولكم فى الإسلام ، وها نحن كافرون به مستهزئون بمحمد ودينه . « إنهم ساء ما كانوا يعملون » .

(٣) « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ »

ذلك الذى يصفه المنافقون من التذبذب بين الإسلام فى الظاهر والكفر فى الباطن وما يفعلونه كذلك من النيل من المسلمين بألسنتهم كلما أمكنهم ذلك . . هذا الذى يعملونه سببه أنهم وقد مرضت قلوبهم وأصبحوا لا يستقرون على عقيدة ، يخافون المسلمين فيظهرون الإسلام ، ثم لا تطيق قلوبهم أن تخلص لله ورسوله فطبع الله على قلوبهم وختم عليها بالكفر فهم لا يفقهون .

(٤) « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ »

فى هذه الآية إثبات وتأكيد لحالة التناقض البارز فى أخلاق المنافقين ، التناقض بين المظهر والمخبر ، أو بين الشكل والمضمون ، وبين ما يقال باللسان وما يختفى فى القلب فيصورهم القرآن بأنهم ذوو مظهر معجب ، وذوى ألسنة لبقة قادرة على تزويق الكلام وتنميق القول .

ولكن بلمس هذا المظهر الخادع . مظهر الخشب المسندة كالتماثيل الجوفاء خاوياً من الروح ومن آثار اليقين والإيمان . والدليل على فراغ نفوسهم ، وخواء مظاهرهم أنهم يفزعون من كل شىء ومن لا شىء . انتزع الإيمان من قلوبهم فطارت نفوسهم شعاعاً مع كل صيحة ، يحسبون أن وراءها عدواً يرصدهم ويتعقب أحوالهم .

وهذا أدق تصوير لحالة النفس غير المطمئنة ، حالة من يكتم فى نفسه ضد ما يظهر ، ويخفى عن الناس ما لا يحب أن يعلموه منه .

ومثل هؤلاء جديرون بأن يخشاهم من يتصل بهم لأنهم لا أمان لهم ولذا حذر المولى رسوله منهم . وقال « قاتلهم الله أنى يؤفكون » .

(٥) « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ »

و من مظاهر التناقض فى شخصيات هؤلاء المنافقين ، وكل المنافقين أنهم لما يحسون من جبن فى النفس وهلع فى الفؤاد يحاولون أن يسروا ذلك فيتظاهرون بالشجاعة وعدم المبالاة بعاقبة ما يقدمون عليه ، ففى هذا الموقف لما قيل لعبد الله بن أبىّ امض إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك ، لوى رأساً ، واستكبر وصلّ عن سبيل الله .

ولما كان المولى سبحانه أعلم بحقيقة حاله ، وبأنه إن جاء يستغفر ، أو لم يجئ فلن تصفو نفسه ، ولن يخلص يوماً لدين الله فقد قضى سبحانه بألا يغفر لهم حتى ولو جاءوا النبى وسألوه الاستغفار فقال :

« سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم . لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين » .

(٧) « هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ »

فى هذه الآية حكاية لما قاله ابن أبىّ فيا أشرنا إليه من قبل عن سبب النزول وهو قول يتصورون فيه المؤمنين مثلهم يغريهم الإنفاق بالبقاء على النبى ، ونسوا أن من ذاق حلاوة الإيمان لا تنظر فى الدنيا عينه ، بل إنه ليجود بكل ما يملك فى سبيل دينه ، فإن لم يكن يملك ، لم يكن أحد أصبر منه على أقسى الحرمان فى سبيل الله .

ولقد كان بعض المؤمنين بعقائدهم يوقفون فتنشر رءوسهم بالمناشير وتعلق أجسادهم بالحديد فما يتحولون عن كلة الله ، فهل يمكن — مع مثل هؤلاء — أن يتأثروا بالحرمان أو الامتناع عن الإنفاق ؟

وفوق هذا فهل ينسى الله عباده المؤمنين ، وهل يتخلى عنهم فى محنتهم وهو سبحانه مولاهم وناصرهم ، وهو فوق هذا رب خزائن السموات والأرض . حقاً إن المنافقين لا يفقهون .

(٨) « يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ »

وفى هذه الآية كذلك سمة أخرى من سمات تفكير المنافقين ومنطقهم فى الحياة إذ يتوهمون دائماً أن الاعتصام بما فى الدنيا من مال أو جاه أو ولد هو صمام العزة ، ومناط إحساس المرء بوجوده ، فقالوا : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ..

قالوا هذا بوهمهم ، وغفلوا عن أن العزة الحقيقية لله ولرسوله ولمن عمرت قلوبهم بحبه وخشيته والاعتماد عليه من المؤمنين .

ويقال إن ابن أبى لم يكد يقول هذه الكلمة « ليخرجن الأعز منها الأذل » حتى رجع إلى المدينة فلبث فيها أياماً فأخذه الله ومات.

(٩) « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ »

يحذر الله فى هذه الآية أتباع محمد ﷺ من المؤمنين أن تكون لهم أخلاق المنافقين من حيث الاعتصام بالدنيا، والاعتزاز بما فيها من جاه وولد ومال يشغل الإنسان به عن نفسه فينسى دينه وخالقه . ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون .

ولذا أتبعها سبحانه بأن طلب إلى المؤمنين أن ينفقوا فى سبيل الله ما وسعهم الإنفاق ليؤكدوا بذلك أنهم غير حريصين على حطام الدنيا ، وليثبتوا للمنافقين وغير المنافقين أنهم أهل الله وليسوا من طلاب أعراض الحياة الفانية .

تفسير سورة التغابن

(٢) « هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »

فى الصحيح من حديث ابن مسعود رضى الله عنه « وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ».

« وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

ولقد شغلت هذه القضية — قضية ما كتب على العبد من كفر وإيمان — شغلت مفكرى المسلمين وعلمائهم وكانت لهم آراء ومناقشات لا تكاد تحصى . .

وخلاصة ما قيل فيها — على ما جاء فى القرطبي — أن الله خلق الكافر ، وكفره فعلٌ له وكسبٌ ، مع أن الله خلق الكفر .

وخلق المؤمن ، وإيمانه فعلٌ له وكسبٌ ، مع أن الله خالق الإيمان .

والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله إياه ، لأن الله تعالى علم ذلك منه وقدر عليه ، ولا يجوز أن يوجد من كل واحد منهما غير الذى قدر عليه وعلمه الله منه ، لأن وجود خلاف القدر عجز ، ووجود خلاف المعلوم جهل ولا يلتقيان بالله سبحانه ، وفى هذا سلامة من الجبر والقدر .

(٧) « زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ »

زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، واستحال — فى زعمهم — تمام البعث لأنهم يتصورون أن الإنسان إذا صار عظاماً وتراباً ، وتفرقت فى الأرض أجزاؤه فيستحيل بعد هذا جمعه وإحياؤه .

قالوا هذا يقيسون قدرة الله المولى سبحانه بمقاييس عقولهم العاجزة وقدراتهم الواهية غافلين عن أبسط حقيقة وهى أن من قدر فى الابتداء يقدر فى الانتهاء ، ومن أنشأ فى الأولى من العدم يستطيع أن ينشىء فى الثانية من موجود .

ولذا رد القرآن عليهم يقسم ويؤكد أن هذا البعث سيحدث وأنه حقيقة ليس فيها ريب ، وأن ما يعملون فى دنياهم سيجزون عندالله فى الآخرةعليه . وذلك على الله يسير .

(٩) « يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »

« يوم يجمعكم » للظلوم والظالم ، والمنافق والمؤمن ، والضال والمهتدى ، والآخرين والأولين ، وأهل السماء وأهل الأرض ، والإنس من خلقه والجان ، والأنبياء وأممهم ، وكل إنسان وما عمل . هذا كله يجمع لا يتخلف منه شيء ، ولا تخفى منه خافية .

ولقد سمى الله يوم الجمع هـــذا بيوم « التغابن » أى يوم يشعر العصاة والكفار بأنهم غبنوا أنفسهم وظلموها بالكفر أو التقصير فى طاعة الله ، ويوم يتمنون لو ردوا إلى الدنيا لينصفوا أنفسهم مما تورطوا فيه .

وللعلماء فى تفسير يوم التغابن ، حديث طويل لا تكاد النفس تظفر من ورائه ببغيتها ولذا أوثر هنا ما روى عن الحسن وقتادة رضى الله عنهما قالا :

بلغنا أن التغابن فى ثلاثة أصناف :

رجل علم علماً فعلمه وضيعه هو ولم يعمل به فشقى به ، وعمل به من تعلمه منه فنجا به .

ورجل اكتسب مالا من وجوه يسأل عنها وشح عليه ، وفرط فى طاعة ربه بسببه ولم يعمل فيه خيراً وتركه لوارث لا حساب عليه فيه ، فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربه .

ورجل كان له عبد فعمل العبد بطاعة ربه فسعد ، وعمل السيد بمعصية ربه فشقى .

وروى عن النبى ﷺ - كما جاء فى القرطبى أيضاً - أنه قال :

« إن الله تعالى يقيم الرجل والمرأة يوم القيامة بين يديه فيقول الله تعالى لهما ، قولا لما أنتما بقائلين .

فيقول الرجل : يا رب أوجبت على نفقتها فتعسفتها من حلال وحرام وهؤلاء الخصوم يطلبون ذلك ، ولم يبق لى ما أوفى به .

فتقول المرأة : يا رب وما عساى أن أقول : اكتسبه حراماً وأكلته حلالا ، وعصاك فى مرضاتى ، ولم أرض له بذلك ، فبعداً له وسحقاً .

فيقول الله تعالى : قد صدقت فيؤمر به إلى النار ، ويؤمر بها إلى الجنة فتطلع عليه من طبقات الجنة ، وتقول له: غبناك غبناك ، سعدنا بما شقيت أنت به ، فذلك يوم التغابن .

وواضح مما سقناه أن التغابن فى هذا اليوم إنما يكون إذ يشعر - كما قلنا - كل عبد أنه قد غبن نفسه وظلمها ، حين اشترى الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما ربحت تجارته وما كان من المهتدين .

(١١) « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »

يروى في سبب نزولها أن الكفار قالوا لو كان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله من المصائب وحماهم من شرور الدنيا . فبين الله سبحانه أن ما يصيب الإنسان من مصيبة في الأرض إنما هي بإذن الله وإرادته يرفع بها لعبده مثوبة ، أو يحط بها عن عبده خطيئة : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا » ، وقال : « لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً » .

« ومن يؤمن بالله يهد قلبه » فلا تفزعه المصيبة ، ولا تنال من عزمه ، بل يرتفع من فوقها ، ويتخذ منها — بالصبر وتذكر الله وحسن التعزى — سبيلا إلى الأجر وإلى مرضاة الله .

فني الصبر على المصيبة تجديد لإيمان العبد المؤمن لأنه يستيقن ساعتها أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن حكمة الله فيما يقضي به أعظم من أن يحيط بكنهها المخلوق ، وهكذا يرتفع العبد في درجات الإيمان وما رفعه إلا صبره على المصائب ونجاحه في امتحان التجربة والابتلاء ، ورحم الله عبده ونبيه أيوب عليه السلام إذ امتحنه فصبر ، وابتلى فشكر ، فأثنى الله عليه ورفع مقامه وأحسن مثوبته .

(١٤) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

قال ابن عباس رضوان الله عليه :

كان الرجل يسلم ، فإذا أراد أن يهاجر منعه أهله وولده ، وقالوا : ننشدك الله ألا تذهب فتدع أهلك وعشيرتك ، وتصير إلى المدينة بلا أهل ولا مال .

قال ابن عباس : فمنهم من يرق لأهله ويقيم ولا يهاجر فنزلت هذه الآية .

وقيل : بل نزلت في عوف بن مالك الأشجعي كان ذا أهل وولد ، وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه وقالوا : إلى من تدعنا ؟ فيرق ويقيم ، فنزلت هذه الآية .

ووجه العداوة هنا : أن الأهل والولد حين تغلبهم عواطفهم على ذويهم فيمنعونهم من المضي على طريق الله في هجرة أو جهاد أو غيرهما .. حين يفعلون ذلك فإنما يحرمونهم الخير الكثير ، ولقد يعرضونهم لشر لا يعلمونه فيكونون والأعداء في موقف واحد وإن اختلفت الدوافع .

ولذا أمر سبحانه — الرجل بالحذر في مثل هذه الأحوال ، وأوجب على الرجل أن يزن أمره فيما يتصل بشئونه مجرداً عن كل عاطفة إلا تلبية داعي الله وتنفيذ أمره .

وفى قوله : « وإن تعفوا وتصفحوا » يروى أن بعض هؤلاء الذين منعهم أولادهم وأزواجهم عن الهجرة لما جاءوا إلى النبي ﷺ ورأوا سابقيهم من المهاجرين قد تفقهوا فى الدين وحسن إيمانهم وارتفعت عند الله وعند رسول الله منازلهم جزعوا لذلك وهموا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم لما كانوا هم السبب فى قعودهم وحرمانهم مما أصاب الآخرون من الفضل فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم أن يعفوا وأن يصفحوا ، لأنه سبحانه غفور رحيم بالآباء حين قصروا ، وبالأبناء والأزواج حين أرادوا الخير فوقعوا فيما لا يريدون .

١٥) « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ »

قال الله تعالى « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » فيطلق بهما القلب وتميل إليهما كل نفس ومن هنا كان الخطر .

روى الترمذى وغيره عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال :

« رأيت النبي ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين — عليهما السلام — وعليهما قميصان أحمران ، يعثران ويقومان ، فنزل ﷺ فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال :

« صدق الله عز وجل : إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما » ثم أخذ فى خطبته .

وفى الحديث أيضاً « يؤتى برجل يوم القيامة فيقال : أكل عياله حسناته » وهو ما يؤكد نوع الفتنة التى يتعرض لها المرء بسبب عياله أو بسبب ماله . والمراد أن الاشتغال بهما — وهما أحب شىء إلى النفس — قد يلهى الإنسان عن عبادة الله وعن طاعته ومن هنا تأتيه الفتنة .

« والله عنده أجر عظيم » كما قال : « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » فليحذر المؤمن أن يصرفه المال والأولاد عن طاعة الله وعن إخلاص العبادة له .

ومعلوم أن حرص الإسلام على إخلاص الرجل لبنيه وأولاده وذويه لا يكاد يدانيه حرص آخر إلى حد أن الإسلام يعتبر جهاد الرجل فى السعى على عياله ليغنيهم فى حياته ويتركهم أغنياء لا يحتاجون بعد مماته . . كالجهاد فى سبيل الله .

ولكنه هنا ينبه الإنسان إلى المنزلق الذى قد يهوى فيه من حيث يدرى ولا يدرى .

(١٦) « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »

لا خلاف — فيما أرى — بين الأمر فى هذه الآية بالتقوى قدر الاستطاعة ، وبين قوله فى آية أخرى « فاتقوا الله حق تقاته » .

إذ المراد هنا — ورب القرآن سبحانه أعلم — أن اتقوا الله فى كل ما تستطيعون أن تتقوه فيه مما يكون فى وسعكم . أما ماليس فى وسعكم فلا يمكن أن يدخل فى مجال هذا الأمر بالتقوى وهو فى الوقت نفسه لا ينقص من كمال التقوى .

ومن المشهود عن الرسول ﷺ فيما معناه أنه عليه السلام كان يقسم بين نسائه فى نومه وطعامه وشرابه ونفقته، وحتى فى ابتسامة وجهه ، وكان هذا ما يستطيعه ، وما يدخل فى حدود ما أمر الله به من التقوى فى معاشرة النساء بالمعروف .

أما أن يكون بالقلب ميل إلى واحدة دون واحدة أو أكثر من واحدة فهذا ما لا يستطيع الإنسان أن يحكمه لأنه لا يملكه ، ولذا كان الرسول ﷺ يقول —فيما معناه — اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما لا أملك .

وفى صدد هذا التأويل يزول التعارض بين الآيتين وتبدو حكمة الإسلام فى أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها .

والأمر بالسمع والطاعة فى قوله « اسمعوا وأطيعوا » تنبيه إلى أن من صالح العبد أن يسمع فيطيع لأن ما يؤمر به قد تكون حكمته مما لا يستطيع هو أن يدركه ولكنه يقيناً وحقاً مما يرى الله أنه خير له ، إن لم يكن فى يومه ففى غد ، وإن لم يدركه فى دنياه فهو بانتظاره فى الآخرة وكيف لا نسمع ولا نطيع ، والأمر آت من عالم الغيب والشهادة ، الذى يعلم ولا نعلم ، ويقدر ولا نقدر ، ويدبر أمر العبد بما يصلح له رحيما به أرحم ما تكون الأم بولدها .

تفسير سورة الطلاق

(١) « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا »

هذا حديث الطلاق الذى خاض فيه الخائضون من أعداء الإسلام ما خاضوا وقالوا إنه يهدم البناء ويشتت الأبناء وأن الإسلام إذا أباحه فإنما فتح باباً من خطر ما كان أولاه أن يغلقه .

والحق أن حرص الإسلام على استقامة الحياة بين الرجل وأهله لا يكاد يدانيه حرص وبغضه لافتراق شملهما لا يكاد يدانيه بغض .

ولكن أى الأمرين خير به أن يكره الرجل عمره كله أو المرأة عمرها على عشرة من لا تطيق وصحبة من استحال فى صحبته الوفاق وجانبها التوفيق بما قد يجره من كفر أو فسوق أو عصيان .

أم أن يمضى كل إلى حاله — إذا استحال الصلح — ليجد نصيبه بما قدر له من خير أو ليحفظ على الأقل نفسه مصونة من التصدع ويحفظ دينه بمنأى عما يسببه سوء العشرة من كفر وفسوق .

إنه المر الذى يرضاه الإسلام لأن غيره أمرّ منه ، والكىّ الذى يعالج به المرض لأن حرقة النار أهون من آلام الداء .

ومع هذا فليسمع الذين خاضوا فى الإسلام ما قاله رسول الإسلام فى أمر الطلاق :

عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق » .

وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تطلقوا النساء إلا من ريبة ، فإن الله عزوجل لا يحب الذواقين ولا الذواقات » وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معاذ ، ما خلق الله تعالى شيئاً على وجه الأرض أحب إليه من العتاق ، ولا خلق الله تعالى على وجه الأرض شيئاً أبغض إليه من الطلاق : فإذا قال الرجل لمملوكه أنت حر إن شاء الله فهو حر ولا استثناء له ، وإذا قال الرجل لامرأته أنت طالق إن شاء الله فله استثناؤه ولا طلاق عليه » .

ثم إن الإسلام لا يرتضى هذا الطلاق إلا بعد أن تستنفد كل محاولات الإصلاح والتوفيق يحاولها الرجل بنفسه مع أهل بيته ، فإن لم يستطع دعا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ليوفقا بينهما ، فإن لم يستطيعا لم يكن مما ليس منه بد ، « وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته » .

وروى أن هذه الآية نزلت فى حفصة زوج النبى ﷺ حين طلقها فنزلت وأمره من الله أن يراجعها لأنها صوامة قوامة ولأنها إحدى نسائه فى الجنة ، وكان سبب طلاقه — عليه السلام — إياها لما أفشت سر الحديث الذى أسره إليها وأخبرت به عائشة على ما يرد ذكره إن شاء الله فى سورة التحريم .

وبعيداً عن خصوص السبب فالآية عامة الحكم بالنسبة للطلاق فى جميع المسلمين .

وفى قوله « فطلقوهن لعدتهن » دليل على أن المراد هنا المرأة التى دخل بها . أما التى لم يدخل بها فلا يشملها الحكم هنا لما عينه الله فى شأنها بقوله فى آية أخرى « يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها » .

والمراد بالتطليق فى العدة ، أن يقع الطلاق فى وقت يصح ابتداء العدة عنده ، وذلك بأن تكون المرأة طاهرة وليست فى حيض . وذلك أخذاً مما روى عن ابن عمر أنه قال: طلقت امرأة وهى حائض ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتغيظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

« ليراجعها ، ثم ليمسكها حتى تحيض حيضة مستقبلة سوى حيضتها التى طلقها فيها ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرة من حيضتها قبل أن يمسها فذلك الطلاق للعدة كما أمر الله » .

و فى قوله « وأحصوا العدة » بيان لضرورة حفظ الوقت الذى وقع فيه الطلاق وتذكره جيداً حتى إذا انقضى الزمن المشروط فيه وهو القروء الثلاثة فى قوله تعالى : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » حلت للأزواج .

وقوله « لا تخرجوهن من بيوتهن » معناه أنه ليس للزوج أن يخرج زوجته إذا طلقها من مسكن الزوجية ما دامت فى العدة .

ولا يجوز لها أيضاً الخروج إلا لضرورة ظاهرة ، وهذا كما قال المفسرون — لصيانة ماء الرجل — ولاستبراء الأرحام ، وضمان ألا تختلط الأنساب .

وقيل بل يجوز لها أن تخرج لقضاء حاجتها نهاراً ، فإذا كان الليل لزمت مسكنها .

وقوله « إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » هى الزنى إذ تخرج ويقام الحد عليها ، وقيل يجوز إخراجها إذا خيف من لسانها ما يجره من شر .

وفى قوله « تلك حدود الله » بيان لحرص الإسلام على أخذ شئون الطلاق وأحكامه وحدوده بغاية العناية والجد ، وألا يترك فيه المجال لأى تهاون أو تفريط من كلا الجانبين للطلق والطلقة .

ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، وورطها فى محارم الله التى يجب أن تصان .

وفى قوله « لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » بيان لأن الإسلام مع اهتمامه بشئون الطلاق وحرصه على التزام حدوده ، لا يغلق باب الأمل فى عودة التوفيق واسترجاع الحياة ، والانتصار على ما هو شر .

فلقد يجد الرجل فى نفسه ندماً ، أو ألماً ، ولقد تجد المرأة فى نفسها حنينا ورغبة فيلتقيان — بعد ما نزغ الشيطان بينهما — وقد تبخرت سحب الشر أمام طائف السلام والخير ، ويعودان وقد ذهبت محنة الطلاق بما كان بينهما من سوء فتطهر النفوس وتصفو كما تصفو المعادن فى بوتقة النار .

(٢) « فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً »

أى إذا قاربن انقضاء العدة فعلى الرجل أن يختار بين أن يمسكها بمعروف أى أن يراجعها ويستعيد حياته الزوجية معها بشرط ألا يكون المقصود من استبقاء الزوجة الإساءة إليها والإضرار بها ، وإطالة عمر عذابها ثانية ، فهذا ما النهى صريح وحاسم فيه .

والاختيار الثانى أن يفارقها بمعروف . وواضح حرص الإسلام على المعروف سواء فى الإبقاء أو التسريح ، إذ من غير المعروف أن يفضى الرجل إلى المرأة وتفضى إليه ، ويستحل بكلمات الله ما حرم منها ، ثم لا يكون بينهما عند الفراق معروف .

ولقد أمر الرجل هنا بالتقوى ومراقبة الله ، وللأمر بالتقوى دلالته فى موقف كهذا قد يستحكم فيه أمر الشيطان ، ويستبد به سلطان الشر ، ولا يعصم منه إلا أن يخاف الله ويتق .

ولقد يكون من تقوى الله أن يذكر الرجل أن له بنتاً أو أختاً أو قريبة ، يخشى عليها من مثل ما هو فيه ، ولا يرتضى لها أن تظلم فيحمله ذلك على الاعتدال والقصد ، ولقد يكون من تقوى الله أن يعرض الإنسان لدوافع هذا الطلاق وأسبابه فيفكر ويتفكر بعد ما زالت الحدة وقاربت أن تمضى العدة ، فلعل حكمه آنذاك أن يكون أقرب إلى المنطق ، وأدنى إلى الصواب والعدل .

أيما كان الأمر فالتقوى مطلوبة ومأمور بها وهى إن لم تنفع العبد فى موقفه عند الطلاق فإنها لا شك نافعة فيم يجىء بعد .

وهذا تفسير الآية التالية التى وعدت المتقى برزق الله له من حيث لا يحتسب وبولاية الله العبد وإسباغ فضله عليه .

(٤) « وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا »

روى عن أبى عثمان عمرو بن سالم قال :

لما نزلت عدة النساء فى سورة البقرة فى المطلقة والمتوفى عنها زوجها قال أبىّ بن كعب : يارسول الله : إن نساء من أهلى يقلن : قد بقى من النساء من يذكر فيها شىء . قال : وما هو ؟ .

قال : الصغار ، والكبار ، وذوات الحمل فنزلت الآية .

وقيل بل إنه لما نزلت : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » قال خلاد بن النعمان بن قيس الأنصارى :

يارسول الله فما عدة التى لا تحيض ؟ وما عدة التى لم تحض أو ما عدة الحبلى ؟ فأنزل الله هذه الآية .

ومهما يكن السبب فالحكم فى العدة بالنسبة للائى بلغن مرحلة اليأس من المحيض ، وللائى لم يحضن لأنهن صغيرات ؛ الحكم فى هاتين أن تكون عدتهما ثلاثة أشهر لعدم وجود القرء الذى تعتد به من تحيض .

أما الحامل فعدتها أن تضع حملها .

ولقد يلاحظ ثانية أن المولى سبحانه أعاد التنبيه إلى التقوى فى هذه الآية ثم فى الآية التى تليها ، وكأنما أصبحت مراعاة التقوى كالمرادف لحديث الطلاق لا يكاد يذكر إلا وتذكر معه ، وفيه من الدلالة على توخى الإسلام العدل كل العدل ما لا يحتاج إلى تنبيه .

٦) « أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى »

روى عن مالك رضى الله عنه فى هذه الآية :

أن المطلقة طلاقاً بائناً لا رجعة فيه ، ولم تكن حاملا لها السكنى فقط ولا نفقة لها ولا كسوة .

وإذا كانت حاملا فلها النفقة والكسوة والسكن حتى تنقضى عدتها أى بأن تضع حملها .

أما المطلقة التى لم تبن أى كان طلاقها رجعياً فهذه لا تزال له زوجة يتوارثان ولا تخرج إلا بإذن وهذه لها ما يلزم الزوجة من السكن والنفقة والكسوة سواء كانت حاملا أم غير حامل .

وقوله « من حيث سكنتم من وجدكم » أى مما تطيقون وتستطيعون .

وقوله « ولاتضاروهن لتضيقوا عليهن » تأكيد للمبدأ العام الذى أقام الإسلام عليه أمر الطلاق وهو مراعاة المعروف فى كل حالاته سواء التسريح أو الإمساك .

وفى قوله « فإن أرضعن لكم » بيان الحكم إذا أرضعت المطلقة لمطلقها أولادها منه ، فعلى الآباء إعطاؤهن أجر الرضاعة .

« وائتمروا بينكم بمعروف » سواء فى رضاع الولد ، أو فى غيره مما كان معلقاً بين الطرفين فى مثل هذه الحال .

« وإن تعاسرتم » ولم يتم بينكما اتفاق على أجرة الرضاعة فيستطيع الأب أن يجد لابنه مرضعاً أخرى ، وقيل بل على الأم أن ترضعه ، والأمر محل خلاف بين الفقهاء .

هذا ولقد استوفى الفقهاء أحكام هذا الباب بما لا مزيد بعده ومالا يغنى هنا التعرض القليل له . فلينظر بتوفيق الله فى مظانه

(٨) « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا »

فى هذه الآية والآيتين بعدها تهديد خفى لأولئك الذين يجاوزون فى أمر الطلاق حدود الله ويتعدونها ، ولا يتقون الله ولا يلزمون المعروف فى التسريح أو الإمساك ..

فالآية تتحدث عمن عتوا عن أمر ربهم ورسله ، ومن تمردوا على طاعة الله : وكيف أخزاهم الله ، وشدد حسابهم ، وشدد العذاب الأليم عليهم ، كل هـذا ليتبين أولى الألباب إلى ضرورة التقوى ولزوم العـدل ورعاية الله .

(١٢) « اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا »

هذا ختام السورة . ووجه صلة بموضوعها أنه ـــ تذكير بقدرة الله وبيان لعلمه سبحانه بكل شىء ، ومن ثم كان على العبد أن يذكر قدرة الله فلا تطغيه قدرته على امرأة مستضعفة فى موقف جعل الله زمامه لا بيدها بل بيـــده .

تفسير سورة التحريم

(١) « يَٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلاً .

قالت عائشة : فتواطأت أنا وحفصة أنه إن دخل على أينا فلتقل له : إنى أجد منك ريح مغافير(١) أأكلت مغافيراً ؟ .

فدخل على إحداها فقالت له ذلك فقال : « بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود له » .

فنزل قوله تعالى « لم تحرم ما أحل الله لك » إلى قوله « إن تتوبا » مراداً بهما عائشة وحفصة .

وثمة روايات أخرى كثيرة تخالف فى اسم الزوجة التى شرب الرسول ﷺ عندها العسل . وهذا أولاها كما قاله ابن العربى .

ومعاتبة الرسول فى تحريمه العسل على نفسه لأن الله يقول « يأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا » ويقول :

« قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون » ؟

ويقول « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام » .

ومن هنا كانت معاتبة الله لرسوله ﷺ لأنه ابتغى بذلك مرضاة زوجاته .

(٢) « قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ »

تحلة اليمين أى الخروج مما فرضه اليمين من التحريم أى إذا أحببتم استباحة المحلوف عليه فعليكم الكفارة التى ذكرها القرآن فى سورة المائدة حين قال : « فكفارته إطعام عشرة مساكين » .

وقد قيل : إن النبى ﷺ كفر عن يمينه هنا ، وقيل : لم يكفر لأنه ﷺ مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، والخطاب هنا للأمة لا للرسول .

---

(١) بقلة أو صمغة متغيرة الرائحة ، فيها حلاوة ، واحدها مغفور .

(٣) «وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ»

قيل : إن الحديث الذى أسره النبي كان إلى حفصة إذ اطلعت عليه مع أم إبراهيم «مارية القبطية» فقال لحفصة: لاتخبرى عائشة بذلك ، وقال لها : أى لحفصة : « إن أباك (يعنى عمر) وأباها (يعنى أبا بكر) سيليان بعدى فلا تخبرى عائشة » .

قال : فانطلقت حفصة فأخبرت عائشة ، فأعلمه الله بذلك وهذا معنى « وأظهره الله عليه » .

« عرّف بعضه » بتشديد الراء فى عرف وهى قراءة العامة ومعناه أن النبى صلى الله عليه وسلم لما أنبأه الله بأن حفصة أخبرت عائشة عرف بعض الحديث ، وأعرض عن بعض وهو قوله « إن أبا بكر وعمر سيليان بعده » كراهة أن ينتشر فى الناس .

وقرئ « عرف » بتخفيف الراء ، ومعناه : جازى عليها حفصة بتطليقها طلقة واحدة ، فقال عمر رضى الله عنه : « لو كان فى آل الخطاب خير لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم طلقك » .

وقيل إنه هم بطلاقها ولم يفعل لما راجعه جبريل عليه السلام وقال له «لاتطلقها فإنها صوامة قوامة وإنها من نسائك فى الجنة » .

« فلما نبأها » يعنى حفصة بما أخبرت به عائشة قالت « من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير » .

وقد اعتزل الرسول نساءه شهراً بعدها وجلس فى مشربة أم إبراهيم حتى نزلت الآية .

(٤) «إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ»

فى الآية تحريض لعائشة وحفصة رضى الله عنهما على التوبة مما كان منهما من الرغبة والميل إلى شىء لايحبه الرسول وهو أنهما أحبتا أن يجتنب جاريته ويجتنب العسل الذى شربه وكان عليه السلام يحب الحلوى وكانت النساء مما حبب إليه فى دنياه كما جاء فى الحديث : « حبب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة » .

« فقد صغت قلوبكما » أى مالت : قيل إلى التوبة بعد ما رأيا أن قد أساءا إلى الرسول .

وقيل مالت قلوبكما عن الحق لما ضايقاه بالنبى .

وأيًّا كان فالتوبة مطلوبة منكما فى هذا المقام ، لعل الله أن يتوب عليكما .

« وإن تظاهرا عليه » أى تعاون إحدا كما الأخرى ، فلن يضره ذلك منكما لأن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين من الأنبياء أو من الناس عامة ، « والملائكة بعد ذلك ظهير » له وأعوان .

(٥) « عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً »

الخطاب موجه إلى أزواج النبي ﷺ بعد الذى حدث ، وفيه المظاهرة والتأييد لرسول الله ﷺ إذا كان نسوته يتظاهرن عليه .

فلو قد طلقهن لأبدله الله خيراً منهن مسلمات مؤمنات قانتات (أى مطيعات لله ورسوله) عابدات سائحات (صائمات) ثيبات وأبكاراً .

(٦) « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ »

تحدد الآية تبعة الرجل عن أهل بيته ، وأن عليه أن يجنبهم المكروه ويرتدهم إلى الخير ، وينهاهم عن كل شر . كما فى قوله « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها » .

وفى الحديث « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام الذى على الناس راع وهو مسئول عنهم ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم » الحديث .

وفى الحديث كذلك : « حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ، ويعلمه الكتابة ، ويزوجه إذا بلغ » .

وروى عنه صلوات الله عليه أنه قال : « رحم الله امرأ قام من الليل فأيقظ أهله — فإن لم تقم رش وجهها بالماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل تصلى وأيقظت زوجها ، فإذا لم يقم رشت على وجهه من الماء » .

وكل ما تقدم من الأحاديث هو معنى وقاية الرجل أهله من النار كما نصت الآية .

(٩) « يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ »

هذا أمر قاطع من الله لرسوله ﷺ بمجاهدة الكفار بالسيف ، ثم بالتشدد عليهم والتغلظة فى أخذهم فى الدنيا . أما الآخرة فمأواهم جهنم وبئس المصير .

ومن قبل أمره الله سبحانه أن يعامل بالحكمة والموعظة ، وأن يجادل بالتى هى أحسن ، فلما لم يصلحوا بذلك أمره سبحانه بمعاملتهم بما يصلحون به .

(١٠) « ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ »

هذا المثل مراد به أن الإنسان لا يغنى عنه غير عمله ، وأن علاقته بغيره — حتى ولو كان نبياً — لا تغنى عنه من الله شيئاً .

فهاتان المرأتان كانتا تحت نبيين من أنبياء الله هما نوح ولوط عليهما السلام ، فلم تتأثر نفساهما بنور النبوة ، وبقيتا على ضلالهما ، وشركهما وخيانتهما لله ولمن يعاشرن .

ولقد يتصور أن زواجهما من نبيين من أنبياء الله ينفعهما أو يشفع لهما أو يغنى عنهما .

وهذا مانفته الآية نفياً قاطعاً ، وقررت أنهما خانتا الله ورسوله فدخلتا النار مع كل الداخلين الذين أذنبوا فعوقبوا .

(١١) « وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »

وعلى النقيض من الحالة السابقة ولكنه لتأكيد المعنى نفسه ضرب الله المثل للذين آمنوا بامرأة فرعون ، كانت تحت ملك كافر وظالم ، فلم تتأثر بكفره ، ولم تشاركه فى ظلمه ، بل كانت فى هذا الوسط الوبىء تتطلع إلى ربها وتناجيه ، وتدعوه أن يغفر لها ، وأن ينجيها من فرعون وعمله ، وأن يجعلها من المقبولين فى جنته .

ولقد استجاب الله دعاءها ونجاها وأكرمها ، ومعناه أن وجودها فى بيت الكفر لم يحرمها جزاءها التى استحقته بعملها وإيمانها .

وخلاصة مايهدى إليه المثلان : أن كل إنسان مجزى بعمله لاينفع المقصر قرابته ولو لنبى ، ولا يضر المحسن قرابته ولو لفرعون .

(١٢) « وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ »

وفى ختام السورة ضرب الله مثلا بمريم ابنة عمران عليها السلام مثلا للصبر على الأذى ، واحتمال أمانة ما ألقى الله إليها وإحصانها نفسها وقنوتها لله .

تفسير سورة الملك

(١) « تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »

تعالى وتعاظم بيده الملك يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويحيى ويميت ، ويعطى ويمنع ، ويغنى ويفقر ، سبحانه وهو على كل شىء قدير من الإنعام والانتقام . ومن العذاب والرحمة سبحانه تقدست أسماؤه .

(٢) « الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ »

سبحانه ، وقدم الموت على الحياة تخويفاً للعصاة وإنذاراً لهم ، وفى الحديث : إن الله تعالى أذل بنى آدم بالموت وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت ، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء » .

وقد بين سبحانه فى الآية حكمته فى خلق الموت والحياة ، وهى أن يبلو الخلق أيهم أحسن عملا ، وأيهم أكثر ذكراً للموت وأكثر استعداداً له .

ويروى عن ابن عمر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا « تبارك الذى بيده الملك حتى بلغ ليبلوكم أيكم أحسن عملا » فقال : « أورع عن محارم الله ، وأسرع فى طاعة الله » .

(٣) « الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ »

(٤) « ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ »

سبحانه خلق سبع سموات فأحكم خلقهن وجعلهن طباقاً بعضها فوق بعض ما ترى فيهن من اعوجاج أو تباين بل إنها سوية الخلق تدل على قدرة الخالق .

« فارجع البصر » أنظر إليها بإمعان وابحث جاهداً فيها ، فهل ترى من فطور أو خلل ؟! ثم أعد النظر كرتين ، وابحث فى المرتين كما بحثت فى الأولى فلن تجد إلا الخلق المحكم والبناء المتين ، وسيرتد إليك بصرك حسيراً عاجزاً عن أن يجد مما يبحث عنه شيئاً .

(٦) « وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ »

(٧) « إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ »

من هنا حتى ختام الآية الحادية عشرة يتحدث القرآن فى هذه السورة عن عذاب جهنم التى أعدت للكافرين ، فيقرر أنه أعد لهم عذاب السعير التى تشهق عند إلقائهم وهى تفور من غليان جوفها بالنار كما يفور المرجل .

ويبلغ القرآن قمة الروعة فى تصوير فظاعة العذاب الذى ينتظر الكفار فى الآخرة إذ يصور النار وكأنها كائن حى يحقد على الكفار ويمتلىء جوفه غيظاً ومرارة ونهماً إلى الانتقام من أعداء الله ، حيث يقف خزنتها ليقذفوهم إلى جوفها مبكتين لهم : ألم يأتكم نذير ؟ فيقولون بلى فيعترفون باستحقاقهم لما يذوقون من عذاب السعير .

(١٥) « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ »

سبحانه سخر الأرض للإنسان ، وأخرج منها ماءها ومرعاها ، وأنزل عليها الماء لتنبت للإنسان من كل زوج بهيج ، وهيأ له فيها كل أسباب حياته فصارت له ذلولا طيعة تجرى بأمر الإنسان وتستجيب له إن حرث أو زرع ..

« فامشوا فى مناكبها » اسعوا على أرزاقكم فى كل مناحيها وابتغوا بالعمل فيها من فضل الله وكلوا من رزقه . ولا يغرنكم ما تجدون من فضل فيها عن الآخرة فإليه المرجع « وإليه النشور » .

(١٩) « أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ »

كما ذلل الله سبحانه الأرض للإنسان وسخرها له ، ذلل الهواء كذلك للطير وجعله مسخراً له ، وكان من مظاهر قدرته سبحانه أن ترى الطير فى السموات صافات باسطات أجنحتهن حيناً قابضات لها حيناً آخر ، ما يمسكهن إلا الرحمن .. سبحانه .

(٢٠) « أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ »

إذا كان سبحانه رب هذا الخلق المعجز ، ومدبر هذا الكون العظيم ومالكه فأنى للكافرين بمن يحميهم من غضبه أو ينصرهم من بأسه ؟! إن الكافرون إلا فى غرور .

(٢٥) « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »

يسأل الكافرون سؤال إنكار عن الوعد الحق يوم القيامة متى يحدث؟ وعلمه عند الله وحده ولا يعلم غيره حتى النبي نفسه وما هو إلا نذير مبين .

(٢٨) « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ »

كان مشركو مكة يتمنون أن يموت النبي ﷺ ، فأُمِر أن يقول لهم : إن تعجيل موتنا أو استبقاء حياتنا لن تنفعكم بشيء فماذا تريدون منها وهل تجارون إن متنا من العذاب الأليم .

تفسير سورة القلم

(١) « نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ »

(٢) « مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ »

(٣) « وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ »

« ن » قال ابن عباس هو آخر حرف من حروف «الرحمن» أقسم الله به وبالقلم لما في القلم من البيان وجواب القسم « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » تكذيباً للمشركين ونفياً لاتهامهم النبي .

(٤) « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ »

قالت عائشة : كان خلقه القرآن ، وقال عليه السلام : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » وقال : « إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق » وكان خلقه عليه السلام « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

(١٠) « وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ »

يعني الذي عرض المال لى الرسول وأغراه به أن يترك دعوته ، وبقية صفته أنه هماز يهمز الناس بيده ويمشي بالنميمة بينهم ، ويمنع الناس عن الإسلام إلى آخر ماجاءت به الآيات في صفاته ولذا نهى الرسول أن يطيعه وأمثاله .

(١٧) « إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ »

من هنا حتى ختام الآية الثانية والثلاثين يحكي القرآن قصة قوم كان لهم بستان وكانوا بخلاء فأقسموا أن يقطفوا ثمره عند إشراقة النهار حيث لايراهم المساكين ، فلما دبروا منع حق الله فيها أهلكها الله وطاف عليها طائف من عنده فأهلكها وهم نائمون . فلما أصبحوا ورأوها كذلك أخذ بعضهم يلوم بعضاً ويقال أنهم تابوا فأبدلهم الله خيراً منها .

(٣٥) « أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ »

ومن هذه الآية حتى نهاية الآية الحادية والأربعين ينقض القرآن وهم من وهموا أن المسلمين كالمجرمين أو ناقشهم القرآن بالمنطق : كيف تحكمون هـذا الحكم ؟ وما دليلكم عليه ؟ وهل جاءكم كتاب من عند الله تدرسون فيه ما تقولون ؟ ومكتوب لكم فيه أن تختاروا لأنفسكم ماتحبون وتتركوا للمسلمين ماتكرهون ؟ ! أم أخذتم على الله أيماناً مؤكدة أن ينزل على حكمكم ويكون حسب إرادتكم ؟ ومن زعيمكم بهذا القول ؟ ومن شركاؤكم فيه ؟ وأين هم إن كنتم صادقين ؟ !

(٤٢) « يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ »

حين تقوم الساعة ، ويشتد الهول ، ويحتاج الأمر إلى تشمير الساعد والكشف عن الساق ترى هؤلاء المتقولين على الله خاشعة أبصارهم أذلة نفوسهم يقفون كأنما صليت ظهورهم فلا يستطيعون السجود حين يريدونه إظهاراً للذلة والخضوع وكانوا من قبل يدعون إليه فلا يقبلون .

(٤٤) « فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ »

ومثله قوله سبحانه « فذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا ، إن لدينا أنكالا وجحيما ، وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليما » .

(٤٨) « فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ »

لا تعجل عليهم يا محمد فإنما نعد لهم عداً ، واصبر ولا تكن كيونس عليه السلام فى تعجله قضاء ربه ، ولولا فضل الله عليه لكان من الهالكين .

(٥١) « وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ »

قرأ ابن عباس وابن مسعود « ليزهقونك » والمعنى واحد لأنهم يريدون أن يصيبوا الرسول أى يقتلوه بالعين، فعصمه الله من شرهم . وختم قوله فى هذه السورة بقوله : وما هو — أى القرآن — إلا ذكر للعالمين .

تفسير سورة الحاقة

(١) « الْحَاقَّةُ »
(٢) « مَا الْحَاقَّةُ »
(٣) « وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ »

هى القيامة ، وهى القارعة : سميت الحاقة لأنها تحق الحق فتحق الجنة لمستحقها وتحق النار لمستحقها ، فيها يصير كل إنسان حقيقياً بجزاء عمله .

(٤) « كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ »

من هذه الآية حتى نهاية الآية الثامنة يوجز القرآن ما جرى لقوم عاد وثمود كذبوا بالساعة فأخذهم الله : ثمودُ بالصيحة الطاغية ، وعاد بالريح الصرصر العاتية سخرت عليهم سبع ليال وثمانية أيام فكانت تنزع الناس من أماكنهم كما تنزع أعجاز النخل الخاوية فما ترى لهم أثراً ولا باقية .

(٩) « وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ »

حتى ختام الآية الثانية عشرة إيجاز لقصة فرعون ومن معه وكذا « المؤتفكات » وهم قرى قوم لوط ، إذ ارتكبوا المعصية والكفر فعصوا رسول ربهم موسى فأهلكهم الله بالطوفان ونجى نبيه وأولياءه ، تذكرة لكم ولعلها أن تعيها الأذن الواعية .

(١٣) « فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ »
(١٤) « وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً »
(١٥) « فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ »

يوم ينفخ فى الصور ، فتدك الأرض والجبال دكة واحدة ، وتنشق السماء فهى يومئذ واهية ، يومئذ تكون القيامة قد قامت ووقعت الواقعة .

(١٩) « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ »

حتى ختام الآية الرابعة والعشرين يحكى تصوير القرآن حال السعيد الآمن الذى أوتى كتابه بيمينه وكيف

يعرضه على الخلق سعيداً مستبشراً يقول: انظروا واقرأوا، لقد توقعت يومى هذا وعملت له، وها أنذا ألقى ما وعدنى ربى حقاً، عيشة راضية، فى جنة عالية.

(٢٥) « وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ »

من هنا حتى ختام الآية السابعة والثلاثين يصور القرآن أن حال الشقى الذى أوتى كتابه بشماله، وكيف يتمنى لو لم ير هذا اليوم، وليتها كانت القاضية فلم يخلق ولم يبعث، ثم يحكى القرآن تحسره إذ لم يغن عنه ماله، ولا نفعه سلطانه، ثم تأتيه الملائكة بأمر ربها ليأخذوه فيغلوه، ثم يدخلونه فى الجحيم ويقيدونه بالسلاسل الثقال، لأنه كان لا يؤمن بالله ولا يرحم الضعيف، ولا يحض على طعام المسكين، فلا يجزى إلا بأسوأ ما يجزى به الخاطئون.

(٤٤) « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ »

فى هذه الآية وفى الآيات بعدها نفى قاطع لما زعموه من أن محمداً ﷺ يفترى القرآن من عنده وأنى له ولو قد فعلها لانتقم رب القرآن أشد انتقام منه بأن يمسك بيمينه، ويقطع نياط قلبه، فلا يحميه من بأسه أحد، ولا يحجز عنه حاجز.

(٥١) « وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ »
(٥٢) « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ »

وان القرآن لحق، فسبح باسم ربك شاكراً أنعمه، ذاكراً فضله، منزهاً إياه عن النقائص والشر.

تفسير سورة المعارج

(١) « سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ »

نزلت فى النضر بن الحارث حين قال : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » . فدعا على نفسه وسأل العذاب فأعطى ما سأل ، وأخذ يوم بدر فقتل صبراً .

(٤) « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ »

تصعد للملائكة والروح جبريل إلى علها الذى هو فى السماء فى يوم لو صعد فيه غيرها لكان مقداره عليه خمسين ألف سنة .

وقيل : المراد بهذا اليوم يوم القيامة جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة شدة وعذاباً ثم يدخلون النار للقرار .

(٨) « يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ »

هذه الآية وما بعدها فى وصف هول يوم القيامة حيث تكون السماء ، كوردى الزيت وعكره ، وتكون الجبال كالصوف المصبوغ ولا يسأل صديق عن صديقه لاشتغال كلّ بأمره ، ويود الكافر — لو تُقُبِّلَ منه — أن يفتدى من العذاب ببنيه وزوجه وأخيه ، ومن فى الأرض جميعاً لعل افتداءه ينجيه .

(١٥) « كَلَّا إِنَّهَا لَظَى »

كلا ، لا فداء ، ولا رجاء ، بل دونكم اللظى فى جهنم تنزع جلود رءوسكم وأطراف أجسادكم ، لا يفلت منها ظالم ، بل إنها لتنادى من كان فى الدنيا قد أدبر عن ذكر الله وتولى ، وجمع المال فأكتنزه ولا صدق ولا صلى .

(١٩) « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً »

هكذا الإنسان والكافر خاصة وهكذا تجىء صورته فى غير موضع من القرآن ، هلوع شديد الحرص إذا ناله الخير ، شديد الجزع إذا مسه الشر .

(٢٢) « إِلَّا الْمُصَلِّينَ »

يستثنى من الإنسان فى سابق صفاته المصلون ، المحافظون على الصلوات ، المزكون الذين يحفظون حق السائل والمحروم ، المؤمنون بالآخرة ، الخائفون من ربهم والمشفقون من عذابه ، والحافظون فروجهم إلا فيما يحل ، والذين يراعون أماناتهم ويفون بعهودهم ، والذين هم بشهاداتهم قائمون ، ولو على أنفسهم أو أقربائهم ، والذين هم فى البدء كما فى الختام على صلاتهم يحافظون . أولئك فى جنات مكرمون .

(٣٦) « فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ »

كان الكفار يجتمعون حول النبى ﷺ عن يمينه وعن شماله فأنكر القرآن اجتماعهم ، وسألهم منكراً ماذا يريدون ؟ أيطمع كل منهم أن يدخل الجنة كما يدخلها أصحاب محمد الذين يستهزئ هو بهم ؟ كلا ليس لهم ما يميزهم على الآخرين فى الخلق حتى يدخلوا الجنة ولم يعملوا لها .

(٤٠) « فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ »

يقسم سبحانه بأنه قادر على أن يهلكهم ويستخلف من بعدهم مايشاء ، كما أنشأهم من قبل ، ويأمر رسوله أن يدعهم فى خوضهم يلعبون حتى يلاقوا اليوم الذى يوعدونه يوم القيامة يوم يخرجون سراعاً من قبورهم كأنهم يسرعون إلى أحد أصنامهم فى الدنيا ، خاشعة أبصارهم ذليلة أعينهم . فذلك يوم الخزى والسوء الذى كانوا يوعدون .

تفسير سورة نوح

تحكى السورة كلها قصة نوح عليه السلام منذ مبعثه لدعوة قومه إلى عبادة الله إلى أن قطع الله خبرهم في لجة الطوفان .

(١) « إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

تحكى الآية تكليف المولى سبحانه لنوح عليه السلام بالرسالة ، وفي الآيات بعدها ، الثانية والثالثة والرابعة يحكى ما قاله عليه السلام لهم إذ دعاهم إلى عبادة الله وتقواه وطاعته ليغفر لهم ذنوبهم ، ويزيد في أعمارهم بما يبارك فيها .

(٢) « قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا »

وفي هذه الآيات يعرض القرآن ببعض التفصيل لدعوة نوح عليه السلام كما يقول نوح لربه كلما دعاهم كلما ازدادوا عناداً واستكباراً ، ولم يقصر نوح عليه السلام في دعوتهم ، فقد أسرّ في دعوتهم وأعلن ، ودعاهم في النهار وفي الليل ، ومناهم ووعدهم إن استغفروا وتابوا أن يغفر لهم وأن يزيدهم الله من خيره ، ويعدهم بزينة الدنيا من المال والبنين ، والجنات والأنهار .

ثم خاطب عليه السلام — عقولهم ودعاهم إلى التأمل والتدبر في خلق أنفسهم وما مروا به من الأطوار وفي خلق السموات السبع وكيف جعل الله القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ، ثم كيف أنبت الإنسان في الأرض وكيف يعيده إليها ميتاً ويخرجه منها بالبعث يوم القيامة ، وكيف بسط الله الأرض للإنسان وسخرها له يسلك فجاجها ويمشى في مناكبها كى يلتقط رزقه ..

أليس هذا كله مما يوقظ العقل إلى وجود الخالق ، ويدفع الإنسان إلى التسليم والإيمان ؟ .

(٢١) « قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا »

ومع كل ما قال نوح لقومه فإنهم عصوه واتبعوا للملأ الذين أطغتهم أموالهم وأهلوهم ووقعوا بسببها في الخسران المبين إذ أضلوا قومهم ونهوهم عن متابعة نوح عليه السلام ، فطلبوا إليهم التمسك بعبادة الأوثان : وُدّ ، وسواع ، ويغوث ويعوق ونسراً .

(٢٦) « وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً »

هذه دعوات نوح على قومه لما يئس من هدايتهم بعد ما لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً قال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً » حتى لا يضلوا عبادك ، وحتى ينقطع الكفر وينقرض نسل الكافرين .

(٢٨) « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً »

هذه دعوة نوح عليه السلام : دعاها لنفسه ولوالديه ، ثم لمن دخل مسجده مشاركا إياه فى دعوته .

تفسير سـورة الجن

(١) « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا »

(٢) « يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا »

(٣) « وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا »

فى هذه الآيات مجموعة من الوقائع : الأولى : استماع نفر من الجن إلى القرآن من رسول الله ﷺ وإعجابهم به.

والثانية : إعلانهم الإيمان بالقرآن وبما جاء به ، وإعلانهم توحيد الله ورفض الإشراك به .

والثالثة : إنكارهم ما يقال عن اتخاذ الله سبحانه الولد والصاحبة .

وفى حديث الجن ، واجتماعهم بالرسول ، وكيف كان هذا اللقاء وأين كان ؟ وماذا دار فيه من حديث . . فى هذا كله تحفل كتب المفسرين وبعض كتب التاريخ بما يحتاج فى تنقيحه إلى جهد وزمن حتى يمكن استخراج الحقيقة منه .

(٥) « وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا »

ظننا أنهم لن يكذبوا على الله وعلينا فصدقناهم فيما زعموه من أن لله ولداً وصاحبة حتى سمعنا القرآن وبان لنا الحق .

(٦) « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا »

تسجل الآية هذه الحقيقة وهى استعاذة رجال من الإنس برجال من الجن ، فزاد الجنُّ الإنسَ رهقاً وإثماً وخطيئة .

(٨) « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا »

قبل بعثة محمد ﷺ كان بعض الجن يصعد إلى السماء الدنيا فيتسمع ما تقوله بعض الملائكة لبعضها فينزلون إلى أحبارهم ورهبانهم فيخبروهم بما سمعوا ، فيأخذه الأحبار والرهبان ويلفقون منه الحكايات والأباطيل يضلون بها الناس بغير علم . فلما بعث النبى ﷺ حُرست السماء . ومنع الجن من الاقتراب منها ، ومن حاول منهم رماه حرسها بالشهب الراصدة المحرقة .

وحين فوجئوا بذلك لم يدروا الخير حدث هذا أم الشر . حتى سمعوا الرسول فعرفوا أن السماء قد حرست منهم حفظاً وحماية لوحى الله سبحانه .

(١٨) « وأنّ المَسَاجِدَ لِلّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أحَداً »

قال مجاهد : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله ، فأمر الله نبيه والمؤمنين أن يخلصوا الدعوة لله إذا دخلوا المساجد كلها .

وفى الصحيح : « من نشد ضالة فى المسجد فقولوا : لا ردّها الله عليك ، فإن المساجد لم تُبن لهذا ».

(١٩) « وأنّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيهِ لِبَداً »

المراد بعبد الله هنا محمد ﷺ حين قام يصلى ويقرأ القرآن ببطن نخلة ، فتجمّع الجن من حوله يركب بعضهم بعضاً من الزحام حوله .

تفسير سورة المزمل

(١) « يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ »

هذا خطاب للرسول صلوات الله عليه ، والمزمل : المتلفف بثيابه وهذا على الحقيقة ،أو المتلفف بالنبوة من قبيل المجاز ولما كان « المزمل » ليس من أسماء الرسول ، كان نداؤه به — وكذلك « المدثر » — من قبيل تلطف المولى سبحانه به وتأنيسه إليه .

وقد نزلت « المزمل » و « المدثر » عند بدء الوحي لما روى أنه صلى الله عليه وسلم لما نزل عليه الملكُ فرآه ، وسمع صوته خافه ورجع إلى أهله مضطرباً يقول : « زملونى دثرونى » فنزلت « يأيها المزمل » و « يأيها المدثر » .

(٢) « قُمِ الَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً »

(٣) « نِصفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً »

(٤) « أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً »

فى هذه الايات أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقيام الليل . وظل الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه يقومونه كأنه فرض حتى ورمت أقدامهم نحواً من سنة إلى أن نزل ختام سورة المزمل « إن ربك يعلم أنك تقوم .. الآية » فخفف الله عنهم .

وحكمة قيام الليل أن العبادة تتم فى الوقت الذى تكون فيه أقرب إلى الخلوص بعيداً عن الرياء ، وعن شواغل الحياة .

وهو معنى قوله سبحانه : « إن ناشئة الليل هى أشد وطئاً وأقوم قيلا » كما تتم فى الوقت الذى يتجلى الله فيه على عباده كما فى الحديث :

«ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضى ثلث الليل الأول فيقول : أنا الملك ، من ذا الذى يدعونى فأستجيب له ؟ من ذا الذى يسألنى فأعطيه ؟ من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له ؟ فلا يزال كذلك حتى يضىء الفجر » .

والأمر بترتيل القرآن يعنى التمهل فيها لتدبر معانى الآيات ، واستحضار خشوع القلب عند القراءة .

وفى ثوابها يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « يؤتى بقارىء القرآن يوم القيامة فيوقف فى أول درج الجنة ويقال له : اقرأ وارتق ، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها » .

(٥) « إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً »

قيل هو قيام الليل لما فيه من مشقة ومجاهدة لا يحتملها إلا صابر ، وقيل : هو القرآن ، لما فيه من حدود وشرائع وأوامر ونواه وعبادات وتكاليف ، وحلال وحرام . أو هو ثقيل على المنافقين ، والمشركين وعصاة الله .

(١٠) « وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً »

(١١) « وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً »

اصبر على ما يقولون لك من فحش القول والسباب ، وما يقولون فى القرآن من أنه سحر أو شعر أو أساطير ، وابتعد عنهم ، ودعهم لقدرتنا وأمهلهم إلى يوم يلقوننا .

(١٥) « إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً »

(١٦) « فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً » .

أرسلنا محمداً ﷺ إليكم كما أرسلنا من قبل موسى عليه السلام رسولا إلى فرعون وقومه ، فعصى فرعون فأخذناه وسنأخذ أمثاله من العصاة فيكم .

(٢٠) « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »

هذه آية التخفيف على قوّام الليل ، نسخت ما جاء فى صدر سورة المزمل لأنهم كما قال « علم أن لن تحصوه » أى لن تستطيعوا قيامه مستمرين على هذا النحو لمرض ، أو ضعف ، أو عجز عن الاستمرار أو اشتغال بالجهاد ، فخفف عنكم بأن قبل قراءة ماتيسر من القرآن من مائة آية إلى عشر آيات .

تفسير سورة المدثر

(١) « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » (٢) « قُمْ فَأَنذِرْ »

والمدثر : الذى تدثر بثيابه أى تغشى بها ، وفى حديث جابر عن رسول الله قال فى حديثه :

« جاورت بحراء شهراً ، فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت بطن الوادى ، فنوديت ، فنظرت أمامى وخلفى، وعن يمينى وعن شمالى فلم أر أحداً ، ثم نوديت فنظرت فلم أر أحداً ، ثم نوديت فرفعت رأسى فإذا هو — يعنى جبريل عليه السلام — على العرش فى الهواء ، فأخذتنى رجفة شديدة ، فأتيت خديجة فقلت دثرونى وصبوا على ماء بارداً ، فدثرونى وصبوا على ماء بارداً فنزلت : « يأيها المدثر * قم فأنذر » أهل مكة وخوفهم عذاب الله إن ظلوا على كفرهم ولم يسلموا .

(٥) « وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ »

مثله قوله تعالى : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان » ، الرجز : الإثم ، أو ما يؤدى إليه .

(٦) « وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ »

أى ولا تمنن على الله بعملك كأنك تستكثره عليه .

(٨) « فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ »

يعنى إذا نفخ فى الصور وقامت القيامة .

(١١) « ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً »

أكثر المفسرين على أنه الوليد بن المغيرة المخزومى ، وكان يسمى « الوحيد » فى قومه .

وقيل إن الوحيد هنا تعود إلى المولى سبحانه كأنه قال : ذرنى وحدى مع من خلقت من هؤلاء الكفار فإنى كافيك الانتقام منهم .

وبقية الآيات ترجع للمعنى الأول إذ كانت للوليد الأموال والبنون ، وكل ما يغرى صاحبه بأن يعاند ويتجبر .

(٢٦) « سَأُصْلِيهِ سَقَرَ »

(٢٧) « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ »

سقر اسم من أسماء جهنم ، ويقال سميت بذلك أخذاً من قولهم سقرته الشمس إذا لوحته وأحرقت جلده .

(٣١) « وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ »

جعل الله خزنة النار ملائكة كيلا تأخذهم بالمعذبين رحمة ، ولأن للملائكة أقوم عباد الله بأمر الله ، وجعلت عدتهم تسعة عشر فتنة وبلاء للكفار ، ولكى يستيقن أهل الكتاب أن عددهم فى القرآن مثل ما فى كتبهم .

وقوله « وما يعلم جنود ربك إلا هو » تحد للكفار الذين استقلوا عدد خزنة النار وقالوا : أما لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر .

(٤٢) « مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ » (٥٠) « كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ »

(٥٤) « كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ »

يصف القرآن أهل مكة فى إعراضهم عن كلمة الله وتكذيبهم الحق بالحمر المستنفرة التى فرت مذعورة من رماتها ومن عجب أن كل واحد منهم يريد لنفسه دليلا خاصاً يصدق به ولن يقبل إلا الصحف تنزل إليه منشورة من السماء ، ولو أوتيها لما آمن ، لأنه لا يخاف الله

ولقد ذكرناه إن شاء أن يتذكر ، وإلا فهو عن ذنبه مسئول .

تفسير سورة القيامة

(١) « لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » (٢) « وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ »

أقسم سبحانه بيوم القيامة إعظاماً لشأنه وتقريراً لأنه الحق لا ريب فيه ، ولم يقسم بالنفس اللوامة .

وقيل : بل أقسم بها : أى بنفس المؤمن التى لا تراه إلا وهو يعاتب نفسه .

(٣) « أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ » (٤) « بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُسَوِّىَ بَنَانَهُ »

أيظن منكر البعث والمكذب بالقيامة أنا عاجزون أن نجمع عظامه،بل إن ذلك فى محيط قدرتنا وفى استطاعتنا بل لقد صنعنا قبل ما هو أعظم منه إذ خلقنا هذا المكذب نفسه ابتداء وسوينا بنانه ، فلسنا بقادرين فقط على جمع عظامه فهذا يسير بل نحن قادرون على إحيائه وتسوية خلقه ، واستكمال أدق التفاصيل فى جسده ، وخاصة هذا البنان الذى لا يتفق فيه إنسان وإنسان .

ونزلت الآية فى عدىّ بن ربيعة قال الرسول ﷺ حدثنى عن القيامة وما يكون من أخبارها وأحوالها ، فلما أخبره الرسول ﷺ قال عدىّ : « لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أومن به أو يجمع الله العظام ؟ أى يجمعها .

ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم اكفنى جارىَّ السوء : عدى بن ربيعة ، والأخنس بن شريق » .

(٦) « يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ » .

ورداً على سؤاله هذا وسؤال كل سائل عن القيامة كانت الآيات التالية حتى الخامسة عشرة بياناً لعلامات هذا اليوم وآياته ، بأن تلمع العيون من شخوصها ناظرة فيما يجرى وهى لا تدرى ، لقد جمع الشمس والقمر وخرت الجبال ودكت الأرض فإلى أين المفر ؟ لا مفر ولا عاصم ولا حمى إنها القيامة ، واليوم يوم الرجوع إلى الله ويوم المستقر بين يدى مشيئته .

(١٦) « لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ »

كان الرسول إذا نزل الوحى عليه حرك لسانه به يريد أن يحفظه خوفاً من نسيانه فأمره سبحانه ألا يملل ولا يشفق من نسيان القرآن أو ضياعه لأن الله قد تكفل بجمعه وحفظه وضبط قراءته إذ قال « إنا نحن نزلنا الذكر

وإنا له لحافظون » وقال : « إن علينا جمعه وقرآنه » .

(٢٠) « كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ »

مع كل ما بين القرآن الناس من أمر الآخرة والدنيا فهم يحبون العاجلة ويذرون الباقية التي لو أخلصوا العمل لها لكانت لهم فيها « وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة »، ولو قصروا في أمرها لكانت لهم وجوه « يومئذ باسرة * تظن أن يفعل بها فاقرة » .

(٢٦) « كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِي »

يزجر القرآن العصاة والكافرين ويذكرهم بيوم صعب على النفس ، يوم تبلغ الروح التراقي وتقترب من الحلق ويعاني الإنسان سكرات الموت وتحيط به الملائكة من يرقى بها إلى خالقها ، وهو ذليل خاضع هامد لا يملك قولا ، ولا يستطيع حركة ولسان حاله يقول : ماذا تفعلون بي وإلى أين ؟ فيقال « إلى ربك يومئذ المساق » فياويله يوم على من قصر وضيّع ،« فلا صدق ولا صلى * ولكن كذب وتولى » .

(٣٦) « أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى »

ما أجهل الإنسان : أكان يحسب أنه متروك سدًى بلا حساب ولا عقاب ؟ أم لم يكن حين خلقناه « نطفة من منى يمنى » قادرين على بعثه وحسابه . أو ليس من قدر على الخلق « بقادر على أن يحيي الموتى ؟ » سبحانه ، بلى إنه لقادر .

تفسير سورة الإنسان

(١) « هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً »

(٢) « إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً »

يذكر الله سبحانه الإنسان بأول عهده بالوجود ، أيام لم يكن شيئاً مذكوراً سوى قبضة من تراب أو نقطة من مني فخلقه مولاه ، وجعل له السمع والبصر ، ودله على الخير والشر ، وابتلاه لينظر ماذا يكون « إما شاكراً وإما كفوراً » والويل للكافرين .

(٥) « إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً »

أما الأبرار الأتقياء فنعيمهم مقيم ، وثوابهم عظيم يشربون من كأس مزاجها الكافور والمسك يأتيهم الشراب حسبما يريدونه من عين يفجرونها بأيديهم بمجرد أن يشيروا إليها فتفيض عليهم وتتبعهم حيثما كانوا ، حتى ينتهوا .

(٧) « يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً »

(٨) « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً »

ومن الطبيعي أن يجزى الأبرار هذا الجزاء ، لأنهم كانوا في دنياهم يوفون بالنذر ويلتزمون بالعهد ويخافون اليوم الموعود فيعملون لاتقاء شره ، وكانوا يطعمون الطعام لمن احتاجه مسكيناً ويتيماً وأسيراً لايرجون إلا الله ، ولا يحتسبون إلا وجهه ، غير منتظرين من مخلوق جزاء ولا شكورا .

(١٠) « إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً »

ثم أنهم لما خافوا اليوم العبوس الشديد الأسود فاتقوا وعملوا جزاهم الله الأمانة ولقاهم نضرة وسروراً ، وأحسن جزاءهم بالجنة يلقون فيها نعيما خالداً وعظيما ، تكفلت الآيات التالية ببيان تفصيله .

(٢٣) « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً »

(٢٤) « فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً »

كل ماسبق ذكره من عذاب أو نعيم ، ومن ذكر الموت والبعث والقيامة والحساب إنما جاء به القرآن الذى

نزلناه عليك تنزيلا من عنده ، لم تفتره أنت ولا تقولته علينا ، كما زعموا ، فدعهم وداوم صبرك على حكم الله فيك وفيهم ، واجعل من ذكر الله وتسبيحه والسجود له مايغنيك عن التفكير فيهم وتتبع ما يقولون .

(٢٧) « إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً »

فإن هؤلاء الكفار يحبون الدنيا ويؤثرونها ، ولن يستجيبوا لك فيما تأمرهم به من صلاة وزكاة ، غافلين عن اليوم الثقيل الذى ينتظرهم ، فلا تحفل بهم فنحن أقدر على حسابهم ، والانتقام منهم لأنهم خلقنا وصنع أيدينا ولو شئنا لأهلكناهم و « بدلنا أمثالهم تبديلا » .

(٣٠) « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا »

إن كل ما يجرى فى الكون إنما هو بأمره وإرادته سبحانه ، فليتذكر من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا وليعرض من أشقاه الله وكتب على وجهه العذاب ، فما تشاءون إلا أن يشاء الله .

تفسير سورة المرسلات

(١) «وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا» (٢) «فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا»

أقسم سبحانه بالرياح المرسلات متتابعة ، والعاصفات عصفاً والناشرات السحاب بين يدى رحمته ثم أقسم بعدها بالملائكة الفارقات بين الحق والباطل الملقيات ذكراً من الله إلى أنبيائه ورسله ليكون للخلق إنذاراً لهم أو إعذاراً .

(٧) «إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ»

هذا جواب القسم : أى أقسم سبحانه بكل ما سبق على صدق هذا الوعد ، وعلى أن القيامة حق ، وفى الآيات التالية بيان وتفصيل لما يجرى فى ذلك اليوم من أحداث .

(١٦) «أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ»

يعجب الكافرون من البعث أو من بأس الله إذا أنذروا به ، فكيف غفلوا عن إهلاكه سبحانه لمن قبلهم لما كذبوا ؟ إن مصير المجرمين واحد ، وعليهم أن يتوقعو ما داموا مثلهم .

(٢٠) «أَلَمْ نَخْلُقكُّمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ»

يذكرهم سبحانه بقصة خلقهم وكيف أنشأهم من ماء مهين لا يتصور إمكان الخلق منه ، ثم بلغنا بهم غايتنا ه وأظهرنا فيهم حين خلقناهم آثار قدرتنا . فالويل يومئذ للمكذبين .

(٢٥) «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا»

وإذا لم يكن نظرهم فى أنفسهم كافياً لأن يتعظوا ! أفلا ينظرون إلى الأرض التى جعلناها كفاتاً قادرة على احتواء الإنسان حياً أو ميتاً ، والتى جعلنا فيها الرواسى الشامخات وفجرنا لهم من قلبها الماء نسقى منه كل ذات كبد رطبة . الويل يومئذ للمكذبين .

(٢٩) «انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ»

حين يرى المجرمون النار يقال لهم انطلقوا إليها وانظروا على دخانها الرهيب الذى ليس له بظليل ولا يغنى من اللهب انطلقوا فتحسسوا النار التى ترى بشرر ضخم كأنه القصور التى كنتم تتترون فى دنياكم بها ، أو كأنه فى ضخامته الجمال السود التى تعرفونها . ويل يومئذ للمكذبين .

(٣٥) «هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ»

فى هذا اليوم يذهل الكافر فيخرس لسانه ولا يستطيع أن ينطبق ، وحتى إن حاول النطق لا يؤذن له ليعتذر . ويل يومئذ للمكذبين .

(٣٨) « هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ »

هذا يوم الفصل والحساب وهذا يوم الجمع بين الأولين والآخرين ، فإن كان لكم كيد فكيدون ، وويل يومئذ للمكذبين .

(٤١) « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ »

بعد الحديث عن سوء حال الكفار يعرض سبحانه هنا نعيم للمؤمنين المتقين ، أين يقيمون وماذا يأكلون وماذا يشربون ، وأحسن منه ؟ بماذا يستقبلون ، وماذا يقال لهم وماذا يقولون .

(٤٥) « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ »

أكد الويل وأعاده، وهدد المجرمين وأفسد عليهم غرورهم ونغّص عليهم متعتهم العاجلة ، فقال « كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون » ، وويل يومئذ للمكذبين .

تفسير سورة النبأ « عمّ »

(١) « عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ » (٢) « عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ »

فيم يتكلم هؤلاء الناس ؟ وماذا يقولون وعمّ يتساءلون ؟ أيسألون عن القرآن ما أمره وما سره ؟ أم يسألون عن البعث متى يقع وكيف يكون ؟ أم يسألون عن محمد من يناصره ومن يظاهره ؟

الأرجح — فيما يُرى — أنهم كانوا يتساءلون عن البعث وحقيقته بدليل ما يلى من الآيات .

(٦) « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا »

أيتساءلون عن البعث ويشكون فيه ؟ وكيف يشكون أليس عندهم الجواب . ألم نمهد لهم الأرض ونخلق فيها الجبال ؟ ألم نخلقهم أزواجاً ونجعل لهم الليل لباساً والنهار معاشاً ؟ ألم نبن فوقهم سبع سموات شداداً ؟ وجعلنا لهم فيهن القمر نوراً وجعلنا الشمس سراجاً ، ألم ننزل عليهم من السحب المعصرات ماء دفاقاً نخرج لهم به حباً ونباتاً ، وحدائق فيها الأشجار ألفافاً أبعد هذا تشكون ؟ ولا تؤمنون ؟

(١٧) « إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا »

بيننا وبينكم يوم الفصل ، يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجاً ، يوم تصدع السماء التى كانت محكمة ويوم تسير الجبال التى كانت شوامخ راسية .

(٢١) « إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا »

الويل للطاغين من عذاب جهنم التى ترصدهم وتتعقب خطاهم ، يقيمون فيها الأحقاب والدهور خالدين فى العذاب ، لا راحة ولا برد ، ولا شراب إلا الحميم والغساق يشوى الوجوه ويقطع الأمعاء ، جزاء عادلا لهم لما كفروا وكذبوا .

(٣١) « إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا »

أما الذين اهتدوا فآمنوا واتقوا فلهم عندنا الفوز من الهلاك ، والجنات ذات الحدائق ، والحور العين الكواعب الأتراب ، ولهم فوق متعة الحس متعة النفس ، فلا كلمة تؤذيهم ، ولا لفظ يجرح نعيمهم ، جزاء من ربك عطاء حساباً ، رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن . سبحانه .

(٣٨) « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا »

سبحانه فى جلاله ، سبحانه فى عظمته . سبحانه فى الدنيا ، سبحانه فى الآخرة ، يخشع الكل بين يديه فتقوم الملائكة وجبريل فيها صفاً خاشعاً صامتاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً سبحانه فى هذا اليوم .. فهذا يوم الحق الذى تنذرونه .

فمن شاء عمل لهذا اليوم وحاسب نفسه على ساعة العودة . ومن شاء أن يغفل فقد أنذرناه عذاباً محققاً فى يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا .

تفسير سورة النازعات

(١) « وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا » (٢) « وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا »

(٣) « وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا » (٤) « فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا »

(٥) « فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا » (٦) « يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ »

أقسم سبحانه هنا بالملائكة تنزع نفوس الكفار من بنى آدم من مكانها كما ينزع السفود(١) من الصوف الرطب ثم تفرقها فى أجسامهم ثانية ثم تعيد النزع . كما أقسم سبحانه بالملائكة الناشطات المنشطات لنفس المؤمن فتطلقها من همها وغمها كما يطلق الجمل من قيده ويحل من عقاله .

ثم أقسم بالسابحات من الملائكة بأرواح من المؤمنين فى ملكوت الله ، ثم بالسابقات منها تسبق الشياطين إلى أنبياء الله فلا يلقى عليهم إلا الحق .

أقسم بالملائكة فى كل حالاتها على صدق مايقول بعد من ذكر القيامة وأحوالها وما يخبر عنه من الأنبياء والأمم .

(١٥) « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى »

يذكر الله سبحانه من هنا حتى ختام الآية السادسة والعشرين قصة موسى ووجه المناسبة بين ذكر هذه القصة وما ذكر قبلها — كما ذكر التهانوى فى كتابه « سبق الغايات فى نسق الآيات » — أنه تعالى حكى عن الكفار إصرارهم على إنكار البعث حتى انتهوا فى ذلك الإنكار إلى حد الاستهزاء فى قولهم « تلك إذاً كرة خاسرة » وكان ذلك يشق على النبى ﷺ فذكر قصة موسى عليه السلام ، وبين أنه تحمل المشقة الكثيرة فى دعوة فرعون ليكون ذلك كالتسلية للرسول ﷺ .

ثم إن فرعون كان أقوى من كفار قريش وأكثر جمعاً وأشد شوكة فلما تمرد على موسى عليه السلام أخذه الله نكال الآخرة والأولى فكذلك هؤلاء المشركون فى تمردهم عليك إن أصروا أخذهم الله تعالى وجعلهم نكالا .

٢٧) « أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا »

من هذه الآية حتى ختام الآية الثالثة والثلاثون يقرر القرآن سهولة البعث على الله إذ يقرر أن خلق السموات

---

(١) سيخ الحديد الذى يشوى عليه اللحم .

وبناءها ، وإظلام ليلها وإشراق نهارها ، ثم بسط الأرض وإخراج مائها ومرعاها منها وإرساء الجبال فوقها أكبر من خلق الناس ، ومن قدر على الأكبر يهون الصغير عليه . سبحانه .

(٣٤) « فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى »

وتكون يوم القيامة ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ؛ يوم تبرز الجحيم للغاوين والطغاة ، وأصحاب الدنيا ، ويوم تقرّب الجنة للمتقين ولمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى .

(٤٢) « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا »

عودٌ إلى حديث الساعة يسألون عنها متى تكون وماذا يكون فيها ؟ وأنت لا تعلم وإلى ربك منتهى أمرها ، وما أنت إلا نذير ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد .

تفسير سورة عبس

(١) « عَبَسَ وَتَوَلَّى »	(٢) « أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى »
(٣) « وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى »	(٤) « أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى »
(٥) « أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى »	(٦) « فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى »
(٧) « وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى »	(٨) « وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى »
(٩) « وَهُوَ يَخْشَى »	(١٠) « فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى »

فى هذه الآيات جميعاً يعاتب الله نبيه محمداً ﷺ فى أمر عبد الله ابن أم مكتوم .

وذلك — على ماروى المفسرون أن رسول الله ﷺ كان يناجى قوماً من أشراف قريش طمع صلوات الله عليه فى إسلامهم ، وهم عتبة بن ربيعة ، وأبو جهل ابن هشام ، وعباس بن عبد المطلب ، وأبى وأمية ابنا خلف .

فأقبل عبد الله بن أم مكتوم ، وقال : يارسول الله : علمنى مما علمك الله ، وجعل ينادى رسول الله ويكرر النداء، ولايدرى ابن أم مكتوم أن رسول الله مشتغل عنه بغيره حتى ظهرت الكراهة فى وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه معهم وقال فى نفسه :

يقول هؤلاء ، إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد، فعبس وأعرض عنه ،وأقبل على القوم الذين يكلمهم فنزلت هذه الآيات .

قال الثورى : فكان النبي ﷺ إذا رأى ابن أم مكتوم بعد ذلك يبسط له رداءه ويقول : «مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى » ثم يقول له « هل من حاجة » واستخلفه على المدينة مرتين فى غزوتين غزاهما . قال أنس : فرأيته يوم القادسية راكباً ، وعليه درع ، ومعه راية سوداء .

(١٧) « قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ »

روى أنها نزلت فى عتبة بن أبى لهب ، وكان قد آمن ، فلما نزلت « والنجم » ارتد وقال آمنت بالقرآن كله إلا النجم ، فأنزل الله جل ثناؤه فيه « قتل الإنسان » ودعا الرسول أن يبعث الله عليه كلباً ليأكله ، فبعث الله عليه أسداً فى إحدى سفراته فمزقه .

وكفره هنا : هو جحوده للنعم التى وجهه الله إليها فى بقية الآيات إذ خلقه ، ويسر له حياته ثم هو ينكر البعث ، ويصد عن السبيل ، ويضل بعد الهدى .

(٢٤) « فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ »

توجه الآيات نظر الإنسان إلى طعامه الذى رزقه الله وكيف لوّنه الخالق وخالف بينه ليمتع الإنسان ويغرقه فى نعمه ثم هو بعدها يكفر ولا يريد أن يشكر .

(٣٣) « فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ »

حين تقوم القيامة ويفر المرء من أبيه ، وينجو كلٌ بنفسه يخزى الله الكافرين فتسود وجوههم وينصر المؤمن فتشرق جباههم ضاحكة مستبشرة .

تفسير سورة التكوير

(١) « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » (٢) « وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ »
(٣) « وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ » (٤) « وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ »
(٥) « وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ » (٦) « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ »
(٧) « وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ » (٨) « وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ »
(٩) « بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ » (١٠) « وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ »
(١١) « وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ » (١٢) « وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ »
(١٣) « وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ » (١٤) « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ »

تحكى هذه الآيات جميعاً حديث البعث والحساب وذكر الجنة والنار. فإذا أصبحت الشمس كالكرة الساقطة من علاها، وإذا تناثرت النجوم، وسيرت الجبال فى الهواء وأهملت النوق العشار وهان المال على صاحبه، وجمعت الوحوش، وفاضت البحار، وزوجت النفوس فقرن القرين إلى قرينه، وسئلت الموءودة بأى ذنب قتلت، ونشرت صحائف الأعمال تمهيداً للحساب، وكشطت السماء من مكانها كما تكشط جلود الكباش، وزيد ضرام الجحيم، وقربت الجنة.

إذا حدث كل هــذا فإنها القيامة: يوم تعلم كل نفس ما قدمت وما أخرت، وما جاءت به معها من خير أو شر.

(١٥) « فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ » (١٦) « الْجَوَارِ الْكُنَّسِ »
(١٧) « وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ » (١٨) « وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ »
(١٩) « إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ » (٢٠) « ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ »
(٢١) « مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ » (٢٢) « وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ »

يقسم الله سبحانه بالكواكب الدرية الخمسة: زحل والمشترى وعطارد والمريخ والزهرة على ما ذكره المفسرون ثم يقسم بالليل فى أوله وآخره، وبالصبح إذا طلع يقسم بكل هذه الآيات التى خلقها وأبدعها أن القرآن حق نزل به جبريل عليه السلام على محمد صلوات الله عليه. وأن محمداً ليس بشاعر ولا بساحر ولا هو بمجنون.

(٢٣) « وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ » (٢٤) « وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ »
(٢٥) « وما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ » (٢٦) « فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ »
(٢٧) « إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » (٢٨) « لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ »
(٢٩) « ومَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »

تستكمل الآيات بقية حديث المولى عن القرآن فتؤكد أن محمداً ﷺ رأى جبريل فى صورته بالأفق المبين ، وما محمد ﷺ بمتهم فيما يخبر به من الغيب فأنتم تعرفون صدقه وأمانته ، وليس القرآن بقول شيطان رجيم ، وإذا كان القرآن حقاً فإن ماوعدكم به كله حق وما هو إلا ذكرى للعالمين .

تفسير سورة الانفطار

(١) « إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ » (٢) « وَإِذَا الكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ »
(٣) « وَإِذَا البِحَارُ فُجِّرَتْ » (٤) « وَإِذَا القُبُورُ بُعْثِرَتْ »
(٥) « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ »

فى هذه الآيات حديث القيامة والبعث فإذا تشققت السماء ، وتساقطت الكواكب ، وفجرت البحار بعضها فى بعض فصارت بحراً واحداً ، وبعثرت القبور فأخرج من فيها من أهلها أحياء إذا حدث هذا فإنه القيامة ، وعندها تعلم كل نفس بما قدمت وأخرت .

(٦) « يَأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ » (٧) « الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ »
(٨) « فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ »

فى هذه الآيات تقريع من المولى سبحانه للعبد على غفلته عما أنعم به عليه ، فقد صوره فأحسن صورته وكان قديراً على أن يمسخه فما الذى غره حتى يكفر ويشكر ؟

(٩) « كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ » (١٠) « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ »
(١١) « كِرَاماً كَاتِبِينَ » (١٢) « يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ »

تسجل الآيات تكذيب الكفار وإنكارهم البعث، ولن يستطيعوا يوم الحساب أن ينفصلوا من كفرهم لأن ثمة حفظة من الملائكة يكتبون ما يقولون ، ويحصون عليهم كل ما يعملون .

(١٣) « إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ » (١٤) « وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ »

هذا حديث الجزاء : أما الأبرار ففى نعيم ، وأما الفجار ففى الجحيم ، يصلونها ، ولا يستطيعون أن يفلتوا منها.

(١٥) « يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ » (١٩) « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ »

مابين الآيتين ختام كالابتداء بتأكيد البعث وحقيقة يوم الدين ، وقد أوجز القرآن التعبير عنه فى بيانه المعجز إذ قال : يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله .

تفسير سورة المطففين

(١) « وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ » (٢) « الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ »
(٣) « وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ »

فى هذه السورة كما قال « التهانوى » بيان حقوق الناس من أموالهم وأعراضهم وبيان تعظيم يوم مكافأة الحقوق . وقد نزلت فى قوم من أهل المدينة كانوا يطففون الكيل ، ولكنها عامة فى كل من يفعل ذلك ، والتطفيف أن تزيد الكيل إذ تشترى ، وتنقص وأنت تبيع .

(٤) « أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ » (٥) « لِيَوْمٍ عَظِيمٍ »
(٦) « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »

يعجب القرآن من أمر المطففين ، وكيف يغفلون عن يوم يبعثون فيه فيحاسبون .

(٧) « كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ »

فى هذه الآية وما بعدها بيان مصير الكفرة الفجرة ، حيث تطرح أرواحهم وكتب أعمالهم أسفل سافلين .

(١٤) « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »

عن رسول الله ﷺ قال : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكتة سوداء ، فإذا هو نزع واستغفر الله وتاب ، صقل قلبه فإن عاد زيد فيها ، حتى تعلو على قلبه ، فذلك (الران) الذى ذكر الله فى كتابه » .

(١٨) « كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ »

إذا كان كتاب الفجار فى أسفل سافلين ، فإن كتاب الأبرار فى عليين ، فى أسمى مراتب السمو فى الجنة

(٢٩) « إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ »

هذا يوم القصاص ، كان الكفار فى الدنيا يسخرون من الذين آمنوا ويتغامزون إذا مروا بهم . فاليوم يضحك منهم المؤمنون ويسخرون منهم سخرية أبدية وكان لابد من جزاء الكفار بما كانوا يفعلون .

تفسير سورة الانشقاق

(١) « إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ » (٢) « وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ »

(٣) « وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ » (٤) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ »

(٥) « وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ »

(٦) « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ »

إذا انشقت السماء تنفيذاً لأمر ربها ، وبسطت الأرض ودكت جبالها ، وأخرجت ما فى باطنها ، وسمعت أمر ربها « حق لها أن تسمع » فسترى يأيها الإنسان نتيجة ما كدحت فى الدنيا ، وليت كدحك وعملك كان لوجه الله.

(٧) « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ »

هذا جزاء المؤمنين يتسلمون كتبهم بأيمانهم ، فيحاسبون حساباً يسيراً ، ويرجعون إلى ذويهم مسرورين .

(١٠) « وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ »

أما الكافرون فتدفع إليهم كتبهم فى شمائلهم ، أو من وراء ظهورهم ليحاسبوا الحساب العسير ويصيحون بالويل والثبور ، ويقذفون فى عذاب السعير لأنهم لم يأخذوا من يومهم لغدهم وظنوا أن ينجوا فليأخذوا جزاء ما قدمت أيديهم .

(١٦) « فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ » (١٧) « وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ »

(١٨) « وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ » (١٩) « لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ »

يقسم سبحانه بحمرة الشفق التى تخلف الشمس عند المغيب ، وبالليل وما فيه من خفايا ، وبالقمر إذا استوى فى كبد السماء : « لتركبن طبقاً عن طبق » لتختلفن أموركم من حال إلى حال ، وما أكثر ما يعترى الإنسان من أحوال بين الميلاد والممات ، فليعتبر المكذبون بالقرآن ، وليؤمنوا به .

تفسير سورة البروج

(١) « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ » (٢) « وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ »
(٣) « وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ » (٤) « قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ »

مجمل السورة فى تثبيت المؤمنين ، وتصبيرهم على أذى أهل مكة وذلك بتذكيرهم بما جرى لمن قبلهم من أصحاب الأخدود ممن عذبوا فصبروا حتى يقتدوا بهم ، وقد أقسم سبحانه بكل ما ذكر أن ما سيأتى من ذكر أصحاب الأخدود حق لاريب فيه .

(٥) « النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ » (٦) « إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ »
(٧) « وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ »
(٨) « وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ »

الروايات فى أصحاب الأخدود كثيرة ومن العسير إيثار إحداها ، ومجمل حديثهم أنهم قوم من أهل الكتاب ضاق بهم ملكهم الكافر فأبى إلا أن يرتدوا إلى دينه ، أو يحفر لهم الأخدود ليحرقهم فيه ، فثبتوا فأحرقهم وكان رجاله يجلسون من حول الأخدود ليشهدوا تعذيبهم لا لذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الحميد .

(١٠) « إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ »

هذا هو انتقام الولى لأوليائه وكيف يخذلهم ، ولا ينتقم لهم ؟ .

(١٧) « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ » (١٨) « فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ »

وليس أصحاب الأخدود وحدهم الذين سيعذبهم الله لما فعلوا بالمؤمنين ، بل هنالك أيضاً فرعون وثمود ، ولقد أنزل الله من بطشه ما يتفق وما أنزلوه بالمؤمنين على أيامهم من بلاء : أو ما واجهوا به أنبياءهم من عناء .

تفسير سورة الطارق

(١) « وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ » (٢) « وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ »

(٣) « النَّجْمُ الثَّاقِبُ » (٤) « إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ »

يقسم سبحانه بهذا النجم الثاقب أن على كل نفس من الله حافظاً من ملائكته يحفظها مما يضرها ، وقيل أن الحافظ العقل يرشد الإنسان إلى ما فيه صلاحه .

(٥) « فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ » (٦) « خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ »

(٧) « يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ » (٨) « إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ »

(٩) « يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ » (١٠) « فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ »

توجيه للإنسان إلى أن يذكر أصل نشأته الضعيفة المهينة من ماء يخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة ، والقادر على إخراجه قادر على رجعه فى الختام يوم تمتحن القلوب وتختبر ، ويخرج المكنون ويفتضح المستور ، عندئذ لا يجد لنفسه قوة ولا يكون له من دون الله من ينصره ، فهلا عمل لذلك اليوم ؟ !

(١١) « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ » (١٢) « وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ »

(١٣) « إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ » (١٤) « وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ »

يقسم سبحانه بالسماء ذات المطر ، والأرض ذات النبات والثمر أن قول القرآن فصل ، وما هو بالهزل ، وفى الحديث : « كتاب فيه خبر ما قبلكم ، وحكم ما بعدكم هو الفصل ، ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله » .

(١٥) « إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا » (١٦) « وَأَكِيدُ كَيْدًا »

(١٧) « فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا »

دع الكافرين يا محمد ، واصبر على ما يقولون ، فإنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً فمهل الكافرين فإنما نمهلهم لنمد لهم فى العذاب مداً .

تفسير سورة الأعلى

(١) « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » (٢) « الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى »

(٣) « وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى »

اذكر الله ولا تغفل عن تسبيحه ، فهو الذى أحسن كل شىء خلقه ، وهو الذى قدر على عباده أقدارهم فهدى كل عبد منهم إلى ماقدر له من سعادة أو شقاء .

(٤) « وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى » (٥) « فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى »

وهو الذى خلق المرعى من النبات والكلأ ، أخضر فى بدايته مسوداً عند يبسه ونهايته .

(٦) « سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى » (٧) « إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى »

(٨) « وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى »

الخطاب للنبى ﷺ ولأمته من بعده ، سنقرئك القرآن ونعلمك أحكامه فلا تنس العمل به : إلا ماشاء الله أن ينسخ حكمه عنك وعن أمتك ، والله ميسرك وأمتك إلى مافيه الخير من الثبات على شريعة الإسلام .

(٩) « فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى » (١٠) « سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى »

(١١) « وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى » (١٢) « الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى »

(١٣) « ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى »

فى هذه الآيات جميعاً الأمر بالتذكير والعظة ثم فيها بيان لاختلاف حال الناس بين رجل يخاف الله فتفيده التذكرة ، وبين شقى حقت عليه النار فتجنب الناصحين .

(١٤) « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى » (١٥) « وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى »

تأكيد للفلاح من إذا ذكر الله نفعه تذكره ، وزكت نفسه وطهرت فأقبل على العبادة راضياً مطمئناً .

(١٦) « بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » (١٧) « وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى »

(١٨) « إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى » (١٩) « صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى »

هكذا الإنسان يصم أذنيه عن نداء الله ودعوة الحق مؤثراً غرور دنياه مع أن الآخرة خير له من الأولى .

تفسير سورة الغاشية

(١) « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ » (٢) « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ »

(٣) « عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ » (٤) « تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً »

(٥) « تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ » (٦) « لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ »

(٧) « لا يُسْمِنُ ولا يُغْنِي مِن جُوعٍ »

هذا حديث القيامة تغشى الخلائق بأهوالها وفظائعها : فإذا قامت فوجوه الناس نوعان : وجوه ذليلة كانت فى دنياها عاملة متعبة ، لم تذكر آخرتها ، ولم تقدم لها . فهى اليوم تصلى ناراً طال إحماؤها عبر السنين . فإذا ظمئت تسق من عين أشد حرارة ، ليس لأهلها طعام إلا الشوك ، لا يسمن ولا يغنى من جوع .

(٨) « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ » (٩) « لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ »

والنوع الثانى أصحاب الوجوه الناعمة الفائزة بالرضوان التى رضيت لما ظفرت بثواب سعيها .

(١٠) « فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ » (١٦) « وزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ »

فيا بين هاتين الآيتين وصف لنعيم الجنة الذى يلقاه أصحاب الوجوه الناعمة وأصحاب العمل الجيد فى الدنيا . جنة عالية ، لا صوت فيها يزعج تجرى الأعين فيا يحلو الشراب ، وتقام فيها السرر لراحة الأحباب ، والأكواب موضوعة ، والوسائد مصفوفة ، والبسط مفروشة ، كل شىء معد لسادة المتقين .

(١٧) « أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ » (١٨) « وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ »

(١٩) « وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ » (٢٠) « وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ »

يطالب الله الإنسان بالنظر فى كل ما وجهه إلى النظر فيه مما يقع عليه حسه . وتراه عينه، ويمكن أن يلمسه بيده ليدرك أن هذا كله بعض فضل الله وأثر من آثار قدرته .

(٢١) « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ » (٢٦) « ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم »

فيا بين هاتين الآيتين أمر للرسول بالتذكير ، وبيان أنه غير مسئول عنهم إلا بأن يبلغ ، أما الكفار المعرضون فالله كفيل بهم .

تفسير سورة الفجر

(١) « وَالْفَجْرِ » (٢) « وَلَيَالٍ عَشْرٍ »
(٣) « وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ » (٤) « وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ »
(٥) « هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ »

يقسم سبحانه بكل ما ذكر من الفجر ، والليال العشر من ذى الحجة ، والشفع فى الصلاة والوتر فيها ، وبالليل حين يسرى على الوجود كله .. يقسم بأن ما يقسم عليه وحدانية الخالق ، وصدق أنبيائه ، وصدق القرآن وإن لم يذكر هذا كله فإنه معروف لذى العقل واللب .

(٦) « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ »
(٧) « إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ » (٨) « الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ »
(٩) « وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ » (١٠) « وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ »
(١١) « الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ » (١٢) « فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ »
(١٣) « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ » (١٤) « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ »

يذكر الله الكفار والمشركين بما فعل فى الذين من قبلهم من عاد ، وثمود وفرعون ، وكل من على شاكلتهم ممن طغوا فى الأرض وأكثروا الفساد فيها فصب الله عليهم عذابه ، ولقد مضى من ذكر عاد ، وثمود وفرعون مالا حاجة بنا إلى إعادته فليلتمس فى مظانه .

(١٥) « فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ »
(١٦) « وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ »

بيان لبعض طبيعة الكفار والغافلين من بنى الإنسان فى أنهم يقيسون أقدار أنفسهم بحظوظهم من الدنيا ، إن افتنوا فيها ظنوا هذا من رضى الله عليهم وإن افتقروا حسبوه من غضبه عليهم .

(١٧) « كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ »
(١٨) « وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ »

(١٩) « وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا »

(٢٠) « وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا »

يرد القرآن على هؤلاء ، فيبين أن ما يناله الناس من غنى أو مايصابون به من فقر إنما هو من قدره وقضائه وفي الحديث : « إنى لا أكرم من أكرمته بكثرة الدنيا ، ولا أهين من أهنت بقلتها ، إنما أكرم من أكرمت بطاعتى وأهين من أهنت بمعصيتى .

(٢١) « كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا »

(٢٢) « وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا »

(٢٣) « وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى »

أن الغافل عن الحقيقة ومن يظن أن الغنى والفقر مقياس رضى الله إذا قامت القيامة سيتذكر ولكن ماذا تنفع الذكرى .

(٢٤) « يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي »

(٢٥) « فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ »

(٢٦) « وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ »

يا ليتنى قدمت ما ينجينى من النار ولكن هيهات فلا يعذب مثل الكافر ولا يوثق بالأغلال والسلاسل كما يفعل أحد من أهل الأرض .

(٢٧) « يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ »

(٢٨) « ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً »

(٢٩) « فَادْخُلِي فِي عِبَادِي »

(٣٠) « وَادْخُلِي جَنَّتِي »

توضح الآيات الفارق الشاسع بين الخوف والطمأنينة ، بين من عصى ففزع وبين من أطاع فرضى وأرضى ، وطمأن فاطمأن ، فما أحلى النداء ، ويا سعادة المنادى .

تفسير سورة البلد

(١) « لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ » (٢) « وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ »

(٣) « وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ » (٤) « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ »

يقسم سبحانه بالبلد الأمين والبلد الحرام مكة الذى شرفه الله بمكانة الرسول ﷺ فيه ويقسم بالوالد آدم وما ولد من الصالحين من ذريته وجواب القسم : أن الإنسان مخلوق فى شدة وعناء وهكذا حياته مابقى فى دنياه .

(٥) « أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ » (٦) « يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا »

(٧) « أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ »

أيظن ابن آدم أن لن نقدر على محاسبته وجزائه لأنه جمع مالا لايعد ، وعمل من الخطايا مالم يطلع عليه أحد .

(٨) « أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ » (٩) « وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ »

لو ظن ابن آدم أنا لانقدر عليه لكان واهما لأنه صنع أيدينا ، ونحن خلقناه وجعلنا له عينين يبصر بهما ولساناً ينطق به وشفتين يستر بهما ثغره فيمنعه من قول الحرام والزور . وإذا كان هو من صنعتنا أفلا نقدر عليه ؟ !

(١١) « فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ »

لقد هدينا ابن آدم طريق الخير والشر ودللناه عليهما بما أنزلنا من البينات وبمن أرسلنا من الرسل فهلا اهتدى بهدينا واستطاع اقتحام العقبة التى سنبينها له .

(١٢) « وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ » (١٣) « فَكُّ رَقَبَةٍ »

(١٤) « أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ » (١٥) « يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ »

(١٦) « أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ »

(١٧) « ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ »

هذا بيان العقبة التى أمر الإنسان باقتحامها فى الدنيا ووسائل اقتحامها هى إعتاق الرقاب الأسيرة ، وإطعام الفقير والمسكين واليتيم فى يوم يجوع فيه القادر وأن يكون من المؤمنين المتواصين بالصبر ورحمة خلق الله .

(١٨) « أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ » (١٩) « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ »

(٢٠) « عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ »

لو فعل عبدنا ما أمرنا لكان من أصحاب اليمين ، أما الكافرون فهم أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة تغلق عليهم النار لا يجدون عنها حولا .

تفسير سورة الشمس

(١) « وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا »

(٢) « وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا »

(٣) « وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا »

(٤) « وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا »

(٥) « وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا »

(٦) « وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا »

(٧) « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا »

(٨) « فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا »

يقسم الله سبحانه بالشمس ، وبالقمر ، وبالنهار ، وبالليل ، وبالسماء ، وبالأرض،وبالنفس التى سواها ، وألهمها خيرها وشرها ، يقسم على أن من زكى نفسه وعمل الخير فقد أفلح،ومن دساها وغمسها فى المعاصى فقد خسر وخاب.

(٩) « قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا »

(١٠) « وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا »

هذا جواب القسم الذى عرضه سبحانه فى صدر هذه السورة فكأنه قال : أقسم بكل ما ذكرت أن ما أقرره ى أمر المؤمنين والكافرين وفى أمر الطائعين والعصاة حق لا ريب فيه :

(١١) « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا »

(١٢) « إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا »

(١٣) « فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا »

(١٤) « فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا »

(١٥) « وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا »

هذا مثل لمن دسوا أنفسهم فى حمأة الكفر والعصيان فخابت أعمالهم ، وساءت عقباهم وهم قوم ثمود الذين أطغتهم قوتهم فكذبوا نبيهم صالحاً ، فلما جاءتهم الناقة آية مبصرة انبعث أشقاهم فعقرها ، فأهلكهم الله وسوى بهم الأرض جزاء ما أفسدوا . غير خائف عاقبة انتقامه منهم .

تفسير سورة الليل

(١) « وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى »
(٢) « وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى »
(٣) « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى »
(٤) « إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى »

يقسم سبحانه بالليل وبالنهار ، وبخلقه الذكر والأنثى ، وجواب القسم « إن سعيكم لشتى » أعمالكم فى الحياة مختلفة نساع فى سلامة نفسه وساع فى عطبها ، وفى الحديث : « الناس غاديان : فبتاع نفسه فمعتقها ، وبائع نفسه فموبقها » .

(٥) « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى »
(٦) « وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى »
(٧) « فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى »

هذا الساعى فى سلامة نفسه من أنفق المال فى حله ، واتقى الله فى قوله وعمله ، وآمن بالآخرة وصدق بالجنة نيسره لليسرى ونرشده لأسباب الصلاح والخير .

(٨) « وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى »
(٩) « وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى »
(١٠) « فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى »
(١١) « وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى »

وهذا الساعى فى عطب نفسه وإهلاكها من بخل بماله أن ينفقه حيث أمره الله ، واستغنى عن ربه كما سولت له نفسه ، وكذب بالآخرة ولم يصدق بالجنة فسيحول بينه وبين الإيمان ونسهل له طريق الشر ، وفى الحديث : « اللهم أعط منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكا تلفاً » فإذا سقط فى جهنم لا يغنى عنه ماله ، ولا ينجيه ما جمع .

(١٢) « إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى »
(١٣) « وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى »

لا حجة للمعذبين بذنوبهم لأن علينا أن نهديهم وقد دللناهم على الهدى فما اهتدوا ، وليس من ينصرهم من بأسنا فإن لنا للآخرة والأولى .

(١٤) « فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى »

(١٥) « لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الْأَشْقَى »

(١٦) « الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى »

وها نحن نحذركم وننذركم ناراً تلهب وتتوقد ، لا يجد حرها إلا الكافر الغوى الأشقى ، الذى كذب بمحمد وتولى معرضاً عن دعاء الله .

(١٧) « وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى »

(١٨) « الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى »

وسينجو منها من وفق لتقوى الله وطاعته ومن أعطى ماله وزكى به نفسه وطهرها .

(١٩) « وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى »

(٢٠) « إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى »

(٢١) « وَلَسَوْفَ يَرْضَى »

نزلت فى أبى بكر لما اشترى بلالا فأعتقه فقالوا : فعل ذلك ليد كانت لبلال عنده فكذبهم الله وأكد أنه لا يبغى إلا وجه ربه وحسبه وحسب كل عامل أن يرجو وجه الله .

تفسير سورة الضحى

(١) « وَالضُّحَى » (٢) « وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى »

(٣) « مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى »

يقسم الله بالضحى ، وبالليل إذا سكن أنه ما تخلى عن رسوله منذ أيده، وما أبغضه منذ أحبه كما زعم الزاعمون من الكفار حين انقطع الوحي عن الرسول ﷺ فترة .

(٤) « وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى » (٥) « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى »

وما عندى لك يا محمد فى الآخرة خير لك من الدنيا ، ولسوف يعطيك ربك ما لم يفصله هنا ، وما يعجز الخاطر عن تصوره فترضى بما أعطيت ، وتقول : رب رضيت .

(٦) « أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى »

ألم يجدك يتيما فآواك بعمك أبى طالب يرعاك ويكفلك ؟ أو قد رآك فريداً فآواك بأصحابك يحفظونك ويفتدونك بالأرواح والنفوس .

(٧) « وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى »

ووجدك غافلا عن حقيقة ما أعددت له فهداك إليه ، أو وجدك ضالا فى قومك ضائعاً فيهم فهداك إلى طريقة فعرفت بذا نفسك .

(٨) « وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى »

ووجدك فقيراً من المال فأغناك بالزواج من خديجة .

(٩) « فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ » (١٠) «وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ»

(١١) « وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ »

الخطاب للرسول وللجميع المؤمنين ، والمعنى تذكر يتمك فلا تقهر اليتيم وأوصى به أصحابك وأمتك ؛ وتذكر فقرك فلا تنهر السائل وارفق به وأوصى بالرفق به ، ثم تحدث بعد هذا بما أنعم الله عليك شاكراً لربك معترفاً بفضله .

تفسير سورة الشرح

(١) « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ »

قالوا : يارسول الله أينشرح الصدر ؟ قال : « نعم وينفسح » . قالوا : يارسول الله وهل لذلك علامة ؟ قال : « نعم التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاعتداد للموت قبل نزول الموت » .

(٢) « وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ » (٣) « الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ »

حططنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية مما أثقل ظهرك وأتعبه ، ومثله فى معناه قوله تعالى « ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر » .

(٤) « وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ »

فلا أذكر إلا وتذكر معى فى الآذان والإقامة ، والتشهد وعلى المنابر يوم الجمعة ، ويوم الفطر ، ويوم الأضحى ، ويوم عرفة ، وعلى الصفا والمروة وفى كل مكان يذكر الله فيه .

(٥) « فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » (٦) « إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا »

قال عليه السلام فى هذه السورة «لن يغلب عسر يسرين» وقال ابن مسعود « والذى نفسى بيده لو كان العسر فى جحر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه ، ولن يغلب عسر يسرين » .

(٧) « فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ » (٨) « وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب »

فإذا فرغت من الصلاة فبالغ فى الدعاء ، أو إذا فرغت من الفرائض فانصب فى قيام الليل ، أو إذا فرغت من الرسالة فبالغ فى الاستغفار . وارغب إلى ربك فى كل حال .

تفسير سورة التين

(١) « وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ » (٢) « وَطُورِ سِينِينَ » (٣) « وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ »

أقسم سبحانه بالتين الذى نأكل والزيتون الذى نعرف ونعتصر منه الزيت ، كما أقسم بجبل الطور الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام فى سيناء .

(٤) « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » (٥) « ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ »

هذا جواب القسم ، لقد خلقنا الإنسان سوياً معتدلا فى أحسن ماركب الله من صورة ثم رددناه فى خريف العمر إلى الهرم بعد الشباب ، وإلى الضعف بعد القوة .

(٦) « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ »

هؤلاء مستثنون من الرد إلى أرذل العمر وكأنه قيل إلا الذى آمن وعمل صالحاً فإنه لا يخرف ولا يهرم ، ولا يذهب عقل من كان عاملا بما علم . ويزكيه قول عكرمة « من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر » .

(٧) « فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ » (٨) « أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ »

أى إذا عرفت أيها الإنسان قدرة الله عليك فى حالتك فما يحملك على التكذيب البعث والجزاء ؟ أليس الله بأحكم الحاكمين ؟ بلى وأنا على ذلك من الشاهدين

تفسير سورة العلق

(١) « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » (٢) « خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ »

جمهور المفسرين على أنها أول ما نزل من القرآن ، والمعنى : اقرأ ما أنزل إليك من القرآن مفتتحاً باسم ربك بأن تذكر التسمية فى أول كل سورة ، اقرأ باسم ربك الذى خلق الإنسان من علقة مهينة وأنشأه منها حتى صار بشراً سوياً .

(٣) « اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ »

الكريم ، الحليم عن جهل عباده فيعفو بكرمه عنهم .

(٤) « الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ »

منّ الله على عباده أن علمهم بالقلم الخط والكتابة ،ورفع ذكر القلم إذ تحدث عنه هنا ، ومن قبل تحدث عنه وأقسم به فى سورة القلم ، وما ذاك إلا لبيان فضل القلم وأثره العظيم فى تكوين وترقية معارف الإنسان .

(٥) « عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »

قيل الإنسان هنا آدم لقوله « وعلم آدم الأسماء كلها » وقيل : الإنسان حيث كان لأنه أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً ثم علمه ما لم يكن يعلم .

(٦) « كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى » (٧) « أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى »
(٨) « إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى »

هكذا الإنسان عامة والكافر خاصة تطغيه النعمة ، ويبطره المال والأهل فينسى فضل ربه فلا يذكر ولا يشكر. وينسى فى عمايته أن إلى ربه الرجعى ليسأل فيجازى

(٩) « أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى » (١٠) « عَبْدًا إِذَا صَلَّى »

نزلتا فى أبى جهل حين قال : والله إن رأيت محمداً يصلى لأطأنّ عنقه .

(١١) « أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى » (١٢) « أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى »

(١٣) « أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى » (١٤) « أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى »

الخطاب لأبي جهل والمعنى أرأيت إن كان محمد على الهدى ويدعو إلى التقوى ألا تكون أنت بنهيه عنهما من الضلال الهالكين إذ كذب وتولى ، ونسى أن الله يطلع ويرى .

(١٥) « كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ » (١٦) « نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ »

(١٧) « فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ »

(١٨) « سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ »

ما بين الآيتين تهديد صريح لأبي جهل ولمن يقف مثل موقفه إن لم يكف لنأخذنه من ناصيته فلنذلنه بها فهي ناصية كذب وجهل وعدوان وخطيئة ، فليدع أبو جهل أهل ناديه من قريش فسندعو له زبانية ولينظر عمّ تنفرج .

(١٩) « كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ »

لا تطعه فترك الصلاة كما قال ، واسجد لربك واقترب إليه فإنه حسبك .

تفسير سورة القدر

(١) « إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ »

فى هذه الليلة أنزل القرآن وقد سبق القول فى بيان فضلها فلينظر فى موضعه .

وقد سميت ليلة القدر لأن الله يقدر فيها مايشاء من أمره إلى مثلها من السنة القابلة أو لأنه قد أنزل فيها الكتاب ذو القدر العظيم .

وقد اختلف العلماء فى تعيينها والجمهور على أنها ليلة السابع والعشرين من رمضان .

(٢) « وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ »

(٣) « لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ »

هى ليلة خير من ألف شهر فى الفضل وثواب العبادة .

(٤) « تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ »

فى هذا بيان لبعض أسباب تفضيلها إذ ينزل الملائكة ليلتها من كل سماء وجبريل بينهم فيؤمنّون على دعاء العباد حتى مطلع الفجر .

(٥) « سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ »

لا يقدّر فيها شر ، ولا يقوى الشيطان فيها على مؤمن أو مؤمنة ، هدانا الله إليها ، وجعلنا من شهودها .

تفسير سورة البينة

(١) « لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ »
(٢) « رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً » (٣) « فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ »

قال رسول الله ﷺ « لو يعلم الناس ما فى : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب) لعطلوا الأهل والمال فتعلموها » .

ومعنى هذه الآيات أن الكفار من أهل الكتاب والمشركين لم يكونوا منتهين عن كفرهم حتى يأتيهم محمد ﷺ يتلو عليهم صحفاً مطهرة مما ألحقوه بما عندهم من الزور والتخويف ، فيها كتب قيمة وأحكام محكمة مستقيمة ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً .

(٤) « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ »

ولقد كان أهل الكتاب مجتمعين ومتفقين على أن محمداً سيبعث استناداً إلى ما فى كتبهم عنه فلما بعث أنكروه وكذبوه وتفرقوا فى أمره .

(٥) « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ »

وما أمروا فى كتبهم إلا بما يأمرهم محمد ﷺ به من عبادة الله وحده مخلصين له الدين ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وذلك دين الفطرة السليمة والحنيفية القيمة المستقيمة .

(٦) « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ »

جزاء الكفار والمشركين من أهل الكتاب هو الخلود فى نار جهنم وأولئك شر الخلق جميعاً إذ كفروا بعد إيمان ، وكذبوا والحق عندهم وبين أيديهم .

(٧) « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ »
(٨) « جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ »

أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات وصدقوا بما أنزل على محمد ﷺ فأولئك هم خير الخلق ، وقد أعد الله لهم الجنة خالدين فيها أبداً ، ولقد رضى الله عنهم كما رضوا عنه وهنيئاً برضى الله لكل من خشى ربه .

تفسير سورة الزلزلة

(١) « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا »
(٢) « وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا »
(٣) « وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا »

هذا يوم القيامة ، « يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة » تنتفض الأرض فتخرج أثقالها ويبرز من جوفها الأموات كلهم أحياء ، فيقول الكافر ، أو يقول الإنسان وقد أخذه الذهول مما يرى : مالها ؟ وما الذى غير حالها ؟

(٤) « يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا »
(٥) « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا »
(٦) « يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ »

فى هذا اليوم تحدث الأرض بأخبارها وتشهد بما عمل على ظهرها من خير أو شر؟ قال رسول الله ﷺ وقد قرأ هذه الآية : « أتدرون ما أخبارها ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، تقول : عمل يوم كذا ، كذا وكذا ؛ فهذه أخبارها » .

عندئذ يصير الناس فرقاً : منهم أهل الميمنة يمضون إلى اليمين، ومنهم أهل المشأمة يمضون إلى الشمال ، ليروا جزاء أعمالهم .

(٧) « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ »
(٨) « وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »

روى المطلب بن حنطب : أن أعرابياً سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقرؤها فقال : يارسول الله : أمثقال ذرة ؟ قال « نعم » فقال الأعرابى : واسوأتاه ! ! قالها مراراً ، ثم قام وهو يقولها فقال النبى ﷺ « لقد دخل قلب الأعرابىَّ الإيمان » .

تفسير سورة العاديات

(١) « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا »
(٢) « فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا »
(٣) « فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا »
(٤) « فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا »
(٥) « فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا »

يقسم سبحانه بالخيل تعدو فى سبيل الله تضبح بصوتها وتورى النار بحوافرها ، وتصبح العدو بغارتها ، وتثير الغبار لشدة عدوها وكثرة عددها على أن ما سيخبر عنه حق صدق .

(٦) « إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ »
(٧) « وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ »
(٨) « وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ »

هذا جواب القسم وهو من بعض طبيعة الإنسان أنه كنود لربه كفور بنعمته عليه ، والله شهيد على هذا الخلق فيه ، ومن طبعه الإنسان أنه لحب المال لشديد فى حرصه عليه بخيل يبذله فى سبيل الله .

(٩) « أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ »
(١٠) « وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ »
(١١) « إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ »

أفلا يعلم هذا الإنسان إذا قامت القيامة وبعثر ما فى القبور من الخلق وحصل ما فى الصدور من الأعمال مميزاً خيرها من شرها أينفعه المال أم ينفعه ما حصل من ثواب ؟ . إن ربهم بهم يومئذ لخبير عالم لا تخفى عليه خافية فيجزيهم بما يعلم من أمرهم .

تفسير سورة القارعة

(١) « الْقَارِعَةُ » (٢) « مَا الْقَارِعَةُ » (٣) « وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ »

الساعة والقيامة سميت القارعة لأنها تقرع آذان الخلق بأهوالها وفظائعها ، وتكرار ذكرها والاستفهام عنها إنما يراد به التفخيم والتعظيم .

(٤) « يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ » (٥) « وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ »

إذا حدثت القارعة كان الناس كالفراش الذى يحوم حول النار والسراج لاضابط لحركتهم، ولا تهتدى مسيرتهم ، ويوم تكون الجبال كالصوف المنفوش ما أسرع ما يهيجه النسيم أو تذره الرياح .

(٦) « فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ » (٧) « فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ »

فأما من رجحت حسناته على سيئاته فهو فى عيشة جالبة للرضا والسرور .

(٨) « وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ » (٩) « فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ »

(١٠) « وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ » (١١) « نَارٌ حَامِيَةٌ »

وأما من رجحت سيئاته على حسناته فالهاوية وهى جهنم أمه إذ يأوى إليها وهى مأواه . وما أدراك ماهيه ؟ نار حامية أعاذنا الله .

تفسير سورة التكاثر

(١) « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ » (٢) « حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ »

شغلكم التباهى بعرض الدنيا من المال وعدد الرجال حتى زرتم المقابر لتعدوا من لكم فيها وتقولوا . . كان منا وكان . . فألهاكم هذا السخف عن طاعة الله . وقيل ألهاكم حرصكم على تكثير المال وجمعه فشغلتم به عن الدين ولم تفيقوا إلى ما ضيعتم حتى زرتم المقابر موتى خاسرين .

(٣) « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » (٤) « ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ »

« كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ » (٦) « لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ »

(٧) « ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ » (٨) « ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ »

فى هذه الآيات جميعاً ينكر القرآن عليهم أسلوبهم الذى سبق القول فيه ، وينذرهم ويهددهم بأنهم لا يعلمون ما ينتظر أمثالهم من الغافلين المشغولين بالدنيا ، ولو علموا مايراد لهم لرأوا الجحيم رؤيا العين ولعلموا أنهم مسئولون يومئذ عن نعيم الدنيا الذى يستزيدون منه فيلهيهم عن النعيم .

تفسير سورة العصر

(١) « وَالْعَصْرِ »

قيل المراد صلاة العصر أقسم بها إذ هي الوسطى التي أمر بالمحافظة عليها ، وقيل العصر هو الدهر والزمن أقسم به لما يكون فيه من أحداث وأحوال .

(٢) « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ »

هذا جواب القسم ، وقيل المراد بالإنسان هنا الكافر ، خسر نفسه وأهليه يوم القيامة والأصح أن المراد مطلق الإنسان بدون تقييد ، بدليل الاستثناء بعد ، ولو أراد الكافر وحده لما استثنى .

(٣) « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ »

استثقل هؤلاء من الحكم بخسرانهم لما توفر فيهم من الإيمان والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، وكل صفة فيهم ترجح ميزانهم وتعلي منازلهم .

تفسير سورة الهمزة

(١) « وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ »

الهمزة اللمزة : هم المشاءون بالنميمة بين الخلق ، المفسدون بين الأصفياء الملتمسون العيب فى الأبرياء ، وقيل : الهمزة : من يهمز بيده ، واللمزة من يعيب بلسانه .

(٢) « ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ » (٣) « يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ »

وجمله مبعث فخره ، ومجال حديثه وذكره ، لا يؤدى فيه حق الله ، فهو المناع للخير ، يظن حرصه على ماله سيبقيه ويخلده .

(٤) « كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ » (٥) « وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ »

(٦) « نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ » (٧) « الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ »

سينبذ الهمزة اللمزة فى نار تحطم كل ما يلقى إليها من شدة ما أوقد عليها ، وهى تطلع على أفئدتهم بعد أن تأكل سائر أجسادهم حتى إذا بلغت جمت بأمر الله ريثما يعودون خلقاً آخر فتعود تأكلهم من جديد .

(٨) « إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ » (٩) « فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ »

إنها مطبقة عليهم مغلقة من حولهم بعمد ممدة تحكم إغلاقها وتشد سجنهم فيها . أعاذنا الله .

تفسير سورة الفيل

(١) « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ »
(٢) « أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ » (٣) « وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ »
(٤) « تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِن سِجِّيلٍ » (٥) « فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ »

قصة أصحاب « الفيل » فى إيجاز شديد بنى كنيسة بصنعاء راغباً أن يصرف حج الناس إليها عن البيت الحرام، فعلم بذلك أحد العرب فدخلها وأحدث فيها حدثاً . فاستشاط أبرهة غضباً ، وحلف ليهدمن البيت الحرام ، واستاق جيشه يتقدمه فيل عظيم ، وبعث من رجاله من أغار على مكة واستاق إبلها وفيها مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم وهو يومئذ كبير قريش وسيدها .

ثم بعث أبرهة من رجاله من استحضر له سيد قريش وحارس البيت وهو عبد المطلب فاستأذن عبد المطلب عليه ليكلمه فلما رآه أبرهة أعظمه وأكبره فنزل عن سريره وجلس إلى جانبه ثم سأله حاجته . فقال عبد المطلب : حاجتى أن يرد الملك ما أخذ من إبلى .

فلما ترجمت لأبرهة رماه من عينيه وقال : كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى . أتكلمنى فى الإبل وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لأهدمه ؟ ! فقال عبد المطلب قولته الشهيرة : أما الإبل فهى لى . وأما البيت فله رب يحميه . قال أبرهة : ما كان ليحميه منى قال عبد المطلب : أنت وذاك . وانصرف وإبله ثم قصد البيت فتعلق بحلقة باب الكعبة ينشد :

يارب لا أرجو لهم سواكا يارب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا إنهم لن يقهروا قواكا

ثم خرجت قريش من وجه الجيش تتحرز فى شعب الجبال ، واستعد الجيش لمهمته فلما وجهوا الفيل صوب الكعبة برك ، فضربوه بالحديد فلم يقم ، فوجهوه من حيث أتى إلى اليمن فقام يهرول فوجهوه فى كل مكان فمضى إلا ناحية الكعبة .

ثم أرسل الله عليهم من ناحية البحر طيراً كالزرازير فى منقار الطائر حجر وفى رجليه حجران فصارت ترميهم لا تصيب واحداً منهم إلا هلك ، فهذه قصة الفيل وهذا تفسير سورته . والله أعلم .

تفسير سورة قريش

(١) « لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ »
(٢) « إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ »
(٣) « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ »
(٤) « الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ »

صلة هذه السورة بما قبلها وثيقة ، إذ فيها بيان نعمة الله على قريش إذ جعلهم أهل بيت عظيم أهلك الله تعالى من أهانه ، وألقى فى قلوب الناس حرمته . ولقد يشعر بعض المفسرين بقوة الصلة بين سورة الفيل وسورة قريش حتى ليعدونهما سورة واحدة لايفصلون بينهما ، فالذى أمن قريشاً وحماها — والبيت الحرام الذى كانت تعظمه — من الفيل هو الذى أمنها لتقوم برحلتى الشتاء إلى اليمن ، والصيف إلى الشام . لكى يرتزقوا ويستقروا ويتفرغوا لخدمة البيت ورعايته والله أعلم .

تفسير سورة الماعون

(١) « أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ » (٢) « فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ »
(٣) « وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ »

فى السورة كلها ذم خصال الكفار والمنافقين ، وعلامة تكذيبهم بالدين أنهم يدعون اليتيم وينهرونه فلايعطفون عليه ، ويكفون أيديهم عن الرحمة بالمسكين،ولو كانوا يصدقون بيوم الدين لأنفقوا وبذلوا واستيقنوا بالخلف والمثوبة.

(٤) « فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ » (٥) « الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ »
(٦) « الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ » (٧) « وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ »

فويل لهؤلاء ولمن على شاكلتهم ممن يغفلون عن الصلاة ويسهون عنها ، فإذا ذكروها أدوها كسالى ، وإن رأوا الناس نشطوا لها رياء ونفاقاً ، ثم هم كذلك يمنعون الماعون من كل مايحتاجه الجار من الجار أو يمنعون الزكاة ، أو يمنعون المال عن المحتاج والعاجز . وما يمنعهم عن بذل الخير إلا ضعف يقينهم بالله وضعف ثقتهم بما عنده .

تفسير سورة الكوثر

(١) « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ » (٢) « فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ »

(٣) « إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ »

نزلت فى العاص بن وائل السهمى ، وكان إذا ذكر رسول الله ﷺ قال : دعوه فإنما هو رجل أبتر لاعقب له — إذ كان ابنه ﷺ عبد الله قد مات — ولو هلك انقطع ذكره واسترحتم منه . فنزلت السورة .

أعطيناك الكوثر : أى الشىء الكثير الحظ ، العظيم القدر : وما أعطيه الرسول ﷺ : قيل هو نهر فى الجنة كما جاء فى الحديث ، وقيل كثرة الأصحاب والأتباع إلى يوم الدين ، وقيل : رفعة ذكره فى العالمين .. إلى آخره .

« فصل لربك وانحر » قيل : صل العيد ، ثم انحر الأضحية،وقيل:صل وارفع يديك إلى نحرك والأول أقرب.

« إن شانئك » أى مبغضك وعدوك والمستقصى لذكرك هو الأبتر . لا أنت وحسبك أن يدافع الله عنك .

تفسير سورة « الكافرون »

(١) « قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ » (٢) « لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ »

(٣) « وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » (٤) « وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ »

(٥) « وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » (٦) « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ »

قال ابن عباس : ليس فى القرآن أشد غيظاً لإبليس منها إذ كلها توحيد وبراءة من الشرك . وقال «التهانوى» فيها النبذ على السواء فى الدين لقطع الطمع عن التوافق فيه .

والسورة فى جملها تفصل فصلا حاسماً بين الإيمان والشرك ، ، وبين المؤمنين والمشركين ، لايعبدون مانعبد ، ولا نعبد مايعبدون . لهم دينهم ولنا هذا الدين .

تفسير سورة النصر

(١) « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ »

(٢) « وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً »

(٣) « فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً »

نزلت هذه السورة فى منى فى حجة الوداع فبكى عمر بن الخطاب والعباس عم النبى ﷺ فقيل لهما : ما يبكيكما واليوم يوم فرح فقالا : بل فيه نعى النبى ﷺ . فقال النبى ﷺ صدقتما « نُعيت إلىّ نفسى » . وروى أنه ﷺ لم يكن قط أشد اجتهاداً فى أمور الآخرة منه بعد نزولها .

والمعنى إذا نصرك الله وجاءك الفتح ، فأدم ذكره وتسبيحه إنه كان تواباً على المسبحين المستغفرين ، وإذا كان ﷺ يؤمر بأن يسبح ويستغفر فما بالنا ؟ ! لنا الله .

تفسير سورة المسد

(١) « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » (٢) « مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ »
(٣) « سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ » (٤) « وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ »
(٥) « فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ »

كما أمر الرسول ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين جمع إليه بنى عبد مناف وبنى عبد المطلب فقال : « أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقىّ ؟ » قالوا : ما جربنا عليك كذباً ، قال : « فإنى نذيرٌ لكم بين يدى عذاب شديد » فقال أبو لهب : تباً لك ! أما جمعتنا إلا لهذا ؟ ! فنزلت فيه السورة تدعو عليه بالهلاك ، وتنذره بأن ماله وما كسب لن يغنى عنه ، وتحكم عليه بالعذاب فى النار هو وامرأته التى كانت تمشى بالنميمة بين الناس وكان يقال لمن يتصف بذلك إنه يحطب على غيره فسميت حمالة الحطب .

وكانت تعير النبى ﷺ بالفقر ، بينما كانت هى تحتطب فى حبل من ليف مع كثرة مالها لشدة بخلها فرد عليها القرآن ما كانت تعير به الرسول ، وأبدلها الله به حبلا من نار جهنم .

تفسير سورة الإخلاص

(١) « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » (٢) « اللَّهُ الصَّمَدُ » (٣) « لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ »

(٤) « وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ »

هذه سورة التوحيد ، وفيها جماع أصل الدين ، والأحد الواحد الفرد ، والصمد الذى يقصد فى الحاجات وهو الدائم الباقى لم يزل ولا يزال « ولم يكن له كفواً أحد » ليس له شبيه ولا نظير وليس كمثله شىء .

عن الرسول ﷺ قال « والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن » .

تفسير سورة الفلق

(١) « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ »

(٢) « مِن شَرِّ مَا خَلَقَ »

أمر بالتعوذ برب الفلق وهو الصبح من شر ما خلق الله مما له شر .

(٣) « وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ »

والغاسق الليل إذا أظلم لأنه مجال لخروج ما يؤذى من الهوام أو من شرار الخلق .

(٤) « وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ »

أى من الساحرات اللاتى ينفثن فى عقد الخيط حين يعملن السحر عليها .

(٥) « وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ »

ومن شر كل من يتمنى زوال نعمة المحسود .

تفسير سـورة الناس

(١) « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ »

(٢) « مَلِكِ النَّاسِ »

(٣) « إِلَٰهِ النَّاسِ »

(٤) « مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ »

(٥) « الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ »

(٦) « مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ »

أمر بالاستعاذة بالله رب الناس وإلههم ومالكهم ، والتوكل عليه والالتجاء إلى حماه من كل شر مما يوسوس فى النفس ، أو يعمل فى الصدر إنساً كان أو جناً .

يقول صاحب « سبق الغايات فى نسق الآيات » :

« فانظر إليه سبحانه ، ما أعظم شأنه ، كيف ختم كتابه بذكر الأصول العظيمة ، لأن الدين كله هو الاعتقاد والعمل لا غير ، والأعمال يتوقف صدورها على سلامة البدن ، وسلامة النفس ، فوجب التوكل عليه سبحانه فى حفظهما من الشرور والبوائق .

فجمع الله تعالى العقائد الصحيحة كلها فى سورة « الإخلاص » ، وأمر بالتوكل عليه فى سلامة البدن فى سورة « الفلق » ، وفى سلامة النفس فى سورة « الناس » .

« بما ذكرتم أمر الدين والحمد لله رب العالمين ربنا أتمم لنـا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير ، وبالإجابة جدير» وصلى الله على سيدنا محمد المبعوث بجوامع الكلم ومنابع الحكم وعلى جميع الأنبياء والمرسلين .

والله وحده المسئول أن ينفع بهذا العمل ، وأن يثيب عليه ، وأن يجعل ما بذل فيه خالصاً لوجهه وابتغاء مرضاته إنه سميع قريب مجيب الدعوات ؟

مطابع سجل العرب

٩ شارع عماد الدين ـ المدخل من بستان الدكة ت ٩٢٣٦٠٦


الناشر
سجل العرب